

لابن ابی احمد

شرح مجمع البحار

مؤلف: میرزا محمد باقر
کتابت: چاپخانه مشرقی
تهران: قم، ۱۳۲۲

OLIN

DS

238

A6

S53

1980

jul. 9-10



7



IR-HK-85-931803

(V, 9-10)



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع

مؤسسة اسماعيليان

للطباعة والنشر والتوزيع

قم - ايران - تلفون ۲۵۲۱۲



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواعظ العبد

[ذكر أطراف مما شجر بين علي وعثمان في أثناء خلافته]

واعلم أن هذا الكتاب يستدعي منا أن نذكر أطرافاً مما شجر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته ؛ إذ كان هذا ^(١) الكلام الذي شرحناه من ذلك النمط ؛ والشئ يذكر بنظيره ؛ وعادتنا في هذا الشرح أن نذكر الشئ مع ما يناسبه ويقتضى ذكره .

وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب " أخبار السقيفة " : حدثني محمد بن منصور الرمادي ، عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زياد بن جبل ، عن أبي كعب الحارثي ^(٢) ؛ وهو ذو الإداوة ^(٣) . قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وإنما سمي ذا الإداوة لأنه قال : إني خرجت في طلب إبلٍ ضوالٍ ، فتزوّدت لبناً في إداوة ، ثم قلت في نفسي : ما أنصفتُ ربّي ! فأين الوضوء ؟ فأرقتُ اللبن وملأتها ماء ، فقلت : هذا وضوء وشراب ، وطففتُ أبغى إيلي ، فلما أردتُ الوضوء اصطببتُ من الإداوة ماء فتوضأت ، ثم أردتُ الشرب ، فلما اصطببتُها ؛ إذا لبن فشربت ؛ فمكثت بذلك ثلاثاً . فقالت

(١) انظر الجزء الثامن ص ٢٥٢ إلى ٢٦٢ في أخبار أبي ذر الغفاري وإخراجه إلى الرتبة وموقف عثمان وعلي منه .

(٢) أبو كعب الحارثي ، أورده ابن حجر في الإصابة ٤ : ١٦٥ ؛ ونقل خبره ، عن مصر في جامعه .

(٣) الإداوة ، بالكسر : إناء صغير من جلد .

له أسماء النحرانية : يا أبا كعب ، أحياناً كان أم حليماً^(١) ؟ قال : إنك لبطالة ، كان يعصم من الجوع ويروى من الظمأ ، أما إنني حدثت بهذا نفرأ من قومي ؛ منهم علي بن الحارث سيد بني قنان ؛ فلم يصدقني ، وقال : ما أظن الذي تقول كما قلت ! فقلت : الله أعلم بذلك . ورجعت إلى منزلي ، فبت ليلتي تلك ، فإذا به صلاة الصبح على بابي ، فخرجت إليه ، فقلت : رحمك الله ! لم تعنيت ؟ ألا أرسلت إلي فأتيتك ! فإني لأحق بذلك منك . قال : ما نمت الليلة إلا أنا أني أت فقال : أنت الذي تكذب من يحدث بما أنعم الله عليه ! قال أبو كعب : ثم خرجت حتى أتيت المدينة ، فأتيت عثمان بن عفان ، وهو الخليفة يومئذ ، فسألته عن شيء من أمر ديني ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، إنني رجل من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب ، وإنني أريد أن أسألك فأمر حاجبك ألا يحجبني ، فقال : يا وثاب إذا جاءك هذا الحارثي فأذن له . قال : فكنت إذا جئت ، فقرعت الباب ، قال : من ذا ؟ فقلت : الحارثي ، فيقول : ادخل ، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس ، وحوله نفر سكوت لا يتكلمون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فسألت ثم جلست ، فلم أسأله عن شيء لما رأيت من حالهم وحاله ، فبينما أنا كذلك إذ جاء نفر ، فقالوا : إنه أبي أن يجيء ، قال : فغضب وقال : أبي أن يجيء ! اذهبوا فجيئوا به ؛ فإن أبي فجرّوه جرّاً .

قال : فمكثت قليلاً فجاءوا ومعهم رجل آدم طوال أصلع ، في مقدّم رأسه شعرات ، وفي قفاه شعرات ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : عمار بن ياسر ، فقال له عثمان : أنت الذي تأتيناك رسلنا فتأبى أن تجيء ! قال : فكلّمه بشيء لم أدري ما هو ، ثم خرج . فما زالوا

(١) الحقين : اللبن الذي قد حقن في السماء لتخرج زبدته . والحليب : اللبن المحلوب الذي لم يتغير طعمه .

ينفضون من عنده حتى ما بقيَ غيري فقام ، فقلت : والله لا أسألُ عن هذا الأمر أحداً أقول حدثني فلان حتى أدري ما يصنع . فتبعته حتى دخل المسجد ، فإذا عمار جالس إلى سارية ، وحوله نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيكون ، فقال عثمان : يا واثاب على الشرط ، فجاءوا فقال : فرقوا بين هؤلاء ، ففرقوا بينهم .

ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم عثمان فصلى بهم ، فلما كبر قالت امرأة من حُجرتها: يا أيها الناس . ثم تكلمت ، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما بعثه الله به . ثم قالت : تركتم أمر الله ، وخالفتم عهده ونحو هذا ، ثم صمتت ، وتكلمت امرأة أخرى بمثل ذلك ، فإذا هما عائشة وحفصة .

قال : فسلم عثمان ، ثم أقبل على الناس ، وقال : إن هاتين لفئتان ، يحلّ لى سبهما ، وأنا بأصلهما عالم .

فقال له سعد بن أبي وقاص : أتقولُ هذا لحبائب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : وفيم أنت ! وما هاهنا ! ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه ، فأنسلَّ سعد .

فخرج من المسجد ، فاتبعه عثمان ، فلقى علياً عليه السلام بباب المسجد ، فقال له عليه السلام : أين تريد ؟ قال : أريد هذا الذي كذا وكذا - يعني سعدا يشتمه - فقال له علي عليه السلام : أيها الرجل ، دع عنك هذا . قال : فلم يزل بينهما كلام ، حتى غضبا ، فقال عثمان : أأست الذي خلقتك رسول الله صلى الله عليه وسلم له يوم تبوك ! فقال علي : أأست الفار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد !

قال : ثم حَجَزَ الناس بينهما . قال : ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة ، فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرٌّ ، ونشبوا في الفتنة ، وردّوا سعيد بن العاص فلم يدعوه يدخل إليهم . فلما رأيت ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومي .

وروى الزبير بن بكار في كتاب "الموفقيات" عن عمه ، عن عيسى بن داود، عن رجاله ، قال : قال ابن عباس رحمه الله : لما بنى عثمان داره بالمدينة ، أكثر الناس عليه في ذلك ، فبلغه ، فخطبنا في يوم الجمعة ؛ ثم صلى بنا ، ثم عاد إلى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد ؛ فإن النعمة إذا حدثت لها حساد حسبها ، وأعداء قدرها ؛ وإن الله لم يحدث لنا نعماً ليحدث لها حساد عليها ، ومنافسون فيها ، ولكنه قد كان من بناء منزلنا هذا ، ما كان إرادة جمع المال فيه ، وضم القاصية إليه ، فأتانا عن أناس منكم أنهم يقولون : أخذ فيئنا وأنفق شيئنا ، واستأثر بأموالنا ، يمشون خمرًا^(١) ، وينطقون سِرًّا ؛ كأننا غيب عنهم ، وكأنهم يهابون مواجهتنا ؛ معرفة منهم بدحوض حجتهم ؛ فإذا غابوا عنا يروح بعضهم إلى بعض يذكرونا . وقد وجدوا على ذلك أعوانا من نظرائهم ، ومؤازرين من شبائهم ، فبعداً بعداً ! ورغماً رغماً ! ثم أنشد بيتين كأنه يومئذ فيهما إلى على عليه السلام :

توقد بنارٍ أينما كنت واشتعل
فلست ترى مما تعالج شافياً
تشطّ فيقضي الأمر دونك أهله
وشيكا ، ولا تدعى إذا كنت نائياً

مالي ولنبيئكم وأخذ مالكم ! ألسنت من أكثر قريش مالاً ، وأظهرهم من الله نعمة ! ألم أكن على ذلك قبل الإسلام وبعده ! وهبوني بنيت منزلاً من بيت المال ؛ أليس هو لي ولكم ! ألم أقيم أموركم ، وإني من وراء حاجاتكم ! فما تفقدون من حقوقكم شيئاً ، فلم لا أصنع في الفضل ما أحببت ؛ فلم كنت إماماً إذا ! ألا وإن من أعجب العجائب ، أنه بلغني عنكم أنكم تقولون : لنفعلن به ولنفعلن ! فيمن تفعلون ، لله آباؤكم ! أبنقذ البقاع أم بققع القاع ، ألسنت أحراركم إن دعا أن يجاب ؛ وأقمناكم إن أمر أن يطاع !

(١) في المثل : « هو يدب له الضراء ، ويمشى له الحمر » ، يقال لمن ختل صاحبه .

لهني على بقائي فيكم بعد أصحابي ، وحياتي فيكم بعد أترابي ! ياليتني تقدمت قبل هذا ، لكنني لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لي عزَّ وجلَّ ؛ إذا شئتم فإنَّ الصادق المصدَّق محمداً صلى الله عليه وسلم قد حدَّثني بما هو كائن من أمري وأمركم ، وهذا بدء ذلك وأوله ، فكيف الهرب مما حتمَّ وقدر ! أما إنَّه عليه السلام قد بشرني في آخر حديثه بالجنة دونكم ، إذا شئتم فلا أفلح من ندم !

قال : ثمَّ همَّ بالنزول فبصر بعليَّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه عمَّار بن ياسر رضى الله عنه ، وناسٌ من أهل هواه يتناجون فقال : إيهًا إيهًا ! أسراراً لا جهاراً ! أما والذي نفسي بيده ما أحنق على جرّة ، ولا أوتى من ضعف مرّة ؛ ولولا النظري ولكم ، والرفق بي وبكم لعاجلتكم ؛ فقد اغتررتكم وأقلتم من أنفسكم .

ثم رفع يديه يدعو ويقول : اللهمَّ قد تعلم حبي للعافية فألبسنيها ، وإشاري للسلامة فأتنيها .

قال : فتفرَّق القوم عن عليَّ عليه السلام ، وقام عدى بن الحيار ؛ فقال : أتمَّ الله عليك يا أمير المؤمنين النعمة ، وزادك في الكرامة ، والله لأنَّ تحسُّد أفضل من أن تحسُّد ؛ ولأنَّ تنافس أجل من أن تنافس ! أنت والله في حسَبنا الصميم ، ومنصبنا الكريم ؛ إن دعوت أجبت ؛ وإن أمرت أطعت ، فقل نفعل ، وادعُ نُجَب ؛ جعلت الخيرة والشورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليختاروا لهم ولغيرهم ، وإنهم ليروْنَ مكانك ، ويعرفون مكان غيرك ؛ فاختاروك منييين طائعين ، غير مكرهين ولا مجبرين ، ماغيّرت ولا فارقت ، ولا بدّلت ولا خالفت ؛ فعلامَ يقدمون عليك ، وهذا رأيهم فيك ! أنت والله كما قال الأول :

اذهب إليك فما للحسو دِ إلا طلائبك تحت العثارِ

حكمت فما جُرْتُ في خَلَةٍ فحكمتك بالحق بادى المنار
فإن يسبعوك فسيراً وقد جهرت بسيفك كل الجهار^(١)

قال : ونزل عثمان فأتى منزله ، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس ، فلما أخذوا مجالسهم ،
أقبل على ابن عباس ، فقال : مالي ولكم يا ابن عباس ! ما أغراكم بي ، وأولعكم بتعقب
أمرى ! أتقيمون على أمر العالمه ! أتيت من وراء حقوقهم ، أم أمركم ، فقد جعلتهم
يتمنون منزلتكم ! لا والله لكن الحسد والبغى وتثوير الشر وإحياء الفتن ! والله لقد ألقى
النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، وأخبرني به عن أهله واحداً واحداً ، والله ما كذبت
ولا أنا بمكذوب .

فقال ابن عباس : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فوالله ما عهدتك جهراً بسرك ولا مظهراً
ما في نفسك ، فما الذى هيجك وثورك ! إنا لم يولعنا بك أمر ، ولم نتعقب أمرك بشيء ، أتيت
بالكذب ، وتسوق عليك بالباطل . والله ما نقمنا عليك لنا ولا للعامة قد أوتيت من وراء حقوقنا
وحقوقهم ، وقضيت ما يلزمك لنا ولهم ، فأما الحسد والبغى وتثوير الفتن ، وإحياء الشر
فمضى رضىت به عترة النبي وأهل بيته ! وكيف وهم منه وإليه ! على دين الله يثورون الشر ،
أم على الله يحيون الفتن ، كلاً ليس البغى ولا الحسد من طباعهم . فاتخذ يا أمير المؤمنين
وأبصر أمرك ، وأمسك عليك فإن حالتك الأولى خير من حالتك الأخرى ! لعمري أن
كنت لأثيراً عند رسول الله ، وأن كان ليفضى إليك بسرّه ما يطويه عن غيرك ، ولا كذبت
ولا أنت بمكذوب ؛ إخنس الشيطان عنك ، لا يركبك ، واغلب غضبك ولا يغلبك ، فما
دعاك إلى هذا الأمر الذى كان منك !

(١) يسبعونك : يشتمونك .

قال : دعاني إليه ابنُ عمِّك علي بن أبي طالب . فقال ابن عباس : وعسى أن يكذبَ مبلِّغُك ! قال عثمان : إنه ثقة ، قال ابن عباس : إنه ليس بثقةٍ مَنْ بَلَغَ وأغرى . قال عثمان : يا ابن عباس ، آله إنك ما تعلم من عليٍّ ما شكوتُ منه ؟ قال : اللهم لا إلا أن يقول كما يقول الناس ، وينقم كما ينقمون ؟ فمن أغراك به وأولئك بذكره دونهم ! فقال عثمان : إنما آفتي من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر ، وهو عليُّ ابن عمك ، وهذا والله كله من نكده وشؤمه . قال ابن عباس : مهلاً استثن يا أمير المؤمنين ، قل إن شاء الله ، فقال : إن شاء الله ، ثم قال : إني أنشدك يا ابن عباس الإسلام والرحم فقد والله غلبت وابتليت بكم ، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دوني فحملتموه عني ، وكنت أحد أعوانكم عليه إذاً والله لو جدتموني لكم خيراً مما وجدتمكم لي ، ولقد علمت أن الأمر لكم ، ولكن قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم ، فوالله ما أدري أَدفعوه عنكم أم دفعوكم عنه !

قال ابن عباس : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإننا ننشدك الله والإسلام والرحم ، مثل ما نشدتنا ، أن تُطمع فينا وفيك عدوًّا ، وتُشمت بنا وبك حسوداً ! إن أمرَكَ إليك ما كان قولاً ؛ فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا في يديك . وإنا والله لنخالفن إن خولفنا ، ولننازعن إن نوزعنا ؛ وما تمنيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ويعيب كما عابوا ! فأما صرف قومنا عنا الأمر فعن حسدٍ قد والله عرفته ، وبغى قد والله علمته ، فالله بيننا وبين قومنا ! وأما قولك : إنك لا تدري أَدفعوه عنا أم دفعونا عنه ؟ فلعمري إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلاً إلى فضائنا ولا قدراً إلى قدرنا وإنا لأهل الفضل وأهل القدر ، وما فضل فاضلٌ إلا بفضائنا ، ولا سبق سابق إلا بسبقنا ؛ ولولا هدينا ما اهتدى أحد ولا أبصرُوا من عمي ؛ ولا قصدوا من جور . فقال عثمان : حتى متى يا ابن عباس يأتيني عنكم ما يأتيني ! هبوني كنتُ بعيداً ؛ أما كان لي من الحق عليكم أن أراقب وأن أناظر ! بلى ، ورب النكبة ، ولكن الفرقه

سهلت لكم القول فيّ وتقدمت بكم إلى الإسراع إلى . والله المستعان .
 قال ابن عباس : مهلا ، حتى ألقى عليّا ثم أحل إليك على قدر ما رأى . قال عثمان :
 افعل فقد فعلت ، وطالما طلبت فلا أطلب^(١) ، ولا أجاب ولا أعتب .
 قال ابن عباس : فخرجت فلقيت عليا وإذا به من الغضب والتلظى أضعاف ما بعثمان ،
 فأردت تسكينه فامتنع ، فأتيت منزلي وأغلقت بابي ، واعتزلتهما .
 فبلغ ذلك عثمان فأرسل إلى ، فأتيته وقد هدأ غضبه ، فنظر إليّ ثم ضحك وقال :
 يا ابن عباس ؛ ما أبطأ بك عنا ! إن تركك العود إلينا لدليل على ما رأيت عند صاحبك ،
 وعرفت من حاله ، فالله بيننا وبينه ، خذ بنا في غير ذلك .

قال ابن عباس : فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن عليّ شيء فأردت التكذيب
 عنه يقول : ولا يوم الجمعة حين أبطأت عنا وتركك العود إلينا ! فلا أدري كيف أرد عليه .

وروى الزبير بن بكار أيضا في « الموفقيات » عن ابن عباس رحمه الله ، قال : خرجت
 من منزلي سحرا أسابق إلى المسجد وأطلب الفضيلة ، فسمعت خلفي حسا وكلاما ، فتسمعتُه ؛
 فإذا حس عثمان وهو يدعو ولا يرى أن أحدا يسمعه ، ويقول : اللهم قد تعلم نيتي فأعني
 عليهم ، وتعلم الذين ابتليت بهم من ذوى رحى وقرابتي ، فأصلحني لهم ، وأصلحهم لي .
 قال : فقضرت من خطوتي وأسرع في مشيته ، فالتقينا فسلم فرددت عليه ، فقال :
 إني خرجت ليلتنا هذه أطلب الفضل والمساواة إلى المسجد ، فقلت : إنه أخرجني
 ما أخرجك ، فقال : والله لئن سابت إلى الخير ، إنك لمن سابقين مباركين ، وإني
 لأحبكم وأتقرب إلى الله بحبكم ، فقلت : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ! إنا لنحبك
 ونعرف سابقتك وسنك وقرابتك وصهرك . قال : يا ابن عباس ، فما لي ولا بن عمك
 وابن خالي ! قلت : أي بني عمومتي وبني أخوالك ؟ قال : اللهم اغفر ! اتسأل مسألة الجاهل !

(١) فلا أطلب ، أي فلا أجاب إلى طلبي .

قلت: إن بني عمومتي من بني خؤولتك كثير؛ فأيهم تعني؟ قال: أعني علياً لا غيره. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما أعلم منه إلا خيراً ولا أعرف له إلا حسناً. قال: والله بالحرى أن يستردونك ما يظهره لغيرك، ويقبض عنك ما ينسبط به إلى سواك..

قال: ورؤينا بعمار بن ياسر، فسلم فرددت عليه سلامه، ثم قال: من معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعم، وسلم بكنيته، ولم يسلم عليه بالخلافة، فردّ عليه، ثم قال عمار: ما الذي كنتم فيه، فقد سمعت ذرواً^(١) منه؟ قلت: هو ما سمعت، فقال عمار: ربّ مظلوم غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنك من شئنا وأتباعهم، وإيم الله، إن اليد عليك لمنسطة، وإن السبيل إليك لسهلة، ولولا إثارة العافية؛ ولم الشعث لزجرتك زجرة تكفي ماضى، وتمنع مابقي.

فقال عمار: والله ما أعتذر من حبي علياً، وما اليد بمنسطة، ولا السبيل بسهولة؛ إني لازم حجة، ومقيم على سنة؛ وأما إثارة العافية ولم الشعث، فلازم ذلك. وأما زجرى فأمسك عنه، فقد كفأك معلّى تعليمي. فقال عثمان: أما والله إنك ما علمت من أعوان الشرّ الحاضين عليه، الخذلة عند الخير، والمثبطين عنه. فقال عمار: مهلاً يا عثمان، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يصفني بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلت عليه منصرفه عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد ألقى ثيابه، وقعد في فضله^(٢) فقبلت صدره ونحره وجبهته، فقال: «يا عمار، إنك لتحبنا وإنا لنحبك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبطين عن الشر». فقال عثمان: أجل ولكنك غيرت وبدلت. قال: فرفع عمار يده يدعو، وقال: آمّن يا ابن عباس، اللهم من غير فغير به! ثلاث مرات.

قال: ودخلنا المسجد، فأهوى عمار إلى مصلاه، ومضيت مع عثمان إلى القبلة،

(١) الذرو: الطرف من القول.

(٢) الفضل: الثوب يلبسه الرجل في بيته.

فدخل الخراب ، وقال : تلبث عليّ إذا انصرفنا ، فلما رآني عمّار وحدي أتاني ، فقال : أما رأيت ما بلغ بي آثا ! قلت : أما والله لقد أصعبت به وأصعب بك ، وإن له سنّه وفضله وقرابته ، قال : إن له لذلك ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه . وانصرف .

وصلى عثمان وانصرفت معه يتوكأ عليّ ، فقال : هل سمعت ما قال عمّار ؟ قلت : نعم ، فسرّني ذلك وساءني ، أمّا مسأته إياي فما بلغ بك ، وأمّا مسرّته لي فحلمك واحتمالك . فقال : إن عليا فارّقني منذ أيامٍ على المقاربة ، وإن عمّارا آتية فقائل له وقائل ؛ فابدره إليه ، فإنك أوثق عنده منه وأصدق قولاً ، فألقى الأمر إليه على وجهه ، فقلت : نعم .

وانصرفت أريد عليا عليه السلام في المسجد ، فإذا هو خارج منه ، فلما رآني تفجّع لي من فوّت الصلاة ، وقال : ما أدركتها ! قلت : بلى ولكنني خرجت مع أمير المؤمنين ، ثم اقتصصت عليه القصة ، فقال : أما والله يا بن عباس ، إنه ليقرف قرحةً ، ليحورن عليه ألمها^(١) . فقلت : إن له سنّه وسابقته ، وقرابته وصهره ، قال : إن ذلك له ؛ ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه .

قال : ثم رهقنا^(٢) عمّار فبشّ به عليّ ، وتبسّم في وجهه ، وسأله . فقال عمّار : يا بن عباس هل ألقيت إليه ما كنّا فيه ؟ قلت : نعم ؛ قال : أما والله إذا لقد قلت بلسان عثمان ، ونطقت بهواه ! قلت : ما عدوت الحقّ جهدي ؛ ولا ذلك من فعلي ؛ وإنك لتعلم أيّ الحظّين أحبّ إليّ ، وأيّ الحقّين أوجبّ عليّ !

قال : فظنّ عليّ أنّ عند عمار غير ما أقيمتُ إليه ، فأخذ بيده وترك يدي ، فعلمت أنّه يكره مكاني ، فتخلّفت عنهما ، وانشعب بنا الطريق ، فسلكاه ولم يدعني ، فانطلقتُ إلى منزلي ، فإذا رسول عثمان يدعوني ، فأتيته ، فأجد ببابه مروان وسعيد بن العاص ،

(١) يقال : قرف القرحة ، أي قشرها بعد يبسها ؛ وليحورن : ليرجعن .

(٢) رهقنا : غشنا .

في رجالٍ من بني أمية ، فأذن لي وألطفني ، وقرَّبني وأدَّني مجلسي ، ثم قال : ما صنعت ؟ فأخبرته بالخبر على وجهه وما قال الرجل ، وقلت له - وكتمته قوله : « إنه ليقرِّف قرحةً ليجورنَّ عليه أُلُمها » - إبقاء عليه ، وإجلالاً له ؛ وذُكرتُ بحجى عمار ، وبشٍّ على له ، وظنَّ على أن قبله غير ما ألقى عليه ، وسلوكهما حيث سلكا . قال : وفعلًا ؟ قلت : نعم ، فاستقبل القبلة ، ثم قال : اللهم ربَّ السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ؛ أصلح لي عليا ، وأصلحني له ! أمَّن يابن عباس ، فأمنت . ثم تحدَّثنا طويلا ، وفارقتُه وأتيت منزلي .

وروى الزبير بن بكار أيضا في الكتاب المذكور ، عن عبد الله بن عباس ، قال : ما سمعت من أبي شيثا قطَّ في أمر عثمان يلوِّمه فيه ولا يعذِّره ، ولا سألتُه عن شيء من ذلك مخافة أن أهجمُ منه على مالا يوافقه . فإنَّا عنده ليلةً ونحن نتعشى ، إذ قيل : هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب ، فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشه ، وأصاب من العشاء معه ، فلما رُفِعَ قام مَنْ كان هناك ، وثبتَّ أنا . فحمد عثمان الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا خُلُ ، فإنِّي قد جئتُك أستعذرك من ابن أخيك على ؛ سبني ، وشهرَ أمرى ، وقطع رَحِمى ، وطعن في ديني ؛ وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب ؛ إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه ، فقد تركتموه في يدي مَنْ فعلَ ذلك بكم ، وأنا أقرب إليكم رحما منه ؟ وما لمت منكم أحدا إلا عليا ، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه ، فتركته لله والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه .

قال ابن عباس : فحمد أبي الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا بني أختي ، فإن كنتَ لا تحمَد عليا لنفسِكَ فإنِّي لا أحمدك لعلِّي ، وما علىَّ وحده قال فيك ، بل غيره ؛ فلو أنك

اتهمت نفسك للناس ، اتهم الناس أنفسهم لك ؛ ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا ، فأخذت منهم وأخذوا منك ، ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : فذلك إليك يا خال ، وأنت بيني وبينهم . قال : أفأذكر لهم ذلك عنك ؟ قال : نعم ، وانصرف ؛ فما لبثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب ، قال أبي : انذروا له ، فدخل فقام قائماً ، ولم يجلس ، وقال : لا تعجل يا خال حتى أودنك ، فنظرنا فإذا مروان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول ، فأقبل على أبي ، وقال : يا بني ، ما إلى هذا من أمره شيء ، ثم قال : يا بني ، أملك عليك لسانك حتى ترى ما لا بد منه ؛ ثم رفع يديه ، فقال : اللهم أسبق بي ما لا خير لي في إدراكه . فما مرت جمعة حتى مات رحمه الله .

وروى أبو العباس المبرد في " الكامل " عن قنبر مولى علي عليه السلام قال : دخلت مع علي على عثمان ، فأحبنا الخلوة ، فأومأ إلى علي عليه السلام بالتنجى ، فتنحيت غير بعيد ، فجعل عثمان يعاتبه وعلى مطرق ، فأقبل عليه عثمان ، وقال : مالك لا تقول ! قال : إن قلت لم أقل إلا ماتكره ، وليس لك عندي إلا ماتحب .

قال أبو العباس : تأويل ذلك : إن قلت اعتددت عليك بمثل ما اعتددت به علي ، فلذعك عتابي ، وعقدى ألا أفعل - وإن كنت عاتبا - إلا ماتحب^(١) .

وعندي فيه تأويل آخر ؛ وهو : إني إن قلت واعتذرت فأى شيء حسنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدقاً ، ولم يكن إلا مكروها غير مقبول ؛ والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندي في باطني وما أطوى عليه جوانحي إلا ماتحب ، وإن كنت لا تقبل المعاذير التي أذكرها ، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها .

وروى الواقدي في كتاب "الشورى" عن ابن عباس رحمه الله، قال : شهدت عتاب عثمان لعل عليه السلام يوماً ؛ فقال له في بعض ما قاله : نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً ! فلهدي بك وأنت تطيع عتيقا وابن الخطاب طاعتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست بدون واحد منهما ؛ وأنا أمس بك رحما ، وأقرب إليك صهرا ؛ فإن كنت تزعم أن هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فقد رأيناك حين توفى نازعت ثم أقررت ، فإن كانا لم يركبا من الأمر جدّا ، فكيف أذعنت لهما بالبيعة ، وبجعت بالطاعة ؛ وإن كانا أحسنا فيما وليا ، ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي ؛ فكن لي كما كنت لهما .

فقال عليّ عليه السلام : أما الفرقة ، فمعاذ الله أن أفتح لها بابا ، وأسهل إليها سبيلا ؛ ولكنني أنهارك عما ينهارك الله ورسوله عنه ، وأهديك إلى رشدي ؛ وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذوا ما جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ، فأنت أعلم بذلك والمسلمون ، ومالي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين ! فأما ألا يكون حقّ بل المسلمون فيه شرع فقد أصاب السهم الثغرة ^(١) ؛ وأما أن يكون حقّ دونهم فقد تركته لهم ؛ طبت به نفسا ، ونفضت يدي عنه استصلاحا . وأما التسوية بينك وبينهما ؛ فلست كأحدهما ؛ إنهما وليا هذا الأمر ، فظلفا ^(٢) أنفسهما وأهلها عنه ، وعُمت فيه وقومك عوم السابح في اللجة ، فارجع إلى الله أبا عمرو ، وانظر هل بقي من عمرك إلا كظمء الحمار ^(٣) . فحتى متى وإلى متى ! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم ! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمهم مشتركا بينه وبينك .

قال ابن عباس : فقال عثمان : لك العتبي ، وافعل واعزل من عمالي كل من تكرهه

(١) الثغرة : نفرة النحر بين النرقوتين .

(٢) ظلفا أنفسهما ، أى كفا

(٣) يقال : ما بقى منه من ظمء الحمار ؛ أى لم يبق من عمره إلا اليسير ؛ لأنه ليس شيء أقصر ظمأ من الحمار والكلام على المثل .

ويكرهه المسلمون ؛ ثم افترقا ، فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك ، وقال : يجترئ عليك الناس ، فلا تعزل أحداً منهم !

وروى الزبير بن بكار أيضاً في كتابه ، عن رجال أسند بعضهم عن بعض ، عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، قال : أرسل إلى عثمان في الهجرة ^(١) ، فتقنعت بثوبي ، وأتيت ، فدخلت عليه وهو على سرير ، وفي يده قضيب ، وبين يديه مال دثر ^(٢) : صبرتان من ورقٍ وذهب ، فقال : دونك خذ من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني . فقلت : وصلتكَ رَحِم ! إن كان هذا المال ورثته أو أعطاك معطٍ ، أو اكتسبته من تجارة ؛ كنتُ أحدَ رجلين : إما آخذ وأشكر أو أوفر وأجهد ؛ وإن كان من مال الله وفيه حق المسلمين واليتيم وابن السبيل ؛ فوالله مالك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه . أبيت والله إلا ما أبيت . ثم قام إلى بالقضيب فضر بني ، والله ما أردّ يده ؛ حتى قضى حاجته ؛ فتقنعت بثوبي ، ورجعت إلى منزلي ، وقلت : الله بيني وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيت عن منكر !

وروى الزبير بن بكار ، عن الزهري ، قال : لما أتني عمرُ بجوهر كسرى ، وضع في المسجد ، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمر ، فقال لخازن بيت المال : ويحك ! أرخني من هذا ، واقسمه بين المسلمين ؛ فإن نفسي تحدّثني أنه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن قسمته بين المسلمين لم يسعهم ؛ وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم ؛ ولكن ندعه إلى قابل فعسى الله أن يفتح على المسلمين بماله فيشتريه منهم من يشتريه . قال : ارفعه فأدخله بيت المال ؛ وقتل عمر وهو بحاله ، فأخذه عثمان لما ولي الخلافة فحلى به بناته .

(١) الهجرة : نصف النهار في القيظ . (٢) الدثر : المال الكثير .

قال الزبير : فقال الزهري : كلُّ قد أحسن ؛ عمر حين حَرَمَ نفسه وأقاربه ، وثمان حين وصل أقاربه .

قال الزبير : وحدَّثنا محمد بن حرب ، قال : حدَّثنا سفيان بن عيينة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، قال : جاء رجل إلى عليّ عليه السلام يستشفع به إلى عثمان ، فقال : حال الخطايا ! لا والله لا أعود إليه أبدا . فأيسه منه .

وروى الزبير أيضا ، عن سداد بن عثمان ، قال : سمعت عوف بن مالك في أيام عمر ، يقول : ياطاعون خذني ، فقلنا له : لم تقول هذا ؛ وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن المؤمن لا يزيده طول العمر إلا خيرا» ! قال : إني أخاف سبّا : خلافة بني أمية ، وإمارة السفهاء من أحداثهم ، والرّشوة في الحكم ، وسفك الدم الحرام ، وكثرة الشرط ، ونشأ ينشأ يتخذون القرآن مزامير .

وروى الزبير عن أبي غسان ، عن عمر بن زياد ، عن الأسود بن قيس ، عن عبيد بن حارثة ، قال : سمعت عثمان وهو يخطب ، فأكبّ الناس حوله ، فقال : اجلسوا يا أعداء الله ! فصاح به طلحة : إنهم ليسوا بأعداء الله ؛ لكنهم عباده ؛ وقد قرءوا كتابه .

وروى الزبير ، عن سفيان بن عيينة ، عن إسرائيل عن الحسن ، قال : شهدت المسجد يوم الجمعة ، فخرج عثمان ، فقام رجل ، فقال : أنشد كتاب الله ! فقال عثمان : اجلس ؛ أما لكتاب الله ناشد غيرك ! فجلس ، ثم قام آخر فقال مثل مقالته ، فقال : اجلس ، فأبى

أن يجلس ، فبعث إلى الشرط ليُجسّوه ، فقام الناس فخالوا بينهم وبينه ، قال : ثم تراموا بالبطحاء ؛ حتى يقول القائل : ما أ كاد أرى أديم السماء من البطحاء .
فنزّل عثمان ، فدخل داره ولم يصل الجمعة .

[فصل فيما مشجّر بين عثمان وابن عباس من الكلام بحضرة عليّ]

وروى الزبير أيضا في " الموفقيات " ، عن ابن عباس رحمه الله ، قال : صلّيت العصر يوما ، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان في أيام خلافته في بعض أزقة المدينة وحده ، فأتيته إجلالا وتوقيرا لمكانه ، فقال لي : هل رأيت عليّا ؟ قلت : خلفته في المسجد ، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله ؛ قال : أما منزله فليس فيه فابغّه^(١) لنا في المسجد . فتوجّهنا إلى المسجد ، وإذا عليّ عليه السلام يخرج منه . قال ابن عباس : وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ فذكر عثمان وتجرّمه عليه ، وقال : أما والله يا ابن عباس إن من دوائه لقطع كلامه ، وترك لقائه . فقلت له : يرحمك الله ! كيف لك بهذا ! فإن تركته ثم أرسل إليك فما أنت صانع ؟ قال : أعتلّ ؛ وأعتلّ ؛ فمن يقسّرني^(٢) ! قال : لا أحد .

قال ابن عباس : فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد ، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان ، فنظر إلى عثمان ، وقال : يا ابن عباس ، أما ترى ابن خالنا يكره لقاءنا فقلت : ولم وحقك ألزم ، وهو بالفضل أعلم . فلما تقاربا رماه عثمان بالسّلام ، فردّ عليه ، فقال عثمان : إن تدخل فيّ أياك أردنا ، وإن تمض فيّ أياك طلبنا . فقال عليّ : أيّ ذلك أحببت ؟ قال : تدخل ، فدخل وأخذ عثمان بيده ، فأهوى به إلى القبلة ، فقصر عنها ، وجلس قبالتها ، فجلس عثمان إلى جانبه ، فنكصتُ عنهما ، فدعوانى جميعا ، فأتيتهما ، فحمد عثمان الله ، وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ، ثم قال : أما بعد يا بني خاليّ وابنّي

(١) ابغّه : اطلبه .

(٢) كذا في د ، وفي ب : « يضرنّي » .

عمي ؛ فإذا جمعتكما في النداء فاستجمعكما في الشكاية عن رضائي على أحكما ، ووجدى على الآخر . إني أستعذركما من أنفسكما ، وأسألكما فيئتكما ، وأستوهبكما رجعتكما ؛ فوالله لو غالبني الناس ما انتصرت إلا بكما ، ولو تهضموني ما تعزّزت إلا بعزكما . ولقد طال هذا الأمر بيننا حتى تخوّفت أن يجوز قدره ، ويعظم الخطر فيه ؛ ولقد هاجني العدو عليكما ، وأغرائي بكما ؛ فمنعني الله والرحيم مما أراد ، وقد خلونا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى جانب قبره ؛ وقد أحببت أن تظهر إلى رأيكما في ، وما تنطويان لي عليه وتصدّقا ؛ فإن الصدق أنجى وأسلم ؛ وأستغفر الله لي ولكما .

قال ابن عباس : فأطرق عليّ عليه السلام ، وأطرقت معه طويلا ؛ أمّا أنا فأجلّته أن أتكلّم قبله ، وأمّا هو فأراد أن أجيب عني وعنه . ثم قلت له : أتتكلّم أم أتكلّم أنا عنك ؟ قال : بل تكلم عني وعنك . فحمدت الله ، وأثنيت عليه ، وصليت على رسوله ، ثم قلت : أمّا بعد يا بن عمّنا وعمّتنا ، فقد سمعنا كلامك لنا ، وخلطك في الشكاية بيننا على رضاك - زعمت - عن أحدنا ووجدك على الآخر ، وسنفعل في ذلك ، فنذمك ونحمدك ، اقتداء منك بفعلك فينا ؛ فإننا نذم مثل تهمتك إيانا على ما تهمتنا عليه بلا ثقة إلا ظنا ؛ ونحمد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتك ، ثم نستعذرك من نفسك استعذارك إيانا من أنفسنا ، ونستوهبك فيئتك استيهابك إيانا فيئتنا ، ونسألك رجعتك مسألتك إيانا رجعتنا ؛ فإننا معاً أيما حمدت وذممت منا ، كمثلك في أمر نفسك ؛ ليس بيننا فرق ولا اختلاف ؛ بل كلانا شريك صاحبه في رأيه وقوله . فوالله ما تعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك ، ولا تعرفنا غير قاتنين عليك ، ولا تجدنا غير راجعين إليك ؛ فنحن نسألك من نفسك مثل ما سألتنا من أنفسنا . وأمّا قولك : لو غالبني الناس ما انتصرت إلا بكما ، أو تهضموني ما تعزّزت إلا بعزكما ، فأين بنا وبك عن ذلك ؛ ونحن وأنت كما قال أخو كنانة :

بدا بُحْتَرُ مارام نال وإن يُرَمَّ نَحْضُ دونه غمراً من الغرِّ رائمه
لنا ولهم منا ومنهم على العدى مراتب عزٍّ مصعداتٍ سلامه
وأما قولك في هَيْج العدوِّ إياك علينا ، وإغرائه لك بنا ، فوالله ما أتاك العدو من ذلك
شيئاً إلا وقد أتانا بأعظم منه ؛ فمنعنا مما أرادَ مامنعك من مراقبة الله والرحم ؛ وما أبقيت
أنت ونحن إلا على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا ؛ ولقد لَعِمْرِي طال بنا وبك هذا الأمر حتى
تخوفنا منه على أنفسنا ، وراقبنا منه مراقبت .

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك ، وما نطوى عليه لك ؛ فإنا نخبرك أن ذلك إلى
ما تحب ؛ لا يعلم واحدٌ منا من صاحبه إلا ذلك ، ولا يقبل منه غيره ، وكلانا ضامنٌ على صاحبه
ذلك وكفيلٌ به ؛ وقد برأت أحداً وزكيت ، وأنطقت الآخر وأسكتته ، وليس السقيم
مِنَّا مما كرهت بأنطق من البرى فيما ذكرت ، ولا البرى مِنَّا مما سخِطت بأظهر من السقيم
فيما وصفت ؛ فإما جمعتنا في الرضا ، وإما جمعتنا في السخط ؛ لنجازيك بمثل ما تفعل بنا في ذلك ؛
مكايلة الصاع بالصاع ؛ فقد أعلمناك رأينا ، وأظهرنا لك ذات أنفسنا ، وصدقناك ؛ والصدق
كما ذكرت أنجبى وأسلم ، فأجب إلى مَادَعَوْتَ إليه ، وأجلل عن النقض والغدر مسجداً
رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضع قبره ، وصدق تنجُ وتسلم ، ونستغفر الله لنا ولك .

قال ابن عباس : فنظر إلى علي عليه السلام نظرَ هَيْبَةٍ ، وقال : دَعُهُ حَتَّى يَبْلُغَ رِضَاهُ
فِيما هُوَ فِيهِ ، فوالله لو ظهرت له قلوبنا ؛ وبدت له سرائرنا ؛ حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ
عنها بأذنه ، مازال متجرباً ما منتقماً ، والله ما أنا ملقٍ على وَضْمَةٍ^(١) ؛ وإني لما نعت ما وراء ظهري ؛
وإن هذا الكلامُ لخالفَةٌ منه وسوء عشرة .

فقال عثمان : مهلاً أبا حسن ! والله إنك لتعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفني

(١) الوضْمُ في الأصل : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ؛ وفي المثل : « تركهم لهما على وضْم » ، أي
أوقع بهم فأوجعهم .

بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده : « إن من أصحابي لقوماً سالمين لهم ، وإن عثمان منهم ؛ إنه لأحسنهم بهم ظناً ، وأنصحهم لهم حبا » . فقال على عليه السلام : فصدق قوله صلى الله عليه وسلم بفعلك . وخالف ما أنت الآن عليه ؛ فقد قيل لك ماسمعت وهو كافٍ إن قبلت . قال عثمان : تنق يا أبا الحسن ! قال : نعم أثق ولا أظنك فاعلا ، قال عثمان : قد وثقت وأنت ممن لا يخفرُ صاحبه ، ولا يكذب لقيه .

قال ابن عباس : فأخذتُ بأيديهما ؛ حتى تصالحا وتصالحا وتمازحا ، ونهضت عنهما ؛ فتشاورا وتآمرا وتذاكرا ؛ ثم افترقا ؛ فوالله ما مرت ثلاثة حتى لقيتني كل واحدٍ منهما يذكر من صاحبه مالا تبركُ عليه إلا بل . فعلمتُ أن لا سبيل إلى صلحهما بعدها .

وروى أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب " أخبار السقيفة " عن محمد بن قيس الأسدي ، عن المعروف بن سويد ؛ قال : كنت بالمدينة أيام بويع عثمان ، فرأيت رجلاً في المسجد جالسا ، وهو يصفن^(١) بإحدى يديه على الأخرى ، والناس حوله ، ويقول : واعجباً من قريش واستشارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت ، معدن الفضل ، ونجوم الأرض ، ونور البلاد ! والله إن فيهم لرجلاً مارأيت رجلاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى منه بالحق ، ولا أقضى بالعدل ، ولا آمر بالمعروف ، ولا أنهي عن المنكر ، فسألت عنه فقل : هذا المقداد ؛ فتقدمت إليه ، وقلت : أصلحك الله ! من الرجل الذي تذكر ؟ فقال : ابن عم نبيك رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب !

قال : فلبثتُ ماشاء الله . ثم إنني لقيت أباذرٍّ رحمه الله ، فحدثته ما قال المقداد ، فقال : صدق ؛ قلت : فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم ! قال : أبى ذلك قومهم ، قلت : فما يمنعكم أن تعينوهم ! قال : مه لا تقل هذا ، إياكم والفرقة والاختلاف !

(١) يصفن : يضرب .

قال : فسكت عنه ، ثم كان من الأمر بعد ما كان .

وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان أن عليا اشتكى ، فعاده عثمان من شكايته ؛ فقال علي عليه السلام :

وعائدة تعود لغير ودّ تودّ لو أن ذا دنف يموت

فقال عثمان : والله ما أدري أحيأتك أحبّ إلى أم موتك ! إن ميت هاضى فقدك ، وإن حييت فتنتني حياتك ، لا أعدي ما بقيت طاعنا يتخذك دريئة يلجأ إليها .

فقال علي عليه السلام : ما الذي جعلني دريئة للطاعنين العائنين ! إنما سوء ظنك بي أحلني من قلبك هذا الحلّ ، فإن كنت تخاف جانبي فلك علي عهد الله وميثاقه أن لا بأس عليك مني ، ما بلّ بحر صوفه ، وإني لك لراع ، وإني منك لحام ؛ ولكن لا ينفعني ذلك عندك . وأما قولك : « إن فقدى يهيضك » ، فكلاً أن تهاض لفقدى ما بقي لك الوليد ومروان .

فقام عثمان فخرج .

وقد روى أن عثمان هو الذي أنشد هذا البيت ؛ وقد كان اشتكى ، فعاده علي عليه السلام فقال عثمان :

وعائدة تعود بغير نصح تودّ لو أن ذا دنف يموت

وروى أبو سعد^(١) الآبي في كتابه عن ابن عباس ، قال : وقع بين عثمان وعلي

(١) هو أبو سعد زين الكفاءة منصور بن الحسين الآبي ؛ وزير مجد الدولة رستم بن نضر الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، صاحب كتاب نثر الدرر في المحاضرات .

عليه السلام كلام ، فقال عثمان : ما أصنع إن كانت قريش لا تحبكم ، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين ، كأن وجوههم شفوف الذهب ، تصرع أنفهم قبل شفاههم !

وروى المذكور أيضا أن عثمان لما نقم الناس عليه ما نقيموا ، قام متوكئا على مروان فخطب الناس ؛ فقال : إن لكل أمة آفة ، ولكل نعمة عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة قوم عيابون طعانون ، يظهرُونَ لكم ماتحِبُّون ، ويسرُّون ماتكرهون ؛ طغَام مثل النعام ، يتبَعُونَ أوَّل ناعق ، ولقد نَقِمُوا على ما نَقِمُوا على عمر مثله ، فقمعهم ووقمهم ^(١) وإنِّي لأقربُ ناصرا ، وأعزُّ نفرا ، فإلى لأفعلُ في فضول ^(٢) الأموال ما أشاء !

وروى المذكور أيضا أن عليا عليه السلام اشتكى فعاده عثمان ، فقال : ما أراك أصبحت إلا ثقيلا ! قال : أجل ، قال : والله ما أدري أموتك أحبَّ إلى أم حياتك ! إنِّي لأحبُّ موتك ، وأكره أن أعيش بعدك ، فلوشئتَ جعلتَ لنا من نفسك مخرجا ، إما صديقا مسالما وإما عدوا مغالبا ، وإنك لـكما قال أخو إياي : ^(٣) .

جَرَّتْ لما بيننا جبلُ الشَّموسِ فلا يأسا مينا نرى منها ولا طمعا
فقال على عليه السلام : ليس لك عندي ماتخافه ، وإن أجبتك لم أجبك إلا بماتكرهه .

وكتب عثمان إلى علي عليه السلام حين أحيط به ، أما بعد : فقد جاوز الماء الزّبي ، وبلغ الحزام الطّيبين ، وتجاوز الأمر في قدره ، فطمع فيّ من لا يدفع عن نفسه .

(١) وقمهم : أذلهم .

(٢) فضول الأموال : الزائدة عن الحاجة .

(٣) هو لقيط بن يعمر الإيادي .

(٤) من قصيدة ينذر بها قومه غزو كسرى . إيأهم ؛ وأولها :

يَا دَارَ عَمْرَةٍ مِنْ مُحْتَلِّهَا أُجْرَعَا هَاجَتْ لِي أَلْهَمَ وَالْأَحْزَانُ وَالْوَجَعَا

في مختارات ابن الشجري ١ - ٦ .

فَإِنْ كُنْتُ مَا كَوَلَّافَكَ خَيْرَ كُلِّ وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أَمَزَقَ^(١)

وروى الزبير خبر العيادة على وجه آخر قال : مرض عليّ عليه السلام ، فعاده عثمان ومعه مروان بن الحكم ، فجعل عثمان يسأل عليّاً عن حاله ، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه ، فقال عثمان : لقد أَصْبَحْتُ يَا أَبَا الْحَسَنِ مَنِيَّ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ الْعَاقِ لِأَبِيهِ ! إِنْ عَاشَ عَقَّهْ ، وَإِنْ مَاتَ فَجَعَلَهُ ؛ فَلَوْ جَعَلْتَ لَنَا مِنْ أَمْرِكَ فَرَجًا ، إِمَاعِدُوًّا أَوْ صَدِيقًا ؛ وَلَمْ تَجْعَلْنَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ . أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَنَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ؛ وَإِنْ قَتَلْتُ لَا تَجِدُ مِثْلِي ، فَقَالَ مَرْوَانُ : أَمَّا وَاللَّهِ لَا يُرَامُ مَاورَاءَ نَهْ حَتَّى تَتَوَاصَلَ سَيُوفُنَا ، وَتَقْطَعَ أَرْحَامُنَا .

فالتفت إليه عثمان ، وقال : اسكتْ لاسكتْ ! وما يُدْخِلُكَ فِيمَا بَيْنَنَا !

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ ، عن زيد بن أرقم ؛ قال : سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام : أَنْكَرْتُ عَلَيَّ اسْتِعْمَالَ مَعَاوِيَةَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عَمْرَأً اسْتَعْمَلَهُ ! قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَشَدْتُكَ اللَّهُ ! أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ أَطْوَعَ لِعَمْرِ مِنْ يَرْفَأُ غَلَامَهُ ! إِنْ عَمْرُكَ إِنْ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا وَطَىءَ عَلَى صِمَاحِهِ ؛ وَإِنَّ الْقَوْمَ رَكِبُوكَ وَغَلَبُوكَ وَاسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَكَ . فَسَكَتَ عُمَانُ .

[أسباب المنافسة بين عليّ وعثمان]

قلت : حدثني جعفر بن مكى الجاحب رحمه الله ، قال : سألت محمد بن سليمان حاجب الحجاب ، - وقد رأيت أنا محمداً هذا ، وكانت لي به معرفة غير مستحكمة ، وكان ظريفاً

(١) البيت للمزق العبدى ، والخبر فى الكامل ١ : ١٧

أديبا ، وقد اشتغل بالرياضيات من الفلسفة ، ولم يكن يتعصب لمذهب بعينه - قال جعفر : سألتُ عما عنده في أمر عليّ وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم ، وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان يحسد محمداً صلى الله عليه وآله وحاربه ، ولم تزل الثنتان متباغضتين وإن جمعتهما المناقبة . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج عليا بابنته ، وزوج عثمان بابنته الأخرى ؛ وكان اختصاص رسول الله صلى الله عليه وآله لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى ، وللثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى ، واختصاصه أيضا لعليّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إياه لنفسه ، أكثر وأعظم من اختصاصه لعثمان . فنفس عثمان ذلك عليه ، فتباعد ما بين قلبيهما وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختين من مباحضة أو مشاجرة أو كلام ينقل من إحداها إلى الأخرى ، فيتكدر قلبها على أختها ، ويكون ذلك التكدير سبباً لتكدير ما بين البعدين أيضا ، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار ؛ وقد قيل : ما قطع من الأخوين كالزوجتين . ثم اتفق أن علياً عليه السلام قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فتأكّد الشنآن ، وإذا استوحش الإنسان من صاحبه استوحش صاحبه منه . ثم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فصبا إلى عليّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر في دار فاطمة مع من حضر من الخلفين عن البيعة ، وكانت في نفس عليّ عليه السلام أمور من الخلافة لم يمكنه إظهارها في أيام أبي بكر وعمر ، لقوة عمر وشدته ، وانبساط يده ولسانه ؛ فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى بين الستة ، وعدل عبد الرحمن بها عن عليّ إلى عثمان ، لم يملك عليّ نفسه ، فأظهر ما كان كامناً ، وأبدى ما كان مستورا ؛ ولم يزل الأمر يتزايد بينهما ، حتى شرف وتفاقم ؛ ومع ذلك فلم يكن عليّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكرا ، ولا ينهأ إلا كما تقتضى الشريعة نهيه عنه ؛ وكان عثمان مستضعفا في نفسه ، رخوا قليل الحزم ، واهى العقدة ، وسلم عنانه إلى

مرؤان يصرفه كيف شاء ، فالخلافة له في المعنى ، ولعثمان في الاسم . فلما انتقض على عثمان أمره ، استصرخ عليا ولآذ به ، وأتى زمام أمره إليه ، فدافع عنه حيث لا ينفع الدّفاع ، وذب عنه حين لا يغني الذّب ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرجى صلاحه .

قال جعفر : فقلت له : أتقول إنّ عليا وجد من خلافة عثمان أعظم مما وجده من خلافة أبي بكر وعمر ؟ فقال : كيف يكون ذلك ؛ وهو فرع لهما ، ولولا هما لم يصل إلى الخلافة ، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل ، ولا يخطر له ببال ؛ ولكن هاهنا أمر يقتضي في عثمان زيادة المنافسة ؛ وهو اجتماعهما في النسب ، وكونهما من بني عبد مناف ، والإنسانُ ينافس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد ، ويهون عليه من الأبعد ما لا يهون عليه من الأقرب .

قال جعفر : فقلت له : أف تقول : لو أنّ عثمان خلع ولم يقتل ، أكان الأمرُ يستقيم لعلّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه ؟ فقال : لا ، وكيف يتوهم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حيّ مخلوع أكثر من انتقاضها عليه بعد قتله ؛ لأنّه موجود يُرجى ويُتوقع عوّده ، فإن كان محبوساً عظم البلاء والخطب ، وهتف الناس باسمه في كلّ يوم ؛ بل في كلّ ساعة ، وإن كان مُحلّلاً سِرْبُهُ ، وممكناً من نفسه ، وغير محول بينه وبين اختياره ، لجأ إلى بعض الأطراف ، وذكر أنه مظلوم غُصبت خلافته ، وقهر على خلع نفسه ؛ فكان اجتماع الناس عليه أعظم ، والفتنة به أشدّ وأغلظ .

قال جعفر : فقلت له : فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في أمر الإمامة من مبدأ الحال ؛ وما الذي تظنّه أصله ومنبّعه ؟ فقال : لا أعلم لهذا أصلاً إلا أمرين : أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله أهمل أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحدٍ بعينه ، وإنما كان هناك رمزٌ وإيماء ، وكناية وتعريض ؛ لو أراد صاحبه أن يحتجّ به وقت الاختلاف وحال المنازعة

لم يُقم منه صورة حجة تُغنى ، ولا دلالة تحسب وتكفى ؛ ولذلك لم يحتج على عليه السلام يوم السقيفة بما ورد فيه ، لأنه لم يكن نصاً جلياً يقطع العذر ، ويوجب الحجة ؛ وعادة الملوك إذا تمهد مُلكهم ، وأرادوا العقد لولد من أولادهم ، أو ثقة من ثقاتهم ، أن يصرحوا بذكره ، ويخطبوا باسمه على أعناق المنابر ، وبين فواصل الخطب ، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم ، والأقطار النائية منهم ؛ ومن كان منهم ذا سرير وحصن ومدن كثيرة ، ضرب اسمه على صفحات الدنانير والدرهم مع اسم ذلك الملك ؛ بحيث تزول الشبهة في أمره ، ويسقط الارتياب بحاله ؛ فليس أمر الخلافة بهين ولا صغير ليترك حتى يصير في مظنة الاشتباه واللبس ؛ ولعله كان لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك عذراً لا نعلمه نحن ؛ إما خشية من فساد الأمر أو إرجاف المنافقين ، وقولهم : إنها ليس بنبوّة وإنما هي مُلك به أوصى لذريته وسلالته ؛ ولما لم يكن أحد من تلك الذرية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصغر السن ، جعله لأبيهم ؛ ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولاده منها من بعده .

وأما ما تقوله المعتزلة وغيرهم من أهل العدل : إن الله تعالى علم أن المكلفين يكونون على ترك الأمر مهماً غير معين أقرب إلى فعل الواجب وتجنب القبيح . قال : ولعل رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم في مرضه أنه يموت في ذلك المرض ، وكان يرجو البقاء فيمهد للإمامة قاعدة واضحة ، ومما يدل على ذلك أنه لما نوزع في إحضار الدواة والكتف ليكتب لهم ما لا يضلون بعده ، غضب وقال : اخرجوا عني ، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرفهم رشدهم ، ويهديهم إلى مصالحهم ، بل أرجأ الأمر إرجاء من يرتقب الإفاقة ، وينتظر العافية .

قال : فبتلك الأقوال المحجمة ، والكنيات المحتملة ، والرموز المشبهة مثل حديث

خسف النعل ، ومنزلة هارون من موسى ، ومن كنت مولاه ، وهذا يعسوب الدين ، ولا فتى إلا على ، وأحبّ خلقك إليك ؛ وما جرى هذا الجرى ، مما لا يفصل الأمر ، ويقطع العذر ويسكت الخصم ، ويفحم المنازع ؛ وثبت الأنصار فادّعتها ، ووثب بنو هاشم فادّعوها ، وقال أبو بكر : بايعوا عمر أو أبا عبيدة ، وقال العباس لعلّى : امدد يدك لأبيك ؛ وقال قوم ممن رَعَف به الدهر فيما بعد ؛ ولم يكن موجودا حينئذ : إن الأمر كان للعباس لأنه العمّ الوارث ، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه ؛ فهذا أحدهما .

وأما السبب الثانى للاختلاف ، فهو جعل عمر الأمر شورى فى الستّة ، ولم ينصّ على واحد يعينه ؛ إمّا منهم أو من غيرهم ؛ فبقى فى نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشِح للخلافة وأهل للملك والسلطنة ؛ فلم يزل ذلك فى نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم ، مرتسماً فى خيالاتهم ، منازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونهم ؛ حتى كان من الشقاق بين على وعثمان ما كان ، وحتى أفضى الأمر إلى قتل عثمان . وكان أعظم الأسباب فى قتله طلحة ؛ وكان لا يشكّ أن الأمر له من بعده لوجوه : منها سابقته ، ومنها أنه ابن عمّ لأبى بكر ، وكان لأبى بكر فى نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة ، أعظم منها الآن . ومنها أنه كان سمحاً جواداً ، وقد كان نازع عمر فى حياة أبى بكر ، وأحبّ أن يفوّض أبو بكر الأمر إليه من بعده ؛ فما زال يفتل فى الذروة والغارب فى أمر عثمان ، وينسكّر له القلوب ، ويكدر عليه النفوس ، ويعرّى أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به . وساعده الزبير ؛ وكان أبضاً يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما الأمر بدون رجاء على ، بل رجاؤهما كان أقوى ؛ لأنّ علياً دحضه الأولان ، وأسقطاه ، وكسرا ناموسه بين الناس ؛ فصار نسياً منسياً ، ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التى كانت فى أيام النبوة وفضله ، ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلاً من عرض المسلمين ؛ ولم يبق له مما يمتّ به إلا أنه ابن عمّ الرسول ، وزوج ابنته ، وأبو سبطيّه ، ونسى ما وراء ذلك كله ؛ واتفق له من بغض

قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد ؛ وكانت قريش بمقدار ذلك البغض ، تحب طلحة والزبير ، لأن الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما ، وكانا يتآلفان قريشا في أواخر أيام عثمان ؛ ويعيدانهم بالعطاء والإفضال ؛ وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة لا بالفعل ؛ لأن عمر نص عليهما وارتضاها للخلافة ، وعمر متبع القول ومرضى الفعـال ، موقـق مؤيـد مطاع ، نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته ؛ فلما قتل عثمان ، أرادها طلحة ، وحرّص عليها ، فلولا الأشر وقوم معه من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل إليه أبدا ؛ فلما فانت طلحة والزبير ، فتق ذلك الفتق العظيم على علي ، وأخرجنا أم المؤمنين معها ، وقصدا العراق ، وأثارا الفتنة ؛ وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف ، ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيدا لحرب صفين ؛ فإن معاوية لم يكن ليفعل ما فعل ، لولا طمعه بما جرى في البصرة ، ثم أوهم أهل الشام أن عليا قد فسق بمحاربة أم المؤمنين ، ومحاربة المسلمين ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وهما من أهل الجنة ، ومن يقتل مؤمنا من أهل الجنة فهو من أهل النار ؛ فهل كان الفساد المتولد في صفين إلا فرعا للفساد الكائن يوم الجمل ! ثم نشأ من فساد صفين وضلال معاوية كل ما جرى من الفساد والقيح في أيام بني أمية ، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعا من فروع يوم الدار ، لأن عبدالله كان يقول : إن عثمان لما أيقن بالقتل نصّ علي بالخلافة ؛ ولي بذلك شهود ؛ منهم مروان بن الحكم . أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعا على أصل ، وغصنا من شجرة ، وجذوة من ضرام ! هكذا يدور بعضه على بعض ، وكله من الشورى في الستة .

قال : وأعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له : إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلانا وفلانا من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء ، وتركت أن تستعمل عليا والعباس والزبير وطلحة ! فقال : أما على فأنبه من ذلك ؛ وأما هؤلاء نفر

من قريش ؛ فإنني أخاف أن ينتشروا في البلاد ، فيكثروا فيها الفساد ؛ فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك ، ويدّعيه كل واحد منهم انفسه ، كيف لم يخف من جعلهم ستة متساوين في الشورى ، مرشحين للخلافة ! وهل شيء أقرب إلى الفساد من هذا ! وقد روى أن الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيه يلعبان ويضحكان ، فسرّ بذلك ، فلما غابا عن عينه بكى ، فقال له الفضل بن الربيع : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، وهذا مقام جدل لا مقام حزن ؟ فقال : أما رأيت لعبهما ومودة بينهما ؟ أما والله ليتبدلن ذلك بغضاً وشنفاً^(١) ، وليختلسن كل واحد منهما نفس صاحبه عن قريب ؛ فإن الملك عقيم ؛ وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما على ترتيب ؛ هذا بعد هذا ، فكيف من لم يرتبوا في الخلافة ، بل جعلوا فيها كأسنان المشط !

فقلت أنا لجعفر : هذا كله تحكيه عن محمد بن سليمان ، فما تقول أنت ؟ فقال :
إِذَا قَالَتْ حَـذَامٌ فَصَدَّقُوْهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَـذَامٌ^(٢)

(١) الشنف : الكره .

(٢) قبله :

فَلَوْلَا أَلْمَزَجَاتُ مِنَ اللَّيَالِي لَمَّا تَرَكَ الْقَطَا طِيبَ الْمَنَامِ

نسبهما صاحب اللسان (في رقص) للجيم بن صعب .

الاضل :

ومن كلام له عليه السلام :

لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا ، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ
وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ وَأَيْمُ اللَّهِ لَا نُصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنَ ظَالِمِهِ ؛
وَلَا نُقَوِّدَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُوْرِدَهُ مِنْهَلِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا .

الشَّيْخُ :

الفَلْتَةُ : الأمر يقع عن غير تدبر ولا روية ؛ وفي الكلام تعريض ببيعة أبي بكر ؛ وقد تقدّم
لنا في معنى قول عمر : « كانتبيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها » كلام .

والخِزَامَةُ : حلقة من شعر تجعلُ في أنف البعير ، ويجعل الزمام فيها .

وَأَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ : خذوها بالعدل ، واقمعوها عن اتباع الهوى ، وارُدُّعوها بعقولكم
عن المسالك التي تُرْذِيها وتوبُّقها ، فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ أَعْنَتُمُونِي عَلَيْهَا ؛ لِأَنِّي أَعْظَمُكُمْ
وَأَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ فَإِذَا كَبَحْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِلِجَامِ الْعَقْلِ الدَّاعِي إِلَى مَا أَدْعُو
إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ أَعْنَتُمُونِي عَلَيْهَا .

فإن قلت : ما معنى قوله : « أريدكم لله وتريدونني لأنفسكم » ؟

قلت : لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصره دين الله والقيام بمحدوده وحقوقه ؛ ولا يريد هم
لحظ نفسه ، وأما هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب ، والأسباب
الموصلة إلى منافع الدنيا .

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه ؛ فأما الخواص منهم فإنهم كانوا يريدونه
للأمر الذي يريدون له من إقامة شرائع الدين وإحياء معاملة .

الأضد :

ومن كلام له عليه السلام في شأن طلحة والزبير :

وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَى مُنْكَرًا ، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفًا ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقَّاهُمْ تَرَكَوهُ ، وَدَمَّاهُمْ سَفَكُوهُ ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قَبْلَهُمْ . وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ وَإِنْ مَعِيَ لَبَصِيرَتِي ، مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبْسٌ ^(١) عَلَيَّ .

وَإِنَّهَا لَلْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحَمَةُ ، وَالشُّبُهَةُ الْمَغْدِفَةُ . وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ ؛ وَقَدْ زَاغَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ ، وَاقْطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَفِيهِ ، وَائْتَمَّ اللَّهُ لَا فَرِطَنَ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَاتِحُهُ ؛ لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بَرِيٌّ ، وَلَا يَعْبُثُونَ بَعْدَهُ فِي حَسِيٍّ .

الشَّرْحُ :

النِّصْفُ : الإِنْصَافُ ، قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

وَلَكِنْ نِصْفًا لَوْ سَبَيْتُ وَسَبَّيْتُ بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَهَاشِمٍ ^(٢)

وهو على حذف المضاف ؛ أَيِ ذَا نِصْفٍ ، أَيِ حَكْمًا مَنْصُفًا عَادِلًا يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ .

وَالطَّلِبَةُ : بَكْسُ الْإِلَامِ : مَا طَلَبْتَهُ مِنْ شَيْءٍ . وَلَبَسْتُ عَلَى فُلَانٍ الْأَمْرَ ، وَلُبِسَ عَلَيْهِ

الْأَمْرُ ، كَلَاهَا بِالتَّخْفِيفِ .

(١) مخطوطة التهجد بتشديد الباء .

(٢) اللسان ١١ : ٢٤٦ .

والحمأ : الطين الأسود ، قال سبحانه : ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (١) .
 وُحْمَةُ العقرب : سمها ، أى فى هذه الفئة الباغية الضلال والفساد والضرر ؛ وإذا أرادت
 العرب أن تعبر عن الضلال والفساد قالت : الحمأ ، مثله الحمأة بالتاء ؛ ومن أمثالهم : « نَأْطَةُ
 مَدَّتْ بِمَاءٍ » (٢) ؛ يُضْرَبُ للرجل يشتدُّ مُوقه وجهه ؛ والنَّأْطَةُ : الحمأة ، وإذا أصابها الماء
 ازدادت فسادا ورطوبة .

ويروى فيها : « الحمأ » بألف مقصورة . وهو كناية عن الزُّبَيْر ، لأنَّ كلَّ ما كان بسبب
 الرجل فهم الأحماء ؛ واحد هم « حمأ » ، مثل قفا وأقفاء ، وما كان بسبب المرأة فهم الأخاتن ؛
 فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعا . وكان الزُّبَيْر ابن عمَّة رسول الله صلى الله عليه وآله ؛
 وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أعلمَ عليًّا بأنَّ فئة من المسلمين تبغى عليه أيام خلافته ،
 فيها بعضُ زوجاته وبعضُ أحمائه ، فكفى على عليه السلام عن الزَّوْجَةِ بِالْحَمَةِ وهى سمَّ
 العقرب ، ويروى : « والحم » يضرب مثالا لغير الطَّيِّب ولغير الصَّافى ؛ وظهر أنَّ الحمَّ الذى
 أخبر النبي صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزُّبَيْر ابنُ عمته . وفى الحمأ أربع
 لغات : حمأ مثل قفا ، وحمء مثل كرمء ، وحمو مثل « أبو » ، وحم مثل أبٍ .

قوله عليه السلام : « والشبهة المغدقة » أى الخفية ، وأصله المرأة تُغْدِفُ وجهها بقناعها ،
 أى تستره . وروى : « المغدقة » (٣) بكسر الدال ، من أغدِف الليل ، أى أظلم .
 وزاح الباطل ، أى بُعد وذهب ، وأزاحه غيره .

وعن نصابه : عن مركزه ومقره ، ومنه قول بعض المحدِّثين :
 قد رجع الحقُّ إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
 والشَّغْب ، بالتسكين : تهيج الشرِّ ، شَغَبَ الحقد بالفتح شَغْبًا ، وقد جاء بالتحريك فى
 لغة ضعيفة ، وماضيها شَغِبَ ، بالكسر .

(١) سورة الحجر ٢٦ .

(٢) مجمع الأمثال للميدنى ١ : ١٥٣ .

(٣) هى رواية مخطوطة النهج .

وَلَا فَرِظْنَ لَهُمْ حَوْضًا ، أَى لَأَمْلَأَنَّ ، يقال : أفرطتُ المَزَادَةَ أَى مَلَأْتُهَا ، وغدير مفرط ، أَى مِلَان .

والماتح ، بنقطتين من فوق : المستقي من فوق ، وبالياء : مالى الدلاء من تحت .
والعَبَّ : الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابة . وفى الحديث : « الكِبَادُ مِنَ الْعَبِّ » (١) .

والْحَسَى : ماء كامنٌ فى رملٍ يحفر عنه فيستخرج ، وجمعه أحساء .

يقول عليه السلام : والله ما أنكروا علىَّ أمراً هو منكراً فى الحقيقة ، وإنما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم ؛ وحملهم على ذلك الحسد وحب الاستئثار بالدنيا والتفضيل فى العطاء ؛ وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستحيزه فى الدين . قال : ولا جعلوا بينى وبينهم نصفاً ، يعنى وسيطاً يحكم ويُنصف ، بل خرجوا عن الطاعة بغتة ؛ وإنهم ليطالبون حقاً تركوه ، أَى يظهرون أنهم يطلبون حقاً بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة .

قال : ودماً هم سفكوه ؛ يعنى دم عثمان ؛ وكان طلحة من أشد الناس تحريصاً عليه ، وكان الزبير دونه فى ذلك .

روى أن عثمان قال : ويلى على ابن الحضرمية - يعنى طلحة - ، أعطيته كذا وكذا بُهَّاراً (٢) ذهباً ؛ وهو يروم دمي يحرّض على نفسى ؛ اللهم لا تمتعه به ولقّه عواقب بغية (٣) .
وروى الناس الذين صنفوا فى واقعة الدار أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس ، يرمى الدار بالسهم . ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين

(١) النهاية لابن الأثير ٤ : ٣ .

(٢) البهار : الحمل ، قيل : هو ثلاثمائة رطل بالقبضية .

(٣) انظر النهاية ١ : ١٠١ .

حَصَرُوهُ الدخولَ من باب الدار ، حملهم طلحة إلى دارٍ لبعض الأنصار ، فأصعدهم إلى سطحها ،
وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه .

وروا أيضاً أن الزبير كان يقول : اقتلوه فقد بدل دينكم . فقالوا : إن ابنك
يحامي عنه بالباب ، فقال : ما أكره أن يقتل عثمان ولو بدىً بابني ؛ إن عثمان لجيفةٌ على
الصراط غدأً .

وقال مروان بن الحكم يوم الجمل : والله لأترك ثأري وأنا أراه ، ولأقتلن طلحة بعثمان ؛
فإنه قتله . ثم رماه بسهم فأصاب مأبضه^(١) ، فنزف الدم حتى مات .

ثم قال عليه السلام : إن كنت شريكهم في دم عثمان ؛ فإن لهم نصيبهم منه ،
فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه ، وإن كانوا ولّوه دوني ، فهم المطلوبون
إذن به لا غيرهم .

وإنما لم يذكر القسم الثالث ؛ وهو أن يكون هو عليه السلام وليه دونهم ؛ لأنه لم
يقبل به قائل ، فإنّ الناس كانوا على قولين في ذلك : أحدهما أن علياً وطلحة والزبير مسمّهم
لطخ من عثمان ؛ لا بمعنى أنهم باشروا قتله ؛ بل بمعنى الإغراء والتحرّض ؛ وثانيهما
أنّ علياً عليه السلام برىء من ذلك ، وأنّ طلحة والزبير غير بريئين منه .

ثم قال : وإنّ أوّل عدلهم للحكم على أنفسهم ؛ يقول : إنّ هؤلاء خرجوا ونقضوا
البيعة ، وقالوا : إنّما خرجنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإظهار العدل وإحياء
الحق وإماتة الباطل ، وأوّل العدل أن يحكموا على أنفسهم ؛ فإنه يجب على الإنسان أن
يقضى على نفسه ، ثم على غيره ، وإذا كان دم عثمان قبلهم ، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم
قبل إنكارهم على غيرهم .

(١) المأبض : ما ثبت عليه الفخذ .

قال : وإن معي لبصيرتي ، أى عقلى ؛ ما لبستُ على الناس أمرهم ولا لبس الأمر على ، أى لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله على بل أوضحه لى وعرفنيه .

ثم قال : وإنها للفئة الباغية ؛ لام التعريف فى « الفئة » تشعر بأن نصّا قد كان عنده : أنه ستخرج عليه فئة باغية ، ولم يعين له وقتها ولا كل صفاتها ، بل بعض علاماتها ، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلامات موجودة فيهم ؛ قال : وإنها للفئة الباغية ، أى وإن هذه الفئة ، أى الفئة التى وعدت بخروجها على ، ولولا هذا لقال : « وإنها لفئة باغية » ، على التنكير .

ثم ذكر بعض العلامات ، ثم قال : إن الأمر لواضح ، كل هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أن هذه الجماعة هى تلك الفئة الموعود بخروجها ، وقد ذهب الباطل وزاح ، وخرس لسانه بعد شغبه .

ثم أقسم ليمائن لهم حوضا هو ماتحه ، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء وما يتعقبهما من القتل والهلاك ، لا يصدرون عنه برى ، أى ليس كهذه الحياض الحقيقية التى إذا وردّها الظمان صدر عن رى وتقع غليله ، بل لا يصدرون عنه إلا وهم جزر السيوف ، ولا يعيون بعده فى حسى لأنهم هلكوا ، فلا يشربون بعده البارد العذب .

وكان عمرو بن الليث الصفار أمير خراسان أنفذ جيشا لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانى ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث ، فغضب ولقى القواد بكلام غليظ ، فقال له بعضهم : أيها الأمير ، إنه قد طبخ لك مرّ جلّ عظيم ، وإنما نلنا منه لُهمة^(١) يسيرة والباقي مذخور لك ، فعلام تتركه ! اذهب إليهم فكله . فسكت عمرو ابن الليث عنه ولم يجب .

(١) اللهمة : الجزء اليسير .

ومرادنا من هذه ، المشابهة والمناسبة بين الكنايتين .

الأضل :

منها :

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَى إِقْبَالِ الْعُودِ الْمَظَايِلِ عَلَى أَوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ !
قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُهَا ، وَنَارَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُهَا .

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ . فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا ،
وَلَا تُخَيِّمَنَّ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا ، وَأَرْهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا . وَلَقَدْ اسْتَشَبَّتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ ،
وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوَقَائِعِ ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ ، وَرَدَّا الْعَاقِبَةَ .

الشَّيْح :

الْعُودُ : النُّوْقُ الْحَدِيثَاتُ النَّتَاجُ ، الْوَاحِدَةُ عَائِدٌ ، مِثْلُ حَائِلٍ وَحُولٍ ، وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ
لِلْخَيْلِ وَالظُّبَاءِ ، وَيَجْمَعُ أَيْضاً عَلَى «عُودَانِ» مِثْلُ رَايِعٍ وَرُعِيَانٍ ، وَهَذِهِ عَائِدَةٌ بَيْنَةَ الْعُودِ ذِ ،
وَذَلِكَ إِذَا وَلَدَتْ عَنْ قَرِيبٍ ، وَهِيَ فِي عِيَادِهَا ، أَيْ بِمُحْدَثَانِ نَتَاجِهَا ^(١) .

وَالْمَظَايِلُ : جَمْعُ مُظْفِلٍ ، وَهِيَ الَّتِي زَالَتْ عَنْهَا اسْمُ الْعِيَادِ وَمَعَهَا طِفْلُهَا ، وَقَدْ تَسَمَّى
الْمَظَايِلُ عُودًا إِلَى أَنْ يَبْعَدَ الْعَهْدُ بِالنَّتَاجِ مَجَازًا ؛ وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : « إِقْبَالِ
الْعُودِ الْمَظَايِلِ » ، وَإِلَّا فَالْإِسْمَانِ مَعًا لَا يَجْمَعَانِ حَقِيقَةً ، وَإِذَا زَالِ الْأَوَّلُ ثَبَتَ الثَّانِي .
قَوْلُهُ : « وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ » أَيْ حَرَضًا ، يُقَالُ : حَسُودٌ مُؤَلَّبٌ .

(١) فِي اللِّسَانِ : « وَيُقَالُ : هِيَ عَائِدَةٌ بَيْنَةَ الْعُودِ ، إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ ، ثُمَّ هِيَ
مُظْفِلٌ » .

واستثبتهما ، بالثناء المعجزة بثلاث : طلبت منهما أن يثوبا أى يرجعا ، وسمى المنزل مثابة لأن أهله ينصرفون فى أمورهم ثم يثوبون إليه ، ويروى : « ولقد استثبتهما » ، أى طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما فى نقض البيعة .

واستأنيت بهما ، من الأناة والانتظار .

والوقاع ، بكسر الواو : مصدر : واقعتهن فى الحرب وقاعا ، مثل نازلتهن نزالا ، وقتلتهن قتالا .

وغمط فلان النعمة ، إذا حقرها وأزرى بها غمطا ، ويجوز « غمط » النعمة بالكسر والمصدر غير محرك ويقال : إن الكسر أفصح من الفتح .

يقول عليه السلام : إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النوق إلى أولادها ، تسألوننى البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتكم . ثم دعا علىّ على طلحة والزبير بعد أن وصفهما بالقطيعة والنكث والتأليب عليه ، بأن يحلّ الله تعالى ماعقدا ، وألا يحكم لهما ما أبرما ، وأن يريهما المساءة فيما أملا وعملا .

فأما الوصف لهما بما وصفهما به ، فقد صدق عليه السلام فيه ، وأما دعاؤه فاستجيب له ، والمساءة التى دعا بها هى مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة ، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان رسوله بالجنة ، وإنما استوجباها بالتوبة التى ينقلها أصحابنا رحمهم الله فى كتبهم عنهما ، ولولاها لكانا من الهالكين .

الأفضل :

وَمِنْ فَطْنَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ فَبَرَهَا إِلَى ذِكْرِ الْمَلَامِ :

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهَدَى ، إِذَا عَطَفُوا الْهَدَى عَلَى الْهَوَى ، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ ، إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ .

الشرح :

هذا إشارة إلى إمامٍ يخلقه الله تعالى في آخر الزمان ، وهو الموعود به في الأخبار والآثار ، ومعنى « يعطف الهوى » يقهره ويثنيه عن جانب الإيثار والإرادة ، عاملاً عملاً الهدى ، فيجعل الهدى قاهراً له ، وظاهراً عليه .

وكذلك قوله : « ويعطف الرأي على القرآن » ، أى يقهر حكم الرأي والقياس والعمل بغلبة الظن عاملاً على القرآن .

وقوله : « إذا عطفوا الهدى » و « إذا عطفوا القرآن » إشارة إلى الفرق الخالفين لهذه الإمام ، المشاقين له ، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى ، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأى .

الأضل :

منها :

حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ ؛ بَادِيًا نَوَاجِذُهَا ، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا ، حُلُوءًا رِضَاعُهَا ، عَلَقَمًا عَاقِبَتُهَا .

أَلَا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ أَوْلِيَ مِنْ غَيْرِهَا عُمَالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا ، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ كِبِدِهَا ، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْمًا مَقَالِيدَهَا ، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السَّيْرِ ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالشَّنَّةِ .

الشَّنْح :

الساق : الشدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾^(١) .
والنواجذ : أقصى الأضراس ، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتها ، كما أن غاية الضحك أن تبدو النواجذ .

وكذلك قوله : « مملوءة أخلافها » ، والأخلاف للناقة حلمات الضرع ، واحدها خِلف .
وقوله : « حلوا رضاعها ، علقما عاقبتها » قد أخذه الشاعر ، فقال :

الحَرْبُ أَوَّلَ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِزَيْتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ^(٢)
حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا^(٣) عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلٍ
شَمَطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْبِيلِ

(١) سورة القلم ٤٢ .

(٢) تنسب إلى امرئ القيس ، وهي في ديوانه ٣٥٣ ، من زيادات نسخة ابن النحاس .

(٣) الديوان : « حتى إذا استعرت » .

وهو الرَضاع بالفتح ، والماضى رَضِع بالكسر ، مثل سَمِع سَماعا ، وأهل نجد يقولون :
« رَضَعَ » بالفتح « يَرْضِع » بالكسر رَضعا ، مثل ضَرَب يضرب ضربا ، وأنشدوا :
وَذَمُّوا لَنَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضِعُونَهَا أَفَؤَيْقَ حَتَّى مَإْيَدَرَّ لَهَا ثَعْلُ^(١)
بكسر الضاد .

[فصل في الاعتراض وإيراد مُثُل منه]

وقوله : « أَلَا وَفِي غَدٍ » تمامه « يأخذ الوالى » وبين الكلام جملة اعتراضية ، وهى
قوله : « وسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ » والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه ؛ ومثل ذلك
فى القرآن كثير ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾^(٢) ، فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ هو الجواب
المتلقى به قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ ، وقد اعترض بينهما قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ
عَظِيمٌ ﴾ ، واعتراض بين هذا الاعتراض قوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، لأنك لو حذفته لبقى الكلام
على إفادته ، وهو قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ » ، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع
النجوم ، وتأكيد إجلاله فى النفوس ؛ لا سيما بقوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾^(٣) ،
فقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ اعتراض ، والمراد التنزيه . وكذلك قوله : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا
لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، فـ « لَقَدْ عَلِمْتُمْ » اعتراض ؛ والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة .
وكذلك قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

(١) اللسان ٩ : ٤٨٤ ، ونسبها إلى ابن همام السلولي .

(٢) سورة الواقعة ٧٥ - ٧٧ .

(٣) سورة النحل ٥٧ .

مُقْتَرٍ ﴿١﴾ فاعترض بين « إذا » وجوابها بقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ ﴾ ، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم ؛ فجعل الجواب اعتراضا .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ﴿٢﴾ فاعترض بقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ بين ﴿ وصينا ﴾ وبين الموصى به ؛ وفائدة ذلك إذ كَارُ الولد بما كابدته أمه من المشقة في حمله وفصاله .

ومن ذلك قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ فقلنا أضربوه ببعضها ﴿٣﴾ فقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، والمراد أن يقرّر في أنفس السامعين أنه لا ينفع البشر كتمانهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره .

ومن الاعتراض في الشعر قول جرير :

وَلَقَدْ أَرَانِي - وَالْجَدِيدُ إِلَى بَلَى - فِي مَوْكِبٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كَرَامٍ ﴿٤﴾

فقوله : « والجديد إلى بلى » اعتراض ، والمراد تعزيتة نفسه عمّا مضى من تلك اللذات .

وكذلك قول كثير :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ - وَأَنْتَ مِنْهُمْ - رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمِطْلَالَ ﴿٥﴾

فقوله : « وأنت منهم » اعتراض ؛ وفائدته ألا تظن أنها ليست باخلة .

(١) سورة النحل ١٠١ :

(٢) سورة لقمان ١٤ .

(٣) سورة البقرة ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) ديوانه ٥٥١ ، والرواية فيه : « في فتية طرف الحديث كرام » .

(٥) ديوانه ١ : ١٥١ .

ومن ذلك قول الشاعر^(١) :

فلو سألت سرّاة الحىّ سلمى على أن قد تلون بي زماني^(٢)
لخبرها ذؤو أحساب قومي وأعدائي فكلّ قد بلاني
بذبيّ الذم عن حسبي ومالي وزبونات أشوس تيجان^(٣)
وإني لأزال أخا حروب إذا لم أجن كنت مجنّ جاني
فقوله :

* على أن قد تلون بي زماني *

اعتراض ، وفائدته الإخبار عن أن السنّ قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافه .
ومن ذلك قول أبي تمام :

ردّدت روثق وجهي في صحيفته ردّ الصقال بهاء الصّارم الخديم^(٤)
وما أبالي - وخير القول أصدقه - حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي
فقوله : « وخير القول أصدقه » اعتراض ، وفائدته إثبات صدقه في دعواه أنه لا يبالي
أيّهما حقن .

فأما قول أبي تمام أيضا :

وإنّ الغنى لي إن لحظت مطالبي من الشعر - إلا في مديحك - أطوع^(٥)
فإنّ الاعتراض فيه هو قوله : « إلا في مديحك » وليس قوله : « إن لحظت مطالبي »
اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصلي^(٦) ، لأنّ فائدة البيت معاقبة عليه ، لأنه لا يريد أن الغنى

(١) لسوار بن المضرب السعدي . ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ١ : ١٣٠ .

(٢) سرّاة القوم : خيارهم .

(٣) زبونات ، من الزبن ، وهو الدفع . والتيجان . العريض المقدام .

(٤) ديوانه ٣ : ٢١٨ . والخديم : السريع القطع .

(٥) ديوانه ٢ : ٣٣٣ .

(٦) المثل السائر ٢ : ١٨٨ .

لى على كل حال أطوع من الشعر ، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختل ! بل مراده أن الغنى لى بشرط أن تلحظ مطالبي من الشعر أطوع لى ؛ إلا فى مديحك ، فإن الشعر فى مديحك أطوع لى منه ، وإذا كانت الفائدة معلقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضا . وكذلك وهم ابن الأثير ^(١) أيضا فى قول امرئ القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال ^(٢)
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى
فقال : إن قوله : « ولم أطلب » اعتراض ؛ وليس بصحيح ، لأن فائدة البيت مرتبطة به ؛ وتقديره : لو سعى لأن آكل وأشرب لكفانى القليل ، ولم أطلب الملك ؛ فكيف يكون قوله : ولم أطلب الملك اعتراضا ، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلا تردّ لتحسين وتكملة ، وليست فائدته أصلية !

وقد يأنى الاعتراض ولا فائدة فيه ؛ وهو غير مستحسن ، نحو قول النابغة :
يقول رجال يجهلون خليقتي لعل زيادا - لا أبالك - غافل ^(٣)
فقوله : « لا أبالك » ، اعتراض لا معنى تحته هاهنا ، ومثله قول زهير :
سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم ^(٤)
فإن جاءت « لا أبالك » تعطى معنى يليق بالموضع فهى اعتراض جيد ، نحو قول أبى تمام :

* عتابك عني - لا أبالك - واقصد *

فإنه أراد زجرها وذمها لما أسرفت فى عتابه .

(١) المثل السائر ٢ : ١٨٦ .

(٢) ديوانه ٣٩ .

(٣) ديوانه ٦١ .

(٤) ديوانه ٢٩ .

وقد يأتي الاعتراض على غاية من القبح والاستهجان ، وهو على سبيل التقديم والتأخير ،
نحو قول الشاعر :

فَقَدْ وَالشَّكُّ بَيْنَ لِي عَنَاءٍ بَوْشَكٍ فِرَاقِهِمْ صُرْدٌ فَصِيحٌ^(١)

تقديره : فقد بين لي صرد يصيح بوشك فراقهم ، والشكّ عناء ، فلأجل قوله :
« والشكّ عناء » بين « قد » والفعل الماضي ؛ وهو « بين » عدّ اعتراضاً مستهجناً .
وأمثال هذا للعرب كثير .

قوله عليه السلام : « يأخذ الوالي من غيرها عُمّالها على مساوى أعمالها » ، كلام منقطع
عما قبله ، وقد كان تقدّم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمرة ، فذكر عليه السلام أن
الوالي - يعنى الإمام الذى يخلقه الله تعالى فى آخر الزمان - يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء
أعمالهم . وعلى هاهنا متعلقة بـ « يأخذ » التى هى بمعنى « يؤاخذ » من قولك : أخذته بذنبه ، وأخذته ،
والهمز أفصح .

والأفلايد : جمع أفلاذ ، وأفلاذ جمع فلذ ، وهى القطعة من الكبد ، وهذا كناية عن
الكنوز التى تظهر للقائم بالأمر ؛ وقد جاء ذكر ذلك فى خبر مرفوع فى لفظة : « وقات له
الأرض أفلاذ كبدها » ، وقد فسّر قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾^(٢) بذلك
فى بعض التفاسير .

والمقاليد : المفاتيح .

الأضل :

منها :

كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالسَّامِ ، وَفَحَصَ بِرِايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانِ ، فَعَطَفَ إِلَيْهَا
عَطَفَ الضَّرُوسِ ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّعُوسِ . قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ
وَطَاتَتْ ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ

(٢) سورة الزلزلة ٢ .

(١) المثل السائر ٢ : ١٩١ .

والله لَيَشْرِدَنَّكُمْ فِي أطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَوُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا .
فَالزُّمُوا السَّنَنَ الْقَائِمَةَ ، وَالْآثَارَ الْبَيِّنَةَ ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي لَكُمْ طُرُقَهُ لَتَتَّبِعُوا عَقْبَهُ .

الشَّنْحُ :

هذا إخبار عن عبد الملك بن مروان وظهوره بالشام ومملكه بعد ذلك العراق ،
وما قتل من العرب فيها أيام عبد الرحمن بن الأشعث ، وقتله أيام مصعب بن الزبير .
ونعق الراعى بغنمه ، بالعين المهملة ، ونَعَقَ الغراب بالغين المعجمة . وفحص برأياته
هاهنا : مفعول محذوف تقديره ، وفحص الناس برأياته ، أى نحاهم وقلبهم يمينا وشمالا .
وكوفان : اسم الكوفة . وضواحيها : ما قرب منها من القرى . والضروس : الناقة
السيئة الخلق تعضّ حالبها ، قال بشر بن أبي خازم :

عَطَفْنَا لَهُمْ عَطْفَ الضَّرُوسِ مِنَ الْمَلَا بِشَهْبَاءَ لَا يَمْشِي الضَّرَاءُ رَقِيْبُهَا ^(١)

وقوله : « وفرش الأرض بالرءوس » : غطاها بها كما يغطى المكان بالفراش .

وفغرت فاعرته ؛ كأنه يقول : فتح فاه ؛ والكلام استعارة ، وفغر « فعل » يتعدى ولا
يتعدى . وثقلت في الأرض وطأته ، كناية عن الجور والظلم .

بعيد الجولة : استعارة أيضا ؛ والمعنى أن تطواف خيوله وجيوشه في البلاد ، أو جَوْلَانِ
رجاله في الحرب على الأقران طويل جدا لا يتعقبه السكون إلا نادرا .

وبعيد منصوب على الحال ، وإضافته غير محضة .

(١) اللسان ٩ : ٤٢٤ .

(٢) ١٥

وعواذب أحلامها : مذهب من عقولها، عزَبَ عنه الرأى ، أى بُعد .
ويسنّى لكم طرقه ، أى يسهل . والعقب ، بكسر القاف : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة .
فإن قلت : فإنّ قوله : « حتى تؤوب » يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب
عواذب أحلامها ، وعبد الملك مات فى ملكه ولم يزل الملك عنه بأوْبَةِ أحلام العرب إليها
فإنّ فائدة « حتى » إلى ؛ وهى موضوعة للغاية .

قلت : إن ملك أولاده مُلكه أيضا ، وما زال الملك عن بنى مروان حتى آبت إلى العرب
عواذب أحلامها ، والعرب هاهنا : بنو العباس ومن اتّبِعهم من العرب أيام ظهور الدولة ،
كقحطبة بن شبيب الطائى وابنيه حميد والحسن ، وكبني رزتنى ، بتقديم الراء المهملة ، الذين
منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبى وعدادهم فى خُزاعة وغيرهم من العرب
من شيعة بنى العباس . وقد قيل : إنّ أبا مسلم أيضا عربى أصله ، وكلّ هؤلاء وآبائهم
كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين فى دولة بنى أمّية ، لم ينهض منهم ناهض ، ولا وثب إلى الملك
واثب ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عزَب عنهم من إباءهم وحميتهم ، فغاروا
للدين والمسلمين من جور بنى مروان وظلمهم ، وقاموا بالأمر ، وأزالوا تلك الدولة التى كرهاها
الله تعالى ، وأذن فى انتقالها .

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتاب والسنة ، والعهد
القريب الذى عليه باقى النبوة - يعنى عهده وأيامه عليه السلام - وكأنّه خاف من أن يكون
بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنتفضى إذا آبت إلى العرب عواذب أحلامها ، كالأمر لهم
باتباع ولاية الدولة الجديدة فى كلّ ما تفعله ، فاستظهر عليهم بهذه الوصية ، وقال لهم : إذا ابتذلت
الدولة ، فالزموا الكتاب والسنة ، والعهد الذى فارقتكم عليه .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى :

لَنْ يُسْرَعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصَلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةٍ كَرِيمٍ ؛ فَاسْمَعُوا قَوْلِي ،
وَعُوا مَنْطِقِي . عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ ؛ تُنْتَضَى فِيهِ الشُّيُوفُ ،
وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ ، وَشِيعَةً
لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ .

الشرح :

هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر .

[من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان]

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدم مافيه كفاية ؛ ونحن نذكر هاهنا ما لم نذكره
هناك ، وهو من رواية عوانة ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي في كتاب " الشورى " ،
و " مقتل عثمان " ، وقد رواه أيضا أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في زيادات
كتاب " السقيفة " ، قال :

لما طعن عمرُ جعل الأمرَ شورى بين ستة نفر : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ،
وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن مالك ؛ وكان

طلحة يومئذ بالشام ، وقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهو عن هؤلاء راض ؛ فهم أحق بهذا الأمر من غيرهم ، وأوصى صهيب بن سنان ، مولى عبد الله بن جُدعان - ويقال : إن أصله من حى من ربيعة بن نزار ، يقال لهم عنزة - فأمره أن يصلي بالناس حتى يرضى هؤلاء القوم رجلاً منهم ، وكان عمر لا يشك أن هذا الأمر صائر إلى أحد الرجلين : على وعثمان ، وقال : إن قديم طلحة فهو معهم ، وإلا فلتختر الخمسة واحداً منها . وروى أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى ، وقال : الأمر فى هؤلاء الأربعة ، ودعوا سعداً على حاله أميراً بين يدي الإمام . ثم قال : ولو كان أبو عبيدة ابن الجراح حياً لما تخالجتني فيه الشكوك ، فإن اجتمع ثلاثة على واحد ، فكونوا مع الثلاثة ، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذى فيه عبد الرحمن .

وقال لأبي طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة ؛ فوالله لطلما أعز الله بكم الدين ، ونصر بكم الإسلام ؛ اختر من الإسلام خمسين رجلاً ، فانت بهم هؤلاء القوم فى كل يوم مرة ، فاستحيوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمة رجلاً منهم .

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار ، فأعلمهم ما أوصى به ، وكتب فى وصيته أن يولى الإمام سعد بن مالك الكوفة ، وأبا موسى الأشعرى ، لأنه كان عزل سعداً عن سخطه فأحب أن يطلب ذلك إلى من يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد .

قال الشعبي : لحدثني من لا أتهمه من الأنصار ، وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهري : هو سهل بن سعد الأنصارى ، قال : مشيت وراء على بن أبى طالب حيث انصرف من عند عمر ، والعباس بن عبد المطلب يمشى فى جانبه ، فسمعتُه يقول للعباس : ذهبت منا والله ! فقال : كيف علمت ؟ قال : ألا تسمعه يقول : كونوا فى الجانب الذى فيه عبد الرحمن ، لأنه ابن عمه ، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره ، فإذا اجتمع هؤلاء ! فلو أن الرجلين

الباقين كانا معي لم يغنيا عني شيئا ، مع أنني لست أرجو إلا أحدهما ، ومع ذلك فقد أحب
عمر أن يعلمنا أن لعبد الرحمن عنده فضلا علينا . لعمرُ الله ما جعل الله ذلك لهم علينا ،
كما لم يجعله لأولاهم على أولادنا . أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرته ما أتى إلينا قديما ، ولأعلمته
سوء رأيه فينا ، وما أتى إلينا حديثا ؛ ولئن مات - وليوتن - ليجتمعن هؤلاء القوم على أن
أن يصرفوا هذا الأمر عنا ؛ ولئن فعلوها - وليفعلن - ليروني حيث يكرهون ؛ والله ما بي
رغبة في السلطان ، ولا حب الدنيا ؛ ولكن لإظهار العدل ، والقيام بالكتاب والسنة .

قال : ثم التفت فرآني وراءه فعرفت أنه قد ساء ذلك ، فقلت : لا ترع أبا حسن !
لا والله لا يستمع أحد الذي سمعت منك في الدنيا ما اصطحبنا فيها ؛ فوالله ما سمعه مني
مخلوق حتى قبض الله عليا إلى رحمته .

قال عوانة : فحدثنا إسماعيل ، قال : حدثني الشعبي ، قال : فلما مات عمر ، وأدرج
في أكفانه ، ثم وُضع ليصلي عليه ، تقدم علي بن أبي طالب ، فقام عند رأسه ، وتقدم
عثمان فقام عند رجليه ، فقال علي عليه السلام : هكذا ينبغي أن تكون الصلاة ، فقال
عثمان : بل هكذا ، فقال عبد الرحمن : ما أسرع ما اختلفتم ! يا ضهييب ، صل على عمر
كما رضى أن تصلي بهم المكتوبة ، فتقدم ضهييب فصلى على عمر .

قال الشعبي : وأدخل أهل الشورى دارا ، فأقبلوا يتجادلون عليها ، وكلهم بها ضنين ،
وعليها حريص ؛ إما لدنيا وإما لآخرة ، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن : من رجل منكم
يخرج نفسه عن هذا الأمر ، ويختار لهذه الأمة رجلا منكم ، فإني طيبة نفسي أن أخرج منها ،
وأختار لكم ؟ قالوا : قد رضينا ؛ إلا علي بن أبي طالب فإنه اتهمه وقال : أنظر وأرى .
فأقبل أبو طلحة عليه ، وقال : يا أبا الحسن ، ارض برأى عبد الرحمن ، كان الأمر لك
أو لغيرك . فقال علي : أعطني يا عبد الرحمن موثقا من الله لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ،

ولا تَمِلْ إلى صِهْرٍ ولا ذى قرابة ، ولا تعملْ إلَّا لله ، ولا تألُو هذه الأُمَّةَ أن تختارَ لها خيرَها .

قال : خلفَ له عبد الرحمن بالله الذى لا إله إلا هو ، لأجتهدنَّ لنفسي ولكم وللأُمَّة ، ولا أَمِيلُ إلى هَوَى ولا إلى صهر ولا ذى قرابة .

قال : فخرج عبدُ الرحمن ، فكث ثلاثة أيام يشاور الناس ، ثم رجع واجتمع الناس ، وكثروا على الباب لا يشكّون أنه يبايع علىّ بن أبي طالب ، وكان هَوَى قريش كافةً ماعدا بنى هاشم فى عثمان ، وهَوَى طائفة من الأنصار مع علىّ ، وهوى طائفة أخرى مع عثمان ؛ وهى أقلّ الطائفتين ، وطائفة لا يبالون : أيهما بُويع .

قال : فأقبل المقداد بن عمرو ؛ والناس مجتمعون ، فقال : أيّها الناس ؛ اسمعوا ما أقول ، أنا المقداد بن عمرو ؛ إنكم إن بايعتم عليا سمعنا وأطعنا ، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا ؛ فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ ، فنادى : أيّها الناس ، إنكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا ، وإن بايعتم عليّاً سمعنا وعصينا . فقال له المقداد : يا عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ كتابه ، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون ! فقال له عبد الله : يا بنَ الحليف العسيف^(١) ، ومتى كان مثلك يجترئ على الدخول فى أمرِ قريش !

فقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح : أيّها الملاء ؛ إن أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها ، فبايعوا عثمان ؛ فقال عمار بن ياسر : إن أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا عليا ؛ ثم أقبل على عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فقال : يا فاسق يا بن الفاسق ، أنت ممن يستنصحه المسلمون أو يستشيرونه فى أمورهم ! وارتفعت الأصوات ، ونادى منادٍ لا يُدرى مَنْ هو ! فقريش تزعم أنه رجل من بنى مخزوم ، والأنصار تزعم أنه رجل طوال آدم مشرف على الناس — لا يعرفه أحد منهم : يا عبد الرحمن ، افرغ من أمرك ، وامضِ علىّ ما فى نفسك فإنه الصواب .

(١) العسيف : المستهان به .

قال الشعبي : فأقبل عبد الرحمن على علي بن أبي طالب ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذ الله على النبيين من عهد وميثاق : إن بايعتك لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة أبي بكر وعمر ! فقال علي عليه السلام : طاقتي ومبلغ علمي وجهدي رأيي ؛ والناس يسمعون .

فأقبل على عثمان ، فقال له مثل ذلك ، فقال : نعم لا أزول عنه ولا أدع شيئاً منه . ثم أقبل على علي فقال له ذلك ثلاث مرات ، ولعثمان ثلاث مرات ، في كل ذلك يجيب علي مثل ما كان أجاب به ، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به .

فقال : ابسط يدك يا عثمان ، فبسط يده فبايعه ، وقام القوم فخرجوا ؛ وقد بايعوا إلا علي بن أبي طالب ، فإنه لم يبايع .

قال : فخرج عثمان على الناس ووجهه متهلل ، وخرج علي وهو كسف البال مظلم ؛ وهو يقول : يا بن عوف ؛ ليس هذا بأول يوم تظاهرتم علينا ، من دفعنا عن حقنا والاستئثار علينا ! وإنها لسنة علينا ، وطريقة تركتموها .

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان : أما والله لو بويع غيرك لما بايعناه ؛ فقال عبد الرحمن بن عوف : كذبت ؛ والله لو بويع غيره لبايعته ؛ وما أنت وذاك يا بن الدبابة ! والله لو وليها غيره لقلت له مثل ما قلت الآن ، تقرّبا إليه وطمعا في الدنيا ، فاذهب لا أباك ! . فقال المغيرة : لولا مكان أمير المؤمنين لأسمعتك ماتكره . ومضيا .

قال الشعبي : فلما دخل عثمان رحله دخل إليه بنو أمية حتى امتلأت بهم الدار ، ثم أغلقوها عليهم ، فقال أبو سفيان بن حرب : أعندكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : يا بني أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ؛ فوالذي يحلف به أبو سفيان ؛ مامن عذاب ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا قيامة !

قال : فاتهره عثمان ، وساء بما قال ، وأمر بإخراجه .

قال الشعبي : فدخل عبد الرحمن بن عوف على عثمان ، فقال له : ما صنعت ! فوالله ما وفقت حيث تدخل رحلك قبل أن تصعد المنبر ، فتحمد الله وتثني عليه ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتعد الناس خيراً .

قال : فخرج عثمان ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : هذا مقام لم نكون نقومه ، ولم نعد له من الكلام الذي يقام به في مثله ، وسأهين ذلك إن شاء الله ، ولن آلو أمة محمد خيراً ، والله المستعان .
ثم نزل .

قال عوانة : فحدثني يزيد بن جريز ، عن الشعبي ، عن شقيق بن مسleme ، أن علي بن أبي طالب ، لما انصرف إلى رحله ، قال لبنى أبيه : يا بني عبد المطلب ، إن قومكم عادوكم بعد وفاة النبي كعداوتهم النبي في حياته ، وإن يطع قومكم لا تؤمروا أبداً ؛ ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحق إلا بالسيف .

قال : وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، داخل إليهم ، قد سمع الكلام كله ، فدخل ، وقال : يا أبا الحسن ، أتريد أن تضرب بعضهم ببعض ! فقال : اسكت ويحك ! فوالله لولا أبوك وما ركب مني قديماً وحديثاً ، ما نازعني ابن عفاً ولا ابن عوف . فقام عبد الله فخرج .

قال : وأكثر الناس في أمر الهرمزان وعبيد الله بن عمر ، وقتله إياه ، وبلغ ما قال فيه علي بن أبي طالب . فقام عثمان فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان ، وهو رجل من

المسلمين ، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون ؛ وأنا إمامكم وقد عفوت ، أفتعفون عن عبيد الله ابن خليفتم بالأمس ؟ قالوا : نعم ، فعفا عنه ، فلما بلغ ذلك علياً تضاحك ، وقال : سبحان الله ! لقد بدأ بها عثمان ! أيعفون عن حقٍّ امرئٍ ليس بواليه ! تالله إن هذا لهو العجب ! قالوا : فكان ذلك أول ما بدا من عثمان مما نقيم عليه .

قال الشعبي : وخرج المقداد من الغدير ، فلقى عبد الرحمن بن عوف ، فأخذ بيده ، وقال : إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله ، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فأكثر الله مالك . فقال عبد الرحمن : اسمع ، رحمك الله ، اسمع ! قال : لا أسمع والله ؛ وجذب يده من يده ، ومضى حتى دخل على عليٍّ عليه السلام ، فقال : قم فقاتل حتى نقاتل معك ، قال عليٌّ : فبمن أقاتل رحمك الله ! وأقبلَ عمار بن ياسر ينادي : ياناعى الإسلام قم فأنعه قد مات عرفٌ وبدأ نُكرُ

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتهم ، والله لئن قاتلتهم واحدٌ لأكوننَّ له ثانياً . فقال عليٌّ : يا أبا اليقظان ؛ والله لا أجِدُ عليهم أعواناً ، ولا أحبُّ أن أعرضكم لملا تطيقون . وبقي عليه السلام في داره ، وعنده نفر من أهل بيته ؛ وليس يدخل إليه أحدٌ مخافة عثمان .

قال الشعبي : واجتمع أهلُ الشورى على أن تكونَ كلمتهم واحدة على مَنْ لم يبايع ، فقاموا إلى عليٍّ ، فقالوا : قم فبايع عثمان ، قال : فإن لم أفعل ، قالوا : نجاهدك ، قال : فمضى إلى عثمان حتى بايعه ؛ وهو يقول : صدق الله ورسوله . فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف ، فاعتذر إليه ؛ وقال : إن عثمان أعطانا يده ويمينه ، ولم تفعل أنت ، فأحببتُ أن أتوثق للمسلمين ، فجعلتها فيه ، فقال : إياها عنك ! إنما آثرته بها لتناولها بعده ، دقَّ الله بينكما عطرَ منشمٍ^(١) .

(١) منشم : امرأة عطارة من خزاعة ؛ فتحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى تموتوا ؛ فضرب ذلك مثلاً لشدة الأمر .

قال الشعبي : وقدم طلحة من الشام بعد ما بويع عثمان ، فقيل له : رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك ؛ فقال : والله لو بايعتم شرّكم لرضيت ، فكيف وقد بايعتم خيركم ! قال : ثم عدّا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه ، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه .

قال الشعبي : فأما ما يذكره الناس من المناشدة ، وقول عليّ عليه السلام لأهل الشورى : أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؛ فإنه لم يكن يوم البيعة ، وإنما كان بعد ذلك بقليل ؛ دخل عليّ عليه السلام على عثمان وعنده جماعة من الناس ، منهم أهل الشورى ، وقد كان بلغه عنهم هنات وقوارص ، فقال لهم : أفيكم أفيكم ! كلّ ذلك يقولون لا ، قال : لكنني أخبركم عن أنفسكم ؛ أما أنت يا عثمان ففرت يوم حنين ، وتوليت يوم التقي الجمعان ، وأما أنت يا طلحة فقلت : إن مات محمد لتركضن بين خلاخيل نساءه كماركض بين خلاخيل نساءنا ، وأما أنت يا عبد الرحمن ، فصاحب قراريط ، وأما أنت ياسعد فتدقّ عن أن تذكر .

قال : ثم خرج فقال عثمان : أما كان فيكم أحد يردّ عليه ! قالوا : وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين ! وتفرّقوا .

قال عوانة : قال إسماعيل : قال الشعبي : فحدثني عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزدي ، قال : كنت جالسا بالمدينة حيث بويع عثمان ، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو ؛ فسمعته يقول : والله ما رأيت مثل ما أتى إلى أهل هذا البيت ! وكان عبد الرحمن بن عوف جالسا ، فقال : ومأنت وذاك يا مقداد ! قال المقداد : إني والله أحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإني لأعجب من قريش وتطاؤهم على الناس بفضل رسول الله ، ثم انتزاعهم سلطانه من أهله . قال عبد الرحمن : أما والله لقد أجهدت نفسي

لكم . قال المقداد : أما والله لقد تركت رجلاً من الذين يأمرون بالحقّ وبه يعدلون ! أما والله لو أن لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالاً إياهم بيدٍ وأحد . فقال عبد الرحمن : ثكلتك أمك ؛ لا يسمعن هذا الكلام الناس ، فإني أخاف أن تكون صاحب فتنة وفرقة .
قال المقداد : إن من دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة ؛ ولكن من أقحم الناس في الباطل ، وآثر الهوى على الحق ، فذلك صاحب الفتنة والفرقة .
قال : فتربّد وجه عبد الرحمن ، ثم قال : لو أعلم أنك إياي تعني لكان لي ولك شأن .

قال المقداد : إياي تهدّد يا بن أمّ عبد الرحمن ! ثم قام عن عبد الرحمن ، فانصرف .
قال جندب بن عبد الله : فاتبعته ، وقلت له : يا عبد الله ، أنا من أعوانك ، فقال : رحمك الله ! إن هذا الأمر لا يغني فيه الرجلان ولا الثلاثة ، قال : فدخلت من فوري ذلك على عليّ عليه السلام ، فلما جلست إليه ، قلت : يا أبا الحسن ، والله ما أصاب قومك بصرف هذا الأمر عنك ، فقال : صبر جميل والله المستعان .

فقلت : والله إنك لصبور ! قال : فإن لم أصبر فماذا أصنع ؟ قلت : إني جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف ، فقالا كذا وكذا ، ثم قام المقداد فاتبعته ، فقلت له كذا ، فقال لي كذا . فقال عليّ عليه السلام : لقد صدق المقداد ، فما أصنع ؟ فقلت : تقوم في الناس فتدعوهم إلى نفسك ، وتخبرهم أنك أولى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وتسألهم النصر على هؤلاء المظاهرين عليك ، فإن أجابك عشرة من مائة شددت بهم على الباقين ، فإن دانوا لك فذاك ، وإلا قاتلتهم وكنت أولى بالعدو ؛ قتلت أو بقيت ، وكنت أعلى عند الله حجة .

فقال : أترجو يا جندب أن يبايعني من كل عشرة واحد ؟ قلت : أرجو ذلك ، قال : لكنني لا أرجو ذلك ، لا والله ولا من المائة واحد ، وسأخبرك ؛ إن الناس إنما ينظرون إلى

قريش فيقولون : هم قوم محمد وقبيله . وأما قريش بينها فتقول : إن آل محمد يرون لهم على الناس بنبوته فضلا ، ويرون أنهم أولياء هذا الأمر دون قريش ، ودون غيرهم من الناس ، وهم إن ولوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبدا ؛ ومتى كان في غيرهم تداولته قريش بينها ؛ لا والله لا يدفعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبدا !

فقلت : جعلت فداك يا بن عم رسول الله ! لقد صدعت قلبي بهذا القول ، أفلا أُرْجِع إلى المصر ، فأوذِنُ الناسَ بمقاتلتك ، وأدعو الناسَ إليك ؟ فقال : يا جندب ليس هذا زمان ذاك .

قال : فانصرفتُ إلى العراق ، فكنت أذكر فضل عليّ على الناس فلا أعدم رجلا يقول لي ما أكره ، وأحسن ما أسمعُه قول مَنْ يقول : دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك ؛ فأقول : إن هذا مما ينفعني وينفعك ، فيقوم عني ويدعني .

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري : حتى رُفِعَ ذلك من قولي إلى الوليد ابن عُقبة ، أيام ولينا ، فبعث إلى فخبسني حتى كُلم في ، فخلّ سبيلي .

وروى الجوهري ، قال : نادى عمار بن ياسر ذلك اليوم : يا معشر المساميين ، إنا قد كنّا وما كنّا نستطيع الكلام ، قلّة وذلة ، فأعزّنا الله بدينه ، وأكرمنا برسوله ، فالحمد لله رب العالمين . يا معشر قريش ، إلى متى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم ! تحوّلونه هاهنا مرّة ، وهاهنا مرّة ! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم ، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله !

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة : يا بن سميّة ، لقد عدوّت طورك وما عرفتَ قدرك ؛ ما أنت ومارأت قريش لأنفسها ! إنك لست في شيء من أمرها وإمارتها ، فتنح عنها . وتكلّمت قريش بأجمعها ، فصاحوا بعمار وانتهروه ؛ فقال : الحمد لله رب العالمين ؛ ما زال أعوان الحقّ أذلاء ! ثم قام فانصرف .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة الناس :

وإنما ينبغي لأهل العصمة والصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ، ويكون الشكر هو الغالب عليهم ، والحاجز لهم عنهم ، فكيف بالغائب الذي عاب أخاه ، وعيره ببلواه . أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به ! وكيف يذمه بذنوبه قد ركب مثله ! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه ؛ مما هو أعظم منه .

وإنم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير ، وعصاه في الصغير ، لجراته على عيب الناس أكبر .

يا عبد الله ، لا تعجل في عيب أحد بذنبه ، فلعله مغفور له ، ولا تأمن على نفسك صغير معصية ، فلعلك معذب عليه . فليكف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشكر شاعلاً له على معافاته مما ابتلي به غيره .

الشرح :

ليس في هذا الفصل من غريب اللغة ما نشرح .

[أقوال مأثورة في ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين]

ونحن نذكر مما ورد في الغيبة كمعاً نافعة ، على عادتنا في ذكر الشيء عند مرورنا على ما يقتضيه ويستدعيه .

وقد ورد في الكتاب العزيز ذم الغيبة ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ۚ ﴾ (١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يعتب بعضكم بعضاً ، وكونوا عباد الله إخواناً » .

وروى جابر وأبو سعيد عنه صلى الله عليه وآله : « إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، إن الرجل يزني فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » .

وروى أنس عنه صلى الله عليه وآله : « مررت ليلة أُسري بي ، فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم ، فسألت جبريل عنهم ، فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس » .
وفي حديث سلمان ، قلت : يا رسول الله ، علمني خيراً ينفعني الله به ، قال : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أرفضت من دلوك في إناء المستقي ، والحق أخاك ببشر حسن ، ولا تغتابنه إذا أدبر » .

وفي حديث البراء بن عازب : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهن ، فقال : « ألا لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » .

وفي حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال في يوم صوم: «إن فلانة وفلانة كانتا تأكلان كلان اليوم شحم امرأة مسلمة - يعني الغيبة - فمرهما فليتقيا فقاءت كل واحدة منهما علقة دم»^(١).

وفي الصحيح المجمع عليها أنه عليه السلام مرت بقبرين جديدين ، فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان بأكبر ؛ أما أحدهما ؛ فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يتنزه من البول ؛ ودعا بجريدة رطبة فكسرها اثنتين - أو قال : دعا بجر يدتين - ثم غرسهما في القبرين - وقال : «أما إنه سيهون من عذابهما ما دامتا رطبتين» .

وفي حديث ابن عباس أن رجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً ، وهو يمشى عليه السلام ؛ وهما يمشيان معه ، فمر على جيفة ، فقال : «انهشامنها» ، فقالا : يا رسول الله ، أونهش الجيفة ! فقال : «ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه» .

وفي حديث أبي هريرة : «من أكل لحم أخيه حياً قُرب إليه لحمه في الآخرة ، فقليل له : كله ميتاً كما أكلته حياً ، فياً كله ويضج ويكاح» .

وروى أن رجلين كانا عند باب المسجد ، فمر بهما رجل كان مخنثاً ، فترك ذلك ، فقالا : لقد بقي عنده منه شيء ، فأقيمت الصلاة ، فصليا مع الناس ، وذلك يحول في أنفسهما فأتيا عطاء بن أبي رباح ، فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة ، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم .

وعن مجاهد : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ، الهمزة : الطعان في الناس ، واللمزة : النمام .

وعن الحسن : والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في الجسد .

(١) العلقه : القطعة من الدم .

بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكفّ عن أعراض الناس .

ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وهذا مشتق من كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

أبو هريرة : يبصر أحدهما القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه ! وهذا كالأول .

الحسن : يابن آدم ، إنك إن قضيت حقيقة الإيمان فلا تعب الناس بعيب هو فيك حتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك ؛ فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك . وأحبّ العباد إلى الله من كان هكذا .

ويروى أن المسيح عليه السلام مرّ على جيفة كلب ، فقال بعض التلامذة : ما أشدّ نتنه ! فقال المسيح : ما أشدّ بياض أسنانه ! كأنه نهام عن غيبة الكلب ونههم على أنه لا ينبغي أن يذكر من كل شيء إلا أحسنه .

وسمع على بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إن لكل شيء إداماً ، وإدام كلاب الناس الغيبة .

وفي خطبة حجة الوداع : « أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . إن الله حرّم الغيبة كما حرّم المال والدم » .

عمر : ما يمنعكم إذا رأيتم من يخرق أعراض الناس أن تعربوا عليه ، أي تقبّحوا ، قالوا : نخاف سفيهه وشره ، قال : ذلك أدنى ألا تكونوا شهداء .

أنس يرفعه : « من مات على الغيبة حشر يوم القيامة مزرقّة عيناه ، ينادى بالويل والندامة ، يعرف أهله ولا يعرفونه » .

وقال هشام بن عبد الملك فى بعض ولد الوليد بن عُقبة :

أبلغ أبا وهب إذا مالقيته بأنك شرّ الناس غنياً لصاحب
فتبدى له بشراً إذا مالقيته وتلعه بالغيب لسع العقارب
مرّ الشعبيّ بقومٍ يغتابونه فى المسجد ، وفيهم بعض أصدقائه ، فأخذ بعضادتي
الباب ، وقال :

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لغزّةٍ من أعراسنا ما استحلّت^(١)
ومن كلام بعض الحكماء : أبصر الناس بالعوار المعوار ؛ هذا مثل قول الشاعر :
وأجراً من رأيتُ بظهرٍ غيبٍ على عيبِ الرجال ذوو العيوبِ
قيل لشبيب بن شبة بن عقال : ما بال عبد الله بن الأهم يغتابك وينتقصك ! قال :
لأنه شقيقى فى النسب ، وجارى فى البلد ، وشريكى فى الصنعة .
دخل أبو العيّن على المتوكّل ، وعنده جلساؤه ، فقال له : يا محمد كلّمهم كانوا فى غيبتك
منذ اليوم ، ولم يبق أحد لم يذمك غيرى ، فقال :
إذا رضيتُ عنى كرامٌ عشيرتى فلا زال غضباناً علىّ لثامها
قال بعضهم : بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديين ، فلما كان وقت السحر ، حرّكهم
واحد ، فقال : إلى كمّ هذا النوم عن أعراس الناس !
وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء ، وأنعم عليه : ما صنع بك فلان ؟ قال : ما وفّت
نعمته بإساءته ؛ منعنى لذة الثلب ، وحلاوة الشكوى .
أعرابى : من عاب سَفلةً فقد رفعه ، ومن عاب شريفاً فقد وضع نفسه .

نظر بعضُ السَّلفِ إلى رجلٍ يعتاب رجلاً ، وقال : يا هذا ، إنك تملى على حافظيك كتاباً ، فانظر ماذا تقول !

ابن عباس : ما الأسد الضاري على فريسة بأسرع من الدنيء في عرض السَّرى .
بعضهم :

ومطروقة عيناه عن عَيْب نفسه فإنَّ لاح عَيْبٌ من أخيه تبصراً
وقالت رابعة العدوية : إذا نصح الإنسان لله أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله ، فتشاغل بها عن ذكر مساوئ خلقه .

قال عبد الله بن عروة بن الزبير لابنه : يا بني ، عليك بالدين ، فإنَّ الدنيا ما بنتُ شيئاً إلا هدمه الدين ، وإذا بنى الدين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمه ؛ ألا ترى على بن أبي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذمِّه وعيبه وغيبته ! والله لكانما يأخذون بناصيته إلى السماء ! ألا تراهم كيف يندبون موتاهم ، ويرثيهم شعراؤهم ؛ والله لكانما يندبون جيفَ الحُمُر !

ومن كلام بعض الصالحين : الورع في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفضة ، لأنك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجد بك نفسك لخيانته فيه ؛ وقد استودعك عرضه وأنت تغتابه ، ولا تبالى .

كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه كلما اغتاب أحداً أن يتصدَّق بدينار ، وكان إذا مدح أحداً قال : هو كما يشاء الله ، وإذا ذمَّه قال : هو كما يعلم الله .

الأحنف : في خلتان : لا أغتاب جليسي إذا قام عني ، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلوني فيه .

قيل لرجل من العرب : من السيِّد فيكم ؟ قال : الذي إذا أقبل هبناه ، وإذا أدبر اغتبناه .

قيل للربيع بن خَيْثَمَ : ما نراك تعيب أحدا ! فقال : لست راضياً على نفسي ؛ فأتفرغ
لذكر عيوب الناس ! ثم قال :

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها لنفسى فى نفسى عن الناس شاغل
عبد الله بن المبارك ، قلت لسفيان : ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة ! ما سمعته يغتاب
عدوًّا ، قال : هو والله أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها .
سئل فضيل عن غيبة الفاسق ، فقال : لا تشتغل بذكره ، ولا تعود لسانك الغيبة ،
اشغل لسانك بذكر الله ، وإياك وذكر الناس ؛ فإن ذكر الناس داء ، وذكر
الله دواء .

بعض الشعراء :

ولست بذى نيرب فى الصديق خؤون العشيرة سبأها^(١)
ولا من إذا كان فى مجلس أضاع القبيلة واغتابها
ولكن أبجلُّ ساداتها ولا أعلم ألقابها
وكان يقال : الغيبة فاكهة القراء .

وقيل لإسماعيل بن حماد بن أبى حنيفة : أى اللحمان أطيب ؟ قال : لحوم الناس ؛
هى والله أطيب من لحوم الدجاج والدراج^(٢) - يعنى الغيبة .
ابن المغيرة : لا تذكر الميت بسوء ؛ فتكون الأرض أكرم عليه منك .
وكان عبد الملك بن صالح الهاشمي إذا ذكر عنده الميت بسوء ، يقول : كفوا عن
أسارى الثرى .

وفى الأثر : سامع الغيبة أحد المغتابين .

(١) النيرب : العداوة .

(٢) الدراج : طائر على خلقه القطا .

أبو نواس :

ما حطك الواشون من رُتَبَةٍ عِنْدِي وما ضرَّكَ مغتابٌ
كأنهم أثنوا ولم يعلموا عليك عِنْدِي بالَّذِي عابوا
الحسن : ذمُّ الرجل في السرِّ ، مدحٌ له في العلانية .

على عليه السلام : الغيبة جَهْدُ العاجز ؛ أخذه المتنبي فقال :
وأَكْبَرُ نفسٍ عن جزاءٍ بغيبةٍ وكلَّ اغتيابٍ جُهدٌ مَنْ ماله جُهدٌ (١)
بلغ الحسن أن رجلا اغتابه ، فأهدى إليه طبقا من رُطْبٍ ، فجاءه الرجل معذرا ،
وقال : أصلحك الله ! اغتبتك فأهديت لي ! قال : إنك أهديت إليَّ حسناتك ، فأردت
أن أكافئك .

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله ، فقال له : إن الأسواري لم يزل أمس يدكرك ويقول :
عمرو الضال ، فقال له : يا هذا ؛ والله مارعيت حقَّ مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه ،
ولا رعيت حقَّ حين بلغت عن أخى ما أكرهه . أعلمه أن الموت يعمنا ، والبعث يحشرنا
والقيامة تجمعنا ؛ والله يحكم بيننا .

[حكم الغيبة في الدين]

واعلم أن العلماء ذكروا في حدِّ الغيبة : أن تذكر أخاك بما بكرهه لو بلغه ، سواء
ذكرت نقصانا في بدنه ؛ مثل أن تقول : الأقرع ، أو الأعور ؛ أو في نسبه نحو أن تقول :
ابن النبطي ، وابن الإسكاف ، أو الزبال ، أو الحائك ؛ أو في خلقه ، نحو سيِّئ الخلق أو بخيل ،

أو متكبر؛ أوفى أفعاله الدينئة نحو قولك : كذاب وظالم ومتهاون بالصلاة؛ أو الدنيوية نحو قولك : قليل الأدب متهاون بالناس ، كثير الكلام ، كثير الأكل؛ أو في ثوبه كقولك : وسخ الثياب ، كبير العمامة ، طويل الأذيل .

وقد قال قوم : لا غيبة في أمور الدين ، لأن المغتاب إنما ذمّ مآذمه الله تعالى ؛ واحتجوا بما روى أنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله امرأة وكثرة صومها وصلاتها ، ولكنها تؤذى جارتها ، فقال : « هي في النار » ؛ ولم ينكر عليهم غيبتهم إياها .

وروى أن امرأة ذكرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة ، فقال : « فما خيرها إذن » ! وأكثر العلماء على أن الغيبة في أمور الدين محرمة أيضا ، وادّعوا الإجماع على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب ؛ سواء كان في الدين أو في غيره . قالوا : والمخالف مسبوق بهذا الإجماع ، وقالوا : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « هل تدرّون ما الغيبة » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « ذكرك أخاك بما يكرهه » ، فقائل قال : أرايت يارسول الله ، إن كان ذلك في أخي ؟ قال : « إن كان فيه فقد اغتبتّه ، وإن لم يكن فقد بهتّه » ^(١) .

قالوا : وروى معاذ بن جبل أن رجلا ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال قوم : ما أعجزه ! فقال عليه السلام : « اغتبتم صاحبكم » ، فقالوا : قلنا مافيه ، فقال : « إن قلتم مالم ليس فيه فقد بهتموه » .

قالوا : وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة في الدين ؛ ليس بحجة ، لأن الصحابة إنما ذكرت ذلك في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله لحاجتها إلى تعرّف الأحكام بالسؤال ؛ ولم يكن غرضها التنقص .

واعلم أن الغيبة ليست مقصورة على اللسان فقط ، بل كلّ ما عرّفت به صاحبك

(١) بهتّه ، أى قذفه بالباطل .

نقص أخيك فهو غيبة ؛ فقد يكون ذلك باللسان ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وباللمحاة ، نحو أن تمشي خلف الأعرج متعارجا ؛ وبالكتاب ؛ فإن القلم أحد اللسانين .

وإذا ذكر المصنف شخصا في تصنيفه ، وهجن كلامه ، فهو غيبة . فأما قوله : « قال قوم كذا » فليس بغيبة ؛ لأنه لم يعين شخصا بعينه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « مبال أقوام يقولون كذا ! » ، فكان لا يعين ، ويكون مقصوده واحداً بعينه .

وأخبت أنواع الغيبة غيبة القراء المرئيين ؛ وذلك نحو أن يذكر عندهم إنسان ، فيقول قائلهم : الحمد لله الذي لم يملنا بدخول أبواب السلطان ، والتبذل في طلب الخطأ ؛ وقصده أن يفهم الغير عيب ذلك الشخص ؛ فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشكر لله تعالى ، فيحصل من ذلك غيبة المسلم ، ويحصل منه الرياء ، وإظهار التعفف عن الغيبة وهو واقع فيها ؛ وكذلك يقول : لقد ساءنى ما يدكر به فلان ؛ نسأل الله أن يعصمه ؛ ويكون كاذبا في دعوى أنه ساءه ، وفي إظهار الدعاء له ؛ بل لو قصد الدعاء له لأخفاه في خلوة عقب صلواته ، ولو كان قد ساءه لساءه أيضا إظهار ما يكرهه ذلك الإنسان .

واعلم أن الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب كالغيبة ؛ بل أشد ، لأنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة ، فيندفع فيها حكاية ؛ يستخرج الغيبة منه بذلك ؛ وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب ، فما ظنك بالمتحدث في حصول الغيبة ، والباعث على الاستزادة منها ! وقد روى أن أبا بكر وعمر ذكرا إنسانا عند رسول الله ، فقال أحدهما : إنه لنؤوم ؛ ثم أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله خبزا قفارا ، فطلبا منه أدما^(١) ، فقال : قد اتدتما ، قالا : مانعنا ، قال : « بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما » ؛ فجمعهما في الإثم ؛ وقد

(١) الخبز القفار : ما كان بغير آدم ، والأدم : ما يؤتدم به .

كان أحدهما قائلاً والآخر مستمعاً ، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقائه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك ، فإن قال بلسانه : اسكت وهو يريد للغيبة بقلبه ؛ فذلك نفاق ؛ ولا يخرج من الإثم إلا أن يكرهه بقلبه ، ولا يكفي أن يشير باليد ، أى اكفف ، أو بالحاجب والعين ؛ فإن ذلك استحقاق للمذكور ، بل ينبغي أن يذب عنه صريحاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أذلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره ، أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق » .

[فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة]

واعلم أن الأسباب الباعثة على الغيبة أمور :

منها شفاء الغيظ ؛ وذلك أن يجري من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر ، فإذا هاج غضبه تشقّى بذكر مساوئه ، وسبق إليها لسانه بالطبع إن لم يكن هناك دين وازع ؛ وقد يمنع تشقّى الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ، فيصير حقداً ثابتاً ، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء .

ومنهما موافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا اجتمعوا ربّما أخذوا يتفكّرون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه ، ونفروا عنه فيساعدتهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظنّ أنه مجاملة في الصحبة . وقد يغضب رفقاًؤه من أمرٍ فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء ، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء .

ومنها أن يستشعر من إنسان أنه سيذمه ويطول لسانه فيه ، ويقبح حاله عند بعض الرؤساء ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح حاله ، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه . وقد يتدبّر بذكر بعض ما فيه صادقا ليكذب عليه بعد ذلك ، فيروج كذبه بالصدق الأول .

ومنها أن ينسب إلى أمرٍ فيريد التبرؤ منه ؛ فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يبرئ نفسه ، ولا يذكر الذي فعله ، لكنه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه ، وكذا يكون تبرؤا مبتورا ؛ وربما يعتذر بأن يقول : فلان فعله ، وكنت شريكاً في بعض الأمر ليبرئ نفسه بعض البراءة .

ومنها المباهاة وحب الرياسة ؛ مثل أن يقول : كلام فلان ركيك ، ومعرفته بالفن الفلاني ناقصة ؛ وغرضه إظهار فضله عليه .

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قدر من يمدحه الناس بذكر مساوئه ؛ لأنه يشق عليه ثناء الناس عليه ، ولا يجد سبيلا إلى سد باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه .

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك والسخرية ؛ فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة .

واعلم أن الذي يقوى في نفس أن الغيبة لا تكون محرمة إلا إذا كانت على سبيل القصد إلى تنقص الإنسان فقط وغضّ قدره ، فأما إذا خرجت مخرجا آخر ، فليست بجرام ، كمن يظلمه القاضي ويأخذ الرشوة على إسقاط حقوقه ، فإن له أن يذكر حاله للسلطان متظلماً من حيف الحاكم عليه إذ لا يمكنه استيقاء حقوقه إلا بذلك ، فقد قال صلى الله عليه وآله : « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » ، وقال : « لِي^(١) الْوَاجِدُ يَحُلُّ عَقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ » .

(١) يقال : لي عن الأمر ؛ إذا تناقل

وكذلك النهى عن المنكر واجب؛ وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره وردّ القاضى إلى منهج الصلاح ، فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكب المنكر؛ ومن ذكر الإنسان بقلب مشهور فعرف عن عيبه ، كالأعرج والأعمش المحدثين ، لم يكن مغتابا إذا لم يقصد الغضب والنقص .

والصحيح أنّ المجاهر بالفسق لا غيبة له ، كصاحب الماخور والمخنث ، ومن يدعو الناس إلى نفسه أبنّة ، وكالعشار والمستخرج بالضرب؛ فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به؛ وربما تفاخروا بذلك ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « من ألقى جلباب الحياء عن وجهه ، فلا غيبة له » ، وقال عمر : ليس لفاجر حرمة ؛ وأراد المجاهر بالفسق ، دون المستتر .

وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن رحمه الله : الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب ، هل ذكرى له بما فيه غيبة ؟ فقال : لا ، ولا كرامة له !

[طريق التوبة من الغيبة]

واعلم أنّ التوبة من الغيبة تكفر عقابها ، والتوبة منه هى الندم عليها ، والعزم على ألا يعود ، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، فلا حاجة إلى الاستحلال منه ؛ بل لا يجوز إعلامه بذلك ؛ هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله ، لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثم ذلك الإيلام ؛ وفي إعلامه تضيق صدره ، وإدخال مشقة عليه ؛ وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة ، وجب عليه أن يستحلّه ويستوهبه ، فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالبارئ سبحانه من ذلك الوقت ، وبقي ما يختصّ بذلك الميت لا يسقط حتى يؤخذ العوض له من المذنب يوم القصاص .

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ
أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ . أَمَّا إِنَّهُ قَدِيرٌ مِى الرَّامِى ، وَتُخْطِى السَّهَامُ ، وَيُحِيلُ الْكَلَامُ ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ
يَبُورُ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ .

أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ .

فُسِّئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ
ثُمَّ قَالَ :

الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ : سَمِعْتُ ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ : رَأَيْتُ .

الشَّرْحُ :

هذا الكلام هو نهى عن التسرع إلى التصديق بما يقال من العيب والتدح في حق
الإنسان المستور ، الظاهر المشتهر بالصلاح والخير ؛ وهو خلاصة قوله سبحانه : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ
فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ^(١) . ثم
ضرب عليه السلام لذلك مثلاً ، فقال : قد يرمى الرامى فلا يصيب الغرض ، وكذلك قد
يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً ؛ وربما كان لغرض فاسدٍ أو سمعة ممن له غرض

فاسد ، كالعدوّ والحسود ؛ وقد يشتبه الأمر فيُظنّ المعروف منكراً ، فيعجل الإنسان بقول لا يتحققه ، كمن يرى غلام زيد يحمل في إناء مستور مغطى خلا ، فيظنّه خمرأ .

قال عليه السلام : « ويُحيل الكلام » أى يكون باطلا ، أحال الرجلُ في منطقهِ إذا تكلم بالحال الذى لا حقيقة له ، ومن الناس من يرويه : « ويُحيك الكلام » بالكاف ، من قولك : ماحاك فيه السيف ؛ ويجوز « أحاك » بالهمزة ، أى ماثّر يعنى أن القول يؤثر في العِرض وإن كان باطلا ، والرواية الأولى أشهر وأظهر .

ويبور : يفسد . وقوله : « وباطل ذلك يبور » ؛ مثل قولهم : للباطل جولة ، وللحق دولة ؛ وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْخُلُقُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١)

والإصبع مؤنثة ، ولذلك ، قال : « أربع أصابع » فحذف الهاء .

فإن قلت : كيف يقول عليه السلام : الباطل ما يُسمع والحق ما يُرى ؛ وأكثر المعلومات إنما هي من طريق السماع ، كعلمنا الآن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التى لم نرها ، وإنما سمعناها !

قلت : ليس كلامه في المتواتر من الأخبار ، وإنما كلامه في الأقوال الشاذّة الواردة من طريق الآحاد ؛ التى تتضمن القدح فيمن قد غلبت نزاهته ، فلا يجوز العدول عن المعلوم بالمشكوك .

الأضل :

وص كلام له عليه السلام :

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ مِنَ الْحِظِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مُحَمَّدٌ
اللَّثَامُ ، وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ ، مَا دَامَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ : مَا أَجُودَ يَدُهُ ! وَهُوَ عَنْ
ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ ! .

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ، وَلْيُنْفِكْ بِهِ
الْأَسِيرَ وَالْعَانِي ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ ،
ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مُكَارِمِ الدُّنْيَا ، وَدَرَكٌ فَضَائِلِ
الْآخِرَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْبَرْج :

هذا الكلام يتضمن ذم من يُخْرِج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء ونحوهم ،
ويبتغي به المدح والسمعة ، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب ، قال عليه
السلام : ليس له من الحِظِّ إِلَّا مُحَمَّدٌ اللَّثَامُ وَثَنَاءُ الْأَشْرَارِ ، وقولهم : ما أجود يده ! أى
ما أسمحه ! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله - يعنى الصدقات وما يجرى مجراها من صلة
الرَّحْمِ وَالضِّيَافَةِ وَفَكَ الْأَسِيرَ وَالْعَانِي ؛ وهو الأسير بعينه ؛ وإنما اختلف اللفظ .

والغارم: مَنْ عليه الديون . ويقال : صَبَرَ فلان نفسه على كذا مخففاً، أى حبسها ، قال تعالى :
﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾^(١) .
وقال عنتره يذكر حرباً :

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفس الجبان تطلَّعُ^(٢)
وفي الحديث النبويّ في رجل أمسك رجلاً ، وقتله آخر فقال عليه السلام : « اقتلوا
القاتل واصبروا الصابر » : أى احبسوا الذى حبسه للقتل إلى أن يموت .
وقوله : « فإن فوزاً » : أفصح من أن يقول : « فإن الفوز » أو فإن في الفوز كما
قال الشاعر :

إنَّ شِواءَ ونشوةً وخَبَبَ البازلِ الأُمونِ^(٣)
من لذّةِ العيش ، والفتى للدهر ، والدهرُ ذو شئون^(٤)

ولم يقل : « إن الشواء والنشوة » ، والسرفى هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصاً
من جملة أشخاص ، داخلة تحت نوع واحد ؛ ويقول : إن واحداً منها أيها كان فهو من
لذّة العيش ؛ وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع ، ومراده تقرير فضيلة هذه
الخصال في النفوس ، أى متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها ؛ فقد حصل له الشرف ، وهذا
المعنى وإن أعطاه لفظة « الفوز » بالألف واللام إذا قصد بها الجنسية إلا أنه قد
يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية ، فأتى بلفظة لا توهم الاستغراق ؛ وهى اللفظة
المنكرة ؛ وهذا دقيق ، وهو من لهاب علم البيان .

(١) سورة الكهف ٢٨ .

(٢) اللسان ٦ : ١٠٧ ، بقول : حبست نفساً صابرة .

(٣) لسلم بن ربيعة ، ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٣ : ١١٣٧ .

(٤) الحماسة : « ذو فنون » .

الأفضل :

ومنه خطبة له عليه السلام في الاستسقاء :

أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تَظِلُّكُمْ ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ ،
وَمَا أَصْبَحْتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوْجَعًا لَكُمْ ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ ، وَلَا خَيْرٍ
تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ أُمْرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا ، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ
مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا .

إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ ،
وَإِغْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ ،
وَيَزِدَّ جِرْمُزْدَجِرٌّ .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْاسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ ، فَقَالَ
سُبْحَانَهُ : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا .
وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١) .
فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ ، وَبَادَرَ مَنِيئَتَهُ !

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَسْتَارِ وَالْأَكْنَانِ ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبِهَائِمِ
وَالْوِلْدَانِ ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ . وَخَائِفِينَ مِنْ
عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ ، وَلَا تَهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا
بِمَا فَعَلَ الشَّقَاءُ مِنَّا ؛ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .
اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ ، حِينَ أَجَاءْنَا الْمَضَاقِقُ
الْوَعْرَةُ ، وَأَجَاءَنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ ، وَأَعْيَيْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ ، وَتَلَاَحَمَتْ عَلَيْنَا
الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعَبَةُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلَّا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ ، وَلَا تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا ؛
وَلَا تُقَاسِمَنَا بِأَعْمَالِنَا .
اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ ؛ وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةً
مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً ، تُنْبِتُ بِهَا مَاقَدُ فَاتٍ ، وَتُخَيِّمُ بِهَا مَاقَدُ مَاتٍ ، نَافِعَةَ الْحَيَا ؛ كَثِيرَةً
الْمُجْتَنَى ؛ تُرْوِي بِهَا الْقِيْعَانَ ؛ وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ ، وَتُرْخِصُ
الْأَسْعَارَ ؛ إِنَّكَ عَلَى مَا نَشَاءُ قَدِيرٌ .

الْبَرْخُ :

تَظَلَّكُمْ : تعلو عليكم ، وقد أظلتني الشجرة واستظلت بها . والزُّلْفَةُ : القربة ، يقول :
إِنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِذَا جَاءَتَا بِمَنَافِعِكُمْ - أَمَّا السَّمَاءُ فَبِالْمَطَرِ ، وَأَمَّا الْأَرْضُ فَبِالنَّبَاتِ - فَإِنَّهُمَا
لَمْ تَأْتِيَا بِذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَيْكُمْ ، وَلَا رَحْمَةً لَكُمْ ، وَلَكِنَّهُمَا أَمْرَتَا بِنَفْعِكُمْ فَاثْمَثَلَتَا الْأَمْرَ ؛ لِأَنَّهُ
أَمْرٌ مَنْ تَجِبَ طَاعَتُهُ ، وَلَوْ أَمْرَتَا بِغَيْرِ ذَلِكَ لَفَعَلْتَاهُ . وَالْكَلَامُ مُجَازٌ وَاسْتِعَارَةٌ ، لِأَنَّ الْجَمَادَ
لَا يُؤْمَرُ ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْكُلَّ مُسَخَّرٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَمِرَادُهُ تَمْهِيدُ قَاعِدَةِ الْاسْتِسْقَاءِ ،
كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِذَا كَانَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ أَيَّامَ الْخُصْبِ وَالْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ مِنْهُمَا
مُحِبَّةً لَكُمْ ، وَلَا رَجَاءُ مَنَفْعَةٍ مِنْكُمْ ؛ بَلْ طَاعَةُ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ سَبْحَانَهُ فِيمَا سَخَّرَ هُمَا لَهُ ،

فكذلك السماء والأرض أيام الجذب وانقطاع المطر وعدم الكلاء ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم ، ولا استدفاع ضررٍ يُخاف منكم ، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخرهما له ، وإذا كان كذلك فبالحرى ألا نأمل السماء ولا الأرض وأن نجعل آمالنا معلقة بالملك الحق المدبر لهما ، وأن نستريحه وندعوّه ونستغفره ، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون : مُطِرنا بنوء كذا ، وقد سَخِطَ النوء الفلانيّ على بني فلان فأمحلوا .

ثم ذكر عليه السلام أن الله تعالى يبتلى عباده عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم ، وحبس مطر السماء عنهم ؛ وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية ، لأن أصحابنا يذهبون إلى أن الغلاء قد يكون عقوبة على ذنب ، وقد يكون لطفاً للمكلفين في الواجبات العقلية وهو معنى قوله : « ليتوب تائب ... » إلى آخر الكلمات . ويقلع : يكفّ ويمسك .

ثم ذكر أن الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في دُرور الرزق ، واستدلّ عليه بالآية التي أمر نوح عليه السلام فيها قومه بالاستغفار ؛ يعنى التوبة عن الذنوب ، وقدم إليهم الموعد بما هو واقع في نفوسهم ، وأحب إليهم من الأمور الآجلة ، فمنّاهم الفوائد العاجلة ، ترغيباً في الإيمان وبركاته ، والطاعة وتناجها ، كما قال سبحانه للمسلمين : ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾^(١) فوعدهم بمحبوب الأنفس الذي يروونه في العاجل عياناً ونقداً لا جزاء ونسيئة . وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾^(٣)

(١) سورة الصف ١٣ .

(٢) سورة الأعراف ٩٦ .

(٣) سورة المائدة ٦٦ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ (١) .

[الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب]

وكل ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدنيا ومضارها ، أما منافعها فمثل أن يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثرت من أولادكم وأطلت أعماركم ، وأوسعت أرزاقكم ، واستبقيت اتصال نسلكم ، ونصرتكم على أعدائكم ، وإن عصيتم وخلفتم اخترمتكم ونقصت من آجالكم ، وشئت شملكم ، ورميتكم بالجوع والمحل ، وأذلت أولادكم ، وأشمت بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم ، وشردتكم في البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذل ، ونحو ذلك .

ولم يأت في التوراة وعد ووعد بأمر يتعلق بما بعد الموت . وأما المسيح عليه السلام ، فإنه صرح بالقيامة وبعث الأبدان ؛ ولكن جعل العقاب روحانياً ؛ وكذلك الثواب ؛ أما العقاب فالوحشة والفرع وتخيل الظلمة وخبث النفس وكدرها وخوف شديد ، وأما الثواب فما زاد على أن قال : إنهم يكونون كلملائكة ؛ وربما قال : يصعدون إلى ملكوت السماء ، وربما قال أصحابه وعلماء ملته : الضوء واللذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم . هذا هو قول المحققين منهم ؛ وقد أثبت بعضهم ناراً حقيقية ، لأن لفظة « النار » وردت في الإنجيل ، فقال محققوهم : نار قلبية أى نفسية روحانية ، وقال الأقلون : نار كهذه النار . ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدني ، فقال : الرعدة وصير الأسنان ؛ فأما الجنة بمعنى الأكل والشرب والجماع ؛ فإنه لم يقل منهم قائل به أصلاً ، والإنجيل صرح بانتفاء ذلك في القيامة تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب ؛ وجاء خاتم الأنبياء محمد

صلى الله عليه وسلم فأثبت المعاد على وجه محقق كامل ؛ أكل مما ذكره الأولان ، فقال : إنَّ البدن والنفس معاً مبعوثان ؛ ولكلٍّ منهما حظٌّ في الثواب والعقاب .

وقد شرح الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد ، تعرف ” بالرسالة الأصحوبة “ ، شرحاً جيّداً ، فقال : إنَّ الشريعة المحمدية أثبتت في القيامة ردّ النفس إلى البدن ، وجعلت للمثاب والمعاقب ثواباً وعقاباً بحسب البدن والنفس جميعاً ؛ فكان المثاب لذات بدنية من حور عين وولدان مخلصين وفاكهة مما يشتهون ، وكأس لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وجنّات تجري من تحتها الأنهار ؛ من لبنٍ وعسل وخمر وماء زلال ، وسرر وأرائك وخيام وقباب ، فرشها من سندس وإستبرق ؛ وما جرى مجرى ذلك . ولذات نفسانية من السرور ومشاهدة الملكوت والأمن من العذاب والعلم اليقيني بدوام ما هم فيه ، وأنّه لا يتعقّبه عدم ولا زوال ، والخلوّ عن الأحزان والخاوف . وللمعاقب عقاب بدنيّ ؛ وهو المقامع من الحديد ، والسلاسل ، والحريق والحميم والغسلين والصّراخ والجلود التي كلّما نضجت بدّلوا جلوداً غيرها ، وعقاب نفسانيّ من اللعن والحزى والجلجلة والندم والخوف الدائم واليأس من الفرج ، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيئة التي هم عليها .

قال : فوقّت الشريعة الحكمة حقّها من الوعد الكامل ، والوعيد الكامل ؛ وبهما ينتظم الأمر ، وتقوم الملة ؛ فأما النصارى وما ذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان ، ثم خلّوها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح ، فهو أركٌ ما ذهب إليه أرباب الشرائع وأسخفه ، وذلك أنّه إن كان السبب في البعث هو أنّ الإنسان هو البدن ، أو أنّ البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة ، فوجب أن يبعث ، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك ، فإنه يوجب أن يثاب البدن ، ويعاقب بالثواب والعقاب البدنيّ المفهوم عند العالم ، وإن كان الثواب والعقاب روحانياً فما الغرض في بعث الجسد ؟ ثم ما ذلك

الثواب والعقاب الروحانيان ! وكيف تصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا ! كلاً بل لم تصوّر لهم الشريعة النصرانية من ذلك شيئاً ، غير أنهم يكونون في الآخرة كالملائكة ، وهذا لا يفي بالترغيب التام ، ولا ماذكروه من العقاب الروحانيّ - وهو الظلمة وخبث النفس - كافٍ في الترهيب . والذي جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه .
انقضى كلام هذا الحكيم .

* * *

فأما كون الاستغفار سبباً لنزول القطر ودرور الرزق ، فإن الآية بصريحها ناطقة به ، لأنها أمرٌ وجوابه ، قال : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ ، كما تقول : قم أكرمك ، أى إن قمت أكرمك ؛ وعن عمر أنه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح^(١) السماء التي يُستنزل بها المطر .

وعن الحسن أن رجلاً شكاً إليه الجذب ، فقال : استغفر الله ، فشكا آخرٌ إليه الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : رجال أتوك يشكون أبواباً ، ويشكون أنواعاً ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ، فتلا له الآية .

قوله : « استقبل توبته » أى استأنفها وجدّدها . واستقال خطيئته : طلب الإقالة منها والرحمة . وبادر منيته : سابق الموت قبل أن يدهمه .

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٦ ، قال : « المجادح ، واحدها مجدح ، والياء زائدة للإشباع ، والقياس أن يكون واحدها « مجداح » ؛ فأما « مجدح » فجمعه مجادح ، والمجدح : نجم من النجوم ؛ قيل : هو الدبران ، وقيل : هو ثلاثة كواكب كالأنثى تشيهاً بالمجدح الذي له ثلاث شعب ؛ وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفون ، لاقولاً بالأنواء ، وجاء بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر .

قوله عليه السلام : « لا تهلِكُنَا بالسَّنين » جمع : سَنَة ، وهى الجذب والمحل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّنين ﴾ ^(١) ، وقال النبى صلى الله عليه وآله يدعو على المشركين : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، والسَّنة لفظ محذوف منه حرف ، قيل إنه الهاء ، وقيل الواو ، فمن قال : المحذوف هاء ، قال : أصله « سَنَهَة » مثل جَبَهَة ، لأنهم قالوا : نخلة سَنَهَاء ، أى تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى ، وقال بعض الأنصار :

فليست بسنهاء ولا رُجَبِيَّةٍ ولكن عرايا فى السنين الجوايح ^(٢)

ومن قال أصلها الواو ، احتج بقولهم : أسنى القوم يُسنون إسناء ، إذا لبثوا فى المواضع سَنَة ؛ فأما التصغير فلا يدل على أحد المذهبين بعينه ، لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيَّة ، والأكثر فى جمعها بالواو والنون « سنون » بكسر السين كما فى هذه الخطبة ، وبعضهم يقول : « سنون » بالضم .

والمضايق الوغرة ، بالتسكين ، ولا يجوز التحريك ، وقد وُغِرَ هذا الشئ بالضم وُغورة ، وكذلك توغّر ، أى صار وُغرا ، واستوعرتُ الشئ : استصعبته .

وأجاءتنا : ألجأتنا ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ^(٣) .

والمقاحط المجذبة : السنون المحملة ، جمع مقحطة .

وتلاحت : اتصلت . والواجم : الذى قد اشتدَّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام ، والماضى « وَجَم » بالفتح يجم وُجوما .

قوله : « ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقايسنا بأعمالنا » ، أى لا تجعل جواب دعائنا لك ما تقتضيه ذنوبنا ؛ كأنه يجعله كالمخاطب لهم ، والجيب عما سألوه إياه ، كما يفاوض الواحد

(١) سورة الأعراف ١٣٠ .

(٢) اللسان (سنه) ، ونسبه إلى سويد بن الصامت الأنصارى .

(٣) سورة مريم ٢٣ .

مناصحبه ويستعطفه ، فقد يحببه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبه إذا اشتدت موجدته عليه ونحوه
ولا تقايسنا بأعمالنا ، قستُ الشيء بالشيء إذا حذوته ومثلته به ، أى لا تجعل
ماتجيبنا به مقاييساً ومماثلاً لأعمالنا السيئة .

قوله : « سُقِيَا ناقة » هى « فُعِلَ » مؤنثة غير مصروفة .

والحيا : المطر . وناقعة مروية مسكنة للعطش ، نَقَعَ الماء العطش نَقْعاً ونَقوعاً سَكَنَهُ ،
وفى المثل « الرشف أنقع » ، أى أن الشراب الذى يُرَشَف قليلاً قليلاً أتجمع وأقطع للعطش ؛
وإن كان فيه بطاء .

وكثيرة المجتنى ، أى كثيرة الكلاء ، والكلاء : الذى يجتنى ويرعى . والقيعان : جمع قاع ،
وهو الفلاة .

والبطنان : جمع بطن ؛ وهو الغامض من الأرض ، مثل ظهر وظهران
وعبد وعبدان .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ؛ لِئَلَّا
تَحِبَّ الْحُجَّةُ لَهُمْ بَتْرَكَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ .
أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ؛ لَا أَنَّهُ جَهْلَ مَا أَخْفَوَهُ مِنْ مَصُونِ
أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ : أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، فَيَكُونَ
الثَّوَابُ جَزَاءً وَالْعِقَابُ بَوَاءً .

أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا ؛ أَنْ رَفَعَنَا
اللَّهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ ؛ بِنَا يُسْتَفْطَى الْهُدَى ،
وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى .

إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ ؛ لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ،
وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ .

الشرح :

أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى
نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ^(٢) .

(١) سورة النساء ١٦٥ .

(٢) سورة الإسراء ١٥ .

فإن قلت : فهذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة في قولهم بالواجبات عقلا ،
ولو لم تبعث الرسل !

قلت : صحة مذهبهم تقتضي أن تُحمل عمومُ الألفاظ على أن المراد بها الخصوص ؛
فيكون التأويل : لئلا يكون للناس على الله حجة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه ،
كالشرعيّات ؛ وكذلك : « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا » على ما لم يكن العقل
دليلاً عليه حتى نبعث رسولا .

الإعذار : تقديم العذر . ثم قال : إن الله تعالى كشف الخلق بما تعبّد بهم به من
الشرعيّات على ألسنة الأنبياء ؛ ولم يكن أمرهم خافيا عنه ، فيحتاج إلى أن يكشفهم بذلك ،
ولكنه أراد ابتلاءهم واختبارهم ؛ ليعلم أيّهم أحسن عملا ، فيعاقب السيء ،
ويثيب المحسن .

فإن قلت : الإشكال قائم ، لأنه إذا كان يعلم أيّهم يحسن ، وأيّهم يسيء ؛ فما فائدة
الابتلاء ؟ وهل هو إلا محض العبث !

قلت : فائدة الابتلاء إيصال نفع إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة
هذا الابتلاء ؛ وهو ما يقوله أصحابنا : إنَّ الابتلاء بالثواب قبيح ، والله تعالى يستحيل أن
يفعل القبيح .

قوله : « وللعقاب بواء » أي مكافأة ؛ قالت ليلي الأخيلية :

فإن تكن القتلى بواء فإنكم فتى ماقتلتم آل عوف بن عامر^(١)
وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضا ، إذا قتلته به ، وقد باء الرجل بصاحبه ، أي قُتل به

(١) في مقتل توبة بن الحخير ، اللسان ١ : ٢٩ .

وفي المثل : « باءت عرارٌ بكحل » ^(١) وهما بقرتان؛ قتلت إحداها بالأخرى . وقال مهلهل
لُبجير لما قتل : « بُؤُ بشِسع نعل كليب » .

قوله عليه السلام « أين الذين زعموا » هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من
الصحابة كانوا ينازعونه الفضل ؛ فمنهم مَنْ كان يدعى له أنه أفرض ، ومنهم من كان
يدعى له إنه أقرأ ، ومنهم كان يدعى له أنه أعلم بالحلال والحرام . هذا مع تساييم هؤلاء له
أنه عليه السلام أقضى الأمة ، وأن القضاء يحتاج إلى كل هذه الفضائل ، وكل واحدة منها
لا تحتاج إلى غيرها ، فهو إذن أجمع للفقهاء وأكثرهم احتواء عليه ، إلا أنه عليه السلام لم يرض
بذلك ولم يصدق الخبر الذي قيل : « أفرضكم فلان » إلى آخره فقال : إنه كذب وافتراء
حمل قوما على وضعه الحسد والبغى والمنافسة لهذا الحى من بنى هاشم ، أن رفعهم الله على
غيرهم ، واختصهم دون مَنْ سواهم .

وأن هاهنا للتعليل ، أى « لأن » فحذف اللام التى هى أداة التعليل على الحقيقة قال سبحانه :
﴿ بِئْسَ مَا قَدَّمْتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) : وقال بعض النحاة لبعض
الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة للفقهاء إلى النحو : ما تقول لرجل قال لزوجته : أنت طالق
إن دخلت الدار؟ فقال : لا يقع إلا بالدخول ، فقال : فإن فتح الهمزة قال : كذلك ، فعرفه أن
العربية نافعة فى الفقه ، وأن الطلاق منجز لا معلق ، إن كان مراده تعليل الطلاق بوقوع
الدخول لاشتراطه به .

ثم قال : « بنا يستعطى الهدى ، أى يطلب أن يعطى ، وكذلك « يستجلى » أى
يطلب جلاؤه .

ثم قال : إن الأمة من قر يش . . . إلى آخر الفصل .

(١) المثل فى اللسان ١٤ : ١٠٣ ، قال : ومن أمثالهم : « باءت عرار بكحل » ؛ إذا قتل القاتل
بمقتوله ؛ يقال : كائنا بقرتين فى بنى إسرائيل ، قتلت إحداها بالأخرى . ونقل عن ابن برى : كحل
بمنزله « دعد » بصرف ولا ينصرف .

(٢) سورة المائدة ٨٠ .

[اختلاف الفرق الإسلامية في كون الأئمة من قریش]

وقد^(١) اختلف الناس في اشتراط النسب في الإمامة ، فقال قوم من قدماء أصحابنا : إنَّ النسب ليس بشرط فيها أصلاً ، وإنَّها تصلح في القرشي وغير القرشي إذا كان فاضلاً مستجمعاً للشرائط المعتبرة ، واجتمعت الكلمة عليه ، وهو قول الخوارج .

وقال أكثر أصحابنا : وأكثر الناس أنَّ النسب شرط فيها ، وإنَّها لا تصلح إلا في العرب خاصة ؛ ومن العرب فقريش خاصة . وقال أكثر أصحابنا : معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : « الأئمة من قریش » إنَّ القرشية شرط إذا وُجد في قریش من يصلح للإمامة ؛ فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح ، فليست القرشية شرطاً فيها .

وقال بعض أصحابنا : معنى الخبر أنه لا تخلو قریش أبداً من يصلح للإمامة ، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلح من قریش لها في كل عصر وزمان .

وقال معظم الزيدية : إنَّها في الفاطميين خاصة من الطالبين ، لا تصلح في غير البطنيين ، ولا تصح إلا بشرط أن يقوم بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس . وبعض الزيدية يجيز الإمامة في غير الفاطميين من ولد علي عليه السلام ؛ وهو من أقوالهم الشاذة .

وأما الراوندية فإنهم خصَّصوها بالعباس رحمه الله وولده من بين بطون قریش كلها ؛ وهذا القول الذي ظهر في أيام المنصور والمهدي ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها سارية في ولد الحسين عليه السلام في أشخاص مخصوصين ، ولا تصلح عندهم لغيرهم . وجعلها الكيسانية في محمد بن الحنفية وولده ، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره .

فإن قلت : إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم ، فما قولك في هذا

(١) كذا في ١ ، ب و في د : « قد » .

الكلام وهو تصريح بأن الإمامة لا تصلح من قريش إلا في بني هاشم خاصة ، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة ؛ لا متقدميهم ولا متأخريهم !

قلت : هذا الموضع مشكل ، ولى فيه نظر ؛ وإن صح أن عليا عليه السلام ، قاله ، قلت كما قال ، لأنه ثبت عندى أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إنه مع الحق ، وإن الحق يدور معه حيثما دار » ، ويمكن أن يتأول ويطبّق على مذهب المعتزلة فيحمل على أن المراد به كمال الإمامة كما حمل قوله صلى الله عليه وآله : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » ، على نفي الكمال ، لا على نفي الصّحة .

الأضل :

منها :

آثَرُوا عَاجِلًا ، وَأَخَرُوا آجِلًا ، وَتَرَكَوا صَافِيًا ، وَشَرِبُوا آجِنًا ؛ كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى فَاسِقِيهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَالَفَهُ ، وَبَسِيَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا كَالْتِّيَارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقَعَ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفَلُ مَا حَرَّقَ .

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَضِيجَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى ، وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إِلَى مَنَازِلِ التَّقْوَى ! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ! ازْدَحُمُوا عَلَى الْخَطَايَا ، وَتَشَاحُوا عَلَى الْحُرَامِ ، وَرَفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَتَفَرَّقُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا !

الشَّنْحُ :

آثَرُوا : اختاروا . وأَخَرُوا : تركوا . الآجِن : الماء المتغيَّر . أَجَنَ الماء يَأْجُنُ وَيَأْجِنُ .
وَبَسَىُّ به : أَلْفَهُ ، وناقَة بَسُوْء : أَلِفَتِ الحَالِبَ وَلَا^(١) تَمْنَعُهُ . وشابت عليه مفارقة : طال
عمره به مُذْ زَمَنِ الصَّبَا حَتَّى صَارَ شَيْخًا . وَصَبَغَتْ به خِلَاتُهُ مَا صَارَتْ طَبَعًا لِأَنَّ الْعَادَةَ
طَبِيعَةٌ ثَانِيَةٌ .

مُزْبَدًا ، أَى ذُو زَبَدٍ ، وَهُوَ مَا يُخْرَجُ مِنَ الْفَمِ كَالرَّغْوَةِ ؛ يُضْرَبُ مِثْلًا لِلرَّجْلِ
الصَّائِلِ الْمُقْتَحِمِ .

والتَّيَّارُ : مَعْظَمُ اللَّجَّةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا السَّيْلُ . وَالهَشِيمُ : دَقَاقُ الْحَطَبِ .
وَلَا يَحْفَلُ ، بِفَتْحِ حَرْفِ الْمَضَارَعَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَاضِيَ ثَلَاثِي ، أَى لَا يَبَالِي .
وَالْأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ : النَّازِعَةُ . وَتَشَاخَوْا : تَضَايَقُوا ، كُلُّهُمْ يَرِيدُ أَلَّا يَفُوتَهُ ذَلِكَ ،
وَأَصْلُهُ الشَّحُّ وَهُوَ الْبَخْلُ .

فَإِنْ قُلْتَ : هَذَا الْكَلَامُ يَرْجِعُ إِلَى الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ ؟
قُلْتَ : لَا ؛ وَإِنْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ عَنَاهُمْ ؛ بَلْ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْمٍ مِمَّنْ يَأْتِي مِنَ الْخَلْفِ
بَعْدَ السَّلَفِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ قَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ ؛ وَهَذَا اللَّفْظُ
إِنَّمَا يُقَالُ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَوْجَدْ بَعْدَ ، كَمَا قَالَ فِي حَقِّ الْأَتْرَاكِ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ قَوْمًا كَأَنَّ
وُجُوهَهُمْ الْجَانَّ » ، وَكَمَا قَالَ فِي حَقِّ صَاحِبِ الزَّنَجِ : « كَأَنِّي بِهِ يَا أَحْنَفُ قَدْ سَارَ فِي الْجَيْشِ » ،
وَكَمَا قَالَ فِي الْخُطْبَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا آتِفًا : « كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقْتُ بِالشَّامِ » يَعْنِي بِهِ عَبْدَ الْمَلِكِ .
وَحَوْشِي عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ يَعْْنِي بِهَذَا الْكَلَامِ الصَّحَابَةَ ، لِأَنَّهُمْ مَا آثَرُوا الْعَاجِلَ ، وَلَا أَخَرُوا الْآجِلَ
وَلَا صَحَبُوا الْمُنْكَرَ ، وَلَا أَقْبَلُوا كَالْتِّيَّارِ ؛ لَا يَبَالِي مَا غَرِقَ ، وَلَا كَالنَّارِ لَا تَبَالِي مَا أَحْرَقَتْ ،
وَلَا أَرْدَحُمَا عَلَى الْخَطَامِ ، وَلَا تَشَاخَوْا عَلَى الْحَرَامِ ، وَلَا صَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ ، وَلَا أَقْبَلُوا

(١) ج : « فَلَا تَمْنَعُهُ » .

إلى النار بأعمالهم ، ولا دعاهم الرحمن فولّوا ، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا . وقد علم كلّ
أحدٍ حُسْنَ سيرتهم ، وسَدَّاد طريقتهم وإِعْرَاضَهُمْ عن الدنيا وقد ملكوها ، وزهَدَهُمْ فيها
وقد تمكّنوا منها ، ولولا قوله : « كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ » لم أبعاد أن يعنى بذلك قومًا ممّن
عليه اسم الصحابة وهو ردىء الطريقة ، كالْمَغِيرَةِ بن شعبة وعمرو بن العاص ، ومَرْوَان بن
الحكم ، ومعاوية ، وجماعة معدودة أَحَبُّوا الدنيا واستغواهمُ الشَّيْطَانُ ؛ وهم معدودون في كتب
أصحابنا . ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَآيَا ؛ مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَ ؛ وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ ؛ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى ، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا يَهْدِمَ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَلَا تُجَدِّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلَّا بِنِفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ؛ وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ ، وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مُحْصُودَةٌ . وَقَدْ مَضَتْ أَصُولُ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ !

الشَّنْحُ :

الغَرَضُ : مَا يَنْصَبُ لِيُرْمَى ، وَهُوَ الْمَدْفُ . وَتَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَآيَا : تَتَرَامَى فِيهِ لِلسَّبْقِ ؛ وَمِنْهُ الْإِتْنَضَالُ بِالْكَلَامِ وَبِالشَّعْرِ^(١) ، كَأَنَّهُ يَجْعَلُ الْمَنَآيَا أَشْخَاصًا تَتَنَاضَلُ بِالسَّهَامِ ؛ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَمُوتُ قَتْلًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ غَرَقًا ، أَوْ يَتَرَدَّى فِي بئرٍ ، أَوْ تَسْقُطُ عَلَيْهِ حَائِطٌ ، أَوْ يَمُوتُ عَلَى فِرَاشِهِ .

ثُمَّ قَالَ : « مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقَ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ » : بَفَتْحِ الْغَيْنِ ، مُصَدَّرٌ قَوْلُكَ : غَصِصَتْ يَافِلَانِ بِالطَّعَامِ ، وَرَوَى : « غُصَصَ » جَمْعُ غُصَّةٍ ؛ وَهِيَ الشَّجَا ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ بَعْضِهِمْ : الْمُنْحَةُ فِيهَا مَقْرُونَةٌ بِالْحَنَةِ ، وَالنِّعْمَةُ مَشْفُوعَةٌ بِالنِّقْمَةِ .

(١) فِي أ ، ب : « الشَّعْر » ، وَمَا أُثْبِتَهُ مِنْ د ، ج .

وقد بالغ بعض الشعراء في الشكوى ، فأتى بهذه الألفاظ ، لكنه أسرف ، فقال :
حَظِّي مِنَ الْعَيْشِ أَكُلْتُ كُلَّهُ غَصَصٌ مَرَّ الْمَذَاقُ ، وَشَرَبْتُ كُلَّهُ شَرَقٌ
ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه ، أن نعيم الدنيا لا يدوم ؛ فإذا أحسنت
أسأت ، وإذا أنعمت أنقمت .

ثم قال : « لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى » ؛ هذا معنى لطيف ، وذلك أن الإنسان
لا يتهيأ له أن يجمع بين الملاذِّ الجسمانية كلها في وقت ، فحال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً ،
وحال ما يشرب لا يأكل ، وحال ما يركب للقنص والرياضة ، لا يكون جالساً على فراش
وثير ممهد ؛ وعلى هذا القياس لا يأخذ في ضرب من ضروب الملاذِّ إلا وهو تارك
لغيره منها .

ثم قال : « ولا يعمّر معمرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله » ؛ وهذا أيضاً
لطيف ، لأنَّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقطعه ،
ويوم السبت من أيام عمره ؛ فإذا قد هدم من عمره يوماً ، فيكون قد قرب إلى الموت ؛ لأنه
قد قطع من المسافة جزءاً .

ثم قال : « ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه » ؛ وهذا صحيح فإنَّ
فسرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين ، فإن الإنسان لا يأكل
لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التي قبلها ، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها
من رزقه .

ثم قال : « ولا يحيا له أثر ، إلا مات له أثر » ؛ وذلك أن الإنسان في الأعم الأغلب
لا ينتشر صيته ويشيع فضله إلا عند الشيخوخة ؛ وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم
في الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنّه ؛ فإذا ما حي له أثر إلا بعد أن مات له أثر ، وهو قوته ونشاطه
وشبابته ، ومثله قوله : « ولا يتجدد له جديد ؛ إلا بعد أن يخلق له جديد » .

ثم قال : « ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصورة » ؛ هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبناء أبنائهم في الأعم الأغلب ، ولهذا قال : « وقد مضت أصول نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله » ؛ وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى ، فقالوا فيه وأكثروا ؛ نحو قول الشاعر :

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل^(١)
فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معد فلتزعك العواذل
وقال الشاعر :

فعددت أبائي إلى عرق الثرى فدعوتهم فعلت أن لم يسمعوا
لا بد من تلف مصيب فانتظر أبارض قومك أم بأخرى تصرع
وقد صرح أبو العتاهية بالمعنى ؛ فقال :
كل حياة إلى ممات وكل ذي جدية يحول
كيف بقاء الفروع يوماً وقد دوت قبلها الأصول !

الأفضل :

منها :

وما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة ، فاتقوا البدع ، والزمو المهيبة .
إن عوازم الأمور أفضلها ، وإن محدثاتها شرارها .

الشَّيْخُ :

البدعة : كل ما أحدث مما لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فمنها الحسن كصلاة التراويح ، ومنها القبيح كالمسكرات التي ظهرت في أواخر الخلافة العثمانية ؛ وإن كانت قد ^(١) تكلفت الأعداء عنها .

ومعنى قوله عليه السلام : « ما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة » ؛ أن من السنة ألا تحدث البدعة ، فوجود البدعة عدم السنة لاحالة .

والمهيئ : الطريق الواضح ، من قولهم : أرض هيعة ، أى مبسوطة واسعة ؛ والميم مفتوحة وهى زائدة .

وعوازم الأمور : ما تقدم منها ، من قولهم : عجوز عوزم أى مسنة ، قال الراجز :

لقد غدوت خلق الثياب أحمل عدلين من التراب ^(٢)

لعوزم وصبيبة سغاب فأكل ولا حس وآبى

ويجمع « فاعل » على فواعل ، كدورق ، وهو جل ، ويجوز أن يكون « عوازم » جمع عازمة ، ويكون فاعل بمعنى مفعول ، أى معزوم عليها ، أى مقطوع معلوم ييقن صحتها ، ومجىء « فاعلة » بمعنى « مفعولة » كثير ، كقولهم : عيشة راضية بمعنى مرضية ، والأول أظهر عندى ، لأن فى مقابلته قوله : « وإن محدثاتها شرارها » ، والمحدث فى مقابلة القديم .

(١) ساقطة من أ .

(٢) اللسان ١٥ : ٢٩٥ (عن الفراء) .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر في الشخص لقتال الفرس بنفسه:

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خُذْلَانُهُ بِكَثْرَةِ وَلَا بَقَلَّةِ، وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ،
وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُمَا ^(١) طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ
اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزُ وَعْدِهِ، وَنَاصِرُ جُنْدِهِ؛ وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ
الْخُرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِذَا انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخُرَزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ
بِحَذَائِيرِهِ أَبَدًا.

وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْاجْتِمَاعِ؛
فَكُنْ قُطْبًا وَاسْتَدِرَّ الرِّحَى بِالْعَرَبِ؛ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ
مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ
مَا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الْأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ؛ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ
اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ
أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ؛ وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ
عَدَدِهِمْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثَرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

الشَّحْرُ :

نظام العَقْد : الخيط الجامع له ، وتقول : أخذته كله بحذافيره ، أى بأصله ؛ وأصل الحذافير أعلى الشئ ونواحيه ؛ الواحد حَذْفَار .

وأصلهم نار الحرب : اجعلهم صالين لها ، يقال : صليت اللحم وغيره أصليه صلياً ، مثل رميته أرميه رَمِيّاً ، إذا شويته ، وفي الحديث إنه صلى الله عليه وآله أتى بشاة مَصْلِيَّة^(١) ، أى مشوية . ويقال أيضاً : صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلأها ، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف ، وصليته تصلية ، وقرئ ﴿ وَيُصَلِّي سَعِيرًا ﴾^(٢) ومن خفف فهو من قولهم : صلي فلان بالنار بالكسر يصلي صليّاً احترق ، قال الله تعالى : ﴿ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾^(٣) ويقال أيضاً : صلي فلان بالأمر ؛ إذا قاسى حره وشدته ، قال الطهوي :

وَلَا تَبْلَىٰ بِسَالَتِهِمْ وَإِنْ هُمْ صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ^(٤)

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو مجاز من الإحراق ، والشئ الموضوع لها هذا اللفظ حقيقة .

والعورات : الأحوال التي يخاف انتقاضها في ثغر أو حرب ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾^(٥) . وَالْكَلْب : الشر والأذى .

[يوم القادسية]

واعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر ، فقليل : قاله له في

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٧٣ .

(٢) سورة الانشقاق ١٢ ، وهي قراءة الحرّين وابن عامر والكسائي . تفسير القرطبي ١٩ : ٢٧٠ .

(٣) سورة مريم ٧٠ .

(٤) لأبي الغول الطهوي ، الحماسة ، بشرح المرزوقي ١ : ٤١ .

(٥) سورة الأحزاب ١٣ .

غَزَاة القَادِسيَّة ، وقيل في غَزَاة نَهَاوَنْد . وإِلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبري في " التاريخ الكبير " . وإِلى القول الأول ذهب المدائني في كتاب " الفتوح " ؛ ونحن نشير إلى ما جرى في هاتين الوقعتين إشارة خفيفة على مذهبنا في ذكر السَّير والأيام .

فأما وقعة القَادِسيَّة فكانت في سنة أربع عشرة للهجرة ؛ استشار عمر المسلمين في أمر القَادِسيَّة ، فأشار عليه عليّ بن أبي طالب في رواية أبي الحسن عليّ بن محمد بن سيف المدائني ألا يخرج بنفسه ، وقال : إنَّك إن تخرج لا يكن للعجم همّة إلا استئصالك ، لعلمهم أنَّك قطبُ رحا العرب ، فلا يكون للإسلام بعدها دولة . وأشار عليه غيره من الناس أن يخرج بنفسه ، فأخذ برأى عليّ عليه السلام .

وروى غيرُ المدائني أنَّ هذا الرأي أشارَ به عبد الرحمن بن عوف ؛ قال أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري : لما بدا العمر في المقام بعد أن كان عزم على الشخوص بنفسه ، أمر سعد بن أبي وقاص على المسلمين ، وبعث يَزْدَجِرْد رستم الأرمنيّ أميراً على الفرس ، فأرسل سعدُ النعمان بن مقرن رسولاً إلى يَزْدَجِرْد ، فدخل عليه ، وكلمه بكلام غليظ ، فقال يَزْدَجِرْد : لولا أنَّ الرُّسل لا تقتل لقتلت لقتلتك ، ثم حمّله وقرأ من تراب على رأسه ، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن ، وقال : ارجع إلى صاحبك ، فقد كتبتُ إلى رستم أن يدفنه وجنده من العرب في خندق القَادِسية ؛ ثم لأشغلنَّ العرب بعدها بأنفسهم ، ولأصيبنهم بأشدَّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف . فرجع النعمان إلى سعد فأخبره ، فقال : لا تخف ، فإنَّ الله قد ملكنا أرضهم تفاؤلاً بالتراب .

قال أبو جعفر : وتنبَّط رستم عن القتال وكرهه ، وآثر المسالمة ، واستعجله يَزْدَجِرْد حراراً ، واستحثه على الحرب ، وهو يدافع بها ، ويرى المطاولة . وكان عسكره مائة وعشرين ألفاً

وكانت عسكر سعد بضعا وثلاثين ألفا ، وأقام رستم بريدا من الرجال ، الواحد منهم إلى جانب الآخر ؛ من القادسية إلى المدائن ، كلما تكلم رستم كلمة أداها بعضهم إلى بعض ، حتى تصل إلى سمع يزجر د في وقتها ، وشهد وقعة القادسية مع المسلمين طليحة بن خويلد ، وعمرو بن معديكرب ، والشماع بن ضرار ، وعبد بن الطبيب الشاعر ، وأوس بن معن الشاعر ، وقاموا في الناس يُنشدونهم الشعر ويحرضونهم ، وقرن أهل فارس أنفسهم بالسلاسل لثلاثين يهر بوا ، فكان المقرنون منهم نحو ثلاثين ألفا ، والتحم الفريقان في اليوم الأول ، فحملت الفيلة التي مع رستم على الخيل فطحنها ، وثبت لها جمع من الرجال ، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلا ، منها فيل الملك ، وكان أبيض عظيما ، فضربت الرجال خراطيم الفيلة بالسيوف فقطعتها ، وارتفع عواؤها وأصيب في هذا اليوم - وهو اليوم الأول - خمسمائة من المسلمين ، وألفان من الفرس . ووصل في الثاني أبو عبيدة بن الجراح من الشام في عساكر من المسلمين ؛ فكان مدداً لسعد ؛ وكان هذا اليوم على الفرس أشد من اليوم الأول ، قتل من المسلمين ألفان ، ومن المشركين عشرة آلاف . وأصبحوا في اليوم الثالث على القتال ، وكان عظيماً على العرب والعجم معاً ، وصبر الفريقان ، وقامت الحرب ذلك اليوم ؛ وتلك الليلة جمعاء لا ينطقون ، كلامهم الهريز ، فسميت ليلة الهريز .

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم ، وانقطع سعد إلى الصلاة والدعاء والبكاء ، وأصبح الناس حسري لم يغمضوا ليلتهم كلها ، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر ، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفا في اليوم الرابع ، أمالت الغبار والنقع على العجم ، فانكسروا ، ووصلت العرب إلى سرير رستم ، وقد قام عنه ليركب جملاً ، وعلى رأسه العلم فضرب هلال بن علقمة الحمل الذي رستم فوقه ، فقطع حباله ، ووقع على هلال أحد العدلين ، فأزال فقار ظهره ، ومضى رستم نحو العتيق ، فرمى نفسه فيه ، واقتحم هلال عليه ، فأخذ

برجله ، وخرج به يجرّه حتى ألقاه تحت أرجل الخيل ، وقد قتله وصعد السريّر ، فنادى :
أنا هلال ، أنا قاتل رستم ، فانهزمت الفرس ، وتهافتوا^(١) في العقيق ، فقتل منهم نحو ثلاثين
ألفاً ، ونهبت أموالهم وأسلابهم ؛ وكانت عزيمة جدّاً ، وأخذت العربُ منهم كافوراً
كثيراً ، فلم يعبثوا به ، لأنهم لم يعرفوه ، وباعوه من قوم بملح ، كيلاً بكيل ، وسرّوا بذلك
وقالوا : أخذنا منهم ملحاً طيباً ، ودفعنا إليهم ملحاً غير طيب ، وأصابوا من الجامات
من الذهب والفضة ما لا يقع عليه العدّ لكثرتّه ؛ فكان الرجل منهم يعرض جامين من
ذهب على صاحبه ، ليأخذ منه جاماً واحداً من فضة يعجبه بياضها ويقول : من يأخذ
صفراًوين ببيضاء !

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر ، فكتب إلى سعد : لا تتبع الفرس وقِفْ
مكانك واتّخذ منزلاً . فنزل موضع الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها ، وبني فيها
الخطّط للعرب .

[يوم نهاوند]

فأمّا وقعة نهاوند ، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ ذكر في كتاب التاريخ^(٢) ؛ أنّ
عمر لما أراد أن يغزو العجم وجيوش كسرى وهى مجتمعة بنهاوند ، استشار الصحابة ،
فقام عثمان فتشهد ، فقال : أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا
من شاههم ، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمينهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين
إلى المصرين : البصرة والكوفة ، فتلقّ جمعَ المشركين بجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت

(١) تهافت على الشئ : تساقط وتتابع ؛ وأكثر استعماله في الشر .

(٢) تاريخه ٤ : ٢٣٧ وما بعدها (المطبعة الحسينية) .

بمن معك ومن عندك ، قل في نفسك ما تكاثر من عدد القوم ، وكنت أعزّزاً وأكثر؛ إنك لا تستبقي من نفسك بعد اليوم^(١) باقية ، ولا تمتع من الدنيا بعزیز ، ولا تكون منها في حرز حریز . إن هذا اليوم له ما بعده ، فاشهد بنفسك ورأيك وأعوانك ، ولا تغب عنه .

قال أبو جعفر : وقام طلحة ، فقال : أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فقد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلايا ، وحنكتك^(٢) التجارب ؛ وأنت وشأنك ، وأنت ورأيك ، لا ننبو في يدك ، ولا نكل أمرنا إلا إليك ، فأمرنا نجيب ، وادعنا نطع ، واحملنا نركب ، وقدنا ننقد ، فإنك ولي هذا الأمر ، وقد بلوت وجربت واختبرت ، فلم ينكشف شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار .

فقال علي بن أبي طالب عليه السلام : أما بعد ، فإن هذا الأمر لم يكن نصره ولأخذلانه بكثرة ولا قلة ، إنما هو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه وأمدّه بالملائكة ، حتى بلغ ما بلغ ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده ، وناصر جنده ؛ وإن مكانك منهم مكان النظام من الخرز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحلت تفرق ما فيه وذهب ، ثم لم يجتمع بخذاfire أبدا ؛ والعرب اليوم وإن كانوا قليلا ، فإنهم كثير عزيز بالإسلام ؛ أقم مكانك ، واكتب إلى أهل الكوفة ، فإنهم أعلام العرب ورؤسائهم ، وليشخص منهم الثلثان ، وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم ، ولا تشخص الشام ولا اليمن ، إنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم ، سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، ومتى شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها وأطرافها ، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات . إن الأعاجم إن ينظروا

(١) الطبري : « العرب » .

(٢) الطبري : « واحتككتك » .

إليك غداً قالوا : هذا أميرُ العرب وأصلهم ؛ فكان ذلك أشدَّ لِكَلْبِهِمْ عليك . وأما ما ذكرتَ من مسير القوم ، فإنَّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ؛ وأما ما ذكرتَ من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنَّا نقاتل بالصبر والنصر .

فقال عمر : أجل ! هذا الرأي ، وقد كنت أحبُّ أن أتابع عليه ، فأشيروا علىَّ برجل أولَّيه ذلك الثَّغر . قالوا : أنت أفضل رأياً ، فقال : أشيروا علىَّ به ، واجعلوه عراقياً ، قالوا : أنت أعلم بأهل العراق ، وقد وفَّدوا عليك ، فرأيتهم وكلمتهم . قال : أما والله لأولينَّ أمرهم رجلاً يكون عمداً لأوَّل الأُسنة ، قيل : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : النعمان بن مقرن ، قالوا : هو لها .

وكان النعمان يومئذ بالبصرة ، فكتب إليه عمر ، فولَّاه أمرَ الجيش . قال أبو جعفر : كتب إليه عمر : سِرْ إلى نهاوند ، فقد وليتكَ حربَ الفيروزان - وكان المقدَّم على جيوش كسرى - فإن حَدَّث بك حَدَّثُ فعلىَّ الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حَدَّث به حَدَّث ؛ فعلىَّ الناس نعيم بن مقرن ، فإن فتح الله عليكم فاقسيم على الناس ما أفاء الله عليهم ، ولا ترفع إلىَّ منه شيئاً ، وإن نكث القوم فلا ترانى ولا أراك ؛ وقد جعلتُ معك طليحة بن خويلد ، وعمرو بن معد يكرب ، لعلمهما بالحرب ، فاستشرهما ولا تولهما شيئاً .

قال أبو جعفر : فسارَ النعمان بالعرب حتى وافى نهاوند ، وذلك في السنة السابعة من خلافة عمر ، وتراءى الجمعان ، ونشب القتال ، وحجَّزهم المسلمون في خنادقهم ، واعتصموا بالحصون والمدن ، وشقَّ على المسلمين ذلك ، فأشار طليحة عليه ، فقال : أرى أن تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمَّشهم ^(١) ، فإذا استحمشوا خرج بعضهم ، واختلطوا بكم

(١) تحمَّشهم : تهيَّجهم .

فاستطردوا لهم ، فإنهم يطعمون بذلك ، ثم تعطف عليهم حتى يَقْضِيَ اللهَ بيننا وبينهم بما يحب .

ففعل النعمان ذلك ، فكان كما ظن . طليحة ، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع ؛ فلما أمعنوا في الانكشاف للمسلمين حمل النعمان بالناس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون مثله ، وزلق بالنعمان فرسه فصريع وأصيب ، وتناول الراية نعيم أخوه ، فأثى حذيفة لها فدفعها إليه ، وكنم المسلمون مُصاباً أميرهم ، واقتتلوا حتى أظلم الليل ، ورجعوا والمسلمون وراءهم ، فعمى عليهم قصدُهم فتركوه ، وغشيتهم المسلمون بالسيوف ؛ فقتلوا منهم مالا يحصى ، وأدرك المسلمون الفيروزان وهو هارب ، وقد انتهى إلى ثديّة مشحونة ^(١) ببغال موقرة عسلا ، فحبسته على أَجَلِه ، فقتل ، فقال المسلمون : إن لله جنوداً من عسل .

ودخل المسلمون نهاوند فاحتووا على ما فيها ، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة ، فحملت إلى عمر ، فلما رآها بكى ، فقال له المسلمون : إنّ هذا اليوم يوم سرور وجدل ، فما بكائك ؟ قال : ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى ^(٢) هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر إلا خيراً أراد بهما ، ولا أراه فتحه على إلا لشرٍّ أريدَ بي ، إنّ هذا المال لا يابث أن يفتن الناس .

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول : اللهم اعصمني ولا تَكِلْنِي إلى نفسي ؛ يقولها صرارا ؛ ثم قسمه بين المسلمين عن آخره .

(١) يقال : شجن المدينة بالحيل أو البغال ؛ إذا ملأها .

(٢) زوى : منع وصرف .

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ ؛ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ ؛ وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ ، يَقْرَأُ آيَاتِ الْقُرْآنِ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيَقْرُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلِيُثَبِّتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ . وَكَيْفَ مَحَقَّ مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ ، وَأُحْتَصَدَ مِنْ أُحْتَصَدَ بِالنِّقَمَاتِ !

الشرح :

الأوثان : جمع وثن ؛ وهو الصنم ، ويجمع أيضا على وثن ، مثل أسد وآساد وأسد ؛ وسمى وثنًا لانتصابه وبقائه على حال واحدة ، من قولك : وثن فلان بالمكان ؛ فهو وثن ؛ وهو الثابت الدائم .

قوله : « فتجلى سبحانه لهم » ، أى ظهر من غير أن يرى بالبصر ، بل بما نبههم عليه فى القرآن من قصص الأولين ، وما حل بهم من النعمة عند مخالفة الرسل .

والمثلات ، بضم التاء : العقوبات .

فإن قلت : ظاهر هذا الكلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث إلى الناس ليقرؤوا بالصانع ويثبتوه ؛ وهذا خلاف قول المعتزلة ، لأن فائدة الرسالة عندهم هى إطفاء

المكلفين بالأحكام الشرعية المقرّبة إلى الواجبات العقلية ، والمبعدة من المتبّحات العقلية ، ولا مدخل للرسول في معرفة البارئ سبحانه ، لأنّ العقل يُوجبها ، وإن لم يبعث الرسل ! قلت : إنّ كثيرا من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل ؛ إذا كان في حقهم المكلفين على مافي العقول فائدة ؛ وهو مذهب شيخنا أبي عليّ رحمه الله ، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد صلى الله عليه وآله إلى العرب وغيرهم ، لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إياهم - على ماهو واجب في عقولهم من المعرفة - أقرب إلى حصول المعرفة ؛ فحينئذ يكون بعثه لطفًا ، ويستقيم كلام أمير المؤمنين .

الأضل :

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنْ الْحَقِّ ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُوْوٍ ؛ فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ لِأَنَّ الضَّلَالََةَ لَا تُوَافِقُ الْهُدَى وَإِنْ اجْتَمَعَا . فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ ، وَافْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ؛ كَأَنَّهُمْ أُمَّةُ الْكِتَابِ ؛ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا أَسْمُهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَهُ وَزَبْرَهُ ، وَمَنْ قَبْلُ مَامَثَلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً ، وَجَعَلُوا فِي الْحُسْنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ ؛ وَإِنَّمَا هَلَكَ

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيَّبِ آجَالِهِمْ ؛ حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تَرَدُّ عَنْهُ
الْمَعْدِرَةُ ، وَتَرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنَّقْمَةُ .

الشَّنْحُ :

أخبر عليه السلام أنه سيأتي على الناس زمان من صفته كذا وكذا ؛ وقد رأيناه وراه
من كان قبلنا أيضا ؛ قال شعبة إمام الحديثين : تسعة أعشار الحديث كذب . وقال
الدارقطني : ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود . وأما غلبة
الباطل على الحق حتى يخفى الحق عنده فظاهرة .

وأبور : أفسد ، من بار الشيء ، أى هلك . والسلعة : المتاع ، ونبذ الكتاب : ألقاه
ولا يؤويهما : يضمهما إليه ، وينزلهما عنده .

والزَّبْرُ : مصدر زبرت أزبر بالضم ، أى كتبت ، وجاء يزبر بالكسر ، والزَّبْرُ
بالكسر : الكتاب وجمعه زبور ؛ مثل قَدَرٌ وقُدُورٌ ، وقرأ بعضهم : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
زَبُورًا ﴾^(١) ، أى كتبنا . والزَّبُورُ ، بفتح الزاى : الكتاب المزبور ، فعُولٌ بمعنى مفعول ؛
وقال الأصمعيّ : سمعت أعرابيا يقول : أنا أعرف بزِبرَتِي^(٢) أى خطي وكتابتي .

ومَثَلُوا بالصالحين ، بالتخفيف : نَسَكَلُوا بهم ، مثلت بفلان أمثل بالضم مَثَلًا بالفتح
وسكون الشاء ، والاسم المَثَلَةُ بالضم ؛ ومن روى « مَثَلُوا » بالتشديد ؛ أراد جَدَعُوهم
بعد قتلهم .

و« على » في قوله : « وسموا صدقهم على الله فرية » ، ليست متعلقة بصدقهم ، بل بفرية ،

(١) سورة الإسراء ٥٥ .

(٢) الصحاح ٢ : ٦٦٧ .

أى وسموا صدقهم فرية على الله ؛ فإن امتنع أن يتعلق حرف الجرّ به لتقدمه عليه ، وهو مصدر ، فيمكن متعلّقا بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر . وروى : وجعلوا فى الحسنة العقوبة السيئة » والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن .

والموعود هاهنا : الموت . والقارعة : المصيبة تفرّع ، أى تلقى بشدّة وقوة .

الأصل :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ مَنْ أَسْتَنْصَحَ اللَّهَ وَفَقَّ ؛ وَمَنْ أَخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدًى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ .

وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ .
فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ ، وَالْبَارِئِ مِنْ ذِي السَّقَمِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تَسْكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ .
فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ ؛ هُمْ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمَتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ؛ وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ ؛ لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .

الشرح :

من استنصح الله : من أطاع أوامره وعلم أنه يهديه إلى مصالحه ، ويردّه عن مفسده ويرشده إلى مافيه نجاته ، ويصرفه عما فيه عطفه .

والتي هي أقوم: يعنى الحالة والخلة التي اتباعها أقوم؛ وهذا من الألفاظ القرآنية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١). والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده ووعد له.

ثم نهى عليه السلام عن التكبر والتعظم وقال: إن رفعة القوم الذين يعرفون عظمة الله أن يتواضعوا له. وماها هنا، بمعنى أى شيء ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد في ذم التعظم والتكبر ما يطول استقصاؤه؛ وهو مذموم على العباد، فكيف بمن يتعظم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين! وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لما افتخر: «أنا سيد ولد آدم»، ثم قال: «ولا فخر»، فبهر بلفظة الافتخار، ثم أسقط استطالة الكبر؛ وإنما جهر بما جهر به؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدث بها، وفي الحديث المرفوع عنه صلى الله عليه وآله: «إن الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالآباء؛ الناس بنو آدم وآدم من تراب؛ مؤمن تقي، وفاجر شقي. ليتهم ينظرون رجال، إنما هم فحم من فحم جهنم، أوليكون أهون على الله من جملان تدفع النتن بأنفها».

قوله: «واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشيد حتى تعرفوا الذي ترّكه»، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال؛ وهو قول أصحابنا جميعهم، فإنهم بين مكفر لمن خالف أصول التوحيد والعدل - وهم الأكثرون - أو مفسق؛ وهم الأقلون؛ وليس أحد منهم معذورا عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر، كما لا تعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر.

ثم قال عليه السلام: «فالمسوا ذلك عند أهله»، هذا كناية عنه عليه السلام؛ وكثيرا ما يسلك هذا المسلك، ويعرض هذا التعريض؛ وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الألهية.

ثم ذكر أن هؤلاء الذين أمرَ باتِّباعهم ينبئُ حكمهم عن علمهم ؛ وذلك لأنَّ الامتحان يظهر خبيثة الإنسان .

ثم قال : « وصمتهم عن نطقهم » ، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره ؛ ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتا .

ثم ذكر أنهم لا يخالفون الدِّين لأنَّهم قوامه وأربابه ؛ ولا يختلفون فيه ، لأنَّ الحقَّ في التوحيد والعدل واحد ، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه ؛ كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق . وصامت ناطق ؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدَّ له من مترجم ؛ فهو صامت في الصورة ، وهو في المعنى أنطق الناطقين ؛ لأنَّ الأوامر والنواهي والآداب كلها مبنية عليه ومتفرعة عليه .

بِأَفْضَلُ :

ومن كلامه عليه السلام في ذكر أهل البصرة :

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ ، لَا يَمْتَنُّ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلٍ ، وَلَا يَمْدَنَّ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ .

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ ؛ وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ .
وَاللَّهُ لَنِ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا ؛ وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا .

قَدْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ؛ وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ ؛
وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ .

وَاللَّهُ لَا أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ الدَّمِ ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ ؛ وَيُخْضِرُ الْبَاكِ ،
ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ .

الشَّنْخُ :

ضمير التثنية راجعٌ إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما . ويمتنان : يتوسلان ؛ الماضي ثلاثي ؛
مَتَّ يَمْتُ بِالضَّمِّ . والضَّبُّ : الحقد . والمحتسبون : طالبو الحسبة ؛ وهي الأجر . ومستمع الدَّمِ
كناية عن الضُّبُع ؛ تسمع وقع الحجر بباب جحرها من يد انصائد فتتخذل وتكف

جوارحها إليها حتى يدخل عليها فيربطها ؛ يقول : لا أكون مقررًا بالضمير راغنا^(١) ؛ أسمع الناعي الخبر عن قتل عسكر الجمل لحكيم بن جبلة وأتباعه ، فلا يكون عندي من التغيير والإنكار لذلك ؛ إلا أن أسمعه وأحضر الباكين على قتيلاهم .

وقوله : « لكل ضلّة علة ، ولكل ناكث شبهة » ، هو جواب سؤال مقدّر ، كأنه يقول : إن قيل : لأيّ سبب خرج هؤلاء ؟ فإنه لا بدّ أن يكون لهم تأويل في خروجهم ؛ وقد قيل : إنهم يطلبون بدم عثمان ؛ فهو عليه السلام قال : كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علة اقتضتها ، وكلّ ناكث فلا بدّ له من شبهة يستند إليها .

وقوله : « لينتزعنّ هذا نفس هذا » قول صحيح لا ريب فيه ، لأنّ الرئاسة لا يمكن أن يدبرها اثنان معا ، فلو صحّ لهما ما أراداه لوشب أحدهما على الآخر فقتله ؛ فإن الملك عقيم ؛ وقد ذكر أرباب السيرة أنّ الرجلين اختلفا من قبل وقوع الحرب ، فإنهما اختلفا في الصلاة ، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير ؛ يصلي هذا يوما ، وهذا يوما ، إلى أن تنقضى الحرب .

ثم إنّ عبدالله بن الزبير ادّعى أنّ عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار ، واحتجّ في ذلك بأنّه استخلفه على الصلاة ، واحتجّ تارة أخرى بنصّ صريح زعمه وادّعاه ، وطلب طلحة من عائشة أن يسلم الناس عليه بالإمرة ، وأدلى إليها بالتيمية ، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها ، فأمرت الناس أن يسلموا عليهما معا بالإمرة .

واختلفا في تولّي القتال ، فطلبه كلّ منهما أولا ، ثم نكل كلّ منهما عنه وتفاذى^(٢) منه . وقد ذكرنا في الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة من أخبار الجمل .

(١) يقال : رغن إليه ، إذا أصغى .

(٢) تفاذى منه : تحاماه .

[من أخبار يوم الجمل]

وروى أبو مخنف ، قال : لما تزاحف الناس يومَ الجمل والتقوا ، قال عليّ عليه السلام لأصحابه : لا يرمينّ رجل منكم بسهم ، ولا يطعن أحدكم فيهم برمحٍ ، حتى أحدث إليكم ؛ وحتى يبدءوكم بالقتال وبالقتل . فرمى أصحاب الجمل عسكر عليّ عليه السلام بالنبل رمياً شديداً متتابعاً ، فضجّ إليه أصحابه ، وقالوا : عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين . وحيء برجل إليه ، وإنه لفي فسْطاطٍ له صغير ، فقيل له : هذا فلان قد قُتل . فقال : اللهم اشهد ، ثم قال : أعذروا إلى القوم ، فأتى برجل آخر فقيل : وهذا قد قتل ، فقال : اللهم اشهد ، أعذروا إلى القوم ، ثم أقبل عبد الله بنُ بديل بن ورقاء الخزاعيّ ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بديل ، قد أصابه سهم فقتله ، فوضعه بين يدي عليّ عليه السلام ، وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا أخي قد قُتل ؛ فعند ذلك استرجع عليّ عليه السلام ، ودعا بدراً رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفضول فلبسها ، فتدلّت بطنه فرفعها بيده ، وقال لبعض أهله ، فخرم وسطه بعامة ، وتقلّد ذا الفقار ، ودفع إلى ابنه محمد راية رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء ، وتعرف بالعقاب ، وقال لحسن وحسين عليهما السلام : إنما دفعت الراية إلى أخيكما . وتركتكما لمكانكما من رسول الله صل الله عليه وسلم .

قال أبو مخنف : وطاف عليّ عليه السلام على أصحابه ، وهو يقرأ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

ثم قال : أفرغ الله علينا وعليكم الصبر ، وأعزّ لنا ولكم النصر ، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلّ أمر . ثم رفع مصحفاً بيده ، فقال : مَنْ يأخذ هذا المصحف ، فيدعوهم إلى ما فيه ، وله الجنة ؟ فقام غلام شاب اسمه مسلم ، عليه قباء أبيض ، فقال : أنا آخذه ، فنظر إليه على وقال : يا فتى إن أخذته ، فإن يدك اليمنى تقطع ، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع ، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل . فقال الغلام : لا صبر لي على ذلك ، فنأى على ثانية ، فقام الغلام ، وأعاد عليه القول ، وأعاد الغلام القول مراراً ؛ حتى قال الغلام : أنا آخذه ؛ وهذا الذي ذكرت في الله قليل ، فأخذه وانطلق ، فلما خالطهم ناداهم : هذا كتاب الله بيننا وبينكم . فضر به رجلٌ فقطع يده اليمنى ، فتناوله باليسرى فضر به أخرى فقطع اليسرى ، فاحتضنه فضر به بأسياهم ، حتى قتل فقالت أم ذريح العبدية في ذلك ^(١) :

ياربّ إن مسلماً أتاهم ^(٢) بمصحفٍ أرسله مولاهم
للعدل والإيمان قد دعاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه ظبأهم ^(٣) وأمهم واقفة تراهم ^(٤)
* تأمرهم بالغى لا تنهاهم ^(٥) *

قال أبو مخنف : فعند ذلك أمر على عليه السلام ولده محمداً أن يحمل الراية ، فحمل وحمل معه الناس ، واستحروا القتل في الفريقين وقامت الحرب على ساق .

(١) الأبيات والخبر في تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٣٦) مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات .
(٢) في الطبرى : « لاهم إن مسلماً دعاهم » .
(٣) الطبرى : « قد خضبت من علق لحام » .
(٤) الطبرى : « وأمهم قائمة » .
(٥) الطبرى : « يأتهمون الغى » .

[مقتل طلحة والزبير]

قال : فأما طلحة ، فإنَّ أهلَ الجمل لما تضرعوا قال مروان : لا أطلبُ ثأرَ عثمان من طلحة بعد اليوم ! فانتحى له بسهم فأصاب ساقه ، ففقطع أ كحلَه ^(١) ، فجعل الدم يَبِضُّ ^(٢) ، فاستدعى مِنْ مَوِيٍّ له بغلة ، فركبها وأدبر ، وقال لمولاه : ويحك ! أما من مكانٍ أقدر فيه على النزول ، فقد قتاني الدم ! فيقول له مولاه : انجُ ، وإلا لحقك القوم ، فقال : بالله ^(٣) مارأيت مصرعَ شيخٍ أضيعَ من مصرعي هذا ! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة ، فنزلها ومات بها .

وقد رُوِيَ أنه رُمِيَ قبل أنْ يرميه مروان ، وجرح في غير موضع من جسده .

وروى أبو الحسن المدائني أنَّ علياً عليه السلام مرَّ بطلحة ، وهو يكيدُ ^(٤) بنفسه ، فوقف عليه وقال : أما والله إن كنتُ لأبغضُ أنْ أراكم مصرعين في البلاد ، ولكن ما حتم واقع ، ثم تمثَّل :

وما تدري إذا أزمعتُ أمراً بأى الأرض يدركك المقيلاً ^(٥)
وما يدرى الفقير متى غناه ولا يدرى الغنى متى يعيلُ ^(٦)!

(١) الأكحل : عرق في الذراع .

(٢) يبض : يسيل قليلاً قليلاً .

(٣) ١ ، ج د : « تالله » .

(٤) يقال : هو يكيد بنفسه ، أى يجود بها ؛ وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على سعد ابن معاذ ، وهو يكيد بنفسه ، فقال : جزاك الله من سيد قوم ، فقد صدقت الله ما وعدته ، وهو صادقك ما وعدك .

(٥) من أبيات في اللسان (عيل) ونسبها إلى أحيحة ؛ والبيت الأول في الأغاني ٢١ : ١٠٦ (من غير نسبة) .

(٦) يعيل : يفتقر .

وما تدرى إذا ألقت شَوْلاً^(١) أتنتج بعد ذلك أم تحيل^(٢)

وأما الزبير فقتله ابن جرموز غيلةً بوادي السباع ، وهو منصرف عن الحرب ، نادى على مفرط منه ؛ وتقدم ذكر كيفية قتله فيما سبق .

وروى الكلبي ، قال : كان العرق الذي أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك ، وإذا رفع يده عنه سال ، فقال طلحة : هذا سهم أرسله الله تعالى ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ؛ ما رأيت كالיום دم قرشي أضيع !

قال : وكان الحسن البصري إذا سمع هذا وحكى له ، يقول : ذُق عَقَق^(٣) !

وروى أبو مخنف ، عن عبد الله بن عون ، عن نافع ، قال : سمعت مروان بن الحكم يقول : أنا قتلت طلحة .

وقال أبو مخنف : وقد قال عبد الملك بن مروان : لولا أن أبي أخبرني أنه رمى طلحة فقتله ، ما تركت تيمياً إلا قتلته بعثمان . قال : يعني أن محمد بن أبي بكر وطلحة قتلاه ، وكانا تيميين .

قال أبو مخنف : وحدّثنا عبد الرحمن بن جندب ، عن أبيه جندب بن عبد الله ، قال : مررت بطلحة ، وإنّ معه عصاة يقاتل بهم ، وقد فشّت فيهم الجراح ، وكثرهم الناس ، فرأيتُهُ جريحاً ، والسيوف في يده ، وأصحابه يتصدّعون^(٤) عنه رجلاً فرجلاً ، واثنين فائنين ؛ وأنا أسمع ، وهو يقول : عباد الله ، الصبر الصبر ؛ فإنّ بعد الصبر النصر والأجر ؛

(١) الشول من النوق : التي خف لبنها وارتفع ضرعها ، و أتى عليها سبعة أشهر من يوم نتاجها ، فلم يبق في ضرعها إلا شوال من اللبن أو بقية .

(٢) تحيل : لم تلقح .

(٣) العقق ، كعطب : طائر على قدر الحمامة ، على شكل الغراب ، وجناحه أكبر من جناحي الحمامة ، والعرب تضرب به المثل فيما لا يحمى .

(٤) يتصدعون : يتفرقون ، وفي د « ينصدعون » .

فقلت له : النِّجَاءُ النِّجَاءُ ! تَكَلِّتُكَ أَمَّكَ ! فوالله ما أُجِرْتَ ولا نُصِرْتَ ؛ ولكنك وُزِرْتَ وخسرت ؛ ثم صَحَّتْ بِأَصْحَابِهِ ، فاندعروا عنه ، ولو شئتُ أَنْ أَطْعَمَهُ لَطَعْنَتُهُ ، فمات له : أما والله لو شئتُ لجدّلتك في هذا الصَّعِيدِ ^(١) ، فقال : والله هلك الدنيا والآخرة إذن ! فقلت له : والله لقد أُمِيتَ وإنّ دمك لحلال ، وإنّك لمن النادمين . فانصرف ومعه ثلاثة نفر ، وما أدري كيف كان أمره إلا أنّي أعلم أنّه قد هلك .

وروى أنّ طلحة قال ذلك اليوم : ما كنت أظنّ أنّ هذه الآية نزلت فينا : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ^(٢) .

وروى المدائني ، قال : لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكانا ينزله ^(٣) ، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب عليّ عليه السلام : أنا طلحة ، من يجيرني ! يكررها . قال : فكان الحسن البصريّ إذا ذكر ذلك يقول : لقد كان في جوار عريض .

(١) الصَّعِيد : التراب .

(٢) سورة الأنفال ٢٥ .

(٣) ب : « يرتاد منزله » .

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام قبل موته :

أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ أَمْرِي لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الْأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ .

كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكُونِ هَذَا الْأَمْرِ ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ . هَيْهَاتَ ! عِلْمٌ تَخْزُونُ .

أَمَّا وَصِيَّتِي فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعُمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ دَمٌ مَالَمْ تَشْرُدُوا . حَمَلُ كُلِّ أَمْرِي مِنْكُمْ بِجَهْدِهِ ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ ؛ رَبُّ رَحِيمٌ ، وَدِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ .

أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ! إِنْ ثَبَتَتِ الْوَطْءُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَآكَ ، وَإِنْ تَدَحَّضَ الْقَدَمُ ، فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ ، وَمَهَبَ رِيَّاحٍ ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ .

اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَقُهَا ، وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخْطُهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُ جَارًا جَاوِرَكُمْ بِدَنِي أَيَّامًا ، وَسَتُعَقَّبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً ، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَآكِ ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقِي . لِيَعْظَكُمْ هُدُوءِي ، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي ، وَسُكُونُ أَطْرَافِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ الْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطِقِ الْبَلِيغِ ، وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ .

وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِ ! غَدًا تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ
عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوءِ مَكَانِي ، وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي .

الشَّيْخُ :

أطردتُ الرجلَ ، إذا أمرتَ بإخراجه وطرده ، وطردته إذا نفيتَه وأخرجته ؛
فالإطراد أدلُّ على العزِّ والقهر من الطرد ، وكأنه عليه السلام جعل الأيام أشخاصاً يأمر
بإخراجهم وإبعادهم عنه ؛ أي ما زِلْتُ أبحثُ عن كيفية قتلِي ، وأيّ وقت يكون بعينه ،
وفي أيِّ أرض يكون ، يوماً يوماً ، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلتُ غده ؛ فأبحثُ
فيه أيضاً فلا أعلم ، فأبعده وأطرده ، وأستأنف يوماً آخر ، هكذا حتى وقع المقدور . وهذا
الكلام يدلُّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصلة من جميع الوجوه ، وأنَّ رسولَ
الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علماً مجملاً ؛ لأنَّه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له :
« ستضرب على هذه - وأشار إلى هامته - فتخضب منها هذه - وأشار إلى لحيته » ، وثبت
أنه صلى الله عليه وآله قال له : « أتعلم مَنْ أشقى الأولين » ؟ قال : نعم ، عاقر
الناقة ، فقال له : « أتعلم مَنْ أشقى الآخرين » ؟ قال : لا ، قال : « من يضر بك هاهنا ،
فيخضب هذه » .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلُّ على أنه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على
أنه يموت من ضربته ، ألا تراه يقول : إن ثبتت الوطأة في هذه المزلَّة فذاك ، وإن تدحَّض
فإنما كنَّا في أفياء أغصان ، ومهابَّ رياح ؛ أي إن سلمتُ فذاك الذي تطلبونه ، يخاطب
أهله وأولاده ، ولا ينبغي أن يقال : « فذاك ما أطلبه » ، لأنه عليه السلام كان يطلب الآخرة ،

أكثر من الدنيا . وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكّد ما قلناه ؛ وهو قوله : « إن عشتُ فأنا وليّ دمي ، وإن متّ فضربة بضربة » .

وليس قوله عليه السلام : « وأنا اليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم » ، وما يجري مجراه من ألفاظ الفصل بناقض^(١) لما قلناه ؛ وذلك لأنّه لا يعنى غداً بعينه ؛ بل ما يستقبل من الزمان ، كما يقول الإنسان الصحيح : أنا غداً ميتّ ، فإلى أحرص على الدنيا ! ولأنّ الإنسان قد يقول في مرضه الشديد لأهله وولده : ودّعكم وأنا مفارقكم ، وسوف يخلو منزلي مني ، وتتأسّفون على فراقى ، وتعرفون موضعي بعدى ؛ كله على غلبة الظنّ ؛ وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى ، وردّعهم عن الهوى وحبّ الدنيا .

فإن قلت : فما تصنع بقوله عليه السلام لابن ماجم :

أُرِيدُ حِبَاءَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرُكَ مِنْ خَيْلِكَ مِنْ مُرَادٍ^(٢)

وقول الخلفاء من شيعة : فهلا تقاتله ! فقال : فكيف أقتل قاتلي ! وتارة قال : إنه لم يقتلني ؛ فكيف^(٣) أقتل من لم يقتل ! وكيف قال في البطّ الصائح خلفه في المسجد ، ليلة ضرب به ابن ملجم : دعوهم ؛ فإنهم نوائح . وكيف قال تلك الليلة : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكوتُ إليه ، وقلت : ما لقيتُ من أمتك من الأود واللدد ! فقال : ادع الله عليهم ، فقلت : اللهم أبدلني بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شراً مني ! وكيف قال : إني لأقتل محاربا ، وإنما أقتل فتكاً وغيلة ، يقتلني رجلٌ خامل الذكر . وقد جاء عنه عليه السلام من هذا الباب آثار كثيرة .

قلت : كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصلاً من جميع الوجوه ، ألا ترى أنه

(١) د : « بناقض » .

(٢) من أبيات في الآلى ٦٣ ، نسبها إلى عمرو بن معديكرب ؛ وروايته فيها : « أريد حياته » .

(٣) ساقطة من ب .

ليس في الأخبار والآثار ما يدل على الوقت الذي يقتل فيه بعينه ، ولا على المكان الذي يقتل فيه بعينه ! وأما ابن ملجم ، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذي يقتله ، ولم يعلم علماً محققاً أن هذه الضربة ترهق نفسه الشريفة منها ، بل قد كان يجوز أن يُبيل ويُفريق منها ؛ ثم يكون قتله فيما بعد على يد ابن ملجم ، وإن طال الأمد . وليس هذا بمستحيل ، وقد وقع مثله ، فإن عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق في أيام معاوية على منافرة كانت بينهما فعفا عمرو عنه ، ثم كان من القضاء والقدر أن عبد الملك قتل عمراً أيضاً بيده ذبحاً ، كما تذبج الشاة .

وأما قوله في البَط : «دعوهن فإِنَّهن نوائح» فلعله علم أنه تلك الليلة يصاب ويخرج ؛ وإن لم يعلم أنه يموت منه ، والنوائح قد ينحن على المقتول وقد ينحن على المجروح ، والنام والدعاء لا يدل على العلم بالوقت بعينه ، ولا يدل على أن إجابة دعائه تكون على الفور لا محالة .

ثم نعود إلى الشرح .

أما قوله : «كل امرئ لاق ما يفر منه في فراره» ، أي إذا كان مقدوراً ، وإلا فقد رأينا مَنْ يفر من الشيء ويسلم ، لأنه لم يقدر ؛ وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ ^(١) ، ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ ^(٢) ومن قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ ^(٣) ، وفي القرآن العزيز مثل هذا كثير .

قوله : «والأجل مساق النفس» أي الأمر الذي تساق إليه ، وتنتهي عنده ، وتقف إذا

بلغته فلا يبقى له حينئذ كلة في الدنيا .

(١) سورة النساء ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٤ .

(٣) سورة الجمعة ٨ .

قوله : « والهرب منه موافأته » ، هذا كلام خارج مخرج المبالغة في عدم النجاة ، وكون الفرار غير مغني ولا عاصم من الموت ، يقول : الهرب بعينه من الموت موافاة للموت ، أى إتيان إليه ، كأنه لم يرتض بأن يقول : الهارب لا بد أن ينتهى إلى الموت ، بل جعل نفس الهرب هو ملاقة الموت .

قوله : « أبجها » أى أكشفها ، وأكثر ما يستعمل « بحث » مُعدَّى بحرف الجر ، وقد عداه هاهنا إلى « الأيام » بنفسه وإلى « مكنون الأمر » بحرف الجر ، وقد جاء : بحثت الدجاجة التراب ، أى نبشته .

قوله : « فأبى الله إلا إخفاءه ، هيهات علم مخزون » ! تقديره : هيهات ذلك ! مبتدأ وخبر ، هيهات اسم للفعل ، معناها بعد ، أى علم هذا الغيب علم مخزون مصون ، لم أطلع عليه . فإن قلت : مامعنى قوله : « كم أطردت الأيام أبجها ؟ وهل علم الإنسان بموته كيف يكون ، وفي أى وقت يكون ، وفي أى أرض يكون ؛ مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث ؟

قلت : مراده عليه السلام أنى كنت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أسأله كثيرا عن هذا الغيب ؛ فما أنبأنى منه إلا بأمور إجمالية غير مفصلة ، ولم يأذن الله تعالى فى إطلاعى على تفاصيل ذلك .

قوله : « فالله لا تشركوا به شيئا » الرواية المشهورة « فالله » بالنصب ؛ وكذلك « محمدا » بتقدير فعل ، لأن الوصية تستدعى الفعل بعدها ، أى وحدوا الله ، وقد روى بالرفع ؛ وهو جائز على المبتدأ والخبر .

قوله : « أقيموا هذين العمودين ، وأوقدوا هذين المصباحين ، وخلاكم ذمّ مالم تشرؤوا » ، كلام داخل فى باب الاستعارة ، شبه الكتاب والسنة بعمودى الخيمة ، وبمصباحين

يُسْتَضَاءُ بِهِمَا . وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ : كَلِمَةٌ جَارِيَةٌ مَجْرَى الْمَثَلِ ، مَعْنَاهَا : وَلَا ذَمٌّ عَلَيْكُمْ ، فَقَدْ أَعْذَرْتُمْ .
وَذَمٌّ ، مَرْفُوعٌ بِالْفَاعِلِيَّةِ ، مَعْنَاهُ : عَدَاكُمْ وَسَقَطَ عَنْكُمْ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا لَمْ يَشْرِكُوا بِاللَّهِ وَلَمْ يَضَيِّعُوا سُنَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَدْ قَامُوا بِكُلِّ مَا يَجِبُ ، وَاتَّبَعُوا عَنْ كُلِّ مَا يَنْقُصُ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ لَهُ إِلَى أَنْ يَسْتَنْتَى وَيَقُولَ : « مَا لَمْ تَشْرُدُوا » ، وَإِنَّمَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ لَوْ قَالَ : وَصَيَّتِي إِلَيْكُمْ أَنْ تَوْحِدُوا اللَّهَ ، وَتُؤْمِنُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَانَ حِينَئِذٍ يَحْتَاجُ إِلَى قَوْلِهِ : « مَا لَمْ تَشْرُدُوا » وَيَكُونُ مَرَادُهُ بِهَا فَعْلَ الْوَاجِبَاتِ ، وَتَجَنُّبَ الْمَقْبُحَاتِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْإِقْرَارِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرِّسَالَةِ الْعَمَلُ ، بَلِ الْعَمَلُ خَارِجٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَوَجِبَ إِذَا أَوْصَى أَنْ يُوصِيَ بِالْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ ، كَمَا قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَاقِعَةِ أَهْلِ الرِّدَّةِ : كَيْفَ تَقَاتِلُهُمْ وَهُمْ مُقَرَّرُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « أَمَرْتُ بِأَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّهُ قَالَ تَمَتَّةً « هَذَا فَإِذَا هُمْ قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا » وَأَدَاءَ الزَّكَاةِ مِنْ حَقِّهَا !

قُلْتَ : مَرَادُهُ بِقَوْلِهِ : « مَا لَمْ تَشْرُدُوا » مَا لَمْ تَرْجِعُوا عَنْ ذَلِكَ فَكَأَنَّهُ قَالَ : خَلَاكُمْ ذَمٌّ إِنْ وَحَّدْتُمْ اللَّهَ وَاتَّبَعْتُمْ سُنَّةَ رَسُولِهِ ، وَدَمْتُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَلَا شَبَهَةَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مُنْتَظَمٌ ، وَأَنَّ اللَّفْظَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ لَيْسَتَا بِمَعْنِيَتَيْنِ عَنِ اللَّفْظَةِ الثَّلَاثَةِ ^(١) وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَغْنِيَا عَنْهُ ، فَإِنَّ فِي ذِكْرِهِ مَزِيدٌ تَأْكِيدٌ وَإِبْضَاحٌ غَيْرُ مَوْجُودٍ لَوْلَمْ يَذْكُرْ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ^(٢) ، وَلَيْسَ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ : مَنْ لَا يَخْشَى اللَّهَ لَا يَكُونُ مُطِيعًا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ، وَأَيُّ حَاجَةٍ بِهِ إِلَى ذِكْرِ مَا قَدْ أَغْنَى اللَّفْظُ الْأَوَّلُ عَنْهُ !
قَوْلُهُ : « حُمِّلَ كُلُّ أَمْرٍ مُجْهُودُهُ » ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجُهْلَةِ « ، هَذَا كَلَامٌ مُتَّصِلٌ بِمَا قَبْلَهُ ،

(١) ب : « اللفظ الثالث » .

(٢) سورة النور ٥٢ .

لأنه لما قال : « ما لم تشرّدوا » أنبأ عن تكليفهم كل ماوردت به السنّة النبوية ، وأن يدوموا عليه ؛ وهذا في الظاهر تكليفُ أمورٍ شاقة ؛ فاستدرك بكلامٍ يدلّ على التخفيف ، فقال : إن التكاليف على قدرِ المكلفين ، فالعلماء تكليفهم غير تكليف العامة ، وأرباب الجهل والمبادئ كالنساء وأهل البادية وطوائف من الناس ، الغالبُ عليهم البلادة وقلة الفهم ، كأقاصى الحبشة والترك ونحوهم ؛ وهؤلاء عند المكلفين غير مكلفين ، إلا بحمل التوحيد والعدل ؛ بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصلة وحلّ المشكلات الغامضة ؛ وقد روى « حمل » على صيغة الماضي ، و « مجهوده » بالنصب ، « وخفف » على صيغة الماضي أيضا ، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدم ذكره ، والرواية الأولى أكثر وأليق .

ثم قال : « ربّ رحيم » أى ، ربّكم رب رحيم . ودين قويم ، أى مستقيم . وإمام عليم ، يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ ومن الناس من يجعل « ربّ رحيم » فاعل « خفف » على رواية من رواها فعلا ماضيا وليس بمستحسن لأنّ عطف « الدين » عليه يقتضى أن يكون الدين أيضا مخففا ، وهذا لا يصح .

ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران .

ثم قسم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبله قسمةً حسنة ؛ فقال : أنا بالأمس صاحبكم ، وأنا اليوم عبّرة لكم ، وغدا مفارقكم ؛ إنما كان عبّرة لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريحا بعد أن صرّع الأبطال ، وقتل الأقران ، فهو كما قال الشاعر :

أَكَّالَ أَشْلَاءِ الْفَوَارِسِ بِالْقَنَاءِ أَضْحَى بِهِنَّ وَشَلَوْهُ مَا كُولُ

ويقال : دَحَضْتُ قَدَمُ فُلَانٍ ، أى زَلَّتْ وَزَلَقَتْ .

ثم شبه وجوده فى الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام ، لأنّ ذلك كلّهُ سريع الانقضاء لا ثبات له .

قوله : « اضمحلّ في الجوّ متلقّقها ، وعَفَا في الأرض مَحْطُّها » ، اضمحلّ ذهب ، والميم زائدة ، ومنه الضَّحَل وهو الماء القليل ، واضمحلّ السحاب : تقشّع وذهب ، وفي لغة السكلايين اضمحلّ الشئ بتقديم الميم . ومتلقّقها : مجتمعتها ، أى ما اجتمع من الغيوم في الجوّ ؛ والتلفيق : الجمع : وعَفَا : دَرَسَ ، ومَحْطُّها : أثرها ؛ كالخطّة .

قوله : « وإنما كنتُ جاراً جاوركم بدني أياما » ، في هذا الكلام إشعار بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النفس ، وأن هوية الإنسان شئ غير هذا البدن . وقوله : « ستعقبون مني » أى إنما تجدون عقيب فقدى جثّة ؛ يعنى بدنًا خلاء ، أى لا روح فيه ؛ بل قد أقفر من تلك المعانى التي كنتم تعرفونها وهى العقل والنطق والقوّة وغير ذلك . ثم وصف تلك الجثّة فقال : « ساكنة بعد حرّاك » بالفتح ، أى بعد حرّكة وصامتة بعد نطق . وهذا الكلام أيضا ^(١) يُشعر بما قلناه من أمر النفس ، بل يصرّح بذلك ، « ألا تراه قال : « ستعقبون مني جثّة » ، أى تستبدلون بي جثّة صفتها كذا ؛ وتلك الجثّة جثته عليه السلام ، ومحال أن يكون العوض والمعوّض عنه واحدا ، فدلّ على أن هويّته عليه السلام التي أعقبنا منها الجثّة غير الجثّة .

قوله : « ليعظكم هدوى » ، أى سكوني ، وخفوت إطراقى ، مثله خفّت خفوتاً سكن ، وخفّت خفّاتاً مات فجأة . وإطراقه : إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض ، لضعفه عن رفع جفّنه ، وسكون أطرافه : يدها ورجلاه ورأسه عليه السلام .

قال : « فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ ، والقول المسموع » ؛ وصدق عليه السلام ! فإن خطباً أخرس ذلك اللسان ، وهذّ تلك القوَى لخطب جليل ؛ ويجب أن يتعظ العقلاء به . وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال ، بل بالإضافة إلى من سمعها ، وأفكر فيها ، فضلاً عن مشاهدتها عياناً ! وفي هذا الكلام شبهة من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم : حرّ گنا بسكونه .

وَقَالَ الْآخَرُ : قَدْ كَانَ سَيْفُكَ لَا يَجِفُّ ، وَكَانَتْ مِرَاقِيكَ لَا تَرَامُ ، وَكَانَتْ نِقْمَاتُكَ لَا تُؤْمَنُ ، وَكَانَتْ عَطَايَاكَ يُفْرَحُ بِهَا ، وَكَانَ ضِيَاؤُكَ لَا يَنْكُشُ ، فَأَصْبَحَ ضَوْءُكَ قَدْ خَمَدَ ، وَأَصْبَحَتْ نِقْمَاتُكَ لَا تَخْشَى ، وَعَطَايَاكَ لَا تُرْجَى ، وَمِرَاقِبُكَ لَا يُمْنَعُ ، وَسَيْفُكَ لَا يَقْطَعُ .

وَقَالَ الْآخَرُ : انْظُرُوا إِلَى حِلْمِ الْمَنَامِ كَيْفَ انْجَلَى ، وَإِلَى ظِلِّ الْغَمَامِ كَيْفَ انْسَرَى .
وَقَالَ آخَرُ : مَا كَانَ أَحْوَجَهُ إِلَى هَذَا الْحِلْمِ ، وَإِلَى هَذَا الصَّبْرِ وَالسَّكُونِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ !
وَقَالَ آخَرُ : الْقُدْرَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي مَلَأَتْ الدُّنْيَا الْعَرِيضَةَ الطَّوِيلَةَ ؛ طَوَّيَتْ فِي ذِرَاعَيْنِ .

وَقَالَ الْآخَرُ : أَصْبَحَ أَسْرُ الْأَسْرَاءِ أُسِيرًا ، وَقَاهَرُ الْمُلُوكِ مَقْهُورًا . كَانَ بِالْأَمْسِ مَالِكًا ، فَصَارَ الْيَوْمَ هَالِكًا .

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَدَعْتُمْ وَدَاعَ امْرِئٍ مَرَصَدَ اللَّتْلَاقِ » ، أُرْصَدَتْهُ لَكَذَا ، أَى أَعْدَدَتْهُ لَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ « إِلَّا أَنْ أُرْصَدَ لِدَيْنٍ عَلَى » . وَالتَّلَاقِ هَاهُنَا : لِقَاءُ اللَّهِ ، وَيُرْوَى « وَدَاعِيكُمْ » أَى وَدَاعَى إِيَّاكُمْ ، وَالْوَدَاعُ مَفْتُوحُ الْوَاوِ .

ثُمَّ قَالَ : « غَدَا تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ سِرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي » ؛ هَذَا مَعْنَى قَدْ تَدَاوَلَهُ النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، قَالَ أَبُو تَمَامٍ :

رَاحَتَ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ فَارِغَةَ الْأَيْدِي مِلَاءَ الْقُلُوبِ
قَدْ عَلِمْتَ مَارَزْتِ إِنَّمَا يُعْرِفُ قَدْرَ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبِ
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

وَنَدَمَهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ وَبُضْدَهَا تَتَبَّنِ الْأَشْيَاءُ ^(١)

(١) ديوانه ١ : ٢١ ، وروايته : « وَنَدِيمَهُمْ » .

ومن أمثالهم :

* الضدّ يظهر حسنه الضدّ *

ومنها أيضا : لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية .

وإنما قال عليه السلام : « ويكشف لكم عن سرائري » ؛ لأنهم بعد فقدته وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده ، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى ، وألا يظهر المنكر في الأرض ، وإن ظنّ قوم في حياته أنه كان يريد الملك والدنيا .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام ويومى فيها إلى الملامم :

وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَعْنًا فِي مَسَالِكِ الْغَىِّ، وَتَرَكُوا لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ ؛ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا
مَا هُوَ كَأَنَّ مُرْصَدًا ، وَلَا تَسْتَبِطُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ ؛ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ
أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يَدْرِكْهُ . وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ !

يَا قَوْمَ هَذَا إِبَّانُ وَرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ ، وَدُنُوبُ مَنْ طَلَعَهُ مَالًا تَعْرِفُونَ . أَلَا وَإِنْ
مَنْ أَدْرَكَهَا مِنْهَا يَسْرَى فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ ، وَيَتَّخِذُ فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ ، لِيَحُلَّ
فِيهَا رِبْقًا ، وَيُعْتَقَ فِيهَا رِقًا ، وَيَصْدَعَ شُعْبًا ، وَيَشْعَبَ صَدْعًا ؛ فِي سُرْرَةٍ عَنِ النَّاسِ ؛
لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ ؛ ثُمَّ لَيْشَحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحَذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ ،
تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ ، وَيُفْبِقُونَ كَأَنَّ الْحِكْمَةَ
بَعْدَ الصَّبُوحِ .

الشَّرْحُ :

يذكر عليه السلام قوماً من فرق الضلال أخذوا يميناً وشمالاً ، أى ضلوا عن الطريق
الوسطى التى هى منهاج الكتاب والسنة ؛ وذلك لأن كل فضيلة وحق فهو محبوس بطرفين
خارجين عن العدالة ، وهما جانب الإفراط والتفريط ؛ كالفتانة التى هى محبوسة

بالجربرة والغباوة ، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجبن ، والجود المحبوس بالتبذير والشح ؛ فمن لم يقع على الطريق الوسطى وأخذ يميناً وشمالاً فقد ضلّ .
ثم فسّر قوله : « أخذ يميناً وشمالاً » ، فقال : « ظعنوا ظعننا في مسالك الغي » ، وتركوا مذاهب الرشد تركاً ، وينصب « تركاً » و « ظعننا » على المصدرية ، والعامل فيهما من غير لفظهما ^(١) ؛ وهو قوله : « أخذوا » .

ثم نهّاهم عن استعجال ما هو معدّ ، ولا بدّ من كونه ووجوده ، وإنما سماه كائننا لقرب كونه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ^(٢) ونهّاهم أن يستبطنوا ما يحىء في الغد لقرب وقوعه ، كما قال :

* وإن غدا للناظرين قريب *

وقال الآخر :

* غد ماغد ما أقرب اليوم من غد *

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ^(٣) .

ثم قال : كم من مستعجلٍ أمراً ويحرص عليه ، فإذا حصل ودّ أنه لم يحصل !
قال أبو العتاهية :

مَنْ عَاشَ لَاقَى مَاسِوً مِنْ الْأُمُورِ وَمَا يَسُرُّ ^(٤)
وَلَبَّ حَتْفٍ فَوْقَهُ ذَهَبٌ وَيَاقُوتٌ وَدُرٌّ

وقال آخر :

فلا تتمنين الدهر شيئاً فكم أمنية جلبت مَنِيَّةً

(١) ب : « لفظها » .

(٢) سورة الزمر ٣٠ .

(٣) سورة هود ٨١ .

(٤) ديوانه ٩٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) . وتبشير الصبح : أوائله .

ثم قال : يا قومُ قد دنا وقت القيامة ، وظهور الفتن التي تظهر أمامها .
وإبان الشيء ، بالكسر والتشديد : وقته وزمانه ، وكنى عن تلك الأهوال بقوله :
« ودنو من طلعة مالا تعرفون ؛ لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلها ، نحو دابة
الأرض ، والدجال وفتنته ، وما يظهر على يده من المخاريق والأمر الموهمة ، وواقعة
السقياني » ^(٢) وما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصى عددهم .

ثم ذكر أن مهدي آل محمد صلى الله عليه وآله ، وهو الذي عني بقوله : « وإن من
أدرَكها منا يسرى في ظلمات هذه الفتن بسراج منير » ؛ وهو المهدي ، واتباع
الكتاب والسنة .

ويحذو فيها : يقتني ويتبع مثال الصالحين ، ليحل في هذه الفتن . وربقاً ؛ أى حبلاً
معقوداً .

ويعتق رقاً ، أى يستفك أسرى ، وينقذ مظلومين من أيدي ظالمين .
ويصدع شعباً ، أى يفرق جماعة من جماعات الضلال . ويشعب صدعاً : يجمع
ما تفرق من كلمة أهل الهدى والإيمان .

قوله عليه السلام : « في سترة عن الناس » ، هذا الكلام يدل على استتار هذا الإنسان
المشار إليه ، وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم ، وإن ظنوا أنه تصریح بقولهم ؛ وذلك
لأنه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان ، ويكون مستترا مدة ،
وله دعاة يدعون إليه ، ويقررون أمره ، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار ؛ ويملك الممالك ؛

ويقهر الدّول ؛ ويمهد الأرض ؛ كما ورد في قوله : « لا يبصر القائف » ، أى هو فى استتارٍ شديدٍ لا يدركه القائف ، وهو الذى يعرف الآثار ، والجمع « قافة » ؛ ولا يعرف أثره ولو استقصى فى الطلب ؛ وتابع النظر والتأمل .

ويقال : شَحَذْتُ السَّكِينِ أَشَحَذَهُ شَحْذًا ، أى حَدَدْتَهُ ؛ يريد لِيُحَرِّضَنَّ فى هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال ، ولتُشَحِّذَنَّ عزائمهم كما يشحذ الصَّيْقِلُ السيف ، ويرقق حدّه .

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوزى العزائم ؛ فقال : تُجَلِّى بصائرهم بالتنزيل ، أى يكشف الرّين والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويله ومعرفة أسرارهِ .

ثم صرّح بذلك فقال : « ويرمى بالتفسير فى مسامعهم » ، أى يكشف لهم الغطاء ، وتخلّق المعارف فى قلوبهم ، ويلهمون فهمَ الغوامض والأسرار الباطنة ، ويغبّقون كأسَ الحكم بعد الصُّبوح ، أى لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحا ومساء ؛ فالغبوق كناية عن الفيض الحاصل لهم فى الآصال ، والصُّبوح كناية عما حصل لهم منه فى الغدوات ، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة ؛ وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لولّى الله الذى يحبّبه ، ويخلقه فى آخر أوقات الدنيا ، فيكون خاتمة أوليائه ، والذى يلقى عصا التكليف عنده .

الأصل :

ومنها :

وَطَالَ الْأَمَدُ بِهِمْ لَيْسَتْ كَمُلُوا الْخِزْيَ ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ ، حَتَّى إِذَا أُخْلَوْتِ

(٩ - نهج - ٩)

الْأَجَلُ ، وَاسْتَرَحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتَنِ ، وَاشْتَالُوا عَنْ لِقَاحِ حَرْبِهِمْ ؛ لَمْ يَمْنُوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ ، وَلَمْ يَنْتَفِظُوا بِذَلِّ أَنْفُسِهِمْ فِي الْخَلْقِ ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ ، حَمَلُوا بِصَائِرِهِمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، وَدَانُوا لِرَّيِّهِمْ بِأَمْرِ وَعَظِهِمْ .

البَنْج :

هذا الكلام يتصل بكلام قبله ؛ لم يذكره الرضى رحمه الله ، وهو وصف فئة ضالة قد استولت وملكت ، وأملى لها الله سبحانه . قال عليه السلام : وطال الأمدُ بهم ليستكلموا الخزي ، ويستوجبوا الفير ، أى ^(١) النعم التى يغيرها بهم من نعم الله سبحانه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ^(٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) . حتى إذا اخلوق الأجل ، أى قارب أمرهم الانقضاء ، من قولك : اخلوق السحاب ، أى استوى ، وصار خليقاً بأن يطر ، واخلوق الرسم : استوى مع الأرض .

واستراح قوم إلى الفتن ، أى صبا قوم من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفتنة ، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها ، واتبعوها .

واشتالوا عن لِقَاحِ حَرْبِهِمْ ، أى رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشتبوا الحرب بينهم وبين هذه الفتنة ، مهادنة لها وسلاموا كراهية للقتال ؛ يقال : شال فلان كذا ، أى رفعه ، واشتال « افتعل » هو فى نفسه ، كقولك : حَجَمَ زيد عمرا ، واحتجم هو نفسه . ولِقَاحِ حَرْبِهِمْ ؛ هو بفتح اللام ، مصدر من لَقَحَتِ الناقة .

قوله : « لَمْ يَمْنُوا » ، هذا جواب قوله : « حتى إذا » ، والضمير فى « يَمْنُوا » راجع إلى

(١) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « والنعم » .

(٢) سورة الإسراء ١٦ .

(٣) سورة الإعراف ١٨٢ .

العارفين الذين تقدّم ذكرهم في الفصل السابق ذكره ؛ يقول : حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال ، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم في ضلالتهم وفتنتهم ، إمّا تقيّة^(١) منهم ، أو لشبهة دخلت عليهم ، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الذين خصّهم بحكمته ، وأطلعهم على أسرار ملكوته فنهضوا ، ولم يمتثلوا على الله تعالى بصبرهم ، ولم يستعظموا أن يبذلوا في الحقّ نفوسهم ؛ قال : حتى إذا وافق قضاء الله تعالى وقدره كي ينهض هؤلاء قضاء الله وقدره في انقضاء مدة تلك الفئة ، وارتفاع ما كان شمل الخلق من البلاء بملكها وإمرتها ، حمل هؤلاء العارفون بصائرهم على أسيافهم ؛ وهذا معنى لطيف ؛ يعني أنهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس ، وكشفوها وجردوها من أجفانها ، مع تجريد السيوف من أجفانها ؛ فكانها شيء محمول على السيوف يبصره من يبصر السيوف ؛ ولا ريب أن السيوف المجردة من أجلى الأجسام للأبصار ، فكذلك ما يكون محمّولاً عليها ؛ ومن الناس من فسر هذا الكلام ، فقال : أراد بالبصائر جمع بصيرة ؛ وهو الدم ؛ فكانه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها هذه الفئة ؛ وكان تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التي جردوها للحرب ؛ وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه :

رَاحُوا بِصَائِرِهِمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتْدُ وَأَيَّ^(٢)

وفسّره أبو عمرو بن العلاء ، فقال : يريد أنهم تركوا دم أبيهم وحملوه خلفهم ، أي لم يثأروا به ، وأنا طلبت ثأري . وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى يقول في هذا البيت : البصيرة : الترس أو الدرع ، ويرويه : « حملوا بصائرهم » .

(١) كذا في ج ، وفي ا ، ب : « بقية » ، وفي د : « بقية » .

(٢) البيت في الصحاح ٢ : ٥٩٢ ، ونسبه إلى الأسعر الجعفي ، وهو أيضاً في اللسان ٥ : ٩٣٣ .

الأفضل :

منها :

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَغَالَتَهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا
عَلَى الْوَلَائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا
الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .
مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمَرَةٍ . قَدْ مَارُوا فِي الْخَيْرَةِ ،
وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ ؛ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ؛ مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِبٍ ،
أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ .

الشيخ :

رجعوا على الأعقاب : تركوا ما كانوا عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى
عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ (١) .

وغالتهم السُّبُلُ : أهلكهم اختلاف الآراء والأهواء ، غاله كذا ، أى أهلكه ،
والسُّبُلُ : الطرق .

والولائج : جمع وليجة ، وهى البطانة يتخذها الإنسان لنفسه ، قال سبحانه : ﴿ وَلَمْ
يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (٢) .

ووصلوا غير الرحيم ، أى غير رحم الرسول صلى الله عليه وآله ؛ فذكرها عليه السلام

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٢) سورة التوبة ١٦ .

ذِكْرًا مطلقاً غير مضاف للعلم بها ، كما يقول القائل : « أهل البيت » ، فيعلم السامع أنه أراد أهل بيت الرسول .

وهَجَرُوا السبب ، يعنى أهل البيت أيضا ؛ وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « خَلَفْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ : كتاب الله وعِترتي أهل بيتي ؛ حَبْلَانِ ممدودان من السماء إلى الأرض ، لا يفترقان حتى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ » ، فعبر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ « السبب » لما كان النبي صلى الله عليه وآله قال : « حَبْلَانِ » ، والسبب في اللغة : الحبل .

عَنِ بَقُولِهِ : « أَمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ » ، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(١) .

قوله : « ونقلوا البناء عن رصّ أساسه » ؛ الرصّ مصدر رَصَصْتُ الشئ أَرْضَصَهُ ، أى ألصقت بعضه ببعض ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ^(٢) ، وتراصّ القوم في الصّف ، أى تلاصقوا . فبنوه في غير موضعه ! ونقلوا ^(٣) الأمر عن أهله إلى غير أهله . ثم ذمهم عليه السلام ، وقال : « إِنَّهُمْ مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ » ، الغمرة : الضلال والجهل . والضارب فيها : الداخل المعتقد لها .

قد ماروا في الحيرة ، مارَ يَمُور إذا ذهب وجاء ، فكأنهم يسبحون في الحيرة كما يسبح الإنسان في الماء .

وذهل فلان ، بالفتح ، يذهل . على سنة من آل فرعون ، أى على طريقة ، وآل فرعون : أتباعه ، قال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الشورى ٢٣ .

(٢) سورة الصف ٥ .

(٣) ب : « ونقلوا » ، وما أثبتته من د .

(٤) سورة غافر ٤٦ .

من منقطع إلى الدنيا : لا هم له غيرها . راكن : مخلد إليها ، قال الله تعالى :
﴿ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾^(١) أو مفارق للدين مبين^(٢) : مزابل .

فإن قلت : أى فرق بين الرجلين ؟ وهل يكون المنقطع إلى الدنيا إلا مفارقا للدين ؟
قلت : قد يكون فى أهل الضلال من هو مفارق للدين مبين ؛ وليس براكن إلى الدنيا
ولا منقطع إليها ؛ كما نرى كثيراً من أخبار النصارى ورهبانهم .

فإن قلت : أليس هذا^(٣) الفصل صريحاً فى تحقيق مذهب الإمامية ؟

قلت : لا ، بل نحمله على أنه عنى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم
من أفناء العرب ، فى أيام صيفين ، وهم الذين نقلوا البناء ، وهجروا السبب ، ووصلوا غير
الرحيم ، واتكلوا على الولائج ، وغالتهم السبل ، ورجعوا على الأعقاب ؛ كعمرو بن العاص ،
والمغيرة بن شعبة ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وحبيب بن مسلمة ، وبشر بن
أرطاة ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وحوشب ، وذى الكلاع ، وشريحيل
ابن السمط^(٤) ، وأبى الأعور السلى ؛ وغيرهم ممن تقدم ذكرنا له فى الفصول المتعلقة بصيفين
وأخبارها ، فإن هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية ، فنقلوا البناء عن رضى
أصله إلى غير موضعه .

فإن قلت : لفظ الفصل يشهد بخلاف ما تأولته ، لأنه قال عليه السلام : حتى إذا قبض
الله رسوله رجع قوم على الأعقاب ، فجعل رجوعهم على الأعقاب عقيب قبض الرسول
صلى الله عليه وآله ، وما ذكرته أنت كان بعد قبض الرسول بنيف وعشرين سنة !

قلت : ليس يمتنع أن يكون هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب ، لما مات رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وأضمرُوا فى أنفسهم مشاققة أمير المؤمنين وأذاه ، وقد كان فيهم من

(٢) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « ومبين » .

(٤) ب : « الصمت »

(١) سورة هود ١١٣ .

(٣) ساقطة من د

يَتَحَكَّمُ بِهِ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُمَانُ، وَيَتَعَرَّضُ لَهُ؛ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ يُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ. وَلَا يَمْتَنِعُ أَيْضًا أَنْ يَرِيدَ بَرَجُوعَهُمْ عَلَى الْأَعْقَابِ ارْتِدَادَهُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالْكَلْبَةِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَصْحَابِنَا يَطْعَنُونَ فِي إِيمَانِ بَعْضِ مَنْ ذَكَرْنَاهُ وَيَعْدُوْنَهُمْ مِنَ الْمُنَاقِقِينَ، وَقَدْ كَانَ سَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقْمَعُهُمْ وَيَرُدُّهُمْ عَنْ إظهار مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَظْهَرَ قَوْمٌ مِنْهُمْ بَعْدَهُ مَا كَانُوا يَضْمُرُونَهُ مِنْ ذَلِكَ: خُصُوصًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِي وَرَدَ فِي حَقِّهِ: « مَا كُنَّا نَعْرِفُ الْمُنَاقِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا بِيَغْضِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ »، وَهُوَ خَيْرٌ مُحَقَّقٌ مَذْكُورٌ فِي الصَّحَاحِ.

فَإِنْ قُلْتَ: يَمْنَعُكَ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ: « وَتَقْلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ أَسَاسِهِ، فَجَعَلُوهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ »، وَذَلِكَ لِأَنَّ « إِذَا » ظَرْفٌ؛ وَالْعَامِلُ فِيهَا قَوْلُهُ: « رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ » وَقَدْ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: « وَتَقْلُوا الْبِنَاءَ »؛ فَإِذَا كَانَ الرَّجُوعُ عَلَى الْأَعْقَابِ وَاقِعًا فِي الظَّرْفِ الْمَذْكُورِ، وَهُوَ وَقْتُ قَبْضِ الرَّسُولِ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ نَقْلُ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَاقِعًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَيْضًا، لِأَنَّ أَحَدَ الْفَعْلَيْنِ مَعْطُوفٌ عَلَى الْآخَرِ، وَلَمْ يَنْقَلِ أَحَدٌ وَقْتُ قَبْضِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْبِنَاءَ إِلَى مَعَاوِيَةَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّمَا نُقِلَ عَنْهُ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ، وَفِي إعْطَاءِ الْمَعْطُوفِ حَقُّهُ إِثْبَاتُ مَذْهَبِ الْإِمَامِيَّةِ صَرِيحًا!

قُلْتَ: إِذَا كَانَ الرَّجُوعُ عَلَى الْأَعْقَابِ وَاقِعًا وَقْتُ قَبْضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَدْ قُنَا بِمَا يَجِبُ مِنْ وَجُودِ عَامِلٍ فِي الظَّرْفِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ نَقْلُ الْبِنَاءِ إِلَى غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَاقِعًا فِي تِلْكَ الْحَالِ أَيْضًا، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَاقِعًا فِي زَمَانٍ آخَرَ؛ إِمَّا بِأَنْ تَكُونَ الْوَاقِعَةُ لِلْإِسْتِنَافِ لِلْعَطْفِ، أَوْ بِأَنْ تَكُونَ لِلْعَطْفِ فِي مَطْلُوقِ الْحَدِّثِ لَا فِي وَقْعِ الْحَدِّثِ فِي عَيْنِ ذَلِكَ الزَّمَانِ الْخُصُوصِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

يُضَيِّفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ؛ فالعامل في الظرف « استطعا » ،
ويجب أن يكون استطاعهما وقت إتيانهما أهلها لا محالة . ولا يجب أن تكون جميع
الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً ؛ ألا ترى أن من جملتها « فأقامه » ولم يكن
إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما ؛ اللهم إلا أن يقول قائل : أشار
بيده إلى الجدار فقام ، أو قال له : قم ، فقام ، لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً
للإتيان إلا على هذا الوجه ؛ وهذا لم يكن ، ولا قاله مفسر . ولو كان قد وقع على هذا الوجه
لما قال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ؛ لأن الأجر إنما يكون على ائتمال عمل فيه
مشقة ؛ وإنما يكون فيه مشقة إذا بناه بيده ، وباشره بجوارحه وأعضائه .

واعلم أنا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدده الجليل ،
ومنصبه العظيم ، ودينه القويم ، من الإغضاء عما سلف ممن سلف ؛ فقد كان صاحبهم
بالمعروف برهة من الدهر ، فأما أن يكون ما كانوا فيه حقهم أو حقه ، فتركه لهم رفعا
لنفسه عن المنازعة ، أو لما رآه من المصلحة ؛ وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن
نطبق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم وبين أولها ؛ فإن بعد تأويل ما يتأوله من
كلامه ، ليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات الملتصبة في القرآن ، ولم يمنع
بعدها من الخوض في تأويلها محافظة على الأصول المقررة ؛ فكذلك هاهنا .

الأصل :

ومنه خطبة له عليه السلام :

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ، وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَنَخَائِلِهِ ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَجِيَّهُ وَصَفْوَتُهُ ؛ لَا يُؤَازِي فَضْلُهُ ، وَلَا يُجْبِرُ
فَقْدُهُ ؛ أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ ؛
وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ ، وَيَسْتَدِلُّونَ الْحَكِيمَ ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ ، وَيَمُوتُونَ
عَلَى كُفْرَةٍ .

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدْ اقْتَرَبَتْ ؛ فَاتَّقُوا سَكْرَاتِ النِّعْمَةِ ،
وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّعْمَةِ ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ ، عِنْدَ طُلُوعِ
جَنِينِهَا ، وَظُهُورِ كَمِينِهَا ، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا ، وَمَدَارِ رَحَاها ؛ تَبْدَأْ فِي مَدَارِجِ خَفِيَّةٍ ،
وَتَوَوَّلْ إِلَى فِظَاعَةِ جَلِيَّةٍ ؛ شَبَابُهَا كَشِبَابُ الْعِلَامِ ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السَّلَامِ ؛
يَتَوَارَثُهَا الظُّلْمَةُ بِالْعُهُودِ ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ ؛ وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ ؛
يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى حِيْفَةٍ مُرِيحَةٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ
يَتَبَرَّأَ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَبَوِّعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقَوِّدِ ، فَيَتَزَايِلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلَاعَنُونَ
عِنْدَ اللَّقَاءِ .

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ، وَالْقَاصِمَةُ الرَّحُوفِ ، فَتَزِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ
اسْتِقَامَةٍ ، وَتُضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَةٍ ، وَتُخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَدِسُ الْأَرَاءُ
عِنْدَ نُجُومِهَا .

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتُهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتُهُ ؛ يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادَمَ الْحُمْرِ
فِي الْعَانَةِ . قَدْ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ؛ وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَفِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ،
وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرْضُضُهُمْ بِكَلْسِهَا ؛ يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا
الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمِرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ الدَّمَاءِ ، وَتَتَلِمُ
مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ .

يَهْرُبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ ، وَيَدْبُرُهَا الْأَرْجَاسُ . مِرْعَادُ مِيزَانٍ ، كَاشِفَةُ عَنْ
سَاقٍ ، تَقْطَعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ؛ بَرِيئُهَا سَقِيمٌ ،
وَوَظَائِنُهَا مُقِيمٌ .

الْبُزْجُ :

مداحر الشيطان : الأمور التي يُدَحِّرُ بها ، أي يطرد ويبعد ، دحرته أَدْحَرُهُ
دُحُورًا ، قال تعالى : ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ ^(١) ، وقال سبحانه : ﴿ أَخْرِجْ مِنْهَا
مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ ^(٢) ، أي مقصًى .

ومزاجه : الأمور يزجر بها ؛ جمع مزجر : ومزجرة ، وكثيرا ما يبنى عليه السلام من
الأفعال « مَفْعَلًا » و« مَفْعَلَةٌ » ويجمعه ؛ وإذا تأملت كلامه عرفت ذلك .

وحبائل الشيطان : مكائده وأشراكه التي يُضِلُّ بها البشر . ونخاتله : الأمور التي
يُخْتَلِ بها ، بالكسر ، أي يخدع .

لا يُؤَاوِي . فضله : لا يساوى ، واللفظة مهموزة ، آريت فلانا : حاذيته ،
ولا يجوز « وازيته » .

(١) سورة الصافات ٩ .

(٢) سورة الأعراف ١٨ .

ولا يجبر فقدّه : لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده . والجفوة الجافية : غلظ الطبع وبلادة الفهم .

ويستذلّون الحكيم : يستضيّمون العقلاء ، واللام هاهنا للجنس ، كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(١) .

يحيون على فترة : على انقطاع الوحي ما بين نبوتين . ويموتون على كفرة ، بالفتح ، واحد الكفّرات ، كالضربة واحدة الضربات . ويروى : « ثم إنكم معشر الناس » . والأغراض : الأهداف . وسكرات النعمة : ما تحلّه النعم عند أربابها من الفعلة المشابهة للشكر ، قال الشاعر :

خمس سكرات إذا مُني المرء بها صار عُرْضةً للزمان
سكرة المال والحدائث والعشيق وسكر الشراب والسلطان

ومن كلام الحكماء : للوالى سكرة لا يُفريق منها إلا بالعرزل . والبوائق : الداهي جمع بائقة ؛ يقال : باقتهم الداهية بوقاً ، أى أصابتهم ، وكذلك : باقتهم بوق على « فقول » ، وابتاقت عليهم بائقة شرّ ، مثل انباحت ، أى انفتحت ، وابتاقت عليهم الذهر : هجم بالداهية ، كما يخرج الصوت من البوق ، وفي الحديث : « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » ، أى غوائله وشرّه .

والقتام ، بفتح القاف : الغبار . والأقتم : الذى يعلوه قتمة ؛ وهولون فيه غبرة وخمرة .

والعشوة ، بكسر العين : ركوب الأمر على غير بيان ووضوح . ويروى : « وتبينوا في قتام العشوة » كما قرئ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾^(٢) و ﴿ فتبينوا ﴾ .

(١) سورة الفجر ٢٢ .

(٢) سورة المجرات ٦ .

واعوجاج الفتنة : أخذها في غير القصد ، وعدولها عن المنهج .

ثم كنى عن ظهور المستور الخفى منها بقوله : « عند طلوع جنينها ، وظهور كمينها » ،
والجنين : الولد مادام في البطن ، والجمع أجنة ، ويجوز ألا يكون الكلام كناية بل صريحا ؛
أى عند طلوع ما استجن منها ؛ أى استتر . وظهور ما كمن ، أى ما بطن .

وكنى عن استحكام أمر الفتنة بقوله : « وانتصاب قطبها ، ومدار رحاها » .

ثم قال : إنها تبدو يسيرة ، ثم تصير كثيرة .

والفضاعة . مصدر فطع بالضم ، فهو فطيع أى شديد شنيع تجاوز المقدار ، وكذلك
أفطع الرجل فهو مفطع ، وأفطع الرجل على مالم يسم فاعله : نزل به أمر عظيم ، وأفطعت
الشيء : وجدته فظيحا ، ومثله استفطعته ، وهذا المعنى كما قال الشاعر :

وَلَرُبَّمَا هَاجَ الْكَبِيرَ مِنَ الْأُمُورِ لَكَ الصَّغِيرُ

وفى المثل : « والشر تبدو صغاره » ، وقال الشاعر :

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تَذْكِي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا كَلَامُ^(١)

وقال أبو تمام :

رَبِّ قَلِيلٍ جَدًّا كَثِيرًا كَمْ مَطَرٍ بَدْوُهُ مَطِيرُ

وقال أيضا :

لَا تَذِيلَنَّ صَغِيرَ هَمِّكَ وَانْظُرْ كَمْ بَذَى الْأَسْلِ دَوْحَةً مِنْ قَضِيبِ^(٢)

قوله : « شبابها كشباب الغلام » بالكسر ، مصدر شبّ الفرس والغلام يشبّ
ويشَبّ شبابا وشنبيا ، إذا قص ولعب ، وأشببته أنا ، أى هيّجته .

(١) لنصر بن سيار ، العقد لابن عبد ربه ٤ : ١١٠

(٢) ديوانه ١ : ١٢٧ . والأنثى : شجر معروف بعظمه ، والدوحة : الشجرة العظيمة .

والسّلام : الحجارة جمع ، واحده سَلَمَة بكسر اللام ؛ يذكر الفتنة ، ويقول : إنها تبدو
في أوّل الأمر وأربابها يمرحون ويشبون كما يشبّ الغلام ويمرح ، ثم تتول إلى أن تعقب
فيهم آثارها ، كما آثار الحجارة في الأبدان ، قال الشاعر :

والحب مثل الحرب أولها التخييل والنشاط
وختامها أم الربيق النكز والضرب القَطَاطُ^(١)

ثم ذكر أنّ هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم ، وكلّهم ظالم ، أولهم يقود آخرهم ؛ كما
يقود الإنسان القطار من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه . وآخرهم يقتدى بأولهم ، أى يفعل
فعله ، ويحذو حذوه .

وجيفة مريجة : منتنة ، أراحت ظهر ريحها ، ويجوز أن تكون من أراح البعير ، أى
مات ، وقد جاء في « أراح » بمعنى أتنن « راح » بلا همز .
ثم ذكر تبرؤ التابع من المتبوع ، يعنى يوم القيامة .

فإن قلت : إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ
الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾^(٢) ، وهاهنا
قد عكس ذلك ، فقال : إنّ التابع يتبرأ من المتبوع !

قلت : إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك ، في قوله : ﴿ أَيْنَ شَرَّ كَاوُكُمُ
الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾^(٣) . ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾^(٤) ،
فقولهم : ﴿ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ هو التبرؤ ، وهو قوله حكاية عنهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا
مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾^(٣) ، وهذا هو التبرؤ .

(١) أم الربيق كناية عن الحرب .

(٢) سورة البقرة ١٦٦ .

(٣) سورة الأنعام ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) سورة غافر ٧٤ .

ثم ذكر عليه السلام أن القائد يتبرأ من المقود ، أى يتبرأ المتبوع من التابع فيكون كل من الفريقين تبرأ من صاحبه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (١) .

ويتزايلون : يتفرقون .

قوله : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف » ، طالعها : مقدّماتها وأوائلها ؛ وسماها « رجوفا » ، لشدة الاضطراب فيها .

فإن قلت : ألم تكن قلت : إن قوله : « عن قليل يتبرأ التابع من للتبوع » يعنى به يوم القيامة ، فكيف يقول : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة » وهذا إنما يكون قبل القيامة ! قلت : إنه لما ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهى الدنيا ، أراد أن يقول بعده بلافصل : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف » ، لكنه لما تعجب من تزامم الناس وتكالبهم على تلك الجيفة ، أراد أن يؤكد ذلك التعجب ، فأتى بجملة معترضة بين الكلامين ، تؤكد معنى تعجبه منهم ، فقال : إنهم على ما قد ذكرنا من تكالبهم عليها ؛ عن قليل يتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ؛ وذلك أدعى لهم لو كانوا يعقلون - إلى أن يتركوا التكالب والتهاوش على هذه الجيفة الخسيسة . ثم عاد إلى نظام الكلام ، فقال : « ثم يأتى بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف » ، ومثل هذا الاعتراض فى الكلام كثير ، وخصوصا فى القرآن ، وقد ذكرنا منه فيما تقدم طرفا .

قوله : « والقاصمة الزخوف » القاصمة : الكاسرة ، وسماها زخوفا تشبيها لمشيتها قدما على الدبى الذى يهلك الزروع ويبيدها ، والزحف : السير على ثؤدة كثير الجيوش بعضها إلى بعض .

قوله : « وتزيع قلوب » أى تميل ؛ وهذه اللفظة والتي بعدها دالتان على خلاف ما تذهب إليه الإمامية من أن المؤمن لا يكفر ، وناصرتان لمذهب أصحابنا .

ونجومها : مصدر نجم الشر إذا ظهر .

من أشرف لها : من صادمها وقابلها . ومن سعى فيها ، أى فى تسكينها وإطفائها ، وهذا كله إشارة إلى الملحمة الكائنة فى آخر الزمان .

والتكادُم : التعاض بآذنى الفم ، كما يكدم الحمار ، ويقال : كدم يكدم ، والمكدم : المعض .

والعانة : القطيع من مخر الوحش ، والجمع عون . تفيض فيها الحكمة : تنقص .

فإن قلت : ليس قوله : « وتنطق فيها الظلمة » واقعاً فى تقيض قوله : « تفيض فيها الحكمة » ، فأين هذا من الخطابة التى هو فيها نسيجٌ وحده !

قلت : بل للمناقضة ظاهرة ؛ لأن الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بد من نطق ما ، فإذا لم تنطق الحكماء وجب أن يكون النطق لمن ليس من الحكماء ؛ فهو من الظلمة ، فقد ثبت التناقض .

والمسحل : المبرد . يقول : تنحت أهل البدو وتسحتهم كما يسحت الحديد أو الخشب بالمبرد . وأهل البدو : أهل البادية ، ويجوز أن يريد بالمسحل الحلقة التى فى طرف شكيم اللجام المعترضة بإزاء حلقة أخرى فى الطرف الآخر ، وتدخل إحداها فى الأخرى ؛ بمعنى أن هذه الفتنة تصدم أهل البدو بمقدمة جيشها كما يصدّم الفارسُ الراجلُ أمامه بمسحل الجام فرسه .

والكلكل : الصدر . وترضهم : تدقهم دقاً جريشاً .

قوله : « تضعف في غبارها الوُحْدان » ، جمع واحد ، مثل شاب وشبان ، وراع ورُعيان ، ويجوز « الأُحْدان » بالهمز ، أى مَنْ كان يسير وحده فإنه يهلك بالكلية في غبارها ، وأما إذا كانوا جماعة ركبانا فإنهم يضلون ، وهو أقرب من الهلاك ، ويجوز أن يكون الوُحْدان جمع أُوحد ؛ يقال : فلان أُوحد الدهر ، وهؤلاء الوُحْدان أو الأُحْدان ، مثل أسود وسُودان ، أى يضل في هذه الفتنة ، وضلالتها الذى كثرت عنه بالغبار فضلاء عصرها وعلماء عهدها ؛ لغموض الشبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها . ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أن الراكب الذى هو بمظنة النجاة لا ينجو . والركبان : جمع راكب ، ولا يكون إلا ذا بعير . قوله : تردُّ بمِرِّ القضاء ، أى بالبور والهلاك والاستئصال .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة : إنها من القضاء ؟

قلت : نعم ، لا بمعنى الخلق بل بمعنى الإعلام ، كما قال سبحانه : ﴿ وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ ^(١) أى أعلمناهم ، أى ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء إعلامه من المكلفين أنها أمّ اللّهم ^(٢) التى لا تبقى ولا تدّر ، فذلك الإعلام هو المراد الذى لا يبلغ الوصفُ مراتته ، لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذى لا مدفع عنه ولا محيص منه ، مرّةٌ جداً .

قوله : « وتُحلب عبيط الدماء » ، أى هذه الفتنة يحلبها الخالب دماً عبيطاً ، وهذه كناية عن الحرب ، وقد قال عليه السلام في موضع آخر : « أما والله ليحلبنّها دماً ، وليتبعنّها ندماً » والعبيط : الدم الطرى الخالص .

وثَلَمَتِ الإناء ، أثلمه بالكسر . والأُكياس : العقلاء .

(١) سورة الإسراء ٤ .

(٢) أمّ اللّهم : الداهية .

والأرجاس : جمع رجس ، وهو القذر والنجس ، والمراد هاهنا الفاسقون ، فإما أن يكون على حذف المضاف ؛ أى ويدبرها ذوو الأرجاس ، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسهم ،^(١) لما كانوا قد أسرفوا فى الفسق ، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها^(٢) ، كما يقال : رجل عدل ، ورجل رضا .

قوله : « مر عاد مبراق » أى ذات وعيد وتهدد ، ويجوز أن يعنى بالرعد صوت السلاح وقعته ، وبالبرق لونه وضوءه .

وكاشفة عن ساق : عن شدة ومشقة .

قوله : « بريئها سقيم » ؛ يمكن أن يعنى بها أنها لشدتها لا يكاد الذى يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة ، بل لابد أن يستثنى شيئاً من الفسق والضلال ، أى لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلفين حينئذ .

ويمكن أن يعنى به أن الهارب منها غير ناج ، بل لابد أن يصيبه بعض معرفتها ومضرتها .

وظاعنها مقيم ، أى ما يفارق الإنسان من أذاها وشرها ؛ فكأنه غير مفارق له ، لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقاييل من شرورها وغوائلها .

الأصل :

منها :

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يَحْتَلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ ، وَبِفُرُورِ الْإِيمَانِ ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ .

(١ - ١) ساقط من ب .

وَالزُّمُّوْا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ . وَاقْدَمُوا عَلَى
 اللَّهِ مَظْلُومِينَ ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدُوَانِ ،
 وَلَا تَدْخُلُوا بُطُونَكُمْ لَعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بَعِيْنٌ مِّنْ حَرَمٍ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةِ ،
 وَسَهْلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ .

الشَّرْحُ :

يقال : طَلَّ دَمُ فُلَانٍ فَهُوَ مَطْلُولٌ ، أَيْ مَهْدَرٌ لَا يُطْلَبُ بِهِ ، وَيُجُوزُ أَطْلَ دَمُهُ ، وَطَلَّ
 اللَّهُ وَأَطَلَّهُ : أَهْدَرَهُ ، وَلَا يَقَالُ : طَلَّ دَمُ فُلَانٍ بِالْفَتْحِ ، وَأَبُو عَمِيْدَةَ وَالْكَسَائِيُّ يَقُولَانِهِ .
 وَيَحْتَلُونَ : يَخْدَعُونَ بِالْأَيْمَنِ الَّتِي يَعْقِدُونَهَا وَيُقْسِمُونَ بِهَا ، وَبِالْإِيْمَانِ الَّذِي يَظْهَرُ وَنَهْ
 وَيَقْرَوْنَ بِهِ .

ثُمَّ قَالَ : « فَلَا تَكُونُوا أَنْصَارَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبَدْعِ » ، أَيْ لَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَشَارُ إِلَى كَيْفِ
 الْبَدْعِ كَمَا يَشَارُ إِلَى الْأَعْلَامِ الْمُبْنِيَّةِ الْقَائِمَةِ ، وَجَاءَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْفُوعِ : « كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنِ اللَّبُونِ ،
 لَا ظَهَرَ فِيرَكِبْ ، وَلَا ضُرْعَ فَيَحْلُبْ » ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ يَرْوِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قَوْلُهُ : « وَاقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ » ، جَاءَ فِي الْخَبَرِ : « كُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولِ » .
 وَمَدَارِجُ الشَّيْطَانِ : جَمْعُ مَدْرَجَةٍ ، وَهِيَ السَّبِيلُ الَّتِي يَدْرَجُ فِيهَا . وَمَهَابِطُ الْعُدُوَانِ : مُحَالُهُ
 الَّتِي يَهْبِطُ فِيهَا .

وَلَعَقَ الْحَرَامِ : جَمْعُ لُعْقَةٍ بِالضَّمِّ ، وَهِيَ اسْمٌ لِمَا تَأْخُذُهُ الْمَلْعَقَةُ ، وَاللَّعْقَةُ ، بِالْفَتْحِ : الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ .
 قَوْلُهُ : « فَإِنَّكُمْ بَعِيْنٌ مِّنْ حَرَمٍ » ، يَقَالُ : أَنْتَ بَعِيْنٌ فُلَانٌ ، أَيْ أَنْتَ بِمَرَأَى مِنْهُ ،
 وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِصِّقِينَ : « فَإِنَّكُمْ بَعِيْنُ اللَّهِ ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ » وَهَذَا
 مِنْ بَابِ الْاسْتِعَارَةِ ، قَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿ وَلَتَصْنَعَنَّ عَلَىٰ عَيْنِي ^(١) ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ^(٢) ﴾ .

(١) سُورَةُ طه ٣٩ .

(٢) سُورَةُ الْقَمَرِ ١٤ .

الأفضل :

ومن قطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ ، وَبِمُحَدِّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَاقِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ
عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ ؛ لَا تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لَا فِتْرَاقِ الصَّانِعِ
وَالْمَصْنُوعِ ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ ، وَالْخَالِقِ
لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ، وَالسَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ ، وَالْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ ،
وَالشَّاهِدِ لَا بِمُمَاسَّةٍ ، وَالْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ ، وَالظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَا ، وَالْبَاطِنِ
لَا بِطَافَةٍ .

بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا ، وَالْقُدْرَةُ عَلَيْهَا ، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ ،
وَالرَّجُوعِ إِلَيْهِ . مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَاقَهُ ،
وَمَنْ قَالَ : « كَيْفَ » فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ ، وَمَنْ قَالَ : « أَيْنَ » ، فَقَدْ حَيَّرَهُ ، عَالِمٌ إِذَا
لَا مَعْلُومٌ ، وَرَبٌّ إِذَا لَا مَرْبُوبٌ ، وَقَادِرٌ إِذَا لَا مَقْدُورٌ .

الشيخ :

[أبحاث كلامية]

في هذا الفصل أبحاث :

أولها في وجوده تعالى ، وإثبات أن للعالم صانعاً ؛ وهاتان طريقتان في الدلالة على
وجوده الأول سبحانه :

إحداهما : الطريقة المذكورة في هذا الفصل ، وهى طريقة المتكلمين ، وهى إثبات أن
الأجسام محدثة ، ولا بدّ للمحدث من محدث .

والثانية : إثبات وجوده تعالى من النظر في نفس الوجود .

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين : واجب وممكن ، وكلّ ممكن
لا بدّ أن ينتهى إلى الواجب ، لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه في قوامه ؛
فلا بدّ من واجب يستند إليه ؛ وذلك الواجب الوجود الضرورى الذى لا بدّ منه ، هو
الله تعالى .

وثانيها : إثبات أزليّته ؛ وبيانه ما ذكره في هذا الفصل ؛ وهو أن العالم مخلوق له
سبحانه ، حادث من جهته ، والمحدث لا بدّ له من محدث ، فإن كان ذلك المحدث
محدثاً ، عاد القول فيه كالقول في الأول ، ويتسلسل ، فلا بدّ من محدث قديم ؛ وذلك هو
الله تعالى .

وثالثها : أنه لا شبهة له ، أى ليس بجسم كهذه الأجسام ، وبيانه ما ذكر أيضاً أن مخلوقاته
متشابهة ، يعنى بذلك ما يريده المتكلمون من قولهم : الأجسام متماثلة في الجسمية ، وأنّ
نوع الجسمية واحد ، أى لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته ، وإذا كانت متماثلة صحّ على كلّ
واحد منها ما صحّ على الآخر ، فلو كان [له] سبحانه شبهةٌ منها - أى لو كان جسماً مثلها -
لوجب أن يكون محدثاً كمثليها ، أو تكون قديمة مثله ؛ وكلا الأمرين محال .

ورابعها : أنّ المشاعر لا تستلمه ، وروى « لا تلمسه » ؛ والمشاعر الحواسّ ، وبيانه أنه تعالى
ليس بجسم لما سبق ؛ وما ليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسةً له ؛ لأنّ إدراك المشاعر
مدركاته مقصور على الأجسام وهيئاتها . والاستلام في اللغة : لمس الحجر باليد وتقبيله ؛
ولا يهمز ، لأن أصله من السّلام وهى ^(١) الحجارة ؛ كما يقال : استنوّق الجمل ، وبعضهم يهزّه .

وخامسها : أن السواتر لا تحجبه ؛ وبيانه أن السواتر والحجب ؛ إنما تحجب ما كان في جهة ؛ وذلك لأنها ذوات أين ووضع فلا نسبة لها ، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع .

ثم قال عليه السلام : «لافتراق الصانع والمصنوع» ، إشارة إلى أن المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك ؛ برىء عن المواد ، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة .

وسادسها : معنى قولنا : إنه أحد ، «أنه ليس بمعنى العدد ، كما يقوله الناس : أول العدد أحد وواحد ، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزئ ، وباعتبار آخر كونه لا ثانى له في الربوبية .

وسابعها : أنه خالق ، لا بمعنى الحركة والنّصب ، وهو التعب ؛ وذلك لأن الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساما تفعل بالآلات ، والبارئ سبحانه ليس بجسم ، ولا يفعل بالآلة ، بل كونه قادرا إنما هو لذاته المقدّسة ، لا لأمر زائد عليها ، فلم يكن فاعلا بالحركة .

وثامنها : أنه سميع ، لا بأداة ؛ وذلك لأن حاجتنا إلى الحواس ، إنما كانت لأمرٍ يخصّنا ؛ وهو كوننا أحياء بحياة حالة في أبعاضنا ، والبارئ تعالى حيّ لذاته ؛ فلم يحتج في كونه مدركا إلى الأداة والجارحة .

وتاسعها : أنه بصير لا بتفريق آلة ، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصرا ، فإن القائلين بالشعاع يقولون : إنه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعة ؛ وتكون آلة للحى في إبصار المبصرات ، فيتفرّق عليها ، فكل جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصرا ، والبارئ تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك ، ويتفرّق على المراتب

فمدرّكها به ؛ وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته ؛ لا بمعنى ، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدركات .

وعاشرها : أنّه الشاهد لا بماسّة ؛ وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود ؛ ألا ترى أنّ من في الصين لا يكون شاهداً من في المغرب ؛ لأنّ الحضور الجسمانيّ يفتقر إلى القرب ، والقرب من لوازم الجسمية ، فماليس بجسم - وهو عالم بكلّ شيء - يكون شاهداً من غير قرب ولا مماسّة ، ولا أين مطلوب .

وحادي عشرها : أنّه الباطن لا يتراخى مسافة بينونة المفارق عن المادّة ، بينونة ليست أيّنيّة لانه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر بالجهة ؛ فلا جرم كان الباري تعالى مبايناً عن العالم ، لا بمسافة بين الذاتين .

وثاني عشرها : أنّه الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ؛ وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئياً بالبصر ، والباطن منها ما كان لطيفاً جداً ؛ إما لصغره أو لشفافيّته ، والباري تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار ، باطن ؛ أي غير مدرك بالحواس ، لأنّ ذاته لا تقبل المدركيّة لا من حيث كان لطيف الحجم أو شفاف الجرم .

وثالث عشرها : أنّه قال : بان من الأشياء بالقهر لها ، والقدرة عليها ، وبانت الأشياء منه ^(١) بالخضوع له ، والرجوع إليه ؛ وهذا هو معنى قول المتكلمين والحكماء ، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنّه واجب الوجود لذاته ، والأشياء كلّها ممكنة الوجود ^(٢) بذواتها ؛ فكلّها محتاجة إليه ، لأنها لا وجود لها إلّا به ؛ وهذا هو معنى خضوعها له ، ورجوعها إليه . وهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء ؛ ومؤثر في كلّ شيء ؛ إمّا بنفسه ، أو بأن يكون مؤثراً فيما هو مؤثر في ذلك الشيء ، كأفعالنا ، فإنه يؤثر فينا ؛ ونحن نؤثر فيها ، فإذا هو قاهر لكلّ شيء ؛ وقادر على كلّ شيء . فهذه هي البينونة بينه وبين الأشياء كلّها .

(١) ج : « عنه » .

(٢) ساقطة من د .

ورابع عشرها : أنه لا صفة له زائدة على ذاته ؛ ونعني بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته ؛ وذلك لأنَّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدّه ، وَمَنْ حدّه فقد عدّه ، وَمَنْ عدّه فقد أبطل أزله ؛ وهذا كلام غامض ، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علماً قديماً أو قدرة قديمة ، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلوماتٍ محدودة ، أى محصورة ؛ وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدودة ؛ وهذه المقدمة ثابتة في كُتب أصحابنا المتكلمين مما يذكرونه في تقرير أن العلم الواحد لا يتعلّق بمعلومين ، وأن القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلّق في الوقت الواحد من الجنس الواحد في المحلّ الواحد إلّا بجزء واحد ؛ وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدّثين ، فإنّ هذا الحكم لازم لهما ، فقد ثبت أن مَنْ أثبت المعاني القديمة فقد أثبت البارئ تعالى محدود العالمية والقادرية ، ومن قال بذلك فقد عدّه ، أى جعله من جملة الجثة المحدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات ، وَمَنْ قال بذلك ؛ فقد أبطل أزله ، لأن كل ذات مماثلة لهذه الذوات المحدثّة ؛ فإنها محدثة مثلاً ، والحدث لا يكون أزلياً .

وخامس عشرها : أن من قال : « كيف » ، فقد استوصفه ، أى من قال لزيد : كيف الله ؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفية من الكيفيات ، والبارئ تعالى لا تجوز الكيفيات عليه ، والكيفيات هي الألوان والطعوم ونحوها ، والأشكال والمعاني وما يجري مجرى ذلك ؛ وكلّ هذا لا يجوز إلّا على الأجسام .

فإن قلت : ينبغي أن يقول : « فقد وصفه » ، ولا يقال : « فقد استوصفه » ؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله ؛ وإنما استوصف صاحبه الذي سأله عن كيفية الله .

قلت : « استوصف » هاهنا بمعنى « وصف » ؛ كقولك : استغنى زيد عن عمرو ، أى غنى عنه ، واستغنى عليه أى علا ، ومثله كثير .

وسادس عشرها : أن من قال : « أين » فقد حيّزه ، لأنّ « أين » سؤال عن المكان ، وليس الله تعالى في مكان ، ويأتى أنه في كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة .

وسابع عشرها : أنه عالم إذ لا معلوم ، ورب إذ لا مربوب ، وقادر إذ لا مقدور ، وكل هذا صحيح ومندول عليه ، لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود ، وهو رب كل شيء قبل أن يخلقه ، كما تقول إنه سميع بصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصرات ، أي قبل أن يخلقها ، وقادر على الأشياء قبل كونها ، لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة ، لاستحالة إيجاد الموجود .

وقد شرحنا بكل هذه المسائل التوحيدية في كتبنا المصنفة في علم الكلام .

الأصل :

منها :

قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لَامِعٌ ؛ وَلَاحَ لَائِحٌ ، وَأَعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَأُسْتَبْدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا ، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا ؛ وَانْتَظَرْنَا الْغَيْرَ أَنْتَظَرَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرِ .

وَإِنَّمَا الْأَلِيمَةُ قُوَّامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرْفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، وَأَسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَسْمُ سَلَامَةٍ ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ ، أَصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرٍ عِلْمٍ ، وَبَاطِنٍ حِكْمٍ ؛ لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ .

فِيهِ مَرَايِعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لَا تُفْتَحُ أَخْبِرَاتُ إِلَّا بِمِفَاتِيحِهِ ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَغَى ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَغَى .

الشَّرْحُ :

هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه .
قد طلع طالع ، يعنى عَوْدُ الخلافة إليه ، وكذلك قوله : « ولمع لامع ، ولاح لأُح » ؛
كلّ هذا يراد به معنى واحد .

واعتدل مائل ، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج فى أواخر أيام عثمان ،
واستبدل الله بعثمان وشيعته عليا وشيعته ، وبأيام ذاك أيام هذا .

ثم قال : « وانتظرنا الغيرَ انتظارَ المجدبِ المطر » ؛ وهذا الكلام يدلّ على أنه
قد كان يتربّص بعثمان الدوائر ، ويرتقب حلول الخطوب بساحته ، لِيَلِيَّ الخلافة .

فإن قلت : أليس هو الذى طلق الدنيا ، فأين هذا القول من طلاقها ؟
قلت : إنه طلق الدنيا أن يقبل ^(١) منها حظا دنيويا ، ولم يطلقها ؛ أن ينهى فيها عن
المنكرات التى أمره الله تعالى بالنهى عنها ، ويقيم فيها الدين الذى أمره الله بإقامته ،
ولا سبيل له إلى النهى عن المنكر والأمر بالمعروف إلّا بولاية الخلافة .

[عقيدة علىّ فى عثمان ورأى المعتزلة فى ذلك]

فإن قلت : أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال : إنه عليه السلام كان ينتظر قتل عثمان ،
انتظار المجدبِ المطر ؛ وهل هذا إلّا محض مذهب الشيعة !

قلت : إنه عليه السلام لم يقل : « وانتظرنا قتله » وإنما انتظر الغيرَ ، فيجوز أن يكون
أراد انتظار خلعه وعزله عن الخلافة ، فإنّ عليا عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى
أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه ، ولم يستحقّ القتل ؛ وهذا الكلام إذا حمل على انتظار
الخلع كان موافقا لمذهب أصحابنا .

(١) د : « ينال » .

فإن قلت : أتقول المعتزلة إن عليا كان يذهب إلى فسق عثمان المستوجب لأجله الخلع ؟ قلت : كلا ! حاش لله أن تقول المعتزلة ذلك ! وإنما تقول إن عليا كان يرى أن عثمان يضعف عن تدبير الخلافة ، وأن أهله غلبوا عليه ، واستبدوا بالأمر دونه ، واستعجزه المسلمون ، واستسقطوا رأيه ، فصار حكمه حكم الإمام إذا عمى ، أو أسره العدو ، فإنه ينخلع من الإمامة .

ثم قال عليه السلام : « الأئمة قوام الله على خلقه » ، أى يقومون بمصالحهم ، وقيم المنزل : هو المدبر له .

قال : « وعرفاؤه على عباده » : جمع عريف ، وهو النقيب والرئيس ؛ يقال : عرف فلان بالضم عرافة بالفتح ، مثل خطب خطابة أى صار عريفا ، وإذا أردت أنه عمل ذلك قلت : عرف فلان علينا سنين ، يعرف عرافة بالكسر ، مثل كتب يكتب كتابة .

قال : « لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه » ، هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ ^(١) قال المفسرون : ينادى في الموقف : يا أتباع فلان ، ويا أصحاب فلان ، فينادى كل قوم باسم إمامهم ؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام : لا يدخل الجنة يومئذ إلا من كان في الدنيا عارفا بإمامه ، ومن يعرفه إمامه في الآخرة ، فإن الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة ، وإن لم يكونوا رأوهم في الدنيا ، كما أن النبي صلى الله عليه وآله يشهد ^(٢) للمسلمين وعليهم ؛ وإن لم يكن رأى أكثرهم ، قال سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ^(٣) وجاء في الخبر

(١) سورة الإسراء ٧١ .

(٢) ب : « شهد » .

(٣) سورة النساء ٤١ .

المرفوع : « مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » ، وأصحابنا كافة قائلون بصحة هذه القضية ؛ وهى أنه لا يدخل الجنة إلا من عرَفَ الأئمة ؛ ألا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلان وفلان ، ويعدّونهم واحدا واحدا ، فلو أن إنسانا لا يقول بذلك ؛ لكان عندهم فاسقا ، والفاسق لا يدخل الجنة عندهم أبدا ، أعنى مَنْ مَاتَ عَلَى فِسْقِهِ . فقد ثبت أن هذه القضية ، وهى قوله : عليه السلام : « لا يدخل الجنة إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ » قضية صحيحة على مذهب المعتزلة ، وليس قوله : « وعرفوه » بمنكر عند أصحابنا ؛ إذ أفسرنا قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات ، وهو ما ذكرناه .

وبقيت القضية الثانية ففيها الأشكال ، وهى قوله عليه السلام : « ولا يدخل النار إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ » ، وذلك أن لقائل أن يقول : قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم ؛ مثل أن يكون إنسان يعتقد صحة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة ، ثم يزنى أو يشرب الخمر من غير توبة ، فإنه يدخل النار ؛ وليس بمنكر للأئمة ؛ فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال !

فالجواب أن الواو فى قوله : « وَأَنْكَرُوهُ » بمعنى « أو » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَانْكِرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ ^(٣) فالإنسان المفروض فى السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إِلَّا أَنَّهُمْ يَنْكِرُونَهُ ، أى يسخطون يوم القيامة أفعاله ، يقال : أنكرت فعل فلان أى كرهته ؛ فهذا هو تأويل الكلام على مذهبننا ، فأما الامامية فإنهم يحملون ذلك على تأويل آخر ، ويفسرون قوله : « ولا يدخل النار » ، فيقولون : أراد ولا يدخل النار دخولا مؤبداً إِلَّا مَنْ يَنْكِرُهُمْ وَيَنْكِرُونَهُ .

ثم ذكر عليه السلام شرف الإسلام ، وقال : إنه مشتق من السلامة ، وإنه جامع للكرامة ، وإن الله قد بين حججه ، أى الأدلة على صحته .

ثم بين ماهذه الأدلة ، فقال : « من ظاهر علم ، وباطن حكم » ، أى حكمة ، ف«مين» هاهنا للتبيين والتفسير ؛ كما تقول : دفعت إليه سلاحا من سيف ورمح وسهم ؛ ويعنى بظاهر علم وباطن حكم ، القرآن ، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن ؛ من قوله : « لا تفنى عزائم » أى آياته المحكمة ، و«براهينه العازمة» أى القاطعة ولا تنقضى عجائبه ؛ لأنه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفره غرائب وعجائب لم تكن عنده من قبل .
«فيه مرايع النعم» ؛ المرايع الأمطار التى تجىء فى أول الربيع فتكون سببا لظهور الكلاء ، وكذلك تدبر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها .

قوله : «قد أحمى حماه ، وأرعى مرعاه» ، الضمير فى «أحمى» يرجع إلى الله تعالى ، أى قد أحمى الله حماه ، أى عرضته لأن يحمى ، كما تقول : أقتلت الرجل ، أى عرضته لأن يقتل . وأضرته ، أى عرضته لأن يضرب ؛ أى قد عرض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكن منها ، وعرض مرعاه لأن يرعى ، أى مكن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربى مبين ، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع ، حتى نبه فى أكثره على أدلة العقل .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنْ اللَّهِ يَهْوَى مَعَ الْغَافِلِينَ ، وَيَعْدُو مَعَ الْمَذْنِبِينَ ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ ،
وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ .

الشَّيْخُ :

يصف إنسانا من أهل الضلال غير معين ؛ بل كما تقول : رحم الله أمرا اتقى ربه وخاف
ذنبه ، وبئس الرجل رجل قلّ حياؤه وعدم وفاؤه ؛ ولست تعنى رجلا بعينه .
ويهوئ : يسقط . والسبيل القاصد : الطريق المؤدية إلى المطلوب .
والإمام إما الخليفة ، وإما الأستاذ ؛ أو الدين ، أو الكتاب ؛ على كل من هؤلاء تطلق
هذه اللفظة .

الأفضل :

منها :

حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ ،
اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا ، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا ؛ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ ، وَلَا بِمَا قَضَوْا
مِنْ وَطَرِهِمْ .

وَإِنِّي أَحَذَّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزَلَةَ ، فَلَيْتَنَفَعَ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَأَتَمَّا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَدًا وَاضِحًا يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي ، وَالضَّلَالَ فِي الْمَغَاوِي ، وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ .

فَأَفَقَ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ ، وَاسْتَيْقِظَ مِنْ غَفْلَتِكَ ، وَاخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ؛ وَأَنْعَمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَلَا حِيصَ عَنْهُ . وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَعَا وَمَارَضَى لِنَفْسِهِ ، وَضَعُ فَخْرَكَ ، وَاحْطُطْ كِبْرَكَ ؛ وَادْكُرْ قَبْرَكَ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ ؛ وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ ؛ وَمَا قَدَمْتَ الْيَوْمَ تَقْدُمُ عَلَيْهِ غَدًا ؛ فَاْمَهْدُ لِقَدَمِكَ ، وَقَدِّمُ لِيَوْمِكَ . فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِيعُ ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ ؛ أَيُّهَا الْعَافِلُ ؛ ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾^(١) .

الشَّيْخُ :

فاعل « كشف » هو الله تعالى ، وقد كان سبق ذكره في الكلام ، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب ؛ فقد ورد في الخبر الصحيح أنه « لا يموت ميت حتى يرى مقره من جنة أو نار » .

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا ؛ سَمِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ استخراجا لهم من جلايب غفلتهم ، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول في لباسٍ نَزَعَ عَنْهُمْ .

قال : « استقبلوا مدبرا » ، أي استقبلوا أمرا كان في ظنهم واعتقادهم مدبرا عنهم ؛ وهو الشقاء والعذاب . « واستدبروا مقبلا » تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خَوْوُلُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَمْوَالِ وَالنَّعْمِ وَفِي قُوَّةِ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ : عَرَفُوا مَا أَنْكَرُوهُ وَأَنْكَرُوا مَا عَرَفُوهُ :

وروى : « أخطركم ونفسى هذه المزلّة » مفعلة ، من الزلّال ، وفى قوله : « ونفسى » لطافة رشيقة ؛ وذلك لأنه طيّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم فى هذا التحذير ، ليكونوا إلى الاتقياد له أقرب ، وعن الإباء والنفرة أبعد ؛ بطريق جدّد لاجب .
والمهاوى : جمع مهواة ؛ وهى الهوة يتردى فيها .

والمغاوى : جمع مغواة ، وهى الشبهة التى يغوى بها الناس ، أى يضلّون .

ثم يصف الأمور التى يُعين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه ، وهى أن يتعسف فى حقّ يقوله ، أو يأمر به ، فإن الرفق أنجح ، وأن يحرف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيراً ، وأن يتخوف من الصدق فى ذات الله ، قال سبحانه : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ^(١) ، فذمّ من لا يصدق ويجاهد فى الحقّ .

قوله : « واختصر من عجلك » ، أى لا تكن عجلك كثيرة ، بل إذا كانت لك عجلة فلتكن شيئاً يسيراً .

وتقول : أنعمت النظر فى كذا ، أى دققته ، من قولك : أنعمت سحق الحجر ، وقيل : إنه مقلوب « أمعن » .

والنبي الأمّى ، إمّا الذى لا يحسن الكتابة ، أو المنسوب إلى أمّ القرى ؛ وهى مكة .
ولا محيص عنه : لا مفرّ ولا مهرب ، حاص ؛ أى تخلص من أمر كان نشب فيه .

قوله : « فإن عليه ممرّك » أى ليس القبر بدار مقام ، وإنما هو ممرّ وطريق إلى الآخرة .

وكما تدين تدان ، أى كما تجازى غيرك تجازى بفعلك وبحسب ما عملت ؛ ومنه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ ^(١) أى مجزيون ؛ ومنه الديان فى صفة الله تعالى .

قوله : « وكما تزرع تحصد » معنى قد قاله الناس بعده كثيرا ، قال الشاعر :
إذا أنت لم تزرع وأدر كـت حاصداً ندمت على التقصير فى زمن البذر
ومن أمثالهم : « من زرع شرا حصد ندما » .

فامهد لنفسك : أى سوِّ ووطئ : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ^(٢) من القرآن العزيز ،
أى ولا يخبرك بالأمر أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها .

الأفضل :

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ ، وَلَهَا يَرْضَى
وَيَسْخَطُ ؛ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ
الدُّنْيَا لَا قِيَارَ بِهِ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ
عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِي غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ ؛ أَوْ يَعُرِّى بِأَمْرِ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ؛
أَوْ يَسْتَنْجِجَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فى دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ،
أَوْ يَمْشِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ .

اعْقِلْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ . إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بَطُونُهَا ، وَإِنَّ السَّبَاعَ
هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا ، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا .
إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

(١) سورة الصافات ٥٣ .

(٢) سورة فاطر ١٤ .

الشَّرْحُ :

عزائم الله ، هي موجباته والأمر المقطوع عليه ، الذي لا ريب فيه ولا شبهة ؛ قال عليه السلام : إن من الأمور التي نص الله تعالى عليها نصًّا لا يحتمل التأويل ؛ وهي من العزائم التي يقطع بها ، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها ، أن مَنْ مات وهو على ذنب من هذه الذنوب ^(١) المذكورة - ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله : « لم يتب » إلا أنه ذكر ذلك تأكيداً وزيادة في الإيضاح ^(٢) - فإنه لا ينفعه فعل شيء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة ؛ ولا تفيدُ العبادة ولو أجهد نفسه فيها ؛ بل يكون من أهل النار . والذنوب المذكورة هي أن يتخذ مع الله إلهاً آخر فيشركه في العبادة ، أو يقتل إنساناً بغير حق ، بل ليسفني غيظه ، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو .

عره بكذا يعرّه عراً ، أى عابه ولطّخه ، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة في الدين ؛ كما يفعل أكثر الناس في زماننا ، أو يكون ذا وجهين ؛ وهو أيضاً قوله : « أو يمشي فيهم بلسانين » ؛ وإنما أعاده تأكيداً .

لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد ، أقعده في قبة حمراء ، وأدخل الناس يسلمون على معاوية ، ثم يميلون إلى قبة يزيد ، فيسلمون عليه بولاية العهد ؛ حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إنك لو لم تولّ هذا أمور المسلمين لأضعتها ؛ وكان الأحنف جالساً ، فلما خف الناس ، قال معاوية : ما باللك لا تقول يا أبا بحر ! قال : أخاف الله إن كذبتك ، وأخافك إن صدقتك ؛ فماذا أقول ! فقال : جزاك الله عن الطاعة خيراً ، وأمر له بصلّة جزيلة . فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب ، فقال : يا أبا بحر ، إنني لأعلم أن شرَّ مَنْ خلق الله هذا الرجل ؛ ولكن هؤلاء قد استوثقوا من هذه

(٢) ١ ، ج : « زيادة الإيضاح »

(١) ساقطة من ب .

الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت . فقال : يا هذا أمسك عليك ؛ فإن ذا الوجهين خليف ألا يكون وجيهاً عند الله غدا .

ثم أمر عليه السلام بأن يعقل ماقاله ، ويعلم باطن خطابه ؛ وإنما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل ، لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين عرّوه^(١) عليه السلام بأمرهم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحضره ، واستنجحوا حاجتهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ، ولقوا الناس بوجهين ولسانين ؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به ، ثم دبّوا له الخمر^(٢) ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشرك بالله سبحانه ؛ في أنها لا تغفر إلا بالتوبة ؛ وهذا هو معنى قوله : « اعقل ذلك » ؛ فإن المثل دليل على شبهه . ورؤى « فإن المثل » واحد الأمثال ، أى هذا الحكم بعدم المغفرة لمن أتى شيئاً من هذه الأشياء عام ؛ والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه .

فإن قلت : فهذا تصريح بمذهب الإمامية في طلحة والزبير وعائشة ،

قلت : كلاً ، فإن هذه الخطبة خطب بها وهو سائر إلى البصرة ، ولم تقع الحرب إلا بعد تعدد الكبار ، ورمز فيها إلى المذكورين ، وقال : « إن لم يتوبوا » ؛ وقد ثبت أنهم تابوا ، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة .

ثم أراد عليه السلام أن يومئ إلى ذكر النساء للحال التي كان وقع إليهما من استنجاد أعدائه بامرأة ؛ فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان ، تمهيداً للقاعدة ذكر النساء ، فقال : إن البهائم همها بطونها ، كالخمر والبقر والإبل والغنم ، وإن السباع همها العدوان

(١) عرّوه : سبوه .

(٢) أخر القوم ؛ إذا تواروا بالخر ؛ ويقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر .

على غيرها ؛ كالأسود الضارية والنمور والفهود والبزاة والصقور . ثم قال : وإن النساء همهن زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

نظر حكيم إلى امرأة مصلوبة على شجرة ، فقال : ليت كل شجرة تحمل مثل هذه الثمرة .

ومرّت امرأة بسقراط وهو يتشرّق في الشمس ، فقالت : ما أقبحك أيها الشيخ ! فقال : لولا أنك من المرأى الصدئة لعمى ما بان من قبح صورتي فيكن .

ورأى حكيم امرأة تعلم الكتابة ، فقال : سهم يسقى سماً ليرمى به يوماً ما .

ورأى بعضهم جارية تحمل نارا ، فقال : نار على نار ؛ والحامل شرٌّ من المحمول .

وقيل لسقراط : أي السباع أحسن ؟ قال : المرأة .

وتزوج بعضهم امرأة نحيفة ، فقيل له في ذلك ، فقال : اخترت من الشرّ أقلّه .

ورأى بعض الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السّيل ، فقال : زادت الكدر كدّرا ،

والشرّ بالشر يهلك .

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن ، فقال : إن المؤمنين مستكينون ؛ استكان الرجل ، أي خضع وذلّ .

إن المؤمنين مشفقون ، التقوى رأس الإيمان كما ورد في الخبر .

ثم قال : « إن المؤمنين خائفون » ؛ هو الأول وإنما أكّده ، والتأكيد مطلوب في

باب الخطابة .

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَنَظَرُ قَلْبِ اللَّيِّبِ بِهِ يُبْصَرُ أَمَدُهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ . دَاعٍ دَعَا ، وَرَاعٍ رَعَى ؛
فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي .

الشَّرْحُ :

يقول : إنَّ قلب اللبيب له عين يبصر بها غايته التي يجري إليها ، ويعرف من أحواله
المستقبل ما كان مرتفعاً أو منخفضاً ساقطاً ، والنَّجْدُ : المرتفع من الأرض ، ومنه قولهم للعالم
بالأمور : « طَلَّاعٌ أَنَجِدُ » .

ثم قال : « دَاعٍ دَعَا » : موضع « دَاعٍ » رفع ، لأنَّه مبتدأ محذوف الخبر ، تقديره :
« في الوجود داع دعا ، وراع رعى » : ويعنى بالدَّاعِي رسول الله صلى الله عليه وآله ،
وبالرَّاعِي نفسه عليه السلام .

الأضل :

قَدْ خَاصُوا بِجَارِ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ الشَّنَنِ ؛ وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَنَطَقَ
الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ .

نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ ؛ وَلَا تُؤْتِي الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا ؛
فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا .

الشَّخْخُ :

هذا كلام متَّصل بكلام لم يحكه الرضى رحمه الله ؛ وهو ذكر قومٍ من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمهم ، ونعى عليهم عيوبهم .

وأرَزَ المؤمنون ، أى انقبضوا ؛ والمضارع « يَأْرِزُ » بالكسر أرزا وأروزا ، ورجل أرُوَزَ أى منقبض ، وفي الحديث : « إنَّ الإسلام ليأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحرها ^(١) » ؛ أى ينضم إليها ويجتمع .

ثم قال : « نحن الشُّعار والأصحاب » ؛ يشير إلى نفسه ، وهو أبدا يأتى بلفظ الجمع ومراده الواحد .

والشُّعار : ما يلي الجسد من الثياب ، فهو أقرب من سائر ما إليه ؛ ومراده الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وآله .

والخَزَنَةُ والأبواب ؛ يمكن أن يعنى به خَزَنَةُ العلم وأبواب العلم ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد الحكمة فليأتِ الباب » . وقوله فيه : « خازن علمى » : وقال تارة أخرى : « عَيْبَةُ عِلْمِي » . ويمكن أن يريد خزانة الجنة وأبواب الجنة ، أى لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافى بولايتنا ؛ فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض : إنه قَسِمُ النار والجنة ، وذكر أبو عبيد الهروى في " الجمع بين الغريبين " ، أن قوماً من أئمة العربية فسَّروه ، فقالوا : لأنه لما كان محبباً من أهل الجنة ، ومبغضاً من أهل النار ؛ كأنه بهذا الاعتبار قَسِمُ النار والجنة . قال أبو عبيد : وقال غير هؤلاء : بل هو قسيمها بنفسه في الحقيقة ؛ يدخل قوماً إلى الجنة ، وقوماً إلى النار ؛ وهذا الذى ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه ، يقول للنار : هذا لى فدعيه ، وهذا لك فخذيه .

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتى إلا من أبوابها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٤ .

الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتَّقَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ^(١) .

ثم قال : مَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سَمِيَ سَارِقًا ، وهذا حقٌّ ظاهرًا وباطنًا ؛ أَمَّا الظاهر فلاَنْ مَنْ يَتَسَوَّرُ الْبُيُوتَ مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا هُوَ السَّارِقُ ، وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَلَاَنْ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ أَسْتَاذٍ مُحَقِّقٍ فَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ ؛ فَهُوَ أَشْبَهَ شَيْءً بِالسَّارِقِ .

[ذَكَرَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ الْوَارِدَةَ فِي فُضَائِلِ عَلِيٍّ]

وَعَلِمَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ خَرَّ بِنَفْسِهِ ، وَبَالِغٍ فِي تَعْدِيدِ مَنَاقِبِهِ وَفُضَائِلِهِ بِفَصَاحَتِهِ ؛ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا ، وَاخْتَصَّ بِهَا ، وَسَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ فَصَحَاءُ الْعَرَبِ كَافَّةً ؛ لَمْ يَبْلُغُوا إِلَى مَعْشَارٍ مَانُطِقٍ بِهِ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ ؛ وَلَسْتُ أَعْنِي بِذَلِكَ الْأَخْبَارَ الْعَامَّةَ الشَّائِعَةَ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا الْإِمَامِيَّةُ عَلَى إِمَامَتِهِ ، كَخَبَرِ الْغَدِيرِ ، وَالْمَنْزِلَةِ ، وَقِصَّةِ بَرَاءَةَ ، وَخَبَرِ الْمَنَاجَاةِ ، وَقِصَّةِ خَيْرٍ ، وَخَبَرِ الدَّارِ بِمَكَّةَ فِي ابْتِدَاءِ الدَّعْوَةِ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ بَلِ الْأَخْبَارُ الْخَاصَّةُ الَّتِي رَوَاهَا فِيهِ أُمَّةُ الْحَدِيثِ ، الَّتِي لَمْ يَحْصُلْ أَقْلٌ الْقَلِيلِ مِنْهَا لِغَيْرِهِ ؛ وَأَنَا أَذْكَرُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا يَسِيرًا مِمَّا رَوَاهُ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ الَّذِينَ لَا يُتَّهَمُونَ فِيهِ ، وَجَلَّاهُمْ قَائِلُونَ بِتَفْضِيلِ غَيْرِهِ عَلَيْهِ ، فَرَوَايَتُهُمْ فَضَائِلَهُ تَوْجِبُ سَكُونَ النَّفْسِ مَا لَا يُوجِبُهُ رَوَايَةُ غَيْرِهِمْ .

الْخَبَرُ الْأَوَّلُ : « يَا عَلِيُّ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ زَيَّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يَزَيِّنْ الْعِبَادَ بِزِينَةٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا ، هِيَ زِينَةُ الْأَبْرَارِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، الزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا ، جَعَلَكَ لَا تَرْزَأُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا ^(٢) ، وَلَا تَرْزَأُ الدُّنْيَا مِنْكَ شَيْئًا ؛ وَوَهَبَ لَكَ حُبَّ الْمَسَاكِينِ ، فَجَعَلَكَ تَرْضَى بِهِمْ أَتْبَاعًا ؛ وَيَرْضُونَ بِكَ إِمَامًا » .

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ١٧٧ .

(٢) تَرْزَأُ : تَأْخُذُ .

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بـ "حلية الأولياء" وزاد فيه أبو عبد الله أحمد ابن حنبل في "المسند" : «فطوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب فيك !» .

الخبر الثاني : قال لوفد ثقيف : لتُسَلِّمُنَّ ، أولأبعثنَّ إليكم رجلاً مني - أو قال : عديل نفسي - فليضربنَّ أعناقكم ، وليسبين ذراريكم ، وليأخذنَّ أموالكم . قال عمر : فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، وجعلتُ أنصب له صدرى رجاء أن يقول : هو هذا . فالتفت فأخذ بيد عليّ وقال : « هو هذا ! » ، مرتين .

رواه أحمد في "المسند" ، ورواه في كتاب فضائل علي عليه السلام ، أنه قال : « لتنتهنَّ يا بني وليعة ^(١) ، أولأبعثنَّ إليكم رجلاً كنفسى ، يمضي فيكم أمري . يقتل المقاتلة ، ويسبي الذرية ^(٢) » . قال أبو ذر : فما راغنى إلا برؤد كف عمر في حُجرتي ^(٣) من خلني ، يقول : من تراه يعني ؟ فقلت : إنه لا يعينيك ، وإنما يعني خاصف النعل ، وإنه قال : « هو هذا » .

الخبر الثالث : « إن الله عهد إلى في عليّ عهداً ، فقلت : ياربَّ بينه لي ، قال : اسمع ، إن عليّاً راية الهدى ، وإمام أوليائي ، ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين ؛ من أحبّه فقد أحببني ، ومن أطاعه فقد أطاعني ؛ فبشره بذلك . فقلت : قد بشرته ياربَّ فقال : أنا عبد الله وفي قبضته ؛ فإن يعذبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وإن يتم لي ما وعدني فهو أولى ؛ وقد دعوت له فقلت : اللهمَّ أجل قلبه ، واجعل ربيعه الإيمان بك . قال : قد فعلت ذلك ، غير أنني مختصه بشيء من البلاء لم أختص به أحداً من أوليائي ، فقلت : ربَّ ، أخى وصاحبى ! قال : إنه سبق في علمي أنه لمبتلى ومبتلى . »

(١) بنو وليعة : حمى في كندة .

(٢) الحجرة : موضع الإزار .

ذكره أبو نعيم الحافظ في "حلية الأولياء" عن أبي برزة الأسلمي، ثم رواه بإسناد آخر بلفظ آخر، عن أنس بن مالك: «إن رب العالمين عهد؛ في عليّ إلى عهداً أنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع من أطاعني. إن علياً أمني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي».

الخبر الرابع: «من أراد أن ينظر إلى نوح في عزّ مه، وإلى آدم في علمه، وإلى إبراهيم في حلمه، وإلى موسى في فطنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب»، رواه أحمد بن حنبل في "المسند"، ورواه أحمد البيهقي في صحيحه.

الخبر الخامس: «من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي؛ ويتمسك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت؛ فليتمسك بولاء عليّ بن أبي طالب». ذكره أبو نعيم الحافظ في كتاب "حلية الأولياء"، ورواه أبو عبد الله بن حنبل في "المسند"، وفي كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: «من أحب أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنة عدن بيمينه، فليتمسك بحب عليّ بن أبي طالب».

الخبر السادس: «والذي نفسى بيده، لولا أن تقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالا: لا تمرّ بملا من المسلمين إلا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة».

ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في "المسند".

الخبر السابع: خرج صلى الله عليه وآله على الحجاج عشيّة عرفة، فقال لهم: إن الله قد

بأهَى بكم الملائكة عامّة ، وغفر لكم عامّة ، وبأهَى بعلىّ خاصة ، وغفر له خاصة . إني قائل لكم قولاً غير محابٍ فيه لقرايتي ؛ إن السعيد كلّ السعيد حقّ السعيد مَنْ أَحَبَّ عليّاً في حياته وبعد موته .

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل على عليه السلام ، وفي "المسند" ، أيضاً .

الخبر الثامن : رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين : « أنا أول مَنْ يُدعى به يوم القيامة ؛ فأقوم عن يمين العرش في ظلّه ، ثم أكسى حلّة ، ثم يدعى بالنبّيين بعضهم على أثر بعض ؛ فيقومون عن يمين العرش ويكسّون حُللاً ، ثم يدعى بعلىّ ابن أبي طالب لقرايته منّي ومنزلته عندي ، ويدفع إليه لوائى الحمد ، آدم ومنّ دونه تحت ذلك اللواء . » ثم قال لعلىّ : « فتسير به حتى تقف بينى وبين إبراهيم الخليل ، ثم تكسى حلّة ، وينادى منادٍ من العرش : نعم العبدُ أبوك إبراهيم ! ونعم الأخ أخوك علىّ ! أبشر فإنك تُدعى إذا دعيت ، وتُكسى إذا كسيت ، وتحيا إذا حييت . »

الخبر التاسع : « يا أنس ، اسكب لى وضوءاً » ، ثم قام فصلّى ركعتين ، ثم قال : « أول من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتّقين ، وسيّد المسلمين ، ويعسوب الدين ، وخاتم الوصيّين وقائد الفرّ المحجّلين . » قال أنس : فقلت : اللهم اجعله رجلاً من الأنصار ، وكتببت دعوتى ، فجاء علىّ ، فقال : صلى الله عليه وسلّم : « مَنْ جاء يا أنس ؟ » فقلت : علىّ ؛ فقام إليه مستبشراً ، فاعتنقه ، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه . فقال علىّ يارسول الله ، صلى الله عليك وآلّك ؛ لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعتته بي قبل ! قال : « وما يمنعنى وأنت تؤدّى عنى ، وتسمعهم صوتى ، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى ! » . رواه أبو نعيم الحافظ في " حلية الأولياء " .

الخبر العاشر: « ادعوا الى سيّد العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألسنت سيّد العرب ؟
فقال : « أنا سيّد ولد آدم ، وعلى سيّد العرب » ؛ فلما جاء أرسل إلى الأنصار ، فأتوه ، فقال لهم :
« يا معشر الأنصار ، ألا أدلكم على ما إن تمسّكنم به لن تضلّوا أبداً » قالوا : بلى يا رسول الله ،
قال : « هذا علىّ » ؛ فأحبهوه بحبي ، وأكرّموه بكرامتي ؛ فإنّ جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم
عن الله عزّ وجلّ .

رواه الحافظ أبو نعيم في " حلية الأولياء " .

الخبر الحادي عشر: « مرّ حبّاً بسيّد المؤمنين ؛ وإمام المتقين » ؛ فقبل لعلّ عليه السلام :
كيف شكرُك ؟ فقال : أحمد الله على ما آتاني ، وأسأله الشُّكر على ما أولاني ، وأنّ
يزيدني ممّا أعطاني .

ذكره صاحب " الحلية " ، أيضاً .

الخبر الثاني عشر: « مَنْ سرّه أن يحيا حياتي ، ويموت مماتي ، ، ويسكن جنّة عدن
التي غرسها ربّي ، فليوال عليّاً من بعديّ ، وليوال وليّه ، وليقتد بالأئمة من بعديّ ، فإنهم
عترتي ، خلقوا من طينتي ، ورزقوا فهماً وعلماً . فويل للمكذّبين من أمّتي ! القاطعين فيهم
صلّتي ، لا أنا لهم الله شفّاعتي » .

ذكره صاحب " الحلية " ، أيضاً .

الخبر الثالث عشر : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد في سرّيّة ،
وبعث عليّاً عليه السلام في سرّيّة أخرى ، وكلاهما إلى اليمن ، وقال : « إن اجتمعتما فعلىّ علىّ
الناس ، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما علىّ جنّده » . فاجتمعا وأغارا وسبيّا نساء ، وأخذوا
أموالاً ، وقتلوا ناساً ، وأخذ علىّ جارية فاختصّها لنفسه ، فقال خالد لأربعة من المسلمين ؛
منهم بُريدة الأسلميّ : اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذكروا له كذا ، واذكروا

له كذا ، لأمر عددها على عليّ ، فسبقوا إليه فجاء واحد من جانبه ، فقال : إنَّ عليًّا فَعَلَ كذا ، فأعرض عنه ، فجاء الآخر من الجانب الآخر ، فقال : إنَّ عليًّا فعل كذا ، فأعرض عنه فجاء بريدة الأسلمي فقال : يا رسول الله ، إنَّ عليًّا فعل ذلك ، فأخذ جاريةً لنفسه ، فغضب صلى الله عليه وآله ، حتى احمرَّ وجهه ، وقال : « دعوا لي عليًّا ! » ، يكررها ، « إنَّ عليًّا مِنِّي وأنا مِن عليّ » ، وإنَّ حظه في الخمس أكثر مما أخذ ؛ وهو وليّ كلِّ مؤمن من بعدى .

رواه أبو عبد الله أحمد في "المسند" غير مرة ، ورواه في كتاب فضائل عليّ ، ورواه أكثر المحدثين .

الخبر الرابع عشر : « كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام ، فلما خَلَقَ آدم قَسَمَ ذلك فيه وجعله جزأين ، فجزء أنا وجزء عليّ » .
رواه أحمد في "المسند" وفي كتاب فضائل علي عليه السلام ، وذكره صاحب كتاب الفردوس وزاد فيه : « ثمَّ انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب ، فكان لي النبوة ولعليّ الوصية » .

الخبر الخامس عشر : « النَّظَرُ إِلَى وَجْهِكَ يَا عَلِيُّ عِبَادَةُ ، أَنْتَ سَيِّدُ الدُّنْيَا وَسَيِّدُ الْآخِرَةِ مَنْ أَحَبَّكَ أَحَبَّنِي وَحِبِّي حَبِيبُ اللَّهِ ، وَعَدُوُّكَ عَدُوٌّ وَعَدُوٌّ عَدُوُّ اللَّهِ ، الْوَيْلُ لِمَنْ أَبْغَضَكَ ! » .
رواه أحمد في "المسند" ، قال : وكان ابنُ عَبَّاسٍ يفسره ، ويقول : إنَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَعْلَمُ هَذَا الْفَتَى ! سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَشْجَعُ هَذَا الْفَتَى ! سُبْحَانَ اللَّهِ ، مَا أَفْصَحَ هَذَا الْفَتَى !

الحديث السادس عشر: لما كانت ليلة بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ يَسْتَقِي لَنَا مَاءً؟»، فَأَحْجَمَ النَّاسُ، فَقَامَ عَلِيٌّ فَاحْتَضَنَ قَرْبَةً، ثُمَّ أَتَى بِئْرًا بَعِيدَةً الْقَعْرِ مُظْلَمَةً، فَانْحَدَرَ فِيهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ: أَنْ تَأْهَبُوا لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ وَأَخِيهِ وَحِزْبِهِ، فَهَبَطُوا مِنَ السَّمَاءِ، لَمْ يَلْعَطْ يَذْعَرُ مَنْ يَسْمَعُهُ، فَلَمَّا حَازُوا الْبئْرَ، سَلَّمُوا عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ إِكْرَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا.

رواه أحمد في كتاب فضائل علي عليه السلام، وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس بن مالك: «لَتَوْتَيْنِ يَا عَلِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاقَةٍ مِنْ نَوَقِ الْجَنَّةِ فَتَرْكَبُهَا، وَرَكْبَتُكَ مَعَ رَكْبَتِي، وَفَخْذُكَ مَعَ فَخْذِي؛ حَتَّى تَدْخُلَ الْجَنَّةَ»

الحديث السابع عشر: خَطَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ النَّاسَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ قَدِّمُوا قَرِيشًا وَلَا تَقْدُمُوهَا، وَتَعَلَّمُوا مِنْهَا وَلَا تَعْلَمُوهَا، قُوَّةَ رَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ تَعْدِلُ قُوَّةَ رَجُلَيْنِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَمَانَةَ رَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ تَعْدِلُ أَمَانَةَ رَجُلَيْنِ مِنْ غَيْرِهِمْ. أَيُّهَا النَّاسُ أَوْصِيكُمْ بِحُبِّ ذِي قَرْبَاهَا؛ أَخِي وَابْنِ عَمِّي عَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَبْغُضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ؛ مَنْ أَحَبَّهُ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَنِي عَذَّبَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الحديث الثامن عشر: الصَّدِيقُونَ ثَلَاثَةٌ: «حَبِيبُ النَّجَارِ، الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الحديث التاسع عشر: أُعْطِيَتْ فِي عَلِيٍّ خَمْسًا، هُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ أَمَّا وَاحِدَةٌ فَهُوَ كَابٌ^(١) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ

فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولد تحته ، وأما الثالثة فواقف على عَقْر^(١) حوضي ؛ يسقي مَنْ عرف من أمّتي ، وأما الرابعة فسائر عورتى ومسلمى إلى رَبِّي ، وأما الخامسة فإني لست أخشى عليه أن يعود كافرا بعد إيمان ، ولا زانيا بعد إحصان .
رواه أحمد في كتاب الفضائل .

الحديث العشرون : كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله ، فقال عليه الصلاة والسلام يوما : « سدّوا كلّ باب في المسجد إلا باب عليّ » ، فسدّت ، فقال في ذلك قوم ، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم ، فقال : « إنّ قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركى باب عليّ ، إنّى ماسدّت ولا فتحت ، ولكنى أمرت بأمرٍ فاتبعته » .

رواه أحمد في "المسند" مرارا ، وفي كتاب الفضائل .

الحديث الحادى والعشرون : دعا صلى الله عليه وآله عليّاً في غزاة الطائف ، فانتجاه ، وأطال نجواه حتى كره قوم من الصحابة ، ذلك ، فقال قائل منهم : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه ، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوما ، ثم قال : « إنّ قائلاً قال : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمّه . أما إنّى ما انتجيتّه ؛ ولكن الله انتجاه » .
رواه أحمد رحمه الله في "المسند" .

الحديث الثانى والعشرون : «أخْصِمَكَ^(٢) يا عليّ بالنبوة فلا نبوة بعدى ، وتخصّم الناس بسمع ، لا يجاحد فيها أحد من قريش ؛ أنت أوّلهم إيماناً بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدّهم فى الرعية . وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزية » .

(١) العقر : مؤخر الخوض حيث تقف الإبل .

(٢) أخصمك : أغلبك .

رواه أبو نعيم الحافظ في "حلية الأولياء" .

الخبر الثالث والعشرون ، قالت فاطمة : إِنَّكَ زَوْجَتِي فَقِيرًا لَا مَالَ لِي ، فقال :
« زَوْجَتِكَ أَقْدَمُهُمْ سِلْمًا ، وَأَعْظَمُهُمْ حِلْمًا ، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا ! أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى الْأَرْضِ
اطَّلَاعَةً ، فَاخْتَارَ مِنْهَا أَبَاكَ ، ثُمَّ أَطَّلَعَ إِلَيْهَا ثَانِيَةً فَاخْتَارَ مِنْهَا بَعْلَكَ » .
رواه أحمد في المسند .

الحديث الرابع والعشرون ، لما أنزل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ بعد انصرافه عليه
السلام من غزاة حُنَيْنٍ ، جعل يكثر من « سبحان الله ! أستغفر الله » ، ثم قال : « يا عليّ ! إِنَّهُ
قَدْ جَاءَ مَا وَعَدْتُ بِهِ ، جَاءَ الْفَتْحُ ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ
مَنْكَ بِمَقَامِي ، لِقَدَمِكَ فِي الْإِسْلَامِ ، وقربك مني ، وصهرك ؛ وعندك سيّدة نساء العالمين ؛
وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن ، فأنا حريصٌ عَلَى أَنْ
أُرَاعِيَ ذَلِكَ لَوْلَدِهِ » .

رواه أبو إسحاق الثعلبي في « تفسير القرآن » .

واعلم أنا إنما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا ، لأنّ كثيرا من المنحرفين عنه عليه السلام إذا
مرّوا عَلَى كَلَامِهِ فِي « نهج البلاغة » وغيره المتضمن التحدّث بنعمة الله عليه من اختصاص
الرسول له صلى الله عليه وآله ، وتمييزه إياه عن غيره ، ينسبونهُ إِلَى التّيه والزّهو والفخر ؛
ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة ، قيل لعمر : وَلَّ عَلِيًّا أَمْرَ الْجَيْشِ وَالْحَرْبِ ، فقال :
هُوَ أَتْيَهُ مِنْ ذَلِكَ ! وقال زيد بن ثابت : مَا رَأَيْنَا أَرْهَى مِنْ عَلِيٍّ وَأَسَامَةَ !

فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله : « نحن الشعار والأصحاب ، ونحن
الخزنة والأبواب » أن ننبّه عَلَى عِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَنَّ مِنْ قِيلِ

في حقه ما قيل لو رقى إلى السماء ، وعَرَجَ في الهواء ، وفخر على الملائكة والأنبياء ، تعظما وتبجحا ؛ لم يكن ملوماً ، بل كان بذلك جديراً ؛ فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قط مسلك التعظم والتكبر في شيء من أقواله ولا من أفعاله ؛ وكان أطف البشـر خلقا ، وأكرمهم طبعاً ، وأشدّهم تواضعاً ، وأكثرهم احتمالاً ، وأحسنهم بشراً ، وأطلقهم وجهاً ؛ حتى نسبته من نسبه إلى الدُّعابة والمزاح ، وهما خُلُقَانِ ينافيان التكبر والاستطالة ؛ وإنما كان يذكر أحياناً ما يذكره من هذا النوع ، نفثةً مصدور ، وشكوى مكروب ، وتنفس مهموم ؛ ولا يقصد به إذا ذكره إلا شكر النعمة ، وتنبيه الغافل على ما خصّه الله به من الفضيلة ، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف ، والحض على اعتقاد الحق والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل ؛ فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ۚ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ ﴾ .

الأفضل :

منها :

فيهم كرائم القرآن ، وهم كنوز الرحمن ؛ إن نطقوا صدقوا ، وإن صمتوا لم يسبقوا . فليصدق رائد أهله ، وليحضر عقله ، وليكن من أبناء الآخرة ، فإنه منها قديم ، وإليها ينقلب ؛ فالناظر بالقلب ، العامل بالبصر ؛ يكون مبتدأ عمله أن يعلم أعماله عليه أم له ! فإن كان له مضي فيه ، وإن كان عليه وقف عنه ، فإن العامل بغير علم ؛ كالسائر على غير طريق ؛ فلا يزيدُه بُعدُه عن الطريق الواضح .

إِلَّا بَعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ ؛ وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ ؛ فَلْيَنْظُرْ نَاضِرٌ
أَسَائِرُهُ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ !

الشَّرْحُ :

قوله : « فيهم » يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله : « نحن الشعار
والأصحاب » ، وهو يطلق دائماً هذه الصيغ الجمعية ، ويعنى نفسه ؛ وفي القرآن كثير من ذلك ،
نحو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(١) .

وكرائم الإيمان : جمع كريمة وهي المنفسات منه قال الشاعر :

ماضٍ مِنَ الْعَيْشِ لَوْ يَفْدَى بِذَلَّتْ لَهُ كِرَائِمُ الْمَالِ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ نَعَمٍ
فَإِنْ قُلْتُ : أَيْكُونُ فِي الْإِيمَانِ كِرَائِمٌ وَغَيْرُ كِرَائِمٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ لِأَنَّ الْإِيمَانَ عِنْدَ
أَكْثَرِ أَصْحَابِنَا اسْمٌ لِلطَّاعَاتِ كُلِّهَا وَاجِبُهَا وَنَفْلُهَا ، فَمَنْ كَانَتْ نَوَافِلُهُ أَكْثَرَ كَانَتْ كِرَائِمُ الْإِيمَانِ
عِنْدَهُ أَكْثَرَ ، وَمَنْ قَامَ بِالْوَاجِبَاتِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ نَوَافِلٍ ، كَانَ عِنْدَهُ الْإِيمَانُ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ
كِرَائِمُ الْإِيمَانِ .

فإن قلت : فعلى هذا تكون النوافل أكرم من الواجبات ؟

قلت : هي أكرم منها باعتبار ، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر ؛ أمّا الأوّل فلأنّ
صاحبها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً في الجنة ممن اقتصر على الواجبات فقط ؛
وأمّا الثاني فلأنّ الخلّ بها لا يعاقب ، والخلّ بالواجبات يعاقب .

قوله : « وهم كنوز الرحمن » لأن الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملة تلمّ بالإنسان ،
وكذلك هؤلاء قد ذكروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين .

ثم قال : إن نطقوا صدقوا، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عي يوجب كونهم مسبوقين ؛ لكنهم ينطقون حُكماً ، ويصمتون حلماً .

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح ، وقال : « ليصدق رائدُ أهله » ، الرائد : الزاهب من الحى يرتاد لهم المرعى ؛ وفى أمثالهم : « الرائد لا يكذب أهله » ، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدق نفسه ولا يكذبها بالتسويق والتعليل ، قال الشاعر :

أخى إذا خاصمت نفسك فاحتشد لها وإذا حدثت نفسك فاصدق

وفى المثل : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

فإنه منها قدم ؛ قد قيل : إن الله تعالى خلق أرواح البشر قبل أجسادهم ، والخبر فى ذلك مشهور والآية أيضا ؛ وهى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ^(١) . ويمكن أن يفسر على وجه آخر ؛ وذلك أن الآخرة اليوم عدم محض ، والإنسان قدم من العدم ، وإلى العدم ينقلب ؛ فقد صح أنه قدم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة .

وروى : « أن العالم بالبصر » أى بالبصيرة ، فيكون هو وقوله : « فالناظر بالقلب » ، سواء ؛ وإنما قاله تأكيذاً ، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل ، فأما الرواية المشهورة فالوجه فى تفسيرها أن يكون قوله : « فالناظر » مبتدأ و « العامل » صفة له ؛ وقوله : « بالبصر » يكون مبتدأ عمله « جملة مركبة من مبتدأ وخبر ، موضعها رفع ، لأنها خبر المبتدأ الذى هو « فالناظر » ؛ وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها « كان » ، فالجار والجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع ، لأنها خبر « كان » ، ويكون قوله فيما بعد : « أن يعلم » منصوب

(١) سورة الأعراف ١٧٢

الموضع ؛ لأنه بدل من « البصر » الذى هو خبر « يكون » . والمراد بالبصر هاهنا البصيرة ،
 فيصير تقدير الكلام : فالناظر بقلبه ، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة ،
 وإن يعلم أعمله له أم عليه !

ويروى : « كالسابل على غير طريق » ، والسابل : طالب السبيل ؛ وقد جاء فى الخبر
 المرفوع : « مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ هَدًى ، لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا » ، وفى كلام الحكماء : « العامل بغير
 علم كالراعى من غير وتر » .

الأضل :

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ ؛ فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ ، طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبِثَ
 ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ » .

الشَّيْخُ :

هذا الكلام مشتق من قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي
 خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ ؛ وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير
 من البشر ، ولمن لا يؤثر ذلك فيه مثله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبات ، والأرض
 السبخة الخبيثة لا تنبت ؛ وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومئ . يقول : إنَّ
 لِكُلِّنا حالتي الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله ؛ والحالتان الظاهرتان : ميله
 إلى العقل وميله إلى الهوى ؛ فالمتبع لمتقضى عقله يرزق السعادة والفوز ؛ فهذا هو الذى طاب

ظاهره ، وطاب باطنه ، والمتبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشقاوة والعطب ؛ وهذا هو الذى خُبث ظاهره وخُبث باطنه .

فإن قلت : فلم قال : «فما طاب» ؟ وهلا قال : «فمن طاب» ! وكذلك فى «خُبث» . قلت : كلامه فى الأخلاق والعقائد وما تنطوى عليه الضمائر ؛ يقول : ما طاب من هذه الأخلاق والملكات ، وهى خلق النفس الربانية المريدة للحق ؛ من حيث هو حق ؛ سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن ؛ وسواء كان ذلك مستقبحا مستهجنا عند العامة أو لم يكن ؛ وسواء نال به من الدنيا حظا أو لم ينل . يستطيب باطنه يعنى ثمرته ؛ وهى السعادة ؛ وهذا المعنى من مواضع « ما » لا من مواضع « من » .

فأما الخبر المروى^(١) ، فإنه مذكور فى كتب المحدثين ؛ وقد فسره أصحابنا المتكلمون ، فقالوا : إن الله تعالى قد يحبّ المؤمن ومحبة له إرادته إثابته ، ويبغض عملا من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر ؛ فإنها مكروهة عند الله ؛ وليست قاذحة فى إيمان المؤمن ، لأنها تقع مكفرة ؛ وكذلك قد يبغض العبد بأن يريد عقابه ؛ نحو أن يكون فاسقا لم يتب ، ويحبّ عملا من أعماله ؛ نحو أن يطيع ببعض الطاعات ، وحبّه لتلك الطاعة ؛ هى إرادته تعالى أن يسقط عنه بها بعض ما يستحقّه من العقاب المتقدّم .

الأصل :

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لَا غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ . وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمَا طَابَ سَقْيُهُ ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خُبِثَ سَقْيُهُ ، خُبِثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

(١) ساقطة من ب .

الشَّنْخُ :

السَّقَى : مصدر سَقَيْتَ ، والسَّقَى ، بالكسر : النصيب من الماء .
وأمرَّ الشيء ، أى صار مرّاً .

وهذا الكلام مثل فى الإخلاص وضده وهو ، الرياء وحبّ السمعة ، فكلّ
عمل يكون مدده الإخلاص لوجهه تعالى لا غير ؛ فإنه زاكٍ حلو الجنى ، وكلّ عمل
يكون الرياء وحبّ الشهرة مدده ؛ فليس بزاكٍ ، وتكون ثمرته مرّة المذاق .

الأصل :

ومنه خطبة له عليه السلام يذكر فيها بربيع خلقة الخفاصه :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكَوَتِهِ .

هُوَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، أَحَقُّ وَأَبْنَى مِمَّا تَرَى الْعُيُونُ . لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدِ فَيْكُونَ مُشَبَّهًا ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرِ فَيْكُونَ مُمَثَّلًا . خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ ؛ فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ ، وَأُذِنَ لِرِطَاعَتِهِ ؛ فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ .

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنَعَتِهِ ، وَعَجَائِبِ حِكْمَتِهِ ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ . وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا ، وَتَتَّصِلُ بِعِلَاقَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا ، وَرَدَّعَهَا بِتَلَاوُضِيَّاتِهَا عَنْ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا ، وَأَكْنَهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلُجِ انْتِلَاقِهَا . فَهِيَ مُسْدَلَةٌ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حَدَاقِهَا ، وَجَاعِلَةٌ اللَّيْلِ سِرَاجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أَرْزَاقِهَا ، فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِفَسْقِ دُجْنَتِهِ ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا ، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا ، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ فِي وَجَارِهَا ؛ أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانُ عَلَى مَا قِيَهَا ، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيَالِيهَا .

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا؛ وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا !
وَجَعَلَ لَهَا أَجْنَحَةً مِنْ لَحْمٍهَا تَعْرِجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا الْأَذَانِ،
غَيْرَ ذَوَاتِ رِيَشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ
لَمَّا يَرَقَا فَيَنْشَقُّا^(١)، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَنْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لَا صِقْ بِهَا، لَا جِيءَ إِلَيْهَا، يَقَعُ
إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ
جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِي لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ !

البُزْخُ :

الخَفَّاشُ، واحد جمعه خَفَافِيشُ، وهو هذا الطائر الذي يطير ليلاً ولا يطير نهاراً، وهو
مأخوذ من الخَفَشِ؛ وهو ضعف في البصر خِلْقَةً، والرجل أخَفَشَ، وقد يكون علةً، وهو الذي
يبصر بالليل لا بالنهار، أوفى يوم غيم لافى يوم صَحْوٍ.

وانحسرت الأوصاف : كَلَّتْ وَأَعْيَتْ . وردعت : كَفَّتْ . والمساغ : المسلك .

قال : « أَحَقُّ وَأَيِّنُّ مِمَّا تَرَى الْعَيُونَ »؛ وذلك لِأَنَّ الْعُلُومَ الْعَقْلِيَّةَ إِذَا كَانَتْ ضَرْوَرِيَّةً
أَوْ قَرِيبَةً مِنَ الضَّرْوَرِيَّةِ، كَانَتْ أَوْثَقَ مِنَ الْحَسُوسَاتِ، لِأَنَّ الْحَسَّ يَغْلُظُ دَائِمًا، فَيَرَى الْكَبِيرَ
صَغِيرًا كَالْبَعِيدِ، وَالصَّغِيرَ كَبِيرًا، كَالْعَبَةِ فِي الْمَاءِ تُرَى كَالْإِجَاصَةِ، وَيُرَى السَّاكِنَ مُتَحَرِّكًا؛
كَحَرَفِ الشَّطِّ إِذَا رَأَاهُ رَاكِبُ السَّفِينَةِ مُتَصَاعِدًا، وَيُرَى الْمُتَحَرِّكَ سَاكِنًا كَالظِّلِّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِنَ الْأَغَالِيطِ وَالْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةِ الْمُوثُوقِ بِهَا؛ لِأَنَّهَا بِدِيهِيَّةٍ أَوْ تَكَادٍ، فَالْغُلُظُ غَيْرُ دَاخِلٍ عَلَيْهَا.
قوله : « يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ »، أَيْ يَقْبِضُ أَعْيُنَهَا.

قوله : « وَتَتَّصِلُ بِعِلَاقِيَّةِ بَرَهَانِ الشَّمْسِ » كلامٌ جَيِّدٌ فِي مَذَاهِبِ الِاسْتِعَارَةِ .

(١) د : « وَلَمَّا » .

وسُبُحاتٍ إشراقها : جلاله وبهاؤه ، وأكنّها : سترها ، وبُلَج اثتلافها : جمع بُلجة ؛ وهى أول الصبح ؛ وجاء بُلجة أيضا بالفتح .

والحدّاق : جمع حدّقة العين . والأسداف : مصدر أسدف الليل ، أظلم ، وغسق الدجّة : ظلام الليل . فإذا أَلقت الشمس قناعها ، أى سفرت عن وجهها وأشرقت .

والأوضح : جمع وضح ، وقد يراد به حلى يُعمل من الدراهم الصّحاح ، وقد يراد به الدراهم الصّحاح نفسها وإن لم يكن حليا . والضّباب ، جمع ضَبّ . ووجارها : بيتها . وشظايا الآذان : أقطاع منها . والقصب هاهنا : الغُصروف .

وخلاصة الخطبة ، التعجب من أعين الخفافيش التى تبصر ليلا ولا تبصر نهارا ، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك ، فقد صار الليل لها معاشا ، والنهار لها سكنا ؛ بعكس الحال فيما عداها . ثم من أجنحتها التى تطير بها وهى لحم لا ريش عليه ولا غُصروف ؛ وليست رقيقة فتتساقط ، ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران . ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لا يصق بها ، فإذا وقعت وقع ملتصقا بها هكذا ، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها :

[فصل فى ذكر بعض غرائب الطيور وما فيها من عجائب]

واعلم أنّه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية فى عدم إبصارها نهارا ؛ وهو انفعال حاسة بصرها عن الضوء الشديد ؛ وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس ؛ وهو المرض المسمّى « روزكور » أى أعمى النهار ، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل فى الروح النورى ، فإذا لقي حرّ النهار أصابه قمر ، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول ، فيعود الإبصار .

وأما طيراتها من غير ريش ؛ فإنه ليس بذلك الطيران الشديد ؛ وإنما هو نهوض وخفة ، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة ، والتصاق الولد بها ؛ لأنها تضمه إليها بالطبع ؛ وينضم إليها كذلك ؛ وتستعين على ضمّه برجليها ، وبقصر المسافة . وجملة الأمر أنه تعجب من عجيب . وفي الأحاديث العامة : قيل للخفاش : لماذا الاجتياح لك ؟ قال : لأني تصوير مخلوق ؛ قيل : فلماذا لا تخرج نهارا ؟ قال : حياء من الطيور ؛ يعنون أن المسيح عليه السلام صورّه ؛ وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ (١) .

وفي الطير عجائب وغرائب لا تهتدى العقول إليها ؛ ويقال : إن ضربين من الحيوان أصمان لا يسمعان ، وهما النعام والأفاعي .

وتقول العرب : إن الظليم يسمع بعينه وأنفه ؛ لا يحتاج معهما إلى حاسة أخرى . والكراكي يجمعها أمير لها كيحسوب النحل ، ولا يجمعها إلا أزواجا . والعصافير آفة للناس آتية بهم ، لا تسكن داراً حتى يسكنها إنسان ؛ ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج الإنسان منها ؛ فبفراقه تفارق ؛ وبسكنها تسكن . ويذكر أهل البصرة أنه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق في البصرة عصفور إلا خرج إليها ، إلا ما أقام على بيضه وفراخه ؛ وقد يدرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع .

وقال شيخنا أبو عثمان : بلغني أنه درّب فيرجع من ميل . وليس في الأرض رأس أشبه برأس الحية من رأس العصفور ، وليس في الحيوان الذي يعايش الناس أقصر عمرا منه ، قيل لأجل السّقاء الذي يستكثر منه . ويتميّز الذكر من الأنثى في العصافير تميّز الديك

من الدجاجة ؛ لأنَّ له لَحْيَةً ؛ ولا شَيْءَ أَحْنَى عَلَى ولده منه ، وإذا عَرَضَ له شَيْءٌ صَاحَ ، فأَقْبَلَتْ إليه العَصَافِيرُ يساعِدُهُ ؛ وليس [لَشَيْءٍ ^(١)] في مِثْلِ جِسمِ العَصَفُورِ [من ^(١)] شِدَّةِ وطئه [إذا مَشَى أَوْ عَلَى السَّطْحِ مَالِ العَصَفُورِ . فَإِنَّكَ] ^(١) إذا كُنْتَ تَحْتَ السَّطْحِ وَوَقَعَ ؛ حَسِبْتَ وَقَعْتَهُ وَقَعَةً حَجَرَ ، وَذَكَورَ ^(٢) العَصَافِيرِ لَا تَعِيشُ إِلَّا سَنَةً ؛ وَكَثِيرًا مَا تَجْلِبُ الْحَيَاتُ إِلَى الْمَنَازِلِ ، لِأَنَّ الْحَيَاتَ تَتَّبِعُهَا حِرْصًا عَلَى ابْتِلَاعِ بَيْضِهَا وَفِرَاحِهَا .

ويقال : إن الدجاجة إذا باضت يبيضتين في يوم واحد ، وتكرّر ذلك ماتت ، وإذا هَرِمَت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضه صفرة ؛ وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرّوج لأنّ غذاؤه المحّ مادام في البيضة ، وقد يكون للبيضة مُحّان فتنفقص ^(٣) عن فرّوجين يَخْلُقَانِ مِنَ الْبَيَاضِ ، وَيَغْتَذِيَانِ بِالْحَيْنِ ، لِأَنَّ الْفَرَارِيحَ تُخْلَقُ مِنَ الْبَيَاضِ وَتَغْتَذِي بِالصَّفْرَةِ . وَكُلَّ دِيكٍ فَإِنَّهُ يَلْتَقِطُ الْحَبَّةَ فَيَحْذِفُ بِهَا إِلَى الدَّجَاجَةِ سَمَاحًا وَإِثَارًا ؛ وَلِهَذَا قَالُوا : « أَسْمَحُ مِنْ لَاقِطَةٍ » ، يَعْنُونَ الدِّيَكَةَ ، إِلَّا دِيكَةً مَرَّ وَبَخْرَ اسَانِ ، فَإِنَّهَا تَطْرُدُ دَجَاجَهَا عَنِ الْحَبِّ وَتَنْزِعُهُ مِنْ أَفْوَاهِهَا فَتَبْتَلِعُهُ .

والحمّامة بلهاء ، وفي أمثالهم : « أَحْمَقُ مِنْ حَمَامَةٍ » ، وَهِيَ مَعَ مُحَقِّمِهَا مَهْتَدِيَةٌ إِلَى مَصَالِحِ نَفْسِهَا وَفِرَاحِهَا .

قال ابنُ الأَعرَابِيِّ : قُلْتُ لِشَيْخٍ مِنَ الْعَرَبِ : مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا ؟ قَالَ : عَلَّمَنِي الَّذِي عَلَّمَ الْحَمَامَةَ عَلَى بَلَهَائِهَا تَقْلِيْبَ بَيْضِهَا ، كَيْ تَعْطِيَ الْوُجْهَيْنِ جَمِيعًا نَصِيدَهُمَا مِنَ الْحَضَنِ .

والهداية في الحمام لا تكونُ إِلَّا فِي الْخُضْرِ وَالشَّمْرِ ، فَأَمَّا الْأَسْوَدُ الشَّدِيدُ السَّوَادِ فَهُوَ كَالزَّنَجِيِّ الْقَلِيلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَالْأَبْيَضُ ضَعِيفُ الْقُوَّةِ . وَإِذَا خَرَجَ الْجَوْزَلُ ^(٤) عَنْ بَيْضَتِهِ عِلْمُ أَبْوَاهِ أَنْ حَلَقَهُ لَا يَتَسَمَّعُ لِلْغَدَاءِ ، فَلَا يَكُونُ لَهَا هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَنْفَخَا فِي حَلَقِهِ الرِّيحَ لِتَتَسَمَّعَ حَوْصَلَتُهُ بَعْدَ التَّحَامِهَا ، ثُمَّ يَعْلَمَانِ أَنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ فِي أَوَّلِ اغْتِذَائِهِ أَنْ يُزَقَّ بِالطَّعْمِ ؛ فَيَزِقَّانَهُ بِاللَّعَابِ الْمُخْتَلِطِ

(٢) د : « ذُكُورَةٌ » .

(٤) الجوزل : فرخ الحمام .

(١) تكملة من كتاب الحيوان ٥ : ٢١٧ .

(٣) انفقست البيضة عن الفرخ : انفطقت عنه

بقواها وقوى الطَّعم . ثم يعلمان أنَّ حوصلته تحتاج إلى دِباغ ، فيأكلان من شُورج^(١) أصول الحيطان ، وهو شيء من الملح الخالص والتراب فيزقانه به . فإذا علما أنه قد اندفع زقاؤه بالحب الذي قد غَبَّ في حواصلهما ، ثم بالذي هو أطرى فأطرى ، حتى يتعود ؛ فإذا علما أنه قد أطاق اللقطة منعاه بعض المنع ، ليحتاج ويتشوّف ، فتطلبه نفسه ، ويحرص عليه ؛ فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما ، نزع الله تلك الرحمة منهما ، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر .

ويقال : إنَّ حَيَّةً أكلت بيض مُكَّاء فجعل المُكَّاء يشرشر على رأسها ، ويدنو منها حتى دَلَعَتْ^(٢) الحَيَّة لسانها ، وفتحت فاهها تريده وتهمم به ، فألقى فيها حَسَكَةً^(٣) فأخذت بحلقها حتى ماتت !

ومن دعاء الصالحين : يارزاق النَّعَاب^(٤) في عشه ! وذلك أنَّ الغراب إذا فقص عن فراخه ، فقص عنها بيض الألوان ، فينفر عنها ولا يُزِقُّها ؛ فتفتح أفواهها ، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها ، فيكون غذاءها إلى أن تسود ، فينقطع الذباب عنها ، ويعود الغراب إليها فيأنس بها ويغذيها .

والحُبَّارَى تدبّق^(٥) جناح الصقر بذرقها ، ثم يجتمع عليه الحُبَّارَى ، فينتفن ريشه طاقةً طاقةً ؛ حتى يموت ؛ ولذلك يحاول الحُبَّارَى العلو عليه ، ويحاول هو العلو عليها ، ولا يتجاسر أن يدنو منها متسقلاً عنها . ويقال : إن الحُبَّارَى تموت كمداً إذا انحسر عنها ريشها ، ورأت صُوَيْحِبَاتِهَا تطير .

(١) الشورج : نوع من الملح ؛ وربما كان للدباغة خاصة .

(٢) دلعت لسانها : أخرجه .

(٣) حَسَكَة : شوكة .

(٤) أى الغراب .

(٥) تدبّق : نصطاد .

وكل الطير يتسافد بالأستاه إلا الحجل ؛ فإن الحجلة تكون في سفاله الريح ، واليعقوب^(١)
في علاوتها ، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفحال^(٢) بالريح .

والجبارى شديد الحُمق ، يقال إنها أحق الطير ؛ وهي أشده حيطة
ليبضها وفراخها .

والعقق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثا ، وأشدّها حذراً ، ليس في الأرض طائر
أشدّ تضييعاً لبيضه وفراخه منه .

ومن الطير ما يؤثر التفرد كالعقاب ؛ ومنه ما يتعاش زوجا كالقطا .

والظلم يتلعب الحديد الحمي ، ثم يميّعه في قانسته حتى يُحيله كالماء الجارى ؛ وفي ذلك
أعجوبتان : التغذى بما لا يغذى به ، واستمراؤه وهضمه شيئا لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ .

وكما سُخر الحديد لجوف الظلم فأحاله ، سُخر الصخر الأصمّ لأذنان الجراد ؛ إذا أراد
أن يلقى بيضه غرس ذنبه في أشدّ الأرض صلابة ، فانصدع له ؛ وذلك من فعل الطبيعة
بتسخير الصانع القديم سبحانه ؛ كما إنّ عود الخلفاء الرّخو الدقيق^(٣) المنبت ، يلقى في نباته
الآجر والخزف الغليظ ، فيثقبه .

وقد رأيت في مسنة سور بغداد ، في حجر صلد نبعة نبات قد شقت وخرجت
من موضع ؛ لو حاول جماعة أن يضرّوه بالبيارم الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثرا .

وقد قيل : إن إبرة العقرب أنفذ في الطنّجير^(٤) والطنست .

وفي الظلم شبه من البعير من جهة المنسم والوظيف والعنق والخزامة التي في أنفه ،

(١) اليعقوب . ذكر الحجل .

(٢) الفحال : ذكر النخل

(٣) ساقطة من ب .

(٤) الطنّجير : وعاء يعمل فيه الخبيص (معرب) .

وشبهه من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار . ثم إن ما فيه من شبه الطير جذبته إلى البيض ، وما فيه من شبه البعير لم يجذبه إلى الولادة .

ويقال : إن النعامة مع عظم عظامها وشدة عدوها لا منح فيها ، وأشد ما يكون عدوها أن تستقبل الريح ؛ فكلما كان أشد لعصوفها كان أشد لحضرها ^(١) ، تضع عنقها على ظهرها ثم تحرق الريح . ومن أعاجيبها أن الصيف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمة ابتداء لون وظيفها في الحمة ؛ فلا يزالان يزدادان حمرة إلى أن تنتهي حمرة البسر ، ولذلك قيل للظليم : خاضب . ومن العجب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشاكستها للنوعين ؛ ولا يكاد يرى بيضها مبددا البتة ، بل تصفه طولاً صفاً مستويا على غاية الاستواء ، حتى لو مددت عليه خيط المسطر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض ؛ ثم تعطى لكل واحدة نصيبها من الحزن .

والذئب لا يعرض لبيض النعام مادام الأبوان حاضرين ، فإنهما متى تفقاه ^(٢) ركبه الذكر فطحره ^(٣) وأدركته الأنثى فركضته ، ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عوضه ، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزها هرباً . والنعامة قد يتخذ في الدور ، وضرره شديد ، لأن النعامة ربما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ ، فخطفته وأكلته ، وخزمت الأذن ، أو رأت ذلك في لبتها فضربت بمنقارها اللبة فخرقتها .

(١) الحضر : نوع من السير .

(٢) تفقاه : تفباه .

(٣) طحره : كسر بيضته .

الأضل :

ومن كلامه عليه السلام مخاطب به أهل البصرة على مهلة افتصاص الامم :

فَمَنْ أَسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ فَلْيَفْعَلْ ؛ فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي ؛ فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ ؛ وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ .
وَأَمَّا فَلَانَةٌ قَادَرَكُمَا رَأَى النِّسَاءَ ، وَضَعْنِ غَلَا فِي صَدْرِهَا كِمَرْجَلِ الْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ
لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ ؛ لَمْ تَفْعَلْ . وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى ، وَالْحِسَابُ
عَلَى اللَّهِ !

الشَّرْحُ :

يعتقل نفسه على الله : يحبسها على طاعته . ثم ذكر أن السبيل التي حملهم عليها وهي
سبيل الرشاد ؛ ذات مشقة شديدة ومذاقة مريرة ، لأن الباطل محبوب النفوس ؛ فإنه اللهو
واللذة ، وسقوط التكليف ؛ وأما الحق فمكروه النفس ، لأن التكليف صعب وترك
الملاذ العاجلة ، شاق شديد المشقة .

والضَّغْنُ : الحقد . والمِرْجَلُ : قِدْرٌ كبيرة . والقَيْنُ : الحداد ، أى كغليان قِدْرٍ
من حديد .

[فصل في ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها]

وفلانة كناية عن أمّ المؤمنين عائشة ، أبوها أبو بكر ، وقد تقدّم ذكر نسبه ، وأمها أم رومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن سبيع بن دهمان ابن الحارث بن الغنم بن مالك بن كنانة . تزوّجها رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الهجرة بسنتين ، بعد وفاة خديجة ؛ وهي بنت سبع سنين ، وبَنَى عليها بالمدينة ؛ وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر ؛ وكانت قبله تذكر لجُبَيْر بن مطعم ؛ وتُسمّى له ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله رأى في المنام عائشة في سَرَقَةٍ ^(١) من حرير عند متوفى خديجة ، فقال : « إن يكن هذا من عند الله يُمِضْهِ » ^(١) ؛ روى هذا الخبر في المسانيد الصحيحة ، وكان نكاحه إياها في شوال ، وبنّاه عليها في شوال أيضاً ، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبّتها على أزواجهنّ في شوال ، وتقول : هل كان في نسائه أحظى مني ! وقد نكحني ، وبني علىّ في شوال ؛ ردّاً بذلك على مَنْ يزعم من النساء أن دخول الرجل بالمرأة بين العيدين مكروه .

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وهي بنت عشرين سنة . واستأذنت رسول الله صلى الله عليه وآله في الكُنية ، فقال لها : « اكتني بابنك عبد الله بن الزبير » يعنى ابن أختها ، فكانت تكتنى أمّ عبد الله . وكانت فقيهةً راوية للشعر ، ذات حظّ من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وممّيل ظاهر إليها ، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمى ويستشري ^(٢) ، حتى كان منها في أمره في قصة مارية ، ما كان من الحديث ^(٣)

(١) السرقة ، واحدة السرقة ؛ وهو شقق من الحرير الأبيض .

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٤٤ .

(٣) انظر تفسير الكشاف ٤ : ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

الذى أسره إلى الزوجة الأخرى ، وأدى إلى تظاهرها عليه ، وأنزل فيهما قرآنا يتلى في المحاريب ، يتضمن وعيداً غليظاً عقيب تصریح بوقوع الذنب ، وصغو القلب ، وأعقبتهاتلك الجرأة ، وذلك الانبساط أن حدث منها في أيام الخلافة العلوية ما حدث ؛ ولقد عفا الله تعالى عنها ، وهى من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد ، وما صحَّ من أمر التوبة .

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " ، في باب عائشة ، عن سعيد ابن نصر ، عن قاسم بن أصبغ ، عن محمد بن وضاح ؛ عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع عن عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لنسائه : « أيتكن صاحبة الجمل الأدب ، يقتل حولها قتلى كثير ، وتنجو بعدما كادت ؟ » (١) .

قال أبو عمر بن عبد البر : وهذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله ، قال : وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد ، فثقة رجاله أشهر من أن تذكر (٢) .

ولم تحمل عائشة من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ولده ولد من مهيرة (٣) إلا من خديجة ، ومن السراى من مارية .

وقد ذُفِت عائشة في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله بصفوان بن المعطل السلمي ، والقصة مشهورة ، فأنزل الله تعالى براءتها في قرآن يُتلى وينقل ، وجُلِدَ قاذفوها الحد ، وتوفيت في سنة سبع وخمسين للهجرة ، وعمرها أربع وستون سنة ، ودفنت بالبقيع ،

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٠ ؛ والرواية هناك : « ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدب ؛ تنبعا كلاب الحوآب » ؛ وقال في شرحه : أراد « الأدب » ، فأظهر الإدغام لأجل الحوآب ، والأدب الكثير وبر الوجه .

(٢) الاستيعاب ٧٤٤ ، وفيه : « وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج إلى ذكر » .

(٣) المهيرة : الحرّة من النساء ؛ وهى ضدّ السرية .

في مُلك معاوية ، وصلى عليها المسلمون ليلاً ، وأمهم أبو هريرة ، ونزل في قبرها خمسة من أهلها : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي بكر ؛ وذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة .

فأما قوله : « فأدر كها رأى النساء » ، أى ضعف آرائهن . وقد جاء في الخبر : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » . وجاء : « إنهن قليلات عقل ودين » ، أو قال : « ضعيفات » ، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد ؛ والمرأة في أصل الخلقة سريرة الانخداع سريرة الغضب ، سيئة الظن فاسدة التدبير ، والشجاعة فيهن مفقودة ، أو قليلة ؛ وكذلك السخاء .

وأما الضغن ، فاعلم أن هذا الكلام يحتاج ، إلى شرح ، وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل المعاني رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلم الكلام ، وسألته عما عنده فيه ، فأجابني بجواب طويل ؛ أنا أذكر محصولة ، بعضه بلفظه رحمه الله وبعضه بلفظي ، فقد شدّ عني الآن لفظه كله بعينه ، قال : أول بدء الضغن كان بينها وبين فاطمة عليهما السلام ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله تزوّجها عقيب موت خديجة ، فأقامها مقامها ، وفاطمة هي ابنة خديجة ، ومن المعلوم أن ابنة الرجل إذا ماتت أمها ، وتزوج أبوها أخرى ، كان بين الابنة وبين المرأة كدرٌ وشنآن ، وهذا لا بد منه ، لأن الزوجة تنفس عليها ميل الأب ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة . كالضرة لأمها ؛ بل هي ضرة على الحقيقة ، وإن كانت الأم ميتة . ولأننا لو قدرنا الأم حيّة ، لكانت العداوة مضطربة متسعة ، فإذا كانت قد ماتت ورثت ابنتها تلك العداوة ، وفي المثل : « عداوة الحماة والكّنة » . وقال الراجز :

إِنْ الْحَمَاءُ أَوْلَعَتْ بِالْكَنَّةِ وَأَوْلَعَتْ كَنَّتُهَا بِالظَّنَّةِ^(١)

ثم اتفق أن رسول الله صلى الله عليه وآله مال إليها وأحبها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونونه وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم؛ حتى خرج بها عن حد حب الآباء للأولاد، فقال بمحضر الخاص والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات^(٢) مختلفة لا في مقام واحد: إنها سيّدة نساء العالمين، وإنها عديلة مريم بنت عمران، وإنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش: يا أهل الموقف، غضوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد. وهذا من الأحاديث الصحيحة؛ وليس من الأخبار المستضعفة؛ وإن إنكاحه علياً إياها ما كان إلا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها في السماء بشهادة الملائكة. وكما قال لامرأة^(٣): «يؤذيني ما يؤذيها، ويغضبني ما يغضبها»، و«إنها بضعة مني، يريني ما رآها»، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضغن عند الزوجة حسب زيادة هذا التعظيم والتبجيل، والنفوس البشرية تغيّظ على ما هو دون هذا، فكيف هذا!

ثم حصل عند بعلمها ما هو حاصلٌ عندها - أعنى علياً عليه السلام - فإن النساء كثيراً ما يجعلن الأحقاد في قلوب الرجال؛ لاسيما وهن محدّثات الليل، كما قيل في المثل؛ وكانت تكثر الشكوى من عائشة، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلن إليها كلماتٍ عن عائشة، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلماتٍ عن فاطمة؛ وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلمها، كانت عائشة تشكو إلى أبيها، لعلمها أن بعلمها لا يشكيها^(٤) على ابنته، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثرٌ ما، ثم تزايد تقرّض رسول الله صلى الله عليه

(١) الكنة: امرأة الابن.

(٢) ب: «في».

(٣) د: «مرة».

(٤) يقال: أشكى فلاناً؛ إذا قبل شكواه.

وآله لعلّ عليه السلام ، وتقريبه واختصاصه ؛ فأحدث ذلك حسداً له وغبطة في نفس أبي بكر عنه ؛ وهو أبوها ، وفي نفس طلحة وهو ابن عمّها ، وهى تجلس إليهما ، وتسمع كلامهما ؛ وهما يجلسان إليها ويحدثانها ، فأعدى إليها منهما كما أعدتهما .

قال : ولست أبرئ عليا عليه السلام من مثل ذلك ؛ فإنه كان ينفس على أبي بكر سكون النبي صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه ، ويحب أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده ، فتأكّدت البغضة بين هذين الفريقين . ثم كان من أمر القذف ما كان ؛ ولم يكن على عليه السلام من القاذفين ، ولكنه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها ، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشّنة والمنافقين .

قال له لما استشاره : إن هى إلا شنع نعلك ، وقال له : سل الخادم وخوفها وإن أقامت على الجحود فاضربها . وبلغ عائشة هذا الكلام كله ، وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاماً كثيراً عن علي وفاطمة ، وأنهما قد أظهرتا الشّمة جهاراً وسراً بوقوع هذه الحادثة لها ، فتفاقم الأمر وغلظ .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صاحها ورجع إليها ، ونزل القرآن ببراءتها ؛ فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر ، ويستظهر بعد أن غلب ، ويبرأ بعد أن اتهم ؛ من بسط اللسان ، وفلّات القول ؛ وبلغ ذلك كله عليا عليه السلام وفاطمة عليها السلام ، فاشتدّ الحال ، وغلظت ، وطوى كل من الفريقين قلبه على الشّان لصاحبه ؛ ثم كان بينها وبين علي عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال ؛ كلها تقتضى تهيج ما في النفوس ، نحو قولها له وقد استدناه رسول الله ، فجاء حتى قعد بينه

وبينها وهما متلاصقان : أما وجدت مقعدا لكذا - لا تكني عنه - إلا فخذى ! ونحو ما روى أنه سايه يوما وأطال مناجاته ؛ فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما ، وقالت : فيم أتما فقد أطلتما ! فيقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله غضب ذلك اليوم . وما روى من حديث الجفنة من الثريد التي أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها ؛ ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها .

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولادا كثيرة بنين وبنات ؛ ولم تلد هي ولداً ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُقيم بني فاطمة مقام بنيهِ ، ويسمى الواحد منهما «ابنى» ويقول : «دعوا لى ابنى ولا تُزرموا»^(١) على ابنى و «ما فعل ابنى» ، فما ظنك بالزوجة إذا حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يتبنى بنى ابنته من غيرها ، ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق ! هل تكون محبة لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم ، أم مبغضة ! وهل تودّ دوام ذلك واستمراره ، أم زواله وانقضاءه !

ثم اتفق أن رسول الله صلى الله عليه وآله سدّ باب أبيها إلى المسجد ، وفتح باب صهره ؛ ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة ، ثم عزله عنها بصهره ، ففدح ذلك أيضا فى نفسها ، وولد لرسول الله صلى الله عليه وآله إبراهيم من مارية ، فأظهر على عليه السلام بذلك سرورا كثيرا ؛ وكان يتعصب لمارية ، ويقوم بأمرها عند رسول الله صلى الله عليه وآله مिला على غيرها ، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة ، فبرأها على عليه السلام منها ، وكشف بطلانها أو كشفه الله تعالى على يده ، وكان ذلك كشفا محسّا بالبصر ، لا يتيها للمناقضين أن يقولوا فيه ما قالوه فى القرآن المنزل ببراءة عائشة ، وكلّ ذلك مما كان يوغر صدر عائشة عليه ، ويؤكد ما فى نفسها منه ، ثم مات إبراهيم فأبطنت شماتة ، وإن أظهرت كآبة ،

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٤ ، قال : «أى لاتقطعوا عليه بوله ؛ يقال : زرم الدمع والبول ؛ إذا انقطع .»

وَوَجَّهَ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ فَاطِمَةُ ، وَكَانَا يُؤْثِرَانِ ، وَيُرِيدَانِ أَنْ تَتَمَيَّزَ مَارِيَّةٌ عَلَيْهَا بِالْوَلَدِ ، فَلَمْ يَقْدِرْ لَهَا وَلَا لِمَارِيَّةَ ذَلِكَ ؛ وَبَقِيَتِ الْأُمُورُ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ ؛ وَفِي النُّفُوسِ مَا فِيهَا ، حَتَّى مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْمُرَضَّ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَعَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرِيدَانِ أَنْ يَمْرُضَاهُ فِي بَيْتِهِمَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ أَزْوَاجُهُنَّ كُلَّهُنَّ ، فَمَالَ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ بِمَقْتَضَى الْحُبِّ الْقَلْبِيَةِ الَّتِي كَانَتْ لَهَا دُونَ نِسَائِهِ ، وَكَرِهَ أَنْ يَزَاحِمَ فَاطِمَةَ وَبَعْلَهَا فِي بَيْتِهِمَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْإِنْبِسَاطِ لَوْجُودِهِمَا مَا يَكُونُ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ فِي بَيْتِ مَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ بِطَبْعِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْمَرِيضَ يَحْتَاجُ إِلَى فَضْلِ مَدَارَاةٍ ، وَنَوْمٍ وَيَقْظَةٍ وَانْكَشَافٍ ، وَخُرُوجِ حَدَثٍ ، فَكَانَتْ نَفْسُهُ إِلَى بَيْتِهِ أُسْكِنَ مِنْهَا إِلَى بَيْتِ صَهرِهِ وَبَنْتِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا تَصَوَّرَ حَيَاءَهُمَا مِنْهُ اسْتَحْيَا هُوَ أَيْضًا مِنْهُمَا ؛ وَكُلٌّ أَحَدٌ يَحِبُّ أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ ، وَيَحْتَشِمُ الصَّهْرُ وَالْبَنْتُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الزَّوْجَاتِ مِثْلُ ذَلِكَ الْمِيلِ إِلَيْهَا ، فَتَمَرَّضَ فِي بَيْتِهَا ، فَغُبِطَتْ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يَمْرُضْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْذُ قَدَمِ الْمَدِينَةِ مِثْلَ هَذَا الْمَرَضِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مَرَضُهُ الشَّقِيقَةَ ^(١) يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ثُمَّ يَبْرَأُ ، فَتَطَاوَلَ هَذَا الْمَرَضُ ؛ وَكَانَ عَلَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَشْكُ أَنَّ الْأَمْرَ لَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَنَازِعُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُ عَمَّهُ وَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : اْمُدِّدْ يَدَكَ أَبَايَعَكَ ، فَيَقُولُ النَّاسُ : عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَايَعَ ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ اثْنَانِ . قَالَ : يَا عَمُّ ، وَهَلْ يَطْمَعُ فِيهَا طَامِعٌ غَيْرِي ! قَالَ : سَتَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنِّي لَا أَحِبُّ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ وَرَاءِ رَتَاجٍ ، وَأَحَبُّ أَنْ أُصْحِرَ بِهِ ^(٢) . فَسَكَتَ عَنْهُ ، فَلَمَّا ثَقُلَ ^(٣) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي مَرَضِهِ ، أَنْفَذَ جَيْشَ أُسَامَةَ ، وَجَعَلَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ وَغَيْرَهُ مِنْ أَعْلَامِ

(١) الشَّقِيقَةُ : مَرَضٌ بِأَخْذِ فِي نِصْفِ الرَّأْسِ وَالْوَجْهِ .

(٢) يُقَالُ : أَصْحَرَ فُلَانٌ بَمَا فِي قَلْبِهِ ، أَيْ أَظْهَرَهُ .

(٣) يُقَالُ : أَصْبَحَ ثَاقِلًا ، أَيْ مَرِيضًا .

المهاجرين والأنصار؛ فكان عليّ عليه السلام حينئذ بوضوئه إلى الأمر - إن حدث برسول الله صلى الله عليه وآله حدث - أوثق، وتغلب على ظنه أن المدينة لو مات نخلت من منازع ينارعه الأمر بالكلية؛ فيأخذه صفواً عفواً، وتتم له البيعة، فلا يتهياً فسخها لورام ضد منازعته عليها، فكان - من عود أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه، وإعلامه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله يموت - ما كان، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف، فنسب عليّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره فليصل بالناس؛ لأن رسول الله كما روى، قال: «ليصل بهم أحدهم»، ولم يعين؛ وكانت صلاة الصبح، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في آخر رمق يتهاذى بين عليّ والفضل بن العباس؛ حتى قام في الحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى؛ فجعل يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه. وقال: أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدّمهما رسول الله في الصلاة! ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الصلاة لصرفه عنها؛ بل لحافظته على الصلاة مهما أمكن؛ فبويع على هذه النكته التي اتهمها على عليه السلام على أنها ابتدأت منها.

وكان عليّ عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً؛ ويقول: إنه لم يقل صلى الله عليه وآله: «إنكن لصويحبات يوسف» إلا إنكاراً لهذه الحال، وغضباً منها، لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبييهما؛ وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن الحراب؛ فلم يجد ذلك، ولا أثر مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهد له قاعدة الأمر؛ وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار. ولما ساعد على ذلك من الحظ الفليكي والأمر السمائي؛ الذي جمع عليه القلوب والأهواء؛ فكانت هذه الحال عند عليّ أعظم من كل عظيم؛ وهي الطامة الكبرى،

والمصيبة العظمى ؛ ولم ينسبها إلا إلى عائشة وحدها ، ولا علق الأمر الواقع إلا بها ؛ فدعا عليها في خلواته وبين خواصه ، وتظلم إلى الله منها ، وجرى له في تخلفه عن البيعة ما هو مشهور ؛ حتى بايع ؛ وكان يبلغه وفاطمة عنها كل ما يكرهانه منذ مات رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن توفيت فاطمة ، وهما صابران على مضضٍ ورمض^(١) ، واستظهرت بولاية أبيها ، واستطالت وعظم شأنها ، وانخذل على وفاطمة وقهرها ؛ وأخذت فذك وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مرارا فلم تظفر بشيء ، وفي ذلك تبلغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كل كلام يسوءها ، ويبلغن عائشة عنها وعن بعلمها مثل ذلك ، إلا أنه شتان ما بين الحالين ، وبعد ما بين الفريقين ، هذه غالبية وهذه مغلوبة ، وهذه أميرة وهذه مأمورة ، وظهر التشفي والشماتة ، ولا شيء أعظم مرارة ومشقة من شماتة العدو .

فقلت له ، رحمه الله : أفتقول أنت : إن عائشة عيّنت أباها للصلاة ورسول الله صلى الله عليه وآله لم يعينه ! فقال : أمّا أنا فلا أقول ذلك ، ولكنّ عليا كان يقوله ، وتكليف غير تكليفه ، كان حاضراً ولم أكن حاضراً ، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي ، وهي تتضمن تعيين النبي صلى الله عليه وآله لأبي بكر في الصلاة ، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنه من الحال التي كان حضرها .

قال : ثم ماتت فاطمة ، فجاء نساء رسول الله صلى الله عليه وآله كلهنّ إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة ، فإنها لم تأت ، وأظهرت مرضاً ، ونقل إلى عليّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور .

ثم بايع عليّ أباها فسرّت بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار

(١) المرض : الغيط الشديد .

الخلافة وبطلان منازعة الخصم ماقد نقله الناقلون فأكثرُوا ، واستمرتِ الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلي ، والأحقاد تذيب الحجارة ، وكلّما طال الزمان على عليّ تضاغت همومه وغمومه ، وباح بما في نفسه ، إلى أن قتل عثمان ، وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليفاً وتحريضاً ، فقالت : أبعد الله ! لمّا سمعت قتله ، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة ، فتعود الإمرة تيمية ، كما كانت أولاً ، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب ، فلما سمعت ذلك صرخت : واعثماناه ! قتل عثمان مظلوماً ، وثار ما في الأنفس ، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده .

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله ، ولم يكن يتشيع ، وكان شديداً في الاعتزال ، إلّا أنه في التفضيل كان بغدادياً .

فأما قوله عليه السلام : « ولو دُعيتُ لنتال من غيري مثل ما أتت إليّ ، لم تفعل » ، فإنّما يعني به عمر ، يقول : لو أنّ عمر وليّ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتل عليه ، والوجه الذي أنا وليت الخلافة عليه ونسب إلى عمر أنّه كان يؤثّر قتله ، أو يحرّض عليه ، ودُعيتُ عائشة إلى أن تخرج عليه في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام ، تثير فتنة وتنقض البيعة - لم تفعل ، وهذا حقّ لأنها لم تكن تجد على عمر ما تجده على عليّ عليه السلام ، ولا الحال الحال .

فأما قوله : « ولها بعدُ حرّمتها الأولى ، والحساب على الله » ، فإنه يعني بذلك حرّمتها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله لها ، وحبّه إياها . وحسابها على الله ، لأنّه غفور رحيم لا يتعاطى عفوه زلّة ، ولا يضيق عن رحمته ذنب .

فإن قلت : هذا الكلام يدل على توقفه عليه السلام في أمرها ، وأتم تقولون : إنها من أهل الجنة ، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام ؟

قلت : يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها؛ فإن أصحابنا يقولون : إنها ثابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت ، وقالت : لوددت أن لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين؛ كلهم ماتوا ولم يكن يوم الجمل. وأنها كانت بعد قتله تُثنى عليه وتُشتر مناقبه ؛ مع أنهم رووا أيضا أنها عقيب الجمل كانت تبكي حتى تبلّ خمارها ، وأنها استغفرت الله وندمت ؛ ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عقيب الجمل بلافا يقطع العذر ويثبت الحجة ؛ والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعا مستقيضا، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهي على ذلك ، والتائب مغفور له، ويجب قبول التوبة عندنا في العدل، وقد أكدوا وقوع التوبة؛ منها ما روى في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا ، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أن نتكلف إثبات توبتها ولولم ينقل ، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر !

الأصل :

منها :

سَبِيلُ أَبْلَجِ الْمَنَاجِ ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ ؛ فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا ، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَفُ الْجَنَّةُ ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ

لِلْفَاوِينَ . وَإِنَّ أُلْخُلِقَ لَا مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى
الْغَايَةِ الْقُصْوَى .

الشَّرْحُ :

هو الآن في ذكر الإيمان ، وعنه قال : « سبيل أبلج المنهاج » ، أى واضح الطريق .
ثم قال : « فبالإيمان يستدل على الصالحات » ، يريد بالإيمان هاهنا مستماه اللغوى لا الشرعى
لأن الإيمان في اللغة هو التصديق ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ ^(١) أى بمصدق ،
والمعنى أن من حصل عنده التصديق ، بالوحدانية والرسالة ؛ وهما كلمتا الشهادة ، استدل بهما
على وجوب الأعمال الصالحة عليه أوندبه إليها ، لأن المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله
عليه وآله أنه أوجب عليه أعمالاً صالحة ، وندبه إلى أعمال صالحة ؛ فقد ثبت أن بالإيمان
يستدل على الصالحات .

ثم قال : « وبالصالحات يستدل على الإيمان » ، فالإيمان هاهنا مستعمل في مستماه
الشرعى لا في مستماه اللغوى ، ومستماه الشرعى هو العقد بالقلب ؛ والقول باللسان ، والعمل
بالجوارح ، فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستكمل فعل كل واجب ، ويحتنب كل قبيح ؛
ولاشبهة أنامتى علمنا أو ظننا من مكلف أنه يفعل الأفعال الصالحة ، ويحتنب الأفعال القبيحة ؛
استدلنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه ، وبهذا التفسير الذى فسرناه نسلم من
إشكال الدّور ، لأن لقائل أن يقول : من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول ؛ فلو كان
كل واحد من الإيمان والصالحات يستدل به على الآخر ، لزم تقدم العلم بكل واحد منهما
على العلم بكل واحد منهما ، فيؤدى إلى الدّور ؛ ولاشبهة أن هذا الدّور غير لازم على
التفسير الذى فسرناه نحن .

(١) سورة يوسف ١٧ .

ثم قال عليه السلام : « وبالإيمان يعمر العلم » ؛ وذلك لأنّ العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما علم بل مستضرّ به غاية الضرر ؛ فكان علمه خراب غير معمور ؛ وإنّما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا ، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرنا أو القول اللسانى على قول آخرين ؛ ومذهبنا أرجح ، لأنّ عمارة العلم إنّما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح ؛ وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان .

ثم قال : « وبالعلم يُرهب الموت » ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

ثم قال : « وبالموت تحتم الدنيا ؛ وهذا حق لأنه انقطاع التكليف .

ثم قال : « وبالدينيا تحرز الآخرة » ؛ هذا كقول بعض الحكماء : الدنيا متجر ، والآخرة ربح ، ونفسك رأس المال .

ثم قال : « وبالقيامّة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين » ، هذا من القرآن العزيز (٢) .
وتزلف لهم : تقدّم لهم وتقرب إليهم .

ولا مقصر لى عن كذا : لا محبس ولا غاية لى دونه . وأرقل : أسرع . والمضمار : حيث تستبِق الخيل .

الأنضِل :

منها :

قَدْ شَخَّصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ ؛ لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا؛

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) من قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .

سورة الشعراء ٩٠ ، ٩١ .

لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقِلُونَ عَنْهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ .
وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الْحُبْلُ الْمَتِينُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ ، وَالرَّيُّ
النَّافِعُ ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ ؛ لَا يَعْوِجُ فِيقَامَ ، وَلَا يَزِيغُ
فِي سِتَعْتَبَ ، وَلَا تُخْلَقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ
عَمِلَ بِهِ سَبَقَ .

الشَّنْخُ :

شَخَّصُوا مِنْ بِلَدٍ كَذَا: خَرَجُوا. وَمُسْتَقَرُّ الْأَجْدَاثِ : مَكَانُ اسْتِقْرَارِهِمْ بِالْقُبُورِ ؛ وَهِيَ
جَمْعُ جَدَثٍ .
وَمَصَائِرُ الْغَايَاتِ : جَمْعُ مَصِيرٍ ، وَالْغَايَاتِ : جَمْعُ غَايَةٍ وَهِيَ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ،
قَالَ الْكَمِيتُ :

فَالآنَ صَرْتُ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورِ إِلَى مَصَايِرِ

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَهْلَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَقِيمُ بَدَارَ لَا يَتَحَوَّلُ مِنْهَا ؛ وَهَذَا
كَمَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : إِنَّهُ يَنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ سَعَادَةٌ لَأَفْنَاءِ لَهَا ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ شِقَاوَةٌ
لَأَفْنَاءِ لَهَا .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ خُلُقَانٌ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ؛ وَذَلِكَ
لِأَنَّهُ تَعَالَى مَا أَمَرَ إِلَّا بِمَعْرُوفٍ ، وَمَا نَهَى إِلَّا عَنِ مُنْكَرٍ وَيَبْقَى الْفَرْقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَنَّا يَجِبُ عَلَيْنَا
النَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَنْعِ مِنْهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ ، لَا يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ مَنَعَ مِنْ إِتْيَانِ الْمُنْكَرِ
لَبَطَلَ التَّكْلِيفُ .

ثُمَّ قَالَ : « إِنَّهُمَا لَا يَقْرَبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ » ، وَإِنَّمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذلك ، لأن كثيرا من الناس يكف عن هي الظلمة عن المناكير؛ توهمًا منه أنهم إما أن يبطشوا به فيقتلوه ، أو يقطعوا رزقه ويحرموه ، فقال عليه السلام : إن ذلك ليس مما يقرب من الأجل ، ولا يقطع الرزق . وينبغي أن يحمل كلامه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظن بعدم تطرق الضرر الموفى على مصلحة النهى عن المكر .

ثم أمر باتباع الكتاب العزيز ، ووصفه بما وصفه به

وجاء نافع ينقع الغلة ، أى يقطعها ويروى منها « ولا يزيع يميل فيستعقب » ، يطلب منه العتبي هي الرضا ؛ كما يطلب من الظالم يميل فيسترضى .

قال : ولا يخلقه كثرة الرد وولوج السمع ، هذا من خصائص القرآن المجيد شرفه الله تعالى ، وذلك أن كل كلام منشور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردد ولوجه الأسماع ملّ وسمج واستهجن ؛ إلا القرآن فإنه لا يزال غضا طريًا محبوبًا غير مملول .

الأصل :

وقام إليه عليه السلام رجل ، فقال : أخبرنا عن الفتن ، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال عليه السلام :

إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُيْحَانَهُ قَوْلَهُ : ﴿الْم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا ؟ فَقَالَ : يَا عَلِيُّ ؛ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتُ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنْ اسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتُ لِي : « أَبَشِّرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ ؟ » فَقَالَ لِي : « إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَا » ! فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ؛ وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ ، وَقَالَ : يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمْنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِبَةِ ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخُمُرَ بِالنَّبِيدِ ، وَالشُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ أَمْزِلَةَ رِدَّةٍ ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ ؟ فَقَالَ : بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ .

الشَّيْخُ :

قد كان عليه السلام يتكلم في الفتنة ؛ ولذلك ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛
ولذلك قال : « فعليكم بكتاب الله » ، أى إذا وقع الأمر واختلط الناس ، فعليكم بكتاب
الله ؛ فلذلك قام إليه مَنْ سألَه عن الفتنة . وهذا الخبر مروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله
قال له : « إنَّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين ، كما كتب علىَّ جهاد المشركين » ، قال :
فقلت : يا رسول الله ، ماهذه الفتنة التى كتب علىَّ فيها الجهاد ؟ قال : قوم يشهدون أن لا إله
إلا الله وأنَّى رسول الله ، وهم مخالفون للسنة . فقلت : يا رسول الله ، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون
كما أشهد ؟ قال : على الإحداث فى الدين ، ومخالفة الأمر ؛ فقلت : يا رسول الله ، إنك
كنت وعدتني الشهادة ، فاسأل الله أن يجعلها لى بين يديك ، قال : فمن يقاتل الناكثين
والقاسطين والمارقين ! أما إننى وعدتك الشهادة وستشهد ؛ تضرب على هذه فتخضب
هذه ، فكيف صبرك إذا ! قلت : يا رسول الله ، ليس ذا بموطن صبر ، هذا موطن شكر ،
قال : أجل ، أصبت ، فأعد للخصومة فإنك مخاصم ، فقلت : يا رسول الله ، لو بينت لى قليلا فقال :
إن أمتى ستفتن من بعدى ؛ فتتأول القرآن وتعمل بالرأى . وتستحلّ الخمر بالنبيذ ، والسحت
بالمهذبة ، والربا بالبيع ، وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال ، فكن جليسا
بيتك حتى تقلدها ، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور ، وقلبت لك الأمور ؛ تقاتل حينئذ
على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله ؛ فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى . فقلت :
يا رسول الله ، فبأى المنازل أنزل هؤلاء المفتونين من بعدك ؟ أبنزلة فتنة أم بمنزلة ردة ؟
فقال : بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل . فقلت : يا رسول الله ، أيدركهم
العدل منّا أم من غيرنا ؟ قال : بل منّا ، بنا فتح وبنا يحتم ، وبنا ألف الله بين القلوب

بعد الشرك ، وبنا يؤلف بين القلوب بعد الفتنة . فقلت : الحمد لله على ما وهب لنا من فضله .

واعلم أن لفظه عليه السلام المروى في ” نهج البلاغة “ يدل على أن الآية المذكورة ، وهي قوله عليه السلام : ﴿ اَلَمْ اَحْسِبِ النَّاسَ ﴾ أنزلت بعد أحد ؛ وهذا خلاف قول أرباب التفسير ، لأن هذه الآية هي أول سورة العنكبوت وهي عندهم بالاتفاق مكية ، ويوم أحد كان بالمدينة ؛ وينبغي أن يقال في هذا : إن هذه الآية خاصة أنزلت بالمدينة ، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة ؛ وغلب عليها نسب المكي ، لأن الأكثر كان بمكة ، وفي القرآن مثل هذا كثير ، كسورة النحل ، فإنها مكية بالإجماع ، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أحد ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِّقْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١﴾ .

فإن قلت : فلم قال : « علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورَسُولُ اللَّهِ بين أظهرنا » ؟

قلت : لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (٢) .

وقوله : « حيزت عني الشهادة » ، أي منعت .

قوله : « ليس هذا من مواطن الصبر » كلام عال جداً يدل على يقين عظيم ، وعرفان تام ، ونحوه قوله - وقد ضربه ابن ملجم : فزت ورب الكعبة .

(١) سورة النحل ١٢٦ - ١٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ٣٣ .

قوله : « سَيَفْتَنُونَّ بِأَمْوَالِهِمْ » من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (١) .

قوله : « وَيَمْنُنُونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ » ، من قوله تعالى : ﴿ يَمْنُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَتَمَنَّوْا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (٢) .

قوله : « وَيَتَمَنُّونَ رَحْمَتَهُ » من قوله : « أَحْمَقُ الْحَقِّ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » .

قوله : « وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ » من قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

والأهواء الساهية : الغافلة . والشح : الحرام ، ويجوز ضم الحاء ، وقد أسحت الرجل في تجارته ، إذا اكتسب الشح .

وفي قوله : « بَلْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ » : تصديق لمذهبنا في أهل البغي وأنهم لم يدخلوا في الكفر بالكلية ، بل هم فساق ، والفسق عندنا في منزلة بين المنزلتين ، خرج من الإيمان ، ولم يدخل في الكفر .

(١) سورة الأنفال ٢٨ .

(٢) سورة الحجرات ١٧ .

(٣) سورة الأعراف ٩٩ .

الأفضل :

ومنه خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِدُكْرِهِ ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ اللَّهِ ؛ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرِّهِ بِالْمَاضِينَ ، لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ . آخِرُ فَعَالِهِ ^(١) كَأَوَّلِهِ ، مُتَشَابِهَةُ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةُ أَعْلَامُهُ . فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حُدُودَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ؛ فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَجَوَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ ؛ وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ ؛ وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ . فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ؛ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ ؛ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ جَاءَ إِلَيْهِ . أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ الْخَطَايَا ، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى .

عِبَادَ اللَّهِ ؛ اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طَرِيقَهُ ، فَشَقُوهُ لَازِمَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ . فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ ، لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ . قَدْ دُلِّسْتُمْ عَلَى الزَّادِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعَنِ ، وَحُنِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ وَقُوفٍ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ . أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْذُّنْيَا مَنْ

(١) د : « أفعاله » .

خُلِقَ لِلْآخِرَةِ ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلِّبُهُ ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ !
عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ
الشَّرِّ مَرْغَبٌ .

عِبَادَ اللَّهِ ، اخْذَرُوا يَوْمًا تُفَحَّصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ ، وَتَشِيبُ
فِيهِ الْأَطْفَالُ .

اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَدًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَعُمُيُونًا مِنْ جَوَارِحِكُمْ ،
وَحِفَاطَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ،
وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابُ ذُورِتَاجٍ ؛ وَإِنْ غَدَا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ ؛ يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ ،
وَيَجِيءُ الْغَدُ لِأَحْقَابِهِ ؛ فَكَأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ
وَحْدَتِهِ ، وَنَحَطَّ حُفْرَتِهِ . فَيَالَهُ مِنْ بَيْتٍ وَحْدَةٍ ، وَمَنْزِلٍ وَحْشَةٍ ، وَمَفْرَدٍ غُرْبَةٍ !

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ؛
قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبَاطِيلُ ، وَأَضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعِلَلُ ، وَأُسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ ،
وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا ؛ فَانْعِظُوا بِالْعَبْرِ ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ ، وَأَنْتَفِعُوا بِالنَّذْرِ .

الشَّيْرُخُ :

جعل الحمد مفتاحاً لذكره ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛
وَالْقُرْآنُ هُوَ الذِّكْرُ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) ،

وسبباً للمزيد ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ^(١) ، والحمد هاهنا هو الشكر ، ومعنى جعله الحمد دليلاً على عظمته وآلائه أنه إذا كان سبباً للمزيد ، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه ؛ أمّا دلالاته على عظمته ، فلاّنه دالٌّ على أن قدرته لا تتناهى أبداً ؛ بل كلما ازداد الشكر ازدادت النعمة . وأمّا دلالاته على آلائه ، فلاّنه لا جوداً أعظم من جود من يعطى من يحمده ، لا حمداً متطوعاً ، بل حمداً واجباً عليه .

قوله : « يجرى بالباقيين كجرىه بالماضين » ، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى ، قال بعضهم :

مات من مات والثريا الثريا والسماك السماك والنسر نسر
ونجوم السماء تضحك منا كيف تبقى من بعدنا ونمر !
وقال آخر :

فما الدهر إلا كالزمان الذي مضى ولا نحن إلا كلقرون الأوائل
قوله : « لا يعود ما قد ولّى منه » ، كقول الشاعر :

ما أحسن الأيام إلا أنها يا صاحبي إذا مضت لم ترجع ^(٢)

قوله : « ولا يبقى سرمداً مافيه » ؛ كلام مطروق المعنى ، قال عدى :

ليس شيء على المنون بياق غير وجه المهيمن الخلاق

قوله : « آخر أفعاله كأوله » ، يروى : « كأولها » ، ومن رواه : « كأوله » أعاد

الضمير إلى الدهر ، أى آخر أفعال الدهر كأول الدهر ، فحذف المضاف .

متشابهة أموره ؛ لأنه كما كان من قبل يرفع ويضع ، ويفنى ويفقر ، ويوجد ويعدم ،

(١) سورة إبراهيم ٧ .

(٢) للبحتري ، ديوانه ٢ : ١٠٠ .

فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة . وروى : « متسابقة » أى شئ منها قبل شئ ، كأنها خيلٌ تتسابق في مضمارٍ .

متظاهرة أعلامه ، أى دلالاته على سجيته التى عامل الناس بها قديما وحديثا . متظاهرة : يقوى بعضها بعضا . وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام على عادة العرب فى ذكر الدهر ؛ وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر .

والشَّوْلُ : النُّوق التى خَفَّ لبنها وارتفع ضرعها ، وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر أو ثمانية ، الواحدة شائلة ، وهى جَمْعٌ على غير القياس . وشَوَّلَت الناقة ، أى صارت شائلة ، فأما الشائل بغيرها ، فهى الناقة تشوّل بذنبها للقاح ولا لبن لها أصلا ، والجمع شُوْل ، مثل راكم وركم ، قال أبو النجم .

* كَانْ فى أذناهنَّ الشَّوْلُ^(١) *

والزاجر : الذى يزجر الإبل بسوقها ، ويقال : حدوتُ إبلِي وحدوتُ إبلي ، والحدو سَوَّقُها ، والغناء لها ، وكذلك الحداء ، ويقال للشَّمال : حدَّواء ، لأنها تحدو السحاب ، أى تسوقه ، قال العجاج :

* حدَّواءُ جاءتْ من بلاد الطور^(٢) *

ولا يقال للمذكر : « أَحَدَى » ، وربما قيل للحمار إذا قدم أتنه : حادٍ ، قال ذو الرمة :

* حادى ثلاثٍ من الحُقب السَّماحيج^(٣) *

والمعنى أن سائقَ الشَّوْل يعسف بها ، ولا يتقى سَوَّقها ولا يدّارك كما يسوق العِشار^(٤) .

(١) الاسان ١٨ : ١٨٣ .

(٢) ديوانه ٢٨ .

(٣) ديوانه ٧٨ ، وصدّره :

* كَانَهُ حِينَ يَرْمِي خَلْفَهُنَّ بِهِ *

(٤) العشار من الإبل : التى قد أنى عليها عشرة أشهر .

ثم قال عليه السلام : « مَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ هَلَكَ » ، وذلك أن من لا يوقى النظرَ حقّه ، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف . والحجاج عمّا رُبِّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا في قلبه العقائد ؛ يكون قد شغل نفسه بغير نفسه ، لأنّه لم ينظر لها ، ولا قصد الحقّ من حيث هو حقّ ، وإنّما قصد نُصرة مذهب معيّن يشقّ عليه فراقه ، ويصعب عنده الانتقال منه ؛ ويسوءه أن يُردّ عليه حجةً تبطله ، فيُسهر عينه ، ويتعب قلبه في تهويس^(١) تلك الحجة والقدح فيها بالغث والسمين ، لا لأنّه يقصد الحقّ ، بل يقصد نصرة المذهب المعيّن ، وتشديد دليله ، لا جرّم أنّه متحيّر في ظلمات لانهاية لها ! والارتباك : الاختلاط ، ربكت الشيء أربكته ربكاً ، خلطته فارتبك ، أى اختلط ، وارتبك الرجل في الأمر ، أى نشب فيه ولم يكد يتخلص منه .

قوله : « ومدّت به شياطينه في طغيانه » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾^(٢) .

وروى : « ومدّت له شياطينه » باللام ، ومعناه الإمهال ، مدّ له في الغيّ ، أى طوّل له ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾^(٣) .

قوله : « وزيّنت له سيّئ أعماله » ، مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ أَفَعَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءِ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾^(٤) .

قوله : « التقوى دار حصن عزيز » ، معناه دار حصانة عزيزة ، فأقام الاسم مقام المصدر ، وكذلك في الفجور .

ويحرم من لجأ إليه ، يحفظ من اعتصم به .

(١) تهويس الحجة : إفسادها .

(٢) سورة الأعراف ٢٠٢ .

(٣) سورة مريم ٧٥ .

(٤) سورة فاطر ٨ .

وَحْمَةُ الْخَطَايَا : سَمَّيَا ، وَتَقَطَّعَ الْحِمَّةَ ، كَمَا تَقُولُ : قَطَّعْتَ سَرِيَانَ السِّمِّ فِي بَدَنِ الْمَسُوعِ
بِالْبَادِزَهَرَاتِ وَالتَّرْيَاقَاتِ ؛ فَكَأَنَّهُ جَمَلَ سَمِّ الْخَطَايَا سَارِيَا فِي الْأَبْدَانِ ، وَالتَّقْوَى
تَقَطَّعَ سَرِيَانَهُ .

قوله : « وباليقين تدرك الغاية القصوى » ؛ وذلك لأنَّ أقصى درجات العرفان
الكشف ؛ وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين .

وانتصب « الله ، الله » على الإغراء . و« في » متعلِّقة بالفعل المقدَّر ؛ وتقديره : راقبوا .
وأعزَّ الأنفس عليهم ، أنفسهم .

قوله : « فشقوة لازمة » ، مرفوع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف ؛ تقديره : فغايئكم ،
أو فجزاؤكم ، أو فشانكم ؛ وهذا يدلُّ على مذهبنَا في الوعيد ، لأنَّه قَسَمَ الجزاءَ إلى قسمين ،
إمَّا العذاب أبداً ، أو النعيم أبداً ؛ وفي هذا بُطلان قول المرجئة : إنَّ ناساً يخرجون من النار
فيدخلون الجنة ، لأنَّ هذا لو صَحَّ لكان قسماً ثالثاً .

قوله : « فقد دُلِّتُمْ على الزَّاد » ، أى الطاعة .
وأمرتم بالظُّنن ، أى أمرتم بهجر الدنيا ، وأنَّ تظعنوا عنها بقلوبكم . ويجوز :
« الظُّنن » بالتسكين .

وحُثِّمْتُمْ على المسير ؛ لأنَّ الليل والنهار سائقان عنيفان .

قوله : « وإِنَّمَا أَنتُمْ كَرَكِبٌ وَقُوفٌ لَا يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ » ، السَّيْرُ هَاهُنَا ، هُوَ
الخروج من الدنيا إلى الآخرة ؛ بالموت ؛ جعل الناس ومقامهم في الدنيا كَرَكِبٍ وَقُوفٍ
لَا يَدْرُونَ مَتَى يَقَالُ لَهُمْ : سَيَرُوا فَيَسِيرُونَ ، لأنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ الْوَقْتَ الَّذِي يَمُوتُونَ فِيهِ .
فإن قلت : كيف سمى الموت والمفارقة سيراً ؟

قلت : لأنَّ الْأَرْوَاحَ يُعْرَجُ بِهَا إِمَّا إِلَى عَالَمِهَا وَهِيَ السُّعْدَاءُ ، أَوْ تَهْوَى إِلَى أَسْفَلِ

السافلين وهم الأشقياء ؛ وهذا هو السَّيْر الحقيقي ، لا حركة الرجل بالمشي ، ومن أثبت
الأنفس المجردة ، قال : سيَّرها خلوصها من عالم الحسّ ، واتّصالها المعنوي لا الأبدى
ببارئها ، فهو سير في المعنى لا في الصورة ؛ ومن لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال : إنّ الأبدان
منذ الموت تأخذ في التحلّل والتزاييل ، فيعود كلّ شيء منها إلى عنصره ، فذاك
هو السَّيْر .

و « ما » في « عمّا قليل » زائدة . وتَبَعْتُهُ : إثمُهُ وعقوبته .

قوله : « إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك » ، أى ليس الثواب فيما ينبغي للمرء أن
يتركه ، ولا الشرّ فيما ينبغي أن يرغب المرء فيه .

وتفحصُ فيه الأعمال : تكشف . والزَّلْزَال ، بالفتح : اسم للحركة الشديدة
والاضطراب ، والزَّلْزَال ، بالكسر المصدر ، قال تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١) .
قوله : « ويشيب فيه الأطفال » كلامٌ جار مجرى المثل ، يقال في اليوم الشديد : إنه
لُشِيب نواصي الأطفال ؛ وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (٢) ؛ وليس ذلك على حقيقته ، لأنّ الأمة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر
حالمهم في الآخرة إلى الشَّيب ؛ والأصل في هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالّت على الإنسان
شباب سريعا ، قال أبو الطيّب :

والهمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ (٣)
قوله : « إنّ عليكم رسداً من أنفسكم ، وعيوناً من جوارحكم » ، لأنّ الأعضاء
تنطق في القيامة بأعمال المكلفين ، وتشهد عليهم .

(١) سورة الأحزاب ١١ .

(٢) سورة المزمل ١٧ .

(٣) ديوانه ٤ : ١٢٤ .

والرَّصَد : جمع راصد ، كالحرس جمع حارس .
 قوله : « وحفاظ صدق » ؛ يعنى الملائكة الكاتبين ؛ لا يعتصم منهم بستره
 ولا ظلام ليل ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :
 إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ؛ ولكن قل على رقيب
 قوله : « وإن غدأ من اليوم قريب » ، ومنه قول القائل :
 * فإن غدأ لناظره قريب ^(١) *
 ومنه قوله :

* غدأ ماغدأ ما أقرب اليوم من غد *
 ومنه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ^(٢)
 والصيحة : نفخة الصُّور .
 وزاحت الأباطيل : بعدت . واضمحلت : تلاشت وذهبت .
 قوله : « واستحقت » ، أى حقت ووقعت ، استفعل بمعنى « فعل » ، كقولك : استمر
 على باطله أى مرّ عليه .
 وصدرت بكم الأمور مصادرها ، كلّ وارد فله صدر عن مورده ، وصدر الإنسان عن
 مورد الدنيا : الموت ثم البعث .

(١) صدره :

* فَإِنْ يَكُ صَدْرُ هَذَا الْيَوْمِ وَلِيَّ *

(٢) سورة هود ٨١ .

الأفضل :

ومنه خطبة له عليه السلام :

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبَرَمِ ؛
فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ ؛ ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطَقُوهُ ؛
وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ . . .
أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ
مَا بَيْنَكُمْ .

الشَّرْحُ :

الهَجْعَةُ : النُّوْمَةُ الْخَفِيفَةُ ؛ وَقَدْ تَسْتَعْمَلُ فِي النَّوْمِ الْمُسْتَشْرِقِ أَيْضًا . وَالْمُبَرَمُ : الْحَبْلُ الْمَفْتُولُ .
وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ : التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ .

فَإِنْ قُلْتَ : التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ قَبْلَهُ ، فَكَيْفَ جَعَلَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ؟

قُلْتَ : أَحَدُ جِزَائِ الصَّلَاةِ مُحذُوفٌ ، وَهُوَ الْمَبْتَدَأُ ؛ وَالتَّقْدِيرُ : بِتَصْدِيقِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛
وَهُوَ ضَمِيرُ الْقُرْآنِ ، أَيْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي الْقُرْآنُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَحُذِفَ أَحَدُ جِزَائِ الصَّلَاةِ هَاهُنَا ،
ثُمَّ حُذِفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ ^(١) فِي قِرَاءَةِ مَنْ جَعَلَهُ اسْمًا

مرفوعا ، وأيضا فإن العرب تستعمل « بين يديه » بمعنى « قبل » ، قال تعالى : ﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ^(١) ، أى قبله .

الأفضل :

منها :

فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَادَّخَلَهُ الظَّالِمَةُ تَرْحَةً ، وَأَوَّلُجُوا فِيهِ نِقْمَةً ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْبَقِي لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَازِرٌ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ .
أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ ، وَسَيَلَنْتَقِمُ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ ؛ مَا كَلَّا بِمَا كَلَّ ؛ وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ ؛ مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ ، وَدِثَارِ السَّيْفِ ؛ وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ .
فَأَقْسِمُ ثُمَّ أَقْسِمُ ، لَتَنْخَحَمَهَا أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةُ ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا ، مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ !

الشنخ :

التَّرْحَةُ : الحزن ، قال : فحينئذ لا يبقى لهم ، أى يحيق بهم العذاب ؛ ويبعث الله عليهم مَنْ يَنْتَقِمُ ، وهذا إخبارٌ عن مُلْكِ بَنِي أُمِّيَّةٍ بَعْدَهُ ؛ وَزَوَالِ أَمْرِهِمْ عِنْدَ تَفَاقُمِ فُسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ .

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظَّالِمَةِ ، وَمَنْ كَانَ يُوَثِّرُ مَلِكَهُمْ ، فقال : « أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ

غير أهله ، أصفيتُ فلانا بكذا: خصصته به ، وصفية المغم : شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة .

وأوردتموه غير ورده : أنزلتموه عند غير مستحقه .

ثم قال : سيدل الله ما كلهم اللذيذة الشهية بما كل مريرة علقمية . والمقر المر . وما كلا منصوب بفعل مقدر أى يأكلون ما كلاً ؛ والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصلة ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ ^(١) وكقول أبى تمام :

فَبِمَا قَدْ أَرَاهُ رِيَّانَ مَكْسُورِ السَّعْيِ مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيبٍ ^(٢)

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(٣)

وجعل شعارهم الخوف ، لأنه باطن في القلوب ، ودثارهم السيف لأنه ظاهر في البدن ؛ كما أن الشعار ما كان إلى الجسد والدثار ما كان فوقه .

ومطايا الخطيئات : حوامل الذنوب . وزوامل الآثام : جمع زاملة ، وهى بعير يستظهر به .

الإنسان يحمل متاعه عليه ، قال الشاعر :

زَوَامِلُ أَشْعَارٍ وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ ^(٤)

وتنخمت النخامة : إذا تنخعتها ، والنخامة : النخاعة .

والجديدان : الليل والنهار ؛ وقد جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب الحديثين

أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر أن بنى أمية تملك الخلافة بعده ، مع ذم منه عليه

(١) سورة النساء ١٥٥ .

(٢) ديوانه ١ : ١٢٤ .

(٣) سورة القصص ١٧ .

(٤) بعده :

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْفَرَائِرِ

والبيتان لمروان بن سليمان بن أبى حفصة ، يهجو قوما من رواة الشعر (اللسان - زميل) .

والسلام لهم ، نحو ما روى عنه في تفسير ؛ قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ^(١) فإن المفسرين قالو : إنه رأى بنى أمية ينزون على منبره نزوة القردة ، هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذى فسر لهم الآية به ، فساء ذلك ثم قال : الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ؛ ونحو قوله صلى الله عليه وآله : « إذ بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا وعباده خولا » ، ونحو قوله صلى الله عليه وآله : « أذ بلغ وآله في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ^(٢) قال : ألف شهر يملك فيها بنو أمية . وورد عنه صلى الله عليه وآله من ذمهم الكثير المشهور بنحو قوله : « أبغض الأسماء إلى الله الحكم وهشام والوليد » ، وفي خبر آخر : « اسمان يُبغضهما الله : مروان والمغيرة » ؛ ونحو قوله : « إن ربكم يحب ويُبغض ؛ كما يحب أحدكم ويُبغض ، وإنه يبغض بنى أمية ويحب بنى عبد المطلب » .

فإن قلت : كيف قال : « ثم لاتذوقها أبدا » وقد ملكوا بعد قيام الدولة الهاشمية بالمغرب مدة طويلة ؟

قلت : الاعتبار بملك العراق والحجاز ؛ وماعداهما من الأقاليم النائية لا اعتداد به .

(١) سورة الإسراء ٦٠ .

(٢) سورة القدر ٣ .

الأفضل :

ومن خطبة ر عليه السلام :

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّقِ
الذَّلِّ وَحَلَقِ الضِّيمِ ؛ شُكْرًا مِنِّي لِلْبَرِّ الْقَلِيلِ ، وَإِطْرَاقًا عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ ، وَشَهْدَةً
الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ .

الشرح :

أَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ : حميتكم وحضنتكم . والجهد ، بالضم الطاقة . الربق جمع رِبْقَةٍ ، وهى الحبل يُرَبَّقُ به إليهم .

وَحَلَقِ الضِّيمِ : جمع حَلَقَةٍ ، بالتسكين ، ويجوز : « حَلَق » بكسر الحاء وحِلاق .

فإن قلت : كيف يجوز له أن يطرق ويفضى عن المنكر ؟

قلت : يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنه أنه إن نهاهم عنه لم يتردعوا ، وأضافوا إليه منكراً آخر ، فحينئذ يخرج الإطراق والإغضاء عن حدِّ الجواز إلى حدِّ الوجوب ، لأن النهى عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ ؛ يَقْضِي بِلَعْلَمٍ ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ .
 اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي ؛ وَعَلَى مَا تُعَانِي وَتُبْتَلِي ؛ حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى
 الْحَمْدِ لَكَ ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ ؛ وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ ؛ حَمْدًا يَمْلَأُ مَا خَلَقْتَ ، وَيَبْلُغُ
 مَا أَرَدْتَ ؛ حَمْدًا لَا يُحْجَبُ عَنْكَ ، وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ ؛ حَمْدًا لَا يَنْقُطِعُ عَدَدُهُ ،
 وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ ؛ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ ؛ لَا تَأْخُذُكَ
 سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ؛ لَمْ يَنْتَه إِلَيْكَ نَظَرٌ ، وَلَمْ يَذْرِكْكَ بَصَرٌ ، أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارُ ، وَأَحْصَيْتِ
 الْأَعْمَالُ ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ .

وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ ، وَنَعَجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ ؛
 وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ ، وَأَتَمَّتْ عُقُولُنَا دُونَهُ ، وَحَالَتِ سُتُورُ
 الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ، أَعْظَمُ . فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ
 عَرْشَكَ ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي السَّمَوَاتِ ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ
 عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ ؛ رَجَعَ طَرَفُهُ حَسِيرًا ، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا ، وَسَمْعُهُ وَالِهًا ، وَفِكْرُهُ
 حَائِرًا .

الشَّيْخُ :

يجوز أن يكون أمره هاهنا هو الأمر الفعليّ ، لا الأمر القوليّ ، كما يقال : أمر فلانٍ مستقيم ، وما أمرٌ كذا ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ، فيكون المعنى أن شأنه تعالى ليس إلا أحد شيئين هما « أن يقول » ، « وأن يفعل » ، فعبر عن « أن يقول » بقوله : « قضاء » لأنّ القضاء الحكم ، وعبر عن « أن يفعل » بقوله : « وحكمة » لأنّ أفعاله كلّها تتبع دواعي الحكمة . ويجوز أن يكون « أمره » هو الأمر القوليّ ؛ وهو المصدر من « أمر له بكذا أمراً » ، فيكون المعنى أن أوامره بإيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة ؛ وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب في القرآن العزيز في ^(٢) قوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(٣) ، أى أوجب وألزم .

قوله : « ورضاه أمانٌ ورحمة » ؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة ؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة .

قوله : « يقضى بعلم » ، أى يحكم وبما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء ، أو وجوبه في العدل .

قوله : « ويعفو بحلم » ، أى لا يعفو عن عجز وذلّ ، كما يعفو الضعيف عن القوى ؛ بل هو قادر على الانتقام ولكنه يحلم .

ثم حمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ ، والعافية والبلاء ؛ لأنّ ذلك كلّهُ من عند الله لمصالح للمكلف ، يعلمها وما ^(٤) يعلمها المكلف ، والحمد على المصالح واجب .

(٢) ساقطة من ب .

(٤) د : « ولا » .

(١) سورة القمر ٥٠ .

(٣) سورة النحل ٧٧ .

ثم أخذ في تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة في وصفه ، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحمد لله زنة عرشه ، الحمد لله عدد خلقه ، الحمد لله ملء سمائه وأرضه » ، فقال عليه السلام : « حمداً يكون أَرْضَى الحمد لك » ، أى يكون رضاك له أوفى وأعظم من رضاك بغيره ، وكذلك القول فى : « أحب » و « أفضل » .

قوله : « وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتُ » ، أى هو غاية ما تنتهى إليه الإرادة ؛ وهذا كقول الأعرابية فى صفة المطر : غشيننا ماشئنا ؛ وهو من فصيح الكلام .

قوله : « لا يحجب عنك » ، لأن الإخلاص يقارنه ، والرياء متنفٍ عنه .

قوله : « وَلَا يُقْصَرُ دُونَكَ » ؛ أى لا يحبس ؛ أى لا مانع عن وصوله إليك ، وهذا من باب التوسع ؛ ومعناه ، أنه برىء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه ، وروى « وَلَا يَقْصُرُ » من القصور ، وروى « وَلَا يَقْصُرُ » من التقصير .

ثم أخذ فى بيان أن العقول قاصرة عن إدراك البارى سبحانه والعلم به ، وأنا إنما نعلم منه صفات إضافية أو سلبية ؛ كالعلم بأنه حى ، ومعنى ذلك أنه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدر ؛ وأنه قيوم بمعنى أن ذاته لا يجوز عليها العدم ، أى يقيم الأشياء ويمسكها ؛ وكل شئ يقيم الأشياء كلها ويمسكها ، فليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه ؛ وإلا لم يكن مقيما وممسكا لكل شئ ؛ وكل من ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه ؛ فذاته لا يجوز عليها العدم ، وأنه تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم ؛ لأن هذا من صفات الأجسام ؛ وما لا يجوز عليه العدم لا يكون جسماً ، ولا يوصف بخواص الأجسام ولوازمها ، فإنه لا ينتهى إليه نظر ، لأن انتهاء النظر إليه ؛ يستلزم مقابلته وهو تعالى منزّه عن الجهة ، وإلا لم يكن ذاته مستحيلا عليها العدم ، وأنه لا يدركه بصر ، لأن إِبْصَارَ الأشياء بانطباع أمثلتها فى الرطوبة الجليدية كانطباع أشباح المرئيات فى المرآة ، والبارى تعالى لا يتمثل ، ولا يتشبع ؛ وإلا لم يكن

قيوماً ، وأنه يدرك الأبصار ؛ لأنه إما عالم لذاته ، أو لأنه حتى لا آفة به ، وأنه يحصى الأعمال لأنه عالم لذاته ، فيعلم كل شيء حاضراً وماضياً ومستقبلاً ، وأنه يأخذ بالتواصي والأقدام ، لأنه قادر لذاته ، فهو متمكن من كل مقدور .

ثم خرج إلى فن آخر ؛ فقال : وما الذي نعجب لأجله من قدرتك وعظيم ملكك ، والغائب عنا من عظمتك ، أعظم من الحاضر ! مثال ذلك أن جرّم الشمس أعظم من جرّم الأرض مائة وستين مرة ، ولا نسبة لجرّم الشمس إلى فلَكها المائل ، ولا نسبة لفلَكها المائل إلى فلَكها المميل ؛ وفلك تدوير المريخ الذي فوقها أعظم من مميل للشمس ؛ ولا نسبة لفلك تدوير المريخ إلى فلَكه المميل ؛ وفلك تدوير المشتري أعظم من مميل للمريخ ، ولا نسبة لفلك تدوير المشتري إلى فلَكه المميل ، وفلك تدوير زحل أعظم من مميل للمشتري ، ولا نسبة لفلك تدوير زحل إلى مميل زحل ، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت ، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى ؛ فانظر أى نسبة تكون الأرض بكليتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس ، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه ، وتنتهي دونه ، وتحول سواثر الغيوب بينها وبينه ، كما قال عليه السلام .

ثم ذكر أن مَنْ أعمل فسكره ليعلم كيف أقام سبحانه العرش ، وكيف ذرأ الخلق ، وكيف علق السموات بغير علاقة ولا عمد ، وكيف مدّ الأرض على الماء ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً . وهذا كله حق ، وَمَنْ تأمل كتبنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين عللوا هذه الأمور ، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسباباً عقلية ، وادّعوا وقوفهم على كنهها وحقائقها ، علم صحة ما ذكره عليه السلام ، من أن مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى ، وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله ، فقد ضلّ ضاللاً مبيناً .

ويروى « وفكره جائرا » ، بالجيم أى عادلا عن الصواب . والحسير : المتعب .
والمبهور : المغلوب . والواله : المتحير .

منها :

يَدْعِي بِرْغَمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُنْ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ !
فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ
مُحَقَّقٌ - إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ - فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ .

يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ ؛ فَيُعْطَى الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطَى الرَّبَّ !
فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ !
أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا ، أَوْ تَكُونَ لَا تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا !
وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ ؛ أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطَى رَبَّهُ ؛ فَجَعَلَ
خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضَمَارًا وَوَعْدًا .
وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَبْضِهِ ؛ آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ ؛
فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا ، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا .

الشرح :

يجوز « بَرغمه » بالضم و « بَرغمه » بالفتح و « بَرغمه » بالكسر ، ثلاث لغات ، أى
بقوله . فأما من « زعمت » ، أى كفلت ، فالمصدر « الزعم » بالفتح ، والزعمامة .

ثم أقسم على كذب هذا الزاعم ، فقال : « والعظيم » ، ولم يقل : والله العظيم ، تأكيداً لعظمة الباري سبحانه ، لأن الموصوف إذا أُلقي وتُرك واعتمد على الصفة حتى صارت كالاسم ، كان أدل على تحقق مفهوم الصفة ، كالحارث والعباس .

ثم بين مستند هذا التكذيب ، فقال : ما بال هذا الزاعم ! إنه يرجو ربه ، ولا يظهر رجأؤه في عمله ، فإننا نرى من يرجو واحداً من البشر يلزم بابه ؛ ويواظب على خدمته ويتحجب إليه ، ويتقرب إلى قلبه بأنواع الوسائل والقرب ؛ ليظفر بمراده منه ، ويتحقق رجأؤه فيه ، وهذا الإنسان الذي يزعم أنه يرجو الله تعالى ، لا يظهر من أعماله الدينية ما يدل على صدق دَعْواه ، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه ، بل كل إنسان هذه صفته ، فالخطاب له والحديث معه .

ثم قال : « كل رجاء إلا رجاء الله فهو مدخول » ، أى معيب ، والدخّل ، بالتسكين : العيب والرتيبة . ومن كلامهم : « ترى الفتيان كالتنخل ، وما يدريك ما الدخّل » ^(١) ، وجاء « الدخّل » بالتحريك أيضاً ، يقال : هذا الأمر فيه دخّل ودغل ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ ^(٢) ؛ أى مكرراً وخديعة ، وهو من هذا الباب أيضاً .

ثم قال : « وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول » : محقق ، أى ثابت ، أى كل خوف حاصل حقيقة فإنه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح ؛ إلا خوف الله وحده وتقواه ، وهيبته وسطوته وسخطه ، ذلك لأن الأمر الذي يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال ، والأمر الذي يُخاف من الباري تعالى لا غاية له ولا انقضاء لمخذوره ، كما قيل في الحديث المرفوع : « فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة » .

(١) مثل ، وأول من قاله عثمة بنت مطرود البجليّة . وانظر الفاخر ١٥٦ .

(٢) سورة النحل ٩٤ .

ثمَّ عاد إلى الرجاء ، فقال : يرجو هذا الإنسان الله في الكثير ، أى يرجو رحمته في الآخرة ، ولا يتعلق رجاءه بالله تعالى إلا في هذا الموضع ، فأما ما عدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضار والتوصل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات ، فإنه لا يخطر له الله تعالى ببال ، بل يعتمد في ذلك على الشفراء والوسطاء ، ويرجو حصول هذه المنافع ، ودفع هذه المضار من أبناء نوعه من البشر ، فقد أعطى العباد من رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه ، فهو مخطئ ؛ لأنه إما أن يكون هو في نفسه صالحاً لأن يرجوه سبحانه ، وإما ألا يكون البارئ تعالى في نفسه صالحاً لأن يرجى ، فإن كان الثاني فهو كفرٌ صراح ، وإن كان الأول فالعبد مخطئٌ حيث لم يجعل نفسه مستعداً لفعل الصالحات ، لأن يصلح لرجاء البارئ سبحانه .

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف ، فقال : وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثله ؛ خافه أكثر من خوفه البارئ سبحانه ، لأن كثيراً من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذه البارئ سبحانه ؛ وهذا مشاهد ومعلوم من الناس ، فخوفهم بعضهم من بعض كالنقد المعجل ، وخوفهم من خالقهم ضمائر ووعد . والضمار : ما لا يرجى من الوعود والديون . قال الراعى :

حَمْدَنَ مَزَارَهُ وَأَصْبَنَ مِنْهُ عَطَاءً لَمْ يَكُنْ عِدَّةً ضَمَاراً^(١)

ثم قال : « وكذلك من عظمت الدنيا في عينه » يختارها على الله ، ويستعبده حبها . ويقال : كبر ، بالضم ، يكبر أى عظم ؛ فهو كبير وكبار بالتخفيف ؛ فإذا أفرط قيل :

(١) اللسان ٦ : ١٦٤ ، وقيله :

وَأَنْضَاءُ أَنْحَنَ إِلَى سَعِيدٍ طَرَوْقًا ثُمَّ عَجَّلَنَ ابْتِكَارًا

« كِبَار » بالتشديد ، فأما كِبَر بالكسر ، فعناه أَسَن ؛ والمصدر منهما كِبَرًا ،
بفتح الباء .

الاضل :

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَافٍ لَكَ فِي الْأُسُوةِ ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا ؛ إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّتْ لغيرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ؛ وَاللَّهُ مَسْأَلُهُ إِلَّا خُبْرًا يَا كَلُّهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَا كُلُّ بَقْلَةٍ الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَقِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ ، لِهُزَالِهِ وَتَشَدُّبِ لَحْمِهِ .

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ ، وَقَارِيَّ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُلُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِمُجْلَسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا ! وَيَأْكُلُ قُرُصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَرِهَا .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحُجْرَ ، وَيَلْبَسُ الْخَشْنَ ، وَيَأْكُلُ الْجُشْبَ ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْنَحَانُهُ مَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ ، دَابَّتْهُ رِجْلَاهُ ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ .

الشَّرْحُ :

يجوز أسوة وإسوة ، وقرئ التنزيل بهما ، والمساوى : العيوب ؛ ساءه كذا يسوءه سوءاً بالفتح ومساءة ومسائية . وسوته سوايةً ومسايةً ، بالتخفيف ، أى ساءه مارآه منى . وسأل سيويهِ الخليل عن « سوائية » ، فقال : هى « فعالية » بمنزلة علانية ، والذين قالوا : « سواية » حذفوا الهمزة تخفيفاً ؛ وهى فى الأصل . قال : وسألته عن « مسائية » ، فقال : هى مقلوبة وأصلها « مساوئة » فكروها الواو مع الهمزة ، والذين قالوا : « مساية » حذفوا الهمزة أيضاً تخفيفاً ؛ ومن أمثالهم : « الخيل تجرى فى مساويها » ؛ أى أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب ، فإن كرمها يحملها على الجرى .

والخازى : جمع مخزاة ؛ وهى الأمر يستحى من ذكره لقبحه .

وأكنافها : جوانبها . وزوى : قبض . وزخارف : جمع زخرف ؛ وهو الذهب ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَى كَنُوزِ الْأَرْضِ وَدُفِعَتْ إِلَى مِفْتَاحِ خَزَائِنِهَا ، فَكَرِهْتُهَا وَاخْتَرْتُ الدَّارَ الْآخِرَةَ » ، وجاء فى الأخبار الصحيحة أنه كان يجوع ويشد حجراً على بطنه . وأنه ما شبع آل محمد من لحْمِ قَطٍّ ، وأن فاطمة وبعلمها وبنيتها كانوا يأكلون خبز الشعير ، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدوها لفطورهم ، وباتوا جوعاً . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله مَلَكَ قطعة واسعة من الدنيا ، فلم يتدنس منها بقليل ولا كثير ؛ ولقد كانت الإبل التى غنمها يوم حُنين أكثر من عشرة آلاف بعير ؛ فلم يأخذ منها وبرةً لنفسه ، وفرّقها كلها على الناس ، وهكذا كانت شيمته وسيرته فى جميع أحواله إلى أن توفى .

والصَّفَاق : الجلد الباطن الذى فوقه الجلد الظاهر من البطن . وشفيفه : رقيقه الذى يستشف ما وراءه ، وبالتفسير الذى فسر عليه السلام الآية فسرها المفسرون ، وقالوا : إن

حضرة البقل كانت تُرى في بطنه من الهزال ، وإنه ماسأل الله إلا أكلة من الخبز . وما في ﴿ لِمَا أُنْزِلَتْ ﴾ بمعنى أى ، أى إني لأى شيء أنزلت إلى ، قليل أو كثير ، غث أو سمين ؛ فقير .

فإن قلت : لم عدى « فقيرا » باللام ، وإنما يقال : « فقير إلى كذا » ؟ قلت : لأنه ضمن معنى « سائل » و « مطالب » ؛ ومن فسر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتج إلى الجواب عن هذا السؤال ، فإن قوما قالوا : أراد : إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلى من خير ، أى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين ؛ فإن ذلك رضا بالبدل السنى ، وفرحاً به وشكراً له .

وتشذب اللحم : تفرقه . والمزامير : جمع مزمارة ؛ وهو الآلة التي يزمّر فيها ، ويقال : زمر يزمّر ويَزْمُر ، بالضم والكسر ؛ فهو زمّار ، ولا يكاد يقال : زامر ؛ ويقال للمرأة : زامرة ، ولا يقال زمّارة ، فأما الحديث أنه نهى عن كسب الزمّارة ، فقالوا : إنها الزانية هاهنا . ويقال : إن داود أعطى من طيب النعم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه ، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته . وقال النبي صلى الله عليه وآله لأبي موسى ، وقد سمعه يقرأ : « لقد أوتيت مزمّاراً من مزامير داود » ، وكان أبو موسى شجى الصوت إذا قرأ . وورد في الخبر : « داود قارئ أهل الجنة » .

وسفائف الخوص : جمع سفيفة ، وهى النسيجة منه ، سففت الخوص وأسففته بمعنى . وهذا الذى ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنه شرح حاله قبل أن يملك فإنه كان فقيراً ، فأما حيث ملك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك .

فأما عيسى لحاله كما ذكرها عليه السلام ، لا ريب في ذلك ، على أنه أكل اللحم وشرب

الحمر ، وركب الحمار وخدمه التلامذة ؛ ولكن الأغلب من حاله هي الأمور التي عددها أمير المؤمنين عليه السلام .

ويقال : حزنني الشيء يحزنني بالضم ؛ ويجوز : «أحزنني» بالهمز يحزنني ، وقرئ بهما ، وهو في كلامه عليه السلام في هذا الفصل بهما .

ويقال : لفته عن كذا ، يلفته بالكسر ، أى صرفه ولواه .

الأصل :

فَتَأْسَ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْمَرِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأْسَى ، وَغَزَاءَ لِمَنْ تَعَزَّى . وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ ، وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ .

قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا ، وَلَمْ يُعْرِهَا طَرْفًا . أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحًا ، وَأَخْصَمُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَبْغَضُ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إِلَّا حُبْنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، لَكُنِيَ بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ تَعَالَى وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جَلَسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ؛ وَيَكُونُ السَّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ : يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ - عَيْبِيهِ عَنِّي ؛ فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا . فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا ، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا ، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مَقَامًا ، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَذْكَرَ عِنْدَهُ ؛ وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِي الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا ؛ إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ ، فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ : أَمْ كَرَّمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ ! فَإِنْ قَالَ : « أَهَانَهُ » فَقَدْ كَذَبَ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ بِالْإِوْكَ الْعَظِيمِ ، وَإِنْ قَالَ : « أَمْ كَرَّمَهُ » فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ ؛ فَتَأَسَّى مُتَأَسِّ بْنِبِيَّهِ ، وَأَقْتَصَّ أَثَرَهُ ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ؛ وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَمًا لِلْسَّاعَةِ ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ ، وَمُنْذِرًا بِالْعُقُوبَةِ ؛ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَيْصًا ، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا ، لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجَرٍ ؛ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ ؛ فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ اللَّهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِدًا نَطُأُ عَقِبَهُ ! وَاللَّهُ لَقَدْ رَفَعَتْ مِدْرَعِي هَذِهِ حَتَّى أُسْتَحْيِيَتْ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ : أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ ! فَمَلْتُ : أَعَزُّبُ عَنِّي ؛ فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِي .

الشَّيْخُ :

المقتصّ لأثره : المتبّع له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ ﴾ (١)
وقضم الدنيا : تناول منها قدر الكفاف ، وما تدعو إليه الضرورة من خشن العيشة .
وقال أبو ذرٍّ رحمه الله : « يَحْضُمُونَ وَنَقِضُ ، والموعود الله ! » . وأصل القضم ، أكلُ الشيء .
اليابس بأطراف الأسنان ، والخصم : أكلٌ بكلِّ الفم للأشياء الرطبة ، وروى : « قَصَمَ »
بالصاد ، أى كسر .

قوله : « أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحَا » الكَشْحُ : الخاصرة ، ورجلٌ أَهْضَمٌ بَيْنَ الْهَضَمِ ؛
إذا كان خميصاً لِقَلَّةِ الْأَكْلِ .

وروى : « وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ » بالتخفيف . والشَّقَاقُ : الخلاف .
والمَحَادَّةُ : المعَاداة . وَخَصَفَ النَّعْلَ : خَرَزَهَا . والرياش : الزينة ، والمِدْرَعَةُ :
الدِّرَاعَةُ .

وقوله : « عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرَى » ؛ مثل يضرب لِحَمَلِ الْمَشَقَّةِ الْعَاجِلَةِ ^(١) ،
رجاء الراحة الآجلة .

[نبذ من الأخبار والآثار الواردة في البعد عن زينة الدنيا]

جاء في الأخبار الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكَلُ
أَكَلَ الْعَبِيدِ ، وَأَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبِيدِ » ؛ وكان يأكل على الأرض ، ويجلس جلوسَ الْعَبِيدِ ،
يضع قَصَبَتِي سَاقِيهِ عَلَى الْأَرْضِ ، ويعتمد عليهما بباطني فَيَخِذِيهِ ، وركوبه الحمار العاري آيَةً
للتواضع وهضم النفس . وإرداف غيره خلفه آكد في الدلالة على ذلك .

وجاء في الأخبار الصحيحة النهي عن التصاوير وعن نصب الستور التي فيها التصاوير ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى سِتْراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس
تلك الصورة .

وجاء في الخبر : « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُفِّ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ ، فَإِذَا قَالَ :
لَا أُسْتَطِيعُ ، عُدَّ » .

(١) وأول من قاله خالد بن الوليد ؛ وانظر مضربه ومورده في الفاخر ١٩٣ .

قوله : « لم يضع حَجَرًا على حَجَر » هو عين ما جاء في الأخبار الصحيحة ، خرَج رسول الله صلى الله عليه وآله من الدنيا ولم يضع حَجَرًا على حجر .

وجاء في أخبار عليٍّ عليه السلام التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله ، وهو روايتي عن قريش بن السبيع بن المهنا العلوي ، عن نقيب الطالبين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمر ، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيرفي المعروف بابن الطيورى ، عن محمد بن علي بن محمد بن يوسف العلاف المزني ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان ابن مالك القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله ، قال : قيل لعلي عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، لم ترفع قميصك ؟ قال : ليخشع القلب ، ويقتدى بي المؤمنون .

وروى أحمد رحمه الله أن عليا كان يطوف الأسواق مؤتزرًا بإزار ، مرتديا برداء ، ومعه الدرّة كأنه أعرابي بدوي ، فطاف مرّة حتى بلغ سوق الكرايس ، فقال لواحد : يا شيخ ، بعني قميصًا تكون قيمته ثلاثة دراهم ، فلما عرفه الشيخ لم يشتري منه شيئًا ، ثم أتى آخر ، فلما عرفه لم يشتري منه شيئًا ، فأتى غلامًا حدّثًا ، فاشتري منه قميصًا بثلاثة دراهم ، فلما جاء أبو الغلام ، أخبره ، فأخذ درهما . ثم جاء إلى علي عليه السلام ليدفعه إليه ، فقال له : ماهذا ؟ أوقال ماشابه هذا ، فقال : يا مولاي ، إن القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهمين ، فلم يأخذ الدرهم ، وقال : باعني رضاي وأخذ رضاه .

وروى أحمد رحمه الله عن أبي النوار بائع الخيام بالكوفة ، قال : جاءني علي بن أبي طالب إلى السوق ، ومعه غلام له وهو خليفة ، فاشتري مني قميصين ، وقال للغلام : اختر أيهما شئت ، فأخذ أحدهما ، وأخذ علي الآخر ، ثم لبسه ومدّ يده ، فوجد كُمة فاضلة ، فقال : أقطع الفاضل . فقطعته ، ثم كفّه وذهب .

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير ، قال : رأيتُ قميص عليّ عليه السلام الذي أصيب فيه ، وهو كرايس سبيلاني^(١) ، ورأيت دمه قد سال عليه كالدردى^(٢) .

وروى أحمد رحمه الله قال : لما أرسل عثمان إلى عليّ عليه السلام ، وجده مؤتزرا بعباءة ، محتجزاً بعقال ، وهو يهنأ بعيرا له .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية .

(١) الكرايس : ثياب فارسية من القطن ؛ وسبيلاني : لعلها منسوبة إلى سبيلة ، موضع .

(٢) الدردى : مارسب من الزيت في أسفل الإناء .

الفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي .
أَسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ ؛ أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثَمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ ،
مَوْلَدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهَجَرَتُهُ بِطَيْبَةَ ؛ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ ، وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهِ ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ
كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَاْفِيَةٍ . أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ
بِهِ الْبِدَعَ الْمَذْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ . فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمُ كِبَوْتُهُ ، وَيَكُونُ مَا بِهِ إِلَى الْحُزَنِ الطَّوِيلِ
وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ ؛ وَأَتَوْا كُلُّهُمْ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُوَدِّيَّةَ
إِلَى جَنَّتِهِ ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ .

الشَّيْخُ :

بالنور المضيء ، أى بالدين ، أو بالقرآن . وأسرته : أهله . أغصانها معتدلة ، كناية
عن عدم الاختلاف بينهم فى الأمور الدينية . وثمارها متهدلة : أى متدلية ، كناية عن
سهولة اجتناء العلم منها .

وطيبة اسم المدينة ، كان اسمها يثرب ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وآله طيبة ،

ومما أَكْفَرَ النَّاسَ بِهِ يَزِيدَ بَنِ مَعَاوِيَةَ أَنَّهُ سَمَّاها « خَيْثَةَ » ، مراغمة لرسول الله صلى الله عليه وآله .

علا بها ذكره ، لأنه صَلَّى الله عليه وآله إِنَّمَا انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة .

« ودعوة متلافية » أى تتلافى مافسد فى الجاهلية من أديان البشر .

قوله : « وَبَيَّنْ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ » ؛ ليس يعنى أنها كانت مفصولة قبل أن يبينها ، بل المراد : بَيَّنْ بِهِ الْأَحْكَامَ التى هى الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا ؛ لأجل بيانه لها .

والكبوة : مصدر كبا الجواد ، إِذَا عَثَرَ فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ .

والمآب : المرجع . والعذاب الويليل : ذو الوبال وهو الهلاك :

والإِنبَاة : الرجوع . والسبيل : الطريق ، يَذْكُرُ وَيُؤْنِثُ . والقاصدة : ضدَّ الجائرة .

فإن قلت لم عدى القاصدة بـ « إلى » ؟

قلت : لأنها لما كانت قاصدة ، تَضَمَّنَتْ معنى الإِفْضَاءِ إِلَى الْمَقْصَدِ ، فعُدَّها بـ « إلى »

باعتبار المعنى .

الْأَضْلُ :

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا ، وَالْمَنْجَاةُ أَبَدًا ؛ رَهَبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَبَ فَأَسْبَغَ ، وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا ، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا ؛ فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ .

فُغُضُوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ غُومَهَا وَأَشْغَالَهَا ، لِمَا أُيَقِنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ
حَالَاتِهَا ؛ فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّقِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ .
وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ ؛ قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْ صَالَهُمْ ،
وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ،
فَبَدَّلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقْدَهَا ، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لَا يَتَفَاخَرُونَ
وَلَا يَتَنَاسَلُونَ ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ وَلَا يَتَحَاوَرُونَ .

فاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لَشَهْوَتِهِ ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ ؛ فَإِنَّ
الْأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعِلْمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .

الشرح :

المنجاة : مصدر نجا ينجو نجاةً ومنجاة . والنجاة : الناقة يُنَجَّى عليها ؛ قاستعارها هاهنا
لِلطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى ، كَأَنَّهَا كَالْمَطِيَّةِ الْمُرْكُوبَةِ يَخْلُصُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْهَلَكَةِ .

قوله : « رَهَّبَ فَأَبْلَغَ » ؛ الضمير يرجع إلى الله سبحانه ؛ أَيْ خَوْفَ الْمَكْلَفِينَ فَأَبْلَغَ
فِي التَّخْوِيفِ ، وَرَغَبَهُمْ فَأَتَمَّ التَّرغِيبَ وَأَسْبَغَهُ .

ثم أمر بالإعراض عما يسرُّ ويروق من أمر الدنيا ؛ لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُ النَّاسَ
مِنْ ذَلِكَ .

ثم قال : إِنَّهَا أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « حَبِيبُ
الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ » .

قوله : « ففُضُّوا عنكم عباد الله غمومها » ، أى كَفُّوا عن أنفسكم الغمَّ لأجلها والاشتغال
بها ، يقال : غَضَضْتُ فلانا عن كذا أى كَفَفْتُهُ ، قال تعالى : ﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ . (١)
قوله : « فاحذروها حَذَرَ الشفيق الناصح » ، أى فاحذروها على أنفسكم لأنفسكم كما
يحذر الشفيق الناصح على صاحبه ، وكما يحذر المجدَّ الكادح ؛ أى الساعى من خيبة سعيه .
والأوصال : الأعضاء . والمجاورة : المخاطبة والمناجاة ، وروى : « ولا يتجاورون » بالجمع .
وَالْعَلَمَ : ما يستدلُّ به فى المفازة .
وطريق جَدَد ، أى سهل واضح . والسبيل قَصْد ، أى مستقيم .

الأفضل :

ومنه كلام له عليه السلام لبعض أصحابه ، وقد سأله : كيف دفعكم قومكم

عن هذا المقام وأنتم أمم ؟ فقال عليه السلام :

يا أخا بني أسد ! إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينَ ؛ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ ؛ وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةٌ
الصَّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ ؛ وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمْ .

أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ ، وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا ، وَالْأَشْدُونَ بِالرَّسُولِ
صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَوَاطًا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نَفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا
نَفُوسُ آخَرِينَ ؛ وَالْحَكْمُ اللَّهُ ، وَالْمَعُودُ^(١) إِلَيْهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

وَدَعَّ عَنْكَ نَهَبًا صِيحَ فِي حَبْرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ
وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ ابْكَائِهِ ؛ وَلَا غَرَوُ
وَاللَّهِ ؛ فَيَالَهُ خَطْبًا يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ ، وَيُكْثِرُ الْأَوْدَ !

حَاوَلِ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ ، وَسَدِّ فَوَارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ ؛ وَجَدَحُوا
بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرِبًا وَبَيْئًا ، فَإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنَهُمْ مَحْنُ الْبَلَاوَى ، أَجْلَهُمْ مِنَ الْحَقِّ
عَلَى مُحَضِّهِ ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى ، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِمَا يَصْنَعُونَ^(٢) .

(١) المعود ، بسكون العين وفتح الواو ؛ كذا ضبطت في اللسان . وفي النهاية لابن الأثير :
هكذا جاء « المعود » على الأصل ؛ وهو « مفعل » ، من عاد يعود ، ومن حق أمثاله أن تقلب واوه
ألفا ، كالمقام والمراح ، ولكنه استعمله على الأصل .

(٢) سورة فاطر ٨ .

السَّيْرُ :

الوضين : بَطَانُ الْقَتَبِ^(١) ، وحزام السرج ؛ ويقال للرجل المضطرب في أموره : إِنَّهُ لَقَلِقٌ الوضين ؛ وذلك أَنَّ الوضين إذا قلق ، اضطرب القَتَبُ أو الهودَجُ ، أو السَّرجُ وَمَنْ عَلَيْهِ . ويرسل في غير سدد ، أى يتكلم في غير قصد وفي غير صواب ، والسَّدُّ والاستداد : الاستقامة والصواب ، والسديد : الذى يصيب السَّدُّ ، وكذلك المُسَدِّ . واستدَّ الشيء ، أى استقام .

وذِمَامَةُ الصَّهْرِ ، بالكسر ؛ أى حرمة ، هو الذِّمام ، قال ذو الرُّمَّة :
تَكُنْ عَوَاجَةً يَحْزِيكَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ بها الأجرَ أو تُقْضَى ذِمَامَةُ صَاحِبِ^(٢)
ويروى : « مَاتَةَ الصَّهْر » ، أى حرمة ووسيلته ، متَّ إليه بكذا ، وإِنَّمَا قَالَ عليه السلام له : « وَلَكَ بَعْدَ ذِمَامَةِ الصَّهْرِ » ؛ لِأَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشِ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانَتْ أَسَدِيَّةً ؛ وَهِيَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ بْنِ رَبَابِ بْنِ يَعْمَرَ بْنِ صَبْرَةَ بْنِ مَرْثَةَ بْنِ كَثِيرِ غَنَمِ بْنِ دُودَانَ بْنِ أَسَدِ بْنِ خَزِيمَةَ . وَأُمُّهَا أُمِّيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَهِيَ بِنْتُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَالْمَصَاهِرَةُ الْمَشَارُ إِلَيْهَا ، هِيَ هَذِهِ .

ولم يفهم القطب الراوندى ذلك ، فقال فى الشرح : « كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ تَزَوَّجَ فِي بَنَى أَسَدٍ » ، وَلَمْ يَصِبْ ، فَإِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَتَزَوَّجْ فِي بَنَى أَسَدِ الْبَتَّةِ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ أَوْلَادَهُ : أَمَّا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَزَيْنَبُ الْكُبْرَى وَأُمُّ كُلثُومِ الْكُبْرَى ، فَأُمُّهُنَّ فَاطِمَةُ بِنْتُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ^(٣) . وَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَأُمُّهُ خَوْلَةُ بِنْتُ إِيَّاسَ^(٤) بْنِ جَعْفَرٍ ، مِنْ بَنَى حَنِيفَةَ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعَبْدُ اللَّهِ ، فَأُمُّهُمَا لَيْلَى بِنْتُ مَسْعُودِ النَّهْشَلِيَّةِ ، مِنْ تَيْمٍ . وَأَمَّا عَمْرُ وَرَقِيَّةُ

(١) البطان : حزام القتب ؛ وهو الذى يجعل تحت بطن الدابة ، والقتب : رحل صغير على قدر السنام .

(٢) ديوانه ٥٤ .

(٣) فى تاريخ الطبرى : « وَيَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ لَهَا مِنْهُ ابْنٌ آخِرٌ يُسَمَّى مُحَسَّنًا ، تُوُفِيَ صَغِيرًا » .

(٤) فى نسب قريش : « خَوْلَةُ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ قَيْسٍ » .

فأُمُّهُمَا سَبِيَّةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ ، يُقَالُ لَهَا : الصَّهْبَاءُ ، سُبَيْتٌ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ وَإِمَارَةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بَعِينَ التَّمْرِ . وَأُمَّا يَحْيَى وَعَوْنُ فَأُمُّهُمَا أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ الْخُثْعِمِيَّةِ^(١) . وَأُمَّا جَعْفَرُ وَالْعَبَّاسُ وَعَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ^(٢) فَأُمُّهُمْ أُمُّ الْبَنِينَ بِنْتُ حَزَامِ بْنِ خَالِدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْوَحِيدِ مِنْ بَنِي كِلَابٍ . وَأُمَّا رَمْلَةٌ وَأُمُّ الْحَسَنِ فَأُمُّهُمَا أُمُّ سَعِيدِ بِنْتُ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ ، وَأُمَّا أُمُّ كَلْثُومِ الصَّغْرَى وَزَيْنَبِ الصَّغْرَى وَجُمَانَةَ وَمَيْمُونَةَ وَخَدِيجَةَ وَفَاطِمَةَ وَأُمُّ الْكَرَامِ وَنَفِيسَةَ وَأُمُّ سَلَمَةَ وَأُمُّ أَبِيهَا^(٣) وَأَمَامَةُ بِنْتُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِنَّ لِأُمّهَاتِ أَوْلَادِ شَتَّى ؛ فَهَؤُلَاءِ أَوْلَادُهُ ، وَلَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَسَدِيَّةٍ ، وَلَا بَلَغْنَا أَنَّهُ تَزَوَّجَ فِي بَنِي أَسَدٍ ، وَلَمْ يُولَدْ لَهُ ، وَلَكِنْ الرَّائِدِيُّ يَقُولُ مَا يَخْطُرُ لَهُ وَلَا يَحْقُقُ .

وَأَمَّا حَقُّ الْمَسْأَلَةِ ، فَلَأَنَّ لِلْسَّائِلِ عَلَى الْمَسْئُولِ حَقًّا حَيْثُ أَهْلُهُ لِأَنَّهُ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ .
وَالِاسْتِبْدَادُ بِالشَّيْءِ : التَّفَرُّدُ بِهِ . وَالنَّوَطُ : الْإِلْتِصَاقُ . وَكَانَتْ أَثَرَةً ، أَيْ اسْتِثْنَاءً بِالْأَمْرِ وَاسْتِبْدَادًا بِهِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِلْأَنْصَارِ : «سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً» .
وَشَحَّتْ : بَخَلَتْ . وَسَخَّتْ : جَادَتْ ؛ وَيَعْنِي بِالنَّفُوسِ الَّتِي سَخَّتْ نَفْسَهُ ، وَبِالنَّفُوسِ الَّتِي شَحَّتْ ؛ أُمَّا عَلَى قَوْلِنَا فَإِنَّهُ يَعْنِي نَفُوسَ أَهْلِ الشُّورَى بَعْدَ مَقْتَلِ عُمرَ ، وَأُمَّا عَلَى قَوْلِ الْإِمَامِيَّةِ ، فَنَفُوسُ أَهْلِ السَّقِيفَةِ . وَلَيْسَ فِي الْخَبَرِ مَا يَقْتَضِي صَرْفَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ ، فَلِأَوَّلَى أَنْ يَحْمَلَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَأَلُّمِهِ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَمِثْلِهِ إِلَى عُثْمَانَ .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الْحَكْمَ هُوَ اللَّهُ ، وَإِنَّ الْوَقْتَ الَّذِي يَعُودُ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . وَرَوَى : «يَوْمَ» بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ ظَرْفٌ وَالْعَامِلُ فِيهِ «الْمَعْوَدُ» ، عَلَى أَنْ يَكُونَ مُصَدِّرًا .
وَأَمَّا الْبَيْتُ فَهُوَ لِأَمْرِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ الْكِنْدِيِّ ، وَرَوَى أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَسْتَشْهَدْ إِلَّا بِصَدْرِهِ فَقَطْ وَأَتَمَّهُ الرِّوَاةُ .

(١) فِي إِحْدَى رَوَايَاتِ الطَّبْرِيِّ أَنَّهُ أَعْقَبَ مِنْهَا يَحْيَى وَمُحَمَّدًا الْأَصْغَرَ .

(٢) فِي الطَّبْرِيِّ وَنَسَبُ قُرَيْشٍ : «وَعُثْمَانُ» .

(٣) كَذَا فِي الْأَصُولِ ، وَلَمْ تَذْكُرْ فِي الطَّبْرِيِّ ، وَزَادَ : «أُمُّ هَانِيٍّ وَرَمْلَةُ الصَّغْرَى» .

[حديث عن امرئ القيس]

وكان من قصّة هذا الشعر أن امرأ القيس ، لما تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه ، نزل على رجلٍ من جديلة طيّ ، يقال له طريف^(١) بن ملّ ، فأجاره وأكرمه ، وأحسن إليه ، فمدحه وأقام عنده . ثم إنه لم يولّه نصيباً في الجبلين : أجاً وسلّمى ، فخاف ألا يكون له منعة ، فتحول ونزل على خالد بن سدّوس بن أصمغ النّبّهاني ، فأغارت بنو جديلة على امرئ القيس وهو في جوار خالد بن سدّوس ، فذهبوا بإبله ، وكان الذي أغار عليه منهم باعث بن حويص ، فلما أتى امرأ القيس الخبر ، ذكر ذلك لجاره ، فقال له : أعطني رواحلك ألحق عليها القوم ، فأردّ عليك إبلك ، ففعل . فركب خالد في إثر القوم حتى أدركهم ، فقال : يا بني جديلة ، أغرثم على إبل جاري ! فقالوا : ماهولك بجار ، قال : بلى والله وهذه رواحله ، قالوا : كذلك ! قال : نعم ، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ ، وذهبوا بهنّ وبالإبل . وقيل : بل انطوى خالد على الإبل فذهب بها ، فقال امرؤ القيس :

دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثاً مَاحِدِثُ الرِّوَاحِلِ^(٢)
كَانَ دِثَاراً حَلَقَتْ بِلَبُونِهِ عُقَابُ تَنُوفٍ لَا عُقَابُ الْقَوَاعِلِ^(٣)
تَلَعَّبَ بَاعِثُ بِجِيرَانِ خَالِدٍ وَأَوْدَى دِثَارٌ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ^(٤)
وَأَعْجَبَنِي مَشَى الْخُزُقَةِ خَالِدٍ كَمَشَى أَتَانٍ حُلَّتْ بِالْمَنَاهِلِ
أَبَتْ أَجّاً أَنْ تُسَلِّمَ الْعَامَ جَارَهَا فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْهَضْ لَهَا مِنْ مَقَاتِلِ
تَبِيتَ لَبُونِي بِالْقُرْيَةِ أُمَّنَّا وَأَسْرَحُهَا غِبّاً بِأَكْنَفِ حَائِلِ

(١) في الديوان ١٤٢ : « طريف بن مالك » .

(٢) الشعر والخبر في الديوان ٩٤ - ٩٦ . والحجرات : النواحي .

(٣) اللبون : التي لها ألبان .

(٤) باعث : رجل من طيء ؛ وهو ممن أغار عليه .

بنو ثعلب جيرانها ومحاتها وتمنع من رجال سعد ونائل
تلاعب أولاد الوعول رباعها دوين السماء في رموس المجادل
مكللة حمراء ذات أسيرة لها حبك كأنها من وصائل

دثار : اسم راع كان لامرئ القيس . وتنوف والقواعل جبال . والحزقة : القصير
الضخم البطن ، واللبنون : الإبل ذوات الألبان . والقرية : موضع معروف بين الجبلين . وحائل
اسم موضع أيضا . وسعدونائل حيّان من طيء . والرّباع : جمع رُبْع ، وهو ما تُنْتَج في الربيع .
والمجادل : القصور . ومكللة ، يرجع إلى المجادل مكللة بالصخر . والأسيرة : انطريق وكذلك
الحُبْك . والوصائل : جمع وصيلة ، وهو ثوب أمغر^(١) الغزل ، فيه خطوط . والنهب : الغنيمة ،
والجمع النهاب ، والانتهاب مصدر انتهبت المال ، إذا أبحتّه يأخذه من شاء ، والنهبي : اسم
ما أنهب . وحجراته : نواحيه ، الواحدة حجرة ، مثل حجرات رجمرة . وصيح في حجراته
صياح الغارة . والرواحل : جمع راحلة ، وهي الناقة التي تصلح أن تُرْحَل ، أي يشدّ الرّحل
على ظهرها ، ويقال للبعير : راحلة . وانتصب « حديثا » بإضمار فعل ، أي هات حديثا
أو حدّثني حديثا . ويروى : « ولكن حديث » ، أي ولكن مرادى أو غرضى حديث ،
فحذف المبتدأ ، وما هاهنا ، يحتمل أن تكون إبهامية ؛ وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة
زادته إبهاماً وشياعاً ، كقولك : أعطني كتاباً ، تريد أي كتاب كان ، ويحتمل أن تكون
صلة مؤكدة كالتى فى قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾^(٢) .
فأما « حديث » الثانى فقد ينصب وقد يرفع ، فمن نصب أبدله من « حديث » الأول ،
ومن رفع جاز أن يجعل « ما » موصولة بمعنى « الذى » ، وصلتها الجملة ، أى الذى هو
حديث الرواحل ، ثم حذف صدر الجملة كما حذف فى ﴿ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾^(٣)
ويحوز أن تجعل « ما » استفهامية بمعنى « أى » .

(١) المفرد : لون يضرب إلى الحمرة .

(٢) سورة النساء ١٥٥ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٤

ثم قال : « وهلم الخطب » ، هذا يقوَّى رواية مَنْ روى عنه أنه عليه السلام لم يستشهد إلا بصدر البيت ، كأنه قال : دع عنك ماضى وهلم مانحن الآن فيه من أمر معاوية ، فجعل « هلم مانحن فيه من أمر معاوية » قائما مقام قول امرئ القيس

* وَلَكِنْ حَدِيثًا مَحْدِثُ الرَّوَاحِلِ *

وهلم ، لفظ يستعمل لازما ومتعدِّيا ، فاللازم بمعنى « تعال » ، قال الخليل : أصله « لم » من قولهم : « لم الله شعته » أى جمعه ، كأنه أراد « لم نفسك إلينا » أى اجمعها واقرب منا ، وجاءت « ها » للتنبيه قبلها ، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة ، يستوى فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكر فى لغة أهل الحجاز ، قال سبحانه : ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ^(١) ، وأهل نجد يصرفونها فيقولون للثنين : « هلمّا » وللجمع : « هلمّوا » وعلى ذلك . وقد يوصل إذا كان لازما باللام ، فيقال : هلمّ لك ، وهلمّ لكما ، كما قالوا : هيت لك ، وإذا قيل لك : هلمّ إلى كذا أى تعال إليه ، قلت : لا أهلمّ مفتوحة الألف والهاء مضمومة الميم ، فأما التعدية فهى بمعنى « هات » ، تقول : هلمّ كذا وكذا ، قال الله تعالى : ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ ^(٢) ، وتقول لمن قال لك ذلك : لا أهلمّه ، أى لا أعطيكه ، يأتى بالهاء ضمير المفعول لتمييز من الأولى .

يقول عليه السلام : ولكن هات ذكر الخطب ، فحذف المضاف . والخطب : الحادث الجليل ؛ يعنى الأحوال التى أدّت إلى أن صار معاوية منازعا فى الرئاسة ، قائما عند كثير من الناس مقامه ، صالحا لأن يقع فى مقابلته ، وأن يكون ندا له .

ثم قال : « فلقد أضحكنى الدهر بعد إبكائه » ، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ سلف عليه ؛ فلم يقنع الدهر له بذلك ، حتى جعل معاوية نظيره له ؛ فضحك عليه

(١) سورة الأحزاب ١٨ .

(٢) سورة الأنعام ١٥٠ .

السلام مما تحكّم به الأوقات ، وبقتضيه تصرف الدهر وتقلّبه ؛ وذلك ضحك
تعجب واعتبار .

ثم قال : « ولا غرّو الله » ، أى ولا عجب والله .

ثم فسّر ذلك فقال : ياله خطباً يستفرغ العجب ! أى يستنفده ويُفنيه ، يقول : قد صار
العجب لا عجب ، لأنّ هذا الخطب استغرق التعجب ؛ فلم يبق منه ما يطلق عليه لفظ
التعجب ؛ وهذا من باب الإغراق والمبالغة في المبالغة ، كما قال أبو الطيب :

أسفني على أسفي الذي دلّمتني عن علمه فيه على خفاء^(١)
وشكيتي فقد السقام لأنّه قد كان لما كان لي أعضاء

وقال ابن هاني المغربي :

قد سرت في الميدان يوم طرادهم فعجبت حتى ردت ألا أنجماً^(٢)
والأود : العوج .

ثم ذكر تمالؤ قر يش عليه ، فقال : حاول القوم إطفاء نور الله من مصباحه ، يعنى
ما تقدّم من مناظرة طلحة والزبير وأصحابهم ، وما شفع ذلك من معاوية وعمر وشيعتهما .
وفوّار الينبوع : ثقب البئر .

قوله : « وجدحوا بيني وبينهم شرباً^(٣) » ، أى خلطوه ومزجوه وأفسدوه .

والوبىء : ذو الوباء والمرض ؛ وهذا استعارة ، كأنّه جعل الحال التي كانت بينه وبينهم
قد أفسدها القوم ، وجعلوها مَظِنَّة الوباء والسّم ، كالشرب الذي يخلط بالسّم أو بالصبر
فيفسد ويوبىء .

(١) ديوانه ١ : ١٤ .

(٢) ديوانه ٨١ (طبعة المعارف) .

(٣) الشرب : النصيب من الماء .

ثم قال : فإن كشف الله تعالى هذه الحنّ التي يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين ، وحصل لى التمكن من الأمر ، حملتهم على الحقّ المحض الذى لا يمازجه باطل ، كاللبن المحض الذى لا يخالطه شىء من الماء ، وإن تَكُنْ الأخرى ، أى وإن لم يكشف الله تعالى هذه الغمة وميت أو قتلت - والأمور على ما هى عليه من الفتنة ودولة الضلال - فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ والآية من القرآن العزيز^(١) .

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوى نقيب البصرة ، وقت قراءتى عليه ، عن هذا الكلام ، وكان رحمه الله على ما يذهب إليه من مذهب العلوية منصفاً وافر العقل ، فقلت له : مَنْ يعنى عليه السلام بقوله : « كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين ؟ » ومن القوم الذين عناهم الأسدى بقوله : « كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأتم أحق به ؟ » هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة ؛ فقلت : إن نفسى لا تسامحنى أن أنسب إلى الصحابة عصيان رسول الله صلى الله عليه وآله ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحنى أيضاً نفسى أن أنسب الرسول صلى الله عليه وآله إلى إهمال أمر الإمامة ، وأن يُترك الناس فوضى سُدَى مهملين ؛ وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلا ويؤمّر عليها أميراً وهو حىّ ليس بالبعيد عنها ، فكيف لا يؤمّر وهو ميت لا يقدر على استداراك ما يحدث !

ثم قال : ليس يشكّ أحدٌ من الناس أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان عاقلاً كاملاً العقل ، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم ؛ وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة ، شديد الرأى ، أقام ملّة ، وشرّع شريعة ، فاستجدّ ملكاً عظيماً بعقله وتديبره ؛ وهذا الرجل العاقل الكامل يعرف طباع العرب وغرائزهم وطلبهم بالثارات والذّحول ؛ ولو بعد الأزمان المتطاولة . ويقتل الرجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر ،

فلا يزال أهل ذلك المقتول وأقاربه يتطلبون القاتل ليقتلوه ؛ حتى يدركوا ثأرهم منه ؛ فإن لم يظفروا به قتلوا بعض أقاربه وأهله ، فإن لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدينين . والإسلام لم يُحِلْ طبائعهم ، ولا غير هذه السجية المركوزة في أخلاقهم ، والغرائز بحالها ، فكيف يتوهم لبيب أن هذا العاقل الكامل وتر العرب ، وعلى الخصوص قریشاً ، وساعده على سفك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضعائن ابن عمه الأدنى وصهره ، وهو يعلم أنه سيموت كما يموت الناس ، ويتركه بعده وعنده ابنته ، وله منها ابنان يجران عنده تجرّى ابنين من ظهره حنواً عليهما ، ومحبة لهما ، ويعدل عنه في الأمر بعده ، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه ، فيحقن دمه ودم بنييه وأهله باستخلافه ! ألا يعلم هذا العاقل الكامل ؛ أنه إذا تركه وترك بنييه وأهله سوقة ورعية ؛ فقد عرض دماءهم للإراقة بعده ؛ بل يكون هو عليه السلام هو الذي قتله ، وأشاط^(١) بدمائهم ، لأنهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميمهم ؛ وإنما يكونون مضغةً للآكل ، وفريسةً للمفتري ، يتخطفهم الناس ، وتبلغ فيهم الأغراض ! فأمّا إذا جعل السلطان فيهم ، والأمر إليهم ؛ فإنه يكون قد عصمهم وحقن دماءهم بالرياسة التي يصولون بها ، ويرتدع الناس عنهم لأجلها . ومثل هذا معلوم بالتجربة . ألا ترى أن ملك بغداد أو غيرها من البلاد لو قتل الناس ووترهم ، وأبقى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه ، ثم أهمل أمر ولده وذريته من بعده ، وفسح للناس أن يقيموا ملكاً من عرضهم ، وواحداً منهم ، وجعل بنييه سوقة كبعض العامة ، لكان بنوه بعده قليلاً بقاءهم ، سريعاً هلاكهم ، ولوثب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتّرات من كلّ جهة ، يقتلونهم ويشرّدونهم كلّ مشرّد . ولو أنه عيّن ولداً من أولاده للملك ، وقام خواصه وخدمه وخوّله بأمره بعده ، لحققت دماء أهل

(١) أشاط بدمائهم : أهدرها أو عمل على هلاكها .

بَيْتِهِ ، ولم تطل يد أحد من الناس إليهم لغاموس الملك ، وأبهة السلطنة ، وقوة الرياسة ،
وحرمة الإمارة !

أفترى ذهب عن رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى ؛ أم أحب أن يُستأصل
أهله وذريته من بعده ! وأين موضع الشفقة على فاطمة العزيزة عنده ، الحبيبة
إلى قلبه !

أقول : إنه أحب أن يجعلها كواحدة من فقراء المدينة ، تتكفف الناس ، وأن يجعل
عليها ، المكرم المعظم عنده ، الذي كانت حاله معه معلومة ، كأبي هريرة الدؤسي وأنس
ابن مالك الأنصاري ، يحكم الأمراء في دمه وعرضه ونفسه وولده ، فلا يستطيع الامتناع ،
وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول ؛ تتلظى أكباد أصحابها عليه ، ويودّون أن يشربوا دمه
بأفواههم ، ويأكلوا لحمه بأسنانهم ؛ قد قتل أبناءهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامهم ، والعهد
لم يطل ، والقروح لم تتقرّف^(١) ، والجروح لم تندمل !

فقلت له : لقد أحسنت فيما قلت ، إلا أن لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن
نصّ عليه ، ألا تراه يقول : « ونحن الأغلون نسباً ، والأشدّون بالرسول نوّطاً » ، فجعل
الاحتجاج بالنسب وشدة القرب ؛ فلو كان عليه نصّ ، لقال عوض ذلك : « وأنا المنصوص
على ، المخطوب باسمي » .

فقال رحمه الله : إنما أتاه من حيث يعلم ، لامن حيث يجهل ؛ ألا ترى أنه سأل ،
فقال : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام ، وأتم أحقّ به ؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه ؛ وهم
أحقّ به من جهة اللحم والعثرة ؛ ولم يكن الأسديّ يتصور النصّ ولا يعتقده ، ولا يخطر
بباله ، لأنّه لو كان هذا في نفسه ، لقال له : لم دفعك الناس عن هذا المقام ، وقد نصّ عليك
رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولم يقل له هذا ، وإنما قال كلاماً عاماً لبني هاشم كافة :

(١) تقرّف الجرح : طلعت فوقه قشرة ، أى شارف البرء .

كيف دفعكم قومكم عن هذا وأتم أحق به ! أى باعتبار الهاشمية والقربى. فأجابه بجواب أعاد قبله المعنى الذى تعلق به الأسدى بعينه ؛ تمهيدا للجواب ، فقال : إنما فعلوا ذلك مع أننا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنهم استأثروا علينا ، ولو قال له : أنا المنصوص على ، والمحطوب باسمى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما كان قد أجابه ، لأنه ماسأله : هل أنت منصوص عليك أم لا ؟ ولا هل نص رسول الله صلى الله عليه وآله عليه بالخلافة على أحد أم لا ؟ وإنما قال : لم دفعكم قومكم عن الأمر وأتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم ؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤال ويلائمه أيضاً ، فلو أخذ يصرح له بالنص ، ويعرفه تفاصيل باطن الأمر لنفر عنه ، واتهمه ولم يقبل قوله ، ولم ينجذب إلى تصديقه ؛ فكان أولى الأمور فى حكم السياسة وتدير الناس ؛ أن يجيب بما لا نفرة منه ، ولا مطعن عليه فيه .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ ، وَمُسِيلِ الْوِهَادِ ، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ ؛
لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ ، وَلَا لِآزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ ؛ هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ ، وَالْبَاقِي بِلاَ أَجَلٍ .
خَرَّتْ لَهُ الْجَبَاهُ ، وَوَحَّدَتْهُ الشُّفَاهُ . حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهَا مِنْ شَبْهَيْهَا ،
لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ ؛ لَا يُقَالُ لَهُ : « مَتَى » ؟
وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمْدٌ ؛ « حَتَّى » ؛ الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ : « مِمَّ » ؟ وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ : « فِيمَ » ؟

لَا شَبْحٌ فَيُتَقَصَّى ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُخَوَى . لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتِّصَاقِ ، وَلَمْ
يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصٌ لِحُظَّةٍ ، وَلَا كُرُورٌ لَفُظَةٍ ،
وَلَا اِزْدِلَافُ رَبَوَةٍ ، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ . فِي كَيْلٍ دَاجٍ ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ ، يَتَفَقَّأُ
عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأَفْوَلِ وَالْكُرُورِ ، وَتَقْلِبُ الْأُزْمِنَةَ
وَالدُّهُورَ ؛ مِنْ إِقْبَالٍ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَإِدْبَارٍ نَهَارٍ مُذِيرٍ .

قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُّهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ
صِفَاتِ الْأَقْدَارِ ، وَنِهَائَاتِ الْأَقْطَارِ ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَّاكِينِ . فَالْحَدُّ لِحُلُقِهِ
مَضْرُوبٌ ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ .

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَزَلِيَّةٍ ، وَلَا مِنْ أَوَائِلٍ أَبَدِيَّةٍ ؛ بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ

حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ .
لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ . . عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ
كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى .

الشَّرْحُ :

المهاد هنا : هو الأرض ؛ وأصله الفراش : وساطحه : باسطه ؛ ومنه تسطيح القبور خلاف
تَسْدِيمِهَا ؛ ومنه أيضا الْمِسْطَحُ ؛ للموضع الذي يَبْسُطُ فيه التَّمْرُ لِيَجْفَأَ .
والوهاد : جمع وَهْدَةٍ ؛ وهي المكان المَطْمئن . ومسيلها : مجرى السَّيْلِ فيها . والنَّجاد :
جمع نَجْدٍ ، وهو ما ارتفع من الأرض . ومخصبها : مروّضها وجاعلها ذوات خِصْب .

[مباحث كلامية]

واعلم أنّه عليه السلام أوردَ في هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد ، وكلّها مبنية على
ثلاثة أصول :

الأصل الأول : أنّه تعالى واجب الوجود لذاته ، ويتفرّع على هذا الأصل فروع :

أولها : أنّه ليس لأوّلِيّته ابتداء ، لأنّه لو كان لأوّلِيّته ابتداء ، لكان محدثاً ، ولا شيء من
المحدث بواجب الوجود ، لأنّ معنى واجب الوجود ، أنّ ذاته لا تقبل العدم ، ويستحيل
الجمع بين قولنا : هذه الذات محدثة ، أي كانت معدومة من قبل ، وهي في حقيقتها
لا تقبل العدم .

وثانيها : أنه ليس لأزليته انقضاء ، لأنه لو صحَّ عليه العدم لكان لعدمه سبب ، فكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه ، والمتوقف على غيره ، يكون ممكن الذات ، فلا يكون واجب الوجود . وقوله عليه السلام : « هو الأول لم يزل ، والباقي بلا أجل » تكرار لهذين المعنيين السابقين على سبيل التأكيد ، ويدخل فيه أيضاً قوله : « لا يقال له متى ، ولا يضرب له أمد بحتى » ؛ لأن « متى » للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان ، و « حتى » للغاية وواجب الوجود لا غاية له : ويدخل أيضاً فيه قوله : « قبل كل غاية ومدة ، وكل احصاء وعدة » .

وثالثها : أنه لا يشبه الأشياء البتة ، لأن ما عداه إما جسم أو عرض أو مجرد ، فلو أشبه الجسم أو العرض لكان إما جسماً أو عرضاً ؛ ضرورة تساوى المتشابهين المتماثلين في حقائقهما . ولو شابه غيره من المجردات - مع أن كل مجرد غيره ممكن - لكان ممكناً ، وليس واجب الوجود بممكن ، فيدخل في هذا المعنى قوله عليه السلام : « حدّ الأشياء عند خلقه لها ، إبانة لها من شبهها » ، أى جعل المخلوقات ذوات حدود لتمييز هو سبحانه عنها ، إذ لا حدّ له ، فبطل أن يشبهه شيء منها . ودخل فيه قوله عليه السلام : « لا تقدّر الأوهام بالحدود والحركات ، ولا بالجوارح » . والأدوات : جمع أداة وهى ما يعتمد به ، ودخل فيه قوله : « الظاهر فلا يقال : مم ؟ أى لا يقال : من أى شيء ظهر ، و « الباطن فلا يقال : « فيم » ، أى لا يقال فيما ذا بطن ؟ ويدخل فيه قوله : « لا شبح فيتقصى » والشبح : الشخص ، ويتقصى يطلب أقصاه . ويدخل فيه قوله : « ولا محبوب فيحوى » ، وقوله : « لم يقرب من الأشياء بالتصاق ، ولم يبعد عنها بافتراق » ؛ لأن هذه الأمور كلها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها . ويدخل فيه قوله عليه السلام : « تعالى عما ينحله المحدثون من صفات الأقدار » ؛ أى مما ينسب إليه المشبهة والمجسمة من صفات المقادير ، وذوات المقادير .

ونهايات الأقطار، أى الجوانب . وتأثّل المساكن ، مجدّ مؤثّل ، أى أصيل، ويبت مؤثّل ، أى معمور ؛ وكأنّ أصل الكلمة أن تبنى الدار بالأثّل ، وهو شجر معروف . وتمكّن الأماكن : ثبوتها واستقرارها . وقوله : « فالحّدّ لخلقه مضروب ، وإلى غيره منسوب » ، وقوله : « ولاله بطاعة شيء انتفاع » ، لأنّه إنّما ينتفع الجسم الذى يصحّ عليه الشهوة والنفرة ؛ كلّ هذا داخل تحت هذا الوجه .

الأصل الثانى : أنّه تعالى عالم لذاته ، فيعلم كلّ معلوم ، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام : « لا تخفى عليه من عباده شخوص لحظة » ؛ أن تسكن العين فلا تتحرك . ولا كزور لفظة ، أى رجوعها . ولا ازدلاف ربوة ، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض ، وهى الموضع المرتفع . ولا انبساط خطوة . فى ليل داج ، أى مظلم . ولا غسق ساج ، أى ساكن .

ثم قال : « يتفياً عليه القمر المنير » ، هذا من صفات الغسق ، ومن تتمّة نعته ؛ ومعنى : « يتفياً عليه » يتقلّب ذاهباً وجائياً فى حالتيّ أخذه فى الضوء إلى التبدّر ، وأخذه فى النقص إلى الحاق .

وقوله : « وتعقبه » ، أى وتتعقبه ، فحذف إحدى التاءين ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾^(١) ؛ أى « تتوفّاهم » ، والهاء فى « وتعقبه » ترجع إلى القمر ، أى وتسير الشمس عقبه فى كروره . وأفوله ، أى غيوبته ، وفى تقليب الأزمنة والدهور ، من إقبال ليلٍ وإدبار نهار .

فإن قلت : : إذا كان قوله : « يتفياً عليه القمر المنير » في موضع جرّ ، لأنه صفة « غسق » ، فكيف تتعقب الشمس القمر مع وجود الغسق ؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق ؟

قلت : لا يلزم من تعقب الشمس للقمر ثبوت الغسق ؛ بل قد يصدق تعقبها له ويكون الغسق معدوما ، كأنه عليه السلام قال : « لا يخفى على الله حركة في نهار ولا ليل ، يتفياً عليه القمر ، وتعقبه الشمس » ، أى تظهر عقيقه ، فيزول الغسق بظهورها . وهذا التفسير الذى فسّرناه يقتضى أن يكون حرف الجر وهو « فى » التى فى قوله : « فى الكرور » متعلقا بمحذوف ، ويكون موضعه نصباً على الحال ، أى وتعقبه كارتاً وآفلاً . ويدخل تحته أيضاً قوله عليه السلام : « علمه بالأموات الماضين ، كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بمانى السموات العلا ، كعلمه بمانى الأرضين السفلى » .

الأصل الثالث : أنه تعالى قادر لذاته ، فكان قادراً على كل الممكنات ، ويدخل تحته قوله : « لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة ، ولا من أوائل أبدية » ، بل خلق ما خلق فأقام حدّه ، وصوّر ماصوّر فأحسن صورته » ، والردّ فى هذا على أصحاب الهوى والطينة التى يزعمون قديمها . ويدخل تحته قوله : « ليس لشيء امتناع » ، لأنّه متى أراد إيجاد شيء أوجده ، ويدخل تحته قوله : « خرّت له نجباء » ، أى سجدت . و« وحدته الشفاء » ، يعنى الأفواه ، فعبر بالجزء عن الكل مجازاً ؛ وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة خلّقه أصول النعم . كالحياة والقدرة والشهوة .

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذى بانّ به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب فى زمانه قاطبة

واستحقّ به التقدّم والفضل عليهم أجمعين ؛ وذلك لأنّ الخاصّة التي يميّز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم ، ألا ترى أنّه يشاركه غيره من الحيوانات في اللّحميّة والدمويّة والقوّة والقدرة ، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار ، فليس الامتياز إلا بالقوّة الناطقة ، أي العاقلة العالمة ؛ فكلمّا كان الإنسان أكثر حظاً منها ، كانت إنسانيّته أتمّ ؛ ومعلوم أنّ هذا الرّجل انفرد بهذا الفنّ ، وهو أشرف العلوم ، لأنّ معلومه أشرف المعلومات ، ولم يُنقل عن أحدٍ من العرب غيره في هذا الفنّ حرف واحد ، ولا كانت أذهانهم تصلُ إلى هذا ، ولا يفهمونه بهذا الفنّ فهو^(١) منفرد فيه ، وبغيره من الفنون — وهي العلوم الشرعيّة — مشاركتهم ، وراجع^(٢) عليهم ؛ فكان أكملّ منهم ، لأنّا قد بيّنا أنّ الأعم أدخلُ في صورة الإنسانيّة ؛ وهذا هو معنى الأفضليّة .

الأفضل :

منها :

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ ؛ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ .
بَدِثْتَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ؛ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلٍ
مَقْسُومٍ ؛ تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تُحِيرُ دُعَاءً ، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً . ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ
مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ؛ وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا ؛ فَمَنْ هَذَاكَ لَا جِتْرَارِ الْفِذَاءِ مِنْ
تَدْيِ أُمِّكَ ، وَحَرَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ !

هَيْهَاتَ ! إِنْ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ ؛ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ
أَعْجَزُ ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ .

(٢) ١ ، ب : « وأرجح » ، وما أثبتته من ج ، د

(١٧ - نهج - ٩)

(١) ساقطة من ب

الشَّيْخُ :

السَّوَى : المستوى الخالقة غير ناقص ، قال سبحانه : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ^(١) .
والمُنشَأ ، مفعول من « أنشأ » أى خُلِق وأُوجِد . والمرعى : المحوط المحفوظ .

وظلمات الأرحام ، ومضاعفات الأستار : مستقرّ النطف ، والرَّحِم موضوعة فيما بين
المثانة والمعى المستقيم ؛ وهى مربوطة برباطات على هيئة السلسلة ، وجسمها عصبى ؛ ليمكن
امتدادها واتساعها وقت الحاجة إلى ذلك عند الولادة ، وتنضم وتقلص إذا استغنى عن
ذلك ؛ ولها بطنان يتهيان إلى فم واحد ، وزائدتان يسميان قرينى الرحم ؛ وخلف هاتين
الزائدتين بيضتا المرأة ؛ وهما أصغر من يبيضى الرجل ، وأشدّ تفرطحاً ، ومنهما ينصب مَنى
المرأة إلى تجويف الرَّحِم ؛ وللرَّحِم رَقَبَةٌ منتهية إلى فرج المرأة ، وتلك الرقبة من المرأة
بمنزلة الذَّكر من الرجل ؛ فإذا امتزج مَنى الرجل بمنى المرأة فى تجويف الرَّحِم كان العلوق ،
ثم ينمى ويزيد من دم الطَّمث ، ويتصل بالجنين عروق تأتى إلى الرَّحِم فتغذوه ، حتى يتم
ويكمل ، فإذا تم لم يكتف بما تحته من تلك العروق فيتحرك حركاتٍ قوية ، طلباً للغذاء ،
فتنهتك أربطة الرَّحِم التى قلنا إنها على هيئة السلسلة ؛ وتكون منها الولادة .

قوله : « بُدِئت من سُلالة من طين » ، أى كان ابتداء خلقك من سُلالة ؛ وهى
خلاصة الطين ، لأنها سُلت من بين السَّكدر ، و « فَعَالَةٌ » بناء للقلّة ، كالقلامة والقمامة .
وقال الحسن : هى ما بين ظَهْر آبَى الطَّين .

ثم قال : « ووضعت فى قرار مكين » ، الكلام الأوّل لأدم الذى هو أصل البشر ،
والثانى لذريّته ، والقرار المكين : الرَّحِم متمكنة فى موضعها برباطاتها ، لأنها لو كانت متحركة
لتعذر العلوق .

ثم قال : « إلى قَدَرِ معلوم ، وأَجَلٍ مقسوم » ، إلى متعلّقة بمخذوف ، كأنه قال : « منتهيا إلى قَدَرٍ معلوم » أى مقدّراً طولُه وشكلُه إلى أجلٍ مقسوم مدّة حياته .

ثم قال : « تمور في بطنِ أمّك » ، أى تتحرّك . لا تُحير ، أى لا ترجع جواباً ، أحرار يُحير .

إلى دار لم تشهدها ؛ يعنى الدنيا ؛ ويقال : أشبه شيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التى بعد الموت ؛ انتقالُ الجنين من ظلمة الرّحم إلى فضاء الدنيا ؛ فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلا الدّار التى هو فيها ، ولا يشعر بما وراءها ، ولا يحسّ بنفسه إلّا وقد حصّل فى دارٍ لم يعرفها ، ولا تخطرُ بباله ، فبقى هو كالحائر المبهوت ؛ وهكذا حالنا فى الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت .

ولقد أحسن ابن الرومىّ فى صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله :

لَمَّا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بَكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يَوْلَدُ^(١)
وإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لِأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَّ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يَهْدُدُ

قال : « فَمَنْ هَذَا إلى اجترارِ الغدّاء من ثُدَىِ أمّك ؟ » ، اجترار : امتصاص اللبن من الثدي ؛ وذلك بالإلهام الإلهى .

قال : « وعرفتُك عند الحاجة » ، أى أعلمك بموضع الحلمة عند طلبك الرضاع فالتقمّتها بفمك .

ثم قال : « هيهات » ، أى بعد أن يحيط علما بالخالق من عجز عن معرفة المخلوق !

قال الشاعر :

رَأَيْتُ الْوَرَى يَدْعُونَ الْهُدَى	وَ كَمْ يَدْعِي الْحَقَّ خَلْقٌ كَثِيرُ
وَمَا فِي الْبَرَايَا أَمْرٌ وَعِنْدَهُ	مِنَ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ إِلَّا الْيَسِيرُ
خَفِيَ فَمَا نَالَهُ نَاطِرٌ	وَمَا إِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ مَشِيرُ
وَلَا شَيْءٌ أَظْهَرَ مِنْ ذَاتِهِ	وَكَيْفَ يَرَى الشَّمْسُ أَعْمَى ضَرِيرُ !

الأفضل :

ومنه كلام له عليه السلام لعثمان بن عفان . قالوا : لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وسلكوا إليه ما نضموه على عثمان ، وسألوه مخاطبة عندهم واستغاثهم لهم ، فدخل عليه السلام على عثمان ، فقال :

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ !
مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ !

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ ؛ مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَتُبَلَّغَكَ ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا ، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا ، وَحَبِثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا صَحَبْنَا . وَمَا أُنْأَبِي قُحَافَةً وَلَا أُنْأَبِي الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْخَيْرِ ^(١) مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَيْجَةِ رَحِمٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا ؛ فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ ، فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تَبَصَّرُ مِنْ عَمِّي ، وَلَا تُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ ؛ وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحَةٌ ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ .

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ ؛ هُدًى وَهَدًى ، فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ ، وَأَمَاتَ بِدْعَةَ مَجْهُولَةٍ ؛ وَإِنَّ الشَّنَنَ لَنَيَّرَةُ لَهَا أَعْلَامٌ ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلَامٌ ؛ وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ ؛ فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ ، وَأَحْيَا بِدْعَةَ مَتْرُوكَةٍ ! وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَازِرٌ ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ؛ ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا .

وَإِنِّي أَنشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يُفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا ، وَيَبْثُ الْفِتَنَ فِيهَا ، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجًا ، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرَجًا . فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السَّنِّ ، وَتَقْضَى الْعُمُرُ .

فَقَالَ لَهُ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي ، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ ؛ وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ .

الشَّيْخُ :

نَقَمْتُ عَلَى زَيْدٍ بِالْفَتْحِ ، أَنْقَمَ فَأَنَا نَاقِمٌ ، إِذَا عَتَبْتَ عَلَيْهِ . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ : نَقَمْتُ بِالْكَسْرِ أَيْضًا ، أَنْقَمَ لُغَةً ؛ وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ تَجِيءُ لَازِمَةً وَمَتَعَدِّيَةً ، قَالُوا : نَقَمْتُ الْأَمْرَ أَيْ كَرِهْتَهُ .

وَاسْتَعْتَبْتُ فُلَانًا ؛ طَلَبْتُ مِنْهُ الْعُتْبَى وَهِيَ الرِّضَا ، وَاسْتَعْتَابَهُمْ عُمَانُ طَلَبَهُمْ مِنْهُ مَا يَرْضِيهِمْ عَنْهُ .

وَاسْتَسْفَرُونِي : جَعَلُونِي سَفِيرًا وَوَسِيطًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ : إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَاذَا يَقُولُ لَهُ ! لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَمْرًا يَجْهَلُهُ ، أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ خَاصَّةً . وَهَذَا حَقٌّ ، لِأَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْهَا مَا يَجْهَلُهُ

عثمان ، بل كان أحداث الصبيان ؛ فضلاً عن العقلاء المميزين ، يعلمون وجهي الصواب
واخطأ فيها .

ثم شرع معه في مسألك الملائكة والقول اللين ، فقال : ما سبقناك إلى الصحبة ،
ولا انفردنا بالرَّسُول دونك ، وأنت مثلنا ونحن مثلك .

ثم خرج إلى ذكر الشيخين ، فقال قولاً معناه أنهما ليسا خيراً منك ، فإنك مخصوص
بجودهما بقرب النسب ، يعنى المناقبة وبالصهر ؛ وهذا كلام هو موضع المثل : « يُسِرُّ حَسَنًا
في ارتقاء » ، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما ، لأنَّ العلة التي باعتبارها فضل
عثمان عليهما محققة فيه وزيادة ؛ لأنَّ له مع المناقبة الهاشمية ، فهو أقرب .

والوشيجة : عروق الشجرة . ثم حذر جانب الله تعالى ونبهه على أنَّ الطريق واضحة ،
وأعلام الهدى قائمة ، وأنَّ الإمام العادل أفضلُّ الناس عند الله ، وأنَّ الإمام الجائر شرُّ الناس
عند الله .

ثم روى له الخبر المذكور ، وروى : « ثم يرتبك في قعرها » ، أى ينشب .
وخوفه أن يكون الإمام المقتول الذي يفتح الفتن بقتله ؛ وقد كان رسول الله صلى الله
عليه وآله قال كلاماً هو هذا ، أو يشبه هذا .

ومَرَج الدين ، أى فسد . والسَّيِّئة : ما استاقه العدو من الدواب ، مثل الوسيقة ،
قال الشاعر :

فما أنا إلا مثلُ سَيِّئةِ العِدَا إن استقدمتْ نَجْرُهُ وإنْ جَبَّأتْ عَقْرُهُ^(١)
والجلال ، بالضم : الجليل ، كالطُّوال والطويل ؛ أى بعد السنِّ الجليل ؛ أى
العمر الطويل .

(١) اللسان ١٢ : ٣٣ من غير نسبة .

وقوله : « ما كان بالمدينة فلا أجل فيه ؛ وما غاب فأجله وصول أمرك إليه » ، كلامٌ شريف فصيح ، لأن الحاضر أى معنى لتأجيله ! والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر فى تأخيرهِ ؛ لأنَّ السلطان لا يؤخر أمره .

وقد ذكرنا من الأحداث التى نُقمت على عثمان فيما تقدّم مافيه كفاية ، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى رحمه الله فى " التاريخ الكبير " ، ^(١) هذا الكلام ، فقال : إنَّ نقرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا ، فكتب بعضهم إلى بعض : أن اقدموا ، فإنَّ الجهاد بالمدينة لا بالروم ؛ واستطال الناس على عثمان ، ونالوا منه ؛ وذلك فى سنة أربع وثلاثين ؛ ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذب عنه ولا ينهى ؛ إلا نفرٌ ، منهم زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدى ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ؛ فاجتمع الناس ، فكلّموا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وسألوه أن يكلم عثمان ، فدخل عليه ، وقال له : إنَّ الناس ... وروى الكلام إلى آخره بالفاظه ، فقال عثمان : وقد ^(٢) علمت أنّك لتقولن ^(٣) ما قلت ! أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ، ولأعتبتُ عليك ^(٤) . ولم آت منكراً ، إنما وصلتُ رجماً ، وسددتُ خلةً ، وآويت ضائعاً ، ووليت شبيها بمن كان عمر يوليه ؛ أنشدك الله يا علىّ ، ألا تعلم ^(٥) أنَّ المغيرة بن شعبه ليس هناك ! قال : بلى ، قال : أفلا تعلم أنَّ عمر ولّاه ! قال : بلى ، قال : فلم تلومنى أنَّ ولّيت ابنَ عامر فى رحمه وقرابته ! فقال علىّ عليه السلام : إنَّ عمرَ كان يظأ على صماخ من يوليه ، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة ، وأنت فلا تفعل ؛ ضعفت ورققت على أقربائك .

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ٩٦ ، ٩٧ (الحسينية) .

(٢ - ٢) الطبرى : « قدو الله علمت ليقولن الذى قلت » .

(٣) الطبرى : « ما عنفتك ولا أسلمتك » .

(٤) الطبرى : « هل تعلم » .

[قال عثمان : هم أقر بأوك أيضاً ، فقال عليّ : لعمرى إن رحيم منى لقرية ؛ ولكن الفضل في غيرهم] ^(١) .

فقال عثمان : أفلا تعلم أن عمر ولي معاوية ! فقد وليته . قال عليّ : أنشدك الله ألا تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفاً غلامه له ؟ قال : بلى ، قال : فإن معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس : هذا بأمر عثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغتبر عليه !

ثم قام عليّ ، فخرج عثمان على أثره ، فجلس على المنبر ، فخطب الناس ، وقال : أما بعد ؛ فإن لكل شئ آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرؤونكم ماتحبون ، ويسرون عنكم ماتكرهون ، يقولون لكم وتقولون ؛ أمثال النعمان يتبع أول ناعق ، أحب مواردها إليها البعيد ، لا يشربون إلا نعصاً ولا يردون إلا عكراً . أما والله لقد غبت عن عليّ ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ؛ ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ؛ فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم ، وأوطأتكم كتيفى ، وكفت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم عليّ . أما والله لأنا أقرب ناصراً ، وأعز نفراً ؛ وأكثر عدداً ؛ وأحرى إن قلت : هلم أن يجاب صوتي . ولقد أعددت لكم أقراناً ؛ وكشرت لكم عن نابي ؛ وأخرجتم مني خلقاً لم أكن أحسنه ؛ ومنطقاً لم أكن أنطق به . فكفوا عنى ألسنتكم وطعنكم وعينكم على ولائكم ؛ فما الذى تفقدون من حقكم ! والله ما قصرت عن بلوغ من كان قبلى [يبلغ] ^(٢) ؛ وما وجدتكم تختلفون عليه ؛ فما بالكم ! فقام مروان بن الحكم ، فقال : وإن شئتم حكمنا بيننا وبينكم السيف .

فقال عثمان : اسكت لا سكت ! دعنى وأصحابي ، ما منطقتك في هذا ! ألم أتقدم ^(٣)

إليك ألا تنطق !

فسكت مروان ، ونزل عثمان .

(١) من الطبرى .

(٢) تقدم إليه : أمره .

الأفضل :

ومنه فطنة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقه الطاوس :

ابتدعهم خلقاً عجيباً من حيوان وموات ، وساكن وذى حركات . وأقام من شواهد البينات على لطيف صنعته ، وعظيم قدرته ، ما نقادت له العقول مُعترفةً به ، ومُسَلِّمةً له ، ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته ، وما ذراً من مختلف صور . الأطيوار التي أسكنها أخايد الأرض ، وخروق فجاجها ، ورواسي أعلامها ؛ من ذات أجنحة مختلفة ؛ وهيئات متباينة ؛ مصرفة في زمام التسخير ، ومُرفقة بأجنيحتها في تخارق الجو المنفسح ، والفضاء المنفرج .

كوتها بعد إذ لم تكن ، في عجائب صور ظاهرة ، ورَكَبها في حقائق مفاصل محتجبة ، ومنع بعضها بعبالة خلقه أن يسمو في الهواء خفوفاً ؛ وجعله يدب دفيفاً ؛ ونسقا على اختلافها في الأصابع بلطيف قدرته ، ودقيق صنعته ؛ فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما عس فيه ، ومنها مغموس في لون صبيغ قد طوق بخلاف ما صبيغ به .

الشنخ :

الموات ، بالفتح : مالا حياة فيه . وأرض موات ، أى قفر ، والساكن هاهنا ، كالأرض والجبال . وذو الحركات : كالنار والماء الجاري والحيوان .

وَنَعَتَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَتُهُ ، أَى صَبَّاحَتْ دَلَالَتُهُ ؛ لظهورها كالأصوات المسموعة التي تَعْلَمُ يَقِينًا .

وَأَخَادِيدُ الْأَرْضِ : شَقُوقُهَا ، جَمْعُ أَخْدُودٍ . وَفَجَاجِهَا : جَمْعُ فَجٍّ ؛ وَهُوَ الطَّرِيقُ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ . وَرَوَاسِي أَعْلَامِهَا : أَثْقَالُ جِبَالِهَا .

مَصْرَفَةٌ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ ، أَى هِيَ مَسْخَرَةٌ تَحْتَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ . وَحِقَاقُ الْمَفَاصِلِ : جَمْعُ حُقٍّ ؛ وَهُوَ مَجْمَعُ الْمَفْصِلَيْنِ مِنَ الْأَعْضَاءِ كَالرَّكْبَةِ ؛ وَجَعَلَهَا مُحْتَجِبَةً لِأَنَّهُا مُسْتَوْرَةٌ بِالْجِلْدِ وَاللَّحْمِ .

وَعِبَالَةُ الْحَيَوَانِ : كَثَافَةُ جَسَدِهِ . وَالْخُفُوفُ : سُرْعَةُ الْحَرَكَةِ . وَالْدَفِيفُ لِلطَّائِرِ : طَيْرَانُهُ فَوْقَ الْأَرْضِ ؛ يُقَالُ : عُقَابٌ دَفُوفٌ . قَالَ امْرَأُ الْقَيْسِ يَصِفُ فَرَسَهُ وَيَشَبِّهُهَا بِالْعُقَابِ : كَأَنِّي بَفَتْخَاءِ الْجَنَاحِينَ لِقُوَّةٍ دَفُوفٍ مِنَ الْعُقَابِ طَاطَأَتْ شِمْلَالِي^(١)

وَنَسَقُهَا : رَتَبُهَا . وَالْأَصْبَاغُ : جَمْعُ أَصْبَاغٍ ، وَأَصْبَاغُ جَمْعُ صَبْنٍ . وَالْمَغْمُوسُ الْأَوَّلُ : هُوَ ذُو اللَّوْنِ الْوَاحِدِ كَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ . وَالْمَغْمُوسُ الثَّانِي : ذُو اللَّوْنَيْنِ ، نَحْوُ أَنْ يَكُونَ أَحْمَرَ وَعُنْقَهُ خَضِرًا

وَرَوَى : « قَدْ طَوَّرَقَ لَوْنٌ » أَى لَوْنٌ عَلَى لَوْنٍ ، كَمَا تَقُولُ : طَارَقَتْ بَيْنَ الثَّوْبَيْنِ . فَإِنْ قُلْتَ : مَا هَذِهِ الطَّيُورُ الَّتِي يَسْكُنُ بَعْضُهَا الْأَخَادِيدَ وَبَعْضُهَا الْفِجَاجَ ، وَبَعْضُهَا رِءُوسَ الْجِبَالِ ؟

قُلْتَ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَكَالْقَطَا وَالصَّدَا^(٢) ، وَالثَّانِي كَالْقَبَبِجِ^(٣) وَالطَّيْهُوجِ^(٤) ، وَالثَّلَاثُ كَالصَّقَرِ وَالْعُقَابِ .

(١) دِيَوَانُهُ ٣٨ . الْفَتْخَاءُ : اللَّيْنَةُ الْجَنَاحِينَ . وَالْقُوَّةُ : السَّرِيعَةُ مِنَ الْعَقْيَانِ . وَطَاطَأَتْ : دَانِيَتْ . وَخَفَضَتْ . وَالشِّمْلَالُ : الْخَفِيفَةُ السَّرِيعَةُ .

(٢) الصَّدَا : ذِكْرُ الْبُومِ .

(٣) الْقَبَبِجُ ، وَاحِدُهُ الْقَبِيجَةُ ؛ وَهِيَ أَنْثَى الْحَجَلِ .

(٤) الطَّيْهُوجُ : طَائِرٌ شَبِيهُهُ بِالْحَجَلِ الصَّغِيرِ ، غَيْرُ أَنْ عُنْقَهُ أَحْمَرٌ وَمَنْقَارُهُ وَرِجْلَاهُ حُمْرٌ .

الأضل :

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلَقًا الطَّائِسُ ؛ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْسَنِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصْبَهُ ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ؛ إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأَثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا عَلَى رَأْسِهِ ؛ كَأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيَّهُ . يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيْفَانِهِ . يُفِضِي كَأَفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيُوْزُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمَغْتَلِمَةِ لِلضَّرَابِ . أَحْيَلِكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ . وَلَوْ كَانَ كَزَعْمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتِي جُفُونِهِ ، وَأَنْ أَتَنَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ تَبْيِضُ لَا مِنْ لِقَاحٍ فَخَلَّ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ ؛ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعِمَةِ الْغُرَابِ !

الشَّيْرُخ :

الطاوس : فاعول ، كالهاضوم والكابوس ، وترخيّمه « طُويس » : ونضد : رتب . قوله : « أَشْرَجَ قَصْبَهُ » ، القصب هاهنا : عروق الجناح . وغضاريفه : عظامه الصغار ، وأشرجها : ركب بعضها في بعض كما تُشْرَجُ العيبة ، أى يداخلُ بين أشراجها وهى عُراها واحدها ؛ شَرَجَ ، بالتحريك .

ثم ذكر ذَنَبَ الطَّائِسِ ، وَأَنَّهُ طَوِيلُ الْمَسْحَبِ ، وَأَنَّ الطَّائِسَ إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأَثَى لِلْسَّفَادِ نَشَرَ ذَنَبَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وَعَلَا بِهِ مَرْتَفَعًا عَلَى رَأْسِهِ . وَالْقَلْعُ : شِرَاعُ السَّفِينَةِ ، وَجَمْعُهُ قِلَاعٌ . وَالْدَّارِيُّ : جَالِبُ الْعَطْرِ فِي الْبَحْرِ مِنْ دَارِينَ ؛ وَهِيَ فُرْضَةُ الْبَحْرَيْنِ ، فِيهَا سُوقٌ يَحْمِلُ إِلَيْهَا الْمُسْكُ مِنَ الْهِنْدِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « الْجَلِيسُ الصَّالِحُ كَالدَّارِيِّ » ، إِنْ لَمْ يُحْذِكْ مِنْ عَطْرِهِ عُلِقَ مِنْ رِيحِهِ » ^(١) . قَالَ الشَّاعِرُ :

(١) نهاية ابن الأثير ١ : ٢١١ . لم يحذك : لم يعطك .

إذا التاجر الدَّارِيُّ جاءَ بِفَارَةٍ من المسك رَاحَتٍ في مفارقهم تَجْرَى
والنُّوتَى: الملاح ، وجمعه نواتى

وعَنْجَه : عَطَفَه ، وَعَنْجَت خِطَام البعير ، رددته على رجليه ، أَعْنَجُه بالضم ، والاسم
العَنْج ؛ بالتحريك ؛ وفي المثل « عَوْدٌ يُعَلِّمُ الْعَنْج ^(١) » يضرب مثلاً لتعليم الحاذق .

ويختل ، من الخيلاء وهى العُجْب . ويميس : يتبختر .

وزَيَّافانه : تبختره ، زافَ يزيف ، ومنه ناقة زَيَّافَة ، أى مُخْتَلَة ، قالَ عَنَتَرَة :

* زَيَّافَةٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمَكْدَمِ ^(٢) *

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جرَّ الدُّنَابَى ، ودفع مقدّمه بمؤخره واستدار عليها .

ويفضى : يسفد ، والدِّيَكَة جمع ديك ، كالقِرْطَة والجَحَرَة جمع قُرْط وجُحُر .

ويؤرّ : يسفد ؛ والأرّ الجماع ، ورجل آرّ كثير الجماع ، وملاقحه : أدوات اللقاح
وأعضاؤه ؛ وهى آلات التناسل .

قوله : « أَرَّ الْفُحُول » ، أى أزا مثل أَرَّ الفحول ذات الغلّة والشَّبَق .

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك عن إسناد قد يضعف ويتداخله الطعن ، بل قال ذلك عن
عيان ومشاهدة .

(١) العود : البعير المسن ، وانظر مجمع الأمثال ١ : ١٢

(٢) من المعلقة — بشرح التبريزى ، وصدره :

* يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرِى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ *

ينباع : يفعل من باع يبيع ؛ إذا مرمرنا لينا . والذفران : الجيدان الناثان بين الأذن ومنتهى الشعر .
والجسرة : الضخمة . والزيافة : السرعة . والفنيق : الفحل ، والمكدم ، من الكدم وهو العض . (من
شرح التبريزى) .

فإن قلت : من أين للمدينة طواويس ؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول
أمير المؤمنين عليه السلام : « أحيلك من ذلك على معاينة » ؛ لاسيما وهو يعنى السِّفاد ، ورؤية
ذلك لمن تكثر الطواويس في داره ويطول مكثها عنده نادرة !

قلت : لم يشاهد أمير المؤمنين عليه السلام الطواويس بالمدينة بل بالكوفة ، وكانت
يومئذ تجي إليها ثمرات كل شيء ، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق ، ورؤية المسافدة مع
وجود الذِّكر والأُنثى غير مستبعدة .

واعلم أن قوما زعموا أن الذِّكر تدمع عينه ، فتقف الدمعة بين أجفانه ، فتأتي الأُنثى
فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة ، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك ، ولكنه قال :
ليس بأعجب من مطاعمة الغراب ، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد ؛ ومن أمثالهم : « أخفى
من سِفاد الغراب » ؛ فيزعمون أن اللقاح من مطاعمة الذِّكر والأُنثى منهما ، وانتقال جزء من
الماء الذي في قانصته إليها من منقاره . وأما الحكماء فقل أن يصدقوا بذلك ؛ على أنهم
قد قالوا في كتبهم ما يقرب من هذا ، قالوا في السمك البياض : إن سفاده خفي جدا ، وإنه لم
يظهر ظهوراً يعتد به ويحكم بسببه .

هذا لفظ ابن سينا في كتاب " الشفاء " ، ثم قال : والناس يقولون : إن الإناث تأخذ
زرع الذكور في أفواهها إلى بطونها ، ثم قال : وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة
للزرع ، وأما عند الولادة فإن الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضاها .

قال ابن سينا : والقَبْجَة تحبلها ريح تهب من ناحية الحجل الذِّكر ؛ ومن سماع صوته .
قال : والنوع المسمى مالا قيا ، تتلاصق بأفواهها ، ثم تتشابك ، فذاك سِفادها ؛ وسمعت

أنا أن الغراب يسفد وأنه قد شوهده سفاده ؛ ويقول الناس : إن من شاهد سفاد الغراب
يُثْرَى ولا يموت إلا وهو كثير المال موسر .

والضفّتان ، بفتح الضاد : الجانبان ، وهما ضفتا النهر ، وقد جاء ذلك بالكسر أيضا ،
والفتح أفصح .

والمنبجس : المنفجر : ويسفحها : يصبها ، وروى : «تنشجها مدامع» : من النشيج ، وهو
صوت الماء وغليانه من زق أو حب أو قدر .

الأصل :

تَحَالُ قَصَبُهُ مَدَارِي مِنْ فِصَّةٍ ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ
الْعِيقَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرَجَدِ . فَإِنْ شَبَّهَتْهُ بِمَا أُنْبِتَتْ الْأَرْضُ قُلْتُ : جَنِيٌّ جُنِيٍّ مِنْ زَهْرَةٍ
كُلِّ رَيْبِعٍ ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمُوشَى الْحَلَلِ ، أَوْ كَمُونِي عَصَبِ الْيَمَنِ .
وَإِنْ شَاكَ كَلْتَهُ بِالْحَلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصِ ذَاتِ الْوَانِ قَدْ نُطِقَتْ بِاللَّجِينِ الْمَكَلَّلِ .
يَمْشِي مَشْيَ الْمَرْحِ الْمُخْتَالِ ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ ؛ فَيُقَهِّمُهُ ضَاحِكًا لَجَمَالِ سِرِّ بَالِهِ ،
وَأَصَابِيغِ وَشَاحِهِ ؛ فَإِذَا رَمَى بَبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقًا مُعَوَّلًا بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبَيِّنُ عَنْ
أُسْتِغَاثَتِهِ ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوْجُعِهِ ؛ لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلَاسِيَّةِ .

الشَّرْحُ :

قَصَبُهُ : عظام أجنحته ، والمدارى جمع مدرى ؛ وهو فى الأصل القرن ؛ قال النابغة
يصف الثور والكلاب :

شَكََّ الْفَرِيصَةَ بِالْمَدْرِى فَأَنْفَذَهَا شَكََّ الْمَيْطِرَ إِذْ يَشْفَى مِنَ الْعَضْدِ (١)

(١) ديوانه ٢٠ . شك : أنفذ . الفريصة : بضعة فى مرجع الكتف إلى الخاصرة . والمييطر : البيطار
والعضد : داء يأخذ فى العضد .

وكذلك المِدرّاة ؛ ويقال المِدرّى لشيء كالمِسْلَة تصلحُ بها الماشطة شعور النساء ؛
قال الشاعر :

تَهْلِكُ المِدرّاةُ في أكنافِهِ وَإِذَا مَا أَرْسَلْتَهُ يَعْتَفِرُ^(١)

وتمدّرت المرأة ، أى سرّحت شعرها . شبه عظام أجنحة الطاوس بمدارى من فضة
لبياضها ؛ وشبه ما أنبت الله عليها من تلك الدّارات والشموس الّتي فى الرّيش بخالص
العقيقان ؛ وهو الذهب .

وَفَلَدَ الزَّبْرَجَدُ : جمع فَلْدَة ، وهى القطعة . والزَّبْرَجَدُ : هذا الجوهر الذى تسمّيه
الناس البلخش .

ثم قال : إن شبهته بنبات الأرض قلت : إنه قد جنى من زهرة كلّ ربيع فى الأرض ،
لاختلاف ألوانه وأصباغه .

وإنّ ضاهيته بالملابس ، المضاهاة : المشاكلة ، يهمز ولا يهمز ، وقرئ :
﴿ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(٢) ﴿ وَيُضَاهِئُونَ ﴾ ؛ وهذا ضهى هذا على « فَعِيل » ،
أى شبيهه .

وموشىّ الحُلل : مادّيج بالوشى ؛ وهو الأرقم الملوّن . والعَصَب : بُرود اليمن .
والْحُلَى : جمع حَلَى ؛ وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة ، مثل تُدَى وتُدَى ، ووزنه
« فُعول » ، وقد تكسر الحاء لمكان الياء ، مثل « عَصَى » . وقرئ : ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾^(٣)
بالضمّ والكسر .

ونطقت باللّجين ؛ جعلت الفضة كالنّطاق لها . والمكَلَّل : ذو الإكليل .

(١) اللسان ١٨ : ٢٨٠ (من غير نسبة) .

(٢) سورة التوبة ٣٠

(٣) سورة الأعراف ١٤٨

وزَقَا : صَوَّت ، يَزْقُو زَقْوًا وَزُقِيًّا وَزُقَاءً ، وَكَلَّ صَاحُحُ زَاقٍ . وَالزَّقِيَّة : الصَّيْحَةُ .
وهو أَثْقَلُ مِنَ الزَّوَاقِ ؛ أَى الدَّيْكَة ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُرُونَ ؛ فَإِذَا صَاحَتْ
الدَّيْكَة تَفَرَّقُوا .

وَمُعَوِّلًا : صَارِخًا ، أَعُولَتِ الْفَرَسُ صَوَّتَتْ ، وَمِنْهُ الْعَوِيلُ وَالْعَوَلَةُ .
وَقَوَائِمُهُ حُمَشٌ : دِقَاقٌ ؛ وَهُوَ أَحْمَشُ السَّاقَيْنِ ، وَحُمَشُ السَّاقَيْنِ بِالتَّسْكِينِ ؛ وَقَدْ
حُمِشَتْ قَوَائِمُهُ ، أَى دَقَّتْ . وَتَقُولُ الْعَرَبُ لِلْغُلَامِ إِذَا كَانَتْ أُمُّهُ بَيَاضًا وَأَبُوهُ عَرَبِيًّا : آدَمُ ،
فَجَاءَ لَوْنُهُ بَيْنَ لَوْنَيْهِمَا .

خِلَاسِيَّ ، بِالْكَسْرِ وَالْأَثْنِ خِلَاسِيَّةٌ . وَقَالَ اللَّيْثُ : الدَّيْكَةُ الْخِلَاسِيَّةُ ، هِيَ الْمَتَوْلِدَةُ
مِنَ الدَّجَاجِ الْهِنْدِيِّ وَالْفَارْسِيِّ .

يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ الطَّائِوسَ يَزُهِى بِنَفْسِهِ ؛ وَيَتِيَهُ إِذَا نَظَرَ فِي أَعْطَافِهِ ، وَرَأَى أَلْوَانَهُ
الْمُخْتَلِفَةَ ؛ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى سَاقِيهِ وَجَمَ لَذَلِكَ وَانْكَسَرَ نَشَاطُهُ وَزَهْوُهُ ، فَصَاحَ صِيَاحَ الْعَوِيلِ
لِحَزَنِهِ ؛ وَذَلِكَ لِذِقَّةِ سَاقِيهِ وَتَوَّءِ عُرْقُوبِيَّتِهِ .

الْأَضْلُ :

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صَيْصِيَّةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُرْزَعَةٌ
خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَخَرَجَ عَنْقُهُ كَالْإِبْرِيْقِ ، وَمَغْرَزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصَبْغِ الْوَسْمَةِ
الْيَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِنْ آةِ ذَاتِ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرِ أُسْحَمٍ ؛
إِلَّا أَنَّهُ يُخِيلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ ، وَشِدَّةِ بَرِيْقِهِ ، أَنَّ الْخَضِرَةَ النَّاصِرَةَ مُتَزَجَّةٌ بِهِ ، وَمَعَ فَتَقِ
سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقُّ ؛ فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ

مَا هُنَالِكَ يَا تَلْقُ ، وَقَلَّ صَنِيعُ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ ؛ وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِّيقِهِ ،
وَبَصِصِ دِيْبَاحِهِ وَرَوْقِهِ ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمُبْتُوتَةِ ، لَمْ تُرَبَّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ ،
وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ .

البَّنَج :

نَجَمَتْ : ظهرت . وَالظُّنْبُوت : حَرْفُ السَّاق ؛ وَهُوَ هَذَا الْعَظْمُ الْيَابِسُ .
وَالصَّيْصِيَّةُ فِي الْأَصْلِ : شَوْكَةُ الْحَائِكِ الَّتِي يَسْوِي بِهَا السَّدَاةَ وَاللَّحْمَةَ ،
وَمِنْهُ قَوْلُهُ (١) :

* كَوَقَعَ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمَدْدِ *

وَنَقَلَ إِلَى صِيصِيَّةِ الدِّيكِ لَتِلْكَ الْهَيْئَةِ الَّتِي فِي رِجْلِهِ .
وَالْعُرْفُ : الشَّعْرُ الْمُرْتَفِعُ مِنْ عُنُقِهِ عَلَى رَأْسِهِ . وَالْقُنْزُوعَةُ ، وَاحِدَةُ الْقَنَازِعِ ؛ وَهِيَ الشَّعْرُ
حَوْلَى الرَّأْسِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « غَطَّى عَنَّا قَنَازِعَكَ يَا أَمَّ أَيْمَنَ » (٢) .
وَمَوْشَاةٌ : ذَاتُ وَشَى .

وَالْوَسْمَةُ ، بِكَسْرِ السَّيْنِ : الْعِظْمُ الَّذِي يُخْضَبُ بِهِ ؛ وَيَجُوزُ تَسْكِينُ السَّيْنِ .
وَالْأَسْحَمُ : الْأَسْوَدُ . وَالْمُتَلَفِّعُ : الْمُلْتَحِفُ ، وَيُرْوَى : « مُتَقَنَّعٌ بِمَعْجَرٍ » ؛ وَهُوَ مَا تَشَدُّهُ
الْمَرْأَةُ عَلَى رَأْسِهَا كَالرُّدَاءِ .

وَالْأَقْحَوَانُ : الْبَابُونَجُ الْأَبْيَضُ ؛ وَجَمْعُهُ أَقْلَاحُ .

(١) لَدْرِيدِ بْنِ الصَّعَةِ ، وَصَدْرُهُ :

* خَجَّتْ إِلَيْهِ وَالرَّيْحُ تَنْوُشُهُ *

مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ فِي دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ ٢ : ٣٠٤ - ٣٠٩ بِشَرْحِ التَّهْرِيزِيِّ .
(٢) النِّهَايَةُ لِابْنِ الْأَثِيرِ ٣ : ٢٧٩ ؛ وَلَفْظُهُ هُنَاكَ : « أَنَّهُ قَالَ لِأُمِّ سَلِيمَ : خَضَلِي قَنَازِعَكَ » .

وأبيض يَقَق : خالص البياض ، وجاء : « يَقَق » بالكسر . ويأتلق : يلمع .

والبصيص : البريق ، وبص الشيء : لمع .

وتربها الأمطار : تربها وتجمعها .

يقول عليه السلام : كأنَّ هذا الطائرَ ملتحفٌ بملحفة سوداء ، إلا أنها لكثرة رؤفها يتوهم أنه قد امتزج بها خضرة ناصرة ، وفلَّ أن يكون لون إلا وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب ، فهو كالأزهار الربيع ، إلا أن الأزهار ترببها الأمطار والشموس ؛ وهذا مستغنٍ عن ذلك .

الأفضل :

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى ؛ وَيَنْبُتُ تِبَاعَا ؛
فَيَنْحَتُ مِنْ قَصْبِهِ انْحِتَاتُ أَوْرَاقِ الْأَغْصَانِ ، ثُمَّ يَتَلَاخَقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ
سُقُوطِهِ . لَا يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ ؛ وَإِذَا تَصَفَّحَتْ
شُعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ ، أَرْتَكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجْدِيَّةً ، وَأَحْيَانًا
صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ؛ فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ
الْعُقُولِ ، أَوْ تَسَنَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ ؛ وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامُ أَنْ
تُذَرِّكَهُ ؛ وَالْأَلْسِنَةُ أَنْ تَصِفَهُ !

فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَّاهُ لِلْعُيُونِ ؛ فَأَذَرَ كَتَمَهُ مَحْدُودًا
مُكَوَّنًا ، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا ، وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ
تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ !

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمْجَةَ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيَاتِنِ وَالْفِهْلَةِ !

وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَضْطَرَّ بِشَيْءٍ مِّمَّا أُولِجَ فِيهِ الرُّوحَ ؛ إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ ،
وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ .

الشَّيْخُ :

ينحسر من ريشه : ينكشف فيسقط ، ويروى : « يتحسر » .
تَتَرَى ، أى شيئاً بعد شيء وبينهما فترة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا
تَتَرَى ﴾ ^(١) ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَرْسَلْهُمْ عَلَى تَرَاوُلٍ ، بل بعد فترات ؛ وهذا مما يغلط فيه قومٌ ،
فيعتقدون أن « تَتَرَى » للمواصله والاتصاف . وأصلها الواو من « الوتر » وهو الفرد . وفيها
لعتان ، تنوّن ولا تنوّن ، فمن ترك صَرْفَهَا للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث ، ومن نوّنَهَا
جعل ألفها للإلحاق .

قال عليه السلام : « وينبت تباعاً » أى لافترات بينهما ، وكذلك حال الريش
الساقط ، يسقط شيئاً بعد شيء ، وينبت جميعاً .

وينبت : يتساقط ، وانحطت الورق : تناثرها . وناميا : زائداً . يقول عليه السلام :
إذا عاد ريشه عاد مكان كل ريشة ريشة ملوثة بلون الريشة الأولى ، فلا يتخالف الأوائل
والأواخر .

والخضرة الزبرجدية : منسوبة إلى الزمرد ^(٢) ، ولفظة « الزبرجد » تارة تستعمل له ،
وتارة لهذا الحجر الأحمر المسمى « بلخش » . والعسجد : الذهب . وعمايق الفطن :

(١) سورة المؤمن ٤٤

(٢) في اللسان : « الزبرجد والزبرجد : الزمرد » .

البعيدة القعر . والقريحة : الخاطر والذهن . وبهر : غلب ، وجلاه : أظهره ؛ ويروى
بالتخفيف . وأدمج القوائم : أحكمها ؛ كالحبل المدمج الشديد القتل .

والذرة : النملة الصغيرة . والهامة ، واحدة الهامج ؛ وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط
على وجوه الغنم والحمر وأعينها .
وواى : وعد ، والواى : الوعد .

واعلم أن الحكماء ذكروا في الطاوس أمورا ، قالوا : إنه يعيش خمسا وعشرين سنة^(١) ،
وهي أقصى عمره ، ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما ينتقش لونه ، ويتم ريشه .
ويبيض في السنة مرة واحدة اثنتى عشرة بيضة في ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوما ،
فيفرخ ويلقى ريشه مع سقوط ورق الشجر ، وينبت مع ابتداء نبات الورق .

والدجاج قد يحضن بيض الطاوس ؛ وإنما يختار الدجاج لحضنته ؛ وإن وجدت
الطاوسة ، لأن الطاوس الذكر يعبت بالأنتى ، ويشغلها عن الحضنة ، وربما انقص البيض
من تحتها ؛ ولهذا العلة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذكرانها ، ولا تقوى الدجاجة
على أكثر من بيضتى طاوس . وينبغى أن يتعهد الدجاجة حينئذ بتقريب العلف منها .

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله في كتاب " الحيوان " : إن الطاوسة قد
تبيض من الريح ؛ بأن يكون في سفالة الريح وفوقها طاوس ذكر ، فيحمل ريحه فتبيض
منه ، وكذلك القبجة .

قال : ويبض الريح قل أن يفرخ .

الأصل :

منها في صفه الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا ؛ لَعَرَفْتَ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ
مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَائِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا ، وَلَذَهَلَتْ بِالْفِكْرِ فِي
أَصْطِفَافِ أَشْجَارِ عُيْبَتِ عُرُوقِهَا فِي كُشْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ، وَفِي تَعْلِيقِ
كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرُّطْبِ فِي عَسَالِيحِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الشَّامِ مُخْتَلِفَةٍ فِي غُلْفِ
أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكْلَفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةٍ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نَزَالِهَا فِي
أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ .

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتِمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ الْأَسْفَارِ ؛
فَلَوْ شَغَلَتْ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُضُوءِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُوْتَقَةِ ؛
لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالًا
بِهَا ؛ جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ !

قال الرضى رحمه الله تعالى :

تفسير بعض ما في هذه الخطبة منه الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « يُوْثِرُ بِمَلَاقِحِهِ » الْأَرُّ : كُنَايَةٌ عَنِ النِّكَاحِ ؛ يُقَالُ :
أَرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يُوْثِرُهَا ، إِذَا نَكَحَهَا .

وقوله عليه السلام : « كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوتِيَّهُ » ؛ الْقَلْعُ : شِرَاعُ السَّفِينَةِ .
وَدَارِيٌّ : مَنْسُوبٌ إِلَى دَارَيْنِ ؛ وَهِيَ بَلَدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجْلَبُ مِنْهَا الطَّيْبُ . وَعَنَجَهُ ، أَيْ
عَطَفَهُ ؛ يُقَالُ : عَنَجْتُ النَّاقَةَ ، كَنَصَرْتُ ، أَعْنَجُهَا عَنَجًا إِذَا عَطَفْتُهَا . وَالنُّوتِيُّ : الْمَلَّاحُ .

وقوله عليه السلام : « ضَفَّتْ جُفُونِهِ » ، أراد جَانِبِي جُفُونِهِ ، وَالضَّفَّتَانِ :
الْجَانِبَانِ .

وقوله : « وَفَلَذَ الزَّبْرَجَدِ » ، الْفِلْدُ : جمع فِلْدَةٍ وهى الْقِطْعَةُ .
وقوله عليه السلام : « كَبَائِسُ اللَّوْثِ الرِّطْبِ » الْكِبَاسَةُ : الْعِدْقُ . وَالْعَسَالِيحُ :
الْغُصُونُ ، وَاحِدَهَا عُسْلُوحٌ .

الشَّرْحُ :

رَمِيتَ بِيَصْرٍ قَلْبِكَ ، أى أَفَكَّرْتَ وَتَأَمَّلْتَ . وَعَزَفْتَ نَفْسُكَ : كَرِهْتَ وَزَهَدْتَ .
وَالزُّخَارِفُ : جمع زُخْرَفٍ ؛ وهو الذهب وكلُّ مُمَوِّهٍ .
وَاصْطَفَافُ الْأَشْجَارِ : انتظامها صَفًّا ، وَيُرْوَى : « فى اصْطَفَاقِ أَغْصَانِ »
أى اضْطَرَابِهَا .

وَيَأْتِى عَلَى مُنْيَةٍ مَحْتَنِهَا : لَا يَتْرَكَ لَهُ مُنْيَةٌ أَصْلًا ، لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ بَلَغَ
نَهَايَةَ الْأَمَانِ .

وَالْعَسَلُ الْمَصْفُوقُ : الْمَصْفَى تَحْوِيلًا مِنْ إِنْاءَ إِلَى إِنْاءَ . وَالْمَوْقَةُ : الْمَعْجِبَةُ . وَزَهَقَتْ
نَفْسُهُ : مَاتَ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا مَزِيدَ فِي التَّشْوِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ؛ فَكُلِّ
الصَّيْدِ فِي جَانِبِ الْفَرَا ^(١) .

(١) الْفَرَا : سَمَارُ الْوَحْشِ ؛ وَأَصْلُ الْمَثَلِ : « كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا » ، وَفِي الْقَامُوسِ بَغِيرُ هَمْزٍ لِأَنَّهُ
مَثَلٌ ؛ وَالْأَمْثَالُ مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْوَقْفِ »

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك أخبار صحيحة ، فروى أسامة بن زيد ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يذكر الجنة فقال : « ألا مشتري لها ! هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ، ونهر يطرد ، وزوجة لا تموت ؛ مع جبور ونعيم ، ومقام الأبد » .

وروى أبو سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله : « إن الله سبحانه لما حوَّط حائط الجنة ؛ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ، وغرس غرسها ، قال لها : تكلمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : طوبى لك منزل الملوك ! »

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال لهم ربهم تعالى : أحببون أن أزيدكم ؟ فيقولون : وهل خير مما أعطيتنا ؟ فيقول : نعم ، رضوانى أكبر » .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « إن أحدهم يُعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب » ، فقيل له : فهل يكون منهم حدث - أو قال خبث ؟ قال : « عرق يفيض من أعراضهم كريح المسك ، يضر منه البطن » .

وروى الزخشرى في " ربيع الأبرار " - ومذهبه في الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم ؛ وكذلك في انحرافه عن الشيعة وتسخيفه لمقالاتهم - أن رسول الله محمدا صلى الله عليه وآله ، قال : « لما أسرى بى ، أخذنى جبرئيل ، فأقعدنى على دُرْنوكٍ من درانيك الجنة ، ثم ناولنى سفرجلة ، فبينما أنا أقبلها انفلقت ، فخرجت منها جارية لم أر أحسن منها ، فسلمت ، فقلت : من أنتِ ، قالت : أنا الراضية المرضية ، خلقتى الجبار من ثلاثة أصناف : أعلاى من عنبر ،

وأوسطى من كافور ، وأسفل من مسك . ثم عجنى بماء الحيوان ، وقال لى : كونى كذا ،
فكنت . خلقتى لأخيك وابن عمك على بن أبى طالب » .
قلت : الدرنوك : ضرب من البسط ذو خمل ، ويشبه به فروة البعير ، قال الراجز :
* جعد الدرانىك رفل الأجلاد^(١) *

(١) اللسان ١٢ : ٣٠٦ ، ونسبه إلى رؤبة ، وبعده :

* كأنه مختضب في أجساد *

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلِيَرَأْفَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ؛ وَلَا تَكُونُوا
كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ؛ لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ؛ وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضٍ بَيْضٍ فِي
أَدَاخٍ ، يَكُونُ كَسْرُهَا وَزَرًّا ، وَيُخْرِجُ حِضَانَهَا شَرًّا .

الشرح :

أمرهم عليه السلام أن يتأسى الصغير منهم بالكبير في أخلاقه وآدابه ؛ فإنَّ الكبير
لكثرة التجربة أحزم وأكيس ، وأن يرأف الكبير بالصغير . والرأفة : الرحمة ؛ لأنَّ الصغير
مظنة الضعف والرقعة .

ثم نهاهم عن خُلُقِ الجاهليَّةِ في الجفاء والقسوة ، وقال : إنَّهم لا يتفقهون في دين ،
ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به ؛ وهذا من قول الله سبحانه : ﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُتَىٰ فُهُمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) . وروى : « تتفقهون » بناء الخطاب .

ثم شبههم بببيض الأفاعى في الأعشاش ، يظنَّ بيض القطا ، فلا يحلَّ لمن رآه أن يكسره
لأنه يظنَّه بيض القطا ، وحضانه يُخْرِجُ شَرًّا ؛ لأنه يفقصُ عن أفعى .

واستعار لفظة «الأداحى» للأعشاش مجازاً؛ لأنّ الأداحى لا تكون إلا للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودحوها: توسيعها، من دحوت الأرض.

والقيّض: الكسر والفلق، قيّضت القارورة والبيضة، وانقاضت هي، وانقاض الجدار انقياضاً، أى تصدّع من غير أن يسقط؛ فإن سقط قيل: تقيّض تقيّضاً، وتقوض تقوضاً؛ وقوّضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكسّرت فلما: تقيّضت تقيّضاً، فإن تصدّعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهى منقاضة. والقارورة مثله.

الأصل:

منها:

افترقوا بعد ألفتهم، وتشتتوا عن أصلهم؛ فمنهم أخذ بغصن؛ أينما مال مال معه. على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبني أمية؛ كما يجتمع قزع الخريف، يؤلف الله بينهم ثم يجمعهم ركاماً كرام السحاب، ثم يفتح الله لهم أبواباً. يسيلون من مستنارهم كسيل الجنّتين؛ حيث لم تسلم عليه قارة، ولم تثبت عليه أكمة، ولم يرُدّ سننه رص طود، ولا حذاب أرض؛ يذغدعهم الله في بطون أوديته، ثم يسلكهم ينابيع في الأرض، يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمسكهم لِقَوْمٍ في ديار قوم.

وأيّم الله ليدوبن مافي أيديهم بعد العلو والتّمكين، كما تدوب الألية على النار.

أيها الناس، لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق، ولم تهينوا عن توهين الباطل، لم

يَطْمَعُ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ ، وَلَمْ يَقْوَ مِنْ قَوَىٰ عَلَيْكُمْ ، لَكِنَّكُمْ تَهْتُمُ مَتَاهَ
بَنِي إِسْرَئِيلَ .

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ التَّيَهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا ؛ بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ،
وَقَطَّعْتُمُ الْأَذَى ، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ .

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَا جَ الرَّسُولِ ، وَكَفَيْتُمْ مُؤْنَةَ
الْإِغْسَافِ ، وَنَبَذْتُمْ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ .

الشَّيْخُ :

هو عليه السلام : يذكر حال أصحابه وشيعته بعده ، فيقول : افترقوا بعد ألفتهم ؛ أي
بعد اجتماعهم .

وتشتتوا عن أصلهم ، أي عني بعد مفارقتي ؛ فمنهم آخِذٌ بغصن ؛ أي يكون منهم مَنْ
يَتَمَسَّكُ بِمَنْ أَخْلَفَهُ بَعْدِي مِنْ ذُرِّيَّةِ الرَّسُولِ ، أَيْنَا سَلَكَوا سَلَكَوا مَعَهُمْ ؛ وتقدير الكلام :
ومنهم مَنْ لَا يَكُونُ هَذِهِ حَالَهُ . لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، اِكْتِفَاءً بِذِكْرِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ
لأنه دالٌّ على القسم الثاني .

ثم قال : على أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ : مَنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ عَلَى عَقِيدَتِهِ فِينَا وَمَنْ لَمْ يَثْبِتْ ؛ لَا بَدَأَ أَنْ
يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَشَرِّ يَوْمٍ لَبِنِي ^(١) أُمِّيَّةً ، وَكَذَا كَانَ ، فَإِنَّ الشَّيْعَةَ الْهَاشِمِيَّةَ اجْتَمَعَتْ عَلَى إِزَالَةِ
مَلِكِ بَنِي مَرْوَانَ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ثَابِتًا عَلَى وِلَاةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَنْ
حَادَّ مِنْهُمْ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ مَرْوَانَ الْحَمَارِ ، عِنْدَ ظُهُورِ الدَّعْوَةِ
الْهَاشِمِيَّةِ .

وَقَرْعَ الْخَرِيفِ : جَمْعُ قَرْعَةٍ ، وَهِيَ سُحْبُ صَغَارٍ تَجْتَمِعُ فَتَصِيرُ رُكَامًا ، وَهُوَ مَا كَثُفَ

من السحاب . وركمت الشيء أركمه ، إذا جمعته وألقيت بعضه على بعض .

ومستشارهم : موضع ثورتهم .

والجنتان : هما اللتان قال الله تعالى فيهما : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾^(١) . وسلط الله عليهما السيل ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَغْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾^(٢) . فشبه عليه السلام سيلان الجيوش إلى بني أمية بالسيل المسلط على تينك الجنتين .

فإنه لم تسلم عليه قارة ؛ وهي الجبيل الصغير . ولم تثبت له أكمة ، وهي التلعة من الأرض .

ولم يردّ سننه ، أى طريقه . طود مرصوص ، أى جبل شديد التصاق الأجزاء بعضها ببعض . ولا حدّاب أرض . جمع حدّبة^(٣) وهي الروابي والنجاد .

ثم قال : « يذعذعهم الله » ، أى يفرقهم الله ؛ الذّعذعة بالذال المعجمة مرتين : التفريق ، وذّعذعة الشرّ : إذاعته .

ثم يسلكهم ينابيع فى الأرض ، من ألقاظ القرآن^(٤) ، والمراد أنه كما أن الله تعالى ينزل من السماء ماء فيستكنّ فى أعماق الأرض ، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها ، كذلك هؤلاء القوم ، يفرّقهم الله تعالى فى بطون الأودية وغوامض الأغوار ، ثم

(١) سورة سبأ ١٥

(٢) سورة سبأ ١٦

(٣) فى اللسان : الحدبة ، بفتح الحاء : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع . ولا تكون الحدبة إلا فى قف أو غلظ من الأرض .

(٤) وهو قوله تعالى فى سورة الزمر ٢١ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ

يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ ﴾

يظهرهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قومٍ حقوقَ آخرين ، ويمكن منهم قوما من ملك قوم وديارهم .

ثم أقسم ليدؤبن ما في أيدي بني أمية بعد علوهم وتمكينهم ، كما تذوب الألية على النار ؛ وهمزة «الألية» مفتوحة ، وجمعها أليات ، بالتحريك ؛ والتثنية أليان بغير تاء ؛ قال الراجز :

* ترتج ألياه ارتجاج الوطى ^(١) *

وجمع الألية ألاء على «فعل» ^(١) وكبش آلى على «أفعل» ونعجة «ألياء» والجمع ألى على «فعل» ، ويقال أيضاً : كبش أليان بالتحريك ، وكباش أليانات ، ورجل ألياى عظيم الألية ، وامرأة عجاء ولا تقل : «ألياء» ؛ وقد قاله بعضهم . وقد ألى الرجل ، بالكسر يالى : عظمت أليته .

ثم قال : لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم من هو دونكم .
وتهنؤا ، مضارع وهن ، أى ضعف ، وهو من أفاظ القرآن ^(٢) أيضاً .
وتهنؤ متاه بنى إسرائيل : حزنتم وضلتم الطريق ؛ وقد جاء فى المسانيد الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « لئن كبت سنن من كان قبلكم حذو النعل النعل ، والقذة بالقذة ؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، فقيل : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن إذا ! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً : « أمتهو كون أنتم كما تهو كت اليهود والنصارى ! » ^(٣) .

وفى صحيحى البخارى ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناس من أمتى ،

(١) الصحاح (ألى) من غير نسبة

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة آل عمران ١٣٩ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾

(٣) النهاية لابن الأثير ٤ : ٢٥٨ ؛ قال : « التهوك كالتهور ؛ وهو الوقوع فى الأمر بغير روية . أو الذى يقم فى كل أمر ؛ وقيل : هو التحير .

فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فإذا رأيتهم اختلجوا دوني ، قلت : أي رب ، أصحابي !
فيقال لي : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ؟ فأقول ما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . الإسناد في هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه .

وفي الصحيحين أيضاً ، عن زينب بنت جحش قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوماً من نومه محرراً وجهه ؛ وهو يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرٍ قد اقترَب ! »
فقلت : يا رسول الله ، أنهلك ، وفيما الصالحون ؟ فقال : « نعم ، إذا كثرت الخبث » .

وفي الصحيحين أيضاً : « يهلك أمتي هذا الحى من قریش ، قالوا : يا رسول الله ، فما
تأمرنا ؟ قال : « لو أن الناس اعتزلوهم » ، رواه أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام : « لِيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ التَّيَّةَ مِنْ بَعْدِي » . يعنى الضلال ، يضعفه
لكم الشيطان وأنفسكم بما خلقتكم الحق وراء ظهوركم ، أى لأجل ترككم الحق .
وقطعكم الأدنى ، يعنى نفسه . ووصلكم الأبعد ، يعنى معاوية . ويروى : « إن اتبعتم الراعى
لكم » ، بالراء .

والاعتساف : سلوك غير الطريق . والفادح : الثقل ، فدحه الدين : أثقله .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام في أول مهرته :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ
تَهْتَدُوا ، وَاصْدَفُوا عَنْ نَمَتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا .

الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ ! أَدُّوها إِلَى اللَّهِ تَوَدُّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ
مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ ، وَفَضَلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا ، وَشَدَّ
بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاذِهَا . فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ
وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ .

بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةِ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ، وَإِنَّ
السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ .

تَحَقَّقُوا تَلَحُّقُوا ؛ فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ .

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ،
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تُعْصُوهُ ؛ وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ
فَاعْرِضُوا عَنْهُ .

الشَّيْخُ :

واصدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ ، أَيْ أَعْرِضُوا عَنْ طَرِيقِهِ . تَقَصِّدُوا ، أَيْ تَمَدَّلُوا ،
وَالْقَصْدُ : الْعَدْلُ .

ثُمَّ أَمَرَ بِلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها ؛ كالصلاة والزكاة ؛ وانتصب
ذلك على الإغراء .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْحَرَامَ غَيْرَ مَجْهُولٍ لِمُكَلِّفٍ بَلْ مَعْلُومٌ ، وَالْحَلَالُ غَيْرُ مَدْخُولٍ ، أَيْ لَا عَيْبَ
وَلَا نَقْصَ فِيهِ ؛ وَأَنَّ حَرَمَةَ الْمُسْلِمِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْحُرُمَاتِ . وَهَذَا لَفْظُ الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ : « حُرْمَةُ
الْمُسْلِمِ فَوْقَ كُلِّ حُرْمَةٍ ، دَمُهُ وَعَرَضُهُ وَمَالُهُ » .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا » ؛ لِأَنَّ
الْإِخْلَاصَ وَالتَّوْحِيدَ دَاعِيَانِ إِلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَى حَقُوقِ الْمُسْلِمِينَ صَارِفَانِ عَنْ اتِّهَاكِ مُحَارِمِهِمْ .
قَالَ : « فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ » ؛ هَذَا لَفْظُ الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ بَعِينُهُ .

قَوْلُهُ : « وَلَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ » ، أَيْ إِلَّا بِحَقٍّ ؛ وَهُوَ الْكَلَامُ الْأَوَّلُ .
وَإِنَّمَا أَعَادَهُ تَأْكِيدًا .

ثُمَّ أَمَرَ بِمُبَادَرَةِ الْمَوْتِ . وَسَمَاءُ الْوَاقِعَةِ الْعَامَةِ ، لِأَنَّهُ يَعْمُ الْحَيَوَانُ كُلَّهُ ، ثُمَّ سَمَاءُ خَاصَّةٍ أَحَدُكُمْ ؛
لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عَامًّا إِلَّا أَنَّ لَهُ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ بَعِينَهُ خُصُوصِيَّةً زَائِدَةً عَلَى ذَلِكَ الْعَمُومِ .
قَوْلُهُ : « فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ » ؛ أَيْ قَدْ سَبَقُوكُمْ . وَالسَّاعَةُ تَسُوقُكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ .
ثُمَّ أَمَرَ بِالتَّخَفُّفِ^(١) ؛ وَهُوَ الْقَنَاعَةُ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيُسْرِ ، وَتَرْكُ الْحِرْصِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ الْمَسَافِرَ
الْخَفِيفَ أَحْرَى بِالنَّجَاةِ وَلِحَاقِ أَصْحَابِهِ وَبُلُوغِ الْمَنْزِلِ ، مِنَ الثَّقِيلِ .

(١) أ ، ب « بالتخفيف » ، وما أثبتته من د .

وقوله : « فإنما يُنتظر بأولكم آخركم » ؛ أى إنما ينتظر بيعث الموتى المتقدمين أن يموت
الأواخر أيضا ، فيبعث الكل جميعا فى وقت واحد .

ثم ذكر أنهم مسؤولون عن كل شىء حتى عن البقاع : لم استوطنتم هذه ، وزهدتم فى
هذه ؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار ؟ وحتى عن البهائم ؛ لم ضربتموها ؟
لم أجعتموها ؟

وروى : « فإن البأس ^(١) أمامكم » يعنى الفتنة ، والرواية الأولى أظهر . وقد ورد فى
الآخبار النبوية « لِيُنْتَصَفَنَّ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقِرْنَاءِ » ، وجاء فى الخبر الصحيح : « إن الله تعالى
عذب إنسانا بهرّ ، حبسه فى بيت وأجاعه حتى هلك » .

(١) به : « الناس » تحريف ؛ وما أثبتته من باقى الأصول .

الأصل :

ومنه كلامه عليه السلام بعد ما يوبع بالخبرفة ، وقد قال له قوم من الصحابة :

لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان ! فقال عليه السلام :

يَا إِخْوَتَاهُ ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ ؛ وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ الْقَوْمِ الْمَجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا تَمْلِكُهُمْ ! وَهَاهُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ ، وَالتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ؛ وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَاشَاءُوا ؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ !

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيَّةٌ ؛ وَإِنَّ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً ، إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ : فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا هَذَا . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَى النَّاسُ وَتَقَعَ الْقُلُوبَ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسَمَّحَةً .

فَاهْدُوا عَنِّي وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي ؛ وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضْعِفُ قُوَّةً ، وَتُسْقِطُ مَنَّةً ، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً . وَسَامِسِكُمُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ ؛ وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا ؛ فَأَخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ .

الشرح :

أَجْلَبَ عَلَيْهِ : أَعَانَ عَلَيْهِ ؛ وَأَجْلَبَهُ : أَعَانَهُ . وَالْأَلْفُ فِي «يَا إِخْوَتَاهُ» بَدَلٌ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ ،

وَالْهَاءُ لِلسَّكْتِ .

وعلى حدّ شوكتهم : شدّتهم ؛ أى لم تنكسر سورتهم .

والعبدان جمع عبد ، بالكسر : مثل جَحَش وجَحْشان ، وجاء عبدان بالضم ، مثل تَمَر وتَمران ، وجاء عبيد ، مثل كَلْب وكَلِيب ؛ وهو جمع عزيز ، وجاء أعبد وعبياد وعبدان مشددة الدال ، وعبداء بالمد ، وعبدى بالقصر ، ومعبوداء بالمد ، وعُبد بالضم ، مثل سَقَف وسُقُف ، وأنشدوا .

أنسب العبد إلى آبائه أسود الجلد من قوم عبْد^(١)

ومنه قرأ بعضهم : ﴿ وَعُبدَ الطَّاغُوت ﴾^(٢) وأضافه .

قوله : « والتفت إليهم أعرابكم » : انضمت واختلطت بهم .

وهم خلاكم ، أى بينكم يسومونكم ماشاءوا : يكلّفونكم ، قال تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾^(٣) .

وتؤخذ الحقوق مُسمحة ، من أسمع ؛ أى ذلّ وانقاد .

فاهدؤا غنى ، أى فاسكنوا^(٤) . هداً الرجل هداً وهدوءاً : أى سكن ؛ وأهدأه غيره .

وتضعف قوة : تضعف وتهدّ : تضعفت البناء : هددته . والمنّة : القوة . والوهن : الضعف .

وأخر الدواء الكى ، مثل مشهور ؛ ويقال : « آخر الطب » ويغلط فيه العامة فتقول : « آخر الداء » ، والكى ليس من الداء ليكون آخره .

(١) اللسان ٤ : ٢٦٠

(٢) سورة المائدة ٦٠ ؛ وهى قراءة عن ابن عباس ، وانظر تفسير القرطبي ٦ : ٢٣٥

(٣) سورة البقرة ٤٩ .

(٤) فى الأصول : « فاسكتوا » .

[موقف عليّ من قتلة عثمان]

واعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على أنّه عليه السلام كان في نفسه عقابُ الذين حَصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتله، وإن كان بقيّ ممن باشر قتله أحد؛ ولهذا قال: إني لستُ أَجْهَلُ ما تعلمون؛ فاعترف بأنّه عالمٌ بوجوب ذلك، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي؛ وصدق عليه السلام؛ فإنّ أكثر أهل المدينة أَجْلَبُوا عليه، وكان من أهل مِصْرٍ ومن الكوفة عالمٌ عظيم حضرُوا من بلادهم، وطوّوا المسالك البعيدة لذلك؛ وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية، وكان الأمرُ أمرَ جاهليّة، كما قال عليه السلام، ولو حرّك ساكنًا لا خُتِلَ الناس واضطربوا، فقومٌ يقولون: أصاب، وقومٌ يقولون: أخطأ، وقومٌ لا يحكمون بصواب ولا خطأ. بل يتوقفون، ولا يأمن - لو شرع في عقوبة الناس والقبض عليهم - من تجدّد فتنة أخرى كالأولى وأعظم؛ فكان الأُصُوبُ في التدبير، والذي يوجبهُ الشرع والعقل الإمساكُ إلى حين سكون الفتنة، وتفرّق تلك الشعوب وعود كلّ قومٍ إلى بلادهم؛ وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعه معاوية وغيره، وأن يحضّر بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم، ويعيّنون قومًا بأعيانهم، بعضهم للقتل، وبعضهم للحصار، وبعضهم للتسوّر، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي؛ حينئذٍ يتمكّن من العمل بحكم الله تعالى. فلم يقع الأمرُ بموجب ذلك، وعصَى معاوية وأهل الشام، والتجأ ورثة عثمان إليه، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يطلبوا القصاص طلبًا شرعيًّا، وإنما طلبوه مغالبة، وجعلها معاوية عصبيةً جاهلية، ولم يأت أحدٌ منهم الأمر من بابهِ؛ وقبل ذلك ما كان من أمر طلحة والزبير، ونقضهما البيعة، ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتلها الصالحين من أهلها؛ وجرت أمور كلّها تمنع الإمام عن التصدّي للقصاص، واعتماد ما يجب اعتماده؛ لو كان الأمر وَقَعَ على القاعدة الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة،

وقد قال هو عليه السلام لمعاوية : « فأما طلبك قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ، وحاكم القوم إلى ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنة رسوله » .

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله : وهذا عين الحق ، ومحض الصواب ، لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام ، ثم تقع الحاكمة إليه ، فإن حكم بالحق استديمت إمامته ، وإن حكم بالجور انتقض أمره ، وتعين خلعُه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « وسأمسك الأمر ما استمسك » ، فإذا لم أجد بداً فأخر الدواء المكي » .

قلت : ليس معناه : وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكن الصبر ، فإذا لم أجد بداً عاقبتهم ، ولكنه كلام قاله أول مسير طلحة والزبير إلى البصرة ، فإنه حينئذ أشار عليه قوم بمعاقبة المجليين ، فاهتذر بما قد ذكر ، ثم قال : « وسأمسك الأمر ما استمسك » ؛ أى أمسك نفسى عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكننى ، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم ، وأجهد فى ردّهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب ، فإذا لم أجد بداً من الحرب ، فأخر الدواء المكي ، أى الحرب ؛ لأنها الفاية التى ينتهى أمر العصاة إليها .

الأفضل :

ومنه خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بَكْتَابٍ نَاطِقٍ ؛ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ .
وإنَّ الْمُتَبَدِّعَاتِ الشُّبُهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ؛ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا . وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ
اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ ؛ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا .
وَاللَّهُ لَتَفْعُلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانًا ^(١) الْإِسْلَامِ ؛ ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ
أَبَدًا ؛ حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ .

إِنَّ هُوَ لَا يَزَالُ قَدْ تَمَلَّأَ أَعْلَى سَخَطَةِ إِمَارَتِي ؛ وَسَأَصِيرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛
فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا
الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ
وَالنَّفْسُ لِسُنَّتِهِ .

الشرح :

وأمر قائم ، أى مستقيم ليس بذى عوج . لا يهلك عنه إلا هالك ، تقديره : لا يهلك
عادلًا عنه إلا هالك ؛ وهذا كما تقول : لا يعلم هذا الفن إلا عالم ، أى من قد بلغ الغاية

(١) ساقطة من ب .

في العلم واستحق أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه ، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلا من هو أعظم المالكين ، ومن يشار إليه بالهلاك ، وقد بلغ الغاية في الهلاك .

ثم قال : « إنَّ المبتدعاتِ المشبهاتِ هنَّ المهلكاتِ » ، المبتدعات : ما أحدث ولم يكن على عهد الرسول . والمشبهات : التي تشبه السنن وليست منها ، أى المشبهات بالسنن . وروى : « المشبهات » بالكسر ، أى المشبهات على الناس ، يقال : قد شَبَّه عليه الأمر ؛ أى ألبس عليه ، ويروى : « المشتهات » أى الملتبسات ، لا يُعرف حقها من باطلها .

قال : « إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهَ » ، أى مَنْ عصمه الله بالطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ . ثم أمرهم بلزوم الطاعة ، واتباع السلطان ، وقال : إنَّ فيه عصمة لأمركم . فأعطوه طاعتكم غير ملومة ، أى مخلصين ذوى طاعةٍ محضة لا يلامُ باذلتها ، أى لا ينسب إلى النفاق . ولا مستكرهٍ بها ، أى ليست عن استكراهٍ ، بل يبذلونها اختياراً ومحبةً ، ويروى : « غير ملوية » أى معوجة ، من لَوِيْتُ العود .

ثم أقسم إنهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام - يعنى الخلافة - ثم لا يعيده إليهم أبداً ، حتى يأرِز الأمر إلى غيرهم ؛ أى حتى ينقبض وينضم ويجتمع ؛ وفى الحديث : « إنَّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى جحرها » ^(١) .

فإن قلت : كيف قال : إنَّه لا يعيده إليهم أبداً ، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية ؟ قلت : لأنَّ الشرط لم يقع ؛ وهو عدم الطاعة ؛ فإنَّ أكثرهم أطاعوه طاعةً غير ملومة ولا مستكرهٍ بها ، وإذا لم يتحقق الشرط لم يتحقق المشروط .

وقد أجاب قوم عن هذا ، فقالوا : خاطب الشيعة الطالبية ، فقال : إن لم تعطوني الطاعة المحضة نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يارز وينضم إلى بيت آخر ؛ وهكذا وقع ؛ فإنها انضمت إلى بيت آخر من بني هاشم .

وأجاب قوم آخرون ، فقالوا : أراد بقوله : « أبدأ » المبالغة ؛ كما تقول : احبس هذا الغريم أبدأ ، والمراد بالقوم الذين يارز الأمر إليهم بنو أمية ؛ كأنه قال : إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلها في قوم آخرين ؛ وهم أعداؤكم من أهل الشام وبني أمية ، ولا يعيده إليكم إلى مدة طويلة ، وهكذا وقع .

وقد تمالأوا : قد اجتمعوا . وتساعدوا على سخطه إمارتى : على كراهيتها وبغضها .

ثم وعد بالصبر عليهم ما لم يخف من فرقة الجماعة ، وانتشار حبل الإسلام .

وفيلة الرأي : ضعفه ، وكذلك فيولته ؛ ورجل فيل الرأي : أى ضعيفه ، قال :

بنى ربّ الجواد فلا تفيّلوا فما أتم فنعذر كم لفيل^(١)

أى لستم على رجل ضعيف الرأي . والجمع أفيال ، ويقال أيضا : رجل فال ، قال :

رأيتك يا أخيطل^(٢) إذ جرّينا وجربت الفراسة كُنتَ فالاً^(٣)

قال : إن تموا على هذا الرأي الضعيف قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك . وأفاءها عليه : ردّها عليه ، فاء يفيء : رجع . وفلان

سريع الفىء من غضبه ، أى سريع الرجوع . وإنه لحسن الفيئة بالكسر ؛ مثال « الفيعة » .

أى حسن الرجوع ؛ وهذا الكلام لا يشعر بأنه عليه السلام كان يعتقد أن الأمر له ، وأنه

غلب عليه ثم رجع إليه ، ولكنه محمول على أنه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة

الجزء من الكل ، وأنهما من جوهر واحد ، فلما كان الوالى قديما هو رسول الله صلى الله

(١) اللسان ٥٠: ١٤ ونسبه إلى الكمي .

(٢) اللسان ٥٠: ١٤ ، ونسبه إلى جرير .

عليه وآله ، ثم تخلل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات
غريبة ، سمي ولايته فيثا ورجوعا ، لأنها رجعت إلى الدوحة الهاشمية ؛ وبهذا يجب أن
يتأول قوله : « فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها » أى أرادوا انتزاع الخلافة من بنى
هاشم ، كما انتزعت أولا ، وإقرارها فى بيوت بعيدة عن هذا البيت ، أسوة بما وقع
من قبل .

والنَّعْش : مصدر نعش ، أى رفع ، ولا يجوز : « أنعش » .

الأضل :

ومن كلامه عليه السلام :

كلم به بعض العرب ، وقد أرسله قومٌ من أهل البصرة ؛ لما قرب عليه السلام منها
 ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجبل لتزول الشبهة من نفوسهم ؛ فبين له عليه السلام
 من أمره معهم ما علم به أنه على الحق ، ثم قال له : بايع ، فقال : إني رسول قوم ، ولا أحدث
 حدثاً حتى أرجع إليهم . فقال عليه السلام :

أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً ، تبتغي لهم مساقطة الغيث ، فوجفت
 إليهم وأخبرتهم عن الكلا والماء ، فخالقوا إلى المعاطش والمجاذب ما كنت صانعاً ؟
 قال : كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلا والماء .

فقال عليه السلام : فامدّد إذا يدك .

فقال الرجل : فوالله ما أستطعت أن أمتنع عند قيام الحجة على فبايعته
 عليه السلام .

والرجل يُعرف بكليب الجرمي .

الشبح :

الجرمي : منسوب إلى بني جرّم بن ربّان بن حُلوان بن عمران بن الحاف
 ابن قُضاة ، من حمير . وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام ،

يستعلم حاله : أهو على حجة^(١) أم على شبهة ؟ فلما رآه عليه السلام ، وسمع لفظه ، علم صدقه وبرهانه ؛ فكان بينهما ما قد شرحه عليه السلام .

ولا شيء أطف ولا أوقع ولا أوضح من المثال الذي ضرب به عليه السلام ، وهو حجة لازمة لا مدفع لها .

قوله : « ولا أحدث حدثا » أى لا أفعل ما لم يأمروني به ، إنما أمرت باستعلام حالك فقط ؛ فأما المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلا ما لم أندب له .

ومساقط الغيث : المواضع التى يسقط الغيث فيها . والكلاء : النبت إذا طال وأمكن أن يرعى ؛ وأول ما يظهر يسمى الرطب ، فإذا طال قليلا فهو الخلا ، فإذا طال شيئا آخر فهو الكلاء ، فإذا يبس فهو الحشيش .

والمعاطش والمجاذب : مواضع العطش والجذب ، وهو المحل .

الأفضل :

ومنه كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفيين :

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ المَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ المَكْفُوفِ ؛ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،
وَجَرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سَبْطًا مِنْ
مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأُمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ .

وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجًا لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ،
وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

وَرَبَّ الْجِبَالِ الرُّوَاسِيِ الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أُوتَادًا ، وَلِلْخَلْقِ أَعْتِمَادًا ، إِنْ أَظْهَرْتَنَّا
عَلَى عَدُوِّنَا ، فَجَنَّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ ،
وَأَعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذَّمَارِ ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ تَزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ !
الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ !

الشرح :

السقف المرفوع : السماء . والجو المكفوف : السماء أيضا ؛ كقوله ، أى جمعه وضم
بعضه إلى بعض ، ويمر في كلامه نحو هذا ، وأن السماء هواء جامد أو ماء جامد
وجعلته مغیضاً لليل والنهار ، أى غیضة لهما ؛ وهى فى الأصل الأجمة يجتمع إليها الماء ،

فتسمى غَيْضَةً ومغيضا ؛ وينبت فيها الشجر ، كأنه جعل الفلك كالغَيْضَةِ ، والليل والنهار كالشجر النابت فيها .

ووجه المشاركة أن المغيض أو الغَيْضَةُ يتولد منها الشجر ؛ وكذلك الليل والنهار يتولدان من جريان الفلك .

ثم عاد فقال : « ومجرى للشمس والقمر » ، أى موضعاً لجريانهما .

ومختلفاً للنجوم السيّارة ، أى موضعاً لاختلافها ، واللام مفتوحة .

ثم قال : « جعلت مكانه سبطاً من ملائكتك » ، أى قبيلة ، قال تعالى : ﴿ أَأَنْتَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ ^(١) .

لا يسأمون : لا يملون . وقراراً للأنام ، أى موضع استقرارهم وسكونهم . ومدرجاً للهوام ، أى موضع دروهم وسيرهم وحركاتهم ، والهوام : الحشرات والخوف من الأحناش .

ومالا يحصى ، أى لا يضبط بالإحصاء والعد ؛ مما نراه ونعرفه ومالا نراه ولا نعرفه .

وقال بعض العلماء : إن أردت أن تعرف حقيقة قوله : « مما يرى ومالا يرى »

فأوجد نارا صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة ، وانظر مايجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلق ؛ التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قط .

قوله : « وللخلق اعتمادا » ، لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم ، فينتفعون بها ويننون منازل

إلى جانبها ، فيقوم مقام جدار قد استغنوا عن بنيانه ، ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها .

قوله : « وسدّدنا للحقّ » أى صوّبنا إليه ، من قولك : « سهم سديد » ، أى مصيب ،
وسدّد السنان إلى القرن ، أى صوّبه نحوه .

والذّمّار : ما يحامى عنه . والغائر : ذو الغيرة . ونزول الحقائق : نزول الأمور الشديدة
كالهرب ونحوها .

ثم قال : « العار وراءكم » ، أى إن رجعتُم القهقري هارين .
والجنة أمامكم ، أى إن أقدمتم على العدو مجاهدين . وهذا الكلام شريف جدا .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا .

الشرح :

هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضها فوق بعض ؛ كما أن السموات كذلك ؛ ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ^(١) ؛ وهو قول كثير من المسلمين .

وقد تأول ذلك أربابُ المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة ، فقالوا : إنها سبعة أقاليم ؛ فالمثلثية هي من هذا الوجه ، لامن تعدد الأرضين في ذاتها .

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فيقال : إنها وإن كانت أرضا واحدة ، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة ؛ وهي كُرَيَّة الشكل ؛ فَمَنْ عَلَى حَدَبِ الْكُرَةِ لَا يَرَى مَنْ تَحْتَهُ ، وَمَنْ تَحْتَهُ لَا يَرَاهُ ، وَمَنْ عَلَى أَحَدِ جَانِبَيْهَا لَا يَرَى مَنْ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَدْرِكُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَجْمَع ، وَلَا يَحْجَبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْهَا بِشَيْءٍ مِنْهَا .

فأما قوله عليه السلام : « لا توارى عنه سماء سماء » ، فلقائل أن يقول : ولا توارى شيء من السموات عن المدركين منا ، لأنها شفافة ، فأى خصيصة للبارى تعالى في ذلك ؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدة غير القاعدة الفلسفية ، بل هو على قاعدة الشريعة ^(٢)

(١) سورة الطلاق ١٢ .

(٢) ب : « على قاعدته الشريعة الإسلامية » .

الإسلامية التي تقتضى أن السموات تحجب ما وراءها عن المدركين بالحاسة؛ وإنما ليست طباقاً متراصّة، بل بينها خلق من خلق الله تعالى لا يعلمهم غيره. واتباع هذا القول واعتقاده أولى.

الأصل :

منها :

وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيسٌ ؛ فَقُلْتُ : بَلْ أَأَنْتُمْ
وَاللّٰهُ لَا أُحْرَصُ وَأَبْعَدُ ؛ وَأَنَا أُخَصُّ وَأَقْرَبُ ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقّاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ ؛ فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ ، هَبَّ كَأَنَّهُ
بُهِتَ لَا يَذَرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ !

اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَصَغَرُوا
عَظِيمَ مَنَزَلَتِي ؛ وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي ، ثُمَّ قَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ ،
وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ .

الشرح :

هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جرى يوم الشورى بعد مقتل عمر. والذي قال
له : « إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحْرِيسٌ » سعد بن أبي وقاص، مع روايته فيه : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ
هَارُونَ مِنْ مُوسَى » ، وهذا محجب ؛ فقال لهم : بل أنتم والله أحرص وأبعد ... الكلام
المذكور. وقد رواه الناس كافة.

وقالت الإمامية : هذا الكلام يوم السقيفة ، والذي قال له : إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ
لَحْرِيسٌ ، أبو عبيدة بن الجراح ؛ والرواية الأولى أظهر وأشهر .

وروى : « فلما قرعته » بالتخفيف ، أى صدمته بها .
وروى : « هب لا يدري ما يجينى » ، كما تقول استيقظ وانتبه ، كأنه كان غافلاً ذاهلاً
عن الحجة فهب لما ذكرتها .
أستعديك : أطلب أن تعدّينى عليهم وأن تنتصف لى منهم .
قطعوا رجمى : لم يرعوا قربى من رسول الله صلى الله عليه وآله .
وصغروا عظيم منزلتى : لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه .
وأجمعوا على منازعتى أمراً هو لى ، أى بالأفضلية أنا أحقّ به منهم ؛ هكذا ينبغى
أن يتأوّل كلامه .
وكذلك قوله : « إنما أطلب حقاً لى وأتمّ تحولون بينى وبينه ، وتضربون
وجهى دونه » .

قال : « ثم قالوا : ألا إن فى الحقّ أن تأخذه ، وفى الحقّ أن تتركه » ، قال : لم يقتصروا
على أخذِ حقّى ساكتين عن الدّعوى ؛ ولكنهم أخذوه وادّعوا أن الحقّ لهم . وأنه يجبُ
على أن أترك المنازعة فيه ؛ فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّ ، فكانت المصيبةُ به
أخفّ وأهون .

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول ، نحو قوله : « مازلتُ
مظلوماً منذ قبضَ الله رسوله حتى يوم الناس هذا » .

وقوله : « اللهم أخزِ قريشاً فإنها منعتنى حقّى ، وغصبتنى أمرى » .
وقوله : « فجزى قريشاً عنى الجوازى ، فإنهم ظلمونى حقّى ، واغتصبونى سلطان
ابن أمى » .

وقوله ، وقد سمع صارخا ينادى : أنا مظلوم ، فقال : « هلم فلنصرُحْ معا ، فإنّي مازلتُ مظلوماً » .

وقوله : « وإنه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القطب من الرحي » .

وقوله : « أرى ترائي نهبا » .

وقوله : « أصغيا يانائنا ، وحَمَلّا الناس على رقابنا » .

وقوله : « إنّ لنا حقا إن نُعطَه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أحجاز الإبل ؛ وإن ظال السُرى » .

وقوله : « مازلت مستأثراً علىّ ، مدفوعاً عما أستحقّه وأستوجبه » .

وأصحابنا يحملون ذلك كله على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقّيّة ؛ وهو الحقّ والصواب ؛ فإنّ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار ؛ ولكنّ الإماميّة والزيدية حملوا هذه الأقوال على ظواهرها ، وارتكبوا بها مركبا صعبا . ولعمري إنّ هذه الألفاظ مُوهمةٌ مغلّبة على الظن مايقوله القوم ؛ ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظن ؛ ويدرك ذلك الوهم ، فوجب أن يجري مجرى الآيات المتشابهات الموهمة مالا يجوز على الباري ، فإنه لا نعمل بها ، ولا نعوّل على ظواهرها ، لأنّ لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ ، وأنّ تحمل على التأويلات المذكورة في الكتب .

وحدثني يحيى بن سعيد بن عليّ الحنبلي المعروف بابن عالية ، من ساكني قُطُفَنا^(١) بالجانب الغربيّ من بغداد ، وأحد الشهود المعدّلين بها ، قال : كنت حاضر الفخر إسماعيل ابن عليّ الحنبليّ الفقيه المعروف بعلام ابن المنى ، وكان الفخر إسماعيل بن عليّ هذا ، مقدّم

(١) قُطُفَنا ، بالفتح ثم الضم والفاء ساكنة وتاء مشناة والقصر : محلة بالجانب الغربيّ من بغداد ، بينها وبين دجلة أقلّ من ميل (مرصد الاطلاع) .

الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف ؛ ويشغل بشيء في علم المنطق ، وكان حلو العبارة ، وقد رأيت
أنا وحضرت عنده ، وسمعت كلامه ، وتوفي سنة عشر وستمائة .

قال ابن عالية : ونحن عنده نتحدث ؛ إذ دخل شخص من الحنابلة ، قد كان له دين
على بعض أهل الكوفة ، فأنحدر إليه يطالبه به ، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير ،
والحنبلي المذكور بالكوفة ؛ وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، ويجتمع
بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جموع عظيمة ؛ تتجاوز حد الإحصاء .

قال ابن عالية : فجعل الشيخ الفخر يسأل ذلك الشخص : ما فعلت ؟ ما رأيت ؟ هل وصل
مالك إليك ؟ هل بقي لك منه بقية عند غريمك ؟ وذلك يجاوبه ؛ حتى قال له : ياسيدي
لو شاهدت يوم الزيارة يوم الغدير ، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح والأقوال
الشنيعية وسب الصحابة جهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة ! فقال إسماعيل : أي
ذنب لهم ! والله ما جرأهم على ذلك ، ولا فتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر ! فقال
ذلك الشخص : ومن صاحب القبر ؟ قال : علي بن أبي طالب ! قال : ياسيدي ، هو الذي
سنّ لهم ذلك ، وعلمهم إياه وطرقهم إليه ! قال : نعم والله ، قال : ياسيدي فإن كان محققاً فلنا
أن نتولى فلاناً وفلاناً ! وإن كان مبطلاً فلنا نتولاه ! ينبغي أن نبرأ إماماً منه أو منهما .

قال ابن عالية : فقام إسماعيل مسرعاً ، فلبس نعليه ، وقال : لعن الله إسماعيل الفاعل
إن كان يعرف جواب هذه المسألة ، ودخل دار حرمة ، وقمنا نحن وانصرفنا .

الأصل :

منها في ذكر أصحاب الجمل :

فَجَرَّ جُؤَايَجُورُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا تُجَرُّ الْأُمَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا

مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ . فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا ، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ؛ فِي جَيْشٍ مَامِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أُعْطَانِي الطَّاعَةَ ، وَسَمَّحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ؛ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا ، وَخَزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا ، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا ، وَطَائِفَةً غَدْرًا .

فَوَاللَّهِ إِنْ لَوْمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا ، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ ، دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ !

الشَّرْحُ :

حُرْمَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ كُنَايَةً عَنِ الزَّوْجَةِ ، وَأَصْلُهُ الْأَهْلُ وَالْحَرَمُ ؛ وَكَذَلِكَ حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ كُنَايَةً عَنْهَا .

وَقَتْلُوهُمْ صَبْرًا ، أَيْ بَعْدَ الْأَسْرِ . وَقَوْلُهُ : « فَوَاللَّهِ إِنْ لَوْمْ يُصِيبُوا » إِنْ هَاهُنَا زَائِدَةٌ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَخْفَقَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ .

وَيُسْأَلُ عَنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَوْمْ يُصِيبُوا إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ بِأَسْرِهِ ، لِأَنَّهُمْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا » ، فَيُقَالُ : أَيْ جُوزَ قَتْلُ مَنْ لَمْ يُنْكِرِ الْمُنْكَرَ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْ إِنْكَارِهِ ؟

وَالْجَوَابُ ، أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا ذَلِكَ الْقَتْلَ مَبَاحًا ، فَإِنَّهُمْ إِذَا اعْتَقَدُوا إِبَاحَتَهُ ، فَقَدْ اعْتَقَدُوا إِبَاحَةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَيَكُونُ حَالُهُمْ حَالِ مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الزَّنا مَبَاحٌ ، أَوْ أَنَّ شَرْبَ الْخَمْرِ مَبَاحٌ .

وقال القطب الراوندى : يريد أنهم داخلون فى عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ (١).

ولقائل أن يقول : الإشكال إنما وقع فى قوله : « لولم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحدا حلّ لى قتل ذلك الجيش بأسره » ، لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسان ولا يد ، فهو علل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر ، ولم يعمل ذلك بعموم الآية .

وأما معنى قوله : « دع ماإنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التى دخلوا بها عليهم » ؛ فهو أنه لو كان المقتول واحدا حلّ لى قتلهم كلهم ، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدة مثل عدتهم التى دخلوا بها البصرة ! وماها هنا زائدة .

وصدق عليه السلام ، فإنهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال بالبصرة خلقا كثيرا ؛ بعضهم غدرا ، وبعضهم صبرا ، كما خطب به عليه السلام .

[ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال] (٢)

وروى أبو مخنف قال : حدثنا إسماعيل بن خالد ، عن قيس بن أبى حازم . وروى الكلبي ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وروى جرير بن يزيد ، عن عامر الشعبي ، وروى محمد بن إسحاق ، عن حبيب بن عمير ، قالوا جميعا : لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة ، طرقت ماء الحوآب ؛ وهوماء لبنى عامر بن صعصعة ، فنبتحتهم الكلاب ، فنفرت صعاب إبلهم ، فقال قائل منهم : لعن الله الحوآب فساأكثر كلابها ! فلما سمعت عائشة ذكر الحوآب ، قالت : أهذا ماء الحوآب ؟ قالوا : نعم ، فقالت : ردّونى ردّونى . فسألوها ما شأنها ؟ ما بدا لها ؟ فقالت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « كأنى بكلاب

(١) سورة المائدة ٣٣

(٢) انظر ص ١١١ وما بعدها من هذا الجزء .

ماء يدعى الحوَاب ، قد نبحتُ بعضَ نساءي » ، ثم قال لي : « إياكِ يا حيراء أن تكوِريها »
فقال لها الزبير : مهلاً يرحمك الله ، فإننا قد جُزْنَا ماء الحوَاب بفراسخ كثيرة ، فقالت : أعندك
مَنْ يشهد بأن هذه الكلاب النابجة ليست على ماء الحوَاب ؟ فلفق لها الزبير وطلحة خمسين
أعرابيا جعلأهم جُعلاً ، فلفقوا لها ، وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوَاب ، فكانت
هذه أول شهادة زور في الإسلام .
فسارت عائشة لوجهها .

قال أبو مخنف : وحدثنا عصام بن قدامة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول
الله صلى الله عليه وآله قال يوماً للنساء ، وهُنَّ عنده جميعاً : « ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل
الأدب ^(١) ، تنبجها كلاب الحوَاب ، يُقتلُ عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة ، كلهم في النار
وتنَجُّو بعدما كادت ! » .

قلت : وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله ، يحملون قوله عليه السلام : « وتنجو » على نجاتها
من النار ، والإمامية يحملون ذلك على نجاتها من القتل ، ومحملنا أرجح ، لأن لفظة « في النار »
أقرب إليه من لفظة « القتلى » ، والقرب معتبر في هذا الباب ؛ ألا ترى أن نحاة البصريين
أعملوا أقرب العاملين ، نظراً إلى القرب !

قال أبو مخنف : وحدثني الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، أن الزبير وطلحة
أغذا ^(٢) السير بعائشة ، حتى انتهوا إلى حفر أبي موسى الأشعري ، وهو قريب من البصرة ،
وكتبوا إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو عامل على عليه السلام على البصرة : أن أخل
لنا دار الإمارة ، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحنف بن قيس ، فقال له : إن هؤلاء
القوم قدِموا علينا ومعهم زوجة رسول الله ، والناس إليها سراع كما ترى ؛ فقال الأحنف :

(١) الأدب : الكثير الشعر .

(٢) الإغذاذ : الإسراع .

إنهم جاءوك بها للطلب بدم عثمان ؛ وهم الذين ألّبوا على عثمان الناس ، وسفكوا دمه ؛ وأراهم والله لا يزالون حتى يلقوا العداوة بيننا ، ويسفكوا دماءنا ، وأظنهم والله سيركبون منك خاصة مالا قبل لك به ، إن لم تتأهب لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة ، فإنك اليوم الوالى عليهم ، وأنت فيهم مطاع ، فسر إليهم بالناس ، وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة ، فيكون الناس لهم أطوع منهم لك !

فقال عثمان بن حنيف : الرأي مارأيت ، لكننى أكره الشر ، وأن أبدأهم به ، وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتينى كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبدى من بنى عمرو بن وداعة ، فلقراه كتاب طليحة والزبير ، فقال له مثل قول الأحنف ، وأجابه عثمان بمثل جوابه للأحنف ، فقال له حكيم : فأذن لى حتى أسير إليهم بالناس ، فإن دخلوا فى طاعة أمير المؤمنين ، وإلا نأذنبهم على سواء

فقال عثمان : لو كان ذلك رأى لسرت إليهم بنفسى ، قال حكيم : أما والله إن دخلوا عليك هذا المضر لنتقن قلوب كثير من الناس إليهم ، وليزيلنك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عليه عثمان .

قال : وكتب على إلى عثمان لما بلغه مشاركة القوم البصرة .

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف ، أما بعد :

فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا ، وتوجهوا إلى مصرك ، وساقهم الشيطان لطلب مالا يرضى الله به . والله أشد بأسا ، وأشد تنكيلا ، فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذى فارقونا عليه ، فإن أجابوا فأحسن جوارهم ماداموا

عندك ، وإن أبوا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف ، فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك ، وبينهم وهو خير الحاكمين ؛ وكتبت كتابي هذا إليك من الرَبْدة ، وأنا معجل المسير إليك إن شاء الله .

وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين .

قال : فلما وصل كتابُ عليّ عليه السلام إلى عثمان ، أرسل إلى أبي الأسود الدؤليّ وعمران بن الحصين الخزاعيّ ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم ، وما الذي أقدمهم ! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَرَ أبي موسى ، وبه معسكر القوم ، فدخلَا على عائشة ، فنالاها ووعظاها ، وأذكراها وناشداها الله ، فقالت لهما : القيا طلحة والزبير . فقاما من عندها ، ولقيا الزبير فكلماه ، فقال لهما : إنا جئنا للطلب بدم عثمان ، وندعو الناس إلى أن يردُّوا أمرَ الخلافة شورى ، ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إنَّ عثمان لم يُقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان من هم ، وأين هم ! وإنَّك وصاحبك وعائشة كنتم أشدَّ الناس عليه ، وأعظمهم إغراء بدمه ، فأقيدوا من أنفسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شورى ، فكيف وقد بايعتم عليا طائعين غير مكرهين ! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنت آخذ قائم سيفك ، تقول : ما أحقَّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه ! وامتنعت من بيعة أبي بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول !

فقال لهما : اذهبا فالقيا طلحة ، فقاما إلى طلحة فوجداه أخشن للمس ، شديد العريكة ، قوى العزم في إثارة الفتنة وإضرار نار الحرب ، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف ، فأخبراه وقال له أبو الأسود :

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفر وطاعينِ القوم وجالدِ واضبر^(١)

* وابرز لها مستلثما وشمر *

فقال ابن حنيف : إى والحرمين لأفعان ، وأمر مناديه فنادى فى الناس : السلاح
السلاح ! فاجتمعوا إليه ، وقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام	وطلحة كالنجم أو أبعـد
وأحسن قوليهما فادح	يضيق به الخطب مستنكد
وقد أوعدونا بجهد الوعيد	فأهون علينا بما أوعـدوا
فقلنا ركضتم ولم ترمـلوا	وأصـدرتم قبل أن تورـدوا
فإن تلقوا الحرب بين الرجال	فلقحها حـده الأنكـد
وإن عليا لكم مصـجر	ألا إنه الأسد الأسود
أما إنه ثالث العابدين	بمكة والله لا يعـبـد
فرخوا الخناق ولا تعجلوا	فإن غـدا لكم موعـد

قال : وأقبل القوم ، فلما انتهوا إلى المريد ، قام رجل من بنى جشم ، فقال : أيها الناس ،
أنا فلان الجشمى ، وقد أتاكم هؤلاء القوم ، فإن كانوا أتوكم من المكان الذى يأمن فيه
الطير والوحش والسباع ، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان ؛ فغيرنا ولى قتله . فأطيعونى
أيها الناس وردوهم من حيث أقبلوا ؛ فإنكم إن لم تفعلوا لم تساموا من الحرب الصروس
والفتنة الصماء التى لا تُبقي ولا تذر .

قال : فحصبه ناس من أهل البصرة ، فأمسك .

قال : واجتمع أهل البصرة إلى المريد حتى ملئوه مشاة وركبانا ، فقام طلحة فأشار
إلى الناس بالسكون ليخطب ، فسكتوا بعد جهد . فقال : أمّا بعد ، فإن عثمان بن عفان
كان من أهل السابقة والفضيلة ، ومن المهاجرين الأولين الذى رضى الله عنهم ورضوا عنه ،

ونزل القرآن ناطقا بفضلهم ، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد كان أحدث أحداثا يقمناها عليه ، فأتيناه فاستعتبناه فأعطينا ، فعدا عليه امرؤ ابتز هذه الأمة أمرها غصبا بغير رضا منها ولا مشورة ، فقتله وساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار ، فقتل محرما بريئا ثائبا . وقد جئناكم أيها الناس نطلب بدم عثمان ، وندعوكم إلى الطلب بدمه ؛ فإن نحن أمكننا الله من قتلته قتلناه به ، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين ، وكانت خلافة رحمة للأمة جميعا ، فإن كل من أخذ الأمر من غير رضا من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً ، كان ملكه ملكاً عَضُوضاً ، وحدثا كثيراً .

ثم قام الزبير ، فتكلم بمثل كلام طلحة .

فقام إليهما ناس من أهل البصرة ، فقالوا لهما : ألم تبايعا عليا فيمن بايعه ؟ فقيم بايعتما ثم نكثتما ! فقالا : ما بايعنا ، وما لأحد في أعناقنا بيعة ؛ وإنما استكرهنا على بيعة . فقال ناس : قد صدقا وأحسننا القول ، وقطعا بالثواب . وقال ناس : ما صدقا ولا أصابا في القول ؛ حتى ارتفعت الأصوات .

قال : ثم أقبلت عائشة على جمليها ، فنادت بصوت مرتفع : أيها الناس ، أفلوا الكلام واسكتوا ، فأسكت الناس لها ، فقالت :

إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة ؛ حتى قتل مظلوما ثائبا ، وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط ، وتأميره الشبان ، وحايته موضع الغمامة ، فقتلوه محرماً في حرمة الشهر وحرمة البلد ، ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشا رمت غرضها بنبالها ، وأدمت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئاً ، ولا سلكت به سبيلاً

قاصدا ، أما والله ليرؤونها بلايا عقيمة تنبئه النائم ، وتقيم الجالس ، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم ؛ ويسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ؛ إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه ! ^(١) كما يماص الثوب الرحيض ^(٢) ، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصياً . تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ! ألا إن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرتهم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان .

قال : فاج الناس واختلطوا ، فمن قائل : القول ما قالت ، ومن قائل يقول : وماهى وهذا الأمر ، إنما هى امرأة مأمورة بلزوم بيتها ! وارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال ، وتراموا بالخصى .

ثم إن الناس تمايزوا فصاروا فريقين : فريق مع عثمان بن حنيف ، وفريق مع عائشة وأصحابها .

قال : وحدثنا الأشعث بن سوار ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي الخليل ، قال : لما نزل طلحة والزبير المربد ، أتيتهما فوجدتهما مجتمعين ، فقلت لهما : ناشدتكما الله وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما الذى أقدمكما أرضنا هذه ؟ فلم يتكلما ، فأعدت عليهما ، فقالا : بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا ، فحشنا نطلبها .

(١) الموص : الغسل بالأصابع ؛ وفي النهاية لابن الأثير ٤ : ١١٤ « يقال : مصته أموصه موصاً ، أرادت أنهم استتابوه عما تقموا منه ، فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه » .
(٢) الرحيض : المغسول .

قال : وقد روى محمد بن سيرين ، عن الأحنف بن قيس أنه لقيهما ، فقالا له مثل مقالتهما الأولى : إنما جئنا لطلب الدنيا .

وقد روى المدائني أيضاً نحوه مما روى أبو مخنف ، قال : بعث علي عليه السلام ابن عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب ، فقال له : إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لكم : ألم تبايعني طائعاً غير مكره ، فما الذي رابك مني ، فاستحلت به قتالي ! قال : فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي : إننا مع الخوف الشديد لنطمع . لم يقل غير ذلك .

قال أبو إسحاق : فسألت محمد بن علي بن الحسين عليه السلام ما تراه يعني بقوله هذا ، فقال : أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألته ، عن هذا فقال : يقول : إننا مع الخوف الشديد مما نحن عليه ، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني جعفر بن محمد عليه السلام ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : بعثني علي عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير ، وبعث معي بمصحف منشور ، وإن الريح لتصفق ورقه ، فقال لي : قل لهما : هذا كتاب الله بيننا وبينكم ، فما تريدان ؟ فلم يكن لهما جواب إلا أن قالا : نريد ما أَرَادَ ؛ كأنهما يقولان : الملك . فرجعتُ إلى علي فأخبرته .

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب " المغني " عن وهب بن جرير ، قال : قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير : إن لكما فضلاً وصحبة ، فأخبراني عن مسيركما

هذا وقتالكما ، أشي : أمر كما به رسول الله صلى الله عليه وآله ، أم رأي رأيتاه ؟ فأما طلحة ، فسكت وجعل ينكت في الأرض ، وأما الزبير ، فقال : ويحك ! حدثنا أن هاهنا دراهم كثيرة ، فحطنا لناخذ منها .

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجة في أن طلحة تاب ، وأن الزبير لم يكن مصرّاً على الحرب ؛ والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف ، وإن صحّ هو وما قبله ؛ إنه لدليل على تخفي شديد ، وضعف عظيم ، ونقص ظاهر . وليت شعري ما الذي أحوجهما إلى هذا القول ! وإذا كان هذا في أنفسهما ، فهلا كتماه !

ثم نعود إلى خبرهما : قال أبو مخنف : فلما أقبل طلحة والزبير من المريد ، يريدان عثمان بن حنيف ، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك ؛ فمضوا حتى انتهوا إلى موضع الدّباغين ، فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف ، فشجّروهم^(١) طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح ، فحمل عليهم حكيم بن جبلة ، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك ، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة ، فأخذوا إلى مقبرة بني مازن ، فوقفوا بها ملياً حتى ثابت إليهم خيلهم ، ثم أخذوا على مُسنّة البصرة ، حتى انتهوا إلى الرابوقة ، ثم أتوا سبخة دار الرزق ، فنزلوها .

قال : وأتاها عبد الله بن حكيم التيمي لما نزل السبخة بكتب كانا كتبها إليه ، فقال لطلحة : يا أبا محمد ، أما هذا كتبك إلينا ؟ قال : بلى ، قال : فكتبت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله ؛ حتى إذا قتلته ، أتيتنا نائراً بدمه ! فلعمري ما هذا رأيك ؛ لا تريد إلا هذه الدنيا . مهلاً ! إذا كان هذا رأيك ؛ فلم قبلت من عليّ ما عرض عليك من البيعة ،

(١) شجره بالرمح : طعنه .

فبايعته طائعاً راضياً ، ثم نكثت ببيعتك ، ثم جئت لتدخلنا في فتنتك ! فقال : إن عليا دعاني إلى بيعته بعد ما بايع الناس ، فعلتُ لولم أقبل ما عرضه علي لم يتم لي ، ثم يغري بي مَنْ معه .

قال : ثم أصبحنا من غدٍ فصفاً للحرب ، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه ، فناشدهما الله والإسلام ، وأذكرهما ببيعتهما عليا عليه السلام ، فقالا : نطلب بدم عثمان ، فقال لهما : وما أنتما وذاك ! أين بنوه ؟ أين بنو عمه الذين هم أحق به منكم ! كلا والله ؛ ولكنكما حسدتما ؛ حيث اجتمع الناس عليه ، وكنتما ترجوان هذا الأمر ، وتعملان له ! وهل كان أحدهما أشدَّ على عثمان قولاً منكما ! فشتما شتماً قبيحاً ، وذكر أمه ، فقال للزبير : أما والله لولا صفية ومكانها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل ، وأن الأمر بيني وبينك - يابن الصعبة - يعني طلحة - أعظم من القول - لأعلمتكما من أمر كما ما يسوءكما . اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين !

ثم حمل عليهم ، واقتتل الناس قتالاً شديداً ، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح فكتب :

هذا ما اصطاح عليه عثمان بن حنيف الأنصارى ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير ومَنْ معهم من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما ؛ أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر ، وأن لطلحة والزبير ومَنْ معهم أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة ، ولا يضارَّ بعضهم بعضاً في طريق ولا فُرْضة ولا سوق ولا شِرْعة ولا مِرْفَق ، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؛ فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة ، وإن أحبوا لحق كل قوم بهوهم وما أحبوا من

قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه ؛ من عهد وذمة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه : الحقوا رحمكم الله بأهلكم ، وضعوا سلاحكم ، وداووا جرحاكم ، فمكثوا كذلك أياما .

ثم إن طلحة والزبير قالا : إن قدم على ونحن على هذه الحال من القلة والضعف ؛ ليأخذن بأعناقنا ، فأجمعاً على مراسلة القبائل واستمالة العرب ، فأرسلوا إلى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف ، يدعواهم إلى الطلب بدم عثمان ، وخلع على ، وإخراج ابن حنيف من البصرة . فبايعهم على ذلك الأزد وضبة وقيس بن عيلان كلها إلا الرجل والرجلين من القبيلة ، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم ، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم ؛ فجاءه طلحة والزبير إلى داره ، فتوارى عنهما ، فقالت له أمه : مارأيت مثلك ! أتاك شيخاً قریش فتواريت عنهما ! فلم تنزل به حتى ظهر لهما ، وبايعهما ومعه بنو عمرو ابن تميم كلهم وبنو حنظلة إلا بني يربوع ؛ فإن عامتهم كانوا شيعة لعلي عليه السلام ، وبايعهم بنو دارم كلهم إلا نفرأ من بني مجاشع ذوى دين وفضل .

فلما استوثق لطلحة والزبير أمرهما ، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ، ومعهما أصحابهما ، قد ألبسوهما الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب ، فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر ، وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه ، وأقيمت الصلاة ، فتقدم عثمان ليصلي بهم ، فأخره أصحاب طلحة والزبير ، وقدموا الزبير فجاءت السبايكة ؛ وهم الشرط حرس بيت المال . فأخرجوا الزبير ، وقدموا عثمان ، فغلبهم أصحاب الزبير ، فقدموا الزبير وأخروا عثمان ، فلم يزلوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع ، وصاح بهم أهل المسجد : ألا تتقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس ! فغلب الزبير فصلى بالناس ، فلما انصرف من

صلاته ، صاح بأصحابه المستسلحين : أن خذوا عثمان بن حنيف ، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما ، فلما أسر ضرب ضرب الموت ، ونيف جاجباه وأشعار عينيه ، وكل شعرة في رأسه ووجهه ، وأخذوا السبايكة وهم سبعون رجلاً ؛ فانطلقوا بهم وبعثان ابن حنيف إلى عائشة ، فقالت لأبان بن عثمان : اخرج إليه فاضرب عنقه ، فإن الأنصار قتلت أباك ، وأعانت على قتله ، فنادى عثمان : يا عائشة ، ويا طلحة ، ويا زبير ؛ إن أخي سهل ابن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة ؛ وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعن السيف في بني أيكم وأهليكم ورهطكم ؛ فلا يبق أحداً منكم . فكفوا عنه ، وخافوا أن يقع سهل بن حنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة ، فتركوه .

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن أقتل السبايكة ، فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك . قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم ، ولي ذلك منهم عبد الله ابنه ، وهم سبعون رجلاً ، وبقيت منهم طائفة مستمسكين ببيت المال . قالوا : لا ندفعه إليكم حتى يقدم أمير المؤمنين ؛ فسار إليهم الزبير في جيش ليلًا ، فأوقع بهم ؛ وأخذ منهم خمسين أسيراً ، فقتلهم صبرا .

قال أبو مخنف : فحدثنا الصقعب بن زهير ، قال : كانت السبايكة القتلى يومئذ أربعين رجلاً ، قال : فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدر كان في الإسلام ، وكان السبايكة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبرا . قال : وخيروا عثمان ابن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي ، فاختر الرحيل ؛ فخلوا سبيله ، فلحق بعلي عليه السلام ، فلما رآه بكى ، وقال له : فارقت شيخاً ، وجئتك أمرد ، فقال علي : إنا لله وإنا إليه راجعون ! قالها ثلاثاً .

قلت : السبايحة لفظة معربة ، قد ذكرها الجوهري في كتاب " الصحاح " ^(١) قال :
هم قوم من السُّد ، كانوا بالبصرة جلاوزة ^(٢) وحرّاس السجن ، والهاء للمجبة والنسب ،
قال يزيد بن مفرغ الجعفي :

وطلما طيم من سبائك خزر يلبسوني مع الصبح القيودا

قال : فلما بلغ حكيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حنيف ، خرج في ثلثمائة من
عبد القيس مخالفا لهم ومنابذا ، فخرجوا إليه ، واخلوا عائشة على جمل ؛ فسمي ذلك اليوم يوم
الجل الأصغر ، ويوم على يوم الجل الأكبر .

وتجالد الفريقان بالسيوف ، فشدّ رجل من الأزد من عسكر عائشة على حكيم بن جبلة ،
فضرب رجله فقطعها ، ووقع الأزدى عن فرسه ، فثنا حكيم ، فأخذ رجله فرمى بها الأزدى ،
فصرعه ، ثم دبّ إليه فقتله متكئا عليه ، خائفا له حتى زهقت نفسه ، فرمى بحكيم إنسانا
وهو يجود بنفسه ، فقال : من فعل بك ؟ قال : وسادى ، فنظر فإذا الأزدى تحته ، وكان
حكيم شجاعا مذكورا .

قال : وقتل مع حكيم إخوة له ثلاثة ، وقتل أصحابه كلهم ، وهم ثلثمائة من عبد القيس ،
والقليل منهم من بكر بن وائل ، فلما صفت البصرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه
وطرد ابن حنيف عنهما اختلفا في الصلاة ، وأراد كل منهما أن يؤمّ بالناس ، وخاف أن
تكون صلاته خلف صاحبه تسليما له ورضا بتقدّمه ؛ فأصلحت بينهما عائشة ، بأن جعلت
عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصليان بالناس ، هذا يوما وهذا يوما .

قال أبو مخنف : ثم دخل بيت المال بالبصرة ، فلما رأوا ما فيه من الأموال ، قال
الزبير : ﴿ وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَافِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ ^(٣) ، فنحن أحقّ

(١) الصحاح ١ : ٣٢١

(٢) الجلاوز : الشرطى .

(٣) سورة الفتح ٢٠ .

بها من أهل البصرة، فأخذوا ذلك المال كله، فلما غلب على عليه السلام رد تلك الأموال إلى بيت المال، وقسمها في المسلمين.

وقد ذكرنا فيما تقدم كيفية الوقعة، ومقتل الزبير فاراً عن الحرب خوفاً أو توبة - ونحن نقول: إنها توبة - وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أم المؤمنين وإحسان على عليه السلام إليها وإلى من أسير في الحرب، أو ظفر به بعدها.

[منافرة بين ولدَي علي وطلحة]

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمي - يلقب أبا بكرة، ولي شرطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس - كلم إسماعيل بن جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة^(١)، فقال القاسم بن محمد: لم يزل فضلنا وإحساننا سابقاً عليكم يا بني هاشم وعلي بن عبد مناف كافة، فقال إسماعيل: أي فضل وإحسان أسديتموه إلى بني عبد مناف؟ أغضب أبوك جدّي بقوله: ليموتن محمد ولنجلون بين خلاخيل نسائه كما جال بين خلاخيل نساينا^(٢). فأنزل الله تعالى مراغمة لأبيك: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾^(٣) ومنع ابن عمك أمي حقها من فداك وغيرها من ميراث أبيها؛ وأجلب أبوك على عثمان وحصره حتى قُتل، ونكث بيعة علي وشام^(٤) السيف في وجهه، وأفسد قلوب المسلمين

(١) المنافرة: المفاخرة بالحسب والنسب.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣: ٥٠٦.

(٣) سورة الأحزاب ٥٣.

(٤) شام بالسيف: شهره.

عليه ، فإن كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً ؛ فعرّفتني مَنْ هم جعلتُ فداك !

[منافرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس]

وتزوج عبد الله بن الزبير أم عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزارية ، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة : أتدريين مَنْ معك في حجّلتك ^(١) ؟ قالت : نعم ؛ عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد بن أسد بن عبد العزّى .

قال : ليس غير هذا ! قالت : فما الذي تريد ؟ قال : معك مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين من الرأس . قالت : أما والله لو أنّ بعض بني عبد مناف حضرك لقال لك خلاف قولك . فغضب ، وقال : الطعام والشراب علىّ حرام حتى أحضرك الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف ؛ فلا يستطيعون لذلك إنكاراً . قالت : إن أطعنتي لم تفعل ، وأنت أعلم وشأنك .

فخرج إلى المسجد فرأى حلقةً فيها قوم من قريش ، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فقال لهم ابنُ الزبير : أحبّ أن تنطلقوا معي إلى منزلي ؛ فقام القوم بأجمعهم حتى وقفوا على باب بيته ؛ فقال ابنُ الزبير : يا هذه اطرحي عليك ستركِ ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة ، فتغدى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إنّما جمعْتُكم لحديث ردّته علىّ صاحبةُ السّتر ، وزعمتُ أنّه لو كان بعض بني عبد مناف حضرنى لما أقرّلى بما قلت ، وقد حضرتم جميعاً . وأنت يا بنَ عباس ، ما تقول ؟ إنّى أخبرتها أنّ معها في خدرها مَنْ أصبح في قريش بمنزلة

(١) الحجلة ، بالتحريك : بيت للعروس يزين بالثياب والأسرة والسنور .

الرأس من الجسد ، بل بمنزلة العينين من الرأس ! فردّت على مقالتي ، فقال ابن عباس : أراك قصدت قصدي ؛ فإن شئت أن أقول قلت ، وإن شئت أن أكفّ كففت ، قال : بل قل ، وما عسى أن تقول ! أأستعلم أنّي ابنُ الزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنّ أمّي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ، وأنّ عمّي خديجة سيدة نساء العالمين ، وأنّ صفيّة عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّتي ، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتي ! فهل تستطيع لهذا إنكاراً !

قال ابن عباس : لقد ذكرت شرفاً شريفاً ، وفخراً فاعزاً ، غير أنّك تفاخر من بفخره فخرت ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أولى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة ، قال ابن عباس :

* قد أنصف القارة من رامها ^(١) *

نشدتكم الله أيها الحاضرون ! أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قریش ؟ قالوا : عبد المطلب ، قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم ، قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تفاخرني يابن الزبير وقد قضى عليك رسول الله لا قول هازل
ولو غيرنا يابن الزبير فخرت ولكنّا ساميت شمس الأصائل

(١) القارة : قوم من رماة العرب ؛ وهم عضل والديش ابنا الهون بن خزيمه من كنانة ؛ سمو قارة لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم في كنانة . وأصل المثل كما ذكره صاحب اللسان : أن رجلين التقيا ، أحدهما قارى والآخر أسدى ؛ فقال القارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال : اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتي ، وأنشد :

قد أنصف القارة من رامها إنّنا إذا ما فئة نلقاها

* نردّ أولاهها على آخرها *

ثم انتزع له سهماً فشك فؤاده ..

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل في قوله : « ما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما » ، فقد فارقناك من بعد قصي بن كلاب ، أفنحن في فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت : نعم خُصِمْتُ ^(١) ، وإن قلت لا كفرت !

فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرّك بك بطعامنا يا ابن عباس لأعرت جبينك قبل أن تقوم من مجلسك ، قال ابن عباس : ولم ؟ أباطل ؛ فالباطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل !

فقالت المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتُ عن هذا المجلس ، فأبى إلا ما ترون .

فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ! اقنعي ببيعك ، فما أعظم الخطر ، وما أكرم الخبر ! فأخذ القوم بيد ابن عباس - وكان قد عمي - فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أحمته غير مرة ، فنهض وقال :

إِلَّا يَا قَوْمَنَا ارْتَحِلُوا وَسِيرُوا فَلَوْ تَرَكَ الْقَطَا لَفَقَا وَنَامَا

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا ، أقبل على ، فما كنت لتدعني حتى أقول ، وإيم الله لقد عرف الأقسام أني سابق غير مسبوق ، وابن حوارى وصديق ، متبجح في الشرف الأنيق ، خير من طليق .

فقال ابن عباس : دَسَعْتَ بِجِرَّتِكَ ^(٢) فلم تبق شيئاً ؟ هذا الكلام مردود ، من امرئٍ حسود ، فإن كنت سابقاً فإلى من سَبَقْتَ ؟ وإن كنت فاعزاً فبمن فخرت ؟ فإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا ، وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، والكشكث ^(٣) في فمك ويديك . وأما ما ذكرت

(١) خصمت : أى غلبت .

(٢) يقال : دسع البعير بجرته ؛ أى دفعها حتى أخرجها ؛ والكلام على التمثيل .

(٣) الكشكث : التراب .

من الطليق ، فوالله لقد ابتلي فصبر ، وأنعم عليه فشكر ؛ وإن كان والله لوفياً كريماً غير
ناقض ببيعة بعد توكيدها ، ولا مسلم كتيبة بعد التأمر عليها .

فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجن ؛ والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك !
قال ابن عباس : والله إنى لأعلم إلا أنه قرّ وما كرّ ، وحارب فاصبر ، وبايع فماتم ،
وقطع الرحم ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل .

وَأَذْرَكَ مِنْهَا بَعْضَ مَا كَانَ يَرْجَى وَقَصَرَ عَنِ جَرَمِي الْكَرَامِ وَبَلَدَا
وَمَا كَانَ إِلَّا كَالْهَجِينِ أَمَامَهُ عَنَاقُ فُجَارَاهِ الْعَنَاقُ فَأَجْهَدَا

فقال ابن الزبير : لم يبق يا بني هاشم غير المشائمة^(١) والمضاربة .
فقال عبدالله بن الحصين بن الحارث : أقناه عنك يا ابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ،
والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسغب الظمآن ، يفتح فاه
يستزید من الريح ، فلا يشبع من سغب ، ولا يروى من عطش ؛ فقل إن
شئت ، أوفدع .
وانصرف القوم .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

أَمِينٌ وَوَحِيهِ ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ .
 أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ ؛
 فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ ، فَإِنْ أَبِي قُوتِلَ .
 وَلَعَمْرِي لَنْ كَانَتْ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ ؛ مَا إِلَى ذَلِكَ
 سَبِيلٌ ؛ وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ ،
 وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ .
 أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ : رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ .

الشرح :

صَدَرَ الْكَلَامُ فِي ذِكْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَيَتْلُوهُ فَصُولُ :
 أُولَاهَا : أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْإِمَامَةِ أَقْوَامُهُ عَلَيْهِا ، وَأَعْلَمُهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهَا ؛ وَهَذَا لَا يَنَافِي
 مَذْهَبَ أَصْحَابِنَا الْبَغْدَادِيِّينَ فِي صِحَّةِ إِمَامَةِ الْمَفْضُولِ ؛ لِأَنَّهُ مَاقَالَ : إِنْ إِمَامَةٌ غَيْرُ الْأَقْوَى
 فَاسِدَةٌ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : إِنْ الْأَقْوَى أَحَقٌّ ؛ وَأَصْحَابُنَا لَا يَنْكُرُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحَقُّ مِنْ
 تَقَدُّمِهِ بِالْإِمَامَةِ مَعَ قَوْلِهِمْ بِصِحَّةِ إِمَامَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ ؛ لِأَنَّهُ لَا مَنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِهِ أَحَقَّ ، وَبَيْنَ صِحَّةِ
 إِمَامَةِ غَيْرِهِ .

فإن قلت : أى فرق بين أقوامهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه ؟ قلت : أقوامهم أحسنهم سياسة ، وأعلمهم بأمر الله أكثرهم علما وإجراء للتدبير بمقتضى العلم ؛ وبين الأمرين فرق واضح ، فقد يكون سائسا حاذقا ، ولا يكون عالما بالفقه ، وقد يكون سائسا فقيها ، ولا يجرى التدبير على مقتضى علمه وفقهه .

وثانيها : أن الإمامة لا يشترط في صحة انعقادها أن يحضرها الناس كافة ، لأنه لو كان ذلك مشترطا لأدى إلى ألا تنعقد إمامة أبداً لتعذر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض ، ولكنها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحل والعقد الحاضرين ، ثم لا يجوز بعد عقد الحاضريها أن يرجعوا من غير سبب يقتضى رجوعهم ، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير من عقد له ، بل يكون محجوباً بعقد الحاضرين ، مكلفاً طاعة الإمام المعقود له ؛ وعلى هذا جرت الحال في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ، وانعقد إجماع المسلمين عليه ؛ وهذا الكلام تصريح بصحة مذهب أصحابنا في أن الاختيار طريق إلى الإمامة ، ومبطل لما تقوله الإمامية من دعوى النص عليه ؛ ومن قولهم : لا طريق إلى الإمامة سوى النص أو المعجز .

وثالثها : أن الخارج على الإمام يستعتب أولاً بالكلام والمراسلة ، فإن أبى قوتل ؛ وهذا هو نص الكتاب العزيز : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَنفِرَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

ورابعها : أنه يقاتل أحد رجلين : إما رجلاً ادعى ما ليس له نحو أن يخرج على الإمام من يدعى الخلافة لنفسه ، وإما رجلاً منع ماعليه ، نحو أن يخرج على الإمام رجل لا يدعى الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط .

فإن قلت : الخارج على الإمام مدعى الخلافة لنفسه ، مانع ماعليه أيضا لأنه قد امتنع من الطاعة ، فقد دخل أحد القسمين في الآخر !

قلت : لما كان مدعى الخلافة قد اجتمع له أمران : إيجابى وسلبى ، فالإيجابى دعواه الخلافة ، والسلبى امتناعه من الطاعة ، كان متميزاً بمن لم يحصل له إلا القسم السلبى فقط ، وهو مانع الطاعة لا غير ، فكان الأحسن فى فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب ، فلذلك قال : « إمامدعيا ما ليس له ، أو مانعاً ما هو عليه » .

الأصل :

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِمَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ ؛ وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ ؛ وَقَدْ فَتِّحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ إِلَّا أَهْلَ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْحَقِّ ، فَاْمْضُوا لِمَا تَوْثَرُونَ بِهِ ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا ؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تَنْكِرُونَهُ غَيْرًا .

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا ، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا ، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلَا مَزَالِكُمْ الَّتِي خُلِقْتُمْ لَهُ ؛ وَلَا الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا .

أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ ، وَلَا تَبْقُونَ عَلَيْهَا ؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَرْنَاكُمْ شَرَّهَا ، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا ، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا ؛ وَسَاقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا ، وَأَنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا يَخِنَنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الْأُمَّةِ عَلَى مَا رَوَى عَنْهُ مِنْهَا ، وَأَسْتَتِمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ .

أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ .
أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْخَلْقِ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْرَ !

الشَّيْخُ :

لم يكن المسلمون قَبْلَ حَرْبِ الْجَمَلِ يعرفون كيفية قتالِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ؛ وَإِنَّمَا تَعَلَّمُوا فَقِهِ
ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَوْلَا عَلِيٌّ لَمَا عَرِفَ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ أَهْلِ الْبَغْيِ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ إِلَّا أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ » ، وَذَلِكَ لِأَنَّ
الْمُسْلِمِينَ عَظُمَ عِنْدَهُمْ حَرْبُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَأَكْبَرُوهُ ؛ وَمَنْ أَقْدَمَ عِنْدَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَمَ عَلَى خَوْفٍ
وَحَذَرٍ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ هَذَا الْعِلْمُ لَيْسَ يَدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا لَهُ
قَوْمٌ مَخْصُوصُونَ .

ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْمَضِيِّ عِنْدَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، وَبِالْإِتِّهَاءِ عَمَّا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَعْبَجَلُوا
بِالْحُكْمِ عَلَى أَمْرٍ مَلْتَبَسٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ وَيَتَّضَحَ .

ثُمَّ قَالَ : إِنْ عِنْدَنَا تَغْيِيرٌ لِكُلِّ مَا تَنْكَرُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَثْبِتُ أَنَّهُ يَجِبُ
إِنْكَارُهَا وَتَغْيِيرُهَا ، أَيْ لَسْتُ كَعُثْمَانَ أَصْرَّ عَلَى ارْتِكَابِ مَا أَسْهَى عَنْهُ ، بَلْ أَعْيَّرُ
كُلَّ مَا يَنْكَرُهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَيَقْتَضِي الْحَالُ وَالشَّرْعُ تَغْيِيرَهُ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الدُّنْيَا الَّتِي تَغْضِبُ النَّاسَ وَتَرْضِيهِمْ ؛ وَهِيَ مُنْتَهَى أَمَانِيَّتِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ ، لَيْسَتْ
دَارَهُمْ ، وَإِنَّمَا هِيَ طَرِيقٌ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمُدَّةُ اللَّبْثِ فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ يَسِيرَةٌ جَدًّا .

وَقَالَ : إِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ غَرَارَةً فَإِنَّهَا مَنْذَرَةٌ وَمَحْذَرَةٌ لِأَبْنَائِهَا بِمَا رَأَوْهُ مِنْ آثَارِهَا فِي

سَلَفَهُمْ وَإِخْوَتَهُمْ وَأَحِبَّائَهُمْ ، وَمَنَادَاتِهَا عَلَى نَفْسِهَا بِأَنِّهَا فَاعِلَةٌ بِهِمْ مَا فَعَلْتَ بِأَوْلَئِكَ مِنَ
الْفَنَاءِ ، وَفِرَاقِ الْمَأْلُوفِ .

قال : فدعوا غرورها لتحذيرها ؛ وذلك لأنَّ جانب تحذيرها أَوْلَى بأنَّ يعمل عليه من جانب
غرورها ؛ لأنَّ غرورها إنما هو بامرٍ سريعٍ مع التصرُّم والالتضاء ، وتحذيرها إنما هو لأمرٍ جليلٍ
عظيمٍ ؛ فإنَّ الفناء المعجَّل محسوسٌ ؛ وقد دلَّ العقل والشرائع كافَّة على أنَّ بعد ذلك الفناء
سعادة وشقاوة ، فينبغي للعاقل أن يحذَّر من تلك الشقاوة ، ويرغب في تلك السعادة ،
ولا سبيلَ إلى ذلك إلا برفض غرور الدنيا ، على أنَّه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على
أهل اللبِّ والبصيرة رفضُها ، لأنَّ الموجود منها خيال ، فإنَّه أشبه شيء بأحلام المنام ؛
فالتمسَّك به والإخلاد إليه مُحمق .

والخنين : صوت يخرجُ من الأنف عند البكاء ، وأضافه إلى الأمة ؛ لأنَّ الإماء كثيرا
ما يضرَّبن فيسكين ، ويسمع الخنين منهنَّ ؛ ولأنَّ الحرَّة تأنف من البكاء والخنين .
' وزوى : قبض .

ثم ذكر أنَّه لا يضرُّ المكلف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه ، يعنى
القيام بالواجبات والالتفاء عن المحظورات ، ولا ينفعه حصول الدنيا كلها بعد تضييعه
دينه ؛ لأنَّ ابتياع لذَّةٍ متناهية بلذَّةٍ غير متناهية يخرج اللذة المتناهية من باب كونها
نفعاً ، ويدخلها في باب المضارِّ ، فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول
مضارٍّ وعقوبات غير متناهية ، أعاذنا الله منها !

(نم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليهِ الجزء العاشر)

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الصفحة

- ١٨-٣ ذكر أطراف مما شجر بين علي وعثمان في أثناء خلافته
- ٢٤-١٨ فصل فيما شجر بين عثمان وابن عباس من الكلام في حضرة علي
- ٣٠-٢٤ أسباب المنافسة بين علي وعثمان
- ٣١ ١٣٦ - من كلام له عليه السلام في وصف بيعته
- ٣٨-٣٣ ١٣٧ - من كلام له عليه السلام في شأن طلحة والزبير
- ٤٧-٤٠ ١٣٨ - من خطبة له عليه السلام يومئذ فيها إلى ذكر الملاحم
- ٤٦-٤٢ فصل في الاعتراض وإيراد مثل منه
- ٤٩ ١٣٩ - من كلام له عليه السلام في وقت الشورى
- ٥٨-٤٩ من أخبار يوم الشورى وتولية عثمان
- ٥٩ ١٤٠ - من كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة الناس
- ٦٦-٦٠ أقوال مأثورة في ذم الغيبة والاستماع إلى المفتابين
- ٦٩-٦٦ حكم الغيبة في الدين
- ٧١-٦٩ فصل في الأسباب الباعثة على الغيبة
- ٧١ طريق التوبة من الغيبة
- ٧٢ ١٤١ - من كلام له عليه السلام في النهي عن التسرع بسوء الظن
- ٧٤ ١٤٢ - من كلام له عليه السلام في أمر من وضع المعروف عند غير أهله
- ٧٧-٧٦ ١٤٣ - من خطبة له عليه السلام في الاستسقاء
- ٨٣-٧٩ الثواب والعقاب عند المسلمين وأهل الكتاب

- ١٤٤ - من خطبة له عليه السلام في بعثة الأنبياء ثم استطراد إلى وصف
٨٨-٨٤ بني هاشم
- ٨٨، ٨٧ اختلاف الفرق الإسلامية في كون الأئمة من قریش
- ٩٣-٩١ ١٤٥ - من خطبة له عليه السلام في الزهد ، وذكر البدع والسنن
- ٩٥ ١٤٦ - من كلام له عليه السلام وقد استشاره عمر في الشخص لقتال
الفرس بنفسه
- ٩٩-٩٦ يوم القادسية
- ١٠٢-٩٩ يوم نهاوند
- ١٤٧ - من خطبة له في هدى الناس ببعثة الرسول عليه السلام ، ذكر
من انحرف عن القرآن ؛ وفيه انبة الناس إلى مواطن الرش والغي
- ١٠٦-١٠٣ ١٤٨ - من كلام له عليه السلام في ذكر أهل البصرة
- ١٠٩ من أخبار يوم الجمل
- ١١٢، ١١١ مقتل طلحة والزبير
- ١١٥-١١٣ ١٤٩ - من كلام له عليه السلام قبل موته
- ١١٧، ١١٦ ١٥٠ - من خطبة له عليه السلام ويومى فيها إلى الملاحم
- ١٣٢-١٢٦ ١٥١ - من خطبة له عليه السلام في التحذير من الفتن وغيرها مما يهلك
- ١٤٦-١٣٧ ١٥٢ - من خطبة له في تمجيد الله وتعظيمه
- ١٥٢-١٤٧ أبحاث كلامية
- ١٥٢-١٤٧ عقيدة علي في عثمان ورأى المعزلة في ذلك
- ١٥٣ ١٥٣ - من خطبة له عليه السلام في تحذير الناس من الغفلة
- ١٦٠-١٥٧ ١٥٤ - من خطبة له عليه السلام في وصف الداعي ووصف أهل البيت
- ١٧٩-١٦٤ وذكر لزوم العمل بالعلم والعلم بالعمل

- الصفحة
- ١٥٥ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقه الخفاش
١٨٢-١٨١
- فصل في ذكر بعض غرائب الطيور وما فيها من عجب
١٨٨-١٨٣
- ١٥٦ - من كلام له عليه السلام خاطب به أهل البصرة على جهة
اقتصاص الملاحم
٢٠٣-١٨٩
- فصل في ترجمة عائشة وذكر طرف من أخبارها
١٩٩-١٩٠
- ١٥٧ - ومن كلام له عليه السلام حينما قام إليه رجل وسأله عن الفتنة
٢٠٥
- ١٥٨ - من خطبة له عليه السلام في وصف الدهر والتخلف منه، وفيها جملة وصايا
٢١٠-٢٠٩
- ١٥٩ - ومن خطبة له في حال الناس قبل البعثة وبعدها
٢١٨-٢١٧
- ١٦٠ - من خطبة له عليه السلام في وصف حاله مع أصحابه
٢٢١
- ١٦١ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله ، وفيها ذكر شخص يزعم
أنه يرجو الله وهو لا يعمل لرجائه، وفيها حث على الاقتداء بالأنبياء
٢٢٩-٢٢٣
- تذ من الأخبار والآثار الواردة في الابتعاد عن زينة الدنيا
٢٣٦-٢٣٤
- ١٦٢ - من خطبة له عليه السلام ؛ ذكر فيها الرسول عليه السلام
وشرف أسرته
٢٣٩-٢٣٧
- ١٦٣ - من كلام له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم
قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به ؟
٢٤١
- حديث عن امرئ القيس
٢٤٥-٢٤٤
- ١٦٤ - من خطبة له عليه السلام في تنزيه الله وتذكير الإنسان بهديه له
في سبيل معيشتة .
٢٥٧-٢٥٢
- مباحث كلامية
٢٥٧-٢٥٣
- ١٦٥ - من كلام قاله عليه السلام لعثمان بن عفان ، لما اجتمع عليه الناس
وسأله مخاطبته عنهم
٢٦٢-٢٦١
- ١٦٦ - من خطبة له يذكر فيها عجيب خلقه الطاوس ، وفيها وصف الجنة
٢٧٨-٢٦٦

- الصفحة
- ١٦٧ - من خطبة له عليه السلام، يوصى فيها بمكارم الأخلاق، ويوعده بنى أمية ٢٨٢
- ١٦٨ - من خطبة له عليه السلام فى أول خلافته، وفيها حث على اتباع القرآن، ٢٨٨
- وتأدية القرائن
- ١٦٩ - من كلام له عليه السلام بعدما بويع له بالخلافة، وقد قال له ٢٩١
- قوم من الصحابة لو عاقبت قوما ممن أجلب على عثمان!
- موقف على من قتله عثمان ٢٩٤، ٢٩٣
- ١٧٠ - من خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة ٢٩٥
- ١٧١ - من كلام له عليه السلام لرجل من أهل البصرة وقد أرسله قومه ٢٩٩
- ليعلم حقيقة حاله مع أصحاب الجمل
- ١٧٢ - من كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين ٣٠١
- ١٧٣ - من خطبة له عليه السلام، وفيها ذكر أصحاب الجمل ٣٠٤
- ذكر يوم الجمل ومسير عائشة إلى القتال ٣٢٣، ٣١٠
- منافرة بين ولدى على وطلحة ٣٢٤-٣٢٣
- منافرة بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس ٣٢٧-٣٢٤
- ١٧٤ - من خطبة له عليه السلام، فيمن هو أحق بالخلافة، وفيمن يجب قتاله، وفيها ذمّ للدنيا وتزهيد فيها ٣٣١-٣٢٨

(*) تصویبات و اشکالات و تعلیقات

ص	س	ص	س
٣٥	٤	٧٨	١٣
« إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال طلاق أنفسهما وذوي أرحامهما » ، أى حرمان أنفسهما ، ويرى . الأستاذ جاسم أن الصواب ربما كان « إظلاف أنفسهما » ، وأثبت ما فى الأصول .	٧٨	١٤	« تفت عليه » ؛ يرى الأستاذ جاسم أنه ربما كان الأصوب « تفت » ، وأثبت ما فى الأصول وكتاب صفين .
٣٦	٧	٨٠	١
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٣٨	٣	٨٦	٦
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٤٠	٧	٩٢	١٥
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٤٢	٤	٨٧	١٨
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٤٨	١	٩٢	١٥
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٦٢	٦	١٠٣	٦
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٧٢	٥	١٠٣	١٠
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨
٧٦	١٦	١٠٣	١٠
« فى الأصول : « أن يقتض » ، والصواب « أن يُقرض » ، والصواب حذف كلمة « أهل » . وإن كانت فى الأصول « يقرض » كذا فى الأصول ؛ والأجود : « أن يقتض » ، الصواب : « عن خطبته » .	٧٨	١٥	١٨

س	س	س	س
١٥٤	٦	ویری الأستاذ جاسم أنهار بما كانت محرقة عن «العائین».	الصواب : « وما كان علی هذا الوزن »
١٦١	٦	١٧ الصواب : « ابن أخته »	الصواب : « المشرقة » ،
		٣ الصواب : « یقتل فی ذروة البعیر »	وهی موضع القعود فی الشمس فی الشتاء
١٦١	١٣	١٠،٥ الصواب : « قَبَحَ » بفتحین	الصواب : « وإن كان نهبا »
١٦٨	١٢	٥ الصواب « مصقلة » .	فی أصول الشرح وأصل صفین : « أقبح » .
١٨٢	٤	١٣ الصواب : « تضافرت » كما فی الديوان . وفی الأصول : « تضافرت » .	« ضارستنا الأمور » ، وفی اللسان ٨ : ٤٢٤ : « وضارست الأمور : جرّبتها وعرقتها » .
١٨٢	١٢	٥ « وكفأه » أى طرده وأبعده	« وهبّ فی نعاس العمى » ؛ كذا فی الأصول وصفین ؛ ویری الأستاذ جاسم أنها « عبّ » بدل « هبّ »
١٨٤	١٧	١٣٠ صواب العبارة : « أوطنوا فأقاموا ؛ أم جنبوا فظعنوا » ، أى قلقوا ؛ وانظر تاریخ الطبری ٤٤٢١/١ (طبع أوربا)	بری الأستاذ جاسم أنها صوابها « المرافقة » ، بدل « الموافقة » .
١٨٧	١٦	١٤٣ ٥،٤،٣ فی العبارة غموض	الصواب : « خالد بن المعمر » .
١٨٩	١٢	١٤٥ الصواب : « فسكت ساعة وسكت عنه » .	الصواب : « فتمتّع ما استطعت »
١٨٩	١٥	١٤٦ ٨ الصواب : « لا ترميني » .	صواب العبارة : « وأنت منه فی غرور ، وبالله وأهل رسوله عنك الغناء » .
		١٤٨ ١ الصواب : « عواديا » وفی الأصول : « عواليا » .	
		١٥٠ ١٦ الصواب : « أو يؤوی »	

س	س	س	س
١٤	٢٣٦	١	١٩٢
الصواب : « لا تحسبني » .		الصواب : « لا يرى لى . »	
١٣	٢٤٧	١٦	١٩٢
الصواب : « يبيع إيلًا » .		يرى الأستاذ جاسم أنها	
٢	٢٥٢	« المقانب » بدل « القبائل »	
الصواب : « خلعه » بدون واو		١٠	١٩٥
١٦	٢٥٢	الصواب : « فى هذا القير » .	
الصواب : « لاتحدثه نفسه		٥٤٤	١٩٢
بالقرار » .		« سبعون ألف شيخ » ؛ كذا	
٩	٢٥٦	فى الأصول وصفين	
الصواب : « يسعى دليلها » ،		١٦	٢٠٠
وانظر الديوان		الصواب : « مؤطنين » .	
٨	٢٥٧	٢	٢٠١
الصواب : « مُنَّة » أى قوة		١٨	٢١٨
٥	٢٥٨	الصواب « أن لو كان » .	
البهس : رجل بعينه .		١٢	٢٢٤
١٥، ١٤	٢٥٨	الصواب : « مصمت » .	
الصواب : « بسيفيهما » .		١٣، ١٢	٢٢٨
٢	٢٦٦	صواب العبارة . « وإن	
الصواب « المتعقر »		كان الحسن بن موسى النوبختي	
١	٢٧٤	- وهو من فضلاء الشيعة -	
الصواب : « مانزعم فى القوس »		روى عنه التجسيم الحض » .	
١٣	٢٧٤	١٣، ١٢، ١١	٢٤٠
الصواب : « مضطهد »		صواب العبارة : « فلون	
٢	٢٧٥	النظر تخلص قضاياه .. وترتب ..	
الصواب : « عمّرت » ،		وانقطعت عنه . بأن كان كله »	
بكسر الميم		١	٢٤٢
١٤	٢٧٩	الصواب : « أى على من عنده	
الصواب : « مروان بن محمد »		استعداد للجهل » .	
٢	٢٨١	١	٢٤٦
الصواب : « نمانى »		الصواب : « أو يود » ، أى	
٤	٢٨٣	يهلك	
« أبواب مكة » ، كذا فى		١١	٢٤٦
الأصول ، ويرى الأستاذ جاسم		الصواب : « بأبى فوارس	
أنها « أبواب الحرم » ، أى		لاتعزى صواهلها » .	
المسجد الحرام			
٨	٢٨٥		
الصواب : « هذا » بدون واو			

س	س	س	س
٢٩٠	٣	الصواب : « الرّاع » ، بالفتح ، وم سقاط الناس	الناس ؛ كلّ من الفريقين إلى معسكره .
٢٩١	١	الصواب : « ثابت قطنة » .	٩ ٣١٨ الصواب : « ما جئنا له » .
٢٩٣	٥	الصواب : « لنسبك ولا لبلدك »	٩ ٢٢١ الصواب : « عندكم نساء » .
٢٩٤	٦	الصواب : « البيض » .	١٢ ٣٢٩ الصواب : « بسيفيهما »
٢٩٣	٧	الصواب : « ومقلة... شاحصة »	١٨ ٣٠٠ الصواب « فناء » ، وفي الديوان « لقاءه ... فناءه » .
٢٩٥	١٠	الصواب : « جلّ همته » .	١٠ ٣٤١ رواية الديوان : « وكأنّ من واروه في جدث »
٢٩٧	١٠	الصواب : « وقلابه ابنة زبّان »	١٨ ٣٤١ صواب رواية البيت كما في الديوان : أبلغ الدهر في مواعظه بل زاد فيهنّ لي على الإبلّاغ
٢٩٨	١٣	الصواب : « بالفتى » ، بدل : « بالهوى » .	١٨ ٣٤١ صواب رواية البيت : « ربّ ذى نعمة تعرّض منها » ؛ وهي رواية الديوان
٢٩٩	١٢	الصواب : « بنو أبي العاص » .	١٧ ٣٤٢ رواية الديوان : « في شذوق الأراقم »
٣٠٠	٣	الصواب : « عداة » .	١٥ ٣٤٤ الصواب « كلا كله أنباخ بأخرينا »
٣٠٠	٥	الصواب : « بطن نسر... » في نسور عواكف .	٥ ٣٤٥ الصواب : « ماقاته » .
٣٠٢	٩	الصواب : « تعرّفته » وهي رواية الديوان	٥ ٣٤٦ الصواب : « طيب ثنا »
٣٠٣	١٢	الصواب : « أقعصه » .	١٣ ٣٤٦ الصواب : « لم يقلب عليهم صعيدها » .
٣٠٦	٧	الصواب : « تحبّب أيام » .	١٤ ٣٤٦ الصواب : بل أن يسود عبيدُها «
٣١٣	١٨	الصواب : « لا نظم الضيم » . وفي رواية المفضليات : « الذل »	
٣١٤	٩	الصواب : « إذا ورنين »	
٣١٤	١٤	صواب العبارة : « فتراجع	

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

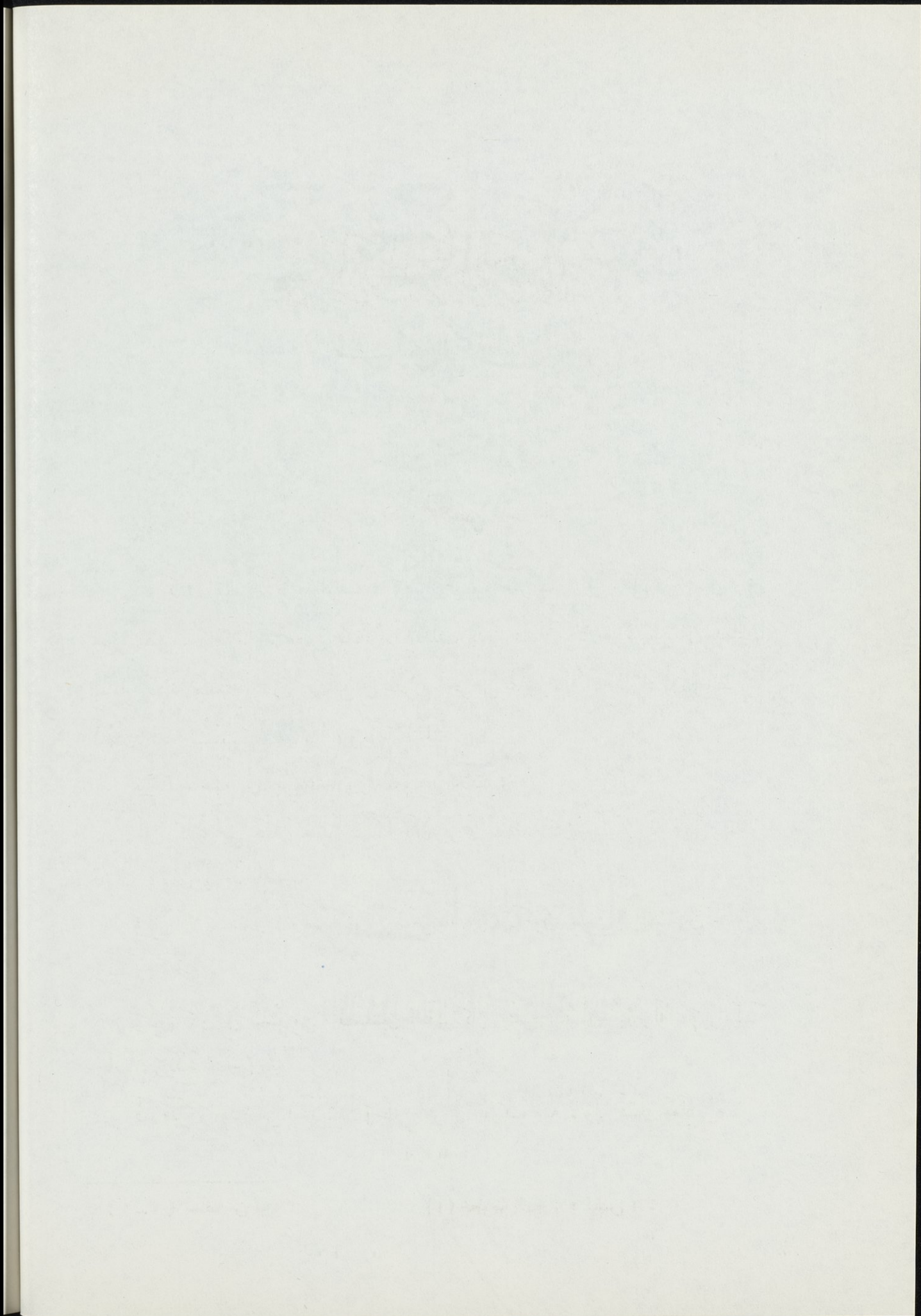
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء العاشر

مؤسسة اسماعيليان

للطباعة والنشر والتوزيع

قم - ايران - تلفون ۲۵۲۱۲



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الحمد لله الواحد العدل

(١٧٥)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة به عبيد الله :

قَدْ كُنْتُ وَمَا أَهْدُدُ بِالْحَرْبِ ، وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ ؛ وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ ؛ وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَظْنُونُهُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ (٢) الْأَمْرُ ، وَيَقَعَ الشَّكُّ .

وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ :

لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ قَاتِلِيهِ ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ .

وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِينَ عَنْهُ ، وَالْمُعْذِرِينَ فِيهِ .

وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخُصْلَتَيْنِ ؛ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ ، وَيَرْكُدَ جَانِبًا ، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ .

فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ ؛ وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ .

الشَّيْخُ :

كان هاهنا تامّة ، والواو واو الحال ؛ أى خُلِقْتُ ووجدتُ وأنا بهذه الصفة ، كما تقول : خلقتني الله وأنا شجاع .

ويجوز أن تكون الواو زائدة ، وتكون « كان » ناقصة ، وخبرها « ما أهدد » ، كما في المثل : « لقد كنت وما أخشى ^(١) بالذئب » .

فإن قلت : إذا كانت ناقصة ، لزم أن تكون الآن بخلاف ماضى ؛ فيكون الآن يهدد ويرهب .

قلت : لا يلزم ذلك ، لأن « كان » الناقصة للماضى من حيث هو ماضٍ ؛ وليس يشترط في ذلك أن يكون منقطعا ؛ بل قد يكون دائما ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(٢) .

ثم ذكر عليه السلام أنه على ما وعده ربّه من النصر ، وأنه واثق بالظفر والغلبة الآن ؛ كما كانت عادته فيما سبق .

ثم شرح حال طلحة ، وقال : إنه تجرّد ^(٣) للطلب بدم عثمان ، مغالطة للناس ، وإيهاما لهم أنه برى من دمه ، فيلتبس الأمر ، ويقع الشك .

وقد كان طلحة أجهد نفسه في أمر عثمان والإجلاب ^(٤) عليه ، والحضر له ، والإغراء به ، ومنتهى نفسه الخلافة ؛ بل تلبس بها ، وتسلم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها ، وقاتل الناس ، وأحدقوا به ، ولم يبق إلا أن يصفق ^(٥) بالخلافة على يده .

(١) بقية المثل : « فاليوم قيل الذئب الذئب » ، وأول من قاله قبات بن أشيم الكناني ، وانظر جمع الأمثال ٢ : ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ١٧ .

(٣) يقال : تجرّد للأمر ؛ إذا جدد فيه وتفرغ له .

(٤) أجلب عليه ، أى حاول أن يجمع الناس له من كل مكان .

(٥) صفق على يديه بالبيعة صنفقا وصفقة ، أى ضرب يده على يده .

[ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان]

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب " التاريخ " ، قال :
حدثني عمر بن شبة ، عن علي بن محمد ، عن عبد ربه ، عن نافع ، عن إسماعيل بن
أبي خالد ^(١) ، عن حَكِيم ^(٢) . بن جابر ، قال : قال علي عليه السلام لطلحة وعثمان محصور :
أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان ! قال : لا ، والله حتى تُعْطِيَ بنو أمية الحق
من أنفسها .

وروى الطبري أن عثمان كان له على طلحة خمسون ألفاً ، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد ،
فقال له طلحة : قد تهيتاً مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة لك على
مروءتك ^(٣) .

قال : فكان عثمان يقول وهو محصور : جزاء سِنَمَار !
وروى الطبري أيضاً أن طلحة باع أرضاً له من عثمان بسبعائة ألف ، فحملها إليه ،
فقال طلحة : إن رجلاً يبيت ^(٤) وهذه عنده وفي بيته ، لا يدري ما يطرّقه من أمر الله
لغيره بالله ! فبات ورسله تختلف بها في سِكَكِ المدينة يقسمها حتى أصبح ؛ وما عنده منها
درهم واحد ^(٥) .

قال الطبري : روى ذلك الحسن البصري ، وكان إذا روى ذلك يقول : ثم جاء إلينا
يطلب الدينار والدرهم - أو قال : - والصفراء والبيضاء .

(١) في الأصول : « أبو طالب » ، تحريف وصوابه من تاريخ الطبري .

(٢) حكيم بمفتوحة وكسر الكاف ؛ كذا ضبط في التقريب .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ٣٠٣٧ (طبع أوروبا) .

(٤) في الطبري : « تنسق » .

(٥) تاريخ الطبري ١ : ٣٠٣٧ ، ٣٠٣٨ (طبع أوروبا) .

وروى الطبري أيضا ، قال : قال ابن عباس رحمه الله : لما حَجَّجْتُ بالنَّاس نيابةً عن عثمان وهو محصور ، مررت بعائشة بالصُّلَّصِل^(١) ، فقالت : يا ابن عباس أنشدك الله ! فإنك قد أعطيت لساناً وعقلاً ، أن تُخَذِّلَ الناسَ عن طلحة ؛ فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأنهجَت^(٢) ، ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمَّ ؛ وإن طلحة - فيما بلغني - قد اتخذ رجالاً على بيوت الأموال ، وأخذ مفاتيح الخزائن ، وأظنه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمه أبي بكر ، فقال : يا أمه ، لو حدث بالرجل حدثٌ مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ، فقالت : إيهًا عنك يا ابن عباس ؛ إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك^(٣) .

وروى المدائني في كتاب "مقتل عثمان" ، أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام ، وأن علياً عليه السلام لم يبايع الناس إلا بعد قتل عثمان بخمسة أيام ، وأن حكيم بن حزام أحد بني أسد بن عبد العزى ، وجبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجداً بعلي عليه السلام على دفنه ، فأقعد طلحة لهم في الطريق ناساً بالحجارة ، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يعرف بحش كوكب^(٤) كانت اليهود تدفن فيه موتاهم ، فلما صار هناك رجمه سريره ، وهموا بطرحه ؛ فأرسل علي عليه السلام إلى الناس يعزم عليهم ليكفوا عنه ، فكفوا ، فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب .

(١) صلصل : موضع بنواحي المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح ؛ قال عبد الله بن مصعب الزبيري :

أَشْرَفَ عَلَى ظَهْرِ الْقُدَيْمَةِ هَلْ تَرَى بَرَقًا سَرَى فِي عَارِضٍ مَتَهَلَّلٍ
نَصَحَ الْعَقِيقَ فَبَطْنَ طَيِّبَةً مَوْهِنًا . ثُمَّ اسْتَمَرَّ يَوْمٌ قَصَدَ الصَّلَّصِلَ

(٢) أنهج الطريق : وضع .

(٣) تاريخ الطبري ١ : ٣٠٤٠ (طبع أوروبا) .

(٤) حش كوكب : موضع عند بقيع الفرقد ، ذكره ياقوت ، وقال : اشتراه عثمان بن عفان ، وزاده في البقيع ، ولما قتل أُلِيَ فيه ، ثم دفن في جنبه .

وروى الطبري نحو ذلك ؛ إلا أنه لم يذكر طلحة بعينه ؛ وزاد فيه أن معاوية لما ظهر على الناس ؛ أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البقيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل [ذلك] ^(١) بمقابر المسلمين .

وروى المدائني في هذا الكتاب ، قال : دفن عثمان بين المغرب والعتمة ، ولم يشهد جنازته إلا مروان بن الحكم وابنه عثمان وثلاثة من مواليه ، فرفعت ابنته صوتها تندبه ؛ وقد جعل طلحة ناساً هناك أكنهم كميناً ، فأخذتهم الحجارة ، وصاحوا : نعل نعل ^(٢) ! فقالوا : الحائط الحائط ! فدفن في حائط هناك .

وروى الواقدي ، قال : لما قتل عثمان ، تكلموا في دفنه ، فقال طلحة : يدفن بدير سلع - يعني مقابر اليهود .

وذكر الطبري في تاريخه هذا ؛ إلا أنه روى عن طلحة فقال : قال رجل : يدفن بدير سلع - فقال حكيم بن حزام : والله لا يكون هذا أبداً وأحد من ولد قصي [حتى] ^(١) ؛ حتى كاد الشر يلتحم ؛ فقال ابن عديس البلوي : أيها الشيخ ؛ وما يضرّك أين دفن ! قال : لا يدفن إلا ببقيع الفرقد ^(٣) ؛ حيث دفن سلفه ورهظه ؛ فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً ، منهم الزبير بن العوام ، فمنعهم الناس عن البقيع ، فدفنوه بحشّ كوكب ^(٤) .

(١) من تاريخ الطبري ١ : ٣٠٤٦ (طبع أوروبا) .

(٢) نعل : رجل من أهل مصر ؛ كان طويل الاحية ؛ وكان شامو عثمان رضي الله عنه يسمونه بذلك . اللسان

(٣) أصل البقيع في اللغة ، الموضع الذي فيه أروم الشجر ؛ والفرقد كبار الشجر المسمى بالعوسج . وهو مقبرة أهل المدينة (ياقوت) .

(٤) تاريخ الطبري ١ : ٣٠٤٧

وروى الطبري في التاريخ أن عثمان لما حُصر، كان على عليه السلام بخير في أمواله ؛ فلما قدم أرسل إليه يدعوه ، فلما دخل عليه قال له : إن لي عليك حقوقا : حق الإسلام ، وحق النسب ، وحق مالي عليك من العهد والميثاق ؛ ووالله أن لو لم يكن من هذا كله شيء وكنا في جاهلية ؛ لكان عارا على بني عبد مناف أن يبتزهم أخوتهم مُلكهم — يعني طلحة — فقال له عليه السلام : سيأتيك الخبر ، ثم قام فدخل المسجد ، فرأى أسامة ابن زيد جالسا ، فدعاه فاعتمد على يده ، وخرج يمشي إلى طلحة ، فدخل داره ؛ وهي دِحاس^(١) من الناس ؛ فقام عليه السلام ، فقال : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعَدَ مامس الحزام الطيبين ! فانصرف على عليه السلام ولم يُحر إليه شيئا حتى أتى بيت المال ، فنادى : افتحوا هذا الباب ، فلم يقدروا على فتحه ، فقال : اكسروه ، فكسر فقال : أخرجوا هذا المال ، فجعلوا يخرجونه وهو يعطى الناس ؛ وبلغ الذين في دار طلحة ما صنع على عليه السلام ، فجعلوا يتسللون إليه حتى بقى طلحة وحده ؛ وبلغ الخبر عثمان ، فسر بذلك ، ثم أقبل طلحة يمشي عامداً إلى دار عثمان ، فاستأذن عليه ؛ فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ أستغفر الله وأتوب إليه ؛ لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه . فقال عثمان : إنك والله ماجئت تائبا ؛ ولكن جئت مغلوبا ؛ الله حسيبك يا طلحة^(٢) !

ثم قسم عليه السلام مال طلحة ، فقال : لا يخلو إما أن يكون معتقداً حل دم عثمان ، أو حرمة ؛ أو يكون شاكاً في الأمرين ؛ فإن كان يعتقد حله لم يُحر له أن ينقض البيعة لنصرة إنسان حلال الدم ، وإن كان يعتقد حرمة ، فقد كان يجب عليه أن ينهيه عنه الناس ، أي يكفهم .

(١) دحاس من الناس ؛ أي ممتلئة .

(٢) تاريخ الطبري ١ : ٣٠٧١ ، ٣٠٧٢ .

وأن يعذر فيه ؛ بالتشديد أى يقصر ولم يفعل ذلك ؛ وإن كان شاكاً ؛ فقد كان يجب عليه أن يعتزل الأمر ، ويركد جانبا ؛ ولم يعتزل وإنما صلي بنار الفتنة ، وأصلاها غيره .

فإن قلت : يمكن أن يكون طلحة اعتقد إباحة دم عثمان أولاً ، ثم تبدل ذلك الاعتقاد بعد قتله ؛ فاعتقد أن قتله حرام ، وأنه يجب أن يقتص من قاتليه .

قلت : لو اعترف بذلك لم يقسم على عليه السلام هذا التقسيم ؛ وإنما قسمه لبقائه على اعتقاد واحد ؛ وهذا التقسيم مع فرض بقاءه على اعتقاد واحد صحيح لا مطعن فيه ؛ وكذا كان حال طلحة ، فإنه لم ينقل عنه أنه قال : ندمت على ما فعلت بعثمان .

فإن قلت : كيف قال أمير المؤمنين عليه السلام : « فما فعل واحدة من الثلاث » ؛ وقد فعل واحدة منها ، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصورا !

قلت : مراده عليه السلام أنه إن كان عثمان ظلما ، وجب أن يوازر قاتليه بعد قتله ؛ يحامى عنهم ، ويمنعهم ممن يروم دماءهم ؛ ومعلوم أنه لم يفعل ذلك ، وإنما وازرهم وعثمان حتى ؛ وذلك غير داخل في التقسيم .

الأصل :

من خطبة له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ ، وَالْمَأْخُوذُ^(١) مِنْهُمْ .
 مَالِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ! كَأَنَّكُمْ نَعِمُ أَرَاخَ بِهَا سَائِئِمٌ إِلَى
 مَرَعَى وَبَنِي ، وَمَشْرَبٍ دَوَى ؛ وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدَى ؛ لَا تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا !
 إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا .

وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أَخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْجِلِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ
 لَفَعَلْتُ ؛ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَلَا وَإِنِّي
 مُقْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمِنُ ذَلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ ،
 مَا أَنْطَقُ إِلَّا صَادِقًا ؛ وَلَقَدْ عَهْدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ ، وَمَنْجَى مَنْ
 يَنْجُو ، وَمَالَ هَذَا الْأَمْرِ ؛ وَمَا بَقِيَ شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَغَهُ فِي أَدْنَى ،
 وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَحْكُمُ عَلَى طَاعَةٍ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا ، وَلَا أَنَهَاكُمْ عَنْ
 مَعْصِيَةٍ إِلَّا وَأَتْنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا .

* * *

الشَّيْخ :

خاطب المكلفين كافة ؛ وقال : إِنَّهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَمِنْهُمْ ؛ وَلَيْسُوا بِمَغْفُولٍ
 عَنْهُمْ ؛ بَلْ أَعْمَالُهُمْ مُحْفُوظَةٌ مَكْتُوبَةٌ .

(١) ب : « المأخوذ » ، من غير واو

ثم قال : والتاركون : أى يتركون الواجبات .
ثم قابل ذلك بقوله : « ولما أخذ منهم » ، لأنّ الأخذ فى مقابلة التّرك ؛ ومعنى
الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم ؛ وانتقاصُ قواهم ، واستلابُ أحبابهم وأموالهم .

ثم شبههم بالنعم التى تتبع نعماً أخرى .
سائمة ، أى راعية ؛ وإنما قال ذلك لأنّها إذا اتبعت أمثالها كان أبلغ فى ضرب المثل
بجهلها من الإبل التى يُسمّى راعيها . والمرعى الوبى : ذو الوباء والمرض . والمشرب الدّوى
ذو الداء ، وأصل « الوبى » اللين الوبىء المهموز ؛ ولكنه لينة ؛ يقال : أرض وبيئة على
« فعيلة » ، ووبئة على « فعلة » ؛ ويجوز أوبأت فهى موبئة .
والأصل فى الدّوى « دَوٍ » بالتخفيف ؛ ولكنه شدّده للازدواج .

ثم ذكر أنّ هذه النعم الجاهلة التى أوقعت أنفسها فى هذا المرتع والمشرب المذمومين
كالغنم وغيرها من النعم الملعوفة .

للمدى : جمع مُدّة ؛ وهى السّكّين ، لا تعرف ماذا يراد بها ، وتظنّ أنّ ذلك العلف
إحسان إليها على الحقيقة .

ومعنى قوله : « تحسب يوماً دهرها » ؛ أى تظنّ أنّ ذلك العلف والإطعام كما هو
حاصلٌ لها ذلك اليوم ، يكون حاصلًا لها أبداً .

و«شعبها أمرها» ، مثل ذلك ، أى تظنّ أنّه ليس أمرها وشأنها إلا أن يطعمها أربابها
لتشبع وتحسّن وتسمن ؛ ليس يريدون بها غير ذلك .

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر ، فأقسم أنّه لو شاء أن يخبر كلّ واحد
منهم من أين خرج ، وكيفية خروجه من منزله ، وأين يلج ، وكيفية ولوجه ؛ وجميع شأنه
من مطعمه ومشربه ، وما عزم عليه من أفعاله ، وما أكله ، وما ادّخره فى بيته ، وغير ذلك من
شئونه وأحواله ، لفعل .

وهذا كقول المسيح عليه السلام : ﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ .

قال : إلا أنى أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أى أخاف عليكم الغلوّ في أمرى ، وأن تُفَضِّلُونِى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل أخاف عليكم أن تدعوا فيّ الإلهية ، كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح لما أخبرهم بالأمور الغائبة .

ثم قال : « ألا وإني مُفَضِّيه إلى الخاصة » أى مفضّ به ومودع إياه خواصّ أصحابى وثقاتى الذين آمن منهم الغلوّ ، وأعلم أنّهم لا يكفرون فيّ بالرسول صلى الله عليه وسلم لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته ، إذ يكون تابع من أتباعه ، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة .

ثم أقسم قسماً ثانياً أنّه ما ينطق إلا صادقاً ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهد بذلك كلّهُ إليه ، وأخبره بمهلك مَنْ يهلك من الصحابة وغيرهم من الناس ؛ وبنجاة^(٢) مَنْ ينجو ، وبمآل هذا الأمر - يعنى ما يفضى إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة - وأنّه ماترك شيئاً يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه .

[فصل في ذكر بعض أقوال الغلاة في عليّ]

واعلم أنّه غير مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصةً بخاصية تدرك بها المغيبات ؛ وقد تقدّم من الكلام في ذلك ما فيه كفاية ، ولكن لا يمكن أن تكون نفس تدرك كلّ المغيبات لأنّ القوة المتناهية لا تحيط بأمور غير متناهية ؛ وكلّ قوّة في نفسٍ حادثة فهي متناهية ؛ فوجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، لا على أن يريد به عموم العالمية .

(١) سورة آل عمران ٤٩

(٢) ١ : « بنجاة » .

بل يعلم أموراً محدودة من المغيبات ؛ مما اقتضت حكمة البارئ سبحانه أن يؤهله لعلمه ؛ وكذلك القول في رسول الله صلى الله عليه وآله إنه إنما كان يعلم أموراً معدودة لأُموراً غير متناهية ؛ ومع أنه عليه السلام قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كفر كثير منهم ، وادَّعوا فيه النبوة ، وادَّعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة ، وادَّعوا فيه أنه هو كان الرسول ؛ ولكنَّ الملك غلط فيه ؛ وادَّعوا أنه هو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس ، وادَّعوا فيه الحلول ، وادَّعوا فيه الاتحاد ؛ ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه ؛ وقال شاعرهم فيه من أبيات :

وَمَنْ أَهْلَكَ عَادَا وَ ثَمُودَا بدواهيهِ
وَمَنْ كَلَّمَ مُوسَى فَوْ قَ ظُورٍ إِذْ يُنَادِيهِ
وَمَنْ قَالَ عَلَى الْمَدِّ بِرِ يَوْمَا وَهُوَ رَاقِيهِ :
سَلَوْنِي أَيُّهَا النَّاسُ فَخَارُوا فِي مَعَانِيهِ

وقال بعض شعرائهم :

إِنَّمَا خَالِقُ الْخَلَائِقِ مَنْ زَعَّ زَعَ أَرْكَانِ حِصْنِ خَيْرٍ جَدُّبَا
قَدْ رَضِينَا بِهِ إِمَامًا وَمَوْلَى وَسَجَدْنَا لَهُ إِلَهًا وَرَبًّا

[جملة من أخبار عليٍّ بالأمور الغيبية]

وقد ذكرنا فيما تقدّم من أخباره عليه السلام عن الغيوب طرفاً صالحاً ، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قوله في الخطبة التي يذكّر فيها الملاحم ، وهو يشير إلى القرامطة^(١) :

(١) يرجع مذهب القرامطة إلى كبيرهم الحسن بن بهرام الجنابي أبو سعيد ؛ كان دُفّاقاً من أهل جنابة بفارس ، ونفى فيها ، فأقام في البحرين تاجراً ، وجعل يدعو العرب إلى نخلته ، فعظم أمره ؛ فخاربه الخليفة مظفر الحسن وصافاه المقتدر العباسي ؛ وكان أصحابه يسمونه السيد . استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ؛ وكان شجاعاً ؛ داهية ، قتله خادم له صقلبي في الحمام بهجر مات سنة ٣٠١ . وانظر تاريخ ابن الأثير .

« ينتحلون لنا الحب والهوى ، ويضمرون لنا البغض والقلى ؛ وآية ذلك قتلهم ورائنا ، وهجرهم أحداثنا » .

وصحّ ما أخبر به ؛ لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب عليه السلام خلقا كثيرا ؛
وأسماءهم مذكورة في كتاب « مقاتل الطالبين » لأبي الفرج الأصفهاني .
ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي في جيشه بالغري^(١) وبالخير^(٢) ؛ فلم يرجع
على واحد منهما ولا دخل ولا وقف .

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة :
كأنني بالحجر الأسود منصوبا هاهنا . ويحهم ! إن فضيلته ليست في نفسه ، بل في موضعه
وأسه ، يمكث هاهنا برهة ، ثم هاهنا برهة وأشار إلى البحرين - ثم يعود إلى مأواه ، وأمّ مثواه .
ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم ، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن
ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه ، ووجدت في كثير منها اختلافا ظاهرا ؛ وهذه المواضع
التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة ، بل من كلام له وجدته متفرقا في كتب
مختلفة ؛ ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه ؛ وهو يخطب على
المنبر ويقول : « سلوني قبل أن تفقدوني ؛ فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة ، أو تهدي مائة
إلا نبتاتكم بناعقها وسائقها ، ولو شئت لأخبرت كل واحد منكم بمخرجه ومدخله
وجميع شأنه » . فقال : فكم في رأسى طاقة شعر ؟ فقال له : أما والله إنى لأعلم ذلك ؛
ولكن أين برهانه لو أخبرتك به ! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالك . وقيل لى إن على كل

(١) الغري ، واحد الغرين ؛ وهما بناءان كالصومعتين ؛ كانا يظهر الكوفة ؛ قرب قبر علي عليه السلام
(مرصد الاطلاع) .

(٢) الخير ، بعد الألف ياء مكسورة : موضع قبر الحسين عليه السلام . ذكره ياقوت .

شعرة من شعر رأسك ملكا يلعنك وشيطانا يستفزك ، وآية ذلك أن في بيتك سخلا يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضر على قتله^(١) .

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام ، كان ابنه حصين - بالصاد المهملة - يومئذ طفلاً صغيراً يرضع اللبن ، ثم عاش إلى أن صار على شرطة عبيد الله بن زياد ، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعدده على لسانه إن أرجأ ذلك ، فقتل عليه السلام صبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته .

ومن ذلك قوله عليه السلام للبراء بن عازب يوماً : يا براء ، أيقتل الحسين وأنت حي فلا تنصره ! فقال البراء : لا كان ذلك يا أمير المؤمنين !

فلما قتل الحسين عليه السلام كان البراء يذكر ذلك ؛ ويقول : أعظم بها حيرة ! إذ لم أشهده وأقتل دونه !

وسند كرم هذا النمط - فيما بعد إذا مررنا بما يقتضى ذكره - ما يحضرنا إن شاء الله .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ ؛ وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَعَذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيلَةِ ، وَأَخَذَ^(١) عَلَيْكُمْ الْحِجَّةَ ؛ وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّةَ مِنَ الْأَعْمَالِ ،
وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا ؛ لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مِمَّنْ طَاعَ اللَّهَ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ ، وَمِمَّنْ مَعْصَى اللَّهَ شَيْءٌ إِلَّا
يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا تَزَعُ عَنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ
النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنَزَعًا ، وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنَزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوَى .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ؛ أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُمَسِّي وَلَا يُصْبِحُ إِلَّا وَنَفْسُهُ ظُنُونٌ عِنْدَهُ ، فَلَا
يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا ، وَمُسْتَزِيدًا لَهَا . فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ ؛
قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ ، وَطَوَّوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ .

الشرح :

أعذر إليكم : أوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أو امره . والجليلة : اليقين ؛ وإنما
أعذر إليهم بذلك ، لأنه مكّنهم من العلم اليقيني بتوحيده وعدله ، وأوجب عليهم ذلك في

(١) مخطوطة النهج : « واتخذ » .

عقولهم ؛ فإذا تركوه ساغ له في الحكمة تعذيبهم وعقوبتهم ؛ فكأنه قد أبان لهم عذره أن لو قالوا : لم تعاقبنا ؟

ومحابه من الأعمال ، هي الطاعات التي يحبها ، وحبها لها إرادة وقوعها من المكلفين . ومكارهه من الأعمال : القبائح التي يكرهها منهم ؛ وهذا الكلام حجة لأصحابنا على الجبيرة . والخبر الذي رواه عليه السلام مروي في كتب الحديثين ؛ وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » ، ومن الحديثين من يرويه : « حُفَّتِ » فيهما ، وليس منهم من يرويه : « حُجِبَتِ » في النار ؛ وذلك لأن لفظ « الحجاب » إنما يُستعمل فيما يرام دخوله وولوجه لمكان النفع فيه ؛ ويقال : حُجِبَ زَيْدٌ عَنْ مَادُبَةِ الْأَمِيرِ ، وَلَا يَقَالُ : حُجِبَ زَيْدٌ عَنِ الْحَبْسِ .

ثم ذكر عليه السلام أنه لا طاعة إلا في أمرٍ تكرهه النفس ، ولا معصية إلا بمواقعة أمرٍ تحبه النفس ؛ وهذا حق ، لأن الإنسان مالم يكن متردداً للدواعي لا يصح التكليف ؛ وإنما تتردد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقة ، أو نهى عما فيه لذة ومنفعة .

فإن قلت : أليس قد أمر الإنسان بالنكاح . وهو لذة ؟ قلت : مافيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبِي على اللذة الحاصلة فيه ^(٢) مراراً .

ثم قال عليه السلام : « رحم الله امرأ نزع عن شهوته » ، أي أقلع . وقع هوى نفسه ، أي قهره .

ثم قال : فإن هذه النفس أبعدُ شيء منزعاً ، أي مذهباً ، قال أبو ذؤيب :
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّتْ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ ^(١)

(١) د : « منه » .

(١) ديوان الهذليين ١ : ٣

ومن الكلام المروى عنه عليه السلام - ويروى أيضا عن غيره : « أيها الناس ، إنَّ هذه النفوس طُلعة ^(١) فألا تقدعوها ^(٢) تنزع بكم إلى شرٍّ غاية ^(٣) » .

وقال الشاعر :

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أَطْمَعْتَ تَأَقَّتْ وَإِلَّا نَسَلَتْ
ثم قال عليه السلام : « نَفْسُ الْمُؤْمِنِ ظَنُونٌ عِنْدَهُ » ؛ الظَّنُونُ : البئر ^(٤) التي لا يدرى
أفِيهَا مَاءٌ أَمْ لَا ، فالمؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا وهو على حَدَرٍ من نفسه ، معتقدا
فيها التقصير والتضجيع ^(٥) في الطاعة ، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها .

وزاريا عليها : عابئا ؛ زُرَيْتُ عليه : عبت .

ثم أمرهم بالتأسي بمن كان قبلهم ، وهم الذين قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا خِيَامَهُمْ ، أى نقضوها ،
وطوَّأُوا أَيَّامَ الْعُمُرِ كما يطوى المسافر منازلَ طريقه .

الأفضل :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يَضِلُّ ،
وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ : وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ
أَوْ نُقْصَانٍ ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى ؛ أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمَى .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ

(١) الطلعة : الكثيرة التطلع .

(٢) القدع : المنع والكف .

(٣) الخبر في الفائق ١ : ٢٤٦ منسوب إلى الحسن البصري بهذه الرواية : « حادثوا هذه القلوب
بذكر الله ؛ فإنها سريعة الدور ، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة » . وانظر نهاية ابن الأثير ٣ :

٢٣٤ ، ٤٢

(٤) في اللسان عن المحكم : « بئر ظنون : قليلة الماء لا يوثق بمائها » .

(٥) التضجيع في الأمر : التقصير فيه .

غَنَى ؛ فَاسْتَشْفَوْهُ مِنْ أَذْوَائِكُمْ ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ
أَكْبَرِ الدَّاءِ ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ ، وَالْغَى وَالضَّلَالُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ
بِحُبِّهِ ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ ؛ إِنَّهُ مَاتَوْجَهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ ؛ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
شَفَعَ فِيهِ ، وَمَنْ حَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرِّهِ وَعَاقِبَةٍ عَمَلِهِ ، غَيْرَ
حَرِّهِ الْقُرْآنِ .

فَكُونُوا مِنْ حَرِّتِهِ وَاتَّبَاعِهِ ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ،
وَاتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ؛ وَاسْتَفِشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ .

الْبَرْخُ :

غَشَّ يَغْشَى ، بِالضَّمِّ ، غِشًّا ، خِلَافَ نَصَحِهِ . وَاللَّوَاءُ : الشَّدَّةُ .

وَشَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ شَفَاعَةً ، بِالْفَتْحِ ؛ وَهُوَ مِمَّا ^(١) يَخْلُطُ فِيهِ الْعَامَّةُ فَيَكْسِرُونَهُ ، وَكَذَلِكَ
شَفَعَتْ كَذَا بِكَذَا ، أَتَبَعَتْهُ ، مَفْتُوحٌ أَيْضًا .

وَحَلَّ بِهِ إِلَى السَّلْطَانِ ، قَالَ عَنْهُ مَا يَضُرُّهُ ؛ كَأَنَّهُ جَعَلَ الْقُرْآنُ يَمَحُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
عِنْدَ اللَّهِ بِقَوْمٍ ؛ أَيْ يَقُولُ عَنْهُمْ شَرًّا ، وَيُشَفِّعُ عِنْدَ اللَّهِ لِقَوْمٍ ، أَيْ يُثْنِي عَلَيْهِمْ خَيْرًا .
وَالْحَارِثُ : الْمَكْتَسَبُ ، وَالْحَرْثُ : الْكَسْبُ . وَحَرَّهُ الْقُرْآنُ : الْمَتَاجِرُونَ بِهِ اللَّهُ .
وَاسْتَنْصَحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، أَيْ إِذَا أَشَارَ عَلَيْكُمْ بِأَمْرٍ وَأَشَارَتْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ بِأَمْرٍ خِلَافَهُ ،

(١) ب « والتغلط » .

فأقبلوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم ؛ وكذلك معنى قوله : « واتَّهَمُوا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم » .

[فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفضله]

واعلم أن هذا الفصل من أحسن ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله ؛ وقد قال الناس في هذا الباب فأكثرُوا .

ومن الكلام المروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذكر القرآن أيضا ، ما رواه ابن قتيبة في كتاب " عيون الأخبار " ، عنه عليه السلام أيضا ، وهو : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ؛ ريحها طيب ، وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر . ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ، وريحها منتنة » .

وقال الحسن رحمه الله : قرأ القرآن ثلاثة : رجل اتَّخَذَهُ بضاعة فنقله من مِصْرٍ إلى مِصْرٍ ؛ يطلب به ماعند الناس ، ورجل حفظ حروفه ، وضيّع حدوده ، واستدرّ به الولاية واستطال به على أهل بلاده ، وقد كثّر الله هذا الضرب من حملة القرآن - لا كثّرهم الله - ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن ، فوضعه على داء قلبه ، فسهر ليله ، وانهملت عيناه ، وتسربل بالخشوع ، وارتدى بالحزن ؛ فبذاك وأمثاله يُسَقَى الناس الغيث ، وينزل النّصر ، ويدفع البلاء . والله لهذا الضرب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر .

وفى الحديث المرفوع : « إن من تعظيم جلال الله إكرام ذى الشّبة فى الإسلام ، وإكرام الإمام العادل ، وإكرام حملة القرآن » .
وفى الخبر المرفوع أيضا : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ فإنّى أخاف أن يناله العدو » .

وكانت الصحابة تكره بيع المصاحف وتراه عظيما ، وكانوا يكرهون أن يأخذ المعلم على تعليم القرآن أجرا .
وكان ابن عباس يقول : إذا وقعت فى آل حم ؛ وقعت فى روضات دِمثات أتأثّق فيهنّ .

وقال ابن مسعود : لكلّ شيء دياجة ، ودياجة القرآن آل حم .
قيل لابن عباس : أيجوز أن يحلّى المصحف بالذهب والفضة ؟ فقال : حلّيته فى جوفه .

وقال النّبي صلى الله عليه وآله : « أصفر البيوت جوف صفر من كتاب الله » .
وقال الشعبي : « إياكم وتفسير القرآن ؛ فإنّ الذى يفسره إنما يحدث عن الله » .
الحسن رحمه الله : رحم الله امرا عرّض نفسه وعمله على كتاب الله ؛ فإن وافق ، حمد الله وسأله الزيادة ، وإن خالف ، أعتب وراجع من قريب .
حفّظ عمر بن الخطاب سورة البقرة ، فنحّر وأطعم .

وفدّ غالب بن صعصعة على على عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق ، فقال له : من أنت ؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعيّ ، قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلت إبلك ؟ قال : أذهبتها النّوائب ، وذعّذعتها الحقوق . قال : ذاك خير سبلها . ثم قال :

يأبأ الأخطل ، مَنْ هذا الغلام معك ؟ قال : ابني وهو شاعر ، قال : علمه القرآن فهو خير له من الشعر ؛ فكان ذلك في نفس الفرزدق ؛ حتى قيد نفسه ، وآلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن ؛ فما حله حتى حفظه ؛ وذلك قوله :

وما صَبَّ رجلى في حديد مجاشعٍ مع القِدِّ إلا حاجةٌ لي أريدها^(١)

قلت : تحت قوله عليه السلام : « يا أبأ الأخطل » قبل أن يعلم أن ذلك الغلام ولده وأنه شاعر ، سرّ غامض ؛ ويكاد يكون إخباراً عن غيب ؛ فليلمح .

الفضيل بن عياض : بلغني أن صاحب القرآن إذا وقف على معصية ، خرج القرآن من جوفه ؛ فاعتزل ناحية وقال : ألهذا حملتني !

قلت : وهذا القول على سبيل المثل والتخويف من مواجهة المعاصي لمن يحفظ القرآن . أنس ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بن أم سليم ، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساءً ؛ فإن القرآن يحى القلب الميت ، وينهى عن الفحشاء والمنكر » . كان سفيان الثوري إذا دخل شهر رمضان ترك جميع العبادة ، وأقبل على قراءة القرآن من المصحف .

كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : مثل كتاب محمد في الكتب مثل سقاء فيه لبن ، كلما مخضته استخرجت منه زُبْداً .

أسلم الخواص : كنت أقرأ القرآن ؛ فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسي : يا أسلم ، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فجاءت حلاوة قليلة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام ؛ فازدادت الحلاوة ، فقلت : اقرأه كأنك تسمعه من الله عز وجل حين تكلم به ، فجاءت الحلاوة كلها .

(١) ديوانه ١ : ٢١٥ ؛ وهو أيضاً في اللسان ٥ : ٢ ؛ ويقال : صب رجلا فلان في القيد ؛ أى قيد

بعضُ أرباب القلوب : إنَّ الناسَ يَجْمِزون^(١) في قراءة القرآن ما خلا الحَبَّين ؛ فإنَّ لهم خانَ إشارات إذا مرَّوا به نزلوا . يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكِّرون فيها . في الحديث المرفوع : « مَأْمِنُ شَفِيعٍ مِنْ مَلَكٍ وَلَنْبِيٍّ وَلَا غَيْرَهُمَا ، أَفْضَلُ مِنَ الْقُرْآنِ » . وفي الحديث المرفوع أيضا : « مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ رَأَى أَنَّ أَحَدًا أَوْتَى أَفْضَلَ مِمَّا أَوْتَى فَقَدْ اسْتَصْغَرَ عِظْمَةَ اللَّهِ » .

وجاء في بعض الآثار : إنَّ الله تعالى خَلَقَ بعضَ القرآن قبل أن يَخْلُقَ آدَمَ ، وقراءه على الملائكة ، فقالوا : طوبى لأُمَّةٍ ينزل عليها هذا ! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا ! وطوبى لألسنة تنطق بهذا ! .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنَّ القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : يارسول الله ، وما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن وذكر الموت » . وعنه عليه السلام : « ما أذن الله لشيءٍ أَذَنَهُ لِنَبِيٍّ حَسَنَ التَّرَنُّمِ بِالْقُرْآنِ » . وعنه عليه السلام : « إنَّ ربكم لأشدُّ أَذْنًا إِلَى قَارِئِ الْقُرْآنِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ » .

وعنه عليه السلام : « أنت تقرأ القرآن مانهاك ؛ فإذا لم ينهك فلست تقرؤه » . ابن مسعود رحمه الله : ينبغي لحامِلِ القرآن أن يُعرف بليله إذ النَّاسُ نائمون ، وبنهاره إذ النَّاسُ مفطرون ، وبجزئه إذ النَّاسُ يفرحون ، وبمكانه إذ النَّاسُ يضحكون ، وبخشوعه إذ النَّاسُ يَخْتالون . وينبغي لحامِلِ القرآن أن يكون سَكِينًا زَمِيمًا لَيْنًا^(٢) ، ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا مماريا ، ولا صَيَّاحًا ولا حديدًا^(٣) ولا صَخَّابًا .

(١) يَجْمِزون : يسرعون .

(٢) السكيت : الكثير السكوت ، والزَّمِيم : الحليم الساكن القليل الكلام .

(٣) الحديد : السريع الغضب .

بعض السلف ؛ إنَّ العبد ليفتتح سورة فتصلي عليه حتى يفرغ منها . وإنَّ العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، قيل : كيف ذاك ؟ قال : إذا أحلَّ حلالها ، وحرَّم حرامها ؛ صلت عليه وإلا لعنته .

ابن مسعود ، أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتخذوا دراسته عملاً ؛ إنَّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحة إلى خاتمة ما يسقط منه حرفاً ، وقد أسقط العمل به .

ابن عباس : لأنَّ أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرها أحبُّ إلىَّ من أن أقرأ القرآن كله هذرمة^(١) .

ثابت البناني : كابدت في القرآن عشرين سنة ، وتنعمت به عشرين سنة .

الأصل :

العمل العمل ، ثمَّ النهاية النهاية ، والاستقامة الاستقامة ، ثمَّ الصبر الصبر والورع الورع !

إنَّ لكم نهاية فأتوها إلى نهايتكم ، وإنَّ لكم علماً فاهتدوا بعلمكم ، وإنَّ للإسلام غاية فأتوها إلى غايته ؛ واخرجوا إلى الله مما افترض عليكم من حقه ، وبين لكم من وظائفه .

أنا شاهد لكم ، وحجيج يوم القيامة عنكم . ألا وإنَّ القدر السابق قد وقع ، والقضاء الماضي قد تورَّد .

وإني متكلم بعدة الله وحجته ؛ قال الله جلَّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ

(١) الهذرمة : السرعة في القراءة .

الَّتِي كُنْتُمْ تُوعِدُونَ ﴿١﴾ ؛ وَقَدْ قُلْتُمْ : ﴿٢﴾ رَبَّنَا اللَّهُ ﴿٣﴾ ، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ ، وَعَلَى مِنْهَا جِ
أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ؛ ثُمَّ لَا تَمُرُّوا مِنْهَا ، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا ،
وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

الشرح :

النَّصِبُ عَلَى الْإِغْرَاءِ ؛ وَحَقِيقَتُهُ فَعْلٌ مُقَدَّرٌ ، أَيْ الزَّمُومُ الْعَمَلُ ، وَكَرَّرَ الْأِسْمَ لِيُنَوِّبَ
أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ عَنِ الْفَعْلِ الْمُقَدَّرِ ؛ وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ هُوَ الْقَائِمُ مَقَامَ الْفَعْلِ ؛
لأنه في رتبته . أَمْرُهُمْ بِلِزُومِ الْعَمَلِ ثُمَّ أَمْرُهُمْ بِمِرَاعَاةِ الْعَاقِبَةِ وَالْخَاتِمَةِ ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالنِّهَايَةِ ؛
وَهِيَ آخِرُ أَحْوَالِ الْمُسْكَلِّفِ الَّتِي يَفَارِقُ الدُّنْيَا عَلَيْهَا ؛ إِمَّا مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا ، أَوْ فَاسِقًا ، وَالْفَعْلُ
الْمُقَدَّرُ هَاهُنَا : رَاعُوا وَأَحْسِنُوا وَأَصْلَحُوا ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

ثُمَّ أَمْرُهُمْ بِالِاسْتِقَامَةِ وَأَنْ يُلْزَمُوا ؛ وَهِيَ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ .

ثُمَّ أَمْرُهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَمِلَازِمَتِهِ ، وَبِمِلَازِمَةِ الْوَرَعِ .

ثُمَّ شَرَعَ بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ الْجَمَلِ فِي تَفْصِيلِهِ فَقَالَ : « إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَاتَّبِعُوا إِلَى
نِهَايَتِكُمْ » ، وَهَذَا لَفْظُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ
فَاتَّبِعُوا إِلَى مَعَالِمِكُمْ ، وَإِنَّ لَكُمْ غَايَةً فَاتَّبِعُوا إِلَى غَايَتِكُمْ » ، وَالْمُرَادُ بِالنِّهَايَةِ وَالْغَايَةِ أَنْ
يَمُوتَ الْإِنْسَانُ عَلَى تَوْبَةٍ مِنْ فَعْلِ الْقَبِيحِ وَالْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبِ .

ثُمَّ أَمْرُهُمْ بِالِاهْتِدَاءِ بِالْعِلْمِ الْمُنْصَوِّبِ لَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا يَعْنِي نَفْسَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً ، وَأَمْرُهُمْ بِالِاتِّبَاعِ إِلَيْهَا ؛ وَهِيَ أَدَاءُ الْوَاجِبَاتِ ،
وَاجْتِنَابُ الْمَقْتَبَحَاتِ .

ثُمَّ أَوْضَحَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « وَآخِرُ جَوَابِ اللَّهِ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ

من وظائفه « ؛ فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولاً . ثم ذكر أنه شاهد لهم ، ومحاج يوم القيامة عنهم ؛ وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنْاسٍ بِإِمامِهِمْ ﴾ (١) .

وحجيج « فعيل » بمعنى « فاعل » ؛ وإنما سمى نفسه حجيجاً عنهم ؛ وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخصوصة (٢) ؛ لأنه إذا شهد لهم ، فكأنه أثبت لهم الحججة ، فصار محاجاً عنهم .

قوله عليه السلام : « ألا وإن القدر السابق قد وقع » ، يشير به إلى خلافته . وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويج بعد قتل عثمان ؛ وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أخبره أن الأمر سيفضى إليه منتهى عمره ، وعند انقضاء أجله .

ثم أخبرهم أنه سيتكلم بوعده الله تعالى ومحجته على عبادته في قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ (٣) الآية ، ومعنى الآية أن الله تعالى وعد الذين أقرؤا بالربوبية . ولم يقتصروا على الإقرار ، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى ، ولفظة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي ، والاستقامة مفضلة على الإقرار باللسان ، لأن الشأن كله في الاستقامة ، ونحوها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ (٤) ، أى ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته ، والاستقامة هاهنا ، هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية . وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أدّوا الفرائض ، وقال أبو بكر : استمروا على التوحيد .

(٢) د : « حاجة » .

(٤) سورة الحجرات ١٥

(١) سورة الإسراء ٧١

(٢) سورة فصلت ٣٠

وروى أن أبا بكر تلاها ، وقال : ما تقولون فيها ؟ فقالوا : لم يذنبوا ، فقال : حملتم الأمر على أشده ، فقالوا : قل ، قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . ورأى أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الإرجاء ، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا .

وروى سفيان بن عبد الله الثقفي ، قال : قلت يا رسول الله ، أخبرني بأمرٍ أعتصم به ، فقال : قل : لا إله إلا الله ، ثم استقم ، فقلت : ما أخوف ما تحافه على ؟ فقال : هذا ، وأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله .

وتنزل عليهم الملائكة ، عند الموت ، أو في القبر ، أو عند النشور .
والألا تحافوا « أن » بمعنى « أى » ، أو تكون خفيفة من الثقيلة ، وأصله « أنه لا تحافوا »
والهاء ضمير الشأن .

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة في الآية ، فقال : قد أقررتم بأن الله ربكم فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره ، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته .

لا تمرقوا منها ، مرق السهم ، إذا خرج من الرمية مروقاً .

ولا تبتدعوا : لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة .

ولا تخالفوا عنها ، تقول : خالفت عن الطريق ، أى عدلت عنها .

قال : فإن أهل المروق منقطع بهم ، بفتح الطاء ، انقطع بزيذ بضم الهمزة ، فهو منقطع به ، إذا لم يجد بلاغا ووصولا إلى المقصد .

الأضل :

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الْأَخْلَاقِ وَتَضَرِيفَهَا ، وَأَجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا ، وَلِيُخْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جُحُوحُ بِصَاحِبِهِ ، وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزِنَ لِسَانَهُ ؛ وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ؛ وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ ؛ وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمَ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ ، وَمَاذَا عَلَيْهِ . وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ .

فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ سُبْحَانَهُ ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِمَ اللِّسَانُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ، فَلْيَفْعَلْ .

الشَّرْحُ :

تهزيعُ الأخلاق : تغييرها ؛ وأصل الهزيع : الكسر ، أسد مهزَّع : يكسر الأعناق ويرضُ العظام ، ولَمَّا كَانَ الْمُتَصَرِّفُ بِخُلُقِهِ ، الناقِلُ لَهُ مِنْ حَالٍ قَدْ أَعْدَمَ سَمْتَهُ الْأَوَّلِي كَمَا يَعْدَمُ الْكَاسِرُ صُورَةَ الْمَكْسُورِ ؛ اشتركا في مسمى شامل لهما ؛ فاستعمل التهزيع في الخلق للتغيير والتبديل مجازاً .

قوله : « واجعلوا اللسان واحدا » ، نهى عن النفاق واستعمال الوجهين .

قال : « وليخزن الرجل لسانه » ، أى ليحبسه ؛ فإنَّ اللسان يمح بصاحبه فيلقيه

في الهلكة .

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان ؛ قال : فإنَّ لسان المؤمن وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه ؛ وشرح ذلك وبينه .

فإن قلت : المسموع المعروف : « لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه » ؛ كيف نقله إلى المؤمن والمنافق ؟

قلت : لأنه قل أن يكون المنافق إلا أحق ، وقل أن يكون العاقل إلا مؤمناً فلا كثرة ذلك ، استعمل لفظ « المؤمن » ؛ وأراد العاقل ، ولفظ « المنافق » وأراد الأحق .

ثم روى الخبر المذكور عن النبي صلى الله عليه وآله وهو مشهور .
ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلُّ منهم نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « إنما المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم ، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم ؛ وانتصاب « تهزيع » على التحذير ؛ وحقيقته تقدير فعل ، وصورته : جنبوا أنفسكم تهزيع الأخلاق ؛ ف « إياكم » قائم مقام أنفسكم ، والواو عوض عن الفعل المقدّر ، وأكثر ما يجيء بالواو ؛ وقد جاء بغير واو في قول الشاعر :

إِيَّاكَ إِيَّاكَ المراءِ فَإِنَّهُ إِلَى الشَّرِّ دَعَاً وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

وكان يقال : ينبغي للعاقل أن يتمسك بست خصال ، فإنها من المروءة : أن يحفظ دينه ، ويصون عرضه ، ويصل رحمه ، ويحمي جاره ، ويرعى حقوق إخوانه ، ويخزن عن البذاء ^(١) لسانه .

وفي الخبر المرفوع : « مَنْ كَفَى شَرَّ قَبْقَبِهِ وَذَبَذَبَهُ ، وَلَقَلَقِهِ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

(١) البذاء : السفه والفحش في المنطق .

فالقنقب البطن : والذنب : الفرع ، والقلق : اللسان .
وقال بعض الحكماء : مَنْ عَلِمَ أَنَّ لِسَانَهُ جَارِحَةٌ مِنْ جَوَارِحِهِ أَقْلٌ مِنْ اعْتِمَالِهَا ،
وَاسْتَقْبَحَ تَحْرِيكَهَا ؛ كَمَا يَسْتَقْبَحُ تَحْرِيكَ رَأْسِهِ أَوْ مَنْكِبِهِ دَائِمًا .

الْأَضْلُ :

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَامًا أَوَّلَ ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ
مَا حَرَّمَ عَامًا أَوَّلَ ؛ وَأَنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لَا يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنَّ
الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا ،
وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتْ الْأَمْثَالُ لَكُمْ ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ
فَلَا يَصُحُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ ، وَلَا يَعْمَى عَنْهُ إِلَّا أَعْمَى .

وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالتَّجَارِبِ ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ ؛ وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ
مِنْ أُمَامِهِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ : مُتَّبِعُ
شِرْعَةٍ ، وَمُتَّبِعُ بِدْعَةٍ ؛ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ ، وَلَا ضِيَاءُ حُجَّةٍ .

الشَّرْحُ :

يقول : إِنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لَا يَجُوزُ بَعْدَ ثَبُوتِ الْأَدْلَةِ عَلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ النَّصِّ أَنْ
تُنْقَضَ بِاجْتِهَادٍ وَقِيَاسٍ ؛ بَلْ كُلُّ مَا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ تَتَّبِعُ مَوْرِدَ النَّصِّ فِيهِ ، فَمَا اسْتَحْلَلْتَهُ عَامًا
أَوَّلَ ؛ فَهُوَ فِي هَذَا الْعَامِ حَلَالٌ لَكَ ؛ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي التَّحْرِيمِ ؛ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ
أَصْحَابِنَا ؛ أَنَّ النَّصَّ مُقَدَّمٌ عَلَى الْقِيَاسِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا فِي أَصُولِ الْفَقْهِ .

وَأَوَّلُ هَاهُنَا ، لَا يَنْصَرَفُ ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ عَلَى وَزْنِ « أَفْعَل » .

وقال : « إنَّ ما أحدث الناس لا يُحِلُّ لكم شيئا مما حُرِّم عليكم » ؛ أى ما أحدثوه من القياس والاجتهاد ؛ وليس هذا بقادح فى القياس ، ولكنه مانع من تقديمه على النص ؛ وهكذا يقول أصحابنا .

قوله : « وضرستموها » بالتشديد أى أحكمتوها تجربة وممارسة ، يقال : قد ضرسته الحرب ، ورجل مضرّس .

قوله : « فلا يصمّ عن ذلك إلّا أصمّ » أى لا يصمّ عنه إلّا من هو حقيق أن يقال عنه : إنه أصمّ كما تقول : ما يجهل هذا الأمر إلّا جاهل ؛ أى بالغ فى الجهل . ثم قال : « مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء » أى بالامتحان والتجربة ، لم تنفعه المواعظ ؛ وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه ، وينكر ما قد كان عارفا به . وسمى اعتقاد العرفان وتخيّله « عرفانا » على المجاز .

ثم قسم الناس إلى رجلين : إمامتبع طريقة ومنهاجا ، أو مبتدعٌ ما لا يعرف ؛ وليس بيده حجة ، فالأوّل الحقّ والثانى المبطل . والشرعة : المنهاج . والبرهان : الحجة .

الأضل :

فإنَّ الله سبحانه لم يعِظْ أحداً بمثلِ هذا القرآن ؛ فإنه حبِلُ الله المتين ، وسببهُ الأمين ، وفيه ربيعُ القلب ، ويزايعُ العلم ، وما للقلب جلاءٌ غيره ؛ مع أنه قد ذهب المتذكّرون ، وبقي الناسون أو اتناسون ، فإذا رأيتُمْ خيرا فأعينوا عليه ؛ وإذا رأيتُمْ شرا فاذهبوا عنه ، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : يا بن آدم ، اعمل الخير ، ودع الشر ؛ فإذا أنت جوادٌ قاصدٌ .

الشَّرْحُ :

إنما جعله حبل الله ؛ لأنَّ الحبل ينبجو من تعلق به من هوة ، والقرآن ينبجو من الضلال مَنْ يتعلّق به .

وجعله متيناً ، أى قوياً ، لأنه لا انقطاع له أبداً ، وهذه غاية المتانة والقوّة .
ومَثْنُ الشيء ، بالضم ، أى صاب وقوى . وسببه الأمين ، مثل حبله المتين ؛ وإنما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة .

وفيه ربيع القلب ؛ لأنَّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برعى الربيع .
وينابيع العلم ؛ لأنَّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول .
والجلاء ، بالكسر : مصدر جلوتُ السيف ؛ يقول : لا جلاء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والغفلات إلا القرآن .

ثم قال : إنَّ المتذكّرين قد ذهبوا وماتوا ، وبقيَ النَّاسون الذين لا علومَ لهم ،
أو المتناسون الذين عندهم العلوم ، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراضٍ دنيوية تعرض لهم .
وروى : « والمتناسون » بالواو .

ثم قال : أعينوا على الخير إذا رأيتموه ، بتحسينه عند فاعله ، وبدفع الأمور المانعة عنه ، وتسهيل أسبابه وتسنية سبله ، وإذا رأيتم الشرَّ فاذهبوا عنه ، لا تقاربوه ولا تقيموا
أنفسكم في مقام الراضى به ، الموافق على فعله ثم روى لهم الخبر .

والجواد القاصد : السهل السّير ، لا سريع يتعب بسرعته ، ولا بطيء يفوت الغرض ببطئه .

الأفضل :

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ : فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ .
فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ ؛ فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ ، فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهِنَاتِ .
وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ ، فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا .
الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ ، لَيْسَ هُوَ جَرْحًا بِالْمَدَى ، وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ ؛ وَلَكِنَّهُ
مَا يُسْتَصْفَرُ ذَلِكَ مَعَهُ .

فَيَاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ ، خَيْرٌ مِنْ
فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى ،
وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ ؛
وَأَكَلَ قُوَّتَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي
شُغْلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ !

الشرح :

قَسَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الظُّلْمَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ :
أَحَدُهَا : ظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ ؛ وَهُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، أَيْ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ مُصِرًّا عَلَى الشِّرْكِ ؛
وَيَجِبُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ الْكِبَارُ ؛ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا ، لِأَنَّ حُكْمَهَا حُكْمُ
الشِّرْكِ عِنْدَهُمْ .

وثانيها : الهنات المغفورة ، وهي صغائر الذنوب ؛ هكذا يفسر أصحابنا كلامه عليه السلام .

وثالثها : ما يتعلق بحقوق البشر بعضهم على بعض ؛ فإن ذلك لا يتركه الله هملاً ، بل لابد من عقاب فاعله ؛ وإنما أفرد هذا القسم مع دخوله في القسم الأول لتمييزه بكونه متعلقاً بحقوق بني آدم بعضهم على بعض ؛ وليس الأول كذلك .

فإن : قلت لفظه عليه السلام مطابق للآية ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(١) والآية ولفظه عليه السلام صريحان في مذهب المرجئة ؛ لأنكم إذا فسرتم قوله : « لمن يشاء » بأن المراد به أرباب التوبة قيل لكم : فالشركون هكذا حالهم يقبل توبتهم ، ويسقط عقاب شرهم بها ، فلائى معنى خصص المشيئة بالقسم الثانى وهو مادون الشرك ! وهل هذا إلا تصريح بأن الشرك لا يغفر لمن مات عليه ، وما دونه من المعاصى إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب ، ولا لغيره بل أمره إلى الله !

قلت : الأصوب فى هذا الموضع ألا يجعل قوله : « لمن يشاء » معنياً به التائبون ؛ بل نقول : المراد أن الله لا يستر فى موقف القيامة مَنْ مات مشركاً ، بل يفضحه على رموس الأَشهاد كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ ^(٢) .

وأما مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام ، فإن الله تعالى يستره فى الموقف ، ولا يفضحه بين الخلائق ؛ وإن كان من أهل النار ؛ ويكون معنى المغفرة فى هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصى فى موقف الحشر ؛ وقد يكون من أهل الكبائر ممن يقرّ بالإسلام

(١) سورة النساء ٤٨

(٢) سورة هود ١٨

لعظيم كبائره جدًّا ، فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك ؛ فهذا معنى قوله : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فأمّا الكلام المطول في تأويلات هذه الآية فمذكور في كتبنا الكلامية .
واعلم أنه لا تعلق للمرجئة ولا جدوى عليهم من عموم لفظ الآية ، لأنهم قد وافقونا على أن الفيلسفي غير مغفور له وليس بمشرك ؛ فإذا أراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ومن جرى مجرى المشركين ، قيل لهم : ونحن نقول : إن الزاني والقاتل يجريان مجرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين ، فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم .
ثم ذكر عليه السلام أن القصاص في الآخرة شديد ؛ ليس كما يعهده الناس من عقاب الدنيا الذي هو ضرب السوط ؛ وغايته أن يذوق الإنسان طعم الحديد ؛ وهو معنى قوله : « جرحاً بالمُدى » ، جمع مُدية وهي السكين ؛ بل هو شيء آخر عظيم لا يعبر النطق عن كُنْهِه وشدة نكاله وألمه .

[فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم]

قال الأوزاعي في مواعظه للمنصور : « روى لي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أن ثوبا من ثياب أهل النار عُلق بين السماء والأرض لأحرق أهل الأرض قاطبة ؛ فكيف بمن يتقمصه ! ولو أن ذنوبا من حميم جهنم صب على ماء الأرض كله لأجنته حتى لا يستطيع مخلوق شربه ، فكيف بمن يتجرعه ! ولو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على جبل لذاب كما يذوب الرصاص ، فكيف بمن يسلك فيها ، ويرد فضلها على عاتقه !

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله : « لو كان في هذا المسجد مائة ألف أويزيدون ، وأخرج إليهم رجل من النار فتنفس وأصابهم نفسه لأحرق المسجد ومن فيه » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل : مالى لأرى ميكائيل ضاحكا!
قال : إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار وراها .

وعنه صلى الله عليه وآله : « لَمَّا أُسْرِىَ بى سَمِعْتُ هَدَّةً ^(١) ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَنْهَا ،
فَقَالَ : حَجَرَ أَرْسَلَهُ اللَّهُ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ ، فَهُوَ يَهْوَى مِنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا حَتَّى يَبْلُغَ الْآنَ فِيهِ »
وروى عن النبي صلى الله عليه وآله فى قوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَالْحُوتِ ﴾ ^(٢) . قَالَ : « تَتَقَلَّصُ شَفْتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسْطَ رَأْسِهِ ، وَتَسْتَرْخِي شَفْتُهُ السِّفْلَى
حَتَّى تَضْرِبَ سِرَّتَهُ » .

وروى عُبَيْدُ بْنُ عَمِيرٍ اللَّيْثِيُّ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَتَزْفَرَنَّ جَهَنَّمُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ
وَلَا نَبِيٌّ إِلَّا خَرَّ مُرْتَعِدَةً فَرَأَيْتُهُ ؛ حَتَّى إِنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ ؛ لِيَبْحَثَ عَلَى رَكْبَتَيْهِ ، فَيَقُولَ : يَا رَبِّ
إِنِّى لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي » .

أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَرْفُوعًا : « لَوْ ضَرَبْتُ جِبَالَ الدُّنْيَا بِمَقْمَعٍ ^(٣) مِنْ تِلْكَ الْمَقَامِعِ الْحَدِيدِ
لَصَارَتْ غُبَارًا » .

الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : قَالَ : الْأَغْلَالُ لَمْ تَجْعَلْ فِي أَعْنَاقِ أَهْلِ النَّارِ لِأَنَّهُمْ أَعْجَزُوا الرَّبَّ ،
وَلَكِنْ إِذَا أَصَابَهُمُ اللَّهَبُ أَرْسَبَتْهُمْ فِي النَّارِ - ثُمَّ خَرَّ الْحَسَنُ صَعِيقًا ، وَقَالَ - وَدُمُوعُهُ تَتَحَادَرُ :
يَا بَنَ آدَمَ ، نَفْسُكَ نَفْسُكَ ! فَإِنَّمَا هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ ، إِنْ نَجَتْ نَجُوتَ ، وَإِنْ هَلَكَتْ لَمْ
يَنْفَعَكَ مَنْ نَجَا .

طَاوُسُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ النَّارَ لَمَّا خَلِقَتْ طَارَتْ أَفْتَدَةُ الْمَلَائِكَةِ ، فَلَمَّا خَلَقْتُمْ سَكَنْتُ .

(١) الهدّة صوت وقع الحائط أو الصخر أو نحوهما

(٢) سورة المؤمنین ١٠٤

(٣) المقمع والمقمعة : العود من الحديد ؛ أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه ليندب ويهان .

مطرف بن الشخير : إنكم لتذكرون الجنة ، وإن ذكر النار قد حال بيني وبين
أن أسأل الله الجنة .

منصور بن عمار : يامن البعوضة تقلقه ، والبقّة تسهره ، أمثلك يقوى على وهج السعير
أوتطيق صفحة خده لفح سمومها ، ورقة أحشائه خشونة ضريعها ^(١) ، ورطوبة كبده
تجرّع غساقها ^(٢) !

قيل لعطاء السلمي : أيسرك أن يقال لك : قع في جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث
أبدا لا إليها ولا إلى غيرها ؟ فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، لو سمعت أن يقال لي : لظننت أنني
أموت فرحا قبل أن يقال لي ذلك .

الحسن : والله ما يقدر العباد قدر حرّها ؛ روينا : لو أن رجلا كان بالشرق ، وجهنم
بالمغرب ، ثم كشف عن غطاء واحد منها لعلّت جمجمته ؛ ولو أن دلو من صديدها صب في
الأرض ما بقي على وجهها شيء فيه روح إلا مات .

كان الأحنف يصلي صلاة الليل ، ويضع المصباح قريبا منه ، فيضع أصبعه عليه ، ويقول :
يا حنيف ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! حتى يُصبح .

[فصل في العزلة والاجتماع وما قيل فيهما]

ثم نهام عليه السلام عن التفرّق في دين الله ؛ وهو الاختلاف والفرقة ؛ ثم أمرهم
باجتماع الكلمة ، وقال : إنّ الجماعة في الحقّ المكروه إليكم ، خير لكم من الفرقة في الباطل
المحبوب عندكم ؛ فإنّ الله لم يعط أحدا خيرا بالفرقة ؛ لا يمتنّ مضى ، ولا يمتنّ بقى . وقد تقدّم

(١) الضريع : نبات يسمى رطبه سبرقا ، وبابسه ضريعا ؛ لا تقربه دابة الجنة

(٢) الغساق : ما يقطر من جلود أهل الدار وصديدهم من قيح ونحوه .

ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة ، والنهي عن الاختلاف والفرقة .

ثم أمر عليه السلام بالعزلة ، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة ، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعبادته عن عيوبهم .

وقد ورد في العزلة أخبار وآثار كثيرة ؛ واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها ، ففضلها قوم على المخالطة ، وفضل قوم المخالطة عليها .

فمن فضل العزلة سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائي ، والفضيل ابن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط ، وبشر الحافي ، وحذيفة المرعشي ؛ وجمع كثير من الصوفية ؛ وهو مذهب أكثر العارفين ، وقول المتألهين من الفلاسفة .

ومن فضل المخالطة على العزلة ابن المسيب ، والشعبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام ابن عروة ، وابن شبرمة ، والقاضي شريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك .

فأما كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النظر فيه أن العزلة خير لقوم ، وأن المخالطة خير لقوم آخرين على حسب أحوال الناس واختلافهم .

وقد احتج أرباب المخالطة بقول الله تعالى : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ^(١) ، وبقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا ﴾ ^(٢) ، وهذا ضعيف ، لأن المراد بالآية تفرق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين ، والمراد

(١) سورة آل عمران ١٠٣

(٢) سورة آل عمران ١٠٥

بتأليف القلوب وبالأخوة عدم الإحْن والأحقاد بينهم ، بعد استعمار نارها في الجاهلية ؛ وهذا أمر خارج عن حديث العزلة .

واحتجُّوا بقول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن إلفٌ ^(١) مألوف ؛ ولا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلف » ؛ وهذا أيضاً ضعيف ، لأنَّ المراد منه ذمُّ سوء الخلق والأمر بالرفق والبشر ؛ فلا يدخل تحته الإنسان الحسن الخلق الذي لو خولط لألف وألف ؛ وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السلامة من الناس .

واحتجُّوا بقوله : « مَنْ شَقَّ عصا المسلمين فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام عن عنقه » ؛ وهذا ضعيف أيضاً لأنَّه مختصٌّ بالبغية والمارقين عن طاعة الإمام ، فلا يتناول أهل العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة ؛ إلاَّ أنهم لا يخالطون الناس .

واحتجُّوا بنبيه صلى الله عليه وآله عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث ؛ وهذا ضعيف لأنَّ المراد منه النهي عن الغضب ، واللجاج ، وقطع الكلام والسلام لثوران الغليظ ؛ فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه .

واحتجُّوا بأنَّ رجلاً أتى جبلاً يعبد فيه ؛ فجاء أهله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنهاه ، وقال له : إِنْ صَبَرَ المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة .

وهذا ضعيف ، لأنَّه إنما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحث على جهاد المشركين .

واحتجُّوا بما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : الشَّيْطَانُ ذئب ؛ والناس كالغنم يأخذ القاصية والشاذة ، إياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد . وهذا ضعيف ، لأنَّ المراد به : من اعتزل الجماعة وخالفها .

(١) الإلف : العشير المؤانس .

واحتج من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك ؛ نحو قول عمر : خذوا بحظكم من العزلة .

وقول ابن سيرين : العزلة عبادة .

وقول الفضيل : كفى بالله محبوباً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً ! اتَّخِذِ الله صاحباً ، ودع الناس جانباً .

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائي : عِظْنِي ، فقال : صُمِّ عن الدنيا ، واجعل فِطْرَكَ لِلآخِرَةِ ، وفرِّ من الناس فرارك من الأسد .

وقال الحسن : كلمات أحفظهنَّ من التوراة : قَنَعَ ابن آدم فاستغنى . واعتزل النَّاسَ فسَلِمَ ترك الشهوات فصار حرّاً ، ترك الحسد فظهرت مروءته . صبر قليلاً فتمتَّع طويلاً .

وقال وهيب بن الورد : بلغنا أنَّ الحكمة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها في الصَّمت ، والعاشر في العزلة عن الناس .

وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكَّار : ما أصبرك على الوحدة ! وكان قد لزم البيت - فقال : كنت وأنا شابُّ أصبرُّ على أشدِّ من هذا ، كنت أجالس النَّاسَ ولا أكلمهم .

وقال الثوري : هذا وقت السَّكوت وملازمة البيوت .

وقال بعضهم : كنت في سفينة . ومعنا شابُّ علويٌّ ، فكث معنا سبباً لا نسمع له كلاماً ، فقلنا له : قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ، ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا ! فأنشد :

قليلُ الهمِّ لا ولد يموتُ وليس بخائفُ امرأٍ يفوتُ
قضى وطَّر الصِّبَا وأفاد علماً فغايتهُ التفردُ والشُّكوتُ

وأكبر همة مما عليه تناجز من ترى خلق وقوت

قال النخعي لصاحب له : تفقه ثم اعتزل .

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز ، ويعودُ المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم ، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك ؛ إلى أن ترك الجميع . وقال : ليس يتهياً للإنسان أن يخبر بكل عذر له .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى .

وقال الفضيل بن عياض : إني لأجد للرجل عندي يداً إذا لقيني ألا يسلم علي ، وإذا مرضت ألا يعودني .

وقال الداراني : بينا ابن خثيم جالسا على باب داره ؛ إذ جاء حَجَر فَصَكَ وجهه ؛ فسجد ، وجعل يمسح الدم ، ويقول : لقد وُعِظْتُ ياربيع ! ثم قام فدخل الدار ؛ فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات .

وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق ، فلم يكونا يأتیان المدينة لا حاجة لهما ولا لغيرهما ؛ حتى ماتا بالعقيق .

قال بشر : أقل من معرفة الناس ؛ فإنك لا تدري ما تكون يوم القيامة ! فإن تكن فضيحة كان من يعرفك أقل .

وأحضر بعضُ الأمراء حاتمًا الأصم فكلّمه ، ثم قال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، ألا تراني ولا أراك !

وقيل للفضيل : إن ابنك يقول : لوددتُ أني في مكان أرى الناس ولا يروني ! فبكى الفضيل ، وقال : يا ويح علي ، ألا أتمّها فقال : ولا أراهم !

ومن كلام الفضيل أيضاً : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه .
وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذكر العزلة وفضلها ، نحو قوله عليه السلام لعبد الله
ابن عامر الجهنّي ، لما سأله عن طريق النجاة ، فقال له : « ليسعك بيتك ، أمسك عليك
دينك ، وابك على خطيئتك » .
وقيل له صلى الله عليه وآله : أيُّ الناس أفضل ؟ فقال : « رجل معتزل في شعب من
الشعاب ؛ يعبد ربّه ، ويدع الناس من شرّه » .
وقال عليه السلام : « إنّ الله يحب التّقيّ التّقيّ الخفيّ » .

[فوائد العزلة]

وفي العزلة فوائد : منها الفراغ للعبادة ، والدّكر والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة
الخلق ، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدّنيا والآخرة وملّكوت
السموات والأرض ؛ لأنّ ذلك لا يمكن إلّا بفراغ ، ولا فراغ مع المخالطة ؛ ولذلك كان
رسول الله صلى الله عليه وآله في ابتداء أمره يتبتّل في جبل حراء ، ويعتزل فيه ، حتى
أتته النبوة .

وقيل لبعض الحكماء : ما الذي أرادوا بالخلوة والعزلة ؟ فقال : دوام الفكر وثبات
العلوم في قلوبهم ، ليحيوا حياة طيبة ، ويموتوا موتاً طيباً .

وقيل لبعضهم : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : لست وحدي ، أنا جليس ربّي ،
إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه ، وإذا شئت أن أناجيّه صلّيت .

وقال سُفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام ، فقلت له : يا إبراهيم ،

تركت خراسان ! فقال : ماتهنأت بالعيش إلا هاهنا ؛ أفرّ بدينى من شاهق إلى شاهق ؛ فمن رآنى قال : موسوس أو حمال .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، هاهنا رجل لم نره قطّ جالسا إلا وحده خلف سارية ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبرونى ، فنظروا إليه ذات يوم ، فقالوا للحسن ، وأشاروا إليه ، فمضى نحوه ، وقال له : يا عبد الله ، لقد حبّبت إليك العزلة ، فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ قال : أمرٌ شغلنى عنهم ، قال : فما يمنعك أن تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن ، فتجلس إليه ؟ قال : أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن ، قال : وما ذلك الشغل يرحمك الله ؟ قال : إتنى أمسى وأصبح بين نعمة وذنب ، فأشغل نفسى بشكر الله على نعمه ، والاستغفار من الذنب ؛ فقال الحسن : أنت أفتقه عندى يا عبد الله من الحسن ، فالزّم ما أنت عليه .

وجاء هرم بن حيّان إلى أويس ، فقال له : ما حاجتُك ؟ قال : جئت لأنس بك ، قال : ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره !

وقال الفضيل : إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحتُ به ، وقلت : أخلو بربّى ، وإذا رأيتُ الصبح أدركنى ، استرجعت كراهية لقاء الناس ، وأن يحىء إلى من يشغلنى عن ربّى .
وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين ، فقد قلّ علمه ، وعيى قلبه ، وضاع عمره .

وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسيرُ فى بعض بلاد الشام ، إذا أنا بعباد خارج من بعض تلك الجبال ، فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة ، وتستر بها : فقلت : سبحان الله ! أتبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : يا هذا ، إتنى أقمتُ فى هذا الجبل دهرأ طويلا ، أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها ، فطال فى ذلك تعبى ، وفنى عمرى ، ثم سألت الله تعالى

ألا يجعل حظي من أيامي في مجاهدة قلبي فقط ، فسكنه الله عن الاضطراب ، وآلفه الوحدة .
والانفراد ، فلما نظرت إليك وتريدني خفت أن أقع في الأمر الأول فأعود إلى ألف
المخلوقين : فإليك عني فإنني أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب التائبين . ثم صاح :
واغمأه من طول المكث في الدنيا ! ثم حوّل وجهه عني ، ثم نفّض يده ، وقال : إليك
عني يا دنيا ، لغيري فتزيني ، وأهلك فغري ! ثم قال : سبحان من أذاق العارفين من لذة
الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهمى قلوبهم عن ذكر الجنان ، والحوار الحسان ؛ فإنني في
الخلوة آنس بذكر الله ، وأستلذ بالانقطاع إلى الله ، ثم أنشد :

وإنّي لأستغشى وما بي نَعْسَةٌ لعلّ خيالاً منك يَلْقَى خيالاً^(١)
وأخرجُ من بين البيوت لعلني أحدثُ عنك النفس في السرّ خالياً
وقال بعض العلماء : إنّما يستوحش الإنسان من نفسه خلوة ذاته عن الفضيلة ، فيتكثر
حينئذ بملاقاة الناس ، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة
ليستعين بها على الفكرة ، ويستخرج العلم والحكمة ، وكان يقال : الاستئناس بالناس من
علامات الإفلاس .

ومنها التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ؛ وهي الغيبة ،
والرياء ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسرقة الطبع بعض الأخلاق الرديئة .
والأعمال الخبيثة من الغير .

أمّا الغيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك
إلا الصديقون ؛ فإنّ عادة أكثر الناس التضمض بأعراض من يعرفونه ، والتنقل بلذة .

ذلك ، فهي أنسهم الذى يستريحون إليه فى الجلوة والمفاوضة ؛ فإن خالطتهم ووافقت أئمت ، وإن سكت كنت شريكا ؛ فالمستمع أحد المغتابين ؛ وإن أنكرت تركوا ذلك المغتاب واغتابوك ؛ فازدادوا إثما على إثمهم .

فأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فإن من خالط الناس لا يخلو عن مشاهدة المنكرات ، فإن سكت عصى الله ، وإن أنكر تعرض بأنواع من الضرر ؛ وفى العزلة خلاص عن ذلك ، وفى الأمر بالمعروف إثارة للخصام ، وتحريك لكوامن مافى الصدور . وقال الشاعر :

وكم سقتُ فى آثاركم من نصيحةٍ وقد يستفيدُ الظنَّةَ المتنصِّحُ
ومن تجرَّد للأمر بالمعروف ندم عليه فى الأكثر كجدار مائل ؛ يريد الإنسان أن يقيمه وحده ، فيوشك أن يقع عليه ؛ فإذا سقط قال : ياليتنى تركته مائلا ! نعم لو وجد الأعوان حتى يحكم ذلك الحائط ويدعمه استقام ؛ ولكنك لا تجد القوم أعوانا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فدع الناس وانج بنفسك .

وأما الرياء فلا شبهة أن من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم كان منافقا ؛ وأنت تعلم أنك إذا خالطت متعاديين ، ولم تلق كل واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغیضا إليهما جميعا ، وإن جاملتهمما كنت من شرار الناس ، وصرت ذا وجهين ؛ وأقل ما يجب فى مخالطة الناس ، إظهار الشوق والمبالغة فيه ، وليس يخلو ذلك عن كذب ؛ إما فى الأصل وإما فى الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال ، فقولك : كيف أنت ؟ وكيف أهلك ؟ وأنت فى الباطن فارغ القلب عن همومه ، نفاق محض .

قال سري السقطي : لو دخل على أخ فسويت لحيتي بيدي لدخوله ، خشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين .

كان الفضيل جالسا وحده في المسجد ، فجاء إليه أخ له ، فقال : ما جاء بك ؟ قال :
المؤانسة ؛ قال : هي والله بالمواحشة أشبه ؛ هل تريد إلا أن تنزى لي وأتزين لك ،
وتكذب لي وأكذب لك ! إما أن تقوم عني ، وإما أن أقوم عنك .
وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبداً إلا أحبّ ألا يشعر به خلقه .

ودخل طاوس على هشام بن عبد الملك ، فقال : كيف أنت ياهشام ؟ فغضب ، وقال :
لم لم تخاطبني بإمرة المؤمنين ؟ قال : لأنّ جميع الناس ما اتفقوا على خلافتك ، فخشيت أن
أكون كاذبا .

فمن أمكنه أن يحتز هذا الاحتراز ، فليخالط الناس ؛ وإلا فليرضّ بإثبات اسمه في
جريدة المنافقين إن خالطهم ؛ ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة .

وأما سرقة الطبع من الغير ؛ فالتجربة تشهد بذلك ، لأنّ من خالط الأشرار اكتسب
من شرهم ؛ وكلما طالت صحبة الإنسان لأصحاب الكبائر ، هانت الكبائر عنده
وفي المثل : « فإنّ القرين بالمقارن يقتدى ^(١) » .

ومنها الخلاص من الفتن والحروب بين الملوك والأمراء على الدنيا .

روى أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، أنه قال : « يوشك أن يكون
خير مال المسلم غنيمات يتتبع بها شعاف الجبال ، ومواضع القطر ، يفرّ بدينه من
الفتن » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الفتن ،
فقال : إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ^(٢) ، وخفت أمانتهم ، وكانوا هكذا - وشبك

(١) أصله قول الشاعر :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمَقَارِنِ يَقْتَدِي

(٢) مرجت عهودهم ، أي اختلعت . أملك عليك اسنانك ، أي لا تجره إلا بما يكون لك لا عليك .
انظر النهاية لابن الأثير ٤ : ٨٧ ، ١٠٦ .

بأصابه - فقلت ماتأمرني ؟ فقال : « الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ماتعرف ، ودع ماتنكر ، وعليك بأمر الخاصة ، ودع عنك أمر العامة » .

وروى ابن مسعود عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « سيأتى على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ من قرية إلى قرية ، ومن شاهر إلى شاهر ؛ كالثعلب الرواغ » قيل : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تُنل المعيشة إلا بمعاصي الله سبحانه ، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه ؛ فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، وإن لم يكن فعلى يد قرابته » ، قالوا : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعيرونه بالنقر وضيق اليد ، فيكلفونه مالا يطيقه حتى يورده ذلك موارد الهلكة » .

وروى ابن مسعود أيضا أنه صلى الله عليه وآله ذكر الفتنة ، فقال : « الهرج » فقلت : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : « حين لا يأمن المرء جليسه » ، قلت : فبم تأمرني يا رسول الله ، إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال : « كف نفسك ويدك ، وادخل دارك » ، قلت : أرايت إن دخل على دارى ! قال : « ادخل بيتك » ، قلت : إن دخل على البيت ، قال : « ادخل مسجدك ، واصنع هكذا - وقبض على الكوع - وقل ربّى الله ، حتى تموت » .

ومنها الخلاص من شر الناس ، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة ، وتارة بسوء الظن والتهمة وتارة بالافتراء والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالتميمة والكذب مما يروونه منك من الأعمال والأقوال مما لا تبلغ عقولهم كنهه ؛ فيدّخرون ذلك فى نفوسهم عدة ؛ لوقت يتهمون فيه فرصة الشر ، ومن يعتزلهم يستغن عن التحفظ لذلك .

وقال بعض الحكماء لصاحبه : أعلمك شعرا هو خير لك من عشرة آلاف

درهم ! وهو :

اخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلٍ وَالتَّفْتُ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَقَالِ
لَيْسَ لِلْقَوْلِ رَجْعَةٌ حِينَ يَبْدُو بِقِيحٍ يَكُونُ أَوْ بِجَمَالِ

وَمَنْ خَالَطَ النَّاسَ لَا يَنْفَكُ مِنْ حَاسِدٍ وَطَاعِنٍ ؛ وَمَنْ جَرَّبَ ذَلِكَ عَرَفَ .

وَمِنَ الْكَلَامِ الْمَأْثُورِ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَخْبِرْ تُقْلَهُ » قَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُغْهُمْ ثُمَّ بَلَاهُمْ ذِمٌّ مِنْ يَحْمَدُ
وَصَارَ بِالْوَحْدَةِ مُسْتَأْنَسًا يُوَحِّشُهُ الْأَقْرَبُ وَالْأَبْعَدُ

وَقِيلَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ : أَلَا تَأْتِي الْمَدِينَةَ ؟ قَالَ : مَا بَقِيَ فِيهَا إِلَّا حَاسِدٌ نِعْمَةٌ ،
أَوْ فَرِحٌ بِنِعْمَةٍ .

وَقَالَ ابْنُ السَّمَّكِ : كَتَبَ إِلَيْنَا صَاحِبُ لَنَا : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا دَوَاءً يُتَدَاوَى
بِهِ ، فَصَارُوا دَاءً لَا دَوَاءَ لَهُمْ ، فَفِرَّ مِنْهُمْ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ .

وَكَانَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ يَلْزِمُ شَجَرَةً وَيَقُولُ : هَذِهِ نَدِيمِي وَهُوَ نَدِيمٌ فِيهِ ثَلَاثَةُ خِصَالٍ :
إِنْ سَمِعَ لَمْ يَنْمَ عَلَى ، وَإِنْ تَفَلَّتْ فِي وَجْهِهِ احْتَمَلَ ، وَإِنْ عَرَبَدَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَغْضَبْ ؛ فَسَمِعَ
الرَّشِيدُ هَذَا الْخَبَرَ ، فَقَالَ : قَدْ زَهَدَنِي سَمَاعُهُ فِي النَّدَمَاءِ .

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَلْزِمُ الدَّقَاتِرَ وَالْمَقَابِرَ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، قَالَ : لَمْ أَرَأْ أَسْلَمْ مِنَ الْوَحْدَةِ
وَلَا أَوْعَظَ مِنْ قَبْرِ ، وَلَا أَمْتَعَ مِنْ دِفْتَرٍ .

وَقَالَ الْحَسَنُ مَرَّةً : إِنِّي أُرِيدُ الْحِجَّ ، فَجَاءَ إِلَى ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ ، وَقَالَ : بَلِّغْنِي أَنَّكَ تَرِيدُ
الْحِجَّ ، فَأَحْبَبْتَ أَنْ نَصْطَحِبَ ، فَقَالَ الْحَسَنُ : دَعْنَا نَتَعَاشَرَ بِسِتْرِ اللَّهِ ؛ إِنِّي أَخَافُ أَنْ نَصْطَحِبَ
فَيَرَى بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ مَا تِمَاقَتُ عَلَيْهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا لَا شَوْكَ فِيهِ ؛ فَالْنَّاسُ الْيَوْمَ شَوْكٌ لَا وَرَقَ فِيهِ .

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : قَالَ لِي سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ، فِي الْيَقِظَةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَفِي الْمَنَامِ بَعْدَ

وفاته : أَقِلُّ معرفة الناس ؛ فَإِنَّ التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ شَدِيدٌ ، وَلَا أَحْسِبُنِي رَأَيْتُ مَا أَمَرَهُ
إِلَّا مَنْ عَرَفْتُ .

وقال بعضهم : جِئْتُ إِلَى مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ وَهُوَ قَاعِدٌ وَحْدَهُ ، وَعِنْدَهُ كَلْبٌ رَابِضٌ قَرِيبًا مِنْهُ ،
فَذَهَبَتْ أَطْرَدُهُ فَقَالَ : دَعُهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يُوْذِي ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْجَلِيسِ السَّوِّءِ .
وقال أبو الدَّرْدَاءِ : اتَّقُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوا النَّاسَ ، فَإِنَّهُمْ مَارَكَبُوا ظَهْرَ بَعِيرٍ إِلَّا أَدْبَرُوهُ ،
وَلَا ظَهْرَ جَوَادٍ إِلَّا عَقَرُوهُ ، وَلَا قَلْبَ مُؤْمِنٍ إِلَّا أَخْرَبُوهُ .

وقال بعضهم : أَقِلُّ المعارف ؛ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لِدِينِكَ وَقَلْبِكَ ، وَأَخْفَتْ لظَهْرِكَ ، وَأَدْعَى إِلَى
سُقُوطِ الْحَقُوقِ عَنْكَ ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَتِ الْمَعَارِفُ كَثُرَتِ الْحَقُوقُ ، وَعَسَرَ الْقِيَامُ بِالْجَمِيعِ .
وقال بعضهم : إِذَا أَرَدْتَ النِّجَاةَ فَأَنْكِرْ مِنْ تَعْرِيفٍ ، وَلَا تَتَعَرَّفْ إِلَى مَنْ لَا تَعْرِفُ .

ومنها ؛ إِنَّ فِي الْعُرْلَةِ بَقَاءَ السَّتْرِ عَلَى الْمَرْوَةِ وَالْخَلْقِ وَالْفَقْرِ وَسَاءُ الْعُورَاتِ ؛ وَقَدْ مَدَحَ
اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَسَتِّرِينَ فَقَالَ : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ ^(١) .
وقال الشاعر :

وَلَا عَارَ أَنْ زَالَتْ عَنِ الْحَرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ
وَلَيْسَ يَخْلُو الْإِنْسَانُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهِ وَأَفْعَالِهِ عَنْ عَوْرَاتٍ يُتَّقِينَ وَيَجِبُ سِتْرُهَا ؛ وَلَا تَبْقَى
السَّلَامَةُ مَعَ انْكَشَافِهَا ؛ وَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِتَرْكِ الْخَالَطَةِ .

ومنها أَنْ يَنْقَطِعَ طَمَعُ النَّاسِ عَنْكَ ، وَيَنْقَطِعَ طَمَعُكَ عَنِ النَّاسِ ؛ أَمَّا انْقِطَاعُ طَمَعِ
النَّاسِ عَنْكَ فَفِيهِ نَفْعٌ عَظِيمٌ ؛ فَإِنَّ رِضَا الْخَلْقِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ ؛ لِأَنَّ أَهْوَانَ حَقُوقِ النَّاسِ

(١) سورة البقرة ٢٧٣

وأيسرها حضورُ الجنازة ، وعيادة المريض ، وحضور الولائم ؛ والإملاكات ^(١) ؛ وفي ذلك تضييع الأوقات ، والتعرض للآفات ؛ ثم قد يعوق عن بعضها العوائق ، وتستثقل فيها المماذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقول لك قائل : إنك قت بحق فلان ، وقصرت في حق ، ويصير ذلك سبب عداوة ، فقد قيل : إن من لم يعد مريضاً في وقت العيادة ، يشتهي موته خيفة من تخجيله إياه إذا برئ من تقصيره ؛ فأما من يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضون كلهم عنه ، ومتى خصص وقع الاستيحاش والعتاب ، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق ؛ مما لا قدرة عليه للمتجرد ليله ونهاره ، فكيف من له مهم يشغله ديني أو دنيوي ! ومن كلام بعضهم : كثرة الأصدقاء زيادة ^(٢) الغرماء .

وقال الشاعر :

عدوك من صديقك مُستفادٌ فلا تستكثرن من الصحابِ
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشرابِ

وأما انقطاع طمعك عنهم ؛ ففيه أيضاً فائدة جزيلة ؛ فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزخرفها ، تحرك حرصه ، وانبعث بقوة الحرص طمعه ؛ وأكثر الأَطاع يتعقبها الخيبة ؛ فيتأذى الإنسان بذلك ؛ وإذا اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ؛ ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(٣) .

وقال عليه السلام : « انظروا إلى من دونكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

(١) الإملاكات : مجامع الترويع .

(٢) ب : « كثرة » ، وما أثبتته من ١ ، د

(٣) سورة الحجر ٨٨

وقال عَوْنُ بن عبد الله : كنتُ أجالسُ الأغنياء ؛ فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبي ، ودابةً أفرّة من دابّتي ، فجالستُ الفقراء فاسترحت .

وخرج المُزَنّيّ صاحب الشافعيّ من باب جامع القُسطاط بمصر ، وكان فقيراً مقلّاً ، فصادف ابن عبد الحكم قد أقبل في موكبه ، فبهره مارأى من حاله ، وحسن هيأته ، فتلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ^(١) ثم قال : نعم أصبر وأرضى .

فالمعتزل عن الناس في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن ؛ فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا ، إمّا أن يقوى دينه و يقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع مرارة الصّبر ؛ وهو أمرٌ من الصّبر ، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك دنيا وآخره ، أمّا في الدنيا فبالطمع الذي في أكثر الأوقات يتضمّن الذلّ المعجل ، وأمّا في الآخرة فلا يثاره متاع الدنيا على ذكر الله ، والتقرّب إليه ؛ ولذلك قال الشاعر :

إذا كانَ بابُ الذلِّ منْ جانبِ الغنى سموتُ إلى العلياءِ منْ جانبِ الفقرِ
أشار إلى أنّ الطمع يوجب في الحال ذلّاً .

ومنها الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومعاناة أخلاقهم ؛ فإنّ رؤية الثقل هي العمى الأصغر ؛ قيل للأعمش : بم عميت عيناك ^(٢) ؟ قال : بالنظر إلى الثقلاء .

ودخل على أبي حنيفة رحمه الله ، فقال له : رَوَيْنَا في الخبر أنّ مَنْ سلب كريمة عَوْضَهُ الله ما هو خير منهما ؛ فما الذي عوضك ؟ قال : كفاني رؤية ثقلٍ مثلك يمازحه .

وقال الشافعيّ رحمه الله : ما جالستُ ثقيلاً إلّا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنّه أثقلُ عليّ من الجانب الآخر .

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيوياً ؛ إلّا أنها تضربُ في الدين بنصيب ؛ وذلك لأنّ

(١) سورة الفرقان ٢٠

(٢) د : « عينك » .

مَنْ تَأْذَى بِرُؤْيَا ثَقِيلٍ لَمْ يَلْبَثْ إِنْ يَغْتَابُهُ وَيُثْلِبُهُ ؛ وَذَلِكَ فُسَادٌ فِي الدِّينِ ، وَفِي الْعِزَّةِ السَّلَامَةِ
عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَلَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَخْتَلِفُ مَنَاجِجُهُ ، فَقَدْ رَجَّحَ الْعِزَّةَ فِي هَذَا
الْفَصْلِ عَلَى الْخَالِطَةِ ، وَنَهَى عَنْ الْعِزَّةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْفَصْلِ الَّذِي أَوَّلُهُ ،
« أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى الْعَلَاءِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ عَائِدًا » ؛ وَيَجِبُ أَنْ يَحْمَلَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ
مَنْ الْعِزَّةُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْخَالِطَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ بِالضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ قَرِيبًا
مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ لِيُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى صَاحِبِهِ : يَأْيُونُسُ ، الْإِنْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ
لِلْعَدَاوَةِ ، وَالْإِنْبِسَاطُ إِلَيْهِمْ مَجْلِبَةٌ لِقَرَنَاءِ السُّوءِ ؛ فَكُنْ بَيْنَ الْمُنْقَبِضِ وَالْمُنْبَسِطِ .

فَإِذَا أَرَدْتَ الْعِزَّةَ فَيَنْبَغِي لِلْمُعْتَزِّلِ أَنْ يَنْوِيَ بَعِزَّتَهُ كَفَّ شَرَّهُ عَنِ النَّاسِ أَوَّلًا ؛ ثُمَّ
طَلَبَ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ ثَانِيًا ، ثُمَّ الْخِلَاصَ مِنْ آفَةِ الْقُصُورِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِ
الْمُسْلِمِينَ ثَالِثًا ، ثُمَّ التَّجَرُّدَ بِكُنْهٍ الْهَمَّةِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَابِعًا ، فَهَذِهِ آدَابُ نِيَّتِهِ . ثُمَّ لِيَكُنْ
فِي خُلُوتِهِ مُوَاضِعًا عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَالذِّكْرِ وَالْفِكْرِ ، لِيَجْتَنِيَ ثَمَرَةَ الْعِزَّةِ . وَيَجِبُ أَنْ
يَمْنَعَ النَّاسَ عَنْ أَنْ يَكْثُرُوا غَشْيَانَهُ وَزِيَارَتَهُ ، فَيَتَشَوَّشَ وَقْتُهُ ، وَأَنْ يَكْفَ نَفْسُهُ عَنِ السُّؤَالِ
عَنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَعَنْ الْإِصْغَاءِ إِلَى أَرَاخِيفِ النَّاسِ وَمَا النَّاسُ مُشْغُولُونَ بِهِ ؛ فَإِنْ
كَلَّ ذَلِكَ يَنْغَرَسُ فِي الْقَلْبِ حَتَّى يَنْبَعِثَ عَلَى الْخَاطِرِ وَالْبَالِ وَقْتَ الصَّلَاةِ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَى
إِحْضَارِ الْقَلْبِ ؛ فَإِنْ وَقَّعَ الْأَخْبَارَ فِي السَّمْعِ كَوَقَّعَ الْبَذْرَ فِي الْأَرْضِ ، لَا بَدَّ أَنْ يَنْبُثَ
وَتَتَفَرَّعَ عُرُوقُهُ وَأَغْصَانُهُ ؛ وَإِحْدَى مَهْمَّاتِ الْمُعْتَزِّلِ قَطْعُ الْوَسَاوِسِ الصَّارِفَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ؛
وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَخْبَارَ يَنْابِيعُ الْوَسَاوِسِ وَأَصُولُهَا .

وَيَجِبُ أَنْ يَقْنَعَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَعِيشَةِ ، وَإِلَّا اضْطُرَّ التَّوَسُّعُ إِلَى النَّاسِ ، وَاحْتِاجُ إِلَى
مَخَالِطَتِهِمْ .

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة ، وقدح فيه بترك المخالطة ؛ فإنّ ذلك لابدّ أن يؤثر في القلب ، ولومدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لابدّ أن يكون واقفاً عن سيره في طريق الآخرة ، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظبة على ورْد أوذ كر مع حضور قلب ، وإمّا بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سماواته ، وإمّا بالتأمّل في دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طرق التخلّص منها ، وكلّ ذلك يستدعي الفراغ ؛ ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوّش القلب .

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالحٌ أو جليس صالح ، لتستريح نفسه إليه ساعة عن كدّ المواظبة ، ففي ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات . وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلّا بقطع الطمع عن الدنيا ؛ وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع طمعه إلّا بقصر الأمل ، وألّا يقدر لنفسه عمراً طويلاً ، بل يصبح على أنّه لا يمسي ، ويمسي على أنّه لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدر تراخي أجله ، وليكن كثير الذّكر للموت ووحدّة القبر ، مهما ضاق قلبه من الوحدة ، وليتحقّق أنّ مَنْ لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به ، فإنّه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت ، وأنّ مَنْ أنس يذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لا يزيل أنسه ، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة ، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١)

وكلّ من يجرد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت ، فالمجاهد مَنْ

جَاهِد نَفْسَهُ وَهَوَاهُ ، كَمَا صَرَّحَ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : « رَجِعْنَا مِنَ الْجِهَادِ
الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » ، فَالْجِهَادُ الْأَصْغَرُ مُحَارَبَةُ الْمُشْرِكِينَ ، وَالْجِهَادُ الْأَكْبَرُ
جِهَادُ النَّفْسِ .

وهذا الفصل في العزلة نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزالي في إحياء علوم الدين
وهذبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه ^(١) .

(١) كتاب آداب العزلة ؛ من كتاب الإحياء ٢ : ٢٢١ - ٢٤٤ ، وهو الكتاب السادس من ربيع
العادات .

الأضل :

ومن كلامه عليه السلام في معنى الحكمين :

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَيْكُكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ ؛ فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعِلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، وَالْأَعْوَجَاجُ رَأْيَاهُمَا ؛ وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيَاهُمَا ، وَجَوْرَ حُكْمَاهُمَا ، وَالثِّقَةَ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا ، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ .

الشرح :

الملا : الجماعة . ويجمعهما : يحبس نفوسهما وآراءهما عند القرآن ، جمععت ، أى حبست ، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملوا بما في القرآن ولا يتجاوزاه . فتأها عنه ، أى عدلا ، وتركا الحق على علم منهما به . والدأب : العادة ، « وسوء رأيهما » منصوب ، لأنه مفعول « سبق » ، والفاعل « استثنأونا » .

ثم قال : « والثقة في أيدينا » ، أى نحن على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بضائر لنا مفعلاه لأنهما خالفا الحق ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم .

وروى التورى ، عن أبي عبيدة ، قال : أمر بلال بن أبي بريدة وكان قاضياً ،
بتفريق بين رجل وامرأته ، فقال الرجل : يا آل أبي موسى ^(١) ، إنما خلقكم الله للتفريق
بين المسلمين !

[كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر]

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر ، قد قبضها بالشرط الذى اشترط
على معاوية : « أما بعد ، فإن سؤال أهل الحجاز وزوار أهل العراق كثروا على ،
وليس عندى فضل عن أعطيات الحجاز ، فأعني بخراج مصر هذه السنة » .

فكتب عمرو إليه :

معاوى إن تدركك نفسٌ شحيحةٌ فما مصر إلا كالهباءة في الترابِ
وما نلتها عفواً ولكن شرطتها وقد دارت الحرب العوان على قطبِ
ولولا دفاعى الأشعرى ورهطه لألفتها ترغو كراغية السقبِ
ثم كتب فى ظاهر الكتاب - ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبى زكريا يحيى بن على
الخطيب التبريزى رحمه الله -

معاوى حظى لا تغفل وعن سنن الحق لا تعدلِ
أتنسى مخادعتى الأشعرى وما كان فى دومة الجندلِ !
أئين فيطمع فى غرتي وسهمى قد خاض فى المقتلِ
فألمظه عسلاً بارداً واخبأ من تحته حنظلِ
وأعليته المنبر المشمخر كرجع الحسام إلى المفصلِ

(١) الرغاء : صوت الإبل ، والثعب : ولد الناقة .

فأضحى لصاحبه خالعا كخلع النعال من الأرجل
وأثبتها فيك موروثة ثبوت الخواتم في الأنامل
وهبت لغيري وزن الجبال وأعطيتني زنة الخردل
وإنّ عليّا غدا خصمنا سيحتج بالله والمرسل
وما دمّ عثمان منج لنا فليس عن الحق من مزحل
فلما بلغ الجواب إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها .

بعث عبد الملك رّوح بن زنباع وبلال بن أبي بردة ابن أبي موسى ، إلى زفر بن
الحارث الكلابي بكلام ، وحذرهما من كيده ، وخصّ بالتحذير رّوحا . فقال : يا أمير
المؤمنين ، إنّ أباه كان المخدوع يوم دومة الجندل لا أبي ، فعلام تخوّفني الخداع والكيد !
فغضب بلال وضحك عبد الملك .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ ،
لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ،
وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا ، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ ،
وَحَفَى طَرْفِ الْأَحْدَاقِ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ مَعْدُولٍ بِهِ ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ
دِينُهُ ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ ؛ شَهَادَةٌ مِنْ صِدْقِ نَيْتِهِ ، وَصَفَتْ دِخْلَتَهُ ، وَخَلَصَ
يَقِينُهُ ، وَثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الْمُجْتَبَى مِنْ خَلْقِهِ ،
وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ ، وَالْمَخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالْمُصْطَفَى لِكِرَامِهِ رِسَالَاتِهِ ،
وَالْمَوْضَحَّةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَرْبُيبُ الْعَمَى .

الشرح :

لا يشغله أمر ؛ لأنّ الحى الذى تشغله الأشياء هو الحىّ العالم بالبعض دون البعض ،
وانقاد على البعض دون البعض ؛ فأمّا من لا يغيب عنه شيء أصلاً ، ولا يعجز عن شيء
أصلاً ، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره - إذا أراد - مانع أصلاً ؛ فكيف يشغله شأن !
وكذلك لا يغيّره زمان ؛ لأنّه واجب الوجود ، ولا يحويه مكان ، لأنّه ليس بجسم ،

ولا يصفه لسان ، لأنَّ كُنْه ذاته غيرُ معلوم ؛ وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب .

ولا يعزب عنه أمر من الأمور ، أى لا يفوته عِلْمُ شَيْءٍ أصلاً .

والسوافى : التى تَسْنِي التراب ، أى تُذَرِيه .

والصفا ، مقصور : الصخر الأملس ؛ ولا وقف عليها هاهنا ؛ لأنَّ المقصور لا يكون فى مقابلة الممدود ، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هى « الظلماء » ، ويكون « الصفا » فى أدراج الكلام أسوةً بكلمة من الكلمات . والذَرَّ : صغار النمل .

ويعلم مساقط الأوراق ، من قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ ^(١) . وطَرْفُ الأحداق : مصدر طَرَفَ البصر يطَرْفُ طَرْفًا ؛ إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر ؛ ولكونه مصدرًا وقع على الجماعة ، كما وقع على الواحد ، فقال عليه السلام : « طَرْفُ الأحداق » ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ ^(٢) .

وغير معدول به : غير مسوَّى بينه وبين أحد .

والدَّخْلَة ، بكسر الدال : باطن الأمر ، ويجوز الدَّخْلَة بالضم .

والمعتم : المختار . والعِيمة بالكسر خيارُ المال ؛ اعتم الرجل إذا أخذ العِيمة .

فإن قلت : لفظة « معتم » و « مختار » تصلح للفاعل والمفعول ، فماذا

يفصل بينهما ؟

قلت : بما يقترن باللفظ من الكلام قبله وبعده .

فإن قلت : فهل يختلفان فى التقدير فى صناعة النحو ، وإن اتفقا فى اللفظ ؟

قلت : نعم ؛ فإنَّ عين الكلمة ياء مفتوح ماقبلها ؛ فإن أردت الفاعل فهى مكسورة ،

(١) سورة الأنعام ٥٩

(٢) سورة إبراهيم ٤٣

وتقديره «مختير» مثل «مخترع» ؛ وإن كان مفعولا فهي مفتوحة ، وتقديره «مختير» مثل «مخترع» وعلى كلا التقديرين لابد من انقلاب الياء ألفا ، واللفظ واحد ولكن يقدر على الألف كسرة للفاعل وفتحة للمفعول ، وكذلك القول في «معتم» و«مضطر» ونحوها .
وحكى أن بعض المتكلمين من المجبرة ، قال : أسمى العبد مضطرا إلى الفعل ، إذا فعله ، ولا أسمى الله تعالى مضطرا إليه .

قيل : فكيف تقول ؟ قال «مضطر» بكسر الطاء ، فضحك أهل المجلس منه .
والعقائل : جمع عقيلة ، وهي كريمة كل شيء من الناس والإبل وغير ذلك ، ويقال للذرة عقيلة البحر .

وأشراط الهدى : علاماته ، ومنه أشراط الساعة قال تعالى : ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾^(١) .
والغريب : الأسود الشديد السواد .
ويجلى به غريب العمى : تكشف به ظلم الضلال ، وتستنير به دايته . وقوله تعالى : ﴿وَعَرَا يَبْ سُوْدٌ﴾^(٢) ؛ ليس على أن الصفة قد تقدمت على الموصوف ، بل يجعل السواد بدلا من الغرايب .

فإن قلت : الهاء في «حقائقه» إلى ماذا ترجع ؟
قلت : إلى البارئ سبحانه ، وحقائقه حقائق توحيده وعدله ، فالمضاف محذوف ؛ ومعنى حقائق توحيده : الأمور المحققة اليقينية التي لا تعترضها الشكوك ، ولا تتخالفها الشبه ؛ وهي أدلة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم ، بعد أن دلهم إليها ، ونبههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ لأنه إمام المتكلمين الذي لم يعرف علم الكلام من أحد قبله .

(١) سورة محمد ١٨

(٢) سورة فاطر

الأضل :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤْمِلَ لَهَا ، وَالْمُخْلَدَ إِلَيْهَا ، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا .

وَإِنَّمُ اللَّهُ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَرَّالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النَّقْمُ ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النِّعَمُ ، فَرَعَوْا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ ، وَوَلَّاهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ .
وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلَّتُمْ فِيهَا مِثْلَةً ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَكِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ .
وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَتَمُولَ لَقُلْتُ : عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ !

الشَّرْحُ :

المُخْلَدُ : المائل إليها ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

ولا تنفس بمن نافس فيها : لا تضنَّ به ، أى من نافس في الدنيا فإن الدنيا تهينه ولا تضنَّ به ، كما يضنُّ بالعلق النفيس .

ثم قال : « وتغلب مَنْ غلب عليها » ، أى مَنْ غلب على الدنيا مقاهرة فسوف تغلبه الدنيا وتهلكه .

ثم أقسم إنه ما كان قومٌ في غَضٍّ نعمة أى في نعمة غضة ؛ أى طرية ناضرة ، فزال عنهم

إلا بذنوب اجتروحها، أى اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ؛ ومن قال :
إنَّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقاً، فأما مذهب
أصحابنا فلا يخرج هذا الكلام عليه، لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب
من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به فى الآخرة، فيجب أن يحمل هذا الكلام
لأعلى عمومته، بلى على الأكثر والأغلب.

ثم قال عليه السلام : لو أن الناس عند حلول النقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى
الله تعالى تائبين من ذنوبهم ؛ لرفع عنهم النعمة ، وأعاد إليهم النعمة .
والوله ، كالتحير يحدث عند الخوف أو الوجد . والشارد : الداهب .
قوله : « وإني لأخشى عليكم أن تكونوا فى فترة » ، أى فى أمر جاهلية لغلبة الضلال
والجهل على الأكثرين منهم .

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان فى أول خلافته عليه السلام،
وقد تقدّم ذكر بعضها والأمور التى مالوا فيها عليه اختيارهم عثمان وعدولهم عنه
يوم السورى .

وقال : « لئن ردّ عليكم أمركم » أى أحوالكم التى كانت أيام رسول الله صلى الله
عليه وآله من صلاح القلوب والنيات إنكم سعداء .

والجهد ، بالضم الطاقة .

ثم قال : لو أشاء أن أقول لقلت ، أى لو شئت لذكرت سبب التحامل علىّ وتأخرى
عن غيرى ؛ ولكنى لأشاء ذلك ، ولا أستصلح ذكره .

ثم قال : « عفا الله عما سلف » لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ قَيَّنْتُمْ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ (١) .

وهذا الكلام يدل على مذهب أصحابنا في أن ماجرى من عبد الرحمن (٢) وغيره في يوم الشورى ، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل ، فإنه معفو عنه مغفور لفاعله ، لأنه لو كان فسقاً غير مغفور ، لم يقل أمير المؤمنين عليه السلام : « عفا الله عما سلف » .

(١) سورة المائدة ٩٥

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف .

الأفضل :

ومن كلامه عليه السلام وقد سأله زعبل اليماني فقال : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام : أفأعبد ما لا أرى ! فقال : وكيف تراه ؟ قال :

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيَانِ ؛ وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَامَسٍ ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ ؛ مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوِيَّةٍ ، مُرِيدٌ لَا بَهْمَةَ ، صَانِعٌ لَا بَجَارِحَةَ .

لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَّةِ .

تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ؛ وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

الشنخ :

الذعاب في الأصل : الناقة السريعة ، وكذلك الذعلبة ، ثم نقل فسمي به إنسان ، وصار علماً ، كما نقلوا « بكرأ » عن فتى الإبل إلى بكر بن وائل .

واليماني مخفف النون ، ولا يجوز تشديدها ؛ جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية ؛ وكذلك فعلوا في « الشامي » ؛ والأصل « يمني » و « شامي » .

وقوله عليه السلام : « أفأعبد ما لا أرى ؟ » مقام رفيع جداً لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام .

ثم ذكر ماهية هذه الرؤية ، قال : إنها رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر .
ثم شرح ذلك ، فقال : إنه تعالى قريب من الأشياء ، غير ملامس لها ، لأنه ليس
بجسم ، وإنما قُربُه ^(١) منها علمُه بها ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا
هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ^(٢) .

قوله : « بعيد منها غير مبين » ، لأنه أيضاً ليس بجسم فلا يطلق عليه اليمينونة ، وبعده
منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها ، وذلك كما يصدق على البعيد بالوضع ، يصدق أفضل
الصدق على البعيد بالذات الذي لا يصحّ الوضع والأين أصلاً عليه .

قوله : « متكلم بلا رؤية » ، الرؤية : الفكرة يرتئى الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ
سديدة دالة على مقصده ، والبارى تعالى متكلم لا بهذا الاعتبار ؛ بل لأنه إذا أراد تعريف
[خلقه ^(٣)] من جهة الحروف والأصوات ؛ وكان في ذلك مصلحة ولطف لهم ، خلق
الأصوات والحروف في جسم جمادى ، فيسمعها مَنْ يسمعها ، ويكون ذلك كلامه ، لأنّ
المتكلم في اللغة العربية فاعل الكلام لا من حله الكلام . وقد شرحنا هذا في
كتبنا الكلامية .

قوله : « يريد بلاهمة » ؛ أى بلا عزم ، فالعزم عبارة عن إرادة متقدمة للفعل ، تفعل
توطئاً للنفس على الفعل ، وتمهيداً للإرادة المقارنة له ؛ وإتّما يصحّ ، ذلك على الجسم الذى
يتردد فيها ، تدعوه إليه الدواعى ، فأما العالم لذاته ، فلا يصحّ ذلك فيه .

قوله : « صانع لا بجارحة » ، أى لا بعضو ؛ لأنه ليس بجسم .
قوله : « لطيف لا يوصف بالخفاء » ، لأنّ العرب إذا قالوا لشيء : إنه لطيف ، أرادوا
أنّه صغير الحجم ، والبارى تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين :

(١) سورة المجادلة ٧

(١) د : « قربته » .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

أحدهما : أنه لا يُرى لعدم صحّة رؤية ذاته ؛ فلما شابه اللطيف من الأجسام في استحالة رؤيته ، أطلق عليه لفظ « اللطيف » إطلاقاً للفظ السبب على المسبب .
وثانيهما : أنه لطيفٌ بعباده ؛ كما قال في الكتاب العزيز ، أى يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة ، المبعّدة لهم من القبيح . أولطيفٌ بهم بمعنى أنه يرحمهم ويرفُق بهم .

قوله : « كبير لا يوصفُ بالجفاء » ، لما كان لفظ « كبير » إذا استعمل في الجسم أفاد تباعد أقطاره ؛ ثم لما وصف الباري بأنه أراد أن ينزّهه عما يدلّ لفظ « كبير » عليه ، إذا استعمل في الأجسام ؛ والمراد من وصفه تعالى بأنه كبير ، عظّمة شأنه وجلالة سلطانه .

قوله : « بصير لا يوصف بالحاسّة » ؛ لأنه تعالى يدرك إمّا لأنه حيّ لذاته ، أو أن يكون إدراكه هو علمه ؛ ولا جارحة له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين .

قوله : « رحيم لا يوصف بالرتّة » ؛ لأنّ لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على^(١) إنعامه على عباده ، لأنّ الملك إذا رقّ على رعيّته وعطف ، أصابهم بإنعامه ومعروفه .

قوله : « تعنو الوجوه » ، أى تخضع ، قال تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾^(٢) .

قوله : « وتجبّ القلوب » ، أى تخفّق ، وأصله من وجّب الحائط ، سقط . ويروى : « توّجل القلوب » أى تخاف ، وجّل : خاف .

وروى : « صانع لا بحاسّة » ؛ وروى « لا تراه العيون بمشاهدة العيان » عوضاً عن « لا تدركه » .

(١) ب ، د : « عن » .

(٢) سورة طه ١١١

الأضل :

ومنه كلام له عليه السلام في ذم أصحابه :

أَحَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ؛ وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيْتَهَا الْفِرْقَةُ
الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تَطِيعْ ؛ وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ .
إِنْ أَهْمَلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ، وَإِنْ أَجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ ،
وَإِنْ أَجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ .

لَا أَبَا لَغَيْرِكُمْ ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ !
الْمَوْتُ أَوْ الذُّلُّ لَكُمْ ! فَوَاللَّهِ لَنْ يَأْتِيَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لِيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ ، وَأَنَا لِيُصْحَبَتِكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ .
لِلَّهِ أَنْتُمْ ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حِمِيَّةَ تَشْحَذُكُمْ ! أَوْ لَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ
يَدْعُو الْجَفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ
الْإِسْلَامِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ،
وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ !

إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضًا فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلَا سُخْطًا فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ؛
وَإِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَى الْمَوْتِ .

قَدْ دَارَسْتُكُمْ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ ، وَعَرَفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ،
وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَّجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَنِيْقُظُ !

وَأَقْرَبَ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَمُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ !

الشَّرْحُ :

قضى وقدر في هذا الموضع واحد .

ويروى : « على ما ابتلاني » .

وأهملتم : خلّيتم وتركتم ، ويروى : « أمهلتهم » ، أى أخرتم .

وخرتم : ضعفتهم ، والخور : الضعف ؛ رجل خوار ، ورمح خوار ، وأرض خوارة ، والجمع خور . ويجوز أن يكون « خرتم » أى صحتهم ، كما يخور الثور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَارٌ ﴾ ^(١) .

ويروى : « جرّتم » أى عدلتم عن الحرب فرارا .

وأجيتهم : أجمتهم ، قال تعالى : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ^(٢) .

والمشاقّة : المقاطعة والمصارمة .

ونكصتم : أجمتهم ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ﴾ ،

أى رجع محجّماً ، أى دعيتهم إلى كشف القناع مع العدو وجبتهم وهبتموه .

قوله : « لا أبا لغيركم » ، الأفصح « لا أب » ، بحذف الألف ، كما قال الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم ^(٣)

وأما قولهم : « لا أباك » ، بإثباته فدون الأوّل فى الفصاحة ؛ كأنهم قصدوا الإضافة ؛

وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة . كما قالوا : « ياتيم تيم عدى » ، وهو غريب لأن حكم

(١) سورة طه ٨٨

(٢) سورة مريم ٢٣

(٣) لنهار بن توسعة اليشكري ؛ والبيت من شواهد سيبويه .

« لا » أن تعمل في النكرة فقط ؛ وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة ، والإضافة تعرف ؛ فاجتمع فيها حكمان متنافيان ، فصار من الشواذ كالملاح والمذاكير ولدن غدوة^(١) .

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله : يجوز فيها وجهان آخران : أحدهما أنه أشبع فتحة الباء ، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره ، والثاني أن يكون استعمل « أباً » على لغة من قالها « أباً » في جميع أحوالها مثل « عصا » ، ومنه :
* إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا *^(٢) .

قوله : « الموت أو الذل لكم » ، دعاء عليهم بأن يصيبهم أحد الأمرين ، كأنه شرع داعياً عليهم بالفناء الكلي ؛ وهو الموت ؛ ثم استدرك فقال : « أو الذل » ؛ لأنه نظير الموت في المعنى ؛ ولكنه في الصورة دونه ؛ ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدعوة الثانية ؛ فإن شيعته ذلوا بعد في الأيام الأموية ؛ حتى كانوا كفقع قرقر^(٣) .

ثم أقسم أنه إذا جاء يومه لتكونن مفارقتهم عن قلى ؛ وهو البغض ، وأدخل حشوة بين أثناء الكلام ، وهي « ليأتيني » وهي حشوة لطيفة ؛ لأن لفظة « إن » أكثر ما تستعمل لما لا يعلم حصوله ، ولفظة « إذا » لما يعلم أو يغلب على الظن حصوله ، تقول : إذا طلعت الشمس جئت إليك ، ولا تقول : إن طلعت الشمس جئت إليك ؛ وتقول : إذا احمر البسر جئتكم ، ولا تقول : إن احمر البسر جئتكم ، فلما قال : « لئن جاء يومى » ، أتى بلفظة دالة على أن الموضع موضع « إذا » لا موضع « إن » ، فقال : « وليأتيني » .

(١) أى أنهم لا يستعملون إلا هكذا ، فلا يستعملون « ملحه » ، ولا يستعملون « مذكارا » ، كما أن « لدن » اختصت بغدوة ، وانظر سيبويه ١ : ٣٤٨ .
(٢) بقيته :

* قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا *

وهو من شواهد النحاة ؛ وانظر ابن عقيل ١ : ٤٦
(٣) الفقع : ضرب من أردأ الكمأة ، والقرقر : المكان المستوى الأملس ؛ ويشبه به الرجل الذليل ؛ فيقال : هو أذل من فقم بقرقر ؛ لأن الدواب تنجسه بأرجلها

والواو في قوله : « وإنا لصحبكم » ، واو الحال ، وكذلك الواو في قوله : « وبكم غير كثير » ؛ وقوله : « غير كثير » لفظ فصيح ، وقال الشاعر :

لِيَ خَمْسُونَ صَدِيقًا بَيْنَ قَاضٍ وَأَمِيرٍ
لَبَسُوا الْوَفَرَ فَلَمْ أَخْلَعْ بِهِمْ ثَوْبَ الْغَفِيرِ
لَكثيرٌ هُمْ وَلَكِنِّي بِهِمْ غَيْرُ كَثِيرٍ

قوله : « لله أتم » ؛ لله في موضع رفع ؛ لأنه خبر عن المبتدأ الذي هو « أتم » ، ومثله : لله در فلان ! والله بلاد فلان ! والله أبوك ! واللام هاهنا فيها معنى التعجب ؛ والمراد بقوله : « لله أتم » لله سعيكم ، أو الله عملكم ، كما قالوا : « لله درك ! » أى عملك ، فحذف المضاف ، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه .

فإن قلت : أجمعت هذه اللام بمعنى التعجب في غير لفظ « لله » ؟

قلت : لا ، كما أن تاء القسم لم تأت إلا في اسم الله تعالى .

قرله عليه السلام : « أما دين يجمعكم ! » ارتفاع « دين » على أنه فاعل فعلٍ مقدر ، له ؛ أى أما يجمعكم دين يجمعكم ! اللفظ الثانى مفسر للأول كما قدرناه بعد « إذا » في قوله سبحانه : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ويجوز أن يكون « حمية » مبتدأ ، والخبر محذوف تقديره : أما لكم حمية !

والحمية : الأنفة . وشحذت النصل : أحدثته .

فإن قلت : كيف قال : إن معاوية لم يكن يعطى جنده وأنه هو عليه السلام كان يعطيهم ؛ والمشهور أن معاوية كان يمد أصحابه بالأموال والרגائب !

قلت : إن معاوية لم يكن يعطى جنده على وجه المعونة والعطاء ؛ وإنما كان يعطى رؤساء القبائل من اليمن وساكنى الشام الأموال الجليلة ؛ يستعبدون بها ، ويدعو أولئك

الرؤساء أتباعهم من العرب فيطيعونهم ؛ فمنهم مَنْ يطيعهم حمية ، ومنهم من يطيعهم لأباد وعوارف من أولئك الرؤساء عندهم ، ومنهم مَنْ يطيعهم ديناً ، زعموا للطلب بدم عثمان ، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير . وأما أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه كان يقسم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرزق ، ولا يرى لشريف على مشروف فضلاً ؛ فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممن ينصره ويقوم بأمره ؛ وذلك لأن الرؤساء من أصحابه كانوا يجدون في أنفسهم من ذلك - أعنى المساواة بينهم وبين الأتباع - فيخذلونه عليه السلام باطناً ، وإن أظهرُوا له النصر ، وإذا أحسن أتباعهم بتخاذلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضاً وتواكلوا أيضاً ، ولم يجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق ؛ لأن انتصار الأتباع له وقتلهم دونه لا يتصور وقوعه ؛ والرؤساء متخاذلون ؛ فكان يذهب ما يرزقهم ضياعاً .

فإن قلت : فأى فرق بين المعونة والعطاء ؟

قلت : المعونة إلى الجند شيء يسير من المال يرسم ترميم أسلحتهم ، وإصلاح دوابهم ، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهراً فشهرًا ، والعطاء المفروض شهراً فشهرًا يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات ، ومؤنة العيال ، وقضاء الديون .

والترية : بيضة النعام تتركها في مجثمها ؛ يقول : أنتم خلف الإسلام وبقية كالبليضة التي تتركها النعامة .

فإن قلت : مامعنى قوله : « لا يخرج إليكم من أمرى رضاً فترضونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه » ؟

قلت : معناه أنكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً ، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم ، بل لكم لا بد من المخالفة والافتراق عنه .

ثم ذكر أن أحب الأشياء إليه أن يلقي الموت ، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ تَكُنَّ أَمَانِيَا ^(١)
تَمْنِيهَا لَمَّا تَمَنَيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاخِيَا
قوله : « قد دارستكم الكتاب » ، أى درسته عليكم ، دارست الكتب وتدارستها
وأدرستها ، ودرستها ، بمعنى ؛ وهى من الألفاظ القرآنية ^(٢) .

وفاتحتكم الحجاج ؛ أى حاكمتكم بالحاجة والمجادلة ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا ﴾ ^(٣) أى احكم ، والفتاح : الحاكم .

وعرفتكم ما أنكرتم : بصرتكم ما عمى عنكم .
وسوَّغْتُكم ما مجَّجْتُمْ ، يقال : مجَّجْتُ الشراب من فَمِي ؛ أى رميت به ، وشيخُ ماجَّ :
يُمَجُّ ريقه ، ولا يستطيع حبسه من كبره ، وأحق ماجَّ : أى يسيل لعابه ؛ يقول : ما كانت
عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينية أوضحتها لكم حتى عرفتُموه واعتقدتموه
وانطوت قلوبكم عليه .

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم ، لأنه قال : لو كان الأعمى يلحظ ، والنائم
يستيقظ ! أى أتى قد فعلت معكم ما يقتضى حصول الاعتقادات الحقيقية فى أذهانكم لو أزلتم
عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم ، والمانع المشار إليه هو الهوى والعصبية والإصرار
على اللجاج ؛ ومحبة نصره ^(٤) عقيدة قد سبقت إلى القلب ، وزرعها التعصب ، ومشقة مفارقة

(١) ديوانه ٤ : ٢٨١

(٢) من قوله تعالى فى سورة آل عمران ٧٩ : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

(٣) سورة الأعراف ٨٩

الأسلاف الذين قد انغرس في النفس تعظيمهم ، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظن بهم .

ثم قال : « أَقْرِبْ بِقَوْمٍ ! » أى ما أقرب بهم من الجهل ! كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ ^(١) أى ما أسمعهم وأبصرهم !

فإن قلت : قد كان يجب أن يقول : « وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ قَائِدِهِمْ معاوية ومؤدبهم ابن النابغة من الجهل » فلا يحول بين النكرة الموصوفة وصفها بفاصل غريب ، ولم يقل ذلك ، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيٍ منهما !

قلت : فد جاء كثير من ذلك ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوَّلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ ﴾ ^(٢) في قول من لم يجعل « مَرَدُّوا » صفة أقيمت مقام الموصوف ، لأنه يجعل « مردوا » صفة القوم المحذوفين المقدرين بعد « الأعراب » وقد حال بين ذلك وبين « مردوا » قوله : « ومن أهل المدينة » .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ ^(٣) . فإن « قَيِّمًا » حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذى الحال « ولم يجعل له عوجا » والحال كالصفة ؛ ولأنهم قد أجازوا : « مررت برجل - أيها الناس - طويل » ؛ والنداء أجنبي ؛ على أنا لا نسلم أن قوله : « من الجهل » أجنبي ، لأنه متعلق بأقرب ، والأجنبي مالا تعلق له بالكلام .

(١) سورة الكهف ٢٦ .

(٢) سورة التوبة ١٠١ .

(٣) سورة الكهف ١ ، ٢ .

الأضل :

ومن كلام له عليه السلام وقد أُرْسِلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ قَدْ هَمُّوا بِالْحَقِّ بِالْخَوَارِجِ ، وَكَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ أَأَمِنُوا فَقَطَّنُوا ، أَمْ جَبَنُوا فَظَعَنُوا ! فَقَالَ الرَّجُلُ : بَلْ ظَعَنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فقال عليه السلام :

بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ! أَمَا لَوْ أَشْرَعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ ؛ لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانُوا مِنْهُمْ .
إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهَمَ ، وَهُوَ غَدَاً مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ ، وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ ؛ فَحَسْبُهُمْ بَخْرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجَمَّاحِهِمْ فِي التَّبَيُّهِ .

الشَّيْخُ :

قد ذكرنا قصة هؤلاء القوم فيما تقدم عند شرحنا قصة مصقلة بن هبيرة الشيباني .
وقطن الرجل بالمكان ، يقطن بالضم : أقام به وتوطنه ؛ فهو قاطن ؛ والجمع قطان وقاطنة وقطين أيضا ، مثل غاز وغزى .

وعازب للكلاء البعيد وعزيب . وظعن صار الرجل ظعنا وظعننا ؛ وقرئ بهما : ﴿ يَوْمَ ظَعَنَ كُمْ ﴾ ^(١) ؛ وأظعنه سيره ، وانتصب « بُعْدُ » أَعْلَى الْمَصْدَرِ .

وتمود ؛ إذا أردت القبيلة غير مصروف ، وإذا أردت الحى أو اسم الأب مصروف ،
ويقال : إنه تمود بن عابر بن آدم بن سام بن نوح ، قيل : سميت تمود لقلة ماءها ، من التمد
وهو الماء القليل ؛ وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى
وأشرفت الرمح إلى زيد ؛ أى سدّته نحوه ، وشرع الرمح نفسه وصبت السيوف
على هاماتهم : استعارة من صببت الماء ، شبه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرؤوس
بصب الماء

واستفلمهم الشيطان : وجدهم مفلولين ، فاستزلهم ؛ هكذا فسروه
ويمكن عندي أن يريد أنه وجدهم فلا ، لا خير فيهم ، والفل في الأصل : الأرض لا نبات
بها ، لأنها لم تمطر ، قال حسان يصف العزى ^(١) :

وإنّ التّى بالجذع من بطن نخلة ومن دأنها فل من الخير معزل ^(٢)
أى خال من الخير .

ويروى « من استفرّهم » ، أى استخفهم .

والارتكاس في الضلال : الرجوع ؛ كأنه جعلهم في ترددهم في طبقات الضلال كالمرتكس
الراجع إلى أمر قد كان تخلص منه .

والجراح في التّيه : الغلو والإفراط ، مستعار من جراح الفرس ؛ وهو أن يعتز صاحبه
ويغلبه ، جمح فهو جموح .

(١) في الأصل : « العزى » ، تصحيف ، وفي الصحاح : « العزى » ، وهى شجرة كانت تعبد .

(٢) اللسان ١٤ : ٤٧ ، ونسبه إلى عبد الله بن رواحة ، وذكر قبله :

شهدت ولم أكذب بأنّ محمداً رسول الذى فوق السماوات من عل

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رَوَى عَنْ نَوْفِ الْبِكَالِيِّ ، قَالَ : خَطَبْنَا بِهِذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ
السَّلَامُ بِالْكُوفَةِ ؛ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارَةٍ نَصَبَهَا لَهُ جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيُّ ، وَعَلَيْهِ
مِدرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، وَحُمْلٌ سَيْفِهِ لَيْفٌ ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ ؛ وَكَانَ جَبِينُهُ
ثِفْنَةً يَبْعِيرُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ ، وَعَوَاقِبُ الْأُمْرِ ! نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ ،
وَنَبِّرُ بُرْهَانَهُ ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ ، حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً ، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً ،
وَالِى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا ؛ وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ ،
مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَائْتِقٍ بِدَفْعِهِ ؛ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ ،
وَنُؤْمِنُ بِهِ بِإِيمَانٍ مِنْ رَجَاءِ مُوقِنًا ، وَأُنَابٍ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِنًا ، وَأَخْلَصَ لَهُ
مُوحِدًا ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا ، وَلَآذَ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا .

الشَّرْحُ :

[نَوْفُ الْبِكَالِيِّ]

قال الجوهرى فى الصَّحاح : نَوْفُ الْبِكَالِيِّ ، بفتح الباء ، كان حاجبَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ
السَّلَامُ ، ثُمَّ قَالَ : وَقَالَ ثعلب : هو منسوب إلى بكالة ، قبيلة ^(١) .

وقال القطب الراوندى فى شرح " نهج البلاغة " بكال وبكيل شىء واحد ؛
وهو اسم حى من همدان ، وبكيل أكثر ، قال الكميت :

* فَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِكَيْلٌ وَأَرْحَبُ^(١) *

والصواب غير ما قاله ، وإنما بنو بكال ، بكسر الباء ، حى من حمير ؛ منهم هذا
الشخص ؛ هو نَوْف بن فضالة ، صاحب علىّ عليه السلام ؛ والرواية الصحيحة الكسر ،
لأنّ نوف بن فضالة بكالى ، بالكسر ، من حمير ؛ وقد ذكر ابن الكلبيّ نسب بنى بكال
الحميريّين ، فقال : هو بكال بن دُعْمَى بن غوث بن سعد بن عوف بن عدى بن مالك بن زيد
ابن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن
ابن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير .

[نسب جمعة بن هبيرة]

وأما جمعة بن هبيرة ، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام ، أمّه أمّ هانى بنت
أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبوه هبيرة بن أبى وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران
بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب . وكان جمعة فارساً شجاعاً ، فقيهاً
ووليّ خراسان لأمر المؤمنين عليه السلام ؛ وهو من الصحابة الذين أدركوا رسول الله صلى
الله عليه وآله يوم الفتح ، مع أمّه أمّ هانى بنت أبى طالب ؛ وهرب أبو هبيرة بن أبى وهب
ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزُّبَيْرى إلى نجران .

(١) الصحاح ، صدره :

* يَقُولُونَ يُورَثُ وَلَوْلَا تَرَاثُهُ *

وروى أهل الحديث أن أم هانئ كانت يوم الفتح في بيتها ، فدخل عليها هُبيرة ابن أبي وهب بعلمها ، ورجل من بني عمه ! هاربن من علي عليه السلام ؛ وهو يتبعهما ويده السيف ، فقامت أم هانئ في وجهه دونهما ، وقالت : ما تريده منهما ، ولم تكن رأتَه من ثمانى سنين ، فدفع في صدرها ، فلم تزَلْ عن موضعها ، وقالت : أتدخلُ ياعلى بيتي ، وتهتك حرمتي ، وتقتل بعلى ، ولا تستحي مني بعد ثمانى سنين ! فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أهدر دمهما ، فلا بد أن أقتلهما . فقبضت على يده التي فيها السيف ، فدخلتا بيتا ثم خرجا منه إلى غيره ، ففاته ، وجاءت أم هانئ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبها ، فوقفت حتى أخذ ثوبه ، فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف ، فقال : مرحباً وأهلاً بأم هانئ ! ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر بعلمها وابن عمه ، ودخول علي عليه السلام بيتها بالسيف . فجاء علي عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يضحك ، فقال له : ما صنعت بأم هانئ ؟ فقال : سلها يا رسول الله ما صنعت بي ! والذي بعثك بالحق لقد قبضت على يدي وفيها السيف ؛ فما استطعت أن أخلصها إلا بعد لأي ، وفاتني الرجلان . فقال صلى الله عليه وآله : « لو ولد أبو طالب الناس كلهم لكانوا شجعاناً ، قد أجزنا من أجارت أم هانئ ، وأمنا من أمنت ، فلا سبيل لك عليهما » .

فأما هُبيرة فلم يرجع ؛ وأما الرجل الآخر ، فرجع فلم يعرض له .

قالوا : وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافراً ، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازى شعراً أوله :

أَشَاقَتَكَ هَنْدُ أُمِّ أَتَاكَ سُوءُهَا كَذَاكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَانْفَتَالُهَا

يذكر فيه أم هانئ وإسلامها ، وأنه مهاجر لها إذ صبت إلى الإسلام ، ومن جملة :

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وَقَطَّعْتَ الْأَرْحَامَ مِنْكَ حَبَالُهَا ^(١)
فَكُونِي عَلَى أَعْلَى سَحُوقٍ بِهَضْبَةٍ مَلْمُومَةٍ غِبْرَاءَ يُبْسَ قَلَالُهَا ^(٢)
وقال ابن عبد البر في كتاب "الاستيعاب" ^(٣) : ،

ولدت أم هانئ لهبيرة بن أبي وهب بنين أربعة : جعدة ، وعمرا ، وهانئا ، ويوسف ،
قال : وجعدة الذي يقول :

أَبِي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ إِنْ كُنْتَ سَائِلًا وَمِنْ هَاشِمٍ أُمِّي ، لَخَيْرُ قَبِيلٍ ^(٤)
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْأَى عَنِّي بِخَالِهِ كَخَالِي عَلِيٍّ ذِي النَّدَى وَعَقِيلٍ !

المدرعة : الجبة ، وتدرع : لبسها ، وربما قالوا : تدرع .
وثقنة البعير ، واحدة ثقناته ، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ
فيغليظ ويكثف ، كالركبتين وغيرهما . ويقال : ذو الثقنات الثلاثة لعلي بن الحسين ، وعلي بن
عبد الله بن العباس عليهم السلام ، ولعبد الله بن وهب الراسبي ، رئيس الخوارج ، لأن
طول السجود كان قد أثر في ثقناتهم ، قال دُعبل :

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ٧٨٢

(٢) في الاستيعاب :

* مَمْنَعَةٌ لَا تَسْتَطَاعُ قَلَالُهَا *

وبعده :

فَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الْقَوْمُ حَالُهَا
وَإِنِّي لِأَحْمَى مِنْ وَرَاءَ عَشِيرَتِي إِذَا كَثُرَتْ تَحْتَ الْعَوَالِي مَجَالُهَا
وَوَطَّارَتْ بِأَيْدِي الْقَوْمِ بَيْضُ كَانَّهَا مَخَارِيقُ وَوُلْدَانٍ يَنْوَسُ ظِلَالُهَا
وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَنْبِلٌ تَهْوَى لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا

(٣) الاستيعاب ص ٨٢ - ٩٢

(٤) المصدر السابق

دِيَارُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ وَخَمَزَةَ وَالسَّجَادِ ذِي الثَّنَاتِ ^(١)
ومصائر الأمور : جمع مَصِيرٍ ، وهو مصدر « صار » إلى كذا ، ومعناه المرجع ، قال
تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ^(٢) فأما المصدر من « صار الشيء كذا » فمَصِيرٌ وصَيْرُورَةٌ ،
والقياس في مصدر « صار إليه » أى رجع « مَصَارًا » ، كمعاش ، وإنما جمع المصدر هاهنا
لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى في أحوالٍ مختلفة في الدنيا وفي الدار الآخرة ، فجمع
المصدر ، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير ، لاختلاف وجوهه ، كقوله تعالى :
﴿ وَيَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ ^(٣) .

وعواقب الأمر : جمع عاقبة ؛ وهى آخر الشيء .
ثم قَسَمَ الحمد ، فجعله على ثلاثة أقسام :
أحدها : الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى ؛ كالحياة والقُدرة والشهوة وغيرها
مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر .
وثانيها : الحمد على نير برهانه ، وهو مانصبه في العقول من العلوم البديهية المفضية إلى
العلوم النظرية بتوحيده وعدله .
وثالثها : الحمد على أرزاقه النامية ؛ أى الزائدة وما يجرى مجراها من إطالة الأعمار ،
وكثرة الأرزاق ، وسائر ضروب الإحسان الداخلة في هذا القسم .
ثم بالغ في الحمد حمداً يكون لحقه قضاء ، ولشكره أداء ، وذلك لأن الحمد والشكر [ولو بلغ]

(١) من قصيدته التائية :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَخِي مُقْفَرُ الْعَرَصَاتِ

وهى في معجم الأدباء ١١ : ١٠٣ - ١١٥

(٢) سورة آل عمران ٢٨

(٣) سورة الأحزاب ١٠

أقصى غاياته لم يصل إلى أن يكون قاضيا لحق الله تعالى ، ولا مؤدياً لشكره ؛ ولكنه قال ذلك على سبيل المبالغة .

ثم قال : « وإلى ثوابه مقرباً ، ولحسن مزيده موجبا » ؛ وذلك لأن الشكر يوجب الثواب والمزيد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ، ^(١) أى « أثبتكم » ، وقال : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ^(٢) .

ثم شرع فى الاستعانة بالله ففصلها أحسن تفصيل ، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله فى الآخرة ، مؤمل لنفعه فى الدنيا ، واثق بدفعه المضار عنه ؛ وذلك لأنه أراد أن يحتوى على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله ، فذكر الأمور الإيجابية ، وأعقبها بالأمور السلبية ؛ فالأولى جلب المنافع ، والثانية دفع المضار .

والطول : الإفضال . والإذعان : الانقياد والطاعة .

وأنا ب إليه أقبل ، وتاب . وخنع : خضع ، والمصدر الخنوع . ولاذ به : لجأ إليه .

الأصل :

لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكاً ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْثِقاً هَالِكاً . وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقِنِ ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ . فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ مُوَلَّدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ ؛ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّاتٍ وَلَا مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْ لَا إِفْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ ، وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوْاعِيَةِ ؛ لَمَا جَعَلْنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ

(١) سورة البقرة ١٥٢

(٢) سورة إبراهيم ٧

وَلَا مَسْكَنًا لِمَا بُكِّتَ ، وَلَا مَصْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ .

الشَّيْخُ :

نفى عليه السلام أن يكون البارى سبحانه مولوداً فيكون له شريك فى العزّ والإلهية؛ وهو أبوه الذى ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر؛ فإن أكثر أن الملك يكون ابن ملك قبله؛ ونفى أن يكون له ولد جرياً أيضاً على عادة البشر، فى أن كل والد فى الأكثر، فإنه يهلك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد؛ وهذا النمط من الاحتجاج يسمى خطابة؛ وهو نافع فى مواجهة العرب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارة تثبت فى نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت فى نفوس العوام بالخطابة والجدل.

ثم نفى أن يتقدمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنما خالف بين اللفظين، وأتى بحرف العطف؛ كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

ونفى أن يتعاوره، أى تختلف عليه زيادة أو نقصان؛ يقال: عاورت زيدا الضرب؛ أى فعلت به من الضرب مثل ما فعل بى؛ واعتوروا الشيء؛ أى تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعورّوه وتعاوروه، وإنما ظهرت الواو فى «اعتوروا»، لأنه فى معنى «تعاوروا» فبنى عليه ولو لم يكن فى معناه لا عتلت، كما قالوا: «اجتوروا» لما كان فى معنى: «تجاوزوا» التى لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها. واعتورت الرياح رسم الدار: اختلفت عليه.

فإن قلت: هذا يقتضى أن يقول: «ولم يتعاوره زيادة ونقصان»، لأن التعاور يستدعى الضدين معا، ولا ينبغى أن يقول: «ولا نقصان»؛ كما لا يجوز أن تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت : لما كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال : « لا يعتوره الزيادة » ؛ فكذلك القول في جانب النقصان ؛ وجرى كل واحد من النوعين مجرى أشياء متنافية ، تختلف على الموضع الموصوف بها .

قوله عليه السلام : « موطدات » ؛ أى ممدّات مثبتات .
والعمد : جمع عماد ، نحو إهاب وأهب ، وإدام وأدم ؛ وهو على خلاف القياس ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ^(٢) . والسند : ما يستند إليه .

ثم قال : « دعاهنّ فأجن طائعات » ؛ هذا من باب المجاز والتوسع ؛ لأنّ الجمد لا يدعى ؛ وأما من قال : إنّ السموات أحياء ناطقة ، فإنّه لم يجعلهنّ مكلفات ليقال : ولولا إقرارهنّ له بالربوبية لما فعل كذا ؛ بل يقول ذلك على وجه آخر ؛ ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز ، نحو قول الراجز :

أُمْتَلَأَ الْخَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي مَهْلًا رَوِيْدًا قَدْ مَلَأَتْ بَطْنِي ^(٣)
ومنه قوله تعالى : ﴿ أُتْنِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ^(٤) .

ومنه قول مكاتب لبني منقر التميميين ، كان قد ظلع ^(٥) بمكاتبته ، فأتى قبر غالب بن صعصعة ، فاستجار به ؛ وأخذ منه حصيات فشدهن في عمامته ، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره ، وقال : إني قد قلت شعرا ، قال : هاته ، فأنشده :

(١) سورة الهمزة ٩

(٢) سورة الرعد ٢

(٣) اللسان (قطين) من غير نسبة .

(٤) سورة فصلت ١١

(٥) يريد أنه ضاق بها

بقبر ابنِ كَيْلَى غالبٍ عذتُ بعدما خشيت الرَّدَى أو أن أردّ على قَسْرِ
بقبر امرئٍ يَقْرِى المئين عظامه ولم يكُ إلّا غالبا مَيِّتٌ يَقْرِى
فقال لى استقدم أمامك إنما فكاك أن تلقى الفرزدق بالمضر

فقال : ما اسمك ؟ فقال : لهزم ، قال : يالهزم حكمك مسمّطا ، قال : ناقة كَوْماء ^(١)
سوداء الحدقة ، قال : يا جارية اطرحى لنا حبلا ، ثم قال : يالهزم اخرج بنا إلى المربد
فألقه فى عنق ماشئت من إبل الناس ، فتخيّر لهزم على عيئه ناقةً ، ورمى بالحبل فى عنقها ،
وجاء صاحبها ، فقال له الفرزدق : اغد على أوفك ثمنها ، فجعل لهزم يقودها ، والفرزدق
يسوقها ، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء ، فصاح به الفرزدق : يالهزم ، قبح الله
أخسرنا ! فخبّر الشاعر عن القبر ؛ بقوله : « فقال لى استقدم أمامك » والقبر والميت الذى فيه
لا يخبران ، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كلّ دليل قولاً وجواباً ،
ألا ترى إلى قول زهير :

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلم ^(٢)

وإنما كلامها عنده أن تبين ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها .

ومن كلام بعض الحكماء : هلا وقعت على تلك الجنان والحيطان ، فقلت : أيتها
الجنان ، أين من شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ! فإن لم تجبك حواراً ،
أجابتك اعتباراً !

وقال ^(٣) النعمان بن المنذر ، ومعه عدى بن زيد ، فى ظلّ شجرات موقوفات يشرب ،

(١) الكوماء : الناقة الضخمة .

(٢) ديوانه ، وبقيته :

بحومانة الدراج فالمتلّم

(٣) قال ، من القيلولة .

فقال عدى : أبيت اللعن ! وأراد أن يعظه : أتدرى ماتقول هذه الشجرات ؟ قال :
ماتقول ؟ قال :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالماءِ الزَّلَالِ^(١)
ثم أضحوا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يودى بالرجالِ
فتنغص النعمان يومه ذلك^(١) .

والمدعين : المنقاد المطيع . والمتلكىء : المتوقف .

والكلم الطيب : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا صلى الله عليه وآله رسوله .
والعمل الصالح : أداء الواجبات والنوافل ؛ واللفظات من القرآن^(٢) العزيز .
والمصعد : موضع الصعود ، ولا شبهة أن السماء أشرف من الأرض على رأى الملتين
وعلى رأى الحكماء ، أمّا أهل الملة ، فلأن السماء مصعد الأعمال الصالحة ، ومحل الأنوار ،
ومكان الملائكة ، وفيها العرش والكرسى ، والكواكب المدبرات أمرا ، وأمّا الحكماء
فلأُمُور أخرى تقتضيها أصولهم .

الأنزل :

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْخَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ ، لَمْ يَمْنَعْ
ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهَامًا سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلَا اسْتَطَاعَتْ جَلَابِيبُ سَوَادِ الْخَنَادِسِ
أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَوَاتِ مِنْ تَلَالُؤِ نُورِ الْقَمَرِ ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ
عَسَقِ دَاجٍ ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطِئَاتِ ؛ وَلَا فِي يَفَاعِ الشُّفَعِ

(١) الشعر والخبر في الأغاني ٢ : ٩٦ (طبعة دار الكتب) .

(٢) من قوله تعالى في سورة فاطر ١٠ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

يَرْفَعُهُ ۚ ﴾ .

المتجاورات ، وما يتَجَلَّجَلُّ به الرَّعْدُ في أَفْقِ السَّمَاءِ ، وما تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ ،
وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تَزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَأَنْهَاطُ السَّمَاءِ ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطَ
الْقَطَرَةِ وَمَقَرَّهَا ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَجَجَرَّهَا ؛ وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا ؛ وَمَا تَحْمِلُ
مِنَ الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا .

الشَّرْحُ :

أعلاما ، أى يستدلّ بها . والفجاج : جمع فَجٍّ ؛ وهو الطريق في الجبل .
ثم قال : إِنَّ ادْهَامَ سَوَادِ اللَّيْلِ — أى شِدَّةَ ظَلَمَتِهِ — لم يمنع الكواكب من الإضاءة ؛
وكذلك أيضا لم يمنع ظلام الليل القمر من تَلَأُّ نوره ؛ وإِنَّمَا خَصَّ الْقَمَرَ بِالذِّكْرِ وَإِنْ
كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْكَوَاكِبِ ، لَشَرَفِهِ بِمَا يَظْهَرُ لِلْأَبْصَارِ مِنْ عَظَمِ حَجْمِهِ ، وَشِدَّةِ إِضَاءَتِهِ ،
فَصَارَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴾ ^(١) ، وَقَدْ رَوَى بَعْضُ الرُّوَاةِ
« ادْهَامًا » بِالنَّصْبِ ؛ وَجَعَلَهُ مَفْعُولًا ، « وَضَوْءُ نَوْرِهَا » بِالرَّفْعِ وَجَعَلَهُ فَاعِلًا ؛ وَهَذِهِ الرُّوَايَةُ أَحْسَنُ
فِي صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ لِمَكَانِ الْإِزْدَوَاجِ ؛ أَيْ لَا الْقَمَرَ وَلَا الْكَوَاكِبَ تَمْنَعُ اللَّيْلُ مِنَ الظُّلْمَةِ ،
وَلَا اللَّيْلُ يَمْنَعُ الْكَوَاكِبَ وَالْقَمَرَ مِنَ الْإِضَاءَةِ .

وَالشُّجْفُ : جَمْعُ سِجْفٍ ، وَهُوَ السَّيَّرُ ، وَيَجُوزُ فَتْحُ السَّيْنِ .
وَشَاعَ : تَفَرَّقَ ، وَالتَّلَأُّ : اللَّمَعَانُ . وَالْجَلَايِبُ : الثِّيَابُ . وَالْغَسَقُ : الظُّلْمَةُ ،
وَالسَّاجِي . السَّاكِنُ . وَالْدَّاجِي : الْمَظْلَمُ ، وَالْمُتَطَايُ : الْمُنْخَفِضُ . وَالشُّفْعُ الْمَتَجَاوِرَاتُ
هَاهُنَا : الْجِبَالُ ؛ وَسَمَّاهَا شُفْعًا لِأَنَّ الشُّفْعَةَ سَوَادٌ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ ؛ وَكَذَلِكَ لَوْنُهَا
فِي الْأَكْثَرِ .

واليفاع : الأرض المرتفعة . والتجلجل : صوت الرعد .

وما تلاشت عنه بروق الغمام ؛ هذه الكلمة أهمل بناءها كثير من أئمة اللغة ؛ وهي صحيحة وقد جاءت ووردت . قال ابن الأعرابي : لَشَا الرَّجُلُ ؛ إذا اتَّضَع ، وخَسَّ بعد رفعة ، وإذا صَحَّ أصلُها ، صحَّ استعمال النَّاسِ ، تلاشى الشيء ، بمعنى اضمحل .

وقال القطب الراوندي : تلاشى مركب من «لاشى» ، ولم يقف على أصل الكلمة ؛ وقد ظهر الآن أن معنى كلامه عليه السلام أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرعد ؛ ويعلم ما يضمحل عنه البرق .

فإن قلت : وهل يقصد الرعد بجلجلته معنى معقولا ليقال : إن الباري يعلمه ؟ ثم ما المراد بكونه عالماً بما يضمحل البرق عنه ؟

قلت : قد يكون تعالى يحدث في الرعد جلجلة ، أي صوتا ليهلك به قوما ، أو لينفع به قوما ، فعلمه بما تتضمنه تلك الجلجلة هو معنى قولنا : يعلم ما يصوت به الرعد ، ولا ريب أن البرق يلمع فيضيء أقطارا مخصوصة ، ثم يتلاشى عنها ، فالباري سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرق عنها .

فإن قلت : هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق ؛ وبما لا يضيئه ؛ فلماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق ؟

قلت : لأن علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب ، لأن ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة ، فأراد عليه السلام أن يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر ؛ ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتم وأكمل .

والعواصف : الرياح الشديدة ، وأضافها إلى الأنواء ؛ لأن أكثر ما يكون عصفانها في الأنواء ؛ وهي جمع نوء ، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب

مع الفجر ، وطلوع رقيقه من المشرق مقابلاً له من ساعتته ؛ ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً ، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

قال أبو عبيد : ولم يسمع في النوء أنه المسقوط إلا في هذا الموضع ، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها .

وقال الأصمعيّ : بل إلى الطالع في سلطانه ، فتقول : مُطَرْنَا بنوء كذا وكذا ، ونهى النبي صلى الله عليه وآله عن ذلك ؛ والجمع أنواء ونُوآن أيضاً ؛ مثل بَطْنٌ وبُطْنَانٌ وعَبْدٌ وعُبدَانٌ ، قال حسان بن ثابت :

وَيَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا قَحَطَ الْقَطَرُ نَوَانِهَا^(١)

والانهطال : الانصباب . ومسقط القطرة من المطر موضع سقوطها ؛ ومقرّها موضع قرارها ، ومسحب الذرة الصغيرة من النمل ومجرّها : موضع سحبها وجرّها . وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره ؛ ويتضمّن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه بما يشهد لنفسه .

الأفضل :

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ ، لَا يُدْرِكُ بَوَهِمٍ ، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ ، وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٌ ، وَلَا يَحْدُثُ بَأَيْنٍ ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ ، وَلَا يُخْلَقُ بِعِلَاجٍ ، وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ ؛ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ .

الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا ؛ بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لِهَوَاتٍ ، بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْ صَفَّ رَبُّكَ ؛ فَصِفْ

جِيرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ، وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجَحِينَ ،
مُتَوَلِّهِ عُقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالِصِّفَاتِ ذَوُ الْهَيْئَاتِ
وَالْأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ . فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ
ظَلَامٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ .

الشَّرْحُ :

ليس يعنى بالكائن هاهنا ما يعنيه الحكماء والمتكلمون ، بل مراده الموجود ، أى
هو الموجود قبل أن يكون الكرسي والعرش وغيرها . والأوائل يزعمون أن فوق
السموات السبع سماء ثامنة ، وسماء تاسعة ، ويقولون : إن الثامنة هي الكرسي ، وإن
التاسعة هي العرش .

قوله عليه السلام : « لا يدرك بوهم » ، الوهم هاهنا ^(١) : الفكرة والتوهم .

ولا يقدر بفهم ، أى لا تستطيع الأفهام أن تقدره وتحدّه .

ولا يشغله سائل كما يشغل السؤال منا من يسألونه .

ولا ينقصه العطاء ، كما ينقص العطاء خزائن الملوك .

ولا يبصر بجارحة ، ولا يحدّ بأين ، ولفظة أين في الأصل مبنيّة على الفتح ؛ فإذا نكّرتها

صارت اسماً متمكناً ، كما قال الشاعر :

لَيْتَ شِعْرِي وَأَيْنَ مَنَى لَيْتُ إِنْ « لَيْتًا » وَإِنْ « لَوْ » عَنْهُ

وإن شئت قلت : إنّه تكلم بالاصطلاح الحكمي والأين عندهم ، حصول الجسم في المكان ،

وهو أحد المقولات العشر .

(١) ساقطة من ب .

قوله عليه السلام : ولا يوصف بالأزواج ؛ أى صفات الأزواج ؛ وهى الأصناف ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾^(١) .

قوله : « ولا يخلق بعلاج » ، أى لا يحتاج فى إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة .
قوله : « وكلم موسى تكليماً »^(٢) من الألفاظ القرآنية ، والمراد هاهنا من ذكر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبس عساه يصلح للسامع ؛ فيعتقد أنه أراد المجاز ؛ وأنه لم يكن كلاماً على الحقيقة .

قوله : « وأراه من آياته عظيماً » ؛ ليس يريد به الآيات الخارجة عن التكليم ؛ كانشقاق البحر ، وقلب العصا ، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله : « تكليماً » ، وقوله : « بلا جوارح ولا أدوات ، ولا نطق ولا لهوات » ، مستهجنًا ، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيماً من آياته ؛ وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاته الست ؛ ليس على حد سماع كلام البشر من جهة مخصوصة ؛ وله دوى وصلصلة كوقع السلاسل العظيمة على الحصا الأصم .

فإن قلت : أتقول إن الكلام حلّ أجساماً مختلفة من الجهات الست ؟
قلت : لا وإنما حلّ الشجرة فقط ؛ وكان يُسمع من كل جهة ، والدليل على حلوله فى الشجرة قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى ﴾^(٣) ؛ فلا يخلو إما أن يكون النداء حلّ الشجرة ؛ أو المنادى حلّها ، والثانى باطل ، فثبت الأول .

ثم قال عليه السلام لمن يتكلف أن يصف ربه : إن كنت صادقاً ؛ أنك قد وصلت إلى

(١) سورة ق ٧

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة النساء ١٦٤ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ .

(٣) سورة القصص ٣٠

معرفة صِفَتَه ؛ فصف لنا الملائكة ؛ فإنَّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه .

وحُجُرات القدس : جمع حُجْرة . ومرحجنين : مائلين إلى جهة «تحت» خضوعاً لجلال الباري سبحانه ؛ ارحجن الحُجر ، إذا مال هاوياً . متولهة عقولهم ، أى حائرة .

ثم قال : إنَّما يدرك بالصفات ؛ ويعرف كنهه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة ، وما ينقضى ويفنى ويتطرق إليه العدم ؛ وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك .

وتحت قوله : « أضاء بنوره كلَّ ظلام... » إلى آخر الفصل ، معنى دقيق وسرٌّ خفيٌّ ؛ وهو أنَّ كلَّ رذيلة في الخلق البشريِّ مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثرة ولا قاذحة في جلالة المقام الذى قد بلغ إليه ؛ وذلك نحو أن يكون العارف بخيلاً أو جباناً ، أو حريصاً أو نحو ذلك ؛ وكلَّ فضيلة في الخلق البشريِّ مع الجهل به سبحانه ؛ فليست بفضيلة في الحقيقة ولا معتدِّ بها لأنَّ نقيصة الجهل به تكسِف تلك الانوار ، وتمحِّق فضلها ؛ وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جواداً ، أو شجاعاً ، أو عفيفاً ، أو نحو ذلك ؛ وهذا يطابق ما يقوله الأوائل ؛ من أنَّ العارف المذنب يشقى بعد الموت قليلاً ؛ ثم يعود إلى النعيم السرمدى ، وأنَّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبداً ؛ ومذهب الخُلص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات ، ويقال : إنَّه مذهب أبى حنيفة رحمه الله ؛ ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنَّ يقال : كلَّ ظلام من المعاصى الصغار ؛ فإنَّه ينبجلى بضياء معرفته وطاعته ؛ وكلَّ طاعة يفعلها المكلف مع الكفر به سبحانه ، فإنَّها غير نافعة ولا موجبة ثواباً ، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومهِ إلى خصوصهِ .

الأفضل :

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمْ الرِّيشَ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ الْمَعَاشَ ؛
فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَمًا ، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا ؛ لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانُ بْنُ
دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ الَّذِي سَخَّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ؛ مَعَ النَّبُوءَةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ ؛
فَلَمَّا اسْتَوَى طُعْمَتُهُ ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رَمَتْهُ قَيْسُ الْفَنَاءِ بِذِبَالِ الْمَوْتِ ؛ وَأَصْبَحَتْ
الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً ، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً ؛ وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً ! أَيْنَ الْعِمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعِمَالِقَةِ ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ
وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ ! أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرُّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ
الْمُرْسَلِينَ ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ ! أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ ، وَهَزَمُوا بِالْأُلُوفِ ،
وَعَسَكَرُوا الْعَسَاكِرَ ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ !

الشرح :

الرِّيشَ : اللباس . وأسبغ : أوسع ؛ وإنما ضرب المثل بسليمان عليه السلام ، لأنه كان
مَلِكِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، ولم يحصل لغيره ذلك ، ومن النَّاسِ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ : إِنَّهُ لَمْ يَتَعَدَّ مَلِكُهُ حُدُودَ الشَّامِ ، بَلْ بَعْضُ الشَّامِ ، وَيَنْكُرُونَ حَدِيثَ
الْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالرَّيحِ ، وَيَحْمِلُونَ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِهِ وَتَأْوِيلَاتٍ عَقْلِيَّةٍ مَعْنَوِيَّةٍ ؛ لَيْسَ
هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهَا .

وَالزُّلْفَةُ : القرب . والطَّعْمَةُ ، بضم الطاء : المأكلة ؛ يُقَالُ : قَدْ جَعَلْتَ هَذِهِ الضَّيْعَةَ
طُعْمَةً لَزِيدَ .

وَالْقَيْسَى : جَمْعُ قَوْسٍ ، وَأَصْلُهَا «قَوْسٌ» عَلَى «فَعُولٍ» ، كضرب وضروب ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدَّمُوا

اللام ، فقالوا « قُسُو » على « فلوع » ، ثم قلبت الواو ياء ؛ وكسروا القاف كما كسروا عين
« عصى » فصارت « قِسي » .

[نسب العمالقة]

والعمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح ؛ كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك
من الأقاليم ؛ فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام ؛ ومنهم طسم بن لاوذ أخوه .

ومنهم جديس بن لاوذ أخوها ؛ وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم ؛ فلما
ملكهم عملاق بن طسم ، بغى وأكثّر الفساد في الأرض ؛ حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها
إلى بعلها ؛ وإن كانت بكرًا افتضّها قبل وصولها إلى البعل ؛ ففعل ذلك بامرأة من
جديس ؛ يقال لها غفيرة بنت غفار ؛ فخرجت إلى قومها ؛ وهي تقول :

لا أحدٌ أذلّ من جديسٍ أهكذا يفعل بالعروس !

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار ؛ وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل
بيته ؛ فصنع الأسود طعاما ؛ ودعا عملاق الملك إليه ، ثم وثب به وبطسم ؛ فأتى على
رؤسائهم ، ونجا منهم رياح بن مرّ ؛ فصار إلى ذى جيشان بن تبع الحميري ملك اليمن ؛
فاستغاث به ، واستنجد به على جديس ؛ فسار ذو جيشان في حمير ؛ فأتى بلاد جَوّ ؛ وهي
قصة اليمامة ، فاستأصل جديسا كلّها ، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديس باقية ؛ ولا لطسم
إلا اليسير منهم .

ثم ملك بعد طسم وجديس وبار بن أميم بن لاوذ بن إرم ؛ فسار بولده وأهله ؛ فنزل
بأرض وبار ، وهي المعروفة الآن برمل عالج ، فبغوا في الأرض حيناً حتى أفنّاهم الله .

ثم مَلَكَ الأرضَ بعد وبار عبد صَحْم بن أَثِيف بن لاوذ ؛ فنزلوا بالطائف حيناً ،
ثم بادوا .

[نسب عاد و ثمود]

وَمَنْ يَعدُّ مع العالقة عاد و ثمود ؛ فأما عاد فهو عاد بن عويس بن إرم بن سام بن نوح ؛
كان يعبد القمر ، ويقال : إنه رأى من صُلْبِهِ أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف ؛ وإنَّه
نكح ألف جارية ؛ وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن ؛ وهي من شَحْرِ عُمان إلى
حَضْرَموت ؛ ومن أولاده شَدَّاد بن عاد ؛ صاحب المدينة المذكورة .

وأما ثمود ؛ فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح ؛ وكانت دياره بين الشام
والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة .

[نسب الفراعنة]

قوله عليه السلام : « أين الفراعنة ، وأبناء الفراعنة » ؛ جمع فِرْعَوْن ؛ وهم ملوك
مصر ، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مُصْعَب ، فرعون موسى .
ومنهم فرعون بن الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس .

[نسب أصحاب الرّسّ]

قوله عليه السلام : « أين أصحاب مدائن الرّسّ؟ » ، قيل : إنهم أصحابُ شعيب النّبي

صلى الله عليه وآله ، وكانوا عِبْدَةَ أَصْنَامٍ ؛ وَلَهُمْ مَوَاشٍ وَأَبَارٌ يَسْقُونَ مِنْهَا .
والرس : بئر عظيمة جداً انخسفت بهم ؛ وهم حولها ، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلها
وديارهم . وقيل : الرس قرية بفلج اليمامة ، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا ، فأهلكوا .
وقيل قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز ، وكانت العنقاء تَحْتَطِفُ صَبِيانَهُمْ
فَتَقْتُلُهُمْ ؛ فدعوا الله أن ينقذهم منها ؛ فبعث إليهم حنظلة بن صفوان ، فدعاهم إلى الدين على
أن يقتل العنقاء ، فشارطوه على ذلك فدعا عليها ، فأصابها الصاعقة ، فلم يُفْوَ له
وقتلوه ؛ فأهلكوا .

وقيل : هم أصحاب الأخدود ، والرس ، هو الأخدود . وقيل الرس أرض بأنطاكية
قتل فيها حبيب النجار .

وقيل : بل كذب أهلها نبيهم ورشوه في بئر ، أى رموه فيها .
وقيل : إن الرس نهر في إقليم الباب ، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز ، وينتهى إلى
نهر الكرك ، فيختلط به حتى يصب في بحر الخزر ، كان هناك ملوك أولو بأس وقدره ،
فأهلكهم الله ببيغهم .

الأفضل :

منها :

قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا ، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا ، مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا ،
وَالْتَفَرُّغِ لَهَا ؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَهُوَ مُعْتَرِبٌ
إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنْبِهِ ، وَالصَّقَّ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ ؛ بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا
حُجَّتِهِ ؛ خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ .

الْبَرْخ :

هذا الكلام فسره كل طائفة على حسب اعتقادها ، قال الشيعة الإمامية ؛ تزعم أن المراد به المهدي المنتظر عندهم ، والصوفية يزعمون أنه يعني به ولي الله في الأرض ؛ وعندهم أن الدنيا لا تخلو عن الأبدال ؛ وهم أربعون ، وعن الأوتاد ، وهم سبعة ، وعن القطب وهو واحد ؛ فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه ، وصار أحد الأربعين وتدياً ، عوض الوتد ، وصار بعض الأولياء الذين يصطفاهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدل .

وأعجبنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدل والتوحيد ، وأن الإجماع إنما يكون حجة باعتبار أقوال أولئك العلماء لكنه لما تعذرت معرفتهم بأعيانهم ، اعتبر إجماع سائر العلماء ، وإنما الأصل قول أولئك .

قالوا : وكلام أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة ؛ ولكنه يصف حال كل واحد منهم ؛ فيقول : من صفته كذا ، ومن صفته كذا .

والفلاسفة يزعمون أن مراده عليه السلام بهذا الكلام العارف ، ولهم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرفه من له أنس بأقوالهم . وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله في آخر الوقت ، إذا خلقه الله تعالى ؛ وإن لم يكن الآن موجوداً ، فليس في الكلام ما يدل على وجوده الآن ؛ وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أن الدنيا والتكليف لا ينقضى إلا عليه .

قوله عليه السلام : « قد لبس للحكمة جنتها » ؛ الجنة : ما يستتر به من السلاح كالدرع ونحوها ، ولبس جنة الحكمة قمع النفس عن المشتبهات ، وقطع علائق النفس عن

المحسوسات ؛ فإنّ ذلك مانع للنفس عن أن يصيبها سهام الهوى ؛ كما تمنع الدرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرّماية .

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص ، فقال : « وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها ؛ أى شدة الحرص والهمة .

ثم قال : « والمعرفة بها » ، أى والمعرفة بشرفها ونفاستها .

ثم قال : « والتفرغ لها » ؛ لأنّ الذهن متى وجهته نحو معلومين تحبّط وفسد ؛ وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ مامرّ سواها .

قال : « فهى عند نفسه ضالّته التى يطلبها » ؛ هذا مثل قوله عليه السلام : « الحكمة ضالة المؤمن » ؛ ومن كلام الحكماء : لا يمنعك من الانتفاع بالحكمة حقارة من وجدتّها عنده ؛ كما لا يمنعك خبث تراب المعدن من التقاط الذهب .

ووجدت بخط أبى محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله فى تعليقات مسوودة أبياتا بلعطوى ؛ وهى :

قد رأينا الغزال والغصن والنّجمين شمس الضحى وبذر التّمام
فوحقّ البيان يعضّده البرّ هان فى ماقطٍ شديد الخصاص^(١)
ما رأينا سوى المليحة شيئاً جمع الحسن كلّهُ فى نظام
هى تجرى مجرى الأصالة فى الرأى وتجرى الأرواح فى الأجسام

وقد كتب ابن الخشاب بخطّه تحت « المليحة » : ماأصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة !
قوله عليه السلام : « وحاجته التى يسأل عنها » ؛ هو مثل قوله : « ضالّته التى يطلبها » .

ثم قال : « هو مغترّب إذا اغترّب الإسلام » ؛ يقول هذا الشخص يُخفى نفسه ويحملها

(١) المأقط : ساحة القتال .

إذا اغترب الإسلام ، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجور على الصّلاح والعدل ؛ قال عليه السلام : « بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدا » .

قال : « وضرب بعسيب ذنبه ، وألصق الأرض بجرائه » ؛ هذا من تمام قوله : « إذا اغترب الإسلام » ، أى إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً ؛ وصار الإسلام كالبعير البارِك يضرب الأرض بعسيبه ؛ وهو أصلُ الذنب ، ويلصق جرائه وهو صدره فى الأرض ؛ فلا يكون له تصرف ولا نهوض .

ثم عاد إلى صفة الشخص المذكور .

وقال : « بقيّة من بقايا حججه ، خليفة من خلائف أنبيائه » ، الضمير هاهنا يرجع إلى الله سبحانه وإن لم يجر ذكره للعلم به ؛ كما قال : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ ^(١) ، ويمكن أن يقال : إن الضمير راجع إلى المذكور وهو الإسلام ؛ أى من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام .

فإن قلت : ليس للإسلام إلا نبيّ واحد .

قلت : بل له أنبياء كثير ؛ قال تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ^(٢) وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ ^(٣) ، وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى مادعا إليه محمد صلى الله عليه وآله من التوحيد والعدل ؛ فكلّهم أنبياء للإسلام .

فإن قلت : أليس لفظ « الحجّة » ولفظ « الخليفة » مشعراً بما تقوله الإمامية ؟

قلت : لا ، فإن أهل التصوّف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة ؛ وكذلك الفلاسفة ،

(٢) سورة الحج ٧٨

(١) سورة ص ٣٢

(٣) سورة النحل ١٢٣

وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر ؛ لأنهم حجج الله ، أى إجماعهم حجة ؛ وقد استخلفهم الله فى أرضه ليحكموا بحكمه .
وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر .

الأصل :

ثم قال عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنِّى قَدْ بَشَّتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِى وَعَظَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ ،
وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِى فَلَمْ
تَسْتَقِيمُوا ، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا .

لِلَّهِ أَنْتُمْ ! اتَّقَوْعُونَ إِمَامًا غَيْرِى يَطَّأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ !
أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ
عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى ؛ بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى !
مَاضٍ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفَكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ ،
يُسَيِّفُونَ الْفُصَصَ ، وَيَشْرَبُونَ الرَّثْقَ ! قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوْقَهُمْ أَجُورَهُمْ ، وَأَحْلَهُمْ
دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ !

أَيُّنَ إِخْوَانِى الَّذِينَ رَكَبُوا الطَّرِيقَ ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ! أَيُّنَ عَمَّارٍ ! وَأَيُّنَ ابْنِ
التَّيَّهَانِ ! وَأَيُّنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ! وَأَيُّنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ
وَأُبْرَدَ بَرُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ !

قال : ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ،

ثم قال عليه السلام :

أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِى الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ !

أَحْيُوا السُّنَّةَ ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ ؛ دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .

ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهَادُ الْجِهَادُ عِبَادَ اللَّهِ ! أَلَا وَإِنِّي مُعَسِّكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا ؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاخَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ .

قال نَوْفٌ : وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلَقِيسَ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلَأْبَى أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَلَغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخَرَ ؛ وَهُوَ يَرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفِّينَ فَمَا دَارَتِ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ الْمُلْجَمِ لَعْنَهُ اللَّهُ ، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدَتِ رَاعِيَهَا ، تَخْتَطِفُهَا الذُّنَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ !

الشَّرْحُ :

بُشِّرْتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ : فَرَّقْتُهَا وَنَشَرْتُهَا . وَالْأَوْصِيَاءُ : الَّذِينَ يَأْتُمْنُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى الْأَسْرَارِ الْإِلَهِيَّةِ ؛ وَقَدْ يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونُوا خُلَفَاءَ بِمَعْنَى الْإِمْرَةِ وَالْوَلَايَةِ ، فَإِنَّ مَرَاتِبَهُمْ أَعْلَى مِنْ مَرَاتِبِ الْخُلَفَاءِ .

وَحُدُوتُكُمْ : سَقَتُكُمْ كَمَا تَحْدَى الْإِبِلُ . فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا ، أَيْ لَمْ تَجْتَمِعُوا ، قَالَ :

* مُسْتَوْسَقَاتٍ لَمْ يَحْدُنْ سَائِقًا ^(١) *

قوله : « يَطُّ بِكُمْ الطَّرِيقَ » ، أَيْ يَحْمِلُكُمْ عَلَى الْمَنْهَاجِ الشَّرْعِيِّ ، وَيَسْلُكُ بِكُمْ مَسَلَكَ الْحَقِّ ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ ضَالِّينَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا .

(١) اللسان (وسق) ، وقبله :

* إِنَّ لَنَا لِبَلًا نَقَاتًا *

وقال : أتريدون إماماً غيرى يوقفكم على الطريق التى تطلبونها حتى تطئوها
وتسلكوها !

ثم ذكر أنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ؛ وهو الهدى والرشاد ، فإنه كان فى أيام
رسول الله صلى الله عليه وآله وخلفائه مقبلاً ؛ ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه ؛ وأقبل
منها ما كان مدبراً ؛ وهو الضلال والفساد ؛ ومعاوية عند أصحابنا مطعون فى دينه ،
منسوب إلى الإلحاد ؛ قد طعن فيه صلى الله عليه وآله ؛ وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصرى
فى كتاب ” نقض السفينية “ ، على الجاحظ ؛ وروى عنه أخبارا كثيرة تدل على ذلك ؛
وقد ذكرناها فى كتابنا فى ” مناقضة السفينية “ .

وروى أحمد بن أبى طاهر فى كتاب ” أخبار الملوك “ ، أن معاوية سمع المؤذن يقول
« أشهد أن لا إله إلا الله » ، فقالها ثلاثا ، فقال : أشهد أن محمدا رسول الله ! فقال : لله أبوك
يا بن عبد الله ! لقد كنت على الهمة ؛ مارضيت لنفسك إلا أن يقرن اسمك باسم
رب العالمين !

قوله عليه السلام : « وأزمع الترحال » أى ثبت عزهم عليه ؛ يقال : أزمت الأمر ؛
ولا يقال : أزمت على الأمر ، هكذا يقول الكسائى ؛ وأجازه الخليل والفرّاء .
ثم قال عليه السلام : إنه لم يضرّ إخواننا القتلى بصفين كونهم اليوم ليسوا بأحياء
حياتنا المشوبة بالنقص والغصص .

ويقال : ماء رنق ، بالتسكين ، أى كدر ، رنق الماء بالكسر ؛ يرتق رنقا فهو رنق ،
وأرنقته ؛ أى كدّرتة ، وعيش رنق بالكسر ، أى كدر .
ثم أقسم إنهم لقوا الله فوقهم أجورهم ؛ وهذا يدل على ما يذهب إليه جمهور أصحابنا
من نعيم القبر وعذابه .

ثم قال عليه السلام : « أين إخوانى » ؟ ثم عدّهم ، فقال : « أين عمار » .

[عمار بن ياسر ونسبه ونبذ من أخباره]

وهو عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي (بالتون) المذحجي ؛ يكنى أبا اليقظان ، حليف بني مخزوم .

ونحن نذكر طرفاً من أمره من كتاب " الاستيعاب " (١) ، " لأبي عمر بن عبد البر المحدث . قال أبو عمر : كان ياسر والد عمار عربياً قحطانياً ، من عذس في مذحج ؛ إلا أن ابنه عماراً كان مولى لبني مخزوم ؛ لأن أباه ياسراً قدّم مكة مع أخوين له ؛ يقال لهما : مالك والحارث ؛ في طلب أخ لهم رابع ؛ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن ، وأقام ياسر بمكة ؛ فخالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سمية ، فأولدها عماراً ، فأعتقه أبو حذيفة ؛ فمن هاهنا كان عمار مولى لبني مخزوم . وأبوه عربي ؛ لا يختلفون في ذلك ؛ ولحلف والولاء الذي بين بني مخزوم وعمار وأبيه ياسر ، كان احتمال بني مخزوم على عثمان ؛ حين نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب ؛ حتى انفتق له فتق في بطنه ، زعموا ، وكسروا ضلعاً من أضلاعه ؛ فاجتمعت بنو مخزوم ، فقالوا : والله لن مات لاقتلنا به أحداً غير عثمان !

قال أبو عمر : كان عمار بن ياسر ممن عذّب في الله . ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه ، واطمأن الإيمان بقلبه ؛ فنزل فيه : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ (٢) ، وهذا مما أجمع عليه أهل التفسير (٣) .

(١) الاستيعاب ١ : ٤٢٢ - ٤٢٤

(٢) سورة النحل ١٠٦

(٣) في كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ : ١٨٠ « هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر ؛ في قول أهل التفسير ؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه » ، ثم قال : « وأما عمار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإن عادوا فعد » .

وهاجر إلى أرض الحبشة ، وصلى إلى القبلتين ؛ وهو من المهاجرين الأولين ، ثم شهد بدرًا والمشاهد كلها ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم شهد اليمامة ، فأبلى فيها أيضا يومئذ ، وقطعت أذنه .

قال أبو عمر : وقد روى الواقدي ، عن عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر ؛ قال : رأيت عماراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح : يا معشر المسلمين ، أمِنَ الجنة تفرّون ؟ أنا عمار بن ياسر ، هلمّوا إلى ! وأنا أنظر إلى أذنه قد قطعت ، فهي تذبذب ^(١) ؛ وهو يقاتل أشد القتال .

قال أبو عمر : وكان عمار آدم طوالاً مضطرباً أشهل ^(٢) العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، لا يغير شبيهه .

قال : وبلغنا أنّ عماراً قال : كنتُ ترّباً لرسول الله صلى الله عليه وآله في سنّه ، لم يكن أحدٌ أقرب إليه مني سنّاً .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ : إنه عمار بن ياسر ، ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ^(٣) : إنه أبو جهل بن هشام .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ عماراً ملئ إيماناً إلى مُشاشه » ^(٤) . ويروى إلى أخص ^(٥) قدميه .

وروى أبو عمر عن عائشة ، أنّها قالت : ما من أحدٍ من أصحاب رسول الله صلى الله

(١) تذبذب : تتحرك .

(٢) الأشهل ، محرّكة : أن يشوب سواد العين زرقة .

(٣) سورة الأنعام ١٢٢ ، وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس أيضاً أنّها نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل . قال : « والصحيح أنّها عامة في كل مؤمن وكافر » .

(٤) المشاشة : رأس العظم .

(٥) الأخص : من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

عليه وسَلَّمَ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ إِلَّا قُلْتُ ، إِلَّا عَمَارَ بْنَ يَاسِرٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّهُ مَلِيءٌ إِيمَانًا إِلَى أَخْصَ قَدَمِيهِ » .

قال أبو عمر : وقال عبد الرحمن بن أبيزى : شَهِدْنَا مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِفِّينَ ثَمَانِيَةَ مِائَةٍ بَايَعِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ، قَتَلَ مِنْهَا ثَلَاثَةً وَسِتُونَ ؛ مِنْهُمْ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ .

قال أبو عمر : ومن حديث خالد بن الوليد ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : « مَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ » ؛ فَمَا زِلْتُ أَحِبُّهُ مِنْ يَوْمِئِذٍ .

قال أبو عمر : ومن حديث عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام : إِنَّ عَمَّارًا جَاءَ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمًا ، فَعَرَفَ صَوْتَهُ ، فَقَالَ : « مَرْحَبًا بِالطَّيِّبِ الْمَطِيبِ - يَعْنِي عَمَّارًا - ائْذِنُوا لَهُ » .

قال أبو عمر : ومن حديث أنسٍ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « اشْتَاقَتِ الْجَنَّةُ إِلَى أَرْبَعَةٍ : عَلِيٍّ ، وَعَمَّارٍ ، وَسُلَيْمَانَ ، وَبِلَالٍ » .

قال أبو عمر : وفضائل عَمَّارٍ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَطُولُ ذِكْرُهَا .

قال : وروى الأعمش ، عن أبي عبد الرحمن السَّامِيِّ ، قَالَ : شَهِدْنَا مَعَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِفِّينَ ، فَرَأَيْتُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ لَا يَأْخُذُ فِي نَاحِيَةِ وَلَا وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ صِفِّينَ ، إِلَّا رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَتَّبِعُونَهُ ، كَأَنَّهُ عِلْمَ لَهُمْ ، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَئِذٍ لَهَاشِمِ بْنِ عَتَبَةَ : يَا هَاشِمُ ، تَقَدَّمَ الْجَنَّةُ تَحْتَ الْبَارِقَةِ .

الْيَوْمَ أَلْقَى الْأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ

وَاللَّهُ لَوْ هَزَمُونَا حَتَّى يَبَاغُوا بِنَا سَعَفَاتِ هَجَرَ لَعَلَّمَنَا أَنَّ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، ثُمَّ قَالَ :

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ فَالْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

ضرباً يزِيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ
* أو يرجعُ الحقُّ على سَبِيلِهِ *

فلم أر أصحاب محمد صلى الله عليه وآله قتلوا في موطن ، ما قتلوا يومئذ .
قال : وقد قال أبو مسعود البدرى وطائفةٌ حُذِيفَةُ حين احتُضِرَ ؛ وقد ذكر الفتنة :
إذا اختلفَ النَّاسُ فَبِمَنْ تأمرونا ؟ قال : عليكم بـابنِ سَمِيَّةَ ؛ فإنه لن يفارق الحقَّ حتى
يموت - أو قال : فإنه يزول مع الحقِّ حيث زال .

قال أبو عمر : وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذِيفَةَ مرفوعاً .
قال أبو عمر : وروى الشَّعْبِيُّ ، عن الأحنف ، أن عَمَّاراً حملَ يومَ صِفِّينَ ؛ فحمل عليه
ابنُ جَزْءِ السَّكْسَكِيِّ ، وأبو الغادية الفزَارِيُّ ؛ فأما أبو الغادية ، فطعنه ، وأما ابنُ جزءٍ
فاحتزَّ رأسه .

قلت : هذا الموضع مما اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله ؛ فإنه ذكر في كتاب الكنى
من ” الاستيعاب ^(١) ” ، أبا الغادية بالغين المعجمة ، وقال : إنه جُهَنَى من جُهينة ، وجُهينة
من قُضاعة ؛ وقد نسبها هاهنا فزارياً .

وقال في كتاب الكنى : إن اسم أبي الغادية يسار ؛ وقيل مسلم .
وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب ” المعارف ” ، عن أبي الغادية أنه كان يحدث عن
نفسه بقتل عمار ، ويقول : إن رجلاً طعنه فأنكشف المغفر عن رأسه ، فضرَّ برأسه ،
فإذا رأس عمار قد نَدَرَ ^(٢) .

وكيفية هذا القتل تخالف الكيفية التي رواها ابن عبد البر .
قال أبو عمر : وقد روى وَكَيْعٌ ، عن شعبة ، عن عبد بن مرّة ، عن عبد الله بن سلمة ،

(١) الاستيعاب ٦٨٠

(٢) المعارف ١١٢

قال : لكأني أنظر إلى عمار يوم صيفين وهو صريع ، فاستسقى ، فأُتِيَ بشربة من لبن ، فشرِب ، فقال :

* اليوم ألقى الأَجَبَه *

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلى أن آخرَ شربةً أشرَبُها في الدنيا شربة من لبن ، ثم استسقى ثانياً فأنته امرأة طويلة اليدين بإناء ، فيه ضيَّاح^(١) من لبن ، فقال حين شربه : الحمد لله ، الجنة تحت الأسِنَّة ؛ والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَمَاتِ هَجَرَ لعلمنا أننا على الحق ، وأنهم على الباطل ؛ ثم قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد رَوَى حارثة بن المضرب : قرأت كتابَ عمر إلى أهل الكوفة : أمّا بعد ؛ فإنِّي بعثت إليكم عَمَّاراً أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً ؛ وهما من النُّجَباء ؛ من أصحاب محمد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ؛ فإنِّي قد آثرتكم بعبد الله على نفسي أثرَةً .

قال أبو عمر : وإِنَّمَا قال عمر : هُمَا من النُّجَباء ، لقول رسول الله صلى الله عليه وآله : «إنَّه لم يكن نبيٌّ إلا أُعْطِيَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء ؛ وإنِّي قد أعطيتُ أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وعليّاً ، وحسناً ، وحسيناً ، وأبا بكر ، وعمر ، وعبد الله بن مسعود ، وسلمان ، وعَمَّاراً ، وأبا ذرٍّ ، وحذيفة ، والمقداد ، وبلالاً » .

قال أبو عمر : وتواترت الأخبار عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « تَقْتُلُ عَمَّاراً الفئَة الباغية » ؛ وهذا من إخباره بالغيب ، وأعلام نبوته صلى الله عليه وآله ؛ وهو من أصَحِّ الأحاديث .

وكانت صِيفين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين ، ودفنَه علىَّ عليه السلام في ثيابه ولم يغسِّله .

(١) الضيَّاح ، بالفتح : اللبن الرقيق الكثير الماء .

وروى أهل الكوفة أنه صلى عليه ؛ وهو مذهبهم في الشهداء ؛ أنهم لا يغسلون ولكن يصلى عليهم .

قال أبو عمر : وكان سنّ عمار يوم قُتِلَ نيفاً وتسعين ، سنة ؛ وقيل : إحدى وتسعين ، وقيل : اثنتين وتسعين ، وقيل : ثلاثاً وتسعين .

[ذكر أبي الهيثم بن التيهان وطرف من أخباره]

ثم قال عليه السلام : « وأين ابن التيهان » ؛ هو أبو الهيثم بن التيهان ؛ بالياء المنقوطة ؛ باثنتين تحتها ؛ المشددة المكسورة ؛ وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها ؛ واسمه مالك ، واسم أبيه مالك أيضاً ، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري ؛ أحد النقباء ليلة العقبة . وقيل : إنه لم يكن من أنفسهم ، وإنه من بلي بن أبي الحارث بن قضاة ، وإنه حليف لبني عبد الأشهل ؛ كان أحد النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدرا .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " : اختلف في وقت وفاته ، فذكر خليفة ، عن الأصمعي ، قال : سألت قومه ، فقالوا : مات في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١) .

قال أبو عمر : وهذا لم يتابع عليه قائله .

وقيل : إنه توفي سنة عشرين ، أو إحدى وعشرين .

وقيل : إنه أدرك صفين ، وشهدا مع علي عليه السلام ؛ وهو الأكثر .

وقيل : إنه قتل بها .

ثم قال أبو عمر : حدثنا خلف بن قاسم ، قال : حدثنا الحسن بن رشيق ، قال :

حدَّثنا الدُّولابيُّ ، قال : حدَّثنا أبو بكر الوجيهيُّ ، عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه ، قال : ومَنْ قُتِلَ بصفين عمار ، وأبو الهيثم بن التَّيَّهَان ، وعبد الله بن بُدَيْل ؛ وجماعة من البدرين رحمهم الله .

ثم روى أبو عمر روايةً أخرى ، فقال : حدَّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن ، قال : حدَّثنا عثمان بن أحمد بن السمَّك ، قال : حدَّثنا حنبل بن إسحاق بن علي ، قال : قال أبو نعيم : أبو الهيثم بن التَّيَّهَان ، اسمه مالك ، واسم التَّيَّهَان عمرو بن الحارث ، أصيب أبو الهيثم مع عليٍّ يوم صفين .

قال أبو عمر : هذا قول أبي نعيم وغيره .

قلت : وهذه الرواية أصحُّ من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف ^(١) ؛ وذكر قوم أن أبا الهيثم شهد صفين مع علي عليه السلام ؛ ولا يعرف ذلك أهلُ العلم ولا يثبتونه فإنَّ تعصُّب ابن قتيبة معلوم ؛ وكيف يقول : لا يعرفه أهل العلم ، وقد قاله أبو نعيم ، وقاله صالح ابن الوجيه ، ورواه ابنُ عبد البر وهؤلاء شيوخ المحدثين !

[ترجمة ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت]

ثم قال عليه السلام : « وأين ذو الشَّهادتين » ؛ هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطميّ الأنصاري من بني خَطْمة ^(٢) من الأوس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) المعارف ١١٧ ، قال : « وليس يعرف ذلك أهل العلم ولا يثبتونه » .

(٢) بنو خطمة ؛ هم بنو عبد الله بن مالك بن أوس .

شهادته كشهادة رجلين ؛ لقصة مشهورة^(١) ؛ يكنى أبا عمار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ؛ وكانت راية بني خَطْمَة بيده يوم الفتح .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب^(٢) : وشهد صفين مع علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما قتل عمار قاتل حتى قُتِل .

قال أبو عمر : وقد روى حديثُ مقتله بصفين من وجوه كثيرة ، ذكرناها في كتاب " الاستيعاب " ، عن ولد ولده ، وهو محمد بن عمار بن خزيمة ذى الشهادة ؛ وأنه كان يقول في صفين : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « تقتل عماراً الفئة الباغية » ؛ ثم قاتل حتى قُتِل .

قلت : ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبية القبيحة ، أن أبا حيان التوحيديّ قال في كتاب " البصائر " : إن خزيمة بن ثابت المقتول مع علي عليه السلام بصفين ؛ ليس هو خزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، بل آخر من الأنصار صحابي اسمه خزيمة بن ثابت ؛ وهذا خطأ ، لأنّ كتب الحديث والنسب تنطق بأنه لم يكن في الصحابة من الأنصار ، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين ؛ وإنما الهوى لادواءه ؛ على أن الطبري صاحب التاريخ قد سبق أبا حيان بهذا القول ؛ ومن كتبه نقل أبو حيان ؛ والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكرناه ، ثم أي حاجة لناصرى أمير المؤمنين أن يتكثروا بخزيمة ، وأبي الهيثم ، وعمار وغيرهم ! لو أنصف الناس هذا الرجل

(١) ذكر ابن الأثير في أسد الغابة ، قال : « روى عنه ابنه عمار أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي ، فجحده سواء ، فشهد خزيمة بن ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله : « ما حملك على الشهادة ، ولم تكن حاضراً معنا ؟ قال : صدقتك بما جئت به ، وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه » .

(٢) الاستيعاب ١٥٧ ، ١٥٨

ورأوه بالعين الصحيحة ، لعلوا أنه لو كان وحده ، وحاربه الناس كلهم أجمعون ، لكان على الحق ، وكانوا على الباطل .

ثم قال عليه السلام : « وأين نظراؤهم من إخوانهم » ! يعنى الذين قتلوا بصيغين معه من الصحابة ، كابن مُدَيْل ، وهاشم بن عتبة ، وغيرها ممن ذكرناه فى أخبار صيغين .
وتعاقدوا على المنية : جعلوا بينهم عقدا ، وروى « تعاقدوا » .

وأبرد برءوسهم إلى الفجرة : حملت رءوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها ، والفجرة هاهنا : أمراء عسكر الشام ، تقول : قد أبردت إلى الأمير ، فأنا مبرد ، والرسول يريد : ويقال للفرائق^(١) البريد ، لأنه ينذر قدام الأسد .

قوله : « أوّه على إخوانى » ، سا كنة الواو مكسورة الهاء ، كلمة شكوى وتوجع ، وقال الشاعر :

فأوّه لذكرها إذا ما ذكرتها ومن بعد أرضٍ دونها وسماء^(٢)

وربما قلبوا الواو ألفا ، فقالوا : آه من كذا ، آه على كذا ؛ وربما شددوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء ، فقالوا : أوّه من كذا ، وربما حذفوا الهاء مع التشديد ، وكسروا الواو ، فقالوا : أوّمن كذا بلامد ، وقد يقولون : أوّه ، بالمد والتشديد وفتح الألف وسكون الهاء ؛ لتطويل الصوت بالشكاية ، وربما أدخلوا فيه الياء تارة يمدونه ، وتارة لا يمدونه ، فيقولون : « أوياء » و « آوياء » وقد أوّه الرجل تأويها ، وتأوه تأوؤها ، إذا قال « أوّه » ، والاسم منه « الآهة » بالمد ، فال المثقب العبدى :

إذا ماقت أرحلها بليلى تأوه آهة الرجل الحزين^(٣)

(١) ذكره صاحب اللسان ؛ واستشهد بقول امرئ القيس :

وإني أذنب إن رجعت مملكا بسير ترى منه الفرائق أزورا

(٢) اللسان ١٧ : ٣٦٥

(٣) اللسان ١٧ : ٣٦٥

قوله عليه السلام : « وَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبِعُوهُ » ، يعنى نفسه ، أى وثقوا بأتى على الحق ،
وتيقنوا ذلك ، فاتبعونى فى حرب مَنْ حاربت ، وسِلْم مَنْ سَلِمْت .
قوله : « الْجِهَادَ الْجِهَادَ » ، منصوب بفعل مقدر .
وإِنِّى معسكر فى يومى ، أى خارج بالعسكر إلى منزل يكون لهم معسكرا .

[ذكر سعد بن عبادة ونسبه]

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُلَيْم^(١) الخزرجى ، صحابى ، يكنى أبا عبد الملك ؛ روى عن
رسول الله صلى الله عليه وآله أحاديث ، وكان طوالاً جداً سباطاً شجاعاً ، جواداً ، وأبوه
سعد رئيس الخزرج ؛ وهو الذى حاولت الأنصار إقامة فى الخلافة بعد رسول الله صلى الله
عليه وآله ، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع ، وخرج إلى حوران ، فمات بها ، قيل قتلته
الجنّ لأنه بال قائماً فى الصحراء ليلاً ، ورووا بيتين من شعر ؛ قيل إنهما سمعا ليلة قتله ،
ولم يُرَ قائلهما :

نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْجِ سَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ تُخْطِ فَوَادَهُ

ويقول قوم : إن أمير الشام يومئذ كمن له مَنْ رماه ليلاً ، وهو خارج إلى الصحراء
بسهمين ، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام ، وقد قال بعض المتأخرين فى ذلك :

يقولون سعد شكّت الجنُّ قلبه أَلَا رَبِّمَا صَحَّحْتَ دِينَكَ بِالْعَدْرِ
وما ذنبُ سَعْدٍ أَنَّهُ بَالٍ قَائِماً وَلَكِنْ سَعْدًا لَمْ يَبَايِعْ أَبَا بَكْرٍ
وقد صَبَرْتُ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ أَنْفُسٌ وَمَا صَبَرْتُ عَنْ لَذَّةِ النَّهْيِ وَالْأَمْرِ

(١) فى الأصول : « دلهم » وأثبت ما فى الاستيعاب .

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقائلٌ بمحبته وولائه ،
وشهد معه حروبه كلها ؛ وكان مع الحسن عليه السلام ، ونقم عليه صلحه معاوية ، وكان
طالباً للرأى ، مخلصاً في اعتقاده ووده ؛ وأكّد ذلك عنده فواتُ الأمر أباه ومانيل يوم
السقيفة وبعده منه ، فوجد من ذلك في نفسه وأضمره ، حتى تمكن من إظهاره في خلافة
أمير المؤمنين ، وكما قيل : « عدوّ عدوك صديق لك » .

[ذكر أبي أيوب الأنصاري ونسبه]

وأما أبو أيوب الأنصاري ؛ فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجي ،
من بني النّجار ، شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد ، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله
لما خرج عن بني عمرو بن عوف ، حين قدم المدينة مهاجراً من مكة ، فلم يزل عنده حتى
بني مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إليها ؛ ويوم المؤاخاة آخى رسول الله صلى الله عليه وآله
بينه وبين مصعب بن عمير .

وقال أبو عمر في كتاب " الاستيعاب ^(١) " : إن أبا أيوب شهد مع علي عليه السلام
مشاهده كلها ، وروى ذلك عن الكلبي ، وابن إسحاق ، قالا : شهد معه يوم الجمل وصفين ،
وكان مقدّمته يوم النهروان .

قوله « تختطفها الذئاب » ، الاختطاف : أخذك الشيء بسرعة ، ويروى « تتخطفها » ،
قال تعالى : تحافون أن ﴿ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ ^(٢) .

ويقال : إن هذه الخطبة آخر خطبة ، خطبها أمير المؤمنين عليه السلام قائماً .

(١) الاستيعاب ٦٢٠

(٢) سورة الأنفال ٢٦

الأفضل :

ومن فطنة له عليه السلام :

الحمد لله المعروف من غير رؤية، الخالق من غير منصبة، خلق الخلائق بقدرته،
 واستعبد الأرباب بعزته؛ وساد العظماء بجوده؛ وهو الذي أسكن الدنيا خلقه،
 وبعث إلى الجن والإنس رسله، ليكشفوا لهم عن غطاها؛ وليحذروهم من ضرائها،
 وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، وليهجموا عليهم بمعتبر من تصرف
 مصاحبا وأسقامها، وحلالها وحرامها، وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة،
 من جنة ونار، وكرامة وهوان.

أحمدُهُ إلى نفسه، كما استحمد إلى خلقه، وجعل لكل شئ قدراً، ولكل قدر
 أجلاً، ولكل أجل كتاباً.

الشنخ :

للمنصب، بالفتح والنصب : التعب، والماضي نصب بالكسرة، وهم ناصب في

قول النابغة :

* كِلِينِي لَهْمَ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٌ ^(١) *

دو نصب، مثل رجل تامر ولا بن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «منعول فيه» لأنه يُنصب

(١) ديوانه ٢، وبقية :

* وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطَى الْكَوَاكِبِ *

فيه ويُتعب ؛ كقولهم : ليل نائم ، أى يُنام فيه ، ويوم عاصف ؛ أى تعصف فيه الرياح .
واستعبدت فلانا : اتخذته عبداً . والضراء : الشدة .

ومعتبر^(١) : مصدر بمعنى الاعتبار . ومصاحبا : جمع مصححة « مفعلة » من الصحة ،
كمضار جمع مضرة . وصفه سبحانه بأنه معروف بالأدلة ؛ لا من طريق الرؤية كما تعرف المراتب ،
وبأنه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منا فيما يزاوله ويباشره من أفعاله .
خلق الخلاق بقدرته على خلقهم ؛ لا بحركة واعتماد ، وأسبغ النعمة عليهم : أوسعها .
واستعبد الذين يدعون في الدنيا أرباباً بعزه وقهره .

وساد كل عظيم بسعة جوده ؛ وأسكن الدنيا خلقه ، كما ورد في الكتاب العزيز :
﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٢) .

وبعث رسله إلى الجن والإنس ؛ كما ورد في الكتاب العزيز : ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَذَا ﴾^(٣) .

قال : « ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا » ، أى عن غوراتها وعيوبها المستورة ؛
وليخوفوهم من مضرّتها وغرورها المفضى إلى عذاب الأبد .

وليضربوا لهم أمثالها ، كالأمثال الواردة في الكتاب العزيز ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ... ﴾ الآية^(٤) .

قوله : « وليهجموا عليهم » ؛ هجمتُ على الرجل : دخلت عليه بغتة ؛ يقول : ليدخلوا
عليهم بما في تصارييف الدنيا ؛ من الأمن^(٥) والصحة والسقم ، وما أحلّ وما حرم على طريق
الابتلاء .

(٢) سورة البقرة ٣٠

(٤) سورة يونس ٢٤

(١) د : « معتبر »

(٣) سورة الأنعام ١٣٠

(٥) ساقط من ب

ثم قال : « وما أعدَّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة » ، يجوز أن تكون « ما » معطوفة على « عيوبها » ، فيكون موضعها نصباً ، ويجوز أن يكون موضعها جرّاً ، ويكون من تنمة أقسام ما يعتبر به ، والأوّل أحسن .

ثم قال عليه السلام : إني أحمد الله كما استحمد^(١) إلى خلقه ، استحمد^(٢) إليهم فعل ما يوجب عليهم حمده .

ثم قال : إنه سبحانه جعل لكل شيء من أفعاله قدراً ، أى فعله مقدراً محدود الغرض ، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾^(٣) .

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهى إليه وينقطع عنده ؛ وهو الأجل .
ولكلّ أجل كتابا ، أى رُقوماً تعرفها الملائكة ، فتعلم انقضاء عمر من ينقضى عمره ، وعدم ما أظافهم في معرفة عدمه .

الأصل :

منها في ذكر القرآن :

فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ؛ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ ، وَارْتَبَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ ؛ أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَّغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ .

فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْماً بَادِئاً ، وَآيَةً مُحْكَمَةً ، تَزَجُّرُ عَنْهُ ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بَشَى سَخَطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَنْ يَسْخَطَ
عَلَيْكُمْ بَشَى رَضِيهِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ
بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ .

قَدْ كَفَاكُمْ مَوْوَنَةً دُنْيَاكُمْ ، وَحَشَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَأَفْتَرَضَ مِنَ أَلْسِنَتِكُمْ
الذِّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى ، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ .

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِيْنُهُ ، وَنَوَاصِيَكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ؛ إِنْ
أَسْرَزْتُمْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ، قَدْ وَكَّلَ بِكُمْ حَفَظَةً كِرَامًا ، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا ،
وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا .

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْفِتَنِ ، وَنُورًا مِنَ الظُّلُمِ ، وَيُخَلِّدْهُ
فِيمَا أَشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلْهُ مَنَزَلَةَ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ ، فِي دَارٍ أَصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ؛ ظِلًّا
عَرْشُهُ ، وَنُورًا بَهْجَتُهُ ، وَزُورًا مَلَأَتْ كُتُبُهُ ، وَرَفَقًا وَهَآ رُسُلُهُ .

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الْأَجَالَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ ،
وَيَرْهَقَهُمُ الْأَجَلُ ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ^(١) إِلَيْهِ الرَّجْعَةُ
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُوسَبِيلٍ ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ
مِنْهَا بِالْإِرْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ .

الشَّنْحُ :

جعل القرآن أمراً وزاجراً لما كان خالقه - وهو الله سبحانه - أمراً زاجراً به ، فأَسَدَ
الأمر والزجر إليه ؛ كما تقول : سيف قاتل ، وإِنَّمَا القاتل الضارب به ، وجعله صامتاً ناطقاً ؛
لأنَّه - من حيث هو حروف وأصوات - صامتٌ ، إذ كان العَرَضُ يستحيل أن يكون ناطقاً

لأنَّ النطق حركة الأداة بالكلام ، والكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها ؛ وهو من حيث يتضمَّن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام ، كالناطق ، لأنَّ الفهم يقع عنده ، وهذا من باب المجاز كما تقول : هذه الربوع الناطقة ، وأخبرتني الديار بعد رحيلهم بكذا .

ثم وصفه بأنَّه حجة الله على خلقه ، لأنَّه المعجزة الأصلية .
أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقه ، وارتهن عليه أنفسهم ، لمَّا كان سبحانه قد قرَّر في عقول المكلفين أدلة التوحيد والعدل ، ومن جملة مسائل العدل النبوة ، ويثبت نبوة محمد صلى الله عليه وآله عقلاً ، كان سبحانه بذلك كالآخِذِ ميثاقَ المكلفين بتصديق دعوته ، وقبول القرآن الذي جاء ، وجعل به أنفسهم رهناً على الوفاء بذلك ، فمن خالف خسر نفسه ، وهلك هلاك الأبد .

هذا تفسير المحققين ، ومن الناس من يقول : المراد بذلك قصَّة الذرِّية قبل خلق آدم عليه السلام ، كما ورد في الأخبار ، وكما فسَّر قوم عليه الآية .
ثم ذكر عليه السلام أنَّ الله تعالى قبَضَ رسوله صلى الله عليه وآله ، وقد فرَغ إلى الخلق بالقرآن من الإكمال والإتمام ، كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ ^(١) ، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه .

قال : فعظّموا من الله ما عظم من نفسه ؛ لأنَّه سبحانه وصف نفسه بالعظمة والجلال في أكثر القرآن ؛ فالواجب علينا أن نعظمه على حسب ما عظم نفسه سبحانه .

ثم علَّل وجوب تعظيمه ، وحسَّن أمره لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخَفِ عنا شيئاً من أمر ديننا ، وذلك لأنَّ الشرعيَّات مصالح المكلفين ، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا

ما فيه صلاحاً ، فقد أحسنَ إلينا ، ومن جملة صلاحنا تعريفنا من الشرعيّات ما فعله لطفٌ ومفضُّ بنا إلى الثواب ، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان ، والمحسنُ يجب تعظيمه وشكره .

قال : لم يترك شيئاً إلّا وجعل له نصّاً ظاهراً يدلّ عليه ، أو علماً يستدلّ به عليه ، أى إمّا منصوص عليه صريحاً ، أو يمكن أن يستنبط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه ؛ فيبقى على البراءة الأصليّة ، وحكم العقل .

قوله : « فرضاه فيما بقى واحد » معناه أنّ ما لم ينصّ عليه صريحاً ، بل هو فى محلّ النظر ، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه ، فيحلّله بعضهم ، ويحرّمه بعضهم ؛ بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد ، وكذلك سخطه ، فليس يجوز أن يكون شئٌ من الأشياء يفتى فيه قوم بالحلّ وقوم بالحرمة ، وهذا قولٌ منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد ، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الكلام مراراً .

قوله : « واعلموا أنه ليس يرضى عنكم ... » ، الكلام إلى منتهاه ، معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف فى الفتاوى والأحكام ، كما اختلف الأمم من قبلكم ، فسخط اختلافهم قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (١) . وكذلك ليس يسخطُ عليكم بالاتفاق والاجتماع الذى رضىه ممّن كان قبلكم من القرون .

ويجوز أن يفسّر هذا الكلام بأنّه لا يرضى عنكم بما سخطه على الذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة فى التوحيد والعدل ، ولا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التى رضىها ممّن كان قبلكم فى التوحيد والعدل ، فيكون الكلام مصروحاً إلى الأصول لا إلى الفروع .

قال : « وإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنٍ » ؛ أَيْ أَنَّ الْأَدِلَّةَ وَاضِحَةٌ ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ الْأَمْرَ بِالتَّقْلِيدِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ » ، يَعْنِي كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، قَدْ قَالَهَا الْمُوَحِّدُونَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، لَا تَقْلِيدًا ، بَلْ بِالنَّظَرِ وَالدَّلِيلِ ، فَقُولُوهَا أَنْتُمْ كَذَلِكَ !

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ كَفَى الْخَلْقَ مَوْئِنَهُ دُنْيَاهُمْ ؛ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَفَانَا مَوْئِنَهُ دُنْيَانَا ، وَحَثَّنَا عَلَى الْقِيَامِ بِوُضَائِفِ دِينِنَا ، فَلَيْتَهُ كَفَانَا مَوْئِنَهُ دِينِنَا ، وَحَثَّنَا عَلَى الْقِيَامِ بِوُضَائِفِ دُنْيَانَا .

قَوْلُهُ : « وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ » ؛ افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوهُ وَتَشْكُرُوهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، وَ« مِنْ » مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَصْدَرُ الْمُتَأَخَّرُ ؛ تَقْدِيرُهُ : « وَافْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الذِّكْرَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ » .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التَّقْوَى الْمَفْتَرِضَةَ هِيَ رِضَا اللَّهِ وَحَاجَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، لَفْظَةُ « حَاجَتُهُ » مُجَازٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى غَنِيٌّ غَيْرُ مُحْتَاجٍ ؛ وَلَكِنَّهُ لَمَّا بَالِغٌ فِي الْحَثِّ وَالْحُضِّ عَلَيْهَا ، وَتَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهَا جَعَلَهُ كَالْمُحْتَاجِ إِلَى الشَّيْءِ ، وَوَجَّهَ الْمِشَارَكَةَ أَنَّ الْحَاجَةَ يَحْتَاجُ وَيَحُضُّ عَلَى حَاجَتِهِ ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ الْمَكْلَفُ إِذَا أُكِّدَ الْأَمْرُ .

قَوْلُهُ : « أَنْتُمْ بَعِينُهُ » ؛ أَيْ يَعْلَمُ أَحْوَالَكُمْ ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، النَّاصِيَةُ : مُقَدِّمُ شَعْرِ الرَّأْسِ ؛ أَيْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكُمْ قَاهِرٌ لَكُمْ ، مُتِمِّكُنْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيكُمْ ، كَالْإِنْسَانِ الْقَابِضِ عَلَى نَاصِيَةِ غَيْرِهِ .

وَتَقْلِبَكُمْ فِي قَبْضَتِهِ ، أَيْ تَصَرِّفُكُمْ تَحْتَ حُكْمِهِ ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَمْنَعَكُمْ مِنْعَكُمْ ؛ فَهُوَ كَالشَّيْءِ فِي قَبْضَةِ الْإِنْسَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اسْتِدَامَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَهُ .

ثُمَّ قَالَ : إِنْ أَسْرَرْتُمْ أَمْرًا عِلْمَهُ ، وَأَنْ أَظْهَرْتُمُوهُ كَتَبْتَهُ ، لَيْسَ عَلَى أَنْ السِّكْرَةَ غَيْرُ الْعِلْمِ ، بَلْ هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ ؛ وَلَكِنَّ اللَّفْظَ مُخْتَلِفٌ .

ثم ذكر أن الملائكة موكلة بالمكلف ؛ وهذا هو نص الكتاب العزيز ؛ وقد تقدم القول في ذلك .

ثم انتقل إلى ذكر الجنة ؛ والكلام يدل على أنها في السماء ، وأن العرش فوقها . ومعنى قوله : « اصطنعها لنفسه » إعظامها وإجلالها ، كما قال لموسى : ﴿ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ^(١) ؛ ولأنه لما تعارف الناس في تعظيم ما يصنعونه ؛ أن يقول الواحد منهم لصاحبه : قد وهبتك هذه الدار التي اصطنعها لنفسى ؛ أى أحكمتها ، ولم أكن في بنائها متكلفاً بأن أبنيتها لغيرى ، صحّ وحسن من البليغ الفصيح أن يستعير مثل ذلك ، فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه ؛ وإنما هو عظيم جليل عنده .

قوله : « ونورها بهجته » ؛ هذا أيضاً مستعار ، كأنه لما كان إشراق نورها عظيماً جداً نسبه إلى بهجة البارى ، وليس هناك بهجة على الحقيقة ؛ لأنّ البهجة حسن الخلقة ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ^(٢) ؛ أى من كل صنف حسن . قوله : « وزوارها ملائكته » قد ورد في هذا من الأخبار كثير جداً ، ورفقاؤها : رسله ، من قوله تعالى : ﴿ وَحَسَنَ أَوْلِيكَ رَفِيقًا ﴾ ^(٣) .

ويوشك ، بكسر الشين ، فعلٌ مستقبل ، ماضيه « أوشك » ؛ أى أسرع . ورهقه الأمر ، بالكسر : فاجأه .

ويُسَدّ عنهم باب التوبة ، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفاً فقط ؛ لا لقبح القبيح ، قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة طه ٤٩

(٢) سورة ق ٧

(٣) سورة النساء ٦٩

(٤) سورة النساء ١٨

وإنما قال : في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم ، كقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) .

وبنو سبيل : أر باب طريق مسافرون .

وأوذِنَ فلان بكذا : أعلم . وأذنته : أعلمته .

وقد تقدّم لنا كلام بالغ في التقوى وماهيّتها وتأكيده وصاغة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها .

[نبذ وأقاويل في التقوى]

روى المبرّد في الكامل أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فقال له رجل : أتألت على أمير المؤمنين ! أى أتنتقصه (٢) ! ، فقال عمر : دعه ، فلا خير فيهم إذا لم يقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نُقلْ لنا .

وكتب أبو العتاهية إلى سهل بن صالح (٣) - وكان مقياً بمكة : أما بعد ، فأنا أوصيك بتقوى الله الذي لا غناء بك عن تقاته ، وأتقدّم إليك عن الله ، ونذكرك مكر الله فيما دبت به إليك ساعات الليل والنهار ، فلا تخذ عن دينك ، فإن ساعاتك وأوقاتك إن ظفرت بذلك منك ، وجدت الله فيك أسرع مكرًا ، وأنفذ فيك أمرًا ، ووجدت مامكرت به في غير ذات الله غير رادٍ عنك يد الله ، ولا مانع لك من أمر الله ؛ ولعمري لقد ملأت عينك الفكر واضطربت في سمعك أصوات العبر ؛ ورأيت آثار نعم الله نسختها آثار نقمه حين استهزى بأمره ؛ وجوهر بمعاندته . ألا إن في حكم الله أنه من أكرمه الله ، فاستهان بأمره ، أهانه الله

(٢) وانظر النهاية لابن الأثير ١ : ٣٨

(١) سورة المؤمن ٩٩ ، ١٠٠

(٣) د : « صاعد » .

وَالسَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بغيره، لا وعظك الله في نفسك ! وجعل عظمتك في غيرك ، ولا جعل الدنيا عليك حسرة وندامة ، برحمته !

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله: « لا كرمَ كالتقوى ، ولا مال أعود من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عقل كالتدبير ، ولا قرين كحسَنِ الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارة كالعمل الصالح ، ولا ربح كثواب الله ، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد في الحرام ، ولا علم كالتفكير ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا إيمان كالحياء والصبر ، ولا حسَب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مظاهره أوفق من المشورة ؛ فاحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، واذكر الموت وطول البلى . »

الأصل :

وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ؛ فَارْحَمُوا أَنْفُسَكُمْ ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّ بَثْمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ ، وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ . فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنْ نَارٍ ؛ ضَجِيعَ حَجَرٍ ، وَقَرَيْنَ شَيْطَانٍ !

أَعْلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِعَظَمَتِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجَرَتِهِ .

أَيُّهَا الْيَمْنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ . كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتْ الْجَوَامِيعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ حُومَ السَّوَاعِدِ !

فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ الشَّقْمِ ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا .

أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا
أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا ،
فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ^(١) ، وَقَالَ
تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ^(٢) .

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرِضْكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ حَيْرَانَ اللَّهِ فِي دَارِهِ ، رَافِقَ بِهِمْ
رُسُلُهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَدًا ،
وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصَبًا : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٣) .

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ ؛ وَهُوَ حَسْبُنَا
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

الشرح :

الرَّمْضاء : الأرض الشديدة الحرارة ، والرَّمَض ، بالتحريك : شدة وقع الشمس على
الرمْل وغيره ، وقد رَمَضَ يَوْمُنَا بالكسر ، يَرِمِضُ رَمَضًا ؛ اشتدَّ حرُّه ، وأَرْضُ رَمِضَةٍ
الحجارة ، ورَمِضَتْ قدمُه من الرَّمْضاء : احترقت م

(١) سورة محمد ٧

(٢) سورة البقرة ٢٤٥

(٣) سورة الحديد ٢١ .

والطابق ، بالفتح : الأجرة الكبيرة؛ وهو فارسيّ معرب .
وضجميع حَجَر : يومىء فيه إلى قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ^(١) ، قيل :
إنها حجارة الكبريت .

وقرين شيطان : يومىء فيه إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ ^(٢) .
وحَطَمَ بعضها بعضاً : كسره أو أكله ، والحطمة من أسماء النار؛ لأنها تحطم ما تلقى ،
ومنه سُمِّيَ الرَّجُلُ الكثير الأكل : حُطْمَة .

واليفن : الشيخ الكبير . ولهزه : خالطه ، ويقال له حينئذ : مَلْهُوز ، ثم أشمط ، ثم
أشيب . ولهزت القوم : خالطتهم ودخلت بينهم .

والقتير : الشَّيب ؛ وأصله رءوس المسامير في الدُّرُوع تسمى قتيरा .

والتحمت أطواق النار بالعظام : التفت عليها ، وانضمت إليها ، والتصقت بها .

والجوامع : جمع جامعة ، وهى الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

ونشبت : علقت . والسواعد : جمع ساعد ، وهو الذراع .

و«فى» من قوله : « فى الصّحة قبل السُّقْمِ » ، متعلقة بالحذوف الناصب لله ، وهو اتقوا ،
أى اتقوه سبحانه فى زمان صحّتكم ، قبل أن ينزل بكم السُّقْمِ ، وفى فسحة أعماركم قبل
أن تبدّل بالضيق .

وفكأك الرقاب : بفتح الفاء : عتقها قبل أن تغلق رهائنها ، يقال غلق الرهن ،
بالكسر ؛ إذا استحققه المرتهن بالآل يفكّه الراهن فى الوقت المشروط ، وكان ذلك من
شرع الجاهليّة ، فنهى النّبىّ صلى الله عليه وآله ، وقال : لا يغلق الرهن .

(١) سورة البقرة ٢٤

(٢) سورة ق ٢٣

وخذوا من أجسادكم ، أى أتعبوها بالعبادة حتى تنحل .
والقل : القلة . والذل : الذلة .
وحسيس النار : صوته . واللغوب : النصب .

[طرف وأخبار]

ونظير قوله عليه السلام : « استقرّ ضحككم وله خزائن السموات والأرض » ،
ما رواه المبرد في " الكامل " عن أبي عثمان المازني ، عن أبي زيد الأنصاري ، قال :
وقف علينا أعرابي في حلقة يونس [النحوي] ^(١) ، فقال : الحمد لله كما هو أهله ، وأعوذ
بالله أن أذكر به وأنساه ، خرجنا من المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ، ثلاثين
رجلاً ممن أخرجته الحاجة ، وحمل على المكروه ، ولا يمرّ ضنون مرضاهم ^(٢) ، ولا يدفنون
ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل وإن كرهوه ؛ والله يا قوم لقد جئتُ حتى أكلتُ
النوى المحرق ، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم ، وحتى خرج من قدمي بخص ^(٣) ولحم
كثير ، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفل ^(٤) طريق ، ونضنو سفرًا ! فإنه لا قليل من الأجر ،
ولا غنى عن [ثواب] ^(٥) الله ، ولا عمل بعد الموت ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي

(١) من الكامل

(٢) الكامل : « مريضهم » .

(٣) قال أبو العباس المبرد : قوله : « بخص » ؛ يريد اللحم الذي يركب القدم ؛ هذا قول الأصمعي .
وقال غيره : هو لحم يخالطه بياض من فساد يحل فيه . ويقال : بخصت عينه - بالصاد - ولا يجوز إلا ذلك
ويقال : بخصته حقه ؛ بالسين : إذا ظلمته ونقصته ؛ كما قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾
وفي المثل : تحسبها حقاء وهى باخس .

(٤) قال أبو العباس : الفل في أكثر كلامهم المنهزم الذاهب ؛ وفي خبر كعب بن معاذ الأشقرى :
« إنا آثرنا الحد على الفل » .

(٥) من الكامل

يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا^(١)؛ مَلَيْتُ وَفِيَّ مَا جَدَّ وَاجِدٌ ، [جواد]^(٢) لَا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَزٍ^(٣)؛ وَلَكِنَّهُ يَبْلُو^(٤) الْأَخْيَارَ^(٥) .

قال المازني : فبلغني إنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا .

ومن كلام علي بن عبيدة الريحاني : الأيام مستودعات الأعمال ، ونعم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح !

وخطب الحجاج ، فقال : أيها الناس ، إنكم أغراضُ حِمَامٍ ، وفُرُصُ هَلَكَةٍ . قد أنذركم القرآن ، ونادى برحيلكم الجديدان ! ها إنَّ لكم موعداً لا تؤخِّرْ سَاعَتَهُ ، وَلَا تُدْفِعْ هَجْمَتَهُ ، وكان قد دَلَفَتْ إليكم نازِلَتُهُ ، فتعلّق بكم رَيْبُ المُنُونِ ، وعَلَقَتْ بكم أُمُّ اللّٰهِمِّمِ الحِيزِ بون ؛ فماذا هَيَّأْتُمْ للرَّحِيلِ ؟ وماذا أعددتُم للنَّزِيلِ ؟ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ أَهْبَةَ الحَذَرِ ، نَزَلَ بِهِ مَرْهُوبُ القَدَرِ !

[خطبة لأبي الشَّحَاء العسقلاني]

قلت : وقد شَغِفَ النَّاسُ فِي المَوَاعِظِ بِكَلَامِ كَاتِبِ مَحَدَّثٍ ؛ يَعْرِفُ بَابَنَ أَبِي الشَّحَاءِ

(١) سورة البقرة ٢٤٥

(٢) قال أبو العباس : « لَا يَسْتَقْرِضُ مِنْ عَوَزٍ » ؛ قال عوز تعذر المطلوب ؛ يقال : أعوز فلان ؛ فهو معوز ؛ إذا لم يجد .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ الْأَخْيَارَ » ؛ يقال : الله يبلوهم ويبتليهم ويختبرهم في معنى وأوبال . ينتخبهم ؛ وهو العالم عز وجل بما يكون ؛ كعلمه بما كان ؛ قال الله جل ثناؤه : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

(٤) الخبر في الكامل ١ : ٤٥١ - ٤٥٥

العسقلانيّ ، وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه ، هي أحسن ما وجدته له ، ليعلم الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد :

أيّها النّاس ، فُكِّروا أنفُسكم من حَلَقَات الآمال المتعبة ، وخَفَّفُوا ظهوركم من الآصار المستحقة ، ولا تسيّمُوا أطماعكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تُتميلُوا صَغَوَكم إلى زبارج الدنيا المحبّبة ، فتظلّ أجسامكم في هشائمها عاملة نصِبة ! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركّبة ، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة ، ولما ساءهم منتظرة مرتقبة ، في هبّتها راجعة متعقّبة ! فانضوا رَحِمكم الله ركائب الاعتبار مشرّقة ومغرّبة ، وأجروا خيول التفكير مصعّدة ومصوّبة ؛ هل تجدون إلا قصورا على عروشها خربة ، وديارا معطشة من أهلها مجدبة ! أين الأمم السالفة المتشعبة ، والجبابرة الماضية المتغلّبة ، والملوك المعظمة المرجّبة ، أو لو الحفّدة والحجبة ، والزّخارف المعجبة ، والجيوش الحرّارة اللّجّبة ، والخيّام الفضفاضة المطنّبة ، والجياد الأعوجيّة المجنّبة ، والمصاعب الشدقيّة المصحّبة ، والدّدان المثقّفة المدرّبة ، والمأذّية الحصينة المنتخبة ، طرقت والله خيامهم غير منتهبة ، وأزارتهم من الأسقام سيّوفاً مُعطّبة ، وسيّرت إليهم الأيام من نوبها كتائب مكتّبة ، فأصبحت أظفار المنية من مُهَجهم قانية مختضّبة ، وغدت أصوات النادبات عليهم مجلّبة ، وأكلت لحومهم هوامّ الأرض السّغِبة ، ثمّ إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذْر ولا معتبة ، وتجازى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة ، فسعيدة مقرّبة تجري من تحتها الأنهار مثنّوبة ، وشقيّة معذّبة في النار مكبّكة .

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب ، وهي كما تراها ظاهرة التكلّف ، بيّنة التوليد ، تخطب على نفسها ، وإنّما ذكرتُ هذا ، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون : إنّ كثيراً من "نهج البلاغة" ، كلام محدث ، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة ، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضىّ أبى الحسن وغيره ، وهؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم ، فضلّوا عن النهج الواضح

وركبوا بُنيّات^(١) الطريق ، ضلّالا وقلّة معرفة بأساليب الكلام ، وأنا أوضح لك بكلام مختصر مافى هذا الخاطر من الغلط فاقول :

[رأى للمؤلف فى كتاب نهج البلاغة]

لا يخلو إما أن يكون كل " نهج البلاغة " مصنوعا منحولا ، أو بعضه . والأوّل باطل بالضرورة لأننا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد نقل المحدثون كلّهم أو جلّهم ، والمؤرّخون كثيرا منه ، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض فى ذلك . والثانى يدلّ على ما قلناه ؛ لأن من قد أنس بالكلام والخطابة ، وشدا طرقا من علم البيان ، وصار له ذوق فى هذا الباب ؛ لابدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح ، وبين الفصيح والأفصح ، وبين الأصيل والمولّد ، وإذا وقف على كراس واحد يتضمّن كلاما لجماعة من الخطباء ، أو لاثنتين منهم فقط ؛ فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين ، ويميّز بين الطريقتين . ألا ترى أننا مع معرفتنا بالشعر ونقده ، لو تصفّحنا ديوان أبى تمام ؛ فوجدناه قد كتب فى أثناؤه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ، لعرفنا بالذوق مبايئتها لشعر أبى تمام ونفسه ، وطريقته ومذهبه فى القريض ، ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ؛ لمبايئتها لمذهبه فى الشعر ، وكذلك حذفوا من شعر أبى نواس شيئا كثيرا ؛ لما ظهر لهم أنّه ليس من ألفاظه ، ولا من شعره ، وكذلك غيرها من الشعراء ، ولم يعتمدوا فى ذلك إلا على الذوق خاصّة .

وأنت إذا تأملت " نهج البلاغة " وجدته كلّ ماء واحدا ، ونفسا واحدا ، وأسلوبا واحدا ، كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفا لباقي الأبعاض فى الماهيّة ، وكالقرآن العزيز ، أوّله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ، وكلّ سورة منه ، وكلّ آية مماثلة فى

(١) يقال : ركب بنيات الطريق ، أى ضل ؛ وأصل البنيات الطرق الصغار ، ثم أطلقت على الترهات .

الْمَأْخُذَ وَالْمَذْهَبَ وَالْفَنَّ وَالطَّرِيقَ وَالنَّظْمَ لِبَاقِي الْآيَاتِ وَالسُّورِ ؛ وَلَوْ كَانَ بَعْضُ ” نَهْجِ الْبَلَاغَةِ “ مَنْحُولًا وَبَعْضُهُ صَحِيحًا ، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ ؛ فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ بِهَذَا الْبَرْهَانِ الْوَاضِحِ ضَلَالُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ أَوْ بَعْضَهُ مَنْحُولٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَائِلَ هَذَا الْقَوْلِ يَطْرُقُ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا قَبِيلَ لَهُ بِهِ ، لِأَنَّا مَتَى فَتَحْنَا هَذَا الْبَابَ ، وَسَلَطْنَا الشُّكُوكَ عَلَى أَنْفُسِنَا فِي هَذَا النَّحْوِ ، لَمْ نَثِقْ بِصِحَّةِ كَلَامِ مَنْقُولٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَبَدًا ، وَسَاغَ لَطَاعِنٌ أَنْ يَطْعَنَ وَيَقُولَ : هَذَا الْخَبَرُ مَنْحُولٌ ؛ وَهَذَا الْكَلَامُ مَصْنُوعٌ ، وَكَذَلِكَ مَا نَقَلَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍو مِنَ الْكَلَامِ وَالْخُطْبِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْأَدَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَكُلٌّ أَمْرٌ جَعَلَهُ هَذَا الطَّاعِنُ مُسْتَنَدًا لَهُ فِيمَا يَرَوِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَالْأُئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ ، وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَالشُّعْرَاءَ وَالْمُتَرَسِّلِينَ ، وَالْخُطَبَاءَ ؛ فَلِنَاصِرِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَسْتَنِدُوا إِلَى مِثْلِهِ فِيمَا يَرَوُونَهُ عَنْهُ مِنْ ” نَهْجِ الْبَلَاغَةِ “ ، وَغَيْرِهِ ، وَهَذَا وَاضِحٌ .

الأنزل :

ومنه كلام له عليه السلام :

قاله للبرج بن مُسهر الطائي ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لا حكمَ إلا الله » ، وكان من الخوارج .

اسْكُتْ قَبْحَكَ^(١) اللَّهُ يَا أَثْرَمُ! فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَيْلًا شَخْصُكَ ، خَفِيًّا صَوْتُكَ ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ ، نَجَمْتَ نَجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

الشَّيْخُ :

البرج بن مُسهر - بضم الميم وكسر الهاء - بن الجلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طي بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان . شاعر مشهور من شعراء الخوارج ، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام ، فزجره .

وقَبْحَكَ اللَّهُ ؛ لفظة معناها كَسَرَكَ ، يقال : قَبَحْتُ الْجُوزَةَ ، أى كسرتها ، وقيل : قَبَحَهُ نَحَاهُ عن الخير . وكان البرج ساقطَ الثنية ، فأهانهُ بأن دعاه به ، كما يُهان الأعور بأن يقال له : يا أعور .

والضئيل : الدقيق الخفي ، ضَوِّلَ الرجل ، بالضم ضَالَةً : نَحَفَ ، وضَوِّلَ رأيه : صَغُرَ ، ورجل متضائل ، أى شَخَتْ ، وكذلك : « ضُوَّةٌ » .

(١) مخطوطة النهج : قبحك ، بالتشديد .

ونَعَرُ الباطل : صاح ، والمراد أهلُ الباطل ، ونَعَرَ فلان في الفتنة : نهض فيها .
ونَجَمَ : طلع ، أى طلع بلا شرف ولا شجاعةٍ ولا قدم ، بل على غفلة ، كما ينبت قرن
الماعز . وهذا من باب البديع ؛ وهو أن يشبّه الأمر يراد إهانتته بالمهين ، ويشبّه الأمر يراد
إعظامه بالعظيم ، ولو كان قد تكلم في شأن ناجمٍ يريد تعظيمه ، لقال : نجم نجوم الكوكب
من تحت الغمام ، نجوم نَوَّرَ الربيع من الأكمام ، ونحو ذلك .

الأضل :

ومن خطبة له عليه السلام :

رُوي أَنَّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له هَمَّامٌ . كان رجلاً عابداً ، فقال له :
يا أمير المؤمنين : صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم ، فتناقل عليه السلام عن جوابه ،
ثم قال : يا هَمَّامُ اتق الله وأحسن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ^(١) .
فلم يقنع هَمَّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي
صلى الله عليه وآله .

ثم قال عليه السلام :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقَ الْخَلْقِ - حِينَ خَلَقَهُمْ - غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ
أَمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعِهِ ،
فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ
الْفَضَائِلِ ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ ، وَمَشِيُهُمُ التَّوَاضُّعُ .
غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ .
نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ ، كَالَّذِي نَزَلَتْ فِي الرِّخَاءِ .
وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ
عَيْنٍ ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ .

عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَادُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَأُجْنَتُهُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا ،
فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ . قُلُوبُهُمْ مُحْزَوْنَةٌ ،
وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ .

صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً ، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةٌ طَوِيلَةٌ . تِجَارَةٌ مُرِجَةٌ ، يَسَرَّهَا لَهُمْ
رَبُّهُمْ . أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَّتْهُمْ فَفَدَّوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلًا ؛ يَحْزُنُونَ بِهِ
أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا
طَمَعًا ، وَتَطَلَّعَتْ نَفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ ؛ وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ
فِيهَا تَخْوِيفٌ ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أَصُولِ
أَذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبِهِمْ ، وَأَطْرَافِ
أَقْدَامِهِمْ ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكٍ رِقَابِهِمْ .

وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءَ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءَ ، قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحَ ، يَنْظُرُ
إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَيَقُولُ : لَقَدْ خُولِطُوا ؛ وَلَقَدْ
خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ؛ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ ،
فَهُمْ لَا أَنْفُسَهُمْ مُتَبَهِّمُونَ ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ؛ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا
يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي !

اللَّهُمَّ لَا تَوَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَأَجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاغْفِرْ لِي
مَا لَا يَعْلَمُونَ !

الشَّرح :

هَمَّامُ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ : هُوَ هَمَّامُ بْنُ شُرَيْحَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَرْثَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَابِرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْأَصْهَبِ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ ذُهْلَ بْنِ مُرَّانَ بْنِ صَيْفَى بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ .

وَكَانَ هَمَّامٌ هَذَا مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلِيَّائِهِ ، وَكَانَ نَاسِكًا عَابِدًا ، قَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى أَصِيرَ بِوَصْفِكَ إِيَّاهُمْ ، كَالنَّاظِرِ إِلَيْهِمْ .
فَتَنَاقَلَ عَنْ جَوَابِهِ ، أَيْ أَبْطَأَ .

فَعَزَمَ عَلَيْهِ ، أَيْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُ لِمَنْ يَكْرُرُ عَلَيْكَ الْطَّلَبُ وَالسُّؤَالُ : قَدْ عَزَمَ عَلَيَّ ، أَيْ أَصْرًا وَقَطَعَ ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ فِي الْأَمْرِ تُرِيدُ فَعْلَهُ وَتَقْطَعُ عَلَيْهِ : عَزَمْتَ عَزْمًا وَعَزَمَانًا وَعَزِيمَةً وَعَزِيمًا .

فَإِنْ قُلْتَ : كَيْفَ جَازَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَتَنَاقَلَ عَنْ جَوَابِ الْمُسْتَرِشِدِ ؟
قُلْتَ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَنَاقُلًا عَنْ جَوَابِهِ ؛ لِأَنَّهُ عِلْمٌ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي تَأْخِيرِ الْجَوَابِ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ حَاضِرَ الْمَجْلِسِ مَنْ لَا يَحِبُّ أَنْ يَجِيبَ وَهُوَ حَاضِرٌ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَجَابَ ، وَلَعَلَّهُ رَأَى أَنَّ تَنَاقُلَهُ عَنْ الْجَوَابِ يَشْدُ تَشَوُّقَ هَمَّامٍ إِلَى سَمَاعِهِ ، فَيَكُونُ أَجْمَعَ فِي مَوْعِظَتِهِ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ مِنْ بَابِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ إِلَى وَقْتِ الْحَاجَةِ ؛ لَا مِنْ بَابِ تَأْخِيرِ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَلَعَلَّهُ تَنَاقَلَ عَنْ الْجَوَابِ لِيَرْتَبِ الْمَعَانِي الَّتِي خَطَرَتْ لَهُ فِي أَلْفَاظٍ مُنَاسِبَةٍ لَهَا ، ثُمَّ يَنْطِقُ بِهَا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمَتْرُوءِيُّ فِي الْخُطْبَةِ وَالْقَرِيضِ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا مَعْنَى إِجَابَتِهِ لَهُ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ : يَا هَمَّامُ ، اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ؟ وَأَيُّ جَوَابٍ فِي هَذَا عَنْ سُؤَالِ هَمَّامِ ؟

قلت : كأنه لم ير في بادئ الحال شرح صفات المتقين على التفصيل ، فقال لهم : ماهية التقوى معلومة في الجملة ، فاتق الله وأحسن ؛ فإن الله قد وعد في كتابه أن يكون ولياً وناصراً لأهل التقوى والإحسان ، وهذا كما يقول لك قائل : ما صفات الله الذي أعبدته أنا والناس ؟ فتقول له : لا عليك ألا تعرف صفاته مفصلاً ، بعد أن تعلم أنه خالق العالم ، وأنه واحد لا شريك له ! فلما أبى همام إلا الخوض فيما سأله على وجه التفصيل ، قال له : إن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم ، ويروى : « حيث خلقهم » وهو غني عن طاعتهم ؛ لأنه ليس بجسم فيستضرّ بأمر أو ينتفع به .

وقسم بين الخلق معاشهم ، كما قال سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ^(١) .

وفي قوله : « وضعهم مواضعهم » معنى قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ^(١) ، فكانه عليه السلام أخذ الألقاظ ، فألقاها وأتى بمعناها .

فلما فرغ من هذه المقدمة شرع في ذكر صفات المتقين ، فقال : إنهم أهل الفضائل . ثم بين ماهذه الفضائل ، فقال : « منطقهم الصواب » .

فإن قلت : أي فائدة في تقديم تلك المقدمة ، وهي كون الباري سبحانه غنياً لا تضره المعصية ، ولا تنفعه الطاعة !

قلت : لأنه لما تضمنت الخطبة مدح الله تعالى للمتقين وما أعدّه لهم من الثواب ، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم ، فربما يتوهم متوهم أن الله تعالى مارغب في الطاعة

هذا الترغيب البالغ ، وخوف من المعصية هذا التخويف البالغ ، إلا وهو منتفع بالأولى ، مستضر^١ بالثانية ، فقدم عليه السلام تلك المقدمة نفيًا لهذا الوهم .

[فصل في فضل الصمت والاقتصاد في المنطق]

واعلم أن القول في خطر الكلام وفضل الصمت وفضل الاقتصاد في المنطق وسيع^٢ جدًا ، وقد ذكرنا منه طرفًا فيما تقدم ، ونذكر الآن منه طرفًا آخر .

قال النبي صلى الله عليه وآله : « مَنْ صَمَتَ نَجَا » .

وقال أيضًا : « الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله » .

وقال له صلى الله عليه وآله بعض أصحابه : أخبرني عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحدًا بعدك ، فقال : « قل : آمنت بالله ثم استقم » قال : فما أتقى ؟ فأومأ بيده إلى لسانه .

وقال له عليه السلام عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا النَّجَاةُ ؟ قال : « املك^٣ عليك لسانك^(١) ، وأبك^٢ على خطيئتك ؛ وليسعك^٣ بيتك » .

وَرَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ ، عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « مَنْ يَتَوَكَّلْ لِي بِمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَرِجْلَيْهِ أَتَوَكَّلْ لَهُ بِالْجَنَّةِ » .

وقال : « مَنْ وَقِيَ شَرَّ قَبْقَبِهِ^(٢) وَذَبَذَبِهِ^(٣) وَلَقَلَقَهُ^(٤) فَقَدْ وَقِيَ » .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ مَرْفُوعًا : « إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ أَصْبَحَتْ أَعْضَاءُ كُلِّهَا تَشْكُو

(١) أملك عليك لسانك ؛ أى لا تحركه إلا بما يكون لك لا عليك .

(٢) القبقب : البطن ؛ من القبقبة ؛ وهى صوت يسمع من البطن فكأنها حكاية ذلك الصوت .
النهاية لابن الأثير ٣ : ٢٢٥

(٣) ذبذبه ، أى ذكره . وانظر النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٣

(٤) اللقلق : اللسان . النهاية لابن الأثير ٤ : ٦٤ ؛ قال : ومنه حديث عمر : « ما لم يكن تقع ولا لقلقة » ؛ أراد الصياح والجلبة عند الموت ؛ وكأنها حكاية الأصوات الكثيرة .

اللسان ، تقول : أى بنى آدم ، اتق الله فينا ؛ فإنك إن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا .

وقد روى أن عمر رأى أبا بكر وهو يمد لسانه ، فقال : ما تصنع ؟ قال : هذا الذى أوردنى الموارد ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : « ليس شيء فى الجسد إلا يشكو إلى الله تعالى اللسان على حديثه » .

وسمع ابن مسعود يركب على الصفا ، ويقول : يا لسان ، قل خيراً فغنم ، أو اصمت تسلم من قبل أن تندم . ف قيل له : يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء سمعته ، أم تقوله من تلقاء نفسك ؟ قال : بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « أكثر خطايا ابن آدم من لسانه » .

وروى الحسن مرفوعاً : « رحم الله عبداً تكلم فغنم ، أو سكت فسليم » .
وقالت التلامذة لعيسى عليه السلام : دلنا على عمل ندخل به الجنة ، قال : لا تنطقوا أبداً . قالوا : لا نستطيع ذلك ، قال . فلا تنطقوا إلا بخير .
وقال النبي صلى الله عليه وآله : « إن الله عند لسان كل قائل ، فاتق الله امرؤ علم ما يقول » .

وكان يقال : لاشيء أحق بطول سجن من لسان .
وكان يقال : لسانك سبع ، إن أطاقته أكلك .
فى حكمة آل داود : حقيق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، حافظاً للسانه ، مقبلاً على شأنه .

وكان يقال : من علم أن كلامه من عمله ، أقل كلامه فيما لا ينفعه .
وقال محمد بن واسع : حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم .

اجتمع أربعةُ حكماءَ : من الروم ، والفرس ، والهند ، والصين ، فقال أحدهم : أنا أندمُ على ما قلتُ ولا أندم على ما لم أقل : وقال الآخر : إذا تكلمتُ بالكلمة ملكتنى ، ولم أملكها ، وإذا لم أتكلم ملكتها ولم تملكنى . وقال الآخر : عجبتُ للمتكلم ؛ إن رجعتُ عليه كلمته ضرتّه ، وإن لم ترجع لم تنفعه ، وقال الرابع : أنا على ردِّ ما لم أقل ، أقدرُ منى على ردِّ ما قلت .

[ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان]

واعلم أن آفاتِ اللسان كثيرة :

فمنها الكلام فيما لا يعنيك ؛ وهو أهونُ آفاتِ اللسان ، ومع ذلك فهو غيبٌ ، قال النبي صلى الله عليه وآله : « من حُسنِ المرءِ تركه مالا يعينه » .

وروى أنه عليه السلام مرَّ بشهيد يوم أحد ، فقال أصحابه : هنيئلاً له الجنة ! قال : وما يدريكم لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه !

وقال ابنُ عباس : خمسٌ هي أحسنُ وأفْعُ من حُرِّ النَّعم : لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فإنَّه فضل لا آمن عليه الوزر . ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تبدله موضعاً ، فربَّ متكلمٍ في أمرٍ يعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء . ولا تُمارِ حليماً ولا سفيهاً ، فإنَّ الحليم يقلبك ، والسفيه يؤذيك . واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحبُّ أن يذكرك به ، وأعفه عما تحبُّ أن يُعفبك عنه . واعمل عمل رجلٍ يرى أنه مجازى بالإحسان ، مأخوذ بالجرائم .

ومنها فضولُ الكلام وكثرته ، وترك الاقتصار ؛ وكان يقال : فضول المنطق وزيادته نقص في العقل ، وهما ضدَّان متنافيان ، كلما زاد أحدهما نقص الآخر .

وقال عبدُ الله بن مسعود : إِيَّاكُمْ وَفُضُولُ الْكَلَامِ ؛ حَسْبُ أَمْرِي مَا بَلَغَ بِهِ حَاجَتَهُ .
وكان يقال : مَنْ كَثَرَ كَلَامُهُ كَثُرَتْ سَقَطُهُ .

وقال الحسن : فَضُولُ الْكَلَامِ كَفُضُولِ الْمَالِ ، كِلَاهُمَا مِهْلِكٌ .

ومنها الخوض في الباطل ، والحديث فيما لا يحلّ ، كحديث النساء ومجالس الخمر ،
ومقامات الفساق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ ^(١) .

ومنها المراء ^(٢) والجدال ، قال عليه السلام : « دَعِ الْمِرَاءَ وَإِنْ كُنْتَ مُحَقًّا » .
وقال مالك بن أنس : الْمِرَاءُ يَقْسِي الْقَلْبَ ، وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ .
وقال سفيان الثوري : لو خالفتُ أَخِي فِي رُمَانَةٍ فَقَالَ حُلُوةٌ ، وَقُلْتُ حَامِضَةٌ ، لَسَعَى
بِي إِلَى السُّلْطَانِ .

وكان يقال : صَافٍ مَنْ شَتَّ ثَمَّ أَغْضَبَهُ بِالْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ ؛ فَلْيَرْمِيَنَّكَ بِدَاهِيَةٍ
تَمْنَعُكَ الْعَيْشِ .

وقيل لميمون بن مهران : مالك لا تفارق أخاك عن قِلي ؟ قال : لأتِي لا أشاركه ،
ولا أماريه .

ومنها التقعر في الكلام بالتشدد ، والتسكف في الألفاظ ، قال النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة المدثر ٤٥

(٢) المراء ، وفعله ماري يماري : كثرة المازعة والجاجاة في القول .

« أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون ^(١) المتفيهقون ^(٢) المتشدقون ^(٣) . »
وقال عليه السلام : « هلك المتنطعون ... » ، ثلاث مرات ، والتنطع : هو التعمق
والاستقصاء .

وقال عمر : ان شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان .

ومنها الفحش والسبّ والبذاء ^(٤) قال النبي صلى الله عليه وآله : « إياكم والفحش ؛
فإن الله لا يحبّ الفحش ، ولا يرضى الفحش » .
وقال عليه السلام : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا بالسباب ، ولا البذي » .
وقال عليه السلام : « لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء » .

ومنها المزاح الخارج عن قانون الشريعة ، وكان يقال : من مزح استخفّ به .
وكان يقال : المزاح فحل لا يُنتج إلا الشر .

ومنها الوعد الكاذب ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : العِدّة دينٌ ، وقد أثنى الله
سبحانه على إسماعيل ، فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ^(٥) وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ ^(٦) .

(١) الثرثارون : الذين يكثر الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق ، وأصله من العين الواسعة
من عيون الماء ، يقال : عين ثرثارة .

(٢) المتفيهقون ، أصله من قولهم : « فبق الغدير يفهق ، إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد .

(٣) المتشدقون : المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز وفي اللسان : وقيل : « أراد بالمتشدق

المستهزئ بالناس ، يلوى شذقه بهم وعليهم » .

(٤) البذاء ، بالفتح : السفه والفحش في المنطق .

(٥) سورة مريم ٥٤

(٦) سورة المائدة ١

ومنها الكذب فى القول واليمين ، والأمر فىهما مشهور .

ومنها الغيبة ، وقد تقدم القول فيها .

قوله عليه السلام : « ولبسهم الاقتصاد » ؛ أى ليس بالثمين جدًّا ، ولا بالحقير جدًّا ، كالخرق التى تؤخذ من على المزابل ؛ ولكنّه أمرٌ بين أمرين ؛ وكان عليه السلام يلبس الكرايس ، وهو الخام الغليظ ؛ وكذلك كان عمرُ رضى الله عنه . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسُ اللين تارةً ، والخشنَ أخرى .

قوله عليه السلام : « ومشيمهم التواضع » ؛ تقديره : وصِفَةُ مشيمهم التواضع ، فحذف المضاف ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ^(١) . رأى محمد بن واسع ابنَّاه يمشى ، وهو يتبخترُ ويمسُ فى مشيته ، فصاح به ، فأقبل ، فقال له : ويلك ! لو عرفتَ نفسك لقصدت فى مشيك ، أما أمك فأمةٌ ابتعتها بمائة درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى الناس أمثاله !

والأصل فى هذا الباب ، قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ^(٢) .

وقوله : « غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ » أى خَفَضُوا وَغَمَضُوا ، وغَضَضَتْ طرفى عن كذا : احتملت مكروهه .

وقوله : « وقفوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ » أى لم يشغَلُوا سَمْعَهُمْ بِشَيْءٍ غَيْرِ الْعِلْمِ النَّافِعِ ؛ أى لم يشغَلُوا بِسَمَاعِ شَيْءٍ وَلَا غِنَاءٍ وَلَا أَحَادِيثِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

(١) سورة لقمان ١٩

(٢) سورة الإسراء ٣٧

قوله : « نزلت أنفسهم منهم في البلاء ؛ كالَّذِي نزلت في الرّخاء » ، يعني أنّهم قد طابوا نفساً في البلاء والشدة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرّخاء والنعمة ؛ وذلك لقلة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها ، وتقدير الكلام من جهة الاعراب : نَزَلَتْ أنفسهم منهم في حالِ البلاء نزولاً كالنّزول الذي نزلته منهم في حال الرّخاء ، فوضع « كالَّذِي » نصب ؛ لأنه صفة مصدر محذوف ، والموصول قد حذف العائد إليه ، وهو الهاء في « نزلته » كقولك : ضربت الذي ضربت ؛ أي ضربت الذي ضربته .

ثم قال عليه السلام : إنّهم من شدة شوقهم إلى الجنة ، ومن شدة خوفهم من النار ، تكاد أرواحهم أن تفارق أجسادهم ، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالاً ينتهون إليها .
ثم ذكر أنّ الخالق لما عظم في أعينهم استصغروا كلّ شيء دونه ، وصاروا لشدة يقينهم ومكاشفتهم ، كمن رأى الجنة فهو يتنعم فيها ، وكمن رأى النار وهو يعذب فيها ، ولا ريب أنّ من يشاهد هاتين الحالتين ، يكون على قَدَمٍ عظيمة من العبادة والخوف والرجاء ، وهذا مقام جليل ، ومثله قوله عليه السلام في حق نفسه : « لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً » . والواو في « والجنة » واو « مع » ، وقد روى بالعطف بالرفع على أنه معطوف على « هم » ، والأوّل أحسن .

ثم وصفهم بحزن القلوب ، ونحافة الأجسام ، وعفة الأنفس وخفة الحوائج ، وأنّ شروهم مأمونة على الناس ، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيراً أعقبهم نعيماً طويلاً .
ثم ابتدأهم فقال : تجارة مربحة ، أي تجارتهم تجارة مربحة ، فحذف المبتدا . وروى : « تجارة مربحة » ، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل .

قوله : « أمّا الليل » بالنصب على الظرفية ، وروى « أمّا الليل » على الابتداء .
قوله : « تالين » ؛ منصوب على أنّه حال ؛ إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية في « صافون » أو من الضمير المجرور بالاضافة في : « أقدامهم » .

والترتيل: التبيين والإيضاح؛ وهو ضد الإسراع والعجل: ويروى: «يرتلونه» على أن الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أى يستجلبون لها الحزن به، ويستثيرون به دواء دأهم؛ إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْبُكَاءَ لَرَّاحَةٌ به يشفى من ظنٍّ أَلَّا تَلَاقِيَا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ لَيْلَتِكَ الطُّولُ فَالدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْكَ مَسْدُولُ

وهو إذا أَنْتَ تَأَمَّلْتَهُ حُزْنٌ عَلَى الْخَدَّيْنِ مَحْلُولُ

ثم ذكر أنهم إذا مرّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنوا بها، طمعاني نيّله وتطلّعت أنفسهم إليها شوقاً، أى اشرأبت.

«ونصب أعينهم» منصوب على الظرفية، وروى بالرفع؛ على أنه خبر إن؛ والظن هاهنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(١).

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه. وزفير النار: صوتها.

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظمه الله».

وقال صلى الله عليه وآله: «لو كان القرآن في إهاب مامسته النار».

وقال: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن».

وقال : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » .

وقال : « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد » ، قيل : فما جلاؤها ؟ قال :
« تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقال عليه السلام : « إن الله سبحانه لأشدَّ أذناً ^(١) إلى قارئ القرآن من صاحب
القينة إلى قينته » .

وقال الحسن رحمه الله : مادون القرآن من غنى ، ولا بعد القرآن من فاقة .

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم ، فقال : « حائون على أوساطهم » ؛
حنيت العود : عطفته ، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصلاة .
مفترشون لجباههم : باسطون لها على الأرض .

ثم ذكر الأعضاء السبعة التي مباشرتها بالأرض فروض في الصلاة ، وهي : الجبهة ،
والكفان ، والر كبتان ، والقدمان .

قوله عليه السلام : « يطلبون إلى الله » ، أى يسألونه ، يقال : طلبت إليك فى كذا ،
أى سألتك ، والكلام على الحقيقة ، مقدّر فيه حال محذوفة يتعلق بها حرف الجر ، أى
يطلبون سائلين إلى الله فى فكأ رقابهم ؛ لأن « طلب » لا يتعدى بحرف الجر

ثم لما فرغ من ذكر الليل ، قال : « وأما النهار فخلعاء علماء ، أبرار أتقياء » ، هذه الصفات
هى التى يطلع عليها الناظرون لهم نهارة ، وتلك الصفات المتقدمة من وظائف الليل .

ثم ذكر ما هم عليه من الخوف ، فقال عليه السلام : « إن خوفهم قد برأهم برئى

(١) الأذن : الاستماع .

القِداح « وهى السَّهام ، واحدها قِدْح ، فينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بهم من مرض ، نظير هذا قول الشاعر ^(١) :

وُخِرَقِي عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ بَيْنَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيماً ^(٢)
حَتَّى إِذَا رُفِعَ اللَّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ عَلَى الْخَمِيسِ زَعِيماً ^(٣)

ويقال للمتقين لشدة خوفهم : كأنهم مَرَضَى ، ولا مَرَضَ بهم . وتقول العرب للكرام من الناس ، القليلى الماء كل والمشرَب ، رافضى اللباس الرفيع ، ذوى ^(٤) الأجسام النحيفة : مراضٌ من غير مرض ، ويقولون أيضاً للمرأة ذات الطرف الغضيف الفاتِر ، ذات الكسل : مريضة من غير مرض ، قال الشاعر :

ضعيفة كَرَّ الطَّرْفُ تَحْسِبُ أَنَّهَا حَدِيثَةٌ عَهْدَ الْإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمٍ ^(٥)

(١) من أبيات الليلى الأخيلية ، ذكرها أبو تمام فى الحماسة ٤ : ١٦٠٧ - بشرح التبريزى ، أولها :

يَأْيُهَا السَّدْمُ الْمَلُوى رَأْسُهُ لِيَقُودَ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ بَرِيماً
أَتُرِيدُ عَمْرَوَ بْنَ الْخَلِيعِ وَدُونَهُ كَعَبٌ ، إِذَا لَوَجَدْتَهُ مَرْموماً

وفى أمالى القالى ١ : ٢٤٨ : « كان الأصمعى يروىها لحميد بن ثور الهلالى » . وانظر تنبيهات البكرى ٧٨ .
(٢) قال التبريزى : « أى لا يبالى كيف كان ثيابه لأنه لا يزين نفسه ، وإنما يزين حسبه ويصون كرمه ، وقيل : معناه أنه غليظ المناكب ، وإذا كان كذلك أسرع الحرق إلى قميصه ، وقيل : أرادت أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ، فقميصه منخرق لذلك . وقولها : « من الحياء سقيماً » ، تعنى أنه ينتقم لونه من شدة الحياء ، وإنما يستحي من ألا يكون قد بلغ من إكرام القوم ما فى نفسه » .

(٣) الخميس : الجيش ؛ لأنه يكون من خمس كتائب ، أو خمسة صفوف : المقدمة ، والميمنة ، والميسرة ، والقلب ، والساقة . وسمى الرئيس زعيماً ، لأنه يزعم عن قومه ، أى يقول .

(٤) ب : « ذو » ، وصوابه من د .

[ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار]

واعلم أن الخوف مقامٌ جليل من مقامات العارفين، وهو أحد الأركان التي هي أصول هذا الفن، وهو التَّقْوَى الَّتِي حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا، وقال: إِنَّ أَكْرَمَ النَّاسِ عِنْدَهُ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لَهُ، وفي هذه الآية وحدها كفاية، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدت أكثره ذكر المتقين، وهم الخائفون، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «مَنْ خَافَ اللَّهَ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

وقال عليه السلام: «أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ خَوْفًا، وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظْرًا».

وقال يحيى بن مُعَاذٍ: مِسْكِينُ ابْنِ آدَمَ، لَوْ خَافَ النَّارَ كَمَا يَخَافُ الْفَقْرَ، دَخَلَ الْجَنَّةَ. وقال ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ أَغْلَبَ مِنَ الرَّجَاءِ؛ فَإِنَّ الرَّجَاءَ إِذَا غَلَبَ تَشَوَّشَ الْقَلْبَ.

وقيل لبعض الصالحين: مَنْ آمَنُ الْخَلْقُ غَدًا؟ قال: أَشَدُّهُمْ خَوْفًا الْيَوْمَ. وقيل للحسن: يَا أَبَا سَعِيدَ، كَيْفَ نَصْنَعُ بِمَجَالِسَةِ أَقْوَامٍ مِنْ أَصْحَابِكَ، يَخَوْفُونَنَا حَتَّى تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ؟ فقال: إِنَّكَ وَاللَّهِ لَأَنْ تَصْحَبَ قَوْمًا يَخَوْفُونَكَ حَتَّى تَدْرِكَ الْأَمْنُ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ قَوْمًا يُؤْمِنُونَكَ حَتَّى يَدْرِكَ الْخَوْفَ.

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾^(١): هُمُ الَّذِينَ يَعْصُونَ وَيَخَافُونَ الْمَعْصِيَةَ؟ قال: «لَا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَخَافُ إِلَّا يُقْبَلَ مِنْهُ».

(١) سورة المؤمنون ٦٠

وقال صلى الله عليه وآله : « مامن قَطْرَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةٍ دَمَعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، أَوْ قَطْرَةٍ دَمٍ أَرِيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .
وقال عليه السلام : « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله » ؛ وذكر منهم رجلاً ذكر الله في خلوة ، ففاضت عيناه .

قوله عليه السلام : « ويقول قد خولطوا » ؛ أى أصابتهم جنة .
ثم قال : « ولقد خالطهم أمر عظيم » ، أى مازجهم خوف عظيم تولّوا لأجله ، فصاروا كالجائنين .

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون فى كثير من أعمالهم ، ولا يرضيهم اجتهادهم ؛ وأنهم يتهمون أنفسهم ، وينسبونها إلى التقصير فى العبادة ، وإلى هذا نظر المتنبي ، فقال :
يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ الْكَبِيرَ لِنَفْسِهِ وَيُظَنُّ دِجْلَةً لَيْسَ تَكْفِي شَارِباً^(١)
قال : « ومن أعمالهم مشفقون » ؛ أى مشفقون من عباداتهم ألا تُقبل ، وإلى هذا نظر أبو تمام ، فقال :

يَتَجَنَّبُ الْآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ
ومثل قوله : « أنا أعلمُ بنفسى من غيرى » . قوله عليه السلام لمن زكاه نفاقاً :
« أنا دونَ ماتقول ، وفوقَ ما فى نفسك » .

وقوله : « اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ... » إلى آخر الكلام مفرد مستقل بنفسه ، منقول عنه عليه السلام ؛ أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون فى أمره ، فمنهم الحامدُ له ، ومنهم الذام ، فقال : « اللهم لا تؤاخذنى ... » الكلمات إلى آخرها ، ومعناه : اللهم

إن كان ما ينسبُه الدامون إلى من الأفعال الموجبة للذم حقاً ، فلا تؤاخذني بذلك ،
واغفر لي مالا يعلمونه من أفعالي ، وإن كان مايقوله الحامدون حقاً ، فاجعلني أفضَلَ
مما يظنونه في .

الأصل :

فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ ؛ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإِيمَاناً فِي
يَقِينٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنَى ، وَخُشوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَجَمُّلاً
فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ ، وَطَلَباً فِي حَلَالٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ،
يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ .

يُمْسِي وَهْمُهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذِّكْرُ . يَبِيتُ حَذِراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً ؛
حَذِراً لِمَا حَذَّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ .

إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَسَكَّرَهُ ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تَحِبُّ .
قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ،
وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ .

تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَلُهُ ؛ خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُهُ ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ ،
سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيْزاً دِينُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ .

أَخْيَرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كَتَبَ فِي الذَّاكِرِينَ ؛
وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ ؛ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيداً فُحْشَهُ ، لِيناً قَوْلُهُ ، غَائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ .

فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ ، وَفِي الرِّخَاءِ شَكُورٌ ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ ، وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ .

يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتَحْفِظَ ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ ، وَلَا يَشْتُمُ بِالْمَصَائِبِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ .

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغْمُهُ صَمْتُهُ ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبْرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ .

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ .

بَعْدَهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكَبِيرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ .

قال : فَصَعِقَ هَمَامٌ صَعْقَةً كَانَتْ نَفْسُهُ فِيهَا ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ .

ثم قال :

هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا !

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : فَمَا بِالكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

فقال عليه السلام :

وَيْحَكَ ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتًا لَا يَعْدُوهُ ، وَسَبَبًا لَا يَتَجَاوَزُهُ ، فَمَهْلًا لَا تَعْدُ لِمِثْلِهَا ،

فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ !

الشَّرْحُ :

هذه الألفاظ التي أولها : « قوّة في دين » ؛ بعضها يتعلق بحرف الجر فيه بالظاهر ، فيكون موضعه نصباً بالمفعوليّة ، وبعضها يتعلق بمحذوف ، فيكون موضعه نصباً أيضاً على الصّفة ، ونحن نفصلها .

فقوله : « قوّة في دين » حرف الجرّ هاهنا متعلّق بالظاهر ، وهو « قوّة » ، تقول : فلان قوىّ في كذا وعلى كذا ، كما تقول : مررتُ بكذا ، وبلغت إلى كذا .

و « حزمًا في لين » ؛ هاهنا لا يتعلق حرف الجرّ بالظاهر ؛ لأنّه لا معنى له ، ألا ترى أنّك لا تقول : فلان حازم في اللين ؛ لأنّ اللين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه ، وليس كما تقول : فلان حازم في رأيه أو في تدبيره ! فوجب أن يكون حرف الجرّ متعلّقاً بمحذوف ، تقديره : وحزمًا كائنًا في لين .

وكذلك قوله : « وإيمانًا في يقين » ، حرف الجرّ متعلّق بمحذوف : أى كائنًا في يقين : أى مع يقين .

فإن قلت : الإيمان هو اليقين فكيف ، قال : « وإيمانًا في يقين » ؟ قلت : الإيمان هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل ، واليقين هو سكون القلب فقط ، فأحدُهما غير الآخر .

قوله : « وحرصاً في علم » ، حرف الجرّ هاهنا يتعلق بالظاهر ، و « في » بمعنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَلَا صَلَّيْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ ^(١) .

قوله « وقصدًا في غنى » حرف الجرّ متعلّق بمحذوف : أى هو مقتصدٌ مع كونه غنياً ، وليس يجوز أن يكون متعلّقاً بالظاهر ، لأنّه لا معنى لقولك : اقتصد في الغنى ، إنما يقال : اقتصد في النّفقة ؛ وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغنى ومجامع له .

- قوله : « وخشوعاً في عبادة » حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين معا .
- قوله : « وتَجَمَّلًا في فاقة » ، حرف الجر هاهنا متعلق بمحذوف ، ولا يصح تعلُّقه بالظاهر ، لأنَّه إنما يقال : فلان يتجَمَّل في لباسه ومروءته ؛ مع كونه ذا فاقة ؛ ولا يقال : يتجَمَّل في الفاقة ؛ على أن يكون التجَمَّل متعلِّياً إلى الفاقة .
- قوله : « وصَبْرًا في شدَّة » ، حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .
- قوله : « وطلباني حلال » حرف الجر هاهنا يتعلَّق بالظاهر و « في » بمعنى « اللام » .
- قوله : « ونشاطاً في هدًى » حرف الجر هاهنا يحتمل الأمرين .
- قوله : « وتحرَّفاً عن طمع » ، حرف الجر هاهنا يتعلَّق بالظاهر لا غير .
- قوله : « يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل » . قد تقدَّم مثله .

- قوله : « ويمسى وهمه الشكر » ، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين ، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة ، نحو قوله : ﴿ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ^(١) فقرن الشكر بالذكر .
- وقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ ^(٢) .
- وقال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٣) .
- ولعلَّ مرتبة الشكر طعن إبليس في بني آدم ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ ^(٤) ، وقد صدَّقه الله تعالى في هذا القول فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة البقرة ١٥٢

(٢) سورة النساء ١٤٧

(٣) سورة آل عمران ١٤٤

(٤) سورة الأعراف ١٧

(٥) سورة سبأ ١٣

وقال بعض أصحاب المعاني : قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن ، فقال : ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) .

واستثنى في خمسة أمور : وهي الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة .

فقال : ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾^(٢) .

وقال : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾^(٣) .

وقال : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٤) .

وقال : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٥) .

وقال : ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦) .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً ، وهو خلق من أخلاق الربوبية ،

قال تعالى في صفة نفسه : ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٧) .

وقد جعل الله تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾^(٨) ، وجعله خاتمة كلامهم أيضاً فقال : ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩) .

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله : قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فلم تقوم

الليل ، وتتعب نفسك ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً !

(٢) سورة التوبة ٢٨

(٤) سورة الشورى ١٩

(٦) سورة التوبة ١٥

(٨) سورة الزمر ٧٤

(١) سورة إبراهيم ٧

(٣) سورة الأنعام ٤١

(٥) سورة النساء ٤٨

(٧) سورة التغابن ١٧

(٩) سورة يونس ١٠

قوله عليه السلام : « وَيَصْبِحُ وَهُمْ الذَّكَّرُ » ، هذه أيضا درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ^(١) قال بعض العارفين لأصحابه : أنا أعلم متى يذكركني ربي . ففزعوا منه فقال : إذا ذكرته ذكرني ، وتلا الآية ، فسكتوا .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ^(٤) .

وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ ^(٥) .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ ^(٦) .

وقال في ذم المنافقين : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٧) .

وقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ ^(٨) .

وقال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ^(٩) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « ذَاكِرُ اللَّهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ فِي وَسْطِ الْمَشِيمِ » .

وقال صلى الله عليه وآله : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » .

(٢) سورة الأحزاب ٤١
(٤) سورة البقرة ٢٠٠
(٦) سورة آل عمران ١٩١
(٨) سورة الأعراف ٢٠٥

(١) سورة البقرة ١٥٢
(٣) سورة البقرة ١٩٨
(٥) سورة النساء ١٠٣
(٧) سورة النساء ١٤٢
(٩) سورة العنكبوت ٤٥

وسئل عليه السلام : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « أن تموتَ ولسانك رطب بذكر الله » .
وقال صلى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى : « إذا ذكرني عبدي في نفسه ،
ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خيرٍ من ملئه ، وإذا تقرّب مني
شبراً تقرّبتُ منه ذراعاً ، وإذا تقرّب مني ذراعاً تقرّبتُ منه باعاً ، وإذا مشى إليّ هرولاً
إليه » .

وقال صلى الله عليه وآله : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم
الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكّرهم الله فيمن عنده » .

قوله عليه السلام : « يبيت حذراً ويصبح فرحاً ، حذراً لما حذّر من الغفلة ، وفرحاً
بما أصاب من الفضل والرحمة » .

وقد تقدّم ذكر الخوف .

وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرجاء المقابل للخوف : فإن فرح العارف بما أصاب
من الفضل والرحمة يمكن أن يحمل على أنه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته .
ويمكن أن يحمل على أنه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه ؛ لذا استدلّ على وصوله إليه
وقوى ظنّه بظفره به ، بما عجل الله تعالى له من الفضل والرحمة في الدنيا ، ومقام الرجاء
للعارفين مقام شريف ، وهو في مقابلة مقام الخوف ، وهو المقام الذى يوجد العارف فيه فرحاً ،
قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ ۝١٠١ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وآله ، حكايةً عن الله تعالى . « أنا عند ظنّ عبدى بى ، فليظنّ بى ماشاء » .

ودخل صلى الله عليه وآله على رجل من أصحابه ، وهو يجودُ بنفسه ، فقال : كيف تجددك ؟ قال : أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وآله : « ما اجتماعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجاه ، وأمنه مما خافه » .

قوله عليه السلام : « إن استصعبت عليه نفسه » ، أى صارت صعبةً غير منقادة ؛ يقول : إذا لم تناوعه نفسه إلى ماهى كارهة له لم يعطها مرادها فيما تحبّه .

قوله عليه السلام : « قرّة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى » ، يقال للفرح السرور : إنه لقرير العين ، وقرت عينه تقررّ ، والمراد برزها ؛ لأن دمة السرور باردة ، ودمة الحزن حارّة .

وهذا الكلام يحتمل أمرين :

أحدهما أن يعنى بما لا يزول البارى سبحانه ، وهذا مقام شريف جداً أعظم من سائر المقامات ، وهو حبّ العارف لله سبحانه ، وقد أنكره قومٌ فقالوا : لا معنى لمحبة البارى إلا المواظبة على طاعته ، ونحوه قول أصحابنا المتكلمين : إن محبة الله تعالى للعبد هى إرادته لثوابه ، ومحبة العبد للبارى هى إرادته لطاعته ، فليست المحبة عندهم شيئاً زائداً على الإرادة ، ولا يجوز أن تتعلق بذات الله سبحانه ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالحدوث ، وخالفهم شيخنا أبو الحسن ، فقال : إن الإرادة يمكن أن تتعلق بالباقي ، ذكر ذلك فى الكلام فى الآكوان فى أول التصفّح ، فأما إثبات الحبّ فى الجملة فقد نطق به القرآن قال سبحانه : ﴿ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ ﴿١﴾ . وقال أيضا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (٢) وقال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله نظر إلى مُصْعَب بن عَمِيرٍ مقبلاً وعليه إهاب كبشٍ قد تمنطق به ، فقال : « انظروا إلى الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ماترون » .

ويقال : إن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم ، وتغيّرت ألوانهم ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الخوف من النار ، قال : حقّ على الله أن يؤمن من يخافه ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق إلى الجنة ، فقال : حقّ على الله أن يعطي مَنْ رجاه . ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشدّ نحولاً ، وعلى وجوههم ، مثل المرأى من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حبّ الله عزّ وجلّ ، فقال : أتمّ المقربون ، ثلاثاً .

وقال بعض العارفين :

أَحَبُّكَ حَبِّينَ : حَبُّ الْمَوَى	وَحَبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حَبُّ الْمَوَى	فَشَغْلَى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشْفُكَ لِي الْحُجُبِ حَتَّى أَرَاكَ
فَلَا الْحَمْدَ مِنْ ذَا وَلَا ذَاكَ لِي	وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ

(١) سورة المائدة ٥٤

(٢) سورة البقرة ١٦٥

(٣) سورة آل عمران ١٣١

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريون من أنها الإبصار بالعين ؛ بل المعرفة التامة ؛ وذلك لأن المعارف النظرية يصح أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا ، فهذا أحد محملي الكلام .

وثانيهما : أن يريد بما لا يزول ، نعيم الجنة ، وهذا أدون المقامين ، لأن الخلص من العارفين يحبونه ويعشقونه سبحانه لذاته ، لا خوفاً من النار ، ولا شوقاً إلى الجنة ، وقد قال بعضهم : لست أرضى لنفسى أن أكون كأجيرِ السوء ، إن دُفعت إليه الأجرة رضى وفرح ، وإن مُنعها سخط وحزن ، إنما أحبه لذاته .

وقال بعض شعرائهم شعراً من جملته :

فَهَجَرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهِ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، من هذا الكثير ، نحو قوله : « لم أعبدُه خوفاً ولا طمعا ، لكنني وجدته أهلاً للعبادة فعبدته » .

قوله عليه السلام : « يمزج الحلم بالعلم » ، أى لا يحلم إلا عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون .

قوله : « والقول بالعمل » ، أى لا يقتصر على القول ، ومثل هذا قول الأحوص :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِيقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ^(٢)

قوله عليه السلام « تراه قريباً أمله » ، أى ليست نفسه متعلقة بما عظم من آمال الدنيا ؛ وإنما قصارى أمره أن يؤمل القوت والملبس . قليلاً زلله : أى خطؤه .

قوله : « منزوراً أكله » ، أى قليلاً ، ويحمد من الإنسان الأكل النزر ، قال

أعشى باهلة :

تَكْفِيهِ حَرَّةٌ فَلَيْدٌ إِنْ أَلَمَ بِهِ ————— مِنْ الشَّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبُهُ الْغَمْرُ^(١)

وقال متمم بن نويرة :

لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ فَتَى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(٢)

قوله عليه السلام : « مكظوما غيظه » كظم الغيظ من الأخلاق الشريفة ، قال زيد بن علي عليه السلام : « ماسرني بجرعة غيظٍ أتجرونها وأصبر عليها حمر النعم » .

وجاء رجل إلى الربيع بن زياد الحارثي ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن فلانا يغتأبك وينال منك ، فقال : والله لأغيظن من أمره بذلك ، قال الرجل : ومن أمره ؟ قال : الشيطان عدو الله ، استغواه ليؤثمه ، وأراد أن يغيظني عليه فأكفته ، والله لا أعطيه ما أحب من ذلك . غفر الله لنا وله !

وجَهِل^(٣) إنسان على عمر بن عبد العزيز ، فقال : أظنك أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان ، فأنا لك منك اليوم ماتناله متى غدا ! انصرف عافاك الله .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الغضبُ يفسد الإيمان ، كما يفسد الصبر العسل » .
وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله : أوصني ، فقال : « لا تغضب » ، فأعاد عليه السؤال ، فقال : « لا تغضب » ، فقال : « زدني » ، فقال : « لا أجد مزيدا » .
ومن كلام بعض الحكماء : لا يفي عزُّ الغضب بذلة الاعتذار .

(١) من قصيدة له في ديوان الأعشى ٢٦٨ ، الكامل ٤ : ٦٥ ، ٦٦ ، أمالي المرتضى ١ : ٩٦ الفلذ : قطعة من الكبد ؛ ولا يقال إلا للبعير ، والغمر - كسر - القدح الصغير ، والحزة : القطعة الصغيرة ورواية الكامل

* تَكْفِيهِ فَلَيْدٌ كَبْدٌ إِنْ أَلَمَ بِهَا *

(٢) من قصيدة له في الكامل ٤ : ٧٢ - ٧٤ ، والمفضليات ٢٦٥ - ٢٧٠ . والمنهال ، هو لبن عصمة الرياحي ، كفن مالكا في ثوبه . غير مبطان العشيات : لا يعجل بالعشاء ، وينتظر الضيفان . الأروع : الذي إذا رأته راعك بجماله وحسنه .

(٣) الجهل هنا : السفاهة .

(٤ - ٤) ساقط من ب .

قوله : « إن كان في الغافلين » ؛ معناه أنه لا يزال ذا كر الله تعالى ، سواء كان جالسا مع الغافلين أو مع الذاكرين ؛ أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلبه ، وأمّا إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه .

قوله عليه السلام : « يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه » ؛ من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل : « أحبوا أعداءكم ، وصلوا قاطعيكم ، واعفوا عن ظالميكم ، وباركوا على لأعينكم ؛ لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء ، الذي تشرق شمسُه على الصالحين والفجرة ، وينزل مطرُه على المطيعين والأثمة » .

قوله عليه السلام : « بعيدا فحشه » ؛ ليس يعني به أنه قد يُفحش تارة ، ويترك الفحش تارات ، بل لا فحش له أصلا ، فكفى عن العدم بالبعد ؛ لأنه قريب منه .

قوله : « لئنا قوله » العارف بسام طلق الوجه ، لئِن القول ، وفي صفات النبي صلى الله عليه وآله : « ليس بفظ ولا صخاب » .

قوله : « في الزلازل وقور » ؛ أي لا تحركه الخطوب الطارقة ، ويقال : إنَّ علي بن الحسين عليه السلام كان يصلي ، فوقع عليه حية ، فلم يتحرك لها ، ثم انسابت بين قدميه فما حرك إحداها عن مكانه ، ولا تغيّر لونه .

قوله : « لا يحيفُ على من يبغيض » ، هذا من الأخلاق الشريفة النبوية ، وفي كلام أبي بكر في صفات من يصلح للإمامة : إن رضى لم يدخله رضاه في باطل ، وإن غضب لم يخرج جة غضبه عن الحق .

قوله : « يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه » ؛ لأنه إن أنكر ثم شهد عليه فقد ثبت كذبه ، وإن سكت ثم شهد عليه فقد أقام نفسه في مقام الريبة .

قوله : « ولا يَنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ » ؛ هذا من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾^(١) .

قوله : « ولا يَضَارُّ بِالْجَارِ » ، في الحديث المرفوع : « أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أن يورثه » .

قوله : « ولا يَشْتُمُ بِالمَصَائِبِ » ؛ نظير هذا قول الشاعر :

فَلَسْتُ تَرَاهُ شَامِتًا بِمَصِيبَةٍ وَلَا جَزَعًا مِنْ طَارِقِ الْخُدَّاثِ

قوله : « إن صمت لم يغمه صمته » ؛ أي لا يحزن لفوات الكلام ، لأنه يرى الصمت مغما لا مغرما .

قوله : « وإن ضحك لم يعلُ صوته » ؛ هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكرهه التَّبَسُّمُ ، وقد يفرُّ أحيانا ، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرَةِ .

قوله : « وإن بغى عليه صبر » ؛ هذا من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾^(٢) .

قوله : « نفسه منه في عناء لأنه يتعبها بالعبادة ، والناس لا يلقون منه عَمَتًا ولا أذى » فإلهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه .

قوله : « فصعق هام » ، أغشى عليه ومات ، قال الله تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٣) .

(١) سورة الحجرات ١١

(٢) سورة الحجج ٦٠

(٣) سورة الزمر ٦٨

[ذكر بعض أحوال العارفين]

واعلم أن الوجد أمرٌ شريف ، قد اختلف الناس ^(١) فيه ، فقالت الحكماء فيه أقوالاً ، وقالت الصوفية فيه أقوالاً ؛ أما الحكماء فقالوا : الوجد ^(٢) هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة ، إذا كان قد وردَ عليها واردٌ مُشوّق . وقال بعضهم : الوجد هو اتصال النفس بمبادئها المجردة عند سماع ما يقتضى ذلك الاتصال .

وأما الصوفية فقد قال بعضهم : الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة المحبوب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السرّ ؛ وهو فناؤك من حيث أنت أنت . وقال بعضهم : الوجد سرّ الله عند العارفين ، ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ .

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت ^(٣) العبارة ، وقد مات كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ ، أو صفة ^(٤) مطرب ، والأخبار في هذا الباب كثيرة جداً ، وقد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك فجأة .

قوله : « كانت نفسه فيها » ، أى مات . ونفث الشيطان على لسانك ، أى تكلم بلسانك ، وأصله النفخ بالفم ، وهو أقل من التفل ؛ وإنما نهى أمير المؤمنين القائل : « فهلاً أنت يا أمير المؤمنين ! » لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض ، وذلك أنه لا يلزم من موت العامى عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه ، لأنّ انفعال العامى ذى الاستعداد التام للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام

(١) د : « قدامى الناس » (٢) ساقطة من ب (٣) الأصول : اختل .

(٤) صفة مطرب من صفقت المود ؛ إذا حركت أوتاره فاصطفق (اللسان) .

نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأنّ نفس العارف قوية جدًّا ، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجر .

فإن قلت : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غيرُ هذا الجواب !
قلتُ : صدقت ، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون ، وتصلُ أفهامهم إليه ، فخرج معه إلى حديث الآجال ، وأنها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مُسكِتٍ ؛ وهو مع إسكاته الخضم حقٌّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب ، ويقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السداد وصحة القول .

الأفضل :

ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَزَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَنَسَأَ لَهُ لِمَنْتَهُ تَمَامًا ، وَحَبَلَهُ اعْتِصَامًا .

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غَضَّةٍ ، وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنُونَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ ، وَخَلَعَتْ عَلَيْهِ ^(١) الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا ، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونُ رَوَاحِلِهَا ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا ، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ ، يَتَكَوَّنُونَ أَلْوَانًا ، وَيَفْتَنُونَ افْتِنَانًا ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ .

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ . يَمْسُونَ الْخَفَاءَ ، وَيَدِبُونَ الضَّرَاءَ ، وَصَفْهُمُ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ ؛ حَسَدَةُ الرَّخَاءِ ، وَمُؤْكَدُو الْبَلَاءِ ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ . لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ .

يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ ؛ إِنْ سَأَلُوا الْخَفُوءَ ، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوءًا ، وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوءًا .

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا ، وَلِكُلِّ
بَابٍ مِفْتَاحًا ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا ، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ ،
وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ ؛ يَقُولُونَ فَيُشَبَّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيَمُوتُ هُونًا . قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ،
وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ ؛ فَهُمْ لُئِمَةُ الشَّيْطَانِ ، وَحِمَّةُ النَّيِّرَانِ : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(١) .

الشَّيْخُ :

الضمير في « له » وهو الهاء راجعٌ إلى « ما » التي بمعنى « الذي » ، وقيل : بل هو
راجع إلى الله سبحانه ، كأنه قال : « نحمده على ما وفق من طاعته » ، والصحيح هو الأول ،
لأنَّ « له » في الفقرة الأولى بإزاء « عنه » في الفقرة الثانية . والهاء في « عنه » ليست عائدة إلى
« الله » . وذاد : طرد ، والمصدر الذِّيَادُ .

وخاض كلَّ غَمْرَةٍ ، مثل قولك : ارتكبت كلَّ مهلكة ، وتقعمت كلَّ هول . والغَمْرَةُ :
ما ازدحم وكثر من الماء ، وكذلك من الناس ، والجمع غَمَارٌ .
والغُصَّةُ : الشَّجَا ، والجمع غُصَصٌ .
وتَلَوْنَ له الأدْنُونَ : تغيَّر عليه أقاربه ألوانًا .
وتألَّب عليه الأقصُونَ : تجمَّع عليه الأبعدون عنه نسبًا .

وخلعت إليه العرب أعنتها ، مثل ، معناه أوجفوا إليه مسرعين لمحاربتة ، لأنَّ الخيل
إذا خلعت أعنتها كان أسرع لجريها .

وضربتْ إلى محاربتة بطون رواحِلِها ، كناية عن إسراع العرب نحوه للحرب ؛

لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كان أوحى لها ؛ ومراده أنهم كانوا فرسانا وركبانا .

قوله : « حتى أنزلت بساحته عداوتها » ؛ أى حربها ، فعبر عنها بالعداوة ؛ لأنّ العداوة سبب الحرب ، فعبر بالسبب عن المسبب ؛ كما قالوا : مازلنا نطأ السماء حتى أتيناك ؛ يعنون الماء ، لما كان اعتقادهم أنّ السماء سبب الماء .

وأسحق المزار ، أبعدّه ؛ مكان سحيق ، أى بعيد ، والسحق بضم السين : البعد ، يقال : « سحقاً له » ؛ ويجوز ضم الحاء ، كما قالوا : عُسر وعُسّر ، وسحق الشيء ، بالضم ، أى بعد ، وأسحقه الله أبعدّه . والمزار : المكان الذى يُزار منه ، أو المكان الذى يزار فيه ، والمراد هاهنا هو الأوّل . ومن قرأ كتب السيرة علم ملاقى رسول الله صلى الله عليه وآله فى ذات الله سبحانه من المشقة ، واستهزاء قريش به فى أوّل الدعوة ، ورميهم إياه بالحجارة ، حتى أدموا عقيبته ، وصياح الصبيان به ، وفرت الكرش على رأسه ، وقتل الثوب فى عنقه وحضره وحضر أهله فى شعب بنى هاشم سنين عدّة ، محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناحتهم وكلامهم ، حتى كادوا يموتون جوعاً ، لولا أنّ بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب غيره ، فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً ، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق فى الشمس ، وطردهم إياهم عن شعاب مكة ، حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشة ، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف ، وتارة ببني عامر ، وتارة بربيعة الفرس ، وبغيرهم . ثم أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً ، حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج ، تاركاً أهله وأولاده ، وما حوته يده ، ناجياً بحشاشة نفسه ، حتى وصل إلى المدينة ؛ فناصره الحرب ورموه بالمناسر^(١) والكتائب ، وضربوا إليه آباط الإبل ،

(١) المنسر : قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكبير .

ولم يزل منهم فى عناء شديد ، وحروب متصلة ، حتى أكرمهم الله تعالى ونصره ،
وأيد دينه وأظهره . ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال
ما يطول شرحه .

سمى النفاق نفاقاً من النفاق ، وهى بيت اليربوع ، له بابان يدخل من أحدهما ،
ويخرج من الآخر ، وكذلك الذى يظهر ديناً ويبطن غيره .

والضالون المضلون : الذى يضلون أنفسهم ويضلون غيرهم ؛ وكذلك الزالون المزنون ؛
زل فلان عن الأمر ، أى أخطأه ، وأزله غيره .

قوله : « يفتنون » يتشعبون فنونا ، أى ضربوا .

ويعمدونكم ، أى يهدونكم ويفدحونكم ؛ يقال : عمده المرض يعمده ، أى هده ،
ومنه قولهم للعاشق : عميد القلب .

قوله : « بعاد » ، أى بأمر فادح وخطب مؤلم ، وأصل العمد انشداخ سنام البعير ،
وماضيه : عميد السنام بالكسر ، عمدا فهو عميد .

ويرصدونكم : يعدون المكائد لكم ، أرصدت أعددت ، ومنه فى الحديث : « إلا
أن أرصدته لدين على » .

وقلب دو ، بالتخفيف أى فاسد ، من داء أصابه ، وامرأة دوية ؛ فإذا قلت : رجل
دوى ، بالفتح ، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة ، لأنه مصدر فى الأصل ، ومن روى :
« دوية » بالتشديد ، على بعده ، وإنما شدده ليقابل « نقيّة » .

والصفاح : جمع صفحة الوجه وهى ظاهره ، يقول : باطنهم عليل ، وظاهرهم صحيح .
يمشون الخفاء ، أى فى الخفاء ، ثم حذف الجار فنصب ، وكذلك يدبون الضراء ،

والضَّرَاءُ : شجر الوادى الملتف ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه ، يقال : هو يدبُّ له الضَّرَاءُ ويمشى له الخمر ، وهو جَرَفُ الوادى .

ثم قال : « وصفهم داء ، وقولهم شفاء ، وفعلهم الداء العياء » ، أى أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين ، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين . والداء العياء : الذى يُعْبَى الأساة .

ثم قال : « حَسَدَةُ الرِخَاءِ » يحسدون عَلَى النِّعم : « ومؤكدو البلاء » ، إذا وقع واحد من الناس فى بلاء أَكْدُوهُ عَلَيْهِ بالسَّعَايات والنَّمائم ، وإغراء السَّاطِئَان به ، ولقد أحسن أبو الطيب فى قوله يذمُّ البشر :

وَكَأَنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بَرِيبَ الدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مَنْ أَعَانَا ^(١)
كُلَّمَا أَتَيْتُ الزَّمَانَ قَنَآةً رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَآةِ سِنَانَا
« ومقنطو الرجاء » ، أى أهل الرجاء ، أى يبدلون بشورهم وأذاهم رجاء
الراجى قنوطا .

قوله : « وإلى كلِّ قلب شفيع » ، يصف خلائد ألسنتهم وشدة ملقهم ، فقد استحوذوا عَلَى قلوب الناس بالرياء والتصنع .

قوله : « ولكل شجوى دموع » ، الشجوى : الحزن ، أى يكون تباكياً وتعملاً لا حقاً ، عند أهل كلِّ حزن ومصاب .

يتقارضون الثناء ، أى يثنى زيد عَلَى عمرو ، ليثنى عمرو عليه فى ذلك المجلس ، أو يبلغه فيثنى عليه فى مجلس آخر ، مأخوذ من القرص .

ويتراقبون الجزاء : يرتقب كلِّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدحه لصاحبه جزاء منه ،

إِذَا بِالْمَالِ أَوْ بِأَمْرِ آخَرَ ، نَحْوُ ثَنَاءِ يَتْنَى عَلَيْهِ ، أَوْ شَفَاعَةِ يَشْفَعُ لَهُ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَالْإِلْحَافُ فِي السُّؤَالِ : الْاسْتِقْصَاءُ فِيهِ ، وَهُوَ مَذْمُومٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ الْإِلْحَافًا ﴾ (١) .

قوله : « وَإِنْ عَذَّلُوا كَشَفُوا » ، أَيْ إِذَا عَذَّلَكَ أَحَدُهُمْ كَشَفَ عِيوبَكَ فِي ذَلِكَ اللَّوْمِ
وَالْعَذَلِ ، وَجِبَّتْ بِهَا ، وَرَبَّمَا لَا يَسْتَحْيُ أَنْ يَذْكُرَهَا لَكَ بِمَحْضَرٍ مِمَّنْ لَا تَحِبُّ ذِكْرَهَا
بِمَحْضَرَتِهِ ، وَلَيْسُوا كَالنَّاصِحِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، الَّذِينَ يَعْرِضُونَ عِنْدَ الْعِتَابِ بِالذَّنْبِ تَعْرِضًا لَطِيفًا
لِيَقْلَعَ الْإِنْسَانَ عَنْهُ .

وَإِنْ حَكَمُوا أُسْرِفُوا ، إِذَا سَأَلَكَ أَحَدُهُمْ فَنَوَضَّتَهُ فِي مَالِكَ أُسْرِفَ وَلَمْ يَقْنَعْ بِشَيْءٍ ،
وَأَحَبُّ الْاسْتِنْصَالِ .

قَدْ أَعْدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلًا ؛ يَقِيمُونَ الْبَاطِلَ فِي مَعَارِضَةِ الْحَقِّ ، وَالشَّبْهَةُ فِي مَصَادِمَةِ الْحَقِّ .
وَلِكُلِّ دَلِيلٍ قَائِمٍ وَقَوْلٍ صَحِيحٍ ثَابِتٌ ، احْتِجَاجًا مَائِلًا مُضَادًّا لِذَلِكَ الدَّلِيلِ ،
وَكَلَامًا مُضْطَرِبًا لِذَلِكَ الْقَوْلِ .

وَلِكُلِّ بَابٍ مَفْتَاخٍ ؛ أَيْ أَلْسِنَتِهِمْ ذَلِيقَةٌ قَادِرَةٌ عَلَى فَتْحِ الْمَغْلَقَاتِ ، لُطْفٌ تَوْصِلُهُمْ ،
وظَرْفٌ مَنْطِقُهُمْ .

وَلِكُلِّ لَيْلٍ مَصْبَاحٍ ؛ أَيْ كُلِّ أَمْرٍ مُظْلَمٍ فَقَدْ أَعْدُّوا لَهُ كَلَامًا يَنْبِرُهُ وَيُضِيئُهُ ، وَيَجْعَلُهُ
كَالْمَصْبَاحِ الطَّارِدِ لِلَّيْلِ .

وَيَتَوَصَّلُونَ إِلَى مَطَامِعِهِمْ بِإِظْهَارِ الْيَأْسِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَبِالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ؛ وَفِي
الْأَثَرِ : شَرِّكُمْ مَنْ أَخَذَ الدُّنْيَا بِالْأَيْدِي .

ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ لِيَقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ ، أَيْ لَتَتَنَفَّقَ سِلَعَتُهُمْ .

والأعلاق : جمع علق ، وهو السلعة الثمينة .
يقولون فيشبهون ، يوقعون الشُّبه في القلوب .
ويصفون فيموهون ؛ التمويه التزيين ، وأصله أن تظلي الحديد بذهب يحسنها .
قد هيئوا الطريق ، أى الطريق الباطل قد هيئوها لتُسلَّك بتمويهاتهم .
وأضلعوا المضيق : أمالوه ، وجعلوه ضلعاً ، أى معوجاً ، أى جعلوا المسلك الضيق
معوجاً بكلامهم وتليبسهم ، فإذا أسلكوه إنساناً اعوج لاعوجاجه .
واللَّمة : بالتخفيف : الجماعة ، واللَّمة بالتخفيف أيضاً : السَّم ، وكفى عن إحراق النار
باللَّمة للمشابهة في المضرة .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَّالِ كِبَرِيَّائِهِ ؛ مَا حَيَّرَ مُقَلَّ الْعُقُولِ
مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةً ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةً ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ،
وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ ؛ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ !

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا ؛ عِلْمَ مَبْلَغِ نِعْمِهِ
عَلَيْكُمْ ، وَأَخَصَّى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ؛ فَاسْتَفْتِحُوهُ وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ
وَاسْتَمْنِحُوهُ ؛ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلَا أَغْلَقَ عَنْكُمْ دُونُهُ بَابٌ .

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ؛ وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍ ، لَا يَنْلِمُهُ
الْعَطَاءُ ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحَبَاءُ ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ ، وَلَا يَلْوِيهِ
شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلَا يُلْهِبِيهِ صَوْتُ عَنْ صَوْتٍ ، وَلَا تَحْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَلْبٍ ،
وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلَا تُؤْلِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ ، وَلَا يُجْنِئُهُ الْبُطُونُ عَنْ
الظُّهُورِ ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنْ الْبُطُونِ .

قَرُبَ فَنَائِي ، وَعَلَا فِدَانَا ، وَظَهَرَ فَبَطْنُ ، وَبَطَنَ فَعَمَنَ ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنَّ .

لَمْ يَذَرِ الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ .

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقَوَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ،
وَأَعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا ، تَوَلُّ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاوِلِ الْحَرْزِ ،
وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ؛ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومُ
الْعِشَارِ ، وَيَنْفَخُ فِي الصُّورِ ؛ فَزَهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ؛ وَتَبْكَكُمْ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُ
الشَّوَامِخُ ، وَالضُّمُ الرِّوَاسِخُ ؛ فَيَصِيرُ صُلْدُهَا سَرَابًا رَقْرَاقًا ، وَمَعْبَدُهَا قَاعًا سَمَلَقًا ؛
فَلَا شَفِيعَ يُشَفِّعُ ، وَلَا حَمِيمَ يَنْفَعُ ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ .

الشرح :

أظهر سبحانه من آثار سلطانه ، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض ، كالعميل
الذى يشتمل على المائل ، وفلك التدوير وغيرها ؛ ونحو خلق الإنسان وما تدل
كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه ؛ ونحو خلق النبات والمعادن ، وترتيب العناصر
وعلاماتها ، والآثار العلوية المتجددة ، حسب تجدد أسبابها ، ما حير عقول هؤلاء ، وأشعر
بأنها إذا لم تحيط بتفاصيل تلك الحكم مع أنها مصنوعة^(١) ، فالأولى ألا تحيط بالصانع الذى
هو برى عن المادة وعلائق الحس .

والمقل : جمع مقلة ؛ وهى شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ؛ ومقلت الشيء :
نظرت إليه بمقلتي ؛ وأضاف المقل إلى « العقول » مجازاً ومراده البصائر .

وردع : زجر ودفع . وهامم النفوس : أفكارها وما همهم به عند التمثيل والروية فى
الأمر ، وأصل الهمهمة ، صُوَيْتٌ يَسْمَعُ ، لا يفهم محضه .

(١) د : « موضوعة » .

والعرفان : المعرفة ، وكُنْه الشيء : نهايته وأقصاه . والإيقان : العلم القطعي ، والإذعان :
الانقياد ، والأعلام : المنار والجبال يستدل بها في الطرقات .

والمناهج : السُّبُل الواضحة ، والطامسة كالدارسة . وصدع بالحق : بين ، وأصله الشق
يظهر ماتحته . ويقال : نصحت لزيد ، وهو أفصح من قولك : نصحت زيدا .

والقصد : العدل . والعَبَث : ما لا غرض فيه ، أو ما ليس فيه غرض مثله ، والهمل :
الإبل بلا راع ؛ وقد أهملت الإبل : أرسلتها سدى .

قوله : « علم مبلغ نعمه عليكم ، وأحصى إحسانه إليكم » أى هو عالم بكمية إنعامه
عليكم علما مفصلاً ؛ وكلُّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدَّ نعمته عليه عند
عصيانه له وجرأته عليه ، بخلاف مَنْ يجهل قدر نعمته على الغير : فإنه لا يشتدَّ غضبه ، لأنّه
لا يعلم قدر نعمته المكفورة .

قوله : « فاستفتحوه » ، أى اطلبوا منه الفتح عليكم والنصر لكم .
واستنجحوه : اطلبوا منه النجاح والظفر .

واطلبوا إليه ، أى اسألوه ، يقال : طلبت إلى زيد كذا وفي كذا .

واستمحوه ، بكسر النون : اطلبوا منه المنحة ، وهى العطية .

ويروى : « واستمحيوه » بالياء ، استمحت الرجل : طلبت عطاءه ، ومحت بالرجل :
أعطيته .

ثم ذكر عليه السلام أنّه لا حجاب يمنع عنه ، ولادونه باب يُغلق ، وأنّه بكلّ مكان
موجود ، وفي كلّ حين وأوان ، والمراد بوجوده فى كلّ مكان إحاطة علمه ؛ وهو معنى قوله

تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ ^(١) ، وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ ^(٢) .

قوله : « لا يثله العطاء » بالكسر : لا ينقص قدرته .

والجباء : النّوال . ولا يستنفده ، أى لا يفنيه .

ولا يستقصيه : لا يباغ الجود أقصى مقدوره وإن عظم الجود ، لأنّه قادر على ما لا نهاية له .

ولا يلويه شخص عن شخص : لا يوجب ما يفعله لشخص أومع شخص إغراضاً وذهولاً عن شخص آخر ؛ بل هو عالم بالجميع ، لا يشغله شأن عن شأن .

لوى الرجل وجهه ، أى أعرض وانحرف ، ومثل هذا أراد بقوله : « ولا يلهيه صوت عن صوت » ، ألهاه كذا ، أى شغله .

ولا تحجزه - بالضم - هبة عن سلب ؛ أى لا تمنعه ، أى ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا ؛ فإنّ الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو ، حالماً يكون مهتماً بتلك العطيّة ، لأنّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر .

ومثل هذا قوله : « ولا يشغله غضب عن رحمة » ، ولا توليه رحمة عن عقاب » ، أى لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولها ، وهو التحير والتردد ، وتصرفه عن عقاب المستحق ؛ وذلك لأنّ الواحد منا إذا رحّم إنساناً حدث عنده رقّة ، خصوصاً إذا توالى منه الرحمة لقوم متعدّدين ، فإنه تصير الرحمة كالملكّة عنده ، فلا يطيق مع تلك الحال أن ينتقم ، والبارى تعالى بخلاف ذلك ؛ لأنه ليس بذى مزاج سبحانه .

ولا يحنّه البطون عن الظهور ، ولا يقطعه الظهور عن البطون ؛ هذه كلّها مصادر ، بطن

(١) سورة المجادلة ٧

(٢) سورة الحديد ٤

بُطُونَا أَيْ خَفِيَ ، وَظَهَرَ ظُهُورًا ، أَيْ تَجَلَّى ، يَقُولُ : لَا يَمْنَعُهُ خَفَاؤُهُ عَنِ الْعُقُولِ أَنْ تَدْرَكَهُ عِنْدَ ظُهُورِهِ بِأَفْعَالِهِ لَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا بِذَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ لَا يَقْطَعُهُ ظُهُورُهُ بِأَفْعَالِهِ عَنْ أَنْ يَخْفَى كُنْهَهُ عَنِ إِبْصَارِ الْعُقُولِ وَإِدْرَاكِهَا لَهُ . وَيُقَالُ : اجْتَنَنْتَ كِذَا ، أَيْ سَتَرْتَهُ ، وَمِنْهُ الْجَنِينُ ، وَالْجَنَّةُ لِلتَّرْسِ ، وَسَمَّى الْجَنُّ جَنًّا لِاسْتِتَارِهِمْ .

ثُمَّ زَادَ الْمَعْنَى تَأْكِيدًا فَقَالَ : « قُرْبُ فَنَائِي » ؛ أَيْ قَرَبَ فَعَلًا فَنَائِي ذَاتًا ، أَيْ أَفْعَالَهُ قَدْ تَعَلَّمَ ؛ وَلَكِنْ ذَاتَهُ لَا تَعَلَّمَ .

ثُمَّ قَالَ : « وَعَلَا فِدَانَا » ؛ أَيْ لَمَّا عَلَا عَنْ أَنْ تَحِيطَ بِهِ الْعُقُولُ عَرَفْتَهُ الْعُقُولُ ، لِأَنَّهَا عَرَفَتْ ذَاتَهُ ، لَكِنْ عَرَفَتْ أَنَّهُ شَيْءٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يَعْرِفَ ، وَذَلِكَ خَاصَّتَهُ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ مَاهِيَّتَهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَتَصَوَّرَ لِلْعَقْلِ لَافِي الدُّنْيَا وَلَافِي الْآخِرَةِ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ .

ثُمَّ أَكَّدَ الْمَعْنَى بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، قَالَ : « وَظَهَرَ فَبِطْنٍ ، وَبَطْنُ فَعَلَانٍ » ، وَهَذَا مِثْلُ الْأَوَّلِ . وَدَانَ : غَلَبَ وَقَهَرَ ، وَلَمْ يُدَنَّ : لَمْ يَقْهَرْ وَلَمْ يَغْلِبْ .

ثُمَّ قَالَ : « لَمْ يَذَرَأْ الْخَلْقُ بِاحْتِيَالٍ » ، أَيْ لَمْ يَخْلُقْهُمْ بِحِيلَةٍ تَوْصِّلُ بِهَا إِلَى إِيجَادِهِمْ ، بَلْ أَوْجَدَهُمْ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ بِالْمَصْلَحَةِ خَلَقًا مُخْتَرَعًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَلَا وَاسِطَةٍ .

قَالَ : « وَلَا اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ » ، أَيْ لِإِعْيَاءٍ ، أَيْ لَمْ يَأْمُرِ الْمُسْكَلِّفِينَ بِالْجِهَادِ لِحَاجَتِهِ فِي قَهْرِ أَعْدَائِهِ ، وَجَاوَدَى نِعْمَتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَيْسَ بِكَالٍ وَلَا عَاجِزٍ عَنْ إِهْلَاكِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ ذَلِكَ . قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ ^(١) أَيْ لِبَطْلِ التَّكْلِيفِ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التَّقْوَى قِيَامُ الطَّاعَاتِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا ، وَزِمَامُ الْعِبَادَاتِ لِأَنَّهَا تَمْسِكُ وَتَحْصِنُ ؛ كَزِمَامِ النَّاقَةِ الْمَنَاعِ لَهَا مِنَ الْخَبْطِ .

والوثائق : جمع وثيقة ، وهى مايوثق به . وحقائقها : جمع حقيقة ؛ وهى الراية ؛ يقال : فلان حامى الحقيقة .

قوله : « تَوَلَّ » بالجزم ، لأنه جواب الأمر ؛ أى ترجع .

والأكنان : جمع كِنّ وهو السّتر . والدّعة : الراحة . والسّعة : الجِدّة . والمعقل : جمع مَعْقِل ، وهو الملجأ . والحِرز : الحفظ . وتشخص الأبصار : تبقى مفتوحة لا تطرف .
والأقطار : الجوانب . والصّروم : جمع صُرْم وصِرْمَة ، وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .

والعِشار : النّوق أنى عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم الخاض ؛ ولا يزال ذلك اسمها حتى تَضَع ، والواحدة عُشراء ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ^(١) ، أى تركت مسيّبة مهملة لا يلتفت إليها أربابها ، ولا يجلّبونها لاشتغالهم بأنفسهم .

وتزهق كلّ مهجة : تهلك . وتبكم كلّ لهجة ، أى تحرس ، رجل أبكم وبكيم ، والماضى بكم بالكسر .

والشّمّ الشوامخ : الجبال العالية ، وذُلّها : تدكّدها ؛ وهى أيضا الصّمّ الرواسخ ؛ فيصير صلبها - وهو الصلب الشديد انصلا به - سراباً ، وهو ما يتراءى فى النهار فيظنّ ماء .
والرّقراق : الخفيف . ومعهدّها : ماجعل منها منزلاً للناس . قاعا : أرضاً خالية .
والسمّلق : الصّفصف المستوى ، ليس بعضه أرفع وبعضه أخفض .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

بَعَثَهُ حِينَ لَا عِلْمَ قَائِمٌ ، وَلَا مَنَارٌ سَاطِعٌ ، وَلَا مَنَهْجٌ وَاضِحٌ .
 أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوصٍ ، وَحَمَلَةٌ
 تَنْفِيصٍ ، سَاكِنُهَا ظَالِمٌ ، وَقَاطِنُهَا بَائِسٌ .
 تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيِّدَانَ السَّفِينَةِ ، تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجْجِ الْبَحَارِ ، فَمِنْهُمْ الْفَرَقُ
 الْوَبِقُ ، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بَطُونِ الْأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى
 أَهْوَالِهَا ، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكٍ .
 عِبَادَ اللَّهِ ؛ الْآنَ فَاعْلَمُوا ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالْأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَعْضَاءُ لَدَنَةٌ ،
 وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ ؛ قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ ؛ فَحَقِّقُوا
 عَلَيْكُمْ نَزْوَلَهُ ، وَلَا تَذْتَضِرُّوا قُدُومَهُ .

الشرح :

يقول : بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وآله لما لم يبق علمٌ يهتدى به المكلفون ؛
 لأنه كان زمان الفترة وتبدل المصلحة ، واقتضاء وجوب اللطف عليه سبحانه تجديداً
 لبعثته ؛ ليعرف المبعوث المكلفين الأفعال التي تقر بهم من فعل الواجبات العقلية ، وتبعدهم
 عن المقبّحات الفعلية .

والمنار الساطع : المرتفع . سطع الصُّبْحُ سطوعاً : ارتفع .
 ودارُ شُخْوص : دار رحلة ، شَخَصَ عن البلد : رحل عنه .
 والظاعن : المسافر . والقاطن : المقيم . والبائن : البعيد . يقول : ساكن الدنيا ليس
 بساكن على الحقيقة ، بل هو ظاعن في المعنى وإن كان في الصورة ساكناً ، والمقيم بها
 مفارق ؛ وإن ظَنَّ أنه مقيم .

وتميد بأهلها : تتحرك وتميل . والميدان : حركة واضطراب .
 وتصفّقها العواصف : تضربها بشدة ، ضرباً بعد ضرب . والعواصف : الرياح القوية .
 اللُّجج : جمع لُجّة ، وهي معظم البحر .

الوَبَق : الهالك ، وَبَقَ الرجل بالفتح ، يَبِقُ وبوقاً : هلك ، والموَبَق منه كالموعد
 «مفعِل» من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾^(١) ؛ وفيه لغة أخرى :
 وَبَقَ الرجل يَوْبِقُ وبِقاً ، وفيه لغة ثالثة : وَبَقَ الرجل ، بالكسر يَبِقُ بالكسر أيضاً ، وأوبقه
 الله ، أى أهلكه .

وتحفزد الرياح : تدفعه . ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلاً براكبي السفينة في البحر ،
 وقد مادت بهم ، فمنهم الهالك على الفور ، ومنهم مَنْ لا يتعجل هلاكه ، وتحمله الرياح
 ساعة أو ساعات ، ثم ماله إلى الهلاك أيضاً .

ثم أمر عليه السلام بالعمل وقت الإمكان قبل ألا يمكن العمل ، فكفى عن ذلك
 بقوله : والألسن منطلقة ، لأن المحتضر يُعقل لسانه ، والأبدان صحيحة ، لأن
 المحتضر سقيم البدن . والأعضاء لدنة ، أى لينة ، أى قبل الشيخوخة والهرم ويس

(١) سورة الكهف ٥٢

الأعضاء والأعصاب . والمنقلب فسيح ، والمجال عريض ، أى أيام الشبيبة وفى الوقت والأجل مهلة ، قبل أن يضيق الوقت عليكم .

قبل إرهاق الفوت ، أى قبل أن يجعلكم الفوت - وهو فوات الأمر وتعذر استدراكه عليكم - مرهقين ، والمرهق : الذى أدرك ليقتل ، قال الكميت :

تَنْدَى أَكْفُهُمْ وَفِي أَبْيَاتِهِمْ ثِقَةُ الْمُجَاوِرِ وَالْمُضَافِ الْمُرْهَقِ^(١)

قوله : « فحققوا عليكم نزوله ، ولا تنتظروا قدومه » ، أى اعملوا عمل من يشاهد الموت حقيقة ، لا عمل من ينتظره انتظاراً ويطاول الأوقات مطاولة ، فإن التسويف داعية التقصير .

(١) الصحاح واللسان (رهق) .

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ رَأَسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي ، فَأَمَرَتْهَا عَلَى وَجْهِهِ . وَلَقَدْ وَلَّيْتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَأْتُ كُفَّيْ أَعْوَانِي ؛ فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ : مَلَأْتُ يَهْبِطُ ، وَمَلَأْتُ يَعْرُجُ ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَةً مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا !

فَانْقُدُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ .
أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

المشروح :

يمكن أن يعنى بالمستحفظين الخلفاء الذين تقدّموا ؛ لأنهم الذين استحفّظوا الإسلام ؛ أى جعلوا حافظين له ، وحارسين لشريعته ولخوزته ، ويجوز أن يعنى به العلماء والفضلاء من الصحابة ، لأنهم استحفّظوا الكتاب ، أى كلفوا حفظه وحراسته .

والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام : « لم أرد على الله ، ولا على رسوله ساعة قط » إلى أمور وقعت من غيره ، كما جرى يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح ؛ فإن بعض الصحابة^(١) أنكر ذلك ، وقال : يا رسول الله ، ألسنا المسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أوليسوا الكافرين ؟ قال : بلى ، قال : فكيف نعطي الدنية في ديننا ! فقال صلى الله عليه وآله : « إنما أعمل بما أومر به » فقال لقوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة ! وهانحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينا الدنية في ديننا ، والله لو أجد أعواناً لم أعط الدنية أبداً ، فقال أبو بكر لهذا القائل : ويحك ! الزم غرز^(٢) ، فوالله إنه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وآله ، وإن الله لا يضيعه .

ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخلها هذا العام ؟ قال : لا ، قال : فسيدخلها . فلما فتح النبي صلى الله عليه وآله مكة ، وأخذ مفاتيح الكعبة ، دعاه فقال : هذا الذي وعدتم به .

واعلم أن هذا الخبر صحيح لا ريب فيه ، والناس كلهم رووه ، وليس عندي بقبیح ولا مستهجن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وآله عما سأل عنه على سبيل الاسترشاد ، والتماساً لطمأنينة النفس ، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾^(٣) . وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وآله في الأمور ، وتسأله عما يستبهم عليها وتقول له : أهذا منك أم من الله ؟ وقال له السعدان^(٤) رحمهما الله يوم الخندق ، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعض تمر المدينة : أهذا من الله أم رأى رأيت من نفسك ؟ قال : بل من نفسي ؛ قالوا : لا ، والله لا نعطيهم منها تمرّة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا !

(١) هو عمر بن الخطاب ، وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٣١ (طبعة الحلبي) .

(٢) الغرز في الأصل : ركاب كور الجمل ، والكلام هنا على المجاز ، أى أتبع قوله وفعله .

(٣) سورة البقرة ١٢٦

(٤) هما سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد الأنصاريان .

وقالت الأنصار له يوم بدر ، وقد نزل بمنزل لم يستصلحوه : أنزلت هذا المنزل عن رأيٍ رأيت أم بوحى أوحى إليك ؟ قال : بل عن رأيٍ رأيته ، قالوا : إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا .

وأما قول أبي بكر له : « الزم غرزه ، فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم » فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه ، ولا يدل ذلك على الشك ، فقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ ^(١) ؛ وكل أحد لا يستغنى عن زيادة اليقين والطمأنينة ، وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصة ، كقوله : دغني أضرب عنق أبي سفيان . وقوله : دغني أضرب عنق عبد الله بن أبي ، وقوله : دغني أضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة . ونهى النبي صلى الله عليه وآله له عن التسرع إلى ذلك ، وجذبه ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله حين قام على جنازة ابن سؤل يصلي . وقوله : كيف تستغفر لرأس المنافقين ! وليس في ذلك جميعه ما يدل على وقوع القبيح منه ، وإنما الرجل كان مطبوعاً على الشدة والشراسة والخشونة ، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجية التي طبع عليها . وعلى أى حال كان ، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً .

قوله عليه السلام : « ولقد واسيته بنفسى » ؛ يقال : واسيته وآسيته ، وبالهمزة أفصح ، وهذا مما اختص عليه السلام بفضيلته غير مدافع ، ثبت معه يوم أحد وفرّ الناس ، وثبت معه يوم حنين وفرّ الناس ، وثبت تحت رايته يوم خيبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله .

وروى المحدثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما ارتث^(١) يوم أُحُد، قال الناس: قتل محمد، رآته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلا أنه حيٌّ، فصمدت له. فقال لعلّ عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى، فقال: يا لعلّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة، فكَذلك، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمد، إنّ هذه لَمَواساة، فقلت: وما يمنعني وهو منّي وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكم.

وروى المحدثون أيضاً أنّ المسلمين سمِعُوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادى: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا لعلّ»، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حضره: «ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل».

وأما يومُ حنين فثبت معه في نفرٍ يسير من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامى عنه، وقتل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابت إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبر فقصته مشهورة.

قوله عليه السلام: «نجدّة أكرمني الله سبحانه بها»، النجدّة: الشجاعة، وانتصابها هاهنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «لقد قبض وإنّ رأسه لعلّ صدري، ولقد سالتُ نفسه في كفيّ، فأمرتها على وجهي»، يقال: إنّ رسول

(١) ارتث: حمل من المعركة جريحاً وفيه رمق

الله صلى الله عليه وآله قاء دماً يسيراً وقت موته ، وإنّ عليّاً عليه السلام مسحَ بذلك الدّم وجهه .

وقد روى أنّ أبا طيبة الحجام شرب دمه عليه السلام وهو حيّ ، فقال له : إذن لا يجمع بطنك .

قوله عليه السلام : « فضجت الدار والأفنية » ، أى النازلون فى الدار من الملائكة ؛ أى ارتفع ضجيجهم ولجئهم ، يعنى أنّى سمعت ذلك ولم يسمعه غيرى من أهل الدار .
والملاّ : الجماعة يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم . والعروج : الصعود . والهيمنة : الصوت الخفى . والضريح : الشق فى القبر .

[ذكر خبر موت الرسول عليه السلام]

وقد روى من قصة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه عرضت له الشكاة التى عرضت ، فى أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة ، فجهّز جيش أسامة بن زيد ، فأمرهم بالمسير إلى البلقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليهما السلام من الروم ، وخرج فى تلك الليلة إلى البقيع ، وقال : إني قد أمرت بالاستغفار عليهم ، فقال عليه السلام : السلام عليكم يا أهل القبور ، ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع أولها آخرها . ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً ، ثم قال لأصحابه : إنّ جبريل كان يعارضنى القرآن فى كلّ عام مرّة ، وقد عارضنى به العام مرتين ، فلا أراه إلا لحضور أجلى . ثمّ انصرف إلى بيته ، فخطب الناس فى غدّه ، فقال^(١) : معاشر الناس ، قد حان منى خفوق من بين أظهركم ، فمن كان له عندى عِدّة ، فليأتنى أعطه إياها ، ومن كان له على دين ، فليأتنى أقضه . أيّها الناس ، إنّ الله ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتیه به خيراً ،

(١) ساقطة من ب .

أو يصرف عنه شراً إلا العمل ، ألا لا يدعين مدّع ولا يتمنين متمن . والذي بعثني بالحق لا ينجني إلا عملٌ مع رحمة ، ولو عصيت لهويت . اللهم قد بلغت .

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة ، ثم دخل بيت أم سلمة ، ثم انتقل إلى بيت عائشة فعلمه النساء والرجال ، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليهما السلام ، وأمّا الرجال فعلى عليه السلام والعبّاس والحسن والحسين عليهما السلام ، وكانا غلامين يومئذ ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم ، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مريضه ، فأول ذلك التنازع الراجع يوم قال صلى الله عليه وآله : « اتئوني بدواة وقرطاس » ؛ وتلا ذلك حديث التخلف عن جيش أسامة ، وقول عياش بن أبي ربيعة : أيولّى هذا الغلام على جلة المهاجرين والأنصار ! ثم اشتدّ به المرض ، وكان عند خفة مرضه يصلى بالناس بنفسه ، فلما اشتدّ به المرض ، أمر أبا بكر أن يصلى بالناس .

وقد اختلف في صلاته بهم ، فالشيعة تزعم أنه لم يصلّ بهم إلا صلاة واحدة ، وهى الصلاة التى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهاذى بين على عليه السلام والفضل ، فقام فى الحراب مقامه ، وتأخر أبو بكر .

والصحيح عندي - وهو الأكثر الأشهر - أنها لم تكن آخر صلاة^(١) فى حياته صلى الله عليه وآله بالناس جماعة ، وأنّ أبا بكر صلى بالناس بعد ذلك يومين ، ثم مات صلى الله عليه وآله ؛ فمن قائل يقول : إنه توفّى لليلتين بقيتا من صفر ، وهو القول الذى تقوله الشيعة ؛ والأكثرون أنه توفّى فى شهر ربيع الأول بعد مضيّ أيام منه .

وقد اختلفت الرواية فى موته ، فأنكر عمر ذلك ، وقال : إنه لم يمّت ، وإنه غاب وسيعود ، ففناه أبو بكر عن هذا القول ، وتلا عليه الآيات المتضمنة أنه سيموت ، فرجع إلى قوله .

(١) ب : « الصلاة » .

ثم اختلفوا في موضع دفنه ، فرأى قوم أن يدفنوه بمكة لأنها مسقط رأسه ، وقال من قال : بل بالمدينة : ندفنه بالبقيع عند شهداء أحد . ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبض فيه ، وصلوا عليه أرسالاً لا يؤتمهم أحد .

وقيل : إن علياً عليه السلام أشار بذلك فقبلوه .

وأنا أعجب من ذلك ؛ لأن الصلاة عليه كانت بعد بيعة أبي بكر ، فما الذي منع من أن يتقدم أبو بكر فيصلّي عليه إماماً !

وتنازعوا في تلحيده وتضريحه ، فأرسل العباس عمه إلى أبي عبيدة بن الجراح - وكان يحفر لأهل مكة ويضرح^(١) على عادتهم - رجلاً ، وأرسل على رجلاً إلى أبي طلحة الأنصاري - وكان يلحد لأهل المدينة على عادتهم - وقال اللهم اختر لنبيك ، فجاء أبو طلحة فلحد له ، وأدخل في اللحد .

وتنازعوا فيمن ينزل معه القبر ، فمنع على عليه السلام الناس أن ينزلوا معه ، وقال : لا ينزل قبره غيري وغير العباس ، ثم أذن في نزول الفضل وأسامة بن زيد مولاهم ، ثم ضجت الأنصار ، وسألت أن ينزل منها رجل في قبره ، فأنزلوا أوس بن خولى - وكان بدرياً .

فأما الغسل فإن علياً عليه السلام تولاه بيده ، وكان الفضل بن العباس يصب عليه الماء .

وروى المحدثون عن عليّ عليه السلام ، أنه قال : ما قلبت منه عضواً إلا وانقلب ، لا أجد له ثقلاً ، كأنّ معي من يساعدي عليه ، وما ذلك إلا الملائكة .

وأما حديث الهينة وسماع الصوت ، فقد رواه خلق كثير من المحدثين ، عن عليّ

(١) يضرح : أى يشق ويحفر له ضريحاً .

عليه السلام ، وتروى الشيعة أنّ عليا عليه السلام عَصَبَ عَيْنِي الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ ، حين صبّ عليه الماء ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك ، وقال : إنه لا يبصر عورتي أحدٌ غيرك إلا عَمِي .

قوله عليه السلام : « فمن ذا أحقّ به منّي حيًّا وميتًا ! » ، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور في « به » ، أى أى شخص أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّي ! ومرادُه من هذا الكلام ، أنّه أحقّ بالخلافة بعده وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا ، وليس يجوز أن يكونا حالين من الضمير المجرور في « منّي » لأنّه لا يحسن أن يقول : أنا أحقّ به إذا كنت حيًّا من كلّ أحد ، وأحقّ به إذا كنت ميتًا من كلّ أحد ، لأنّ الميت لا يوصف بمثل ذلك ، ولأنّه لا حال ثبتت له من الأحقية إذا كان حيًّا إلّا وهى ثابتة له إذا كان ميتًا ، وإن كان الميت يوصف بالأحقية ، فلا فائدة في قوله : « وميتًا » على هذا الفرض ، ولا يبقى في تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة ، وأمّا إذا كان حالًا من الضمير في « به » ، فإنه لا يلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ أن يكون أحقّ بالخلافة بعد وفاته ، أى ليس أحدهما يلزم الآخر ، فاحتاج إلى أن يبيّن أنّه أحقّ بالرسول صلى الله عليه وآله من كلّ أحدٍ إن كان الرسول حيًّا ، وإن كان ميتًا ، ولم يستهجن أن يقسم الكلام إلى القسمين المذكورين .

قوله عليه السلام : « فانفذوا إلى بصائركم » ، أى أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أتم عليها ، ولا تدخلن الشك والريب في قلوبكم .

قوله عليه السلام : « إني لعلّى جادة الحق ، وإنهم لعلّى مزلة الباطل » ؛ كلام عجيب

على قاعدة الصناعة المعنوية ، لأنه لا يحسن أن يقول : وإنهم كَعَلَى جَادَّةِ الْبَاطِل ؛ لأن الباطل لا يوصف بالجادة ، ولهذا يقال لمن ضلَّ : وقع في بُنْيَاتِ الطَّرِيقِ ^(١) ، فتعوّض عنها بلفظ « المزلَّة » ، وهي الموضع الذي يزلّ فيه الإنسان ، كالمزلقة : موضع الزَّلَق ، والمفرقة : موضع الغرق ، والمهلكة : موضع الهلاك .

(١) بنيات الطريق في الأصل : الطرق الصغار تنشعب من الجادة .

الأصل :

ومنه فطنة له عليه السلام :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ ، وَاخْتِلَافَ النَّيِّنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ ، وَتَلَاظِمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ ، وَنَحْوُهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَعِكُمْ ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ ، وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ ، وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ ، وَجِلَاءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ ، وَأَمْنٌ فَرَعِ جَاشِكُمْ ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلُمَتِكُمْ .

الشَّرْحُ :

العجيج : رفع الصوت ، وكذلك العَجَجَ ، وفي الحديث : « أَفْضَلُ الْحَبِّ الْعَجَجُ وَالشَّجُّ ، أَيْ

التَلْبِيَةِ وَإِرَاقَةُ الدَّمِ » وَعَجِيجٌ ، أَيْ صَوْتٌ ، وَمُضَاعَفَةُ اللَّفْظِ دَلِيلٌ عَلَى تَكْرِيرِ التَّصْوِيتِ .

وَالنَّيِّنَانِ : جَمْعُ نُونٍ ، وَهُوَ الْحَوْتُ ، وَاخْتِلَافُهَا هَاهُنَا : هُوَ إِصْعَادُهَا وَانْحِدَارُهَا .

وَنَجِيبُ اللَّهِ : مُنْتَجِبُهُ وَمُخْتَارُهُ .

وَسَفِيرُ وَحْيِهِ : رَسُولُ وَحْيِهِ ، وَالْجَمْعُ سَفَرَاءُ ، مِثْلُ فَقِيهِهِ وَفَقِيهَاءِ .

وإليه مراعى مفزعكم : إليه تفزعون وتلجأون ، ويقال : فلان مرمى قصدى ، أى هو
الموضع الذى أنحوه وأقصده .

ويروى : « وجلاء عشى أبصاركم » ، بالعين المهملة والألف المقصورة ، والجأش : القلب ،
وتقدير الكلام : وضياء سواد ظلمة عقائدكم ، ولكنه حذف المضاف للعلم به .

الأصل :

فاجعلوا طاعة الله شعاراً دون دثاركم ، ودخيلاً دون شعاركم ، ولطيفاً بين
أضلاعكم ، وأميراً فوق أموركم ، ومنهلاً لحين ورودكم ، وشفيعاً لدرك طلبتكم ،
وجنة ليوم فزعكم ، ومصاييح لبطون قبوركم ، وسكناً لطول وحشتكم ، ونفساً
لكرب مواطنكم ، فإن طاعة الله حرز من متالف مكتنفة ، وخاوف متوقعة ،
وأوار نيران موقدة .

فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها ، وأحلوت له الأمور بعد
مراريتها ، وأنفرت عنه الأمواج بعد تراكمها ، وأسهمت له الصعاب بعد إنصائها ،
وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها . وتحذبت عليه الرحمة بعد نفورها ، وتفجرت
عليه النعم بعد نضوبها ، ووبلت عليه البركة بعد إرذاذها .

فاتقوا الله الذى نفعاكم بموعظته ، ووعظكم برسالته ، وأمنن عليكم بنعمته .
فعبدوا أنفسكم لعبادته ، وأخرجوا إليه من حق طاعته .

الشَّيْخُ :

الشُّعَارُ : أقرب إلى الجسد من الدُّنَا . والدَّخِيلُ : ما خالط باطنَ الجسد ، وهو ^(١)أقرب من الشعار .

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفا بين الأضلاع ، أى فى القلب ، وذلك أمس بالإنسان من الدخيل ، فقد يكون الدخيل فى الجسد وإن لم يخامر القلب .
ثم قال : « وأميرا فوق أموركم » ، أى يحكم على أموركم كما يحكم الأمير فى رعيتيه .
والمهل : الماء يردّه الوارد من الناس وغيرهم .
وقوله : « لحين وردكم » ، أى لوقت وردكم .
والطَّلِبَةُ بكسر اللام : ما طلبته من شىء .
قوله : « ومصاييح لبطون قبوركم » ، جاء فى الخبر : إن العمل الصالح يضىء قبر صاحبه كما يضىء المصباح الظلمة .

والسَّكَنُ : ما يسكن إليه .
قوله : « ونفساً لكرب مواطنكم » ؛ أى سعة وروحا .
ومكتنفة : محيطة . والأوار : حرّ النار والشمس .
وعزّبت : بعدت . واحلّلت : صارت حلوة . وتراكمها : اجتماعها وتكاثفها .
وأسهلت : صارت سهلة . بعد إنصابها ، أى بعد إتباعها لكم ؛ أنصبته : أتعبته .
وهطلت : سالت . وقحوطها : قتلها ووتاحتها ^(٢) .
وتحدّبت عليه : عطفت وحنّت .
نضوبها : انقطاعها ، كنضوب الماء : ذهابه .

(٢) الوتاحة : القلة .

(١) ب : « فهو »

ووبل المطر : صار وابلا ، وهو أشدّ المطر وأكثره . وإرذاذاها : إتيانها بالرّذاذ وهو ضعيف المطر .

قوله : « فعبّدوا أنفسكم » ، أى ذلّوها . ومنه طريق معبّد .
واخرجوا إليه من حقّ طاعته ، أى أدّوا المفترض عليكم من العبادة ، يقال : خرجت إلى فلان من دينه ، أى قضيته إياه .

الأصل :

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ .

أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكِرَامَتِهِ ، وَخَذَلَ مُحَادِيهِ بِنَصْرِهِ ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ ، وَسَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاضِهِ ، وَأَتَانَا الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ .

ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْقِصَامَ لِعُرْوَتِهِ ، وَلَا فَكَّ لِحَلَقَتِهِ ، وَلَا انْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ ، وَلَا زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ ؛ وَلَا عَفَاءَ لِشَرَّائِعِهِ ، وَلَا جَذَّ لِفُرُوعِهِ ، وَلَا ضَنْكَ لِمَطَرِهِ ، وَلَا وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ ، وَلَا سَوَادَ لَوَضْحِهِ ، وَلَا عِوَجَ لَا تَنْصَابِهِ ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ ، وَلَا وَعْثَ لِفَجِّهِ ، وَلَا انْقِفَاءَ لِمِصَابِيحِهِ ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ .

فَهُوَ دَعَائِمُ أُسَاخٍ فِي الْحَقِّ أُسْنَاخُهَا ، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسُهَا ؛ وَيَنْبَاسِعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا ، وَمَصَابِيحُ شُبَّتْ نِيرَانُهَا ؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا ، وَأَعْلَامٌ قَصَدَ بِهَا فَجَاجُهَا ، وَمَنَاهِلُ رَوَى بِهَا وَرَادُهَا .

جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ
وَثِيقُ الْأَرْكَانِ ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ ، مُنِيرُ الْبَرْهَانِ ، مُضِي النِّيرَانِ ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ ،
مُشْرِفُ الْمَنَارِ ، مُعَوِذُ الْمُتَارِ .
فَشَرَّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ ؛ وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ .

الْبَرْخ :

اصطنعه على عينه ؛ كلمة تقال لما يشتد الاهتمام به ، تقول للصانع : اصنع لي كذا على
عيني ، أى اصنعه صنعة كاملة كالصنعة التي تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعيني ، قال تعالى :
﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ^(١) ﴾ .

وأصفاه خيرة خلقه ، أى أثر به خيرة خلقه ، وهم المسلمون ؛ وياء : « خيرة » مفتوحة .
قال : وأقام الله دعائم الإسلام على حب الله وطاعته .
والحداد : المخالف ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ ^(٢) ﴾ ، أى من يعاد الله كأنه يكون
في حدّ وجهه ، وذلك الإنسان في حدّ آخر وجهه أخرى ، وكذلك المشاق ؛ يكون في شقّ
والآخر في شق آخر .

وأثاق الحياض : ملأها ، وَتَتَقَّ السَّقَاءَ نفسه يتأق تأقا ، وكذلك الرجل ، إذا
امتلا غضباً .

قوله : « بمواتحه » ، وهى الدلاء يمتح بها ، أى يسقى بها .
والانفصام : الانكسار . والعفاء : الدروس .
والجذّ : القطع ، ويروى بالبدال المهملة ؛ وهو القطع أيضاً .
والضنك : الضيق .

والوعوثة : كثرة في السهولة توجب صعوبة المشى ؛ لأن الأقدام تعيث في الأرض .
والوضح : البياض .
والعوج ، بفتح العين : فيما ينتصب كالنخلة والرمح ، والعوج بكسرهما : فيما لا ينتصب ؛
كالأرض والرأى والدين .
والعصل : الالتواء والاعوجاج ، ناب أعصل وشجرة عصلة ، وسهام عُصل .
والفجج : الطريق الواسع بين الجبلين ، يقول : لا وعت فيه ؛ أى ليس طريق الإسلام
بوعث ، وقد ذكرنا أن الوعوثة ماهى .
قوله : « فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها » ، الأسناخ : جمع سنخ ، وهو الأصل ،
وأساخها في الأرض : أدخلها فيها ، وساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخ وتسيخ :
دخلت وغابت .
والآساس بالمد : جمع أسس ، مثل سبب وأسباب ، والأسس والأسس والأساس
واحد ، وهو أصل البناء .
وعزرت عيونها ، بضم الزاى : كثرت . وشبت نيرانها بضم الشين : أوقدت ،
والمنار : الأعلام في الفلاة .
قوله : « قصد بها فجاجها » ، أى قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين في تلك
الفجاج ، فأضاف القصد إلى الفجاج .
وروى : « روادها » جمع رائد ، وهو الذى يسبق القوم فيرتاد لهم الكلاً والماء .
والذروة : أعلى السنام والرأس وغيرها .
قوله : « معوذ المثار » ، أى يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوته ومثاقته .

الأفضل :

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ ، حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا
الانْقِطَاعُ ؛ وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ ، وَأَظْلَمَتْ بِهِجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا
عَلَى سَاقٍ ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا ، وَأَقْتِرَابٍ مِنْ
أَشْرَاطِهَا ، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلَقَتِهَا ، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا ، وَعَفَاءٍ مِنْ
أَعْلَامِهَا ، وَتَكْشُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا ، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا .

جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ ؛ وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ ، وَرِفْعَةً
لِأَعْوَانِهِ ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ ، وَبَحْرًا
لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ ، وَمِنْهَا جَا لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ ، وَشُعَاعًا لَا يُظْلَمُ ضَوْؤُهُ ، وَفُرْقَانًا لَا يُخْمَدُ
بُرْهَانُهُ ، وَتَبْدِيَانًا لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَشِفَاءٌ لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ ،
وَحَقٌّ لَا تُتَخَذَلُ أَعْوَانُهُ .

فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ ، وَبَيْنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ ،
وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبَنِيَانُهُ ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغَيْطَانُهُ . وَبَحْرٌ لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ ، وَعَيْوُنٌ
لَا يَنْضِبُهَا الْمَآخِوُنُ ، وَمَنَاهِلٌ لَا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ ، وَمَنَازِلٌ لَا يَضِلُّ نَهْجُهَا الْمُسَافِرُونَ ،
وَأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ ، وَإِكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ .

[اختلاف الأقوال في عمر الدنيا]

الشيخ :

قوله عليه السلام : « حين دنا من الدنيا الانقطاع » ، أى أُرِفَتِ الآخرة وقُرُب وقتها . وقد اختلف الناس فى ذلك اختلافا شديدا ، فذهب قوم إلى أن عمر الدنيا خمسون ألف سنة ، قد ذهب بعضها وبقي بعضها .

واختلفوا فى مقدار الزمان والباقي ، واحتجوا لقوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ^(١) ، قالوا : اليوم هو إشارة إلى الدنيا ، وفيها يكون عروج الملائكة والروح إليه ، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه ، وإلى رسله ، قالوا : وليس قول بعض المفسرين أنه عَنَى يوم القيامة بمستحسن ، لأن يوم القيامة لا يكون للملائكة والروح عروج إليه سبحانه ، لانقطاع التكليف ، ولأن المؤمنين إما أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة ، أو يكون هذا مختصا بالكافرين فقط ، ويكون قصيرا على المؤمنين ، والأول باطل ؛ لأنه أشد من عذاب جهنم ، ولا يجوز أن يلقي المؤمن هذه المشقة ، والثاني باطل ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الزمان الواحد طويلا قصيرا بالنسبة إلى شخصين ، اللهم إلا أن يكون أحدهما نائما ، أو ممنوا بعلّة تجرى مجرى النوم ، فلا يحس بالحركة ، ومعلوم أن حال المؤمنين بعد بعثهم ، ليست هذه الحال .

قالوا : وليست هذه الآية مناقضة للآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ^(٢) ، وذلك لأن سياق الكلام يدل على أنه أراد به الدنيا ، وذلك لأنه قد ورد فى الخبر أن

(١) سورة المعارج ٤

(٢) سورة السجدة ٥

بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام ، فإذا نزل الملك إلى الأرض ، ثم عاد إلى السماء ، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ، أى ينزل الملك بالوحي والأمر والحكم من السماء إلى الأرض ، ثم يعود راجعاً إليه وعارجاً صاعداً إلى السماء ، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة .

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتابه المسمى ” تواريخ الأمم “ : أن اليهود تذهب إلى أن عدد السنين من ابتداء التناسل إلى سنة الهجرة لحمد صلى الله عليه وآله أربعة آلاف واثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر .

والنصارى تذهب إلى أن عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر .

وأن الفرس تذهب إلى أن من عهد كيومرّت والد البشر عندهم إلى هلاك يزّجرد ابن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً ، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذى جاء به زردشت ، وهو الكتاب المعروف بأبستا .

فأما اليهود والنصارى فيسندون ذلك إلى التوراة ويختلفون في كيفية استنباط المدة .

وتزعم النصارى واليهود أن مدة الدنيا كلها سبعة آلاف سنة ، قد ذهب منها مذهب ، وبقى ما بقي .

وقيل : إن اليهود إنما قصّرت المدة ، لأنهم يزعمون أن شيخهم الذى هو منتظرهم ، يخرج في أول الألف السابع ، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيامها لتعجل افتضاحهم ، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند من يأتي بعدنا من البشر .

قال حمزة : وأما المنجمون فقد أتوا بما يعمز هذا كله ، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارت فيه الكواكب ، من رأس الحمل إلى اليوم الذي خرج فيه المتوكل ابن معتصم بن الرشيد من سامراء إلى دمشق ، ليجعلها دار الملك ، وهو أول يوم من المحرم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة الحمديّة ، أربعة آلاف ألف ألف - ثلاث لفظات - وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة ، بسني الشمس .

قالوا : والذي مضى من الطوفان إلى صبيحة اليوم الذي خرج فيه المتوكل إلى دمشق ثلاثة آلاف وسبعائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوما .

وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب " الآثار الباقية عن القرون الخالية " : أن الفرس والمجوس يزعمون أن عُمر الدنيا اثنا عشر ألف سنة ، على عدد البروج وعدد الشهور ، وأن الماضيَ منها إلى وقت ظهور زردشت صاحب شريعته ثلاثة آلاف سنة ، وبين ابتداء ظهور زردشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل - وهي سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبويّة - ألف وخمسمائة وسبعون سنة ، فعلى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثمانى عشرة سنة ، فيكون الباقي من الدنيا على قولهم أكثر من الماضي .

وحكى أبو الريحان عن الهند في بعض كتبه ، أن مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت .

فأما الأخباريون من المسلمين ، فأكثرهم يقولون : إن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة

ويقولون إننا في السابع ، والحق أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٢)

وقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ (٣) و ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ (٤) ، و ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (٥)

ولا نعلم كمية الماضي ولا كمية الباقي ، ولكننا نقول كما أمرنا ، ونسمع ونطيع كما أدبنا ، ومن الممكن أن يكون مابقي قريبا عند الله ، وغير قريب عندنا ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ (٦) .

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه .

قوله عليه السلام : « وقامت بأهلها على ساق » ، الضمير للدنيا ، والساق الشدة ، أى انكشفت عن شدة عظيمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالتَّقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ (٧) أى التفت آخر شدة الدنيا بأول شدة الآخرة .

والمهاد : الفراش . وأزف منها قياد ، أى قرب انقيادها إلى التقضى والزوال .
وأشراط الساعة : علاماتها ، وإضافتها إلى الدنيا لأنها في الدنيا تحدث ، وإن كانت علامات للآخرى . والعفاء : الدروس .

(٢) سورة الأعراف ٨٧

(٤) سورة الأنبياء ١

(٦) سورة المعارج ٦

(١) سورة الزلزات ٤٢-٤٤

(٣) سورة القمر ١

(٥) سورة النحل ١

(٧) سورة القيامة ٢٩

وروى : « من طَوَّلَهَا » والطَّوَّل : الحبل .
 ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال : جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته ؛
 أى ذا بلاغ ، والبلاغ التبليغ ، فحذف المضاف .
 ولا تحبوا : لا تنطقوا . والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل .
 وأنافى الإسلام : جمع أنفائية ، وهى الأحجار توضع عليها القدر ، شكل مثلث .
 والغيطان : جمع غائط ، وهو المطمئن من الأرض .
 ولا يغيضها ، بفتح حرف المضارعة ، غاض الماء وغضته أنا ، يتعدى ولا يتعدى ،
 وروى « لا يغيضها » بالضم على قول من قال : أغضت الماء ، وهى لغة ليست بالمشهورة
 والإكام : جمع أكم ، مثل جبال جمع جبَل ، والإكم جمع إكمة ، مثل عنب جمع
 عنبَة ، والأكمة : ماعلا من الأرض ، وهى دون الكتيب .

الأضل :

جَعَلَهُ اللهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ ، وَحَاجًّا لِبَطْنِ الصُّلَحَاءِ ،
 وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عُرْوَتُهُ ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا
 ذِرْوَتُهُ ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ ، وَسِلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَهُدًى لِمَنْ اتَّسَمَّ بِهِ ، وَعُذْرًا لِمَنْ
 انْتَحَلَهُ ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَفَلَجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ ، وَحَامِلًا
 لِمَنْ حَمَلَهُ ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَمْعَمَهُ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ ، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ ، وَعِلْمًا لِمَنْ
 وَعَى ، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى ، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى .

الشُّنْخُ :

الضمير يرجع إلى القرآن ، جعله الله رِيًّا لعطش العلماء ، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه ، فستأهم كما يسقى الماء العطش ، وكذا القول في « ربيعاً لقلوب الفقهاء » ، والربيع هاهنا : الجدول ، ويجوز أن يريد المطر في الربيع ، يقال : ربعت الأرض فهي مربوعة .

والحاجّ : جمع محبّة ، وهي جادة الطريق . والمعقل : الملجأ .
وسلماً لمن دخله ، أى مأمناً ، وانتحله : دان به ، وجعله نحلة .
والبرهان : الحجة ، والفلج : الظفر والفوز . وحاجّ به : خاصم .
قوله عليه السلام : « وحاملاً لمن حمّله » ؛ أى أن القرآن ينجى يوم القيامة مَنْ كان حافظاً له في الدنيا ، بشرط أن يعمل به .

قوله عليه السلام : « ومطية لمن أعمله » ، استعارة ، يقول : كما أن المطية تنجى صاحبها إذا أعملها وبعثها على النجاء ، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه ، ومعنى إعماله ، اتباع قوانينه والوقوف عند حدوده .

قوله : « وآية لمن توسّم » ، أى لمن تفرّس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ^(١) .

والجفّة : ما يستترّ به . واستلأم : لبس لأمة الحرب ، وهي الدرع .
ووعى : حفظ .

قوله : « وحديثاً لمن روى » قد سمّاه الله تعالى حديثاً فقال : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الحديث كتاباً مُتَشَابِهاً^(١)؛ وأصحابنا يحتجّون بهذه اللفظة على أن القرآن ليس بقديم؛ لأنّ الحديث ضدّ القديم.

وليس له مخالف أن يقول: ليس المراد بقوله: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ما ذكرتم؛ بل المراد أحسن القول، وأحسن الكلام، لأنّ العرب تسمّى الكلام والقول حديثاً، لأننا نقول: لعمرى إنه هكذا، ولكن العرب ماسمت القول والكلام حديثاً إلا أنه مستحدث متجدّد حالاً فحالاً، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية: «قد ملّت كلّ شيء إلا الحديث»، فقال: إنّما يُملّ العتيق؛ فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثاً، وفطن لمغزاهم ومقصدهم في هذه التسمية، وإذا كُنّا قد كلّفنا أن نجري على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجراه سبحانه في كتابه، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفيّة التي أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث - وكان القرآن في عرف اللغة إنّما سمّي حديثاً لحدوثه وتجّدده - فقد ساغ لنا أن نطلق على كلامه أنه محدّث ومتجدّد؛ وهذا هو المقصود.

الأضل:

ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، وَأَسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا بِهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ! أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ^(١) .

وَإِنَّهَا لَتَنَحُّ الذُّنُوبَ حَتَّى الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبَقِ .

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحِمَّةِ ، تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ ، فَهُوَ يَفْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ !

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ ؛ وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ ؛ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ ^(٢) .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِيبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ ^(٣) ؛ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ .

(١) سورة الدثر ٤٢، ٤٣

(٢) سورة النور ٣٧

(٣) سورة طه ١٣٢

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ
النَّفْسِ بِهَا ؛ فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً ؛ فَلَا يُتْبِعُهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ،
وَلَا يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفَهُ ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ
مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالشُّنَّةِ ، مَغْبُونٌ الْأَجْرِ ، ضَالٌّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ . ثُمَّ آدَاءُ
الْأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ الْمُبِينَةِ ، وَالْأَرْضِينَ
الْمَدْحُورَةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ ؛ فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ ؛ وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ
مِنْهَا . وَلَوْ أُمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ ، أَوْ عَرَضٍ ، أَوْ قُوَّةٍ ، أَوْ عِزٍّ ، لَأُمْتَنَعَ ؛ وَلَكِنْ
أَشْفَقْنَا مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَا مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أضعفُ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ
ظُلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) .

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ،
لَطْفَ بِهِ خُبْرًا ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ ،
وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

الشَّيْخُ :

هذه الآية يستدل بها الأصوليون من أصحابنا على أن الكفار يعاقبون في الآخرة على
ترك الواجبات الشرعية ، وعلى فعل القبائح ، لأنها في الكفار وردت ، ألا ترى
إلى قوله : ﴿ فِي جَنَاتٍ يَدْخُلُونَهَا لَنْ يَدْخُلُوا مِنْهَا الْغَائِبُونَ ، وَالْغَائِبُونَ فِي سَقَرٍ ﴾ (٢) فليس يجوز
أن يعنى بالمجرمين هاهنا الفاسقين من أهل القبلة ، لأنه قال : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *

(١) سورة الأحزاب ٧٢

(٢) سورة المدثر ٤٢-٤٧

وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾

قالوا : وليس لقائل أن يقول : معنى قوله : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة ؛ لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ ﴾ لأنَّ أحد الأمرين هو الآخر ، وحمل الكلام على ما يفيد فائدة جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة ، فقد ثبت بهذا التقرير صحة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة ، وأنها من العبادات المهمة في نظر الشارع .

قوله : عليه السلام : « وإنَّها لتحتُ الذُّنُوبُ » ، الحتّ : نثر الورق من الغصن ، وانحاث ، أى تناثر ؛ وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبويّ بعينه

والرَّبَقُ : جمع رِبْقَةٍ ، وهى الحبل أى تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقّدة ، أى تحلّ ما انعقد على المكلف من ذنوبه . وهذا من باب الاستعارة .

ويروى : « تعهّدوا أمر الصلاة » بالتضعيف ، وهو لغة ، يقال : تعاهدت ضيعتي وتعهدتها وهو القيام عليها ، وأصله من تجديد العهد بالشئ ، والمراد المحافظة عليه ؛ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ^(٢) أى واجبا ، وقيل موقوتا ؛ أى منجمّا كل وقت لصلاة معينة ؛ وتؤدّى هذه الصلاة فى نجومها .

وقوله : « كتابا » أى فرضا واجبا ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ^(٣) أى أوجب .

والْحَمَةُ : الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحار ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح ، قال صلى الله عليه وآله : أيسر أحدكم أن تكون على بابه حمّة يغتسل منها كل يوم خمس .

(١) ...

(٢) سورة النساء ١٠٣

(٣) سورة الأنعام ٣

مرات ، فلا يبقى عليه من درّنه شيء ! قالوا نعم ، قال : « فإنّها الصلوات الخمس »
والدرن : الوسخ .

والتجارة في الآية ، إمّا أن يراد بها : لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله .
ثمّ أفرد البيع بالذكر ، وخصّه وعطفه على التجارة العامة ، لأنه أدخل في الإلهاء ، لأنّ الربح
في البيع بالكسب معلوم ، والربح في الشراء مظنون ، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء
خاصة إطلاقاً لاسم الجنس الأعمّ على النوع الأخصّ ، كما تقول رزق فلان تجارة رابحة ،
إذا اتّجه له شراء صالح ، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء في « إقامة » عوض من العين الساقطة
للإعلال ، فإنّ أصله « إقوام » مصدر أقام ، كقولك : أعرض إعراضاً ، فلما أضيفت
أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض ، فأسقطت التاء

قوله عليه السلام : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصيباً بالصلاة أى تغيّاً ، قال
تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ ^(١)

وروى أنه عليه السلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة .

وروى أنه قيل له في ذلك فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ! »

ويصبر نفسه : من الصبر ، ويروى : « ويصبر عليها نفسه » أى يحبس ؛ قال سبحانه :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ ^(٢) . وقال عنتره يذكر حرباً كان فيها :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لَذَلِكَ حُرَّةً تَرَسُّوْا إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ ^(٣)

[فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة وفضلها]

واعلم أنّ الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يُعجزنا حصره ، ولو لم يكن

(١) سورة طه ٢

(٢) سورة الكهف ٢٨

(٣) اللسان (صبر)

إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيده الوصاة بها والمحافظة عليها ،
لكان بعضه كافياً .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « الصَّلَاةُ عَمُودُ الدِّينِ ، فمن تركها فَقَدْ هَدَمَ الدِّينَ » .
وقال أيضاً عليه السلام : « عِلْمُ الْإِيمَانِ الصَّلَاةُ ، فمن فرَّغ لها قلبه ، وقام بحُدُودها ؛
فهو المؤمن »

وقالت أمّ سلمة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه ، فإذا حضرت
الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه .

وقيل للحسن رحمه الله : ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنهم خلّوا
بالرحمن ، فألبسهم نورا من نوره .

وقال عمر : إنّ الرجل ليشيب عارضا في الإسلام ما أكمل الله له صلاة ، قيل له :
وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها .

وقال بعض الصالحين : إنّ العبد ليسجد السجدة عنده أنّه متقرب بها إلى الله ، ولو قسم
ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة هلكوا ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يكون ساجداً
وقلبه عند غير الله ، إنّما هو مصغٍ إلى هوى أو دنيا .

صلى أعرابي في المسجد صلاة خفيفة ، وعمر بن الخطاب يراه ، فلما قضاها قال :
اللهم زوّجني الحور العين . فقال عمر : يا هذا لقد أسأت النقد ، وأعظمت الخطيئة !

وقال عليّ عليه السلام : لا يزال الشيطان ذِعْراً من المؤمن ما حافظ على الخمس ،
فإذا ضيعهن تجرّأ عليه ، وأوقعه في العظام .

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ،
ما اجتنبت الكبائر » .

وجاء في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

وقال هشام بن عروة : كان أبي يطيل المكتوبة ويقول : هي رأس المال .

قال يونس بن عبيد : ما استخف أحد بالنوافل إلا استخف بالفرائض .

يقال : إن محمد بن المنكدر جزأ الليل عليه وعلى أمه وأخته أثلاثاً ، فماتت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين ، فماتت أمه فقام الليل كله .

كان مسلم بن يسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلي ، ولا يفهمه ، وكان إذا دخل بيته سكت أهله فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة ، فيتحدثون ويلغطون ، فهو لا يشعر بهم .
ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة ، فلم يشعر به حتى حرق .

كان خلف بن أيوب لا يطردُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو في الصلاة في بلاد كثيرة الذباب ، فقليل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغني أن الشَّطَّار يصبرون تحت السَّياط ليقال : فلان صبور ، أفلا أصبر وأنا بين يدي ربي على أذى ذباب يقع على !

قال ابن مسعود : الصلاة مكيال ، فمن وَفَّى وَفَّى له ، ومن طَفَّفَ ، فويلٌ للمطففين .

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا رسول الله ، ادع لي أن يرزقني الله مرافقتك في الجنة ، فقال : « أعني على إجابة الدعوة بكثرة السجود » .

قوله عليه السلام : « قربانا لأهل الإسلام » ، القربان : اسم لما يتقرب به من نسيكة أو صدقة .

وروى : « ومن النار حجازا » بالزاي أي مانعا . واللهف : الحسرة ، ينهى عليه السلام

عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتلّيف والتحرّس على دفعها إلى أربابها ، ويقول :
إنّ من يفعل ذلك يرجو بها نيل الثواب ضالّ مضيع لماله ، غير ظافر بما رجاه من المثوبة .

[ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق]

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جدا ، ولو لم يكن
إلا أنّ الله تعالى قرن بها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفى .
وروى بريدة الأسلمي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « ما حبّس قوم الزكاة
إلا حبّس الله عنهم القطر » .

وجاء في الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ما جاء في الذكر
الحكيم ، وهو قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾^(١)
الآية ، قال المفسرون : إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها .

وروى الأحنف قال : قدمت المدينة ، فبينما أنا في حلقةٍ فيها ملأ من قریش ،
إذ جاء رجل خشنُ الجسد ، خشنُ الثياب ، فقام عليهم ، فقال : بشر الكاذبين
برضف^(٢) يحمى عليها في نار جهنم ، فتوضع على حامة ثدى الرجل حتى تخرج من نفّض^(٣)
كتفه ، ثم توضع على نفّض كتفه حتى تخرج من حامة ثديه ، فسألت عنه فقيل : هذا أبو ذرّ
الغفاريّ ، وكان يذكره ويرفعه .

ابن عباس يرفعه : « مَنْ كَانَ عِنْدَ مَا يَزْكِي فَلَمْ يَزْكُ ، وَكَانَ عِنْدَهُ مَا يَحِجُّ بِهِ فَلَمْ يَحِجَّ سَأَلَ
الرجعة ، يعني قوله : « رب ارجعون » .

(١) سورة التوبة ٢٤

(٢) الرضف : الحجارة المحماة .

(٣) النفّض : أعلى الكتف ؛ وقيل هو العظم الرقيق الذي على طرفه .

أبوهريرة : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تعطى وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل ؛ « حتى إذا بلغت الحلقوم » قلت : لفلان كذا ولفلان كذا^(١) .

وقيل للشبلي : ما يجب في مائتي درهم ؟ قال : أما من جهة الشرع فخمسة ، وأما من جهة الإخلاص فالكل .

أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بعض نسائه أن تقسم شاة على الفقراء فقالت : يا رسول الله ؛ لم يبق منها غير عنقها ؛ فقال عليه السلام : كلها بقي غير عنقها . أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

يبكى على الذَّاهِبِ من مالهِ وإِنَّمَا يبقى الذى يذهبُ

السائب : كان الرجل من السلف يضع الصدقة ويمثل قائماً بين يدي السائل الفقير ويسأله قبولها ؛ حتى يصير هو في صورة السائل .

وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير ؛ لتكون يدُ الفقير العليا . وعن النبي صلى الله عليه وآله : « ما أحسن عبدُ الصدقة إلا أحسن الله إليه في مخلفيه » . وعنه صلى الله عليه وآله : « الصدقة تسد سبعين باباً من الشر » . وعنه صلى الله عليه وآله : « أذهبوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » . كان النبي صلى الله عليه وآله لا يكلُ خصلتين إلى غيره : لا يوضئه أحد ، ولا يعطى السائل إلا بيده .

بعض الصالحين : الصلاة تبليغك نصف الطريق ، والصوم يبليغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

الشعبي : من لم يرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته ؛ وضرب بها وجهه .

كان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل ، فإن كان عنده ذهب أوفضة أو طعام أعطاه ، فإن لم يكن ؛ أعطاه زيتا أو سمنا أو نحوهما ما ينتفع به ، فإن لم يكن ، أعطاه كحلا ، أو خرج بإبرة وخيط وخاط^(١) بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقع بها ما تحرق من ثوبه .
ووقف مرة على بابه سائل ليلا ، ولم يكن عنده ما يدفعه إليه ، فخرج إليه بقصبة في رأسها شعلة ، وقال : خذ هذه وتبلغ بها إلى أبواب ناس لعلمهم يعطونك .

قوله عليه السلام : « ثم أداء الأمانة » هي العقد الذي يلزم الوفاء به ، وأصح ما قيل في تفسير الآية أن الأمانة ثقيلة الحمل ، لأن حاملها معرض لخطر عظيم ، فهي بالغة من الثقل وصعوبة الحمل ما لو أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنتعت من حملها ، فأما الإنسان فإنه حملها وألزم القيام بها . وليس المراد بقولنا : إنها عرضت على السموات والأرض أى لو عرضت عليها وهي جمادات ، بل المراد تعظيم شأن الأمانة ، كما تقول : هذا الكلام لا يحمله الجبال ، وقوله :

* امتلأ الحوض وقال قطني *

، وقوله تعالى : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(٢) . ومذهب العرب في هذا الباب وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع .

(١) : ١ : « يخط » .

(٢) سورة فصلت ١١

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللّٰهُ مَأْمُوعِيَةٌ بِأَدَهَىٰ مِنِّي ؛ وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ
لَكُنْتُ مِنْ أَدَهَى النَّاسِ ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدْرَةٍ فَجْرَةٌ ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كُفْرَةٌ ؛ وَلِكُلِّ
غَادِرٍ لِّوَاءٌ يَعْرِفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَاللّٰهُ مَا اسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا اسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

الشرح :

الغُدْرَةُ ، على «فَعْلَةٍ» الكثير الغَدْرُ ، والفَجْرَةُ والكُفْرَةُ : الكثير الفجور والكفر ،
وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل ، فإن سكّنت العين فهو للمفعول ، تقول : رجل
ضَحَكَ أَيْ يَضْحَك ، وضَحَكَةٌ يَضْحَكُ مِنْهُ ، وسُخْرَةٌ يَسْخَرُ ، وسُخْرَةٌ يُسْخَرُ بِهِ ،
يقول عليه السلام : كلّ غادر فاجر ، وكلّ فاجر كافر . ويروى : « ولكن كلّ غُدْرَةٍ فَجْرَةٌ ،
وكلّ فَجْرَةٍ كُفْرَةٌ » على «فَعْلَةٍ» للمرة الواحدة .

وقوله : « لكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة » ؛ حديث صحيح مرويّ عن النبي
صلى الله عليه وآله .

ثم أقسم عليه السلام أنه لا يُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، أَيْ لَا تَجُوزُ الْمَكِيدَةُ عَلَى ، كَمَا تَجُوزُ عَلَى
ذَوِي الْغَفْلَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ ، أَيْ لَا أَهْيَنُ وَأَلْيَنُ لِلْخَطْبِ الشَّدِيدِ .

[سياسة على وجريها على سياسة الرسول عليه السلام]

واعلم أن قوماً ممن لم يعرف حقيقة فضل أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أن عمر كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو علي بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين^(١) يميل إلى هذا، وقد عرض به في كتاب «الغرر»، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أن معاوية كان أسوس منه وأصح تدبيراً، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحة تدبيره، ونحن نذكر هاهنا ما لم نذكره هناك مما يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه.

اعلم أن السائس لا يتمكن من السياسة البالغة إلا إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته؛ سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه؛ فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، ويرى تخصيص ثغومات النصّ بالآراء والاستنباط من أصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسوط من

(١) هو كتاب الغرر لأبي الحسين البصري، في أصول الكلام، شرحه المؤلف، وسماه «شرح مشكلات الغرر»، ذكره صاحب روضات الجنات.

يتغلب على ظنّه أنه يستوجب ذلك ، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب ، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره ، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك ، وكان يقف مع النصوص والظواهر ، ولا يتعدّها إلى الاجتهاد والأقيسة ، ويطبّق أمور الدّنيا على أمور الدين ، ويسوق الكلّ مساقا واحداً ؛ ولا يضيّع ولا يرفع إلّا بالكتاب والنصّ ، فاختلّفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة ، وكان عمر مع ذلك شديد الغلظة والسياسة ، وكان على عليه السلام كثير الحلم والصّفح والتجاوز ، فازدادت خلافة ذاك قوة ، وخلافة هذا لينا ؛ ولم يمتن عمر بما مَنى به على عليه السلام من فتنة عثمان ؛ التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربهم ، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة . ثم تلا ذلك فتنة الجمل ، وفتنة صفّين ثم فتنة النهروان ، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة في اضطراب أمر الوالى وانحلال معاهد ملكه ، ولم يتفق لعمر شيء من ذلك ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة . !

فإن قلت : فما قولك في سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدييره ؟ أليس كان منتظماً سديداً مع أنه كان لا يعمل إلّا بالنصوص والتوقيف من الوحي ! فهلّا كان تدبيره على عليه السلام وسياسته كذلك ! إذا قلتم : إنه كان لا يعمل إلّا بالنصّ ، قلت : أما سياسة الرسول صلى الله عليه وآله وتدييره فخارج عمّا نحن فيه ؛ لأنه معصوم لا تتطرق الغفلة إلى أفعاله ، ولا واحد من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا . وأيضاً فإنّ كثيراً من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذن للرسول صلى الله عليه وآله أن يحكم في الشرعيّات وغيرها برأيه ، وقال له : أحكم بما تراه ، فإنّك لا تحكم إلّا بالحق ، وهذا مذهب يونس بن عمران ، وعلى هذا فقد سقط السؤال ، لأنّه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة ، ولا ينتظر الوحي . وأيضاً فبتقدير فساد هذا المذهب ؛ أليس قد ذهب خلق كثير من علماء أصول الفقه إلى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يجوز^(١) له أن يجتهد في الأحكام والتدبير ، كما يجتهد

(١) ساقط من ب .

الواحد من العلماء ، وإليه ذهب القاضى أبو يوسف رحمه الله ، واحتج بقوله تعالى : ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (١) .

والسؤال أيضا ساقط على هذا المذهب ، لأنَّ اجتهاد على عليه السلام لا يساوى اجتهاد النبي صلى الله عليه وآله ، وبين الاجتهادين كما بين المنزلتين .

وكان أبو جعفر بن أبى زيد الحسنى نقيب البصرة رحمه الله إذا حدثناه فى هذا يقول : إنه لا فرق عند من قرأ السيرتين : سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسياسة أصحابه أيام حياته ، وبين سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيام حياته ، فكما أن علياً عليه السلام لم يزل أمره مضطرباً معهم بالخالفه والعصيان والهرب إلى أعدائه ، وكثرة الفتن والحروب ، فكذلك كان النبي صلى الله عليه وآله لم يزل ممنوعاً بنفاق المنافقين وأذاهم ، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه ، وكثرة الحروب والفتن .

وكان يقول : ألتست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم ، والتألم من أذاهم له ؛ كما أن كلام على عليه السلام مملوء بالشكوى من منافق أصحابه والتألم من أذاهم له ، والتوائهم عليه ! وذلك نحو قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ (٣) الآية .
وقوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... ﴿السورة بأجمعها﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (٣).

وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (٥).

وقوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لَتَأْخُذُوهَا ذُرُوءًا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ

(١) سورة المنافقين .

(٢) سورة محمد ٢٠

(٣) سورة الفتح ١١ ، ١٢

(٤) سورة محمد ١٦

(٥) سورة محمد ٢٩ ، ٣٠

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وراءِ الْحِجْرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ .

قال : وأصحابه هم الذين نازعوا في الأنفال وطلبوها لأنفسهم ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٣﴾ .

وهم الذين اتَّوَوْا عَلَيْهِ فِي الْحَرْبِ يَوْمَ بَدْرَ ، وكرهوا لقاء العدو حتى خيف خذلانهم ، وذلك قبل أن تترامى الفئتان ، وأنزل فيهم : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

وهم الذين كانوا يتمنون لقاء العير دون لقاء العدو ، حتى إنهم ظفروا برجلين في الطريق ، فسألوهما عن العير ، فقالوا لا علم لنا بها ، وإنما رأينا جيش قريش من وراء ذلك الكئيب ، فضربوهما ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم يصلي ، فلما ذاقا مسَّ الضرب قالوا : بل العير أمامكم فاطلبوها ، فلما رفعوا الضرب عنهما ، قالوا : والله ما رأينا العير ولا رأينا إلا الخيل والسلاح والجيش ، فأعادوا الضرب عليهما مرة ثانية ، فقالا وهما يُضْرَبَانِ : العير أمامكم ، فخلُّوا عنا ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من الصلاة ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم خليتُم عنهما ! دعوها ، فما رأيا إلا جيش أهل مكة ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ

(١) سورة الفتح ١٥

(٢) سورة الحجرات ٤، ٥

(٣) سورة الأنفال ١

(٤) سورة الأنفال ٦

دَابِرِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ . قال المفسرون : الطائفتان : العير ذات اللطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبة أبي سفيان بن حرب ، وإليها كان خروج المسلمين ، والأخرى الجيش ذو الشؤكة ، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين ، فكرهوا الحرب ، وأحبوا الغنيمة .

قال : وهم الذين فرّوا عنه صلى الله عليه وآله يوم أحد ، وأسلموه وأصعدوا في الجبل ، وتركوه حتى شجّ الأعداء وجهه ، وكسروا ثنيته ، وضربوه على بيشته ، حتى دخل جماعه ، ووقع من فرسه إلى الأرض بين القتلى ، وهو يستصرخ بهم ، ويدعوهم فلا يجيبه أحد منهم إلا من كان جارياً مجرى نفسه ، وشديد الاختصاص به ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَنَا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾ (٢) أى ينادى فيسمع نداءه آخر الماربين لا أولهم ؛ لأن أولهم أوغلوا في الفرار ، وبعدوا عن أن يسمعوأ صوته ، وكان قصارى الأمر أن يبلغ صوته واستصراخه من كان على ساقة الماربين منهم .

قال : ومنهم الذين عصوا أمره في ذلك اليوم ، حيث أقامهم على الشعب في الجبل ، وهو الموضع الذي خاف أن تكرر عليه منه خيل العدو من ورائه ، وهم أصحاب عبد الله ابن جبير ، فإنهم خالفوا أمره وعصوه فيما تقدّم به إليهم ، ورغبوا في الغنيمة ، ففارقوا مركزهم : حتى دخل الوهن على الإسلام بطريقهم ، لأن خالد بن الوليد كرت في عصابة من الخيل ، فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه ، فما أحسن المسلمون بهم إلا وقد غشّوهم بالسيوف من خلفهم ، فكانت الهزيمة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ

(١) سورة الأنفال ٧

(٢) سورة آل عمران ١٥٣

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا
وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ (١)

قال : وهم الذين عصوا أمره في غزاة تبوك ، بعد أن أكد عليهم الأوامر ، وخذلوه
وتركوه ولم يشخصوا معه ، فأنزل فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
أُفِرُّوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ (٢) ، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين
لا مع المنافقين ، وفيها أوضح دليل على أن أصحابه وأولياءه المصدقين لدعوته كانوا يعصونه ،
ويخالفون أمره ؛ وأكّد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا
وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا
نَخْرُجَنَّا مَعَكُمْ يَهْلِكُوكَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ (٣)

ثم عاتب رسول الله صلى الله عليه وآله على كونه أذن لهم في التخلف ، وإنما أذن لهم
لعله أنهم لا يجيبونه في الخروج ، فرأى أن يجعل المنّة له عليهم في الإذن لهم ، وإلا قعدوا عنه
ولم تصل له المنّة ، فقال له : ﴿ عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ۖ (٤) ، أى هلا أمسكت عن الإذن لهم حتى يتبين لك قعود
من يقعد ، وخروج من يخرج ، صادقهم من كاذبهم ! لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه
كلهم ، وكان بعضهم ينوى الغدر ، وبعضهم بعزم على أن يخيس (٥) بذلك الوعد ، فلو لم يأذن
لهم لعلم من يتخلف ومن لا يتخلف ، فعرف الصادق منهم والكاذب .

(٢) سورة التوبة ٣٨ ، ٣٩

(٤) سورة التوبة ٣

(١) سورة آل عمران ١٥٢

(٣) سورة التوبة ٢٢

(٥) يخيس : يغدر .

ثم بين سبحانه وتعالى أن الذين يستأذنونهم في التخلف خارجون من الإيمان ، فقال له : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿١﴾ .

ولا حاجة إلى التطويل بذكر الآيات المفصلة فيما يناسب هذا المعنى ، فمن تأمل الكتاب العزيز علم حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت ، ولم ينقله الله تعالى إلى جواره إلا وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد ، حتى لقد كاشفوه مراراً ، فقال : لهم يوم الحديبية احلقوا وانحروا ... مرارا ، فلم يحلقوا ولم ينحروا ، ولم يتحرك أحد منهم عند قوله ، وقال له بعضهم وهو يقسم الغنائم : « اعدل يا محمد فإنك لم تعدل » .

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين : أتأخذ ما أفاء الله علينا بسؤفنا فتدفعه إلى أقاربك من أهل مكة ! حتى أفضى الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته : « اتئوني بدواة وكتف أكتب لكم ما لا تضلون بعده » ، فعصوه ولم يأتوه بذلك ، وليتهم اقتصرُوا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا ، وهو يسمع !

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه ، والقليل منه ينبي عن الكثير ، وكان يقول : إن الإسلام ماحلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلا بعد موته ، حين فتحت عليهم الفتوح ، وجاءتهم الغنائم والأموال ، وكثرت عليهم المكاسب ، وذاقوا طعم الحياة ، وعرفوا لذة الدنيا ، ولبسوا الناعم ، وأكلوا الطيب ، وتمتعوا بنساء الروم ، وملكوا خزائن كسرى ، وتبدلوا بذلك القسف والشظف والعيش الحشن وأكل الضباب والقنافذ

واليرابيع ولبس الصوف والكرايس^(١) ، وأكل اللوز ينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج ، فاستدلوا بما فتحه الله عليهم ، وأتاحه لهم على صحة الدعوة ، وصدق الرسالة ، وقد كان صلى الله عليه وآله وعدهم بأنه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقیصر ، فلما وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظموه وبجلوه ، وانقلبت تلك الشكوك وذاك النفاق وذلك الاستهزاء إيماناً و يقيناً وإخلاصاً ، وطاب لهم العيش ، وتمسكوا بالدين ، لأنه زادهم طريقاً إلى نيل الدنيا ، فعظموا ناموسه ، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرسول الذي جاء به ، ثم انقرض الأسلاف وجاء الأخلاف على عقيدة ممتدة ، وأمر أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين ربوا في حجورهم ، ثم انقرض ذلك القرن ، وجاء من بعدهم كذلك ، وهلم جرا .

قال : ولولا الفتوح والنصر والظفر الذي منحهم الله تعالى إياه ، والدولة التي ساقها إليهم ، لانقرض دين الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان يذكر في التواريخ ، كما تذكر الآن نبوة خالد بن سنان العبسي ، حيث ظهر ودعا إلى الدين . وكان الناس يعجبون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجبون ويتذاكرون أخبار من نبغ من الرؤساء والملوك والدعاة الذين انقرض أمرهم ، وبقيت أخبارهم .

وكان يقول : من تأمل حال الرجلين وجداهما متشابهتين في جميع أمورهما أوفى أكثرها ؛ وذلك لأن حرب رسول الله صلى الله عليه وآله مع المشركين كانت سجّالاً ، انتصر يوم بدر ، وانتصر المشركون عليه يوم أحد ، وكان يوم الخندق كفافاً خرج هو وهم سواء ، لاعليه ولاله ، لأنهم قتلوا رئيس الأوس وهو سعد بن معاذ ، وقتل منهم فارس قریش وهو عمرو ابن عبد ود ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت ، ثم حارب بعدها قریشاً يوم الفتح ، فكان الظفر له .

وهكذا كانت حروب على عليه السلام ، انتصر يوم الجمل ؛ وخرج الأمر بينه وبين

(١) الكرايس : جمع كرباس ، وهو الثوب من القطن الأبيض .

معاوية على سواء ، قتل من أصحابه رؤساء ، ومن أصحاب معاوية رؤساء ، وانصرف كل واحد من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه ، ثم حارب بعد صفين أهل النهروان ، فكان الظفر له .

قال : ومن العجب أن أول حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كانت بدرا ، وكان هو المنصور فيها ، وأول حروب علي عليه السلام الجمل ، وكان هو المنصور فيها . ثم كان من صحيفة الصلح والحكومة يوم صفين نظير ما كان من صحيفة الصلح والهدنة يوم الحديبية . ثم دعا معاوية في آخر أيام علي عليه السلام إلى نفسه وتسمى بالخلافة ، كما أن مسيلمة والأسود العنسي دَعَوْا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وتسمياً بالنبوة ، واشتد علي عليه السلام ذلك ، كما اشتد علي رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله أمرُ الأسود ومُسَيْلِمة ، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبنى أمية بعد وفاة علي عليه السلام . ولم يحارب رسول الله صلى الله عليه وآله أحد من العرب إلا قریش ماعدا يوم حنين ، ولم يحارب عليا عليه السلام من العرب أحد إلا قریش ماعدا يوم النهروان . ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف ، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله شهيداً بالسهم . وهذا لم يتزوج علي خديجة أم أولاده حتى ماتت ، وهذا لم يتزوج علي فاطمة أم أشرف أولاده حتى ماتت . ومات رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاث وستين سنة ، ومات علي عليه السلام عن مثلها .

وكان يقول : انظروا إلى أخلاقهما وخصائصهما ، هذا شجاع وهذا شجاع ، وهذا فصيح وهذا فصيح ، وهذا سخي جواد وهذا سخي جواد ، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلهية ، وهذا عالم بالفقه والشرعة والأمور الإلهية الدقيقة الغامضة ، وهذا زاهد في الدنيا غير أنهم عليها ولا مستكثر منها ، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها . وهذا مُذِيبٌ^(١) نفسه في الصلاة والعبادة ، وهذا مثله . وهذا غير محبب إليه شيء من الأمور العاجلة

(١) : « مذيب » .

إِلَّا النَّسَاءَ وَهَذَا مِثْلُهُ ، وَهَذَا ابْنُ ابْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهَذَا فِي قُعْدَدِهِ ^(١) ، وَأَبَوَاهَا أَخْوَانُ لِأَبٍ وَاحِدٍ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؛ وَرُبِّيَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ فِي حِجْرٍ وَالْهَذَا هُوَ أَبُو طَالِبٍ ، فَكَانَ جَارِيًا عِنْدَهُ مَجْرَى أَحَدِ أَوْلَادِهِ . ثُمَّ لَمَّا شَبَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَكَبُرَ اسْتَخْلَصَهُ مِنْ بَنِي أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ غَلَامٌ ، فَرَبَّاهُ فِي حِجْرِهِ مَكَافَأَةً لِصَنِيعِ أَبِي طَالِبٍ بِهِ ، فَامْتَزَجَ الْخُلُقَانُ ، وَتَمَاثَلَتِ السَّجَيَّتَانِ ، وَإِذَا كَانَ الْقَرِينُ مَقْتَدِيًا بِالْقَرِينِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّقْوِيَةِ الدَّهْرَ الطَّوِيلَ ! فَوَاجِبٌ أَنْ تَكُونَ أَخْلَاقُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَأَخْلَاقِ أَبِي طَالِبٍ ، وَتَكُونَ أَخْلَاقُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَخْلَاقِ أَبِي طَالِبٍ أَبِيهِ ، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرْبِيهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْكُلُّ شِيْمَةً وَاحِدَةً وَسَوْسًا ^(٢) وَاحِدًا ، وَطِينَةٌ مُشْتَرَكَةٌ ، وَنَفْسًا غَيْرَ مُنْقَسِمَةٍ وَلَا مُتَجَزَّئَةٍ ، وَأَلَّا يَكُونَ بَيْنَ بَعْضِ هَؤُلَاءِ وَبَعْضِ فَرَقٍ وَلَا فَضْلٍ ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَاصْطَفَاهُ لَوْحِيهِ ، لَمَّا يَعْلَمُهُ مِنْ مَصَالِحِ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، وَمَنْ أَنْ اللَّطْفَ بِهِ أَكْمَلَ ، وَالنَّفْعَ بِمَكَانِهِ أَتَمَّ وَأَعَمَّ ، فَامْتَازَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذَلِكَ عَمَّنْ سِوَاهُ ، وَبَقِيَ مَاعِدَا الرِّسَالَةِ عَلَى أَمْرِ الْإِتِّحَادِ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بِقَوْلِهِ : « أَخْصِمُكَ ^(٣) بِالنَّبِوَّةِ فَلَا نَبِوَّةَ بَعْدِي ، وَتَخْصِمُ النَّاسَ بِسَبْعٍ » ، وَقَالَ لَهُ أَيْضًا : « أَنْتَ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي » ، فَأَبَانَ نَفْسَهُ مِنْهُ بِالنَّبِوَّةِ ، وَأَثْبَتَ لَهُ مَاعِدَاهَا مِنْ جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَالْخِصَائِصِ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمَا .

وَكَانَ النَّقِيبُ أَبُو جَعْفَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، غَزِيرَ الْعِلْمِ ، صَحِيحَ الْعَقْلِ ، مُنْصَفًا فِي الْجِدَالِ ، غَيْرَ مُتَعَصِّبٍ لِمَذْهَبٍ ، - وَإِنْ كَانَ عَلَوِيًّا - وَكَانَ يَعْتَرِفُ بِفَضَائِلِ الصَّحَابَةِ ، وَيُثْنِي عَلَى الشَّيْخَيْنِ . وَيَقُولُ : إِيَّاهُمَا مَهْدَا دِينَ الْإِسْلَامِ ، وَأَرْسِيَا قَوَاعِدَهُ ؛ وَلَقَدْ كَانَ شَدِيدَ الْاضْطِرَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنَّمَا مَهْدَاهُ بِمَاتِيَسَّرَ لِلْعَرَبِ مِنَ الْفَتْوحِ وَالْغَنَائِمِ فِي دَوْلَتِهِمَا . وَكَانَ يَقُولُ فِي عُمَانَ : إِنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَيَّامِهِ كَانَتْ عَلَى إِقْبَالِهَا وَعُلُوِّ جَدِّهَا ، بَلْ كَانَتْ الْفَتْوحُ فِي أَيَّامِهِ أَكْثَرَ ، وَالْغَنَائِمُ أَعْظَمَ ، لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَرَاغَ نَامُوسَ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْلُكَ

(١) الْقُعْدَدُ : الْقَرِيبُ الْآبَاءِ مِنَ الْجَدِّ الْأَعْلَى (٢) أَيْ أَصْلًا وَاحِدًا (٣) أَخْصِمُكَ : أَغْلِبُكَ .

مسلكهما ، وكان مضعفاً في أصل القاعدة ، مغلوباً عليه ، وكثير الحب لأهله ، وأتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحمل الناس على خلعه وقتله .

[كلام أبي جعفر الحسنى في الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلى]

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يحمد الفاضل فضله ، والحديث شجون .
قلت له مرّة : ما سبب حبّ الناس لعلى بن أبى طالب عليه السلام ، وعشقهم له ، وتهالكهم فى هواه ؟ ودعنى فى الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ، وغير ذلك من الخصائص التى رزقه الله سبحانه الكثير الطيّب منها !

فضحك وقال لى : كم تجمع جرائمك على !

ثم قال : ها هنا مقدّمة ينبغى أن تُعلم ؛ وهى أن أكثر الناس موتورون من الدنيا ؛ أمّا المستحقون فلاريب فى أن أكثرهم محرومون ؛ نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له فى الدنيا ، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسّعاً عليه . وشجاع قد أبلى فى الحرب ، وانتفع بموضعه ، ليس له عطاء يكفيه ، ويقوم بضروراته ، ويرى غيره وهو جبان فِشل ، يفرق من ظله ، مالكاً لقطر عظيم من الدنيا ، وقطعة وافرة من المال والرزق . وعاقلي شديد التدبير ، صحيح العقل ، قد قدر^(١) عليه رزقه ، وهو يرى غيره أحقّ مائتاً تدرّ عليه الخيرات ، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق . وذى دين قويم ، وعبادة حسنة ، وإخلاص وتوحيد ، وهو محروم ضيق الرزق ويرى غيره يهودياً أو نصرانياً أو زنديقا ، كثير المال حسن الحال ؛ حتى إنّ هذه الطبقات المستحقّة يحتاجون فى أكثر الوقت إلى الطبقات التى لا استحقاق

(١) قدر عليه رزقه : ضيق

لها ، وتدعوهم الضرورة إلى الذلّ لهم ، والخضوع بين أيديهم . إمّا لدفع ضرر ، أو لاستجلاب نفع ، ودون هذه الطّبقات من ذوى الاستحقاق أيضا ، مانشاهده عياناً من نجّار حاذق أو بناء عالم ، أو نقاش بارع ، أو مصوّر لطيف ، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم ، وعود الوقت بهم ، وقلة الحيلة لهم ، ويُرَى غيرُهم ممن ليس يجرى مجراهم ، ولا يلحق طبقتهم ؛ مرزوقاً مرغوباً فيه ، كثير المكسب طيب العيش ، واسع الرّزق . فهذا حال ذوى الاستحقاق والاستعداد . وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل ، كحشو العامة ، فإنّهم أيضا لا يخلّون من الحقد على الدنيا والذمّ لها ، والحنق والغيط منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم وجيرانهم ، ولا يرى أحدٌ منهم قانعاً بعيشه ، ولا راضياً بحاله ، بل يستزيد ويطلب حالاً فوق حاله .

قال : فإذا عرفت هذه المقدّمة ؛ فمعلوم أنّ عليا عليه السلام كان مستحقّاً محروماً ، بل هو أميرُ المستحقّين المحرومين ، وسيدهم وكبيرهم ، ومعلوم أنّ الذين ينالهم الضيّم ، وتلحقهم المذلة والهزيمة ، يتعصّب بعضهم لبعض ، ويكونون إلباً ويدا واحدة على المرزوقين الذين ظفروا بالدنيا ، ونالوا ما ربهم منها ، لا اشتراكهم في الأمر الذى آلمهم وساءهم ، وعصّهم ومضّهم ، واشتراكهم في الأنفة والحميّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم ، وقهرهم ، وبلغ من الدنيا ما لم يبلغوه ؛ فإذا كان هؤلاء - أعنى المحرومين - متساوين في المنزلة والمرتبة ، وتعصّب بعضهم لبعض ، فما ظنك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف ، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب ، وهو مع ذلك محروم محدود ، وقد جرّعته الدنيا علاقتها ، وعلته عللاً بعد نهلٍ من صابها وصبرها ، ولقى منها برحاً بارحاً ، وجهدا جهيدا ، وعلا عليه من هودونه ، وحكمٍ فيه وفى بنيه وأهله ورهطه من لم يكن ماناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ، ولادائراً فى خلدّه ، ولا خاطراً بباله ، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له . ثمّ كان فى آخر الأمر أن قتل هذا الرجل الجليل فى

محرابه ، وقتل بنوه بعده ، وسبي حريمه ونساؤه ، وتتبع أهله وبنو عمه بالقتل والطرد والتشريد والسجون ، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم ، وانتفاع الخلق بهم . فهل يمكن ألا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص ! وهل تستطيع القلوب ألا تحبه وتهواه ، وتذوب فيه وتغنى في عشقه ، انتصارا له ، وحمية من أجله ، وأنفة مما ناله ، وامتناعا مما جرى عليه ! وهذا ، أمرٌ مركز في الطبائع ، ومخلوق في الغرائز ، كما يشاهد الناس على الجرف إنسانا قد وقع في الماء العميق ، وهو لا يحسن السباحة ، فإنهم بالطبع البشري يرقون عليه رقة شديدة ، وقد يلقى قومٌ منهم أنفسهم في الماء نحوه ، يطلبون تخليصه ، لا يتوقعون على ذلك مجازاة منه بمالٍ أو شكر ، ولا ثوابا في الآخرة ؛ فقد يكون منهم من لا يعتقد أمر الآخرة ، ولكنها رقة بشرية ، وكأن الواحد منهم يتخيل في نفسه أنه ذلك الغريق ، فكما يطلب خلاص نفسه لو كان هذا الغريق ؛ كذلك يطلب تخلص من هو في تلك الحال الصعبة ؛ للمشاركة الجنسية . وكذلك لو أن ملكا ظلم أهل بلده من بلاده ظلما عنيفا ، لكان أهل ذلك البلد يتعصب بعضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك ، والاستعداد عليه ؛ فلو كان من جملة رجل عظيم القدر ، جليل الشأن ، قد ظلمه الملك أكثر من ظلمه إياهم ، وأخذ أمواله وضياعه ، وقتل أولاده وأهله ، كان لياذم به ، وانضواؤهم إليه ، واجتماعهم والتفافهم به أعظم وأعظم ، لأن الطبيعة البشرية تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراري ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعا .

وهذا محصول قول النقيب أبي جعفر رحمه الله ، قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له ؛ لأنني لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها ، إلا أن هذا هو كان معنى قوله وفخواه ، رحمه الله . وكان لا يعتقد في الصحابة ما يعتقد أكر الإمامية فيهم ، ويسف رأى من يذهب فيهم إلى النفاق والتكفير . وكان يقول : حكمهم حكم مسلم مؤمن ، عصى في بعض الأفعال وخالف الأمر ، فحكمه إلى الله ، إن شاء أخذه ، وإن شاء غفر له .

قلت له مرّة: أفَتَقُولُ إنَّهما من أهل الجنّة؟ فقال: إِي والله! أَعْتَقَدُ ذلك، لأنَّهما
إِذَا أَنْ يَعْفُوَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ابْتِدَاءً أَوْ بِشَفَاعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ
عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ يُوَاخِذُهُمَا بِعِقَابٍ أَوْ عِقَابٍ، ثُمَّ يَنْقُلُهُمَا إِلَى الْجَنَّةِ؛ لَا أَسْتَرِيبُ فِي ذَلِكَ
أَصْلًا، وَلَا أَشْكُ فِي إِيْمَانِهِمَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحَّةِ عَقِيدَتِهِمَا.
فَقُلْتُ لَهُ: فَعُثْمَانُ؟ قَالَ: وَكَذَلِكَ عُثْمَانُ. ثُمَّ قَالَ: رَحِمَ اللهُ عُثْمَانَ! وَهَلْ كَانَ إِلَّا
وَاحِدًا مَنَّا، وَغَصْنَا مِنْ شَجَرَةِ عَبْدِ مَنْفٍ! وَلَكِنَّ أَهْلَهُ كَدَّرُوهُ عَلَيْنَا، وَأَوْقَعُوا الْعِدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَهُ وَبَيْنَنَا.

قلت له: فَيَلْزِمُكَ^(١) لَكَ عَلَى مَا تَرَاهُ فِي أَمْرِ هَؤُلَاءِ أَنْ تَجُوزَ دُخُولَ مَعَاوِيَةَ الْجَنَّةَ،
لأنَّه لَمْ تَكُنْ مِنْهُ إِلَّا الْخَالِفَةُ وَتَرَكْتَ امْتِثَالَ الْأَمْرِ النَّبَوِيِّ!

فَقَالَ: كَلَّا؛ إِنَّ مَعَاوِيَةَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَا لِلْخَالِفَةِ عَلِيًّا، وَلَا بِمُجَارَبَتِهِ إِيَّاهُ، وَلَكِنَّ
عَقِيدَتَهُ لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةً، وَلَا إِيْمَانَهُ حَقًّا، وَكَانَ مِنْ رِءُوسِ الْمُنَافِقِينَ هُوَ وَأَبُوهُ، وَلَمْ يَسْلَمْ
قَلْبُهُ قَطًّا، وَإِنَّمَا أَسْلَمَ لِسَانَهُ؛ وَكَانَ يَذْكُرُ مِنْ حَدِيثِ مَعَاوِيَةَ وَمِنْ فَلَاتَاتِ قَوْلِهِ، وَمَا حَفِظَ
عَنْهُ مِنْ كَلَامٍ يَقْتَضِي فُسَادَ الْعَقِيدَةِ شَيْئًا كَثِيرًا، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ فَأَذْكُرُهُ.

وَقَالَ لِي مَرَّةً: حَاشَ لِلَّهِ أَنْ يُثَبَّتَ مَعَاوِيَةَ فِي جَرِيدَةِ الشَّيْخَيْنِ الْفَاضِلِينَ أَبِي بَكْرٍ
وَعُمَرَ! وَاللَّهِ مَا هُمَا إِلَّا كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيذِ، وَلَا مَعَاوِيَةَ إِلَّا كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ— أَوْ قَالَ: كَالدَّرْهِمِ
الْقَسِيِّ^(٢)— ثُمَّ قَالَ لِي: فَمَا يَقُولُ أَصْحَابُكُمْ فِيهِمَا؟ قُلْتُ: أَمَّا الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ رَأْيُ الْمُعْتَزَلَةِ
بَعْدَ اخْتِلَافٍ كَثِيرٍ بَيْنَ قَدَمَائِهِمْ فِي التَّفْضِيلِ وَغَيْرِهِ، أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ الْجَمَاعَةِ،
وَأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْأَفْضَلَ لِمَصْلَحَةِ رَأَوْهَا؛ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَصٌّ يَقْطَعُ الْعُذْرَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ
إِشَارَةً وَإِيْمَاءً لَا يَتَضَمَّنُ شَيْءٌ مِنْهَا صَرِيحَ النَّصِّ، وَإِنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَازَعَ ثُمَّ بَايَعَ،

(١) ب: « فيلزم لك ».

(٢) درهم قسي، وتخفف سمينه، أي رديء.

وجَمَحَ ثم استجاب . ولو أقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ولا بلزومها ، ولو جرد السيف كما جرده في آخر الأمر لقلنا بفسق كلِّ مَنْ خالفه على الإطلاق ، كائناً مَنْ كان ، ولكنه رضى بالبيعة أخيراً ، ودخل في الطاعة .

وبالجملة ، أصحابنا يقولون : إنَّ الأمر كان له ، وكان هو المستحق والمتعين ، فإن شاء أخذه لنفسه ، وإن شاء ولّاه غيره ، فلما رأيناه قد وافق على ولاية غيره ، اتبعناه ورضينا بما رضى . فقال : قد بقي بيني وبينكم قليل ؛ أنا أذهب إلى النص وأتم لا تذهبون إليه !

فقلت له : إنَّه لم يثبت النص عندنا بطريق يوجب العلم ؛ وما تذكرونه أتم صريحاً فأتم تنفردون بنقله ، وما عدا ذلك من الأخبار التي نشارككم فيها ، فلها تأويلات معلومة . فقال لى وهو ضَجِر : يا فلان ، لو فتحنا باب التأويلات ، لجاز أن يتناول قولنا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؛ دعنى من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنفوس أنها غير مرادة ، وأن المتكلمين تكلفوها وتعسفوها ، فإنما أنا وأنت في الدار ولا ثالث لنا ، فيستحي أحدنا من صاحبه أو يخافه .

فلما بلغنا إلى هذا الموضع ؛ دخل قوم ممن كان يخشاه ؛ فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث ، وخضنا في غيره .

[سياسة على ومعاوية وإيراد كلام للجاحظ في ذلك]

فأمّا القول في سياسة معاوية ، وأنَّ شناعة على عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خير من سياسة أمير المؤمنين ، فيكفيها في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان ، ونحن نحكيه بألفاظه .

قال أبو عثمان : وربما رأيت بعض مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتّحصيل والفهم والتمييز - وهو من العامة ويظنّ أنّه من الخاصة - يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً ، وأصحّ فكرّاً ، وأجود رويّة ، وأبعد غاية ، وأدقّ مسلكاً ؛ وليس الأمر كذلك ، وسأزعم إليك بجملة تعرف بها موضع غلّطه ، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله .

كان علىّ عليه السلام لا يستعمل في حربّه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ؛ كما يستعمل الكتاب والسنة ، ويستعمل جميع المكاييد ، حلالها وحرامها ، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وخاقان إذا لاقى رُنبيل^(١) . وعلىّ عليه السلام يقول : لا تبدءوهم بالقتال حتّى يبدءوكم ، ولا تتبعوا مديراً ، ولا تُجهّزوا علىّ جريح ، ولا تفتحوا باباً مغلقاً ؛ هذه سيرته في ذى الكلاع ، وفي أبي الأعور الشّلمى ، وفي عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وفي جميع الرؤساء ، كسيرته في الحاشية والحشور والأتباع والسّفلة وأصحاب الحروب ، إنّ قدّروا على البيّات بيّتوا ، وإن قدّروا على رَضخ الجميع بالجنّدل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخّروه إلى ساعة ، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخّروا الحرق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار ، ولم يدعوا أن ينصبّوا المجانيق^(٢) ، والعرّادات^(٣) ، والنقب ، والتّسريب ، والدّبّابات^(٤) ، والكمين^(٥) ، ولم يدعوا دسّ السموم ، ولا التّضريب بين الناس بالكذب ، وطرح

(١) رنبيل : صاحب الترك .

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة .

(٣) العرّادات : جمع عرّادة ؛ وهى من آلات الحرب ؛ ترمى بالحجارة المرمى البعيد ، إلا أنّها أصغر من المنجنيق .

(٤) الدّبابة : آلة تتخذ في الحصار ، يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن ؛ فينقبونه وهم في جوفها ؛ وجملةا دّبابات .

(٥) الكمين : القوم يكمّون في الحرب حيلة ؛ وهو أن يستخفوا في مكان ؛ بحيث لا يفتن لهم ثم ينتهزوا غرة العدو فينهضوا عليهم .

الكتب في عساكرهم بالسعيات ، وتوهم الأمور ، وإيحاش بعض من بعض ، وقتلهم بكل آلة وحيلة ؛ كيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال ! فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير ؛ وما لا يتناهى من المكائد والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ، ولو سمي إنسان إنساناً باسمه لكان قد صدق ، وليس له اسم غيره ، ولو قال : هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كل ما خطر على البال ، لكان كاذباً في ذلك ، وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحق والباطل ، وكذلك الشقم والصحة ، وكذلك الخطأ والصواب ؛ فعلى عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا ، ومنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا ، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه ، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكراء^(١) والمكائد والآراء ، فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكائد ، وكثرة غرائبه في الخداع ، وما اتفق له وتهياً على يده ، ولم يروا ذلك من على عليه السلام ، ظنوا بقصر عقولهم ، وقلة علومهم ، أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند على عليه السلام . فانظر بعد هذا كله ، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف ! ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأى على عليه السلام ، وخالف أمره !

فإن زعمت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت ، وليس في هذا اختلافنا ، ولا عن غرارة أصحاب على عليه السلام ومجتهم وتسرعهم وتنازعهم دفعنا ، وإنما كان قولنا في التميز بينهما في الدهاء والنكراء وصحة العقل والرأي والبزلاء^(٢) ؛ على أننا لا نصف الصالحين

(١) النكراء : الدهاء والفتنة .

(٢) يقال : خطئة بزلاء ، أي تفصل بين الحق والباطل .

بالدهاء والنكراء ؛ لا نقول : ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبي قحافة ! وما كان أنكر عمر بن الخطاب ! ولا يقول أحدٌ عنده شيء من الخير : كان رسول الله صلى الله عليه وآله أذهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة ؛ لأن هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ في مديح أصحاب الأرب ومن يتعمق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها ، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر ، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر ، فإن هؤلاء لا يُمدحون بالدهاء والنكراء ، ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه . ألا ترى أن المغيرة بن شعبة - وكان أحد الدهاة - حين ردّ على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب - وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضا : أنت كنت تفعل ، أوتوهم عمر شيئا فيلقنه عنك ! مارأيت عمر مستخليا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل ، كان عمر والله أعقل من أن يُخدع ، وأفضل من أن يُخدع . ولم يذكره بالدهاء والنكراء ، هذا مع عجبهِ بإضافة الناس ذلك إليه ، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة ، كان ذلك غير مقبول منه ؛ فهذا هذا .

وكذلك كان حُكم قول معاوية للجميع : أخرجوا إلينا قتلة عثمان ، ونحن لكم سلم . فاجهد كل جهديك ، واستعن بمن شايئك إلى أن تتخلص إلى صواب رأي في ذلك الوقت أضله على ؛ حتى تعلم أن معاوية خادع ، وأن عليا عليه السلام كان الخدوع .

فإن قلت : فقد بلغ ما أراد ، ونال ما أحب ، فهل رأيت كتابنا وُضع إلا على أن عليا كان قد امتحن في أعجابه وفي دهره ، بما لم يمتحن إمام قبله من الاختلاف والمنازعة ، والتشاح من الرياسة والتسرّع والعجلة ! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان ! أولسنا قد فرغنا من هذا الأمر ، وقد علمنا أن ثلاثة نفر تواطئوا على قتل ثلاثة نفر ، فانفرد ابن ملجم

بإتّماس ذلك من علىّ عليه السلام، وانفرد البرك الصّريحيّ بإتّماس ذلك من عمرو بن العاص،
وانفرد الآخر - وهو عمرو بن بكر التميميّ - بإتّماس ذلك من معاوية ، فكان من الاتفاق
أو من الامتحان ، أن كان علىّ من بينهم هو المقتول .

وفي قياس مذهبكم أن تزعموا أن سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانت بحزْم منهما ،
وأنّ فتل علىّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه ، فإذا قد تبين لكم أنّه من الابتلاء
والامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه ، فكلّ شيء سوى ذلك ،
فإنّما هو تبعٌ للنفس .

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع ، ومن تأمّله بعين الإنصاف ، ولم يتبع الهوى
علم صحّة جميع ما ذكره ، وأنّ أمير المؤمنين دُفع - من اختلاف أصحابه ، وسوء
طاعتهم له ؛ ولزومه سنن الشريعة ، ومنهج العدل ، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن
قاعدة الشرع في استمالة الناس إليهم بالرغبة والرّهبة - إلى ما لم يُدفع إليه غيرد . فلولا أنّه
عليه السلام كان عارفاً بوجوه السياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة ، حاذقاً في ذلك ، لم يجتمع
عليه إلّا القليل من الناس ، وهم أهلُ الآخرة خاصّة ؛ الذين لا ميلَ لهم إلى الدنيا ، فلمّا
وجدناه دبّر الأمر حين وُلّيه ؛ واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّة
والحصر ، وقاتل بهم أعداءه الذين حالهم حالهم ، فظفر في أكثر حروبه ، ووقف الأمر بينه
وبين معاوية على سواء ؛ وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار - علمنا أنّه من معرفة تدبير
الدول والسلطان بمكان مكيّن .

[ذكر أقوال من طعن في سياسة عليّ والردّ عليها]

وقد تعلق مَنْ طعن في سياسته بأمور :

منها قولهم : لو كان حين بُوع له بالخلافة في المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد ، ويبايعه معاوية وأهل الشام ثم يعزله بعد ذلك ؛ لكان قد كُفي ما جرى بينهما من الحرب .

والجواب : أنّ قرائن الأحوال حينئذ ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لا يبائع له وإن أقرّه على ولاية الشام ، بل كان إقراره له على إمرة الشام أقوى لحال معاوية ، وآكد في الامتناع من البيعة ؛ لأنّه لا يخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول : كان ينبغي أن يطالبه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام ، فيكون الأمران معاً ، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة . أو يتقدّم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان . فإنّ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاوية على أهل الشام تقليده بالإمرة ، فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر في أنفسهم ؛ لولا أنّه أهل لذلك لما اعتمده علىّ عليه السلام معه ، ثم يماطله بالبيعة ، ويحاجزه عنها . وإن كان الثاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين عليه السلام . وإن كان الثالث فهو كالقسم الأول ؛ بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلف والعصيان . وكيف يتوهم مَنْ يعرف السّير أنّ معاوية كان يبائع له ؛ لو أقرّه على الشام وبينه وبينه مالا تبرك الإبل عايه ، من التّرات القديمة ، والأحقاد ، وهو الذي قتل حنظلة أخاه والوليد خاله ، وعتبة جدّه في مقام واحد ، ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان ، حتى أغلظ كل واحدٍ منهما لصاحبه ، وحتى تهدّده معاوية ، وقال له : إنّني شاخص إلى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن

انحصت^(١) منه شعرة واحدة لأضر بَنك بمائة ألف سيف . وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم .

وأما قول ابن عباس له عليه السلام : ولّه شهراً واعزّله دهنراً ، وما أشار به المغيرة ابن شعبة ، فإنهما قالاً ماتواهما ، وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما ، وعلىّ عليه السلام كان أعلم بحاله مع معاوية ، وأنها لا تقبل العلاج والتدبير . وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكره ودهائه ، وما كان في نفسه من علىّ عليه السلام من قتل عثمان ومن قبل قتل عثمان ، أنه يقبل إقرار علىّ عليه السلام له على الشام ؛ وينخدع بذلك ، ويباع ويعطى صفقة^(٢) يمينه ! إن معاوية لأدهى من أن يكاد بذلك ، وإن علياً عليه السلام لأعرف بمعاوية ممن ظنّ أنه لو استماله بإقراره لبائع له ، ولم يكن عند علىّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلاّ السيف ؛ لأنّ الحال إليه كانت تثول لاحالة ، فجعل الآخر أولاً .

وأنا أذكر في هذا الموضع خبراً رواه الزبير بن بكار في " الموقيات " ، ليعلم من يقف عليه ، أن معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة علىّ عليه السلام أبداً ، ولا يعطيه البيعة ، وأنّ مضادّه له ، ومباينته إياه كمضادة السواد للبياض ، لا يجتمعان أبداً ، وكما بينة السلب للإيجاب ، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً . قال الزبير :

حدثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسطام ، قال : حدثني محمد بن يعقوب ابن أبي الليث ، قال : حدثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكيّ ، عن أبيه ، عن جدّه الفضل بن يحيى ، عن الحسن بن عبد الصمد ، عن قيس بن عرفة ، قال : لما حصر عثمان أبرد مروان بن الحكم بنجره بريدن : أحدهما إلى الشام ، والآخر إلى اليمن - وبها يومئذ يعلى بن منية - ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب ؛ فيه أنّ بني أمية في الناس كالشامة الحمراء .

(١) انحص الشعر : انجرد وتناثر .

(٢) الصفقة هنا : المباينة

وَأَنَّ النَّاسَ قَدْ قَعَدُوا لَهُمْ بِرَأْسِ كُلِّ مَحَجَّةٍ ، وَعَلَى كُلِّ طَرِيقٍ ، فَجَعَلُوهُمْ مَرْمَى الْعَرَّةِ وَالْعُضِيَّةِ^(١) ، وَمَقْدَفِ الْقَشْبِ^(٢) وَالْأَفْيَكَةِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهَا لَمْ تَأْتِ عُثْمَانَ إِلَّا كَرْهًا ، تَجْبِذُ مِنْ وَرَائِهَا . وَإِنِّي خَائِفٌ إِنْ قَتِلَ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ بِمَنَاطِ الثَّرِيَّا ، إِنْ لَمْ نَصِرْ كَرَصِيفِ الْأَسَاسِ الْحَكَمِ ، وَلَتُنْ وَهَى عَمُودُ الْبَيْتِ لَتَتَدَاعَيْنِ جَدْرَانُهُ ، وَالَّذِي عَيْبَ عَلَيْهِ إِطْعَامُكُمَا الشَّامَ وَالْمِينَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّكُمْ تَابِعَاهُ إِنْ لَمْ تَحْذَرَا ، وَأَمَّا أَنَا فَمُسَاعَفٌ كُلِّ مُسْتَشِيرٍ ، وَمَعِينٍ كُلِّ مُسْتَصْرَخٍ ، وَمُجِيبٌ كُلِّ دَاعٍ ، أَتَوَقَّعُ الْفُرْصَةَ فَآتِبُ وَثَبَةَ الْفَهْدِ أَبْصَرَ غَفْلَةَ مُقْتَنَصَةٍ ؛ وَلَوْلَا مَخَافَةُ عَطَبِ الْبَرِيدِ ، وَضِيَاعِ الْكُتُبِ ، لَشَرَحْتُ لَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا تَفْزَعَانِ مَعَهُ إِلَى أَنْ يَحْدُثَ الْأَمْرُ ؛ فَجَدًّا فِي طَلَبِ مَا أَنْتُمَا وَلِيَّاهُ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ فَلْيَسْكُنِ الْعَمَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكُتِبَ فِي آخِرِهِ :

وَمَا بَلَغَتْ عُثْمَانَ حَتَّى تَخَطَّطَتْ رَجَالٌ وَدَانَتْ لِلصَّغَارِ رَجَالٌ
لَقَدْ رَجَعْتُ عَوْدًا عَلَى بَدْءِ كَوْنِهَا وَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَلَمْصِيرُ زَوَالٌ
سَيَبْدَى مَكْنُونِ الضَّمَائِرِ قَوْلُهُمْ وَيُظْهِرُ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَالٌ
فَإِنْ تَقَعَّدَا لَا تَطْلُبَا مَا وَرَثْتُمَا فَلَيْسَ لَنَا طَوْلُ الْحَيَاةِ مَقَالٌ
نَعِيشُ بَدَارِ الذِّلِّ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَتُظْهِرُ مِنْهَا كَأُبَّةٌ وَهَزَالٌ

فَلَمَّا وَرَدَ الْكِتَابُ عَلَى مَعَاوِيَةَ ، أَدْنَى فِي النَّاسِ : الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ ! ثُمَّ خُطِبَهُمْ خُطْبَةً الْمُسْتَنْصَرِ الْمُسْتَصْرَخِ .

وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَرَدَ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ الْجَوَابَ ، كِتَابُ مَرْوَانَ بِقَتْلِ عُثْمَانَ ، وَكَانَتْ نَسَخَتُهُ : وَهَبَ اللَّهُ لَكَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ قُوَّةَ الْعِزِّ ، وَصَلَاحَ النِّيَّةِ ، وَمَنْ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَاتَّبَاعِهِ ؛ فَإِنِّي كَتَبْتُ إِلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،

(١) الْعُضِيَّةُ : الْإِفْكُ وَالْبُهْتَانُ .

(٢) الْقَشْبُ مِنَ الْكَلَامِ : الْفَرَى ، وَعَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ : الْقَاشِبُ : الَّذِي يَعْيِبُ النَّاسَ بِمَا فِيهِ .

وَأَيَّ قِتْلَةٍ قُتِلَ ! نُحِرَ كَمَا يُنْحَرُ البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل ، بعد أن نُقِبَتْ صفحته بطي المراحل وسير الهجير ، وإني معلّمك من خبره غير مقصر ولا مطيل : إن القوم استطالوا مدته ، واستقلّوا ناصره ، واستضعفوه في بدنه ، وأملّوا بقتله بسط أيديهم فيما كان قبضه عنهم ، واعصو صبوا^(١) عليه ، فظلّ محاصراً ، قد منّع من صلاة الجماعة ، وردّ المظالم ، والنظر في أمور الرعيّة ، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه . فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوفهم الله وناشدهم ، وذكّرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ، ولم ينكروه ، ثم رمّوه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعة إلى قتله ، فوعدهم التوبة ممّا كرهوا ، ووعدّهم الرجعة إلى ما أحبّوا . فلم يقبلوا ذلك ، ونهبوا داره ، واتهكوا حرمة ، ووثبوا عليه ، فسفكوا دمه ، وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءها ، منكفئين قبل ابن أبي طالب ، انكفاء الجراد إذا أبصر المرعى . فأخاف بني أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيوق إن لم يثأره ثائر ! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكُنْه . والسلام .

فلما ورد الكتاب على معاوية ، أمر بجمع الناس ، ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون ، وقلقل القلوب ، حتى علت الرنة ، وارتفع الضجيج ، وهمّ النساء أن يتسلّحن ، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر بن كريز ، والوليد بن عقبة ، ويعلى بن مُنِيّة — وهو اسم أمّه — وإنما اسم أبيه أميّة .

فكان كتاب طلحة : أما بعد ، فإنّك أقلّ قریش في قریش وترا ، مع صباحة وجهك وسماحة كفّك ، وفصاحة لسانك . فأنت بإزاء من تقدّمك في السابقة ، وخامس المبشرين بالجنة ، ولك يوم أحد وشرفه وفضله ، فسارع رحمك الله إلى ما تقلّدك الرعيّة من أمرها ممّا لا يسعك التخلف عنه ، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به ، فقد أحكمت لك الأمر

(١) اعصو صب القوم : اجتمعوا وصاروا عصائب .

قَبْلِي ، والزبير فخير متقدّم عليك بفضل ، وأينكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام ، والأمر من بعده للمقدّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لك رشد الموقنين . والسلام .

وكتب إلى الزبير : أمّا بعد ، فإنك الزبير بن العوام ، ابن أبي خديجة وابن عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، وسلفه ، وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين ، وأنت الباذل في الله مهيجته بمكة عند صنيحة الشيطان ؛ بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ . بالسيف المنصلت ، تخبط خَبْطَ الجمل الرديع^(١) ؛ كلّ ذلك قوة إيمان ، وصدق يقين ، وسبقت لك من رسول الله صلى الله عليه وسلم البشارة بالجنة ، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمة . واعلم يا أبا عبد الله ، أنّ الرعية أصبحت كالغنم المتفرقة لغيبه الراعي ، فسارع رحمك الله إلى حنّ الدماء ولمّ الشعث ، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قبل تفاقم الأمر وانتشار الأمة ، فقد أصبح الناس على شفا جرفٍ هارٍ عما قليل ينهار إن لم يُرَأَب . فشمّر لتأليف الأمة ، وابتغِ إلى ربك سيلا ، فقد أحكمتُ الأمر على من قبلي لك ولصاحبك على أن الأمر للمقدّم ، ثمّ لصاحبه من بعده . جعلك الله من أئمة الهدى ، وبُعاة الخير والتقوى . والسلام .

وكتب إلى مروان بن الحكم :

أمّا بعد ، فقد وصل إلى كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركبوه به ، ونالوه منه ، جهلاً بالله وجراءة عليه ، واستخفافاً بحقه ، ولأمانى لوّح الشيطانُ بها في شرك الباطل ليدّهدهم^(٢) في أهويّات الفتن ، ووهّدات الضلال ، ولعمري لقد صدق عليهم ظنه ، ولقد اقتنصهم بأنشطة فحّة . فعلى رسلك أبا عبد الله ، يمشى الهويني ويكون أولاً ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن كالقنّ لا يصطاد إلا غيلةً ، ولا يتشازر^(٣) إلا عن حيلة ،

(١) الرديع ، أى المزدوع ؛ من ردعه ؛ إذا كفه .

(٢) أى « ليرديهم »

(٣) تشازر : نظر بمؤخر العين .

وكالثعلب لا يفلت إلا روغانا . واخف نفسك منهم إخفاء القنفذ رأسه عند لمس الأ كف ،
وامتهن نفسك امتهان من يئأس القوم من نصره وانتصاره ، وابحث عن أمورهم بحث
الدجاجة عن حب الدخن عند فقاسها ، وأنقل^(١) الحجاز فإني منغل الشام . والسلام .

وكتب إلى سعيد بن العاص :

أما بعد ، فإن كتاب مروان ورد علي من ساعة وقعت النازلة ، تقبل به البرد بسير المطي
الوجيف^(٢) ، تتوجس تتوجس الحية الذكر خوف ضربة الفأس ، وقبضة الحاي^(٣) ،
ومروان الرائد لا يكذب أهله ، فعلام الإفكالك يا بن العاص ، ولات حين مناص ! ذلك أنكم
يابني أمية عما قليلا تسألون أدنى العيش من أبعاد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفا ، ويصد
عنكم من كان لكم واصلا ، متفرقين في الشعاب تتمنون لمظة^(٤) المعاش . إن أمير المؤمنين عتب
عليه فيكم ، وقيل في سبيلكم ، فقيم القعود عن نصرته ، والطلب بدمه ، وأتم بنو أبيه ،
ذوو رحمه وأقربوه ، وطلاب ثأره ! أصبحتم متمسكين بشظف معاش زهيد ، عما قليل
ينزع منكم عند التخاذل وضعف القوى . فإذا قرأت كتابي هذا فذب ديب البرء في
الجسد النعيف ، وسر سير النجوم تحت الغمام ، واحشد حشد الذرة^(٥) في الصيف
لأنجحارها في الصرد ، فقد أيدتكم بأسد وتيم . وكتب في الكتاب :

تالله لا يذهب شئني باطلا حتى أبير مالكا وكاهلا^(٦)

(١) أنفلهم ، أي أحملهم على الضغن .

(٢) الوجيف : السير السريع .

(٣) الحاي : الذي يرق الحية .

(٤) المظة في الأصل : اليسير من السمن ؛ تأخذه بإصبعك ؛ يقال : عنده لمظة من سمن ، ثم أطلق على كل
شئ قليل .

(٥) الذر : صغار النمل .

(٦) لامرئ القيس ، ديوانه ١٣٤ . أبير : أهلك . ومالك وكاهل من بني أسد

القَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْحَلَّاحَ (١) خَيْرَ مَعْدٍ حَسْبًا وَنَائِلًا (٢)

وكتب إلى عبد الله بن عامر :

أما بعد ، فإن المنبر مركبٌ ذلول ، سهل الرياضة ، لا ينافذك اللجام . وهيئات ذلك
إلا بعد ركوب أثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب . وكأني بكم يابني أمية
شعاريير (٣) كالأوارك ، تقودها الحداة ، أو كرخم الخندمة (٤) تذرق (٥) خوف العقاب ،
فنب الآن رحمك الله قبل أن يستشري الفساد وندب (٦) السوط جديد ، والجرح لما
يندمل ؛ ومن قبل استضراء الأسد ، والتقاء لحيتيه على فريسته . وساور الأمر مساورة الذئب
الأطلس كسيرة القطيع . ونازل الرأي ، وانصب الشرك ، واربم عن تمكّن ، وضع الهناء
مواضع النقب (٧) ، واجعل أكبر عدتك الحذر ، وأحد سلاحك التحريض . واغض
عن العوراء ، وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولان الأشوس ، وقوّ عزم المريد ،
وبادر العقبة ، وازحف زحف الحية . واسبق قبل أن تُسبق ، وقم قبل أن يقام لك .
واعلم أنك غير متروك ولا مهمّل ، فإنّي لكم ناصح أمين . والسلام .

وكتب في أسفل الكتاب :

(١) الحلّاح : السيد الشريف ؛ يعني أباه .

(٢) قال شارح ديوانه : قوله : « خير معد » ؛ هو راجع إلى قوله : « مالكا وكاهلا » ؛ لأن بني
أسد من معد ؛ وإنما يريد : حتى أهلك أشرف معد وخيرهم ؛ انتصارا لأبي . النائل : العطاء .

(٣) شعاريير : متفرقون . والأوارك : جمع أركة ، وهي الناقة التي تلزم الأراك وترعاه ، وشأنها التفرق
لتتبع الأراك .

(٤) الخندمة : موضع

(٥) ذرق الطائر : سلح .

(٦) ندب السوط : أثره .

(٧) هنا البعير : طلاه بالهناء ؛ وهو الطران ، والنقب جمع نقبة ؛ وهي أول ما يبدو من الجرب ، وأصله
قول دريد بن الصمة :

متبدلاً تبدؤ محاسنه يضعُ الهناء مواضع النقبِ

وانظر اللسان (نقب) .

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا (١)
تَحِيَّةً مَنْ أَهْدَى السَّلَامَ لِأَهْلِهِ إِذَا شِطَّ دَارًا عَنْ مِزَارِكَ سَلَمًا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكَهُ هُلُكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَنِيَانِ قَوْمٍ تَهْدَمًا
وَكُتِبَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ :

يَا بْنَ عَقْبَةَ ، كُنَ الْجَيْشُ ، وَطَيْبَ الْعَيْشُ أَطِيبَ مِنْ سَفْعِ سُمُومِ الْجُوزَاءِ عِنْدَ اعْتِدَالِ
الشَّمْسِ فِي أَفْقِهَا ؛ إِنَّ عَثْمَانَ أَخَاكَ أَصْبَحَ بَعِيدًا مِنْكَ فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ ظِلًّا تَسْتَكِنُّ بِهِ ؛ إِنِّي
أَرَاكَ عَلَى التَّرَابِ رَقُودًا ؛ وَكَيْفَ بِالرَّقَادِ بَكَ ! لَارْقَادَ لَكَ ؛ فَلَوْ قَدْ اسْتَتَبَّ هَذَا الْأَمْرَ لِمُرِيدِهِ
أَلْفَيْتَ كَشْرِيْدَ النِّعَامِ ، يَفْزَعُ مِنْ ظِلِّ الطَّائِرِ ؛ وَعَنْ قَلِيلٍ تَشْرَبُ الرِّقْنَ ، وَتَسْتَشْعِرُ الْخَوْفَ .
أَرَاكَ فَسِيحَ الصَّدْرِ ، مُسْتَرْخِيَ اللَّبِّبِ ، رِخْوَ الْحَزَامِ ، قَلِيلَ الْكَتَرَاتِ ؛ وَعَنْ قَلِيلٍ يَجْتَثُّ
أَصْلَكَ . وَالسَّلَامَ .

وَكُتِبَ فِي آخِرِ الْكِتَابِ :

اخْتَرْتُ نَوْمَكَ أَنْ هَبَّتْ شَامِيَّةٌ عِنْدَ الْمَجِيرِ وَشَرَبًا بِالْعَشِيَّاتِ
عَلَى طَلَابِكَ ثَارًا مِنْ بَنِي حَكَمٍ هَيْهَاتَ مِنْ رَاقِدِ طَلَابٍ ثَارَاتِ
وَكُتِبَ إِلَى يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ :

حَاطَكَ اللَّهُ بِكَلَاءَتِهِ ، وَأَيْدِكَ بِتَوْفِيقِهِ . كَتَبْتُ إِلَيْكَ صَبِيحَهُ وَرَدَ عَلَى كِتَابِ مَرْوَانَ
بِخَبَرِ قَتْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَشَرَحَ الْحَالَ فِيهِ . وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ طَالَ بِهِ الْعُمُرُ حَتَّى نَقَصَتْ
قَوَاهُ ، وَثَقُلَتْ نَهَضَتُهُ ، وَظَهَرَتْ الرَّعْشَةُ فِي أَعْضَائِهِ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَقْوَامٌ لَمْ يَكُونُوا عِنْدَهُ
مَوْضِعًا لِلْإِمَامَةِ وَالْأَمَانَةِ وَتَقْلِيدِ الْوَلَايَةِ ، وَثَبُّوا بِهِ ، وَأَلْبَسُوا عَلَيْهِ ؛ فَكَانَ أَعْظَمُ مَا نَقَمُوا عَلَيْهِ
وَعَابَوْهُ بِهِ ، وَلَا يَتَكَ الْيَمِينَ وَطُولَ مَدَّتِكَ عَلَيْهَا . ثُمَّ تَرَامَى بِهِمُ الْأَمْرُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، حَتَّى

(١) لعبدة بن الطبيب يرثي قيس بن عاصم . الشعر والشعراء ٧٠٧ .

ذبحوه ذبح النطيحة^(١) مبادرا بها القوت ، وهو مع ذلك صائم معانق المصحف ،
يتلو كتاب الله . فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرسول ، والإمام المقتول . على غير جرم
سفكوا دمه ، واتهكوا حرمة ، وأنت تعلم أن بيعته في أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خير
في دنيا تعدل بنا عن الحق ، ولا في إمرة تورثنا النار . وإن الله جل ثناؤه لا يرضى بالتعذير
في دينه ، فشمرد لدخول العراق .

فأما الشام فقد كفيئت أهلها ، وأحكمت أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله
أن يلقاك بمكة ، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين
المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يهد لكم العراق ، ويسهل لكم حزنه عقابها^(٢) .
واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك بادي بدء لاستنطاف ماحوته يدك من المال ،
فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله .

وكتب في أسفل الكتاب :

ظل الخليفة محصوراً يناشدُهم بالله طوراً ، وبالقرآن أحياناً
وقد تألف أقوام على حنقٍ عن غير جرمٍ وقالوا فيه بهتاناً
فقام يذكركم وعد الرسول له وقوله فيه إسراء وإعلاناً
فقال كفوا فإني معتب لكم وصارف عنكم يعلى ومرواناً
فكذبوا ذاك منه ثم ساوره من حاض لبته ظلماً وعدواناً^(٣)

قال : فكتب إليه مروان جواباً عن كتابه :

أما بعد ، فقد وصل كتابك ، فنعم كتاب زعيم العشرة ، وحامي الذمار ! وأخبرك

(١) النطيحة : الشاة المنطوحة

(٢) العقاب ، بالكسر : جمع عقبة ، وهي في الأصل : المرق الصعب من الجبال .

أن القوم على سنن استقامة إلا شظايا شعب ، شئتَ بينهم مقولاً على غير مجابهة ، حسب ما تقدم من أمرك ؛ وإنما كان ذلك رسيساً^(١) العصاة ، ورمى أخدر من أغصان الدوحة ؛ ولقد طويت أديمهم على نغل يحلم^(٢) منه الجلد . كذبت نفس الظان بنا ترك المظلمة ، وحب الهجوع ؛ إلا تهوية الراكب العجل ، حتى تجذّ جماجم ، وجماجم جذّ العراجين المهذلة حين إيناعها ، وأنا على صحة نيتي ، وقوة عزيمة وتحريك الرحم لي ، وغليان الدم مني ؛ غير سابقك بقول ، ولا متقدّمك بفعل ، وأنت ابن حرب ، طلاب الترات ، وآبي الضيم . وكتابي إليك وأنا كحرباء السبب في الهجير ترقب عين الغزالة^(٣) ، وكالسبع المفيل من الشّرك يفرّق من صوت نفسه ، منتظراً لما تصحّ به عزيمةك ؛ ويردّ به أمرك ؛ فيكون العمل به ، والمحتذى عليه .

وكتب في أسفل الكتاب :

أَيُقْتَلُ عَمَانٌ وَتَرَقَّادُ مَوْعُنَا وَنَرْقُدُ هَذَا اللَّيْلَ لَا نَتَفَرَّعُ !
وَنَشْرَبُ بَرْدَ الْمَاءِ رِيًّا وَقَدْ مَضَى عَلَى ظَمَأٍ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَيَرْكَعُ
فِيَّيْ وَمَنْ حَجَّ الْمَلْبُوثَ بَيْتَهُ وَطَافُوا بِهِ سَعِيًّا ، وَذُو الْعَرْشِ يَسْمَعُ
سَأْمَنُ نَفْسِي كُلَّ مَا فِيهِ لَذَّةٌ مِنْ الْعَيْشِ حَتَّى لَا يُرَى فِيهِ مَطْمَعُ
وَأَقْتُلُ بِالْمَظْلُومِ مَنْ كَانَ ظَالِمًا وَذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ مَا عَنْهُ مَدْفَعُ
وكتب إليه عبد الله بن عامر :

(١) الرسيس : الشيء الثابت ، يريد أن ذلك دأبهم وعادتهم

(٢) حلم الجلد ، إذا فسد

(٣) السبب : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيدة . والهجير : شدة الحر ، والغزالة : الشمس .

أما بعد ، فإنَّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوى إليها فراخها تحتها ، فلما أقصده ^(١) السهم صرنا كالنعام الشارد . ولقد كنت مشترك الفكر ، ضالَّ الفهم ، أتمس دريئةً أستجنُّ بها من خطأ الحوادث ، حتى وقع ^(٢) إلى كتابك ، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادي ، فأنا كواجد الحجَّة كان إلى جانبها حائراً ، وكأني أعين ما وصفت من تصرف الأحوال .

والذي أخبرك به أنَّ الناس في هذا الأمر تسعة لك وواحد عليك . والله لَموتٌ في طاب العزَّ أحسنُ من الحياة في الذلَّة ، وأنت ابنُ حَرْبٍ فتى الحروب ، ونُصار ^(٣) بنى عبد شمس ، والهَمَّ بك منوطةٌ وأنت مُنهضها ، « فإذا نهضتَ فليس حينَ قعود » وأنا اليوم على خلاف ما كانت عليه عزمي من طلب العافية ، وحبَّ السلامة قبل قرعك سويداء القلب بسوط الملام ، ولنعم مؤدِّب العشيرة أنت ! وإنا لنرجوك بعد عثمان ، وهأنا متوقع ما يكون منك لأمثله ، وأعمل عليه إن شاء الله .

وكتب في أسفل الكتاب :

لا خيرَ في العيشِ في ذلٍّ ومنقصةٍ	والموتُ أحسنُ من ضيِّمٍ ومن عارٍ
إنا بنو عبدِ شمسٍ معشرٌ أنفٌ	غرَّ جَحَاجِحَةً طُلَّابُ أوتارٍ
والله لو كانَ ذمِّياً مجاورُنا	ليطلب العزَّ لم نقعدُ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدفنَ بمزبلةٍ	على القمامة مطروحاً بها عارٍ !
فازحف إلى فإني زاحفٌ لهم	بكلِّ أبيض ماضٍ الحدُّ بتارٍ

وكتب إليه الوليد بن عُقبة :

أما بعد ، فإنَّك أسدُّ قریش عقلاً ، وأحسنهم فهماً ، وأصوبهم رأياً ؛ معك حسن

(١) أقصده : أصابه . (٢) د : « دفع » . (٣) ب : « نصار » .

السياسة ، وأنت موضع الرياسة ، توردُ بمعرفة ، وتصدّر عن منهل روى . مُناوئك كالمنقلب من العيوق ^(١) يهوى به عاصف الشمال إلى لُجّة البحر .

كتبت إلى تذكر طيب الخيش ، ولين العيش ، فلأ بطنى على حرام إلا مُسكة الرّمق ^(٢) حتى أفرى ^(٣) أوداج قتلة عثمان فرى الأهب ^(٤) بشبابة الشفار . وأما اللين فهيهاث إلا خيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب ، إنّا على مُداجاة ، ولما تبدّ صفحاتنا بعد ؛ وليس دون الدم بالدم مزحل . إن العار منقصة ، والضعف ذل . أيخبط قتلة عثمان زهرة الحياة الدنيا ، ويسقون برّد المعين ، ولما يمتطوا الخوف ، ويستحلّسوا الحذر بعد مسافة الطرّد وامتطاء العقبة الكئود في الرحلة ! لا دعيت لِعُقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حرباً تضع الحوامل لها أطفالها ! قد ألوت بنا المسافة ، ووردنا حياض المنايا ، وقد عقلت نفسى على الموت عَقْلَ البعير ، واحتسبت أنى ثانى عثمان أو أقتل قاتله ! فعجل على ما يكون من رأيك ، فإننا منوطون بك ، متبعون عَقَبِكَ ، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية ؛ لما أخافه من إحكام القوم أمرهم .

وكتب فى أسفل الكتاب :

نومى على محرّم إن لم أقم بدم ابن أمى من بنى العلات
قامت على إذا قعدت ولم أقم بطلاب ذاك مناحة الأموات
عذبت حياض الموت عندى بعدما كانت كريهة مورد النّهلات
وكتب إليه يعلى بن أمية :

(١) العيوق : نجم أحمر مضى فى طرف الحجره الأيمن ، يتلو الثريا ، لا يتقدمها ، يضرب مثلاً للبعد

(٢) الرّمق : بقية الروح .

(٣) فرى الجذ : شقه .

(٤) الأهب : جمع إهاب ، وهو الجلد ما لم يدبغ

إنا وأتم يا بني أمية كالحجر لا يبنى بغير مدّر ، وكالسيف لا يقطع إلا بضاربه .
وصل كتابك بخبر القوم وحالهم ، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بؤدر بها الموت
ليُنحَرَن ذابحه نحر البدنة وافى بها الهدى الأجل ! شككتني من أنا ابنها إن نمت عن
طلب وتر عثمان ، أو يقال : لم يبق فيه رمق ! إنني أرى العيش بعد قتل عثمان مرّاً ،
إن أدلج القوم فإني مدلجٌ ، وأما قصدهم ماحوته يدي من المال ، فالمال أيسر مفقود إن
دفعوا إلينا قتلة عثمان ، وإن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم ، وإن لنا ولهم لمعركة تنناحر فيها
نحر القدار النقائع^(١) ، عن قليل تصل لحومها .
وكتب في أسفل الكتاب :

لمثل هذا اليوم أوصى الناس لا تعط ضيماً أو ينحر الرأس

قال : فكل هؤلاء كتبوا إلى معاوية يجرّضونه ، ويغرّونه ، ويحرّ كونه ،
ويهيّجونه ، إلا سعيد بن العاص ، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء ؛ كان كتابه :
أما بعد ، فإن الحزم في الثبوت ، والخطأ في العجلة ، والشؤم في البدار ، والسهم
سهمك مالم ينبض به الوتر ، ولن يردّ الحالب في الضرع اللبن . ذكرت حق أمير المؤمنين
علينا ، وقرابتنا منه ، وأنت قتيل فينا . فخصّلتان ذكرهما نقص ، والثالثة تكذب ، وأمرتنا
بطلب دم عثمان ، فأى جهة تسلك فيها أبا عبد الرحمن ! رديمت الفجّاج ، وأحكيم الأمر
عليك ، وولى زمامه غيرك ، فدع مناواة من لو كان افترش فراشه صدر الأمر لم يعدل به
غيره . وقلت : كأننا عن قليل لا نتعارف ، فهل نحن إلا حي من قريش ، إن لم تنفلنا الولاية
لم يضق عنا الحق ، إنها خلافة منافية ، والله أقسم قسماً بمروراً ؛ لئن صحّت عزيمتك على

(١) القدار: الجزار ، والنقائع : جمع نعيّة ؛ وهى مانحر من لابل النهب .

ماورد به كِتَابُكَ ، لَأَلْفَيْنِكَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ ؛ طَلِيحًا . وَهَبْنِي أَخَاكَ بَعْدَ خَوْضِ الدَّمَاءِ
تَنَالِ الظَّفَرَ ، هَلْ فِي ذَلِكَ عَوْضٌ مِنْ رُكُوبِ الْمَأْثَمِ ، وَنَقْصِ الدِّينِ !

أَمَّا أَنَا فَلَا عَلَى بَنِي أُمِّيَّةٍ وَلَا لَهُمْ ، أَجْعَلِ الْحَزْمَ دَارِي ، وَالْبَيْتَ سَجْنِي ، وَأَتَوَسَّدُ
الْإِسْلَامَ ، وَاسْتَشْعِرِ الْعَافِيَةَ . فَاعْدِلْ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ زَمَامَ رَاحِلَتِكَ إِلَى مُحِجَّةِ الْحَقِّ ،
وَاسْتَوْهَبِ الْعَافِيَةَ لِأَهْلِكَ ، وَاسْتَعْطِفِ النَّاسَ عَلَى قَوْمِكَ ، وَهِيَهَاتِ مِنْ قَبُولِكَ مَا أَقُولُ
حَتَّى يَفْجُرَ مَرَّوَانُ يَنْابِيعَ الْفِتَنِ تَأْجِجَ فِي الْبِلَادِ ، وَكَأَنِّي بِكَمَا عِنْدَ مَلَاقَاةِ الْأَبْطَالِ تَعْتَذِرَانِ
بِالْقَدَرِ ، وَلِبَيْسَ الْعَاقِبَةِ النَّدَامَةُ ! وَعَمَّا قَلِيلٍ يَصِحُّ لَكَ الْأَمْرُ . وَالسَّلَامُ .

هَذَا آخِرُ مَا تَكَاتَبَ الْقَوْمُ بِهِ ، وَمَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ عَلِمَ أَنَّ الْحَالَ لَمْ يَكُنْ حَالًا يَقْبَلُ
الْعِلَاجَ وَالتَّدْيِيرَ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنَ السَّيْفِ ، وَأَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ أَعْرَفَ
بِمَا عَمِلَ .

وَقَدْ أَجَابَ ابْنُ سَنَانٍ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ « الْعَادِلُ » عَنْ هَذَا السُّؤَالِ ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمَ
النَّاسُ كَافَّةً أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قِصَّةِ الشُّورَى عَرَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، أَنَّ يَعْقِدَ
لَهُ الْخِلَافَةَ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ إِلَى
ذَلِكَ ، وَقَالَ : بَلْ عَلَىَّ أَنْ أَعْمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَأَجْتَهِدَ رَأْيِي .

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَتِ الشَّيْعَةُ : إِنَّمَا لَمْ يَدْخُلْ تَحْتَ الشَّرْطِ ، لِأَنَّهُ لَمْ
يَسْتَصِوبْ سِيرَتَهُمَا . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : إِنَّمَا امْتَنَعَ لِأَنَّهُ مَجْتَهِدٌ ، وَالْمَجْتَهِدُ لَا يَقْلُدُ الْمَجْتَهِدَ ، فَأَيُّهُمَا
أَقْرَبُ عَلَى الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا إِنَّمَا ، وَأَيُّسَرُ وَزَرًا ! أَنْ يَقَرَّ مَعَاوِيَةُ عَلَى وَلَايَةِ الشَّامِ مَدَّةً إِلَى أَنْ
تَتَوَطَّدَ خِلَافَتُهُ ، مَعَ مَا ظَهَرَ مِنْ جَوْرِ مَعَاوِيَةَ وَعِدَاوَتِهِ ، وَمَدَّ يَدِهِ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالْدِّمَاءِ أَيَّامَ
سُلْطَانِهِ ، أَوْ أَنْ يَعَاهِدَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ عَلَى الْعَمَلِ بِسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، ثُمَّ يَخَالَفَ بَعْضَ
أَحْكَامِهَا إِذَا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لَهُ ، وَوَقَعَ الْعَقْدُ ! وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ فَضْلُ مَا بَيْنَ

الموضعين ، وفضل ما بين الإثمين ، فمن لا يجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمع بلفظة يتلفظ بها ، يجوز أن يتأولها أو يورى فيها ، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر ، وتقوية يده مع تمكينه في سلطانه ، لتحصل له طاعة أهل الشام واستضافة طرف من الأطراف ! وكأن معنى قول القائل : هلا أقر معاوية على الشام ؛ هو هلا كان عليه السلام متهاونا بأمر الدين راغباً في تشديد أمر الدنيا !

والجواب عن هذا ظاهر ، وجهل السائل عنه واضح .

واعلم أن حقيقة الجواب هو أن علياً عليه السلام ، كان لا يرى مخالفة الشرع ، لأجل السياسة ، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيوية ، أما الدنيوية فنحو أن يتوهم الإمام في إنسان أنه يروم فساد خلافته من غير أن يثبت ذلك عليه يقيناً ، فإن علياً عليه السلام لم يكن يستحل قتله ، ولا حبسه ، ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق ، وأما الدينية فنحو ضرب المتهم بالسرقة ، فإنه أيضاً لم يكن يعمل به ، بل يقول : إن يثبت عليه بإقرار أو بينة ، أقت عليه الحد ، وإلا لم أعترضه . وغيره صلى عليه السلام قد كان منهم من يرى خلاف هذا الرأي ، ومذهب مالك بن أنس العمل على المصالح المرسلة ، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمة لإصلاح الثلثين ، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي وبغالب الظن ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ما قلناه ، وكان معاوية عنده فاسقاً ، وقد سبق عنده مقدمة أخرى يقينية ، هي أن استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة ، فقد تعين مجاهرته بالعزل ، وإن أفضى ذلك إلى الحرب .

فهذا هو الجواب الحقيقي ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقي ، لكان لقائل أن

يقول لابن سنان القول في عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن ، كالقول في عُدُوله عن إقرار معاوية على الشّام ، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليظه في أحد الموضعين ، له أن يذهب إلى تغليظه في الموضع الآخر .

قال ابن سنان : وجواب آخر ، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التي نُقِمَت على عثمان ، وأفضت بالمسلمين إلى حصاره وقتله ، تَوَلِيَةُ معاوية الشّام ، مع ماظهر من جَوْره وعُدوانه ، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه ، وقد خطب عثمان في ذلك ، فاعتذر بأنّ عمر ولّاه قبله ، فلم يقبل المسلمون عذرَه ، ولا قنعوا منه إلّا بعزله ، حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفضى ، وكان علىّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهية ، وأعرفهم بما فيه من الفساد في الدّين .

فلو أنّّه عليه السلام افتتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشّام ، وإقراره فيه ، أليس كان يبتدئ في أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره ، فأفضى إلى خلعهِ وقتله ! ولو كان ذلك في حكم الشريعة سائغاً ، والوزر فيه مأموناً ، لكان غلطاً قبيحاً في السياسة ، وسبباً قوياً للعصيان والمخالفة ، ولم يكن يمكنه عليه السلام أن يقول للمسلمين : إنّ حقيقة رأيي عزلُ معاوية عند استقرار الأمر ، وطاعة الجمهور لي ، وإنّ قصدي بإقراره على الولاية ، مخادعته ، وتعجيل طاعته ، ومبايعة الأجناد الذين قبله ، ثم أستاذف بعد ذلك فيه ما يستحقّه من العزل ، وأعمل فيه بموجب العدل ، لأنّ إظهاره عليه السلام لهذا العزم كان يتّصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه ، وينتقض الرأى الذي عولّ عليه .

ومنها قولهم : إنّهُ ترك طلحة والزبير حتى خرجا إلى مكّة ، وأذنَ لهما في العمرة ، وذهب عنه الرأى في ارتباطهما قبله ، ومنعهما من البعد عنه .

والجواب عنه ؛ أنه قد اختلفت الرواة في خروج طلحة والزبير من المدينة : هل كان بإذن علي عليه السلام أم لا ! فمن قال : إنهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه ، فسؤاله ساقط ، ومن قال : إنهما استأذناه في العمرة ، وأذن لهما ، فقد روى أنه قال : والله ما تريدان العمرة ، وإنما تريدان الغدرة ! وخوفهما بالله من التسرع إلى الفتنة . وما كان يجوز له في الشرع أن يجبسهما ، ولا في السياسة . أما في الشرع فلا أنه محذور أن يعاقب الإنسان بما لم يفعل ، وعلى ما يُظنُّ منه ، ويجوز ألا يقع . وأما في السياسة ، فلا أنه لو أظهر التهمة لهما - وهما من أفاضل السابقين ، وجلة المهاجرين - لكان في ذلك من التنفير عنه مالا يخفى ، ومن الطعن عليه ما هو معلوم ، بأن يقال : إنه ليس من إمامته على ثقة ، فلذلك يتهم الرؤساء ، ولا يأمن الفضلاء ، لا سيما وطلحة كان أول من بايعه ، والزبير لم يزل مشتهرا بنصرته ؛ فلو حبسهما ، وأظهر الشك فيهما لم يسكن أحدٌ إلى جهته ، ولنفر الناس كلهم عن طاعته .

فإن قالوا : فهلا استصلحهما وولّاهما ، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما ؟

قيل لهم : فحوى هذا أنكم تطلبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون في الإمامة مغلوباً على رأيه ، مفتاتاً عليه في تدبيره ، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصباً ، ويولّي طلحة والزبير مصر والعراق كرهاً ؛ وهذا شيء ما دخل تحته أحد ممن قبله ، ولا رضوا أن يكون لهم من الإمامة الاسم ، ومن الخلافة اللفظ ؛ ولقد حارب عثمان وحُصر على أن يعزل بعض ولاته فلم يجب إلى ذلك ، فكيف تسوّمون عليّاً عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة ! وهذا ظاهر .

ومنها تعلّقهم بتولية أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن أبي بكرٍ مصر ، وعزله قيس ابن سعد عنها ؛ حتى قتل محمد بها ؛ واستولى معاوية عليها .

والجواب أنه ليس يمكن أن يقال : إن محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر؛ لأنه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً ، صحيح العقل والرأى ؛ وكان مع ذلك من المخلصين في محبة أمير المؤمنين عليه السلام ، والمجتهدين في طاعته ؛ ومن لا يتهم عليه ، ولا يُرتاب بنصحه ، وهو ربيبه وخريجه ، ويجرى مجرى أحد أولاده عليه السلام ، لتربيته له ، وإشفاقه عليه .

ثم كان المصريون على غاية المحبة له ، والإيثار لولايته ، ولما حاصروا عثمان وطالبوه بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عنهم ؛ اقترحوا تأمير محمد بن أبي بكر عليهم . فكتب له عثمان بالعهد على مصر وصار مع المصريين حتى تعقبه كتاب عثمان إلى عبد الله بن سعد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف . فعادوا جميعاً ، وكان من قتل عثمان ما كان ؛ فلم يكن ظاهر الرأي ووجه التدبير إلا تولية محمد بن أبي بكر على مصر ، لما ظهر من ميل المصريين إليه ، وإيثارهم له ؛ واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه ؛ فكان الظن قوياً باتفاق الرعية على طاعته ، وانقيادهم إلى نصرته ، واجتماعهم على محبته ، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان ، وليس ذلك يعيب على أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الأمور إنما يعتمد عليها الإمام على حسب ما يظن فيها من المصلحة ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وآله في مؤتة جعفرًا فقتل ، وولى زيدا فقتل ، وولى عبد الله ابن رواحة فقتل ، وهزم الجيش ، وعاد من عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال ، فهل لأحد أن يعيب رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا ، ويطعن في تدبيره !

ومنها قولهم : إن جماعة من أصحابه عليه السلام فارقوه ؛ وصاروا إلى معاوية ، كعقيل ابن أبي طالب أخيه ، والنجاشي شاعره ، ورقبة بن مصقلة أحد الوجوه من أصحابه ؛ ولولا أنه

كان يُوحِشهم ولا يستميلهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوه ، وهذا يخالفُ حكم السياسة ، وما يجب من تألف قلوب الأصحاب والرعيّة .

والجواب : إنّنا أولا لا ننكر أن يكون كلّ من رغب في حطام الدّنيا وزخرفها ، وأحبّ العاجل من ملاذها وزيتها يميل إلى معاوية الذي يبذل منها كلّ مطلوب ، ويسمحُ بكلّ مأمول ، ويطعم خراج مصر عمرو بن العاص ، ويضمّن لذي الكلاع وحبيب ابن مسلمة ما يوفى على الرّجاء والاقتراح ، وعلىّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضيّة الشريعة وحكم الملة ، حتى يقول خالد بن معمر السدوسي لعلاء ابن لهيثم ، وهو يحمله على مفارقة علىّ عليه السلام ، واللحاق بمعاوية : اتق الله يا علاء في عشيرتك ، وانظر لنفسك ولرّحمك ؛ ماذا تؤمّل عند رجل أردته على أن يزيدَ في عطاء الحسن والحسين دريهماتٍ يسيرة ريثما يرأبان بها ظلف عيشهما ، فأبى وغضب فلم يفعل .

فأما عَقِيل ، فالصحيح الذي اجتمع ثقاتُ الرّواية عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكنّه لازم المدينة ، ولم يحضر حرب الجمل وصرّفين ، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد كتب عَقِيل إليه بعد الحكمين يستأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله ، فأمره عليه السلام بالمقام ، وقد روى في خبر مشهور ، أنّ معاوية وبنخ سعيد بن العاص على تأخيرهِ عنه في صرّفين ، فقال سعيد : لودعوتني لو جدتني قريبا ، ولكنني جلست مجلس عَقِيل وغيره من بني هاشم ، ولو أوعبنا لأوعبوا^(١) . وأما النجاشي ، فإنه شربَ الخمر في شهر رمضان ، فأقام علىّ عليه السلام الحدّ عليه ،

(١) أوعب القوم ؛ إذا خرجوا جميعهم للغزr .

وزاده عشرين جلدة فقال النجاشي: ما هذه العِلاوة ^(١)؟ قال: لجأتك على الله في شهر رمضان. فهرب النجاشي إلى معاوية.

وأما رَقِبة بن مَصْقَلَة، فإنه ابتاع سَبْيَ بني ناجية وأعتقهم، وألطف بالمال ^(٢) وهرب إلى معاوية، فقال عليه السلام: فَعَلَ فِعْلَ السَّادَةِ، وأبق إباقي العبيد؛ وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التآلف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى، والتلزم بالدين، ولا يُظنُّ بهيِّ عليه السلام التساهل والتسامح في صغير من ذلك ولا كبير.

ومنها شبهة الخوارج وهي التحكيم، وقد يحتج به على أنه اعتمد مالا يجوز في الشرع، وقد يحتج به على أنه اعتمد مالم يس بصواب في تدبير الأمر. أما الأول فقولهم: إنه حكم الرِّجال في دين الله، والله سبحانه يقول: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ^(٣) وأما الثاني فقولهم: إنه كان قد لاح له النصر، وظهرت أمارات الظفر بمعاوية، ولم يبق إلا أن يأخذ برقبته فترك التصميم على ذلك، وأخلد إلى التحكيم. وربما قالوا: إن تحكيمه يدل على شك منه في أمره، وربما قالوا: كيف رضى بحكومة أبي موسى وهو فاسق عنده بتشيطه أهل الكوفة عنه في حرب البصرة؟ وكيف رضى بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب: أمّا تحكيم الرجال في الدين فليس بمحذور، فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوجها، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا

(١) العِلاوة، بالكسر: ما زاد على الشيء.

(٢) ألطف بالمال، أي أخذه وجعده.

(٣) سورة الأنعام ٥٧

مِنْ أَهْلِهَا^(١). وقال في جزاء الصيد: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٢).

وأما قولهم: كيف ترك التصميم بعد ظهور أمارات النصر؟ فقد تواتر الخبر بأن أصحابه لما رفع أهل الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم، ومشاركة هلاك معاوية وأصحابه، انخدعوا برفع المصاحف، وقالوا: لا يحلّ لنا التصميم على حربهم، ولا يجوز لنا إلّا وضع السلاح ورفع الحرب والرجوع إلى المصاحف وحكمها. فقال لهم: إنها خديعة، وإنها كلمة حقّ يُراد بها باطل، وأمرهم بالصبر ولو ساعة واحدة، فأبوا ذلك، وقالوا: أرسل إلى الأشر فليعدّ، فأرسل إليه، فقال: كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر! فقالوا له: ابعث إليه مرة أخرى، فبعث إليه، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول، وسأل أن يُمهّل ساعة من النهار، فقالوا: إن بينك وبينه وصيّة ألا يقبل، فإن لم تبعث إليه من يعيده، وإلا قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان، أوقبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرسول إلى الأشر، فقال: أتحبّ أن تظفر أنت هاهنا وتكسر جنود الشام، ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام في مضر به! قال: أوقدّ فعلوها! لا بارك الله فيهم! أبعد أن أخذت بمخنق^(٣) معاوية، ورأى الموت عيانا أرجع! ثم عاد فشمّ أهل العراق وسبّهم، وقال لهم وقالوا له، ماهو منقول مشهور، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم.

فإذا كانت الحال وقعت هكذا، فأى تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام! وهل ينسب المغلوب على أمره، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير!

وبهذا نجيب عن قولهم: إن التحكيم يدلّ على الشكّ في أمره، لأنّه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به؛ فأما إذا دعاه إلى ذلك غيره، واستجاب إليه أصحابه، فمنعهم وأمرهم

(١) سورة النساء ٣٥

(٢) سورة المائدة ٩٥

(٣) المخنق: موضع الخنق من العنق.

أن يَمُرُّوا على وتيرتهم وشأنهم ، فلم يفعلوا ، وبين لهم أنها مكيدة فلم يتبينوا ، وخاف أن يقتل أو يسلم إلى عدوه ، فإنه لا يدلّ تحكيمه على شكّه ؛ بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه ، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب ؛ فتزول الشبهة عن طلب التحكيم من أصحابه .

وأما تحكيمه عمراً مع ظهور فسقه ، فإنه لم يرض به ، وإنما رضى به مخالفته ؛ وكرهه هو فلم يقبل منه . وقد قيل : إنّه أجاب ابن عباس رحمه الله عن هذا ، فقال للخوارج : أليس قد قال الله تعالى : ﴿ فَاَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ^(١) ! أرايتم لو كانت المرأة يهودية فبعثت حكماً من أهلها ، أكنّا نسخط ذلك !

وأما أبو موسى فقد كرهه أمير المؤمنين عليه السلام ، وأراد أن يجعل بدله عبد الله ابن عباس ، فقال أصحابه : لا يكون الحكمان من مضر ، فقال : فالأشتر . فقالوا : وهل أضرم النار إلّا الأشتر ! وهل جرّ ماري إلّا حكومة الأشتر ! ولكن أبا موسى ، فأباه فلم يقبلوا منه ، وأثنوا عليه ، وقالوا : لا نرضى إلّا به ؛ فحكمه على مضض .

ومنها قولهم : ترك الرأي لما دعاه العباس وقت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة ، وقال له : أمدد يدك أبا يعك ، فيقول الناس : عم رسول الله صلى الله عليه وآله بايع ابن عمه ، فلا يختلف عليك اثنان ؛ فلم يفعل ، وقال : وهل يطمع فيها طامع غيرى ! فما راعه إلّا الضوضاء واللغط في باب الدار ، يقولون : قد بويع أبو بكر بن أبي قحافة .

الجواب : إن صواب الرأي وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الواقعة ، يستندان إلى

ما قد كان غلب على الظن ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلب على ظنه أن أحداً يستأنر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدّها له رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما توهم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجه من البيت وحضوره ، ولعله قد كان يخطر له أنه إما أن يكون هو الخليفة أو يشاور في الخلافة إلى من يفوض . وما كان يتوهم أنه يجري الأمر على ما جرى من الفتنة عند ثوران تلك الفتنة ، ولا يشاور هو ولا العباس ولا أحد من بني هاشم ، وإنما كان يكون تديره فاسداً لو كان يحاذر خروج الأمر عنه ، ويتوهم ذلك ، ويغلب على ظنه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجلة في الدار من وراء الأبواب والأغلاق ، وإلا فاته ، ثم يهمل ذلك ولا يفعله . وقد صرح هو بما عنده ، فقال : وهل يطمع فيها طامعٌ غيري ! ثم قال : إني أكره البيعة هاهنا وأحب أن أصحِر^(١) بها ؛ فبين أنه يستهجن أن يبائع سرّاً خلف الحجب والجدران ، ويجب أن يبائع جهرةً بمحض من الناس كما قال ، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبائعهم في داره ، فقال : لا ، بل في المسجد ، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيام ، وما يحدث الوقت من وقوع ما لا يتوهم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه .

ومنها قولهم : إنه قصر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر ، وقد كان اجتمع له من بني هاشم وبني أمية وغيرهم من أفناء الناس من يتمكن بهم من المنازعة وطلب الخلافة ، فقصر عن ذلك ، لا جبنًا ، لأنه كان أشجع البشر ، ولكن قصور تدبير وضعف رأى ، ولهذا أكرهه الكاملية^(٢) وأكفرت الصحابة ، فقالوا : كفرت الصحابة لتركهم بيعته ، وكفر هو بترك المنازعة لهم !

(١) أصحِر بالأمر : أظهره .

(٢) الكاملية : أتباع رجل من الرافضة كان يعرف بأبي كامل ؛ وكان يزعم أن الصحابة كفروا بتركهم بيعة عليّ ، وكفر عليّ بتركه قتالهم ؛ وكان يلزمه قتالهم كما لزم قتال أصحاب صفين . الفرق بين الفرق ٣٩

والجواب : أمّا على مذهبنا ، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوباً عليه ، وإنّما كان يدّعيها بالأفضليّة والقرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص ، فلمّا وقعت بيعة أبي بكر رأى هو علىّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام ترك النزاع ، وأنّه يخاف من النزاع حدوث فتنة تحلّ معاهد الملة وترزعزع أركانها ، فحضر وبايع طوعاً ، ووجب علينا بعدمبايعته ورضاه أن نرضى بمن رضى هو عليه السلام ، ونطيع من أطاعه ، لأنّه القدوة ، وأفضل من تركه صلى الله عليه وآله بعده .

وأما الإمامية ، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم .

ومنها قولهم : إنّ قصر في الرأي حيث دخل في الشورى ، لأنّه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً لعثمان وغيره من الخمسة ، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم ، فوهن بذلك قدره ، وطأطأ من جلالته ، ألا ترى أنّه يستهجن ويقبح من أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدا^(١) طرفاً من الفقه ، ويستهجن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسهما بمن يعلم أبوابا يسيرة من النحو !

الجواب : إنّ عليه السلام وإن كان أفضل من أصحاب الشورى ، فإنّه كان يظنّ أنّ ولى الأمر أحدهم بعد عمر ، لا يسير سيرة صالحة ، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام ، وقد كان يثني على سيرة عمر ويحمدها ، فوجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه ، توقّعاً لأن يفضي الأمر إليه ، فيعمل بالكتاب والسنة ، ويحيي معالم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع ممّا يوجب نقصاً في الرأي ، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع .

ومنها قولهم : إنه ما أصاب حيث أقام بالمدينة وثمان محصور ، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أمية به دم عثمان ، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لكان من قذِهم إياه بذلك أبعد ، وعنه أنزه .

والجواب : إنه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان ، أن أهل الفساد من بني أمية يرمونه بأمره ، والغيب لا يعلمه إلا الله ، وكان يرى أن مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على المحاصرين له ، فقد حضر هو بنفسه مرارا ، وطرده الناس عنه ، وأنفذ إليه ولديه وابن أخيه عبدالله ، ولولا حضور علي عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة ، وماتراخي أمره وتأخر قتله ، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له ، ويحامي عنه .

ومنها قولهم : كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتل عثمان ، أن يغلق بابه ، ويمنع الناس من الدخول إليه ، فإن العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تثول إليه ، لأنه تعين للأمر بحكم الحل الحاضرة . فلم يفعل ، وفتح بابه ، وترشح للأمر ، وبسط له يده ؛ فلذلك انتقضت عليه العرب من أقطارها .

والجواب : إنه عليه السلام كان يرى أن القيام بالأمر يومئذ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به ، لعدم من يصلح في ظنه للخلافة ، فما كان يجوز له أن يغلق بابه ويمتنع . وما الذي كان يؤمنه أن يبائع الناس طلحة أو الزبير أو غيرها ممن لا يراه أهلا للأمر ! فقد كان عبد الله بن الزبير يومئذ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور . وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة ، وله من بني أمية شيعة وأصحاب ، بشبهة أنه ابن عم عثمان ، وأنه كان يدبر أمر الخلافة على عهده . وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة ، لأنه من بني أمية وابن عم عثمان ، وأمير الشام عشرين سنة ، وقد كان قوم من بني أمية يتعصبون لأولاد عثمان المقتول ، ويرومون إعادة الخلافة فيهم

وما كان يسوغ لعلّ عليه السلام في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء، فلذلك فتح بابه، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم مافى قلوب الناس؛ هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا! فلما رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه؛ وقد قال في خطبته: «لولا حضور الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر... لألقيتُ حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها^(١)»؛ وهذا تصرّح بما قلناه.

ومنها قولهم: هلا إذ ملك شريعة الفرات على معاوية، بعد أن كان معاوية ملكها عليه، ومنعه وأهل العراق منها، منع معاوية وأهل الشام منها؛ فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء، بل فسخ لهم في الورود؛ وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب.

الجواب، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحلّه معاوية من تعذيب البشر بالعطش؛ فإنّ الله تعالى مأمّر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك؛ ولا فسخ فيه في نحو القصاص أو حدّ الزاني المحصّن أو قتل قاطع الطريق، أو قتال البغاة والخوارج، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حكم الله وشريعته، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغلبة والقهر والظفر بالعدو، ولذلك لم يكن يستحلّ البيّات^(٢) ولا الفدر ولا النكث. وأيضاً فمن الجائز أن يكون عليه السلام غلب على ظنه أن أهل الشام إن منعوا من الماء كان ذلك أدعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكرة على عسكره، وأن يضعوا فيهم السيوف، فيأتوا عليهم ويكسروهم بشدّة حنقهم وقوّة دواعيهم إلى ورود الماء، فإنّ ذلك من أشدّ الدواعي إلى أن يستमित القوم ويستقتلوا. ومَنْ الذي يقف بين يدي جيش عظيم عرّم حنق قد اشتدّ بهم العطش، وهم يرون الماء كبطون الحيات، لا يحول بينهم وبينه إلا قوم

(١) من الخطبة الشقشيّة؛ وقد تقدمت في الجزء الأول ص ١٥١-٢٠٣

(٢) يقال: بيت العدو؛ إذا أوقع به ليلاً.

مثلهم ، بل أقل منهم عدّة وأضعف عدّة ؛ ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال : لأمنعهم وروده فأقتلهم بشِفَارِ الظمأ ، قال له عمرو بن العاص : خلّ بين القوم وبين الماء ، فليسوا بمن يرى الماء ويصبر عنه . فقال : لا والله لا أخلّي لهم عنه . فسفّه رأيه وقال : أتظنّ أنّ ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشا ، والماء بمعقد الأزر ، وسيوفهم في أيديهم ! فاجع معاوية ، وقال : لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عثمان عطشا . فلما مسّ أهل العراق العطش ، أشار على عليه السلام إلى الأشعث أن احمل ، وإلى الأشتر أن احمل ، فحملا بمنّ معهما فضرّبا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد ، وفرّ معاوية ومن رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنم خالطتها السباع ، وكان قصارى أمره ، ومنتهى همته أن يحفظ رأسه ، وينجو بنفسه . وملك أهل العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه ، فصاروا في البرّ القفر ، وصار على عليه السلام وأصحابه على شريعة الفرات ، مالم يكن لها ، فما الذي كان يؤمنّ عليا عليه السلام لو أعطش القوم أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم ! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان ! وهل يبقى له مابجا إلا السيف يُحمّل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما !

ومنها قولهم : أخطأ حيث محّا اسمه بالخلافة من صحيفة الحَكومة ، فإنّ ذلك مما وهّنه عند أهل العراق ، وقوى الشبهة في نفوس أهل الشام .

والجواب ، أنه عليه السلام احتذى في ذلك - لما دعى إليه واقترحه الخصم عليه - فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديبية ، حيث محّا اسمه من النبوة لما قال له سهيل بن عمرو : لو علمنا أنّك رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حاربناك ، ولا منعناك عن البيت ؛ وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة : ستدعى إلى مثلها فتجيب . وهذا من أعلام نبوته صلوات الله عليه ، ومن دلائل صدقه ، ومثله جرى له حدو القذّة بالقذّة .

ومنها قولهم : إنه كان غير مصيب في ترك الاحتراس ، فقد كان يعلم كثرة أعدائه ، ولم يكن يحترس منهم ؛ وكان يخرج ليلاً في قميص ورداء وحده ؛ حتى كمن له ابن ملجم في المسجد فقتله ، ولو كان احترس وحفظ نفسه ولم يخرج إلّا في جماعة . ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشرطة ، لم يوصل إليه .

والجواب ، أن هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير ، فليكن قادحاً في تدبير عمر وسياسته ؛ وهو عند الناس في الطبقة العليا في السياسة وصحة التدبير ، وليكن قادحاً في تدبير معاوية ، فقد ضربه الخارجي بالسيف ليلة ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ، ولم يأت على نفسه ، ومعاوية عند هؤلاء سديد التدبير ؛ وليكن قادحاً في صحة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلاً ونهاراً مع كثرة أعدائه ؛ وقد كان يأكل ما دُعِيَ إليه ولا يحترس ؛ حتى أكل من يهودية شاة مشوية قد سمّته فيها فمرض ، وخيف عليه التلف ، ولمّا برى لم تزل تنتفض عليه حتى مات منها وقال عند موته : إني ميت من تلك الأكلة ، ولم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس ، ولا تعرف الغيلة والفتك ، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعيّره فاعله ، لأنّ الشجاعة غير ذلك ، والغيلة فعل العجزة من الرجال ؛ ولأنّ علياً عليه السلام كانت هيئته قد تمكّنت في صدور الناس ، فلم يكن يظنّ أنّ أحداً يقدم عليه غيلة أو مبارزة في حرب ، فقد كان بلغ من الذّكر بالشجاعة مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس ، لا من تقدّم ولا من تأخر ، حتى كانت أبطال العرب تفرّغ باسمه ؛ ألا ترى إلى عمرو بن معديكرب وهو شجاع العرب ، الذي تُضرب به الأمثال كتب إليه عمر بن الخطاب في أمرٍ أنكره عليه ، وغدر تخوّفه منه : أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه ، لأبعثنّ إليك رجلاً تستصغرُ معه نفسك ، يضع سيفه على هامتك فيخرجه من بين فخذيك ! فقال عمرو لمّا وقف على الكتاب : هدّني بعليّ والله ! ولهذا قال شبيب بن بكرة لابن ملجم ، لمّا رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدّره : ويلك ! ما تريد

أن تصنع ! قال : أقتل عليا ، قال هَبِلْتُكَ الهُبُول ، لقد جئت شيئا إدا ! كيف تقدِر على ذلك !
فاستبعد أن يتم لابن ملجم ما عزم عليه ، وراه صراما وعرا . والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى
غَلَبَاتِ الظُّنُون ، فمن غلبت على ظنّه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس ؛ وإنما
يجب الاحتراس على مَنْ يغلب على ظنّه العطب إن لم يحترس .

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال : إنَّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن
صالحة ، وبان أنّه أصحّ الناس تدييرا وأحسنهم سياسة ، وإِنَّمَا الهوى والعصبية
لاحيلة فيهما !

الأضل :

فمن كلام له عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شَبْعُهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ .
 أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ ، وَإِنَّمَا عَقَرَتْ نَاقَةُ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوْهُ بِالرِّضَا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ ، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخُسْفَةِ خُورَ السَّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ .
 أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَّ الْمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التَّيِّهِ !

الشَّرْحُ :

الاستيحاء : ضد الاستئناس ، وكثيرا ما يحدثه التوحد وعدم الرفيق ؛ فنهى عليه السلام عن الاستيحاء في طريق الهدى لأجل قلة أهله ، فإن المهتدى ينبغي أن يأنس بالهداية ، فلا وحشة مع الحق .

وعنى بالمائدة الدنيا ، لذتها قليلة ، ونقصتها كثيرة ، والوجود فيها زمان قصير جدا ، والعدم عنها زمان طويل جدا .

ثم قال : ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجرم بعينه ، بل لمن اجترمه ومن رضى به ، وإن لم يباشره بنفسه ، فإن عاقر ناقة صالح إنما كان إنسانا واحدا ، فعم الله ثمود بالسخط

لما كانوا راضين بذلك الفعل كلهم ، واسم « كان » مضمر فيها ، أى ما كان الانتقام منهم إلا كذا .

وخارت أرضهم بالخسفة : صوّتت كما يخور الثور ، وشبه عليه السلام ذلك بصوت السكة المحمّاة فى الأرض الخوّارة ، وهى اللينة ، وإنما جعلها محمّاة لتكون أبلغ فى ذهابها فى الأرض . ومن كلامه عليه السلام يوم خير ، يقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وقد بعثه بالرّاية : أكون فى أمرِك كالسكة المحمّاة فى الأرض ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال له : بل يرى الشاهد ما لا يرى الغائب .

وقال له أيضا هذ اللفظة لما بعثه فى شأن مارية القبطية ، وما كانت اتهمت به من أمر الأسود القبطى ، ولهذا علّة فى العلم الطبيعى ، وذلك أنّ السكة المحمّاة تخرق الأرض بشيئين : أحدهما تحدّد رأسها ، والثانى حرارته ، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتمد عليه فى الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحليلها ماتلاقى من صلابة الأرض ، لأنّ شأن الحرارة التحليل ، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد فى الأرض أوحى وأسهل .

والتيه : المفازة يتحيّر سالكها .

* * *

[قصة صالح وئمود]

قال المفسّرون : إن عاداً لما أهليكت عمّرت ئمود بلادها ، وخلفوهم فى الأرض ، وكثروا وعمرّوا أعماراً طوالاً ، حتّى إنّ الرّجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته ، ففتحوا البيوت فى الجبال ، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله إليهم صالحاً ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم

نسبا ، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذّرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ،
فقال : آية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا- في يوم معلوم لهم من السنة - فتمدّعوا
إلهك وندعوا إلهنا ، فإن استجيب لك اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعتنا .

قال : نعم ، فخرج معهم ، ودعوا أوثانهم ، وسألوها الاستجابة فلم تجب ، فقال سيّدهم
جندع بن عمرو - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكائبة : أخرج
لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء - والمخترجة : التي شاكلت البُخت ^(١) - .
فإن فعلت صدقناك وأجبناك .

فأخذ عليهم المواقيق ، لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدقنّ ؟ قالوا : نعم ، فصلّى ودعا
ربه ، فتمخّضت الصخرة تمخّض النّوء بولدها ، فانصدعت عن ناقة عُشراء ^(٢) جوفاء
وبراء كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبها إلا الله ، وعظماؤهم ينظرون . ثم نُتجت ولدا مثلها
في العظم ، فأمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا ،
فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت تردّ غيباً ؛ فإذا كان يومها وضعت
رأسها في البئر ، فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها ثم تنفّج ؛ فيحتلبون ماشاءوا حتى
تمتلئ أوانيهم ، فيشربون ويدّخرون ، فإذا وقع الحرّ تصيّفت بظهر الوادي ، فتهرب
منها أنعامهم ، فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشّت بطن الوادي فتهرب مواشيتهم إلى
ظهره ، فشقّ ذلك عليهم ؛ وزيّنت عقرها لهم امرأتان : غنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار ؛
لما أضرت به من مواشيهما ، وكانتا كثيرتي المواشي ، فقروها : عقرها قدار الأحمر ،
واققسموا لحمها وطبخوه .

(١) البخت : الإبل الحراسانية .

(٢) العشراء من النوق : التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، وجمعها عشائر ، بكسر العين .

فانطلق سَقْبها^(١) حتى رقى جبلا اسمه قارة ، فرغا ثلاثا ؛ وكان صالح قال لهم : أدركوا
الفَصِيل عسى أن يُرْفَعَ عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه ؛ وانفجَّت الصخرة بعد رغائه فدخلها ،
فقال لهم صالح : تصبِّحون غدا ووجوهكم مصفرة ، وبعد غدٍ وجوهكم محمّرة ، واليوم الثالث
وجوهكم مسودة ؛ ثم يغشاكم العذاب .

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين ، فلما كان
اليوم الرابع ، وارتفعت الضحوة ، تحنطوا بالصَّبر ، وتكفّنوا بالأنطاع ، فأتتهم صيحة
من السماء وخسف شديد وزلزال ، فتقطّعت قلوبهم فهلكوا .

وقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بالحجر في غزوة تبوك ،
فقال لأصحابه : لا يدخلن أحدٌ منكم القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء
المعدّين إلّا أن تمرّوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم .

وروى المحدّثون أن النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ عليه السلام : أتدرى مَنْ أشقى
الأولين ؟ قال : نعم ، عاقر ناقة صالح ، قال : أفأنتدرى مَنْ أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله
أعلم ، قال : مَنْ يضر بك على هذه ، حتى تخضب هذه .

(١) السقب : ولد الناقة ؛ خاص بالذكر .

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

روى عنه أنه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة عليها السلام ، كالمناجى به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قبره .

السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي ، وَعَنْ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جَوَارِكَ ، وَالسَّرِيعَةِ
الْحَاقِ بِكَ ! قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي ، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي ، إِلَّا أَنَّ فِي
التَّاسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ . فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ فِي مَلْخُودَةِ
قَبْرِكَ ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! فَلَقَدْ اسْتَرْجَعْتَ
الْوَدِيعَةَ ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ !

أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ .
وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا . فَأَحْفِهَا الشُّوْءَالَ ، وَأَسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ ؛
هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ . وَالسَّلامُ عَلَيْكُمَا سَلامَ مُودَعٍ ، لَا قَالٍ
وَلَا سَمِيمٍ ، فَإِنْ أَنْصَرَفَ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ ، وَإِنْ أَقِمَ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ
الصَّابِرِينَ !

الشَّرح :

أما قول الرضى رحمه الله: « عند دفن سيّدة النساء » ، فلا أنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وآله عليه وآله أنه قال : « فاطمة سيّدة نساء العالمين » إما هذا اللفظ بعينه ، أو لفظ يؤدّي هذا

المعنى ، روى أنه قال وقد رآها تبكى عند موته : « ألا ترضين أن تكونى سيّدة نساء هذه الأمة ! ». وروى أنه قال : « سادات نساء العالمين أربع : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران » .

قوله عليه السلام : « وسريعة اللحاق بك » جاء فى الحديث ؛ أنه رآها تبكى عند موته فأسرَّ إليها : « أنتِ أسرع أهلى لحوقا بى » ، فضحكت .

قوله : « عن صفيتك » أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول : « عن ابنتك » ، فقال : « صفيتك » ، وهذا من لطيف عبارته ، ومحاسن كنياته ، يقول عليه السلام : ضَعَفَ جلدى وصبرى عن فراقها ؛ لكنى أتأسى بفراقى لك فأقول : كلُّ عظيم بعد فراقك جَلَلٌ ، وكلُّ خطب بعد موتك يسير .

ثم ذكر حاله معه وقت انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه ، فقال : لقد وسَّدْتُكَ فى ملحودة قبرك ، أى فى الجهة المشقوقة من قبرك ، واللحد : الشقّ فى جانب القبر ، وجاء بضمّ اللام فى لغة غير مشهورة .

قال : « وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك » ، يروى أنه صلى الله عليه وآله قذف دماً يسيراً وقت موته . ومن قال بهذا القول زعم أن مرضه كان ذات الجنب ، وأن القرحة التى كانت فى الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت فى تلك الحال ، وكانت فيها نفسه صلى الله عليه وآله . وذهب قومٌ إلى أن مرضه إنما كان الحمى والسرّسام الحارّ ، وأن أهل داره ظنوا أن به ذات الجنب فلدّوه وهو مغمى عليه ، وكانت العرب تداوى باللّدود^(١) من به ذات الجنب ، فلما أفاق علم أنهم قد لدّوه ، فقال : « لم يكن الله ليسلّطها علىّ ، لدّوا كلَّ من فى الدار » ، فجعل بعضهم يلدّ بعضها .

(١) فى اللسان عن الفراء : « اللدّ أن يؤخذ بلسان الصبيّ فيمدّ إلى أحد شقيه ، ويوجر فى الآخر الدواء فى الصدف . بن اللسان وبين الشدق ؛ وفى الحديث أذنه لدّ فى مرضه » .

واحتجّ الذاهبون إلى أنّ مرضه كان ذات الجنب بما روى من انتصابه وتعدّر الاضطجاع والنوم عليه ، قال سلمان الفارسيّ : دخلتُ عليه صبيحةً يوم قبل اليوم الذي مات فيه ، فقال لي : يا سلمان ، ألا تسألُ عمّا كابدته الليلة من الألم والسهر أنا وعلى ! فقلت : يا رسول الله ، ألا أسهرُ الليلة معك بدّله ؟ فقال : لا هو أحقّ بذلك منك .

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التي أكلها عليه السلام ، واحتجّوا بقوله صلى الله عليه وآله : « ما زالت أكلة خيبر تعاودني ؛ فهذا أوانُ قطعت أبهرى » ^(١) .

ومن لم يذهب إلى ذات الجنب ، فأولوا قولَ عليّ عليه السلام : « وفاضت بين نحري وصدرى نفسك » ، فقالوا : أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجها الميت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها ، ولا بدّ لكل ميت من نفخة تكون آخر حرّكاته .

ويقول قوم : إنّها الروح ، وعبرَ عليّ عليه السلام عنها بالنفس ، لما كانت العرب لا ترى بين الروح والنفس فرقاً .

واعلم أنّ الأخبار مختلفة في هذا المعنى ، فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنّها قالت : توفّي رسولُ الله صلى الله عليه وآله بين سحري ^(٢) ونحري .

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن عليّ عليه السلام ، أنّه قال عن نفسه ، وقال في رواية أخرى : ففاضت نفسه في يدي ، فأمررتها على وجهي .

(١) الأبهر : عرق إذا انقع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ، ثم يتشعب منها سائر الشرايين
(٢) السحر هنا : الرئة .

والله أعلم بحقيقة هذه الحال ، ولا يبعد عندي أن يصدق الخبران معاً ، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وقت الوفاة مستنداً إلى عليّ وعائشة جميعاً ، فقد وقع الاتفاق على أنه مات وهو حاضر لموته ، وهو الذي كان يقلّبه بعد موته ، وهو الذي كان يعلّله ليالي مرضه ، فيجوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمه ، ومثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا ، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال مختلطين ، لا يستتر البعض عن البعض !

فإن قلت : فكيف تعمل بآية الحجاب ، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله عن الناس بعد نزولها ؟

قلت : قد وقع اتفاق المحدثين كلّهم على أن العباس كان ملازماً للرسول صلى الله عليه وآله أيام مرضه في بيت عائشة ، وهذا لا ينكره أحدٌ ، فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه صلى الله عليه وآله كان عليّ عليه السلام ملازمه ، وذلك يكون بأحد الأمرين : إمّا بأن نساءه لا يستترن من العباس وعليّ لكونهما أهل الرجل وجزء منه ، أو لعلّ النساء كن يَحْتَمِرْنَ بأخترتهنّ ، ويخاطبن الرجال فلا يروْنَ وجوههنّ ، وما كانت عائشة وحدّها في البيت عند موته ، بل كان نساؤه كلّهنّ في البيت ، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وآله .

فأما حديث مرضه صلوات الله عليه ووفاته ، فقد ذكرناه فيما تقدّم .

قوله : « إنا لله » إلى آخره ؛ أي عبيده ، كما تقول : هذا الشيء لزيد ، أي يملكه .

ثم عقب الاعتراف بالملكيّة بالإقرار بالرجعة والبعث ، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة ، كما أدّب الله تعالى خلقه وعباده .

والوديعة والرهيئة ، عبارة عن فاطمة ، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابه الكاتب قوله عن قَطْر التّدْي بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حَمَلَتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن

طلحة بن المتوكل : « وقد وصلت الوديعة سالمة ، والله الحمد ، وكيف يوصى الناظر بنوره ، أم كيف يحضّ القاب على حفظ سروره ! »

وأخذ الصّابي هذه اللفظة أيضا ، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه ، إلى عدّة الدّولة أبي تغلب بن حمدان ، وقد نقل إليه ابنته : « قد وجهت الوديعة ياسيدي ، وإنما تطلب من وطن إلى سكن ، ومن مغرس إلى مغرس ، ومن مأوى برّ وانعطاف ، إلى مثوى كرامة والطف » .

فأما الرّهينة فهي المرتّهنة ، يقال للمذكر : هذا رهين عندي على كذا ، واللاتي : هذه رهينة عندي على كذا ، كأنها عليها السلام كانت عنده عوضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله ، كما تكون الرّهينة عوضاً عن الأمر الذي أخذت رهينةً عليه .

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائمٌ ، وأنه يسهر ليله ولا ينام إلى أن يلتحق برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره في الدار الآخرة ، وهذا من باب المبالغة ، كما يبالغ الخطباء والكتاب والشعراء في المعاني ، لأنه عليه السلام ماسهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام ، وإنما سهر ليلة أو شهراً أو سنة ، ثم استمرّ مريّره ، وارعوى وسنه ، فأما الحزن فإنه لم يزل حزينا إذا ذكرت فاطمة ، هكذا وردت الرواية عنه .

قوله عليه السلام : « وستنبئك ابنُك » ، أي ستعلمك .

فأحفظها السؤال ، أي استقص في مسألتها ، واستخبرها الحال ، أحفيت إحقاء في السؤال :

استقصيت ، وكذلك في الحجاج والمنازعة ، قال الحارث بن حلزة :

إنّ إخواننا الأراقم يفلون علينا في قيلهم إحقاء^(١)

ورجل حفيّ ، أي مستقص في السؤال .

(١) المعلقات بشرح التبريزي ٢٤٥ . يفلون ؛ أي يرتفعون . والإحقاء : الاستقصاء .

واستخبرها الحال ؛ أى عن الحال ، فحذف الجار ، كقولك : اخترت الرجال زيدا ،
أى من الرجال ، أى سألها عما جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا ،
ولا يدل هذا على وجود النص ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألم من أطراحهم
وترك إدخالهم فى المشاورة ، فإن ذلك مما تكرهه النفوس وتتألم منه ، وهجا الشاعر
قوماً ، فقال :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ^(١)

قوله : « هذا ولم يطل العهد ، ولم يخلق الذكر » أى لم ينس .

فإن قلت : فما هذا الأمر الذى لم ينس ولم يخلق ، إن لم يكن هناك نص ؟

قلت : قوله صلى الله عليه وآله : « إِنِّي مَخْلَفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ » ، وقوله : « اللَّهُمَّ
ادِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ » ، وأمثال ذلك من النصوص الدالة على تعظيمه وتبجيله ومنزله
فى الإسلام ، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخر عقد البيعة إلى أن يحضر ويستشار ،
ويقع الوفاق بينه وبينهم ، على أن يكون العقد لواحد من المسلمين بموجبه ، إمامه
أولاً بى بكر ، أو لغيرها ، ولم يكن ليليق أن يبرم الأمر وهو غير حاضر له ، مع جلالة فى
الإسلام ، وعظيم أثره ، وما ورد فى حقه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله ، فهذا
هو الذى كان ينقم عليه السلام ، ومنه كان يتألم ويُطِيلُ الشَّكْوَى ، وكان ذلك فى موضعه .
وما أنكر إلا منكرًا . فأما النص فإنه لم يذكره عليه السلام ، ولا احتج به ، ولما طال
الزمان صَفَحَ عن ذلك الاستبداد الذى وقع منهم ، وحضر عندهم فبايعهم ، وزال ما كان
فى نفسه .

(١) لجرير ، من قصيدة له فى ديوانه ١٦٠ - ١٦٦ ، يهجو فيها التيم ، قبيل عمر بن لُجَأ . وشهود ،
أى حاضرين .

فإن قلت : فهل كان يسوع لأبي بكر ، وقد رأى وثوب الأنصار على الأمر أن يؤخره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة ؟
قلت : إنه لم يلم أبا بكر بعينه ، وإنما تألم من استبداد الصحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته . ويجوز أن يكون أكثر تألمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد ، والتغلب .

[رسالة أبي بكر لعلي في شأن الخلافة ، رواية أبي حامد المروزي]

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المروزي العاصري فيما حكاه عنه أبو حيان التوحيدى ، قال أبو حيان : سمرونا عند القاضي أبي حامد ليلة ببغداد بدار ابن جیشان ، في شارع الماذيان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرف ، وكان والله معنا^(١) مزيلاً مخطئاً^(٢) عزيز^(٣) الرواية ، لطيف الدراية [له] في كل جو متنفّس ، وفي كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فركب كل منا فناً ، وقال قولاً ، وعرض بشيء ونزع إلى مذهب ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر إلى علي ، وجواب علي له ومبايعته إياه عقيب تلك الرسالة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، فقال : هي والله من دُرر الحقائق المصونة^(٤) ، ومخبّات الصناديق في الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظها ما رويتها إلا للمهلبى^(٥) في وزارته ، فكتبها عني في خلوة بيده ، وقال : لا أعرف في الأرض رسالة

(١) المعن : الخطيب المتصرف

(٢) يقال : رجل مزيبل مخطئ : أي فائق رائق .

(٣) في صبح الأعشى : « عزيز »

(٤) صبح الأعشى : « من بنات الحقائق » . ، والحقاق هنا : جمع حق ؛ بالضم ؛ وهو الوعاء .

(٥) صبح الأعشى : « لأبي محمد المهلبى »

أعقل منها ، ولا أئين ، وإنَّها لتدلّ على عِلْمٍ وحُكْمٍ ، وفصاحة وفقاهاة ، في دين ودهاء ،
وبعد غَوْر ، وشدة غَوْص .

فقال له واحدٌ من القوم : أيها القاضي ، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناها
عنك ؛ فنحنُ أَوْعَى لها من المهلبيّ ؛ وأوجب ذِمّاماً عليك .

فقال ^(١) : هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن
عُروة ، عن أبيه عُروة بن الزبير ، عن أبي عبيدة بن الجراح ^(٢) .

قال أبو عبيدة : لما استقامت الخِلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين
الوقار والهيبة - بعد هَنَةِ ^(٣) كادَ الشيطان بها يَسْرَ فدفع الله شرّها ، وأدحض عسرّها ،
فركد كَيْدَها ، وتيسّر خيرها ، وقصم ظهر النفاق والفسق بين أهلها - بَلَغَ أبا بكر عن عليّ
عليه السلام تلْكُوْ وشماس ، وتهْمُهُمْ ^(٤) ونَفَاسٌ ، فكرِه أن يتماذى الحال وتبدؤله العورة ،
وتتفرج ^(٥) ذاتُ البين ، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهل مغرور ، أو عاقل ذى دَهاء ،
أو صاحب سلامة ضعيف القلب ، خوَّار العنان ؛ دعاني في خلوة فحضرتّه ، وعنده عمر
وحده - وكان عمر قبساً له وظهيراً معه ، يستضيء بناره ، ويستملى من لسانه - فقال لى :

يا أبا عبيدة ، ما أَيْمَنَ ناصيتك ، وأَيْمَنَ الخيرَ بين عارضيك ! لقد كنتَ من رسول
الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والحلّ المغبوط ، ولقد قال فيك في يوم مشهود :
« أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، وطالما أعزّ الله الإسلام بك ، وأصلح ثَلَمه على يديك ،
ولم تزلْ للدين ناصراً وللمؤمنين رَوْحاً ، ولأهلك ركناً ، ولإخوانك مَرَدّاً ! قد أردتُك

(١-١) في صبح الأعشى : « حدثنا الحزاعي بمكة ، عن أبي ميسرة ، قال : حدثنا محمد بن أبي فليح ،
عن عيسى بن دأب المتاح ، قال : سمعت مولاى أبا عبيدة يقول : » .

(٢) صبح الأعشى : « بعد فتنة » .

(٣) همهم الرجل : تكلم كلاماً خفياً ، والنفاس : مصدر نفاس ؛ أى رغب في الشيء وفي نهاية الأدب
وصبح الأعشى : « تهيم »

(٤) نهاية الأرب : « وتفرق » .

لأمر له ما بعده؛ خطرُه^(١) مخوف ، وصلاحه معروف . ولئن لم يندمل جرحه بمسبارك^(٢) ورفقك ، ولم تجب حيمته^(٣) برقيتك ، فقد وقع اليأس ، وأعضل البأس ، واحتيج بعدك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامه على^(٤) يدك . فتأت^(٥) له يا أبا عبيدة ، وتلطّف فيه ، وانصح لله ورسوله ؛ ولهذه العصاة ، غير آل جهداً ، ولا قال حمداً ؛ والله كالكلك وناصرك ، وهاديك ومبصرك .

امض إلى عليّ ، واخفض جناحك له ، واغضض من صوتك عنده ؛ واعلم أنه سُلالة أبي طالب ؛ ومكانه ممن فقدناه بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبرّ مفرقة ، والجوّ أكلف ، والليل أغلف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحقّ عطوف رءوف ، والباطل نسوف عصوف ؛ والعجب مقدحة الشرّ ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار^(٦) الفتنة ، والقحة مفتاح العداوة ، والشیطان متكيّ على شماله ، باسط ليمينه ، نافج^(٧) حضنيه لأهله ؛ ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ،^(٨) عناداً لله ورسوله ولدينه ، يوسوس بالفجور^(٩) ؛ ويدلي بالغرور ، ويمني أهل الشرور ، ويوحى إلى أوليائه بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهدنا

(١) د : « خطرُه مخوف » . صبح الأعشى : « لأمر خطر مخوف » .

(٢) المسبار : الميل الذي يسير به الجرح . وفي صبح الأعشى : بمسارك .

(٣) الجب : القطع عامة

(٤) صبح الأعشى : « يديك »

(٥) تأت : تهيأ للأمر برفق وحسن حيلة . ، وفي ب : « تأن » .

(٦) الشجار : مركب أصغر من الهودج ، ضربه مثلاً .

(٧) في اللسان : « كل ما ارتفع فقد نفج وانتفج وتنفع ، ونفجه هو . . . ونفجت الشيء فانفج ، أي رفعت وعظمته . . . وفي حديث عليّ ناخاً حضنيه ، كنى به عن التعاضم والتكبر والخيالات » . والحضن : الجنب ؛ وهما حضنتان .

(٨-٨) صبح الأعشى : « عناداً لله عز وجل أولاً ، ولآدم ثانياً ، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ولدينه ثالثاً ؛ يوسوس بالفجور » .

آدم ، وعادة منه منذ أهانه الله في سالف الدهر ؛ لا يُنَجَّى^(١) منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء هامة عدو الله والدين بالأشد فالأشد ، والأجد فالأجد ، وإسلام النفس لله فيما حاز رضاه ، وجنب سخطه .

ولا بد من قول ينفع إذ قد أضر السكوت وخيف غبه ، ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافك من أحيا مودته لك بعتابك ، وأراد الخير بك من أثر البقيا معك .

ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ، ويدوى^(٢) به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص^(٣) دونه طرفك ، ويستشرى به ضغنك ، ويتراذّ معه نفسك ، ويكثر لأجله صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ! أعجمة بعد إفصاح ! ألبساً بعد إفصاح ! أدينا غير دين الله ! أخلّقا غير خلق القرآن ! أهديا غير هدى محمد ! أمثلي يمشي له الضراء ويدب له^(٤) الخمر ! أم مثلك ينعص عليه الفضاء ، ويكسف في عينه القمر ! ما هذه القعقة بالشنان^(٥) ، والوعوة باللسان ! إنك لجدّ عارف^(٦) باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا ، هجرة إلى الله ونصرة لدينه ، في زمان أنت منه في كنّ الصبا وخدر الغرارة ، غافل ، تُسبّب وتربّب ، لا تعي ما يُشاد ويراد ، ولا تحصل ما يساق ويقاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشكالك ، حتى بلغت إلى غايتك هذه التي إليها أجريت^(٧) ، وعندها حطّ رحلك ، غير مجهول القدر

(١) صبح الأعشى : « لا منجى »

(٢) دوى الصدر يدوى ؛ من باب علم : ضغن .

(٣) تخاوص : غض بصره عن الأمر شيئا .

(٤) مثل يضرب للرجل يختل صاحبه ويمكر به . ويقال : ماوارك من أرض فهو الضراء ، وماوارك من شجر فهو الخمر .

(٥) يقال فلان لا يقع له بالشنان ، أى لا يندع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع

(٦) صبح الأعشى : « إنك والله » .

(٧) صبح الأعشى : « التي إليها عدل بك » .

ولا مجحود الفضل ، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيلُ الرواسي ، ونقاسي أهوالاً
تُشيب النواصي ؛ خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، تتجرّع صابها ، ونُشرِجُ^(١) عيابها ،
ونُحكِمُ أساسها ، ونبرمُ أمراسها ، والعيون تحدّجُ^(٢) بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ،
والصدور تستعر بالغَيْظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والأسنة^(٣) تشدّ بالمكر ، والأرض
تميدُ بالخوف ، لا ننتظر عند المساء صباحاً ، ولا عند الصباح مساءً ، ولا ندفع في كَنحر أمر
إلا بعد أن نحسّو الموت دونه ، ولا نبليغ إلى شيء إلا بعد تجرّع العذاب قبله ، ولا نقوم
مناداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده ، فادين في كل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب
والأم ، والخال والعَم ، والمال والنسب ، والسبَد^(٤) واللبد ، والهلة والبلة^(٥) ، بطيب أنفس
وقرّة أعين ، ورُحْب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة ألسن .
هذا إلى خبيثات أسرار ، ومكنونات أخبار كُنت عنها غافلاً ، ولو لاسنك لم تكُ عن شيء
منها ناكلاً . كيف وفؤادك مشهُوم^(٦) وعودك معجوم ، وغيبك مخبور ، والخير منك
كثير ! فالآن قد بلغ الله بك ، وأرهص^(٧) الخير لك ، [وجعل مرادك بين يديك^(٨)] ،
فاسمع ما أقول لك^(٩) ، واقبل ما يعودُ قبوله عليك^(١٠) ، ودع التجبّس والتعبّس^(١١)

(١) أشرح العيبة : شد عراها .

(٢) تحدج : تحدق .

(٣) صبح الأعشى : « والشفار » .

(٤) في اللسان : « السبد : الوبر ، وقيل : الشعر ؛ والعرب تقول : « ماله سبد ولا لبد » ، أى ماله ذو
وبر ولا صوف متلبد ؛ يكنى بهما عن الإبل والغنم ، وقيل : يكنى به عن المنز والضأن . . . وقال الأصمعي :
ماله سبد ولا لبد ، أى ماله قليل ولا كثير » .

(٥) في اللسان : « ماجاء بهلة ولا بلة ؛ الهلة من الفرح والاستهلال ، والبلة : أدنى بلل من الخير ،
وحكاها كراع جميعاً بالفتح . ويقال : ما أصاب عنده هلة ولا بلة ، أى شيئاً » .

(٦) مشهُوم ، أى ذكى متوقد .

(٧) أرهص الخير لك : هياه ، وجعله دانياً منك .

(٨) من صبح الأعشى .

(٩) في صبح الأعشى : « وعن علم أقول ما تسمع » .

(١٠) في صبح الأعشى : « فارتقب زمانك ، وقلص أردانك » .

(١١) نهاية الأرب : « التقاعس » .

لمن لا يضلّع^(١) لك إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غضّ ، وفي النفوس مَضّ ، وأنت أديمُ هذه الأمة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحلُ أجاجا ، والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا لمن هو؟ فقال : هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يحاحش^(٢) عليه ، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمخ^(٣) إليه ، وهو لمن يقال له : هولك ، لا لمن يقول : هولى .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصّهر ، فذكر فتيانا من قريش ، فقلت له : أين أنت من علىّ ! فقال : إني لأكره لفاطمة مِيعَةَ شِبابه^(٤) ، وحِدَّةَ سنّه . فقلت : متى كنفته يدك ، وزعته عينك ، حفت بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك ، وما كنتُ عرفتُ منك فى ذلك حَوَجاء ولا لَوَجاء^(٥) ؛ ولكنى قلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة سواك ، وكنتُ لك إذ ذاك خيراً منك الآن لى . ولئن كان عرض بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فقد كنى عن غيرك^(٦) ، وإن قال فيك ، فما سكت عن سواك ، وإن اختلج فى نفسك شىء ، فلهمّ فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ، والحق مُطاع .

ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما عند الله^(٧) وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَديب ، يسره ماسرّها ، ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويسخطه

(١) الضلع : الاعوجاج ، وفى صبح الأعشى ونهاية الأرب : « يظلم » .

(٢) يحاحش ، أى يدفع الناس عنه ليختص به لنفسه .

(٣) صبح الأعشى : « يتنفج إليه » . وفى نهاية الأرب : « يتنفج »

(٤) مِيعَةُ الشباب : أوله .

(٥) فى اللسان : « الحوجاء : الحاجة ، ويقال : مافى صدرى به حوجاء ولالوجاء ، ولاشك ولا مرية بمعنى واحد » .

(٦) صبح الأعشى ونهاية الأرب : فلم يكن معرضاً عن غيرك » .

(٧) صبح الأعشى : « إلى الله عز وجل » .

ما أسخطها. ألم تعلم^(١) أنه لم يدع أحداً من أصحابه وخلطائه ، وأقاربه وسجرائه^(٢) ؛ إلا أبانه بفضيلة ، وخصه بمزية ، وأفرده بحالة ، لو أصفقت الأمة عليه لأجلها لكان عنده إيالتها وكفالتها .

أظن أنه عليه السلام ترك الأمة سدى^(٣) بدداً ، عدداً^(٤) مباهل عباهل^(٥) طلاحى^(٦) مفتونة بالباطل ، ملوية^(٧) عن الحق ؛ لا ذائد ولا رائد ، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط ، ولا ساقى ولا واقى ، ولا حادى ولا هادى ، كلاً والله ما اشتاق إلى ربه ، ولا سأل المصير إلى رضوانه ، إلا بعد أن أقام الصوى ، وأوضح الهدى ، وأمن المهالك^(٨) وحى المطارح والمبارك . وإلا بعد أن شذخ يافوخ الشرك بإذن الله ، وشرم وجه التفاق لوجه الله ، وجدع أنف الفتنة في دين الله ، وتقل في عين الشيطان بعون الله ؛ وصدع بملء فيه ويده بأمر الله .

وبعد ؛ فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة ، ودار واحدة ، إن استقادوا لك^(٩) وأشاروا بك ، فأنا واضع يدي في يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ؛ وإن تكن الأخرى ، فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والفتاح لمغالقتهم ، والمرشد لضالهم ، والرادع لغاويهم ؛ فقد أمر الله بالتعاون على البر ، وأهاب إلى التناصر على الحق . ودعنا نقض هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل ، ونلقى الله بقلوب سليمة من الضغن .

(١) صبح الأعشى : « أما تعلم »

(٢) السجراء : جمع سجير ، وهو الصديق .

(٣) سدى : مهملون .

(٤) بددا : متفرقون ، وعدا : متباعدون .

(٥) عباهل مباهل : مهملون أيضاً .

(٦) الطلاحى : الإبل التى تشكو بطوناً من أكل الطلح ؛ أراد به هاهنا القوم الذين لا راعى لهم يصدحهم عما يضرهم .

(٧) صبح الأعشى : « مغبونة » .

(٨) صبح الأعشى : « وأمن المسالك » .

(٩) صبح الأعشى : « إن استقالوني لك ، وأشاروا عندى بك » .

وإنما الناس ^(١) ثمانية ^(٢) فارق بهم، واحن عليهم، ولن لهم، ولا تسول لك نفسك فرقتهم، واختلاف كلمتهم؛ واترك ناجم الشر حصيدا، وطائر الحقد واقعا، وباب الفتنة مغلقا، لا قال ولا قيل، ولا لوم ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل؛ وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيأت للنهوض، قال لي عمر: كن على الباب هنيئة فلي معك ذرو ^(٣) من الكلام. فوقفت وما أدري ما كان بعدى، إلا أنه لحقني بوجه يندى تهلا، وقال لي: قل لعل: الرقاد محجمة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، ومامنا أحده إله مقام معلوم، وحق مشاع أو مقسوم، وبناء ظاهر أو مكتوم؛ وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألغا، وقارب البعيد تلطفًا، ووزن كل أمر بميزانه، ولم يجعل خبره كهيانه، ولا قاس فتره بشبهه؛ دينًا كان أو دنيا، وضلالا كان أو هدى، ولا خير في علم معتمل ^(٤) في جهل، ولا في معرفة مشوبة بنكر، ولسنا كجلدة رُفِعَ البعير بين العجان وبين الذنب ^(٥)، وكل صال فبناره يصلي؛ وكل سيل فإلى قراره يجري. وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لعل وحصر، ولا كلامها اليوم لفرق أو حذر، فقد جدد الله بمحمد عليه السلام أنف كل متكبر، وقصم به ظهر كل جبار، وسل لسان كل كذوب؛ فماذا بعد الحق إلا الضلال! ماهذه الخنزوانة ^(٦) التي في فراش رأسك؟ وما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوحرة ^(٧) التي أكلت شر أسيفك ^(٨)، والقذاة التي أعشت ناظرك؟ وما هذا الدحس ^(٩)

(١) صبح الأعشى: «وبعد فإنما الناس».

(٢) الثمانية: واحد الثماني، نبت ضعيف، يضرب به المثل لما هو هين.

(٣) ذرو من الكلام: طرف منه، وفي صبح الأعشى: «دور» تحريف.

(٤) صبح الأعشى ونهاية الأرب: «مستعمل».

(٥) الرفغ: أصول الفخذين من باطن.

(٦) الخنزوانة: الكبر.

(٧) الوحرة: العداوة؛ وأصلها دويبة يشبه بها.

(٨) الشر أسيف في الأصل: جمع شرسوف، وهو غضروف معلق بكل ضلع، مثل غضروف الكتف.

(٩) الدحس: التدسيس في الأمر.

والدسّ اللذان يدلّان على ضيق الباع ، وخور الطباع ! وما هذا الذي لَبِست بسببه جِلْدَ النَّمِر ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر ! لشدّ ما استسعيت لها ، وسريت سُرى ابن أنفد^(١) إليها ؛ إنّ العوان لا تعلم^(٢) الخِمرة . ما أحوج الفرعاء إلى فالية ، وما أفقر الصلعاء إلى حالية ، ولقد قبضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبّد^(٣) مخيّسٌ ، ليس لأحدٍ فيه ملمس ، لم يسيّر فيك قولاً ، ولم يستنزل لك قرآناً ، ولم يجزم في شأنك حكماً ؛ لسنّا في كسروية كسرى ، ولا قيصرية قيصر ؛ [تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جزراً لسيوفنا ، ودرية لرمحنا ، ومرمى لطعاننا ! بل]^(٤) نحن في نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثمره حكمة وأثر رحمة ؛ وعنوان نعمة ، وظلّ عصمة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرّيق والفتق ؛ لها من الله تعالى قلب أبيّ ، وساعد قوى ، ويد ناصرة ؛ وعين ناظرة .

أنظنّ ظناً أن أبا بكر وثبّ على هذا الأمر مُفتاتاً على الأُمّة ، خادِعا لها ، ومتسلّطا عليها ! أتراه امتلخ أحلامها^(٥) ، وأزاع أبصارها ، وحلّ عقودها ، وأحال عقولها ، واستلّ من صدورها حميتها ، وانتكث رشاءها ، وانتضبّ ماءها ، وأضلّها عن هداها ، وساقها إلى رداها ، وجعل نهارها ليلاً ، ووزنها كيلاً ، ويقظتها رقاداً ، وصلاحها فساداً ! إن كان هكذا ، إنّ سحره لمبين ، وإن كيد لمبين . كلاً والله ، بأى خيل ورجل ، وبأى سنان ونصل ، وبأى مُنة وقوّة ، وبأى مال وعدّة ؛ وبأى أيدٍ وبشدة وبأى عشيرة وأسرة ، وبأى قدرة ومُكة ، وبأى تدرّع وبسطة ! لقد أصبح بما وسمته منيع الرّقبة ، رفيع العتبة . لا والله لكن سلا عنها فولت نحوه ، وتطامن لها فالتفت به ، ومال عنها ، فالت إليه ، واشمأز^(٦) دونها فاشتملت عليه ؛ حبوة حباه الله بها ، وغاية بلّغه الله إليها ، ونعمة سربله جمالها ، ويدّ الله أوجب عليه شكرها ، وأمة نظر الله به

(١) ابن أنفد : القنفذ

(٢) إنّ العوان لا تعلم الخِمرة ، مثل ، والعوان : المرأة التي أسنت ولما تهرم .

(٣) المعبد : المذل ؛ ومثله المخيّس .

(٤) تكملة من صبح الأعشى .

(٥) امتلخ أحلامها : اجتنبها ؛ يريد أمال عقولها نحوه . (٦) اشمأز : انقبض .

لها^(١) . وطالما خلقت فوقه في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لفتها ، ولا يرتصد وقتها ؛ والله أعلم بخلقها ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، وكهف الحكمة ؛ ولا يحدد حقلك فيما أتاك ربك من العلم ، ومنحك من الفقه في الدين ؛ هذا إلى مزايا خُصِّصَتْ بها ، وفضائل اشتملت عليها ؛ ولكن لك^(٢) مَنْ يزاحمك بمنكب أضخم من منكبك ، وقُرْبى أَمْسٍ مِنْ قُرْبائك ، وسنٍّ أعلى من سنِّك ، وشيئة أروع من شيبتك^(٣) ، وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية^(٤) ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ، ولا تذكر فيها في مقدمة ولا ساقية ، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تعد^(٥) منها بيازل ولا هُبع^(٥) .

إن أبا بكر كان حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقة^(٦) همة ، وعينية سره ، ومثوى حزنه ، وراحة باله ، ومرموق طرفه^(٧) ؛ شهرته مغنية عن الدلالة عليه^(٨) ولعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقرب منك قرابة ، والقرابة لحم ودم ، والقرابة رُوح ونفس ، وهذا فرق يعرفه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون .

ومهما شككت فلا تشك في أن يد الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غدا ، والفِظْ مِنْ فَيْك ما هو متعلق^(٩) بلكهاتك ، وانفث

(١) صبح الأعشى : « إليها » .

(٢) في الأصول : « كل » ، وأثبت ما في صبح الأعشى .

(٣-٣) صبح الأعشى : « وسيادة لها أصل في الجاهلية وفرع في الإسلام » .

(٤) صبح الأعشى : « ولا تخرج منها » .

(٥) البازل من الإبل : ما دخل في التاسعة . والهبع : البعير يفتج في الصيف ؛ يريد : ليس لك فيها شيء .

(٦) صبح الأعشى : « علاقة نفسه » .

(٧) بعدها في صبح الأعشى : « وذلك كله بمحض الصادق والوارد من المهاجرين والأنصار » .

(٨) صبح الأعشى : « الدليل » .

(٩) صبح الأعشى : « يعلق » .

سَخِيمة صدرك ، فإن يكن في الأمد طول ، وفي الأجل فسحة ، فستأكله مريئاً أو غير مريئاً ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيئاً ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعاً فيك ، حين يُمضّ إهابك ، ويفرّى أديمك ، ويزرى على هذيك ، هناك تقرّع السنّ من ندم ، وتشرب الماء ممزوجاً بدم ، حين ^(١) تأسى على ماضى من عمرك ، وانقضى وانقرض من دارج قومك ؛ وتودّ أن لو سُقيت بالكأس التي سقيتها غيرك ، ورُدّدت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمسك ، والله فينا وفيك أمر هو بالغه ، وعاقبة هو المرجو لسرّائها وضرّائها ، وهو الوليّ الحميد الغفور الودود .

قال أبو عبيدة : فمُشيت إلى علىّ مَثْبِطاً متباطئاً ، كأنما أخطو على أمّ رأسى فرّقا من الفتنة ، وإشفاقاً على الأمة ، وحذراً من الفرقة حتى وصلت إليه في خلاء فأبشّثته بِنِعْ كَلِّهِ ، وبرئت إليه منه ، ودفعته له . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في أوصاله حُمَيّاها قال : حلّت معلوطة ، وولّت مخروطة ^(٢) ، ثم قال :

إِخْدَى لِيَالِيكَ فِيهِسَى هَيْسَى لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ ^(٣)

يأبأ عبيدة ، أهذا كَلِّهِ في أنفُس القوم يستبطنونه ^(٤) ويضطغنون عليه ! فقلت : لا جواب عندي ، إنّما جئتُك قاضياً حقّ الدين ، ورائقاً فتق الإسلام ^(٥) ، وسادّاً ثُلْمَةِ الأمة ؛ يعلم الله ذلك من جلبلان ^(٦) قاي ، وقرارة نفسى .

(١) صبح الأعشى : « حينئذ » .

(٢) المعلوطة : من الاعلواط ؛ وهو ركوب الرأس ، والتفجّع على الأمور من غير روية ، والمخروطة : السريعة .

(٣) في اللسان ٨ : ١٣٩ : « الهيس : السير ؛ أى ضرب كان ، وهاس يهيس هيسا : سار أى سير كان ؛ حكاه أبو عبيدة » ، وروى البيت .

(٤) صبح الأعشى : « ويمسّون به » .

(٥) صبح الأعشى : « المسلمين » .

(٦) الجلبلان : حبة القلب .

فقال : ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصداً لخلاف ، ولا إنكاراً لمعروف ، ولا زراية على مسلم ، بل لما وقّدتني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده ، فإني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً ، وذكرني شجناً ؛ وإنّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق منه ؛ رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلم لعلمه ومشيتته أمره ؛ على أنّي أعلم أنّ التظاهر علىّ واقع ، ولي عن الحق الذي سيق إلىّ دافع ، وإذ قد أفعمّ الوادي لي ، وحشد النّادى عليّ ؛ فلا مرحبا بما ساء أحداً من المسلمين ؛ وفي النفس كلام لولا سابق قول ، وسالف عهد ، لشفيت غيظي بخنصري وبنصري ، وخضت لجنته بأخصي ومفرقي ، ولكنتي ملجئاً إلى أن ألقى الله تعالى ، عنده أحتسب ما نزل بي ، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ؛ وصابر على ماساءني وسرّكم ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، وكان الله على كل شيء شهيداً .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر وعمر ، فقصصتُ القول على غرّه ، ولم أترك شيئاً من حلوه ومُمرّه ، ذكرت ^(١) غدوّه إلى المسجد ؛ فلما كان صباح يومئذ ^(٢) وافى عليّ ، فخرق الجماعة إلى أبي بكر وبايعه ^(٣) ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زميناً ^(٤) ، واستأذن للقيام ونهض ، فتبعه عمر إكراماً له ، وإجلالاً لموضعه ، واستنباطاً ^(٥) لما في نفسه ، وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده ، وقال : إنّ عصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة ، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ، نخاف الله إذا سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا أنّي شدّدت لما أجبت إلى مادعيت إليه ، ولكنتي خفت

(١) صبح الأعشى ، : « وبكرت » .

(٢-٢) صبح الأعشى : « وإذا على مخرق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فبايعه » .

(٣) صبح الأعشى : « زميناً » ، أي حليماً وقوراً .

(٤) صبح الأعشى : « مستأثراً لما عنده » .

الفرقة ، واستثنى الأنصار بالأمر على قریش ، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك ، ولقد حطَّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به ، وما أسعد^(١) من ينظر الله إليه بالكفاية ! وإنا إليك لمحتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهديك في جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك معولون . ثم انصرف وتركه مع عمر .

فالتفت على إلى عمر فقال : يا أبا حفص ، والله ما قعدت عن صاحبك جزعاً على ماصار إليه ، ولا أتيت خائفاً منه ، ولا أقول ما أقول بعلّة^(٢) ، وإني لأعرف مسمى طرفي ومخطئي^(٣) قديمي ، ومنزع قوسي ، وموقع سهمي ؛ ولكنني تخلفت إغذاراً إلى الله ، وإلى من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله ؛ وأتيت فبايعت ، حفظاً للدين ، وخوفاً من انتشار أمر الله .

فقال له عمر : يا أبا الحسن ، كيف من غر بك ، ونهني^(٤) من شرّتك ، ودع العصا بلحائها ، والدلو برشائها ، فإننا من خلفها وورائها . إن قدحنا أوريثنا ، وإن متحنا أروينا ، وإن قرحنا أدمينا ، وقد سمعت أمثالك التي ألغزت بها صادرة عن صدر ديو ، وقلب جويّ زعمت أنك قعدت في كسر بيتك لِمَا وَقَدَّكَ به فراق رسول ؛ أفراق رسول الله صلى الله عليه ، وَقَدَّكَ وحدك ولم يقذ سواك ! إن مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك ، وإن من حق مصابه ألا تصدع شمل الجماعة بكلمة لأعصام لها ، فإنك لترى الأعراب حول المدينة لو تداعت علينا في صبح يوم لم نلتقي في ممساة . وزعمت أن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن انطمع في غيره ، فمن الشوق إليه نصرته دينه ، وموازرة المسلمين عليه ، ومعاونتهم فيه .

(١) كذا في د ، وفي ب : « أسد » .

(٢) صبح الأعشى : « تعله » .

(٣) صبح الأعشى : « منتهى طرفي ومخط قديمي » .

(٤) صبح الأعشى : « واستوقف من سربك » .

وزعمت أنك مكبٌّ على عهد الله تجمع ما تفرق منه ، فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده ، والرأفة على خلقه ، وأن تبدل من نفسك ما يصلحون به ويجمعون عليه . وزعمت أن التظاهر عليك واقع ؛ أي تظاهر وقع عليك ! وأي حق استؤثر به دونك ! لقد علمت ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهراً ، وما تقلبت عليه ظهرا وبطنا ، فهل ذكرتك أو أشارت بك ، أو طلبت رضاها من عندك ! وهؤلاء المهاجرون ؛ من الذي قال منهم إنك صاحب هذا الأمر ، أو أوماً إليك ، أو همهم بك في نفسه ! أتنظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، أو عادوا كفاراً زهداً فيك ، أو باعوا الله تعالى بهوهم بغضاً لك !^(١) ولقد جاءني قوم من الأنصار ، فقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة^(٢) ، ويزعم أنه أولى بها من أبي بكر ، فأنكرت عليهم ، ورددت القول في نحورهم ، حتى قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكف^(٣) مناجاة الملك ! فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد محمد عليه السلام .

ومن أعجب شأنك قولك : « لولا سابق قول لسفيت غيظي بخنصرى وبنصرى » ! وهل ترك الدين لأحدٍ أن يشفي غيظه بيده أو لسانه ! تلك جاهلية استأصل الله شأقتها ، واقتلع جراثيمها ، ونور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ؛ والهذى والبرهان !

وزعمت أنك ملجم ، فلعمري إن من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ، وغلب عقله ودينه على هواه .

وأما قولك : « إني لأعرف منزع قوسى » ، فإذا عرفت منزع قوسك عرف غيرك مضرب سيفه ، ومطعن رحه . وأما ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فتخلقت إغذاراً إلى الله ، وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون

(١-١) صبح الأعشى : « لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ، ومعه شرحبيل بن يعقوب الخزرجي ، وقالوا : إن علياً ينتظر الإمامة » . (٢) يتوكف : ينتظر .

لجنحوا إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمّعهم على العمى ، ولا ليضرّ بهم بالضلال بعد الهدى ، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ؛ فرأى اجتماع أمته على أبي بكر ، لما سقه آراءهم ، ولا ضلل أحلامهم ، ولا آترك عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولأمرّك باتباعهم ، والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم .

فقال عليّ : مهلاً أبا حفص أرشدك الله ! خفّض عليك ، ما بذلت ما بذلت وأنا أريد عنه حوَّلاً ، وإنّ أخسرّ الناس صفقة عند الله من استبطن النفاق ، واحتضن الشقاق ، وفي الله خلف عن كلّ فائت ، وعوّض من كلّ ذاهب ، وسلوة عن كلّ حادث ، وعليه التّوكّل في جميع الحوادث . ارجع أبا حفص إلى مجلسك ناقع القلب ، مبرود الغليل ، فصيح اللسان ، رحب الصدر ، متهلّل الوجه ، فليس وراء ماسمعه منى إلا ما يشدّ الأزر ، ويحبط الوزر ، ويضع الإضر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، إن شاء الله .

فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلساً كان أصعب من ذلك الكلام والمجلس^(١) .

قلت : الذي يغلب على ظني أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّ مصنوع موضوع ، وأنّه من كلام أبي حيان التّوحيدى ، لأنّه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه ، وقد حفظنا كلام عمر ورسائله ، وكلام أبي بكر وخطبه ، فلم نجد ما يذهبنا هذا المذهب ، ولا يسلكنا هذا السبيل في كلامهما ، وهذا كلام عليه أثر التّوليد ليس يخفى ، وأين أبو بكر وعمر من البديع وصناعة المحدثين ! ومن تأمل كلام أبي حيان عرف أنّ

(١) الخبر في صبح الأعشى ١ : ٢٣٧ - ٢٤٧ ونهاية الأرب ٧ : ٢١٣ - ٢٢٩ ، ومحاضرة الأبرار ٢ : ١٠٢ - ١١٥ ، ونشره إبراهيم الكيلاني مع رسالتين لأبي حيان في دمشق ١٩٥١ .

هذا الكلام من ذلك المعدن خرج ؛ ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المروروذى^(١) ؛ وهذه عادته في كتاب ” البصائر “ ، يسند إلى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه ، إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه ، وإنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب ، لأنه وإن كان عندنا موضوعاً منحولاً ، فإنه صورة ما جرت عليه حال القوم ، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال ، فقد نطقوا به بلسان الحال .

ومما يوضح لك أنه مصنوع ، أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث ، وكل من صنف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحدهم كلمة واحدة من هذه الحكاية ، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقط من كلام أمير المؤمنين عليه السلام اللفظة الشاذة ، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام ، في معرض التألم والتظلم ، فيحتج بها ، ويعتمد عليها ، نحو قوله : « ما زلت مظلوماً مذقبض رسول الله حتى يوم الناس هذا » .

وقوله : « لقد ظلمت عدد الحبر والمدر » .

وقوله : « إن لنا حقاً إن نعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل ، وإن طال السرى » .

وقوله : « فصبرت وفي الخلق شجاً ، وفي العين قذى » .

وقوله : « اللهم إني أستعديك على قریش فإنهم ظلموني حتى ، وغصبوني إرثي » .

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه ، فكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه ، فأين كان المرتضى عن هذا الحديث ! وهلا ذكر في كتاب ” الشافي في الإمامة “ ،

(١) هو أحمد بن عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المروروذى ؛ أحد فقهاء الشافعية ؛ ترجم له ابن خلدون ١ : ١٨ ، ١٩ توفي سنة ٣٦٢ .

كلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا ، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان ، وبنى نوبخت ، وبنى بابويه وغيرهم ، وكذلك مَنْ جاء بعده من متأخري متكلمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى وقتنا هذا ! وأين كان أصحابنا عن كلام أبي بكر وعمر له عليه السلام ! وهلا ذكره قاضي القضاة في " المغنى " مع احتوائه على كل ما جرى بينهم ، حتى إنه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة ! وهلا ذكره مَنْ كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا وَمَنْ جاء بعده من متكلمينا ورجالنا ! وكذلك القول في متكلمي الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلاني وغيره ، وكان ابن الباقلاني شديداً على الشيعة ، عظيم العصبية على أمير المؤمنين عليه السلام ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث ملأ الكتب والتصانيف بها ، وجعلها هجيراً ودأبه .

والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ، ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السيرة ، وأقل أنس بالتواريخ .

قوله عليه السلام : « مودّع لا قال ولا مبعوض ولا سَم » ، أى لا ملول ، سُمّت من الشيء أسام أساماً وساماً وسامة ، سُمّته إذا ملّته ، ورجل سُؤوم .

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى ، فقال : « إن انصرفتُ فلا عن ملالة ، وإن أقمتُ فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد الله الصابرين » ، أى ليست إقامتى على قبرك وجزعى عليك ، إنكاراً منى لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّى والتأسى ، وما وعد الله به الصابرين من الثواب ، بل أنا عالم بذلك ، ولكن الجزع يغلبنى بالطّبع البشرى .

وروى أن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلمها الحسن

ابن الحسن عليه السلام سنة ، فلما انتقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها ،
فسمعت هاتفا يقول : هل بلغوا ما طلبوا ! فأجابه هاتف آخر ، بل يئسوا فانصرفوا .
وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه ” الكامل “ ، أن عليا عليه السلام
تمثّل عند قبر فاطمة :

ذكرت أبا أرؤى فبتّ كأنني بردّ الهموم الماضيات وكيل^(١)
لـكلّ اجتماع من خيلين فرقة وكلّ الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ دليلٌ على ألا يدوم خليل

والناس يروونه :

* وإن افتقادي فاطما بعد أحمد *

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
وبليه الجزء الحادي عشر

(١) الكامل ٤ : ٣٠ (طبعة نهضة مصر) ، ولم يذكر هناك البيت الأول .

فهرس الموضوعات

الصفحة

- ٣ ١٧٥ - ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله
٩-٥ ذكر ما كان من أمر طلحة مع عثمان
- ١٠ ١٧٦ - من خطبة له عليه السلام في خطاب الغافلين
١١-١٠ فصل في ذكر بعض أقوال الغلاة في علي
١٥-١٣ جملة من أخبار علي بالأمور الغيبية
- ١٧٧ - من خطبة له عليه السلام يحذر فيها من متابعة الهوى ، ثم يبين منزلة
٣٣-١٦ القرآن ويطلب متابعته ، ثم يبحث على الطاعة وحفظ اللسان
٢٤-٢٠ فصل في القرآن وذكر الآثار التي وردت بفضل
٣٧-٣٥ فصل في الآثار الواردة في شديد عذاب جهنم
٤٢-٣٧ فصل في العزلة والاجتماع وما قيل فيهما
٥٤-٤٢ فوائد العزلة
- ٥٥ ١٧٨ - ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكيم
٥٧-٥٦ كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مصر
- ١٧٩ - ومن خطبة له عليه السلام يمجّد الله ثم يحذر من الدنيا ، ويذكر
٦١-٥٨ أن زوال النعم من سوء الفعال
- ١٨٠ - ومن كلام له عليه السلام في تنزيه الله سبحانه ، وقد سأله ذهب
٦٤ اليماني : هل رأيت ربك ؟

الصفحة

- ٦٧ ١٨١ - ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه
- ٧٤ ١٨٢ - ومن كلام له عليه السلام في ذم قوم نزعوا للحاق بالخوارج
- ١٨٣ - من خطبة له في تنزيه الله وذكر آثار قدرته ، ثم التذكير بما نزل
بالسابقين ؛ ثم أظهر أسفه على إخوانه الذين قتلوا بصفين ؛ مع ذكر
بعض أوصافهم
- ١٠٠-٧٦ نوف البكالى
- ٧٧-٧٦ نسب جمعة بن هيرة
- ٧٩-٧٧ نسب العمالة
- ٩٤-٩٣ نسب عاد وعمود
- ٩٤ نسب الفراعنة
- ٩٤ نسب أصحاب الرس
- ٩٥-٩٤ عمار بن ياسر ونبد من أخباره
- ١٠٧-١٠٢ ذكر أبي الهيثم بن التيهان ، وطرف من أخباره
- ١٠٨-١٠٧ ترجمة ذي الشهادتين ، خزيمه بن ثابت
- ١٠٩-١٠٨ ذكره سعد بن عبادة ونسبه
- ١١٢-١١١ ذكر أبي أيوب الأنصاري ونسبه
- ١١٢ ١٨٤ - من خطبة له عليه السلام في تعظيم الله وتمجيده ، وذكر القرآن
وما احتوى عليه ، ثم بيان منزلة الإنسان في الدنيا والتخويف
من عذاب الآخرة
- ١٢٣-١١٣ نبذ وأقاويل في التقوى
- ١٢٢-١٢١ طرف وأخبار
- ١٢٦-١٢٥ خطبة لأبي الشحماء العسقلاني
- ١٢٧-١٢٦ رأى للمؤلف في كتاب نهج البلاغة
- ١٢٩-١٢٨

١٣٠	١٨٥ - من كلام له في ذم البرج بن مسهر الطائي
١٤٩-١٣٢	١٨٦ - من كلام له عليه السلام في وصف المتقين
١٣٨-١٣٦	فصل في فضل الصمت والاقتصاد في النطق
١٤١-١٣٨	ذكر الآثار الواردة في آفات اللسان
١٤٧-١٤٦	ذكر الخوف وما ورد فيه من الآثار
١٦١	ذكر بعض أحوال العارفين
١٦٤-١٦٣	١٨٧ - من خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين
١٧١-١٧٠	١٨٨ - من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وذكر بعض صفاته
١٧٦	١٨٩ - من خطبة له عليه السلام يعظ فيها الناس ويحث على العمل الصالح قبل فوات الأوان
١٧٩-	١٩٠ - من خطبة له عليه السلام يذكر فيها بعض مواقفه من الرسول صلى الله عليه وسلم
١٨٦-١٨٣	ذكر خبر موت الرسول عليه السلام
١٩٩-١٨٨	١٩١ - من خطبة له عليه السلام فيها تمجيد الله وتعظيم له ؛ وحث للناس على التقوى ووصف للإسلام وحال الناس قبل البعثة
١٩٨-١٩٥	اختلاف الأقوال في عمر الدنيا
٢٠٣-٢٠٢	١٩٢ - ومن كلام له عليه السلام يوصي أصحابه
٢٠٨-٢٠٥	فصل في ذكر الآثار الواردة في الصلاة وفضلها
٢١٠-٢٠٨	ذكر الآثار الواردة في فضل الزكاة والتصدق
٢١١	١٩٣ - ومن كلام له عليه السلام في شأن معاوية
٢٢٣-٢١٢	سياسة على وجريها على سياسة الرسول عليه السلام

صفحة

- ٢٢٧-٢٢٣ كلام أبي جعفر الحسنى فى الأسباب التى أوجبت محبة الناس لعلى
- ٢٣١-٢٢٧ سياسة على وإيراد كلام للجاحظ فى ذلك
- ٢٦٠-٢٣٢ ذكر أقوال من طعن فى سياسة على والرد عليها
- ١٩٤ - من كلام له عليه السلام ؛ فى الوعظ ، وفيه استطراد لقصة صالح
- ٢٦١ عليه السلام وشمود
- ٢٦٤-٢٦٢ قصة صالح وشمود
- ١٩٥ - من كلام له عليه السلام عند دفن سيدة النساء فاطمة
- ٢٦٥ عليها السلام
- ٢٨٨-٢٧١ رسالة أبى بكر لعلى فى شأن الخلافة رواية أبى حامد المروروذى

